

الفائزة بجائزة البوليتزر
مؤلفة رواية «الحسون»

التاريخ السري



دونا تارت

«رواية ذكية، مكتوبة بحرفية وساحرة بشدة»

التأثير

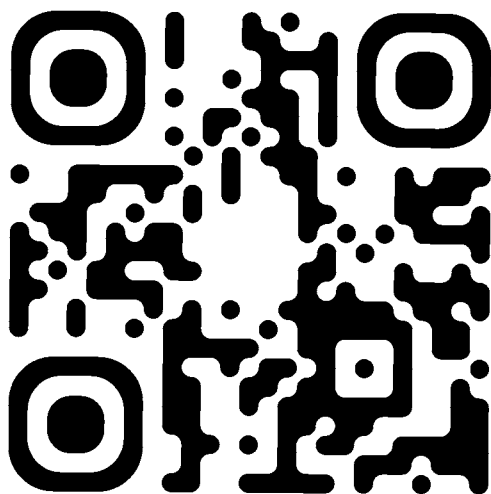
ترجمة: د. محمد نجيب

مكتبة

kalemat

الكتاب كامل

إهداء لـ..
من سألوا متى ؟
ف قيل إن التاريخ سري



سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة

SCAN QR

التاريخ السّري
The Secret History



التاريخ السري

The Secret History

دونا تارت

Donna Tartt

ترجمة: محمد نجيب

دار كلمات للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني:

Dar_Kalamat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www.kalamat.com

المملكة العربية السعودية

مكتبة الملك فهد الوطنية

رقم الإيداع: 1445/21607

ردمك: 978-603-05-0441-1

مكتبة

t.me/soramnqraa

1 11 2025

التاريخ السري

The Secret History

رواية

دونا تارت
Donna Tartt

ترجمة:
محمد نجيب

2025

مكتبة
t.me/soramnqraa

kalemat

عن المؤلفة

دونا تارت، الكاتبة الأمريكية البارعة، حظيت بإشادة نقدية وجماهيرية استثنائية على رواياتها التي تُرجمت إلى أكثر من أربعين لغة. نشرت روايتها الأولى «التاريخ السري» العام 1992، وسرعان ما تصدرت قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، محققة نجاحاً منقطع النظير قلما يحققه كاتب في عمله الأول. وفي العام 2003، نالت جائزة دبليو إتش سميث الأدبية عن روايتها الثانية «الصديق الصغير» التي كانت أيضاً ضمن الترشيحات لجائزة المرأة في الأعمال الأدبية.

وفي العام 2013، تُوّجت مسيرتها الأدبية بحصولها على جائزة البوليتزر وميدالية أندرو كارنيجي عن روايتها الثالثة «الحسون». يرى كثير من النقاد دونا تارت هي «تشارلز ديكنز العصر»، للتشابه الواضح بين أسلوبيهما الأدبي. لا تخلو أيّ قائمة لأعظم الكتاب الأمريكيين المعاصرين من اسمها كمرشحة بارزة لجائزة نوبل في الأدب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

نبذة عن التاريخ السري

تحت إشراف أستاذ الكلاسيكيات الإغريقية الأسر، تكتشف مجموعة من الطلاب المنعزلين وغربي الأطوار في كلية نيو إنجلاند المرموقة فلسفةً جديدة للحياة، تنقلهم إلى عالم بعيد عن الرتابة التي يعيشها معاصروهم. لكن، عندما يتجاوزون حدود الأخلاق المتعارف عليها، تنقلب حياتهم رأسًا على عقب إلى الأبد، ليواجهوا حقيقة مريرة: كم هو صعب العيش حقًا، وكم هو سهل ارتكاب القتل.

رواية «التاريخ السري» هي مزيجٌ ساحرٌ؛ جزء من الإشارة والتشويق، وجزء من قصة نضوج في إطار الحياة الجامعية، وجزء من تراجيديا إغريقية معاصرة. تفتتح الرواية بإحدى أشهر البدايات في الأدب: «بدأ الثلج يذوب في الجبال، ومرت أسابيع على موت باني قبل أن ندرك حجم الكارثة التي وقعنا فيها...»، ومن هذا الاستهلال المشؤوم، نعلم أن الراوي ريتشارد بيبين وأصدقائه قد ارتكبوا جريمة شنيعة. يكشف لنا السر من البداية؛ ما يجعل الرواية حكاية مزدوجة؛ عن الأحداث التي أدت إلى مقتل باني، وعن العواقب الوخيمة التي تلت ذلك.

عندما صدرت «التاريخ السري» العام 1992، أشادت صحيفة نيويورك تايمز بها قائلة: «تخليلوا حبكة الجريمة والعقاب لدوستوفسكي تتشابك مع دراما «الباخوسيات» ليوربيدس، في عالم يشبه رواية «قواعد الجذب» لبريت إيستون إليس، ورويها الصوت الساحر المتدفق لرواية «العودة لزيارة برايدزهد» لإيفلين وو».

إشادات بالتاريخ السري

رغم مرور ثلاثين عامًا، لا يزال ملايين القراء يكتشفون التاريخ السري للمرة الأولى، كأنهم ينضمون إلى نادٍ حصري. تجربة قراءة هذا الكتاب للمرة الأولى تمنحك شعورًا بمشاهدة كاتب في قمة إبداعه وهو ينسج أعظم أعماله. أغبط من لم يقرأ التاريخ السري بعد.

الغاردیان

تستحق رواية «التاريخ السري» بجدارة أن توصف بالكلاسيكية المعاصرة. إنجاز مذهل. رواية متقنة، ساحرة، تجمع بين الدراما والمرح. عمل سيُخلد في ذاكرة الأدب.

التايمز

قصة مكتوبة بجمال باهر، سرد رائع، ومحزن، ومخيف. لم أستطع التوقف عن القراءة حتى انتهيت منها... إنها رواية أولى استثنائية بكل المقاييس.

جون غريشام

إهداء

إلى بریت ایستون ایس الذی لن یتوقف سخاؤه أبداً عن تدفئة
قلبی، وإلى بول إدوارد ماک غلوین مصدر وحيي، ومايکیناس⁽¹⁾
أعز صديق سأحظى به في هذا العالم.

(1) غايوس كيلنيوس مايکیناس: شاعر وسياسي روماني من أصل إتروسكاني (إقليم توسكانا). وُلد العام 68 ق م في أريتيم، وكان أحد أكثر الأصدقاء والمستشارين قُرْباً من الإمبراطور أغسطس قيصر. عاصر كل من فيرجيل وهوراس، وقد أصبح أحد رموز الثراء والتتوير والفن في عصره. تبوأ مايکیناس منصب وزير الثقافة في عصر أغسطس، لم ينضم إلى مجلس الشيوخ الروماني رغم امتلاكه ثروة هائلة، لكنه حافظ على عضويته في طبقة الإكوايتس. توفي سنة 8 ق م وكثيراً ما يُضرب به المثل في الصداقة والإخلاص. (جميع الهوامش في الرواية من وضع المترجم).

مقدمة

«أبحث الآن عن المبعث وراء نشوء عالم لغويات، وأجزم بما يأتي:

1. لا يمكن أن يعرف شاب ماهية الإغريق والرومان.
2. لا يعرف على وجه اليقين إن كان أهلاً للتعرف عليهم».

فريدريش نيتشه، «تأملات في غير أوانها».

«هيا إذن، دعنا نقضي ساعة من الترفيه في سرد القصص، وستكون قصتنا تعليم أبطالنا».

أفلاطون، «الجمهورية، الكتاب الثاني».

استهلال

بدأ ثلج الجبال يذوب، ومرت أسابيع على موت باني قبل أن ندرك حجم الكارثة التي وقعنا فيها. كما تعلمون، عثروا على جثته بعد عشرة أيام من البحث. كانت عملية البحث واحدة من أكبر حملات التمشيط في تاريخ فيرمونت، شارك فيها أفراد من شرطة الولاية، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، بالإضافة إلى مروحية عسكرية، أغلقت الكلية أبوابها، وأُقفل مصنع الأصباغ في هامبدن، وأتى الناس أفواجاً من نيو هامبشاير، ومن نيويورك شمالاً، وحتى من بوسطن.

من الصعب تصديق أن خطة هنري المتواضعة كان يمكن أن تُكلل بالنجاح رغم هذه الأحداث غير المتوقعة. لم يكن في نيتنا قط إخفاء الجثة في مكان حيث لا يمكن العثور عليها. في الواقع، لم نخفها على الإطلاق، ولكننا تركناها ببساطة حيث سقطت على أمل أن يعثر عليها بعض المارة تعيسي الحظ قبل أن يلاحظ أحد غياب باني. كانت القصة واضحة وضوح الشمس: الصخور المتناثرة، والجثة الراقدة في قاع الوادي بكسر في الرقبة، وعلامات انزلاق كعبي حذائيه الموحلة المحضورة في الثلج على طول الطريق المؤدي إلى الوادي. كان الأمر ببساطة حادثاً لا أكثر ولا أقل، وربما كان سيتوقف الأمر عند هذا الحد وينتهي كل شيء بدموع هادئة وجنازة صغيرة، لولا تساقط الثلوج في تلك الليلة التي أخفت أي أثر لباني. بعد مرور عشرة أيام كاملة، عندما بدأ الجليد يذوب أخيراً، أدرك ضباط شرطة الولاية وعملاء مكتب

التحقيقات الفيدرالي والباحثون المتطوعون من البلدة أنهم كانوا يسرون ذهابًا وإيابًا فوق جثته حتى أصبح الثلج فوقها مضغوطًا بشدة.

من الصعب تصديق أن مثل هذه الضجة وقعت بسبب فعلٍ كنتُ مسؤولاً عنه جزئيًا، والأصعب من ذلك تصديق قدرتي على المرور خلال كل هذا -الكاميرات والملابس الرسمية والحشود السوداء المنتشرة فوق جبل كاتاراكت مثل نمل في وعاء سكر- من دون إثارة أي ذرة شك تجاهي. لكن المرور خلال كل ذلك كان شيئًا بسيطًا إذا قارنته بمغادرة المكان نفسه، ثبت للأسف أن الأمر مختلف تمامًا، فعلى الرغم من اعتقادي بأنني تركت هذا الوادي إلى الأبد في أحد أيام أبريل منذ زمن بعيد، فإنني الآن لست متأكدًا من أنني تركته...

الآن، مع مغادرة الباحثين وهدوء الحياة حولي، أدركت أنني بينما كنت أتخيل نفسي في مكان آخر لسنوات، كنت في الواقع هناك طوال الوقت. كنت في الأعلى بالقرب من الأخاديد التي خلفتها عجلات الزلاجات الموحلة في العشب النامي حديثًا، حيث السماء داكنة فوق أزهار التفاح المرتعشة، واللسعة الأولى لبرودة الثلج الذي سيهطل تلك الليلة تنتشر بالفعل في الهواء. قال باني متفاجئًا عندما وجدنا نحن الأربعة في انتظاره: «ماذا تفعلون هنا؟»

قال هنري: «نبحث عن سراخس نابطة حديثًا»

وبعد ذلك، وقفنا نتهامس وسط الشجيرات ملقين نظرة أخيرة إلى الجثة، نتحقق أننا لم نسقط أي مفاتيح أو نفقد أي نظارات،

هل نسينا شيئاً؟ ثم بدأنا المسير في صف واحدًا تلو الآخر عبر الغابة. ألقيت نظرة إلى الشتلات التي أغلقت الطريق خلفي. مع أنني أذكر رحلة العودة وندف ثلج أبريل الأولى تتساقط عن أشجار الصنوبر، وأذكر تكدسنا نحن الخمسة في السيارة بامتنان، وانطلاقنا في الطريق مثل عائلة في عطلة، هنري يقود سيارته بفك مطبق بين الحفر المتناثرة في الطرقات، فيما يميل بقيتنا فوق المقاعد متحدثين مثل الأطفال، أتذكر جيداً الليلة الطويلة الرهيبة التي كانت تنتظرنا، والأيام والليالي الرهيبة الطويلة التي تلتها.

كان عليّ فقط أن ألقى نظرة خاطفة وراء ظهري حتى تتداعى كل تلك السنوات وأراه ماثلاً خلفي مرة أخرى، الوادي يرتقي عاليًا باللون الأخضر والأسود عبر الشتلات، صورة لن تفارقني أبدًا. أفترض أنه في وقت ما من حياتي كان من الوارد أن يكون لديّ قصص كثيرة، ولكني الآن لا أملك قصة سواها، هذه هي القصة الوحيدة على الإطلاق التي سأتمكن من سردها.

الكتاب الأول

الفصل الأول

هل يوجد ما يسمى «العيب القاتل»⁽¹⁾ خارج نطاق الأدب؟ ذلك الصّدع المظلم الصارخ الذي يشق الحياة إلى نصفين، كنت أعتقد سابقاً أنه لا وجود لمثله، لكنني الآن على يقين من وجوده، وأعتقد أن عيبي القاتل هو ولعي المرضي بكل ما هو جذاب بصرياً مهما كلفني .

اسمحوا لي أن أروي لكم قصة عيبي القاتل... قصة إحدى حماقاتي⁽²⁾.

اسمي ريتشارد بينن، عمري ثمانية وعشرون عاماً، ولم يسبق لي أن رأيت نيو إنجلاند أو كلية هامبدن حتى بلغت التاسعة عشرة من عمري. وُلدت في كاليفورنيا، ومؤخراً اكتشفت أنني مرتبط بها ارتباطاً وثيقاً، لم أكن لأعترف بهذا لولا أنني عشته بنفسي، ولكن لا أهمية لذلك الآن.

نشأت في بلدة بيانو، وهي قرية صغيرة في الشمال تشتهر بصناعة التكنولوجيا. ليس لدي إخوة ولا أخوات. كان أبي يدير محطة وقود، بينما كانت والدتي ربة منزل حتى كبرتُ وضاقت بنا الظروف، فاضطرت إلى العمل في الرد على الهواتف في مكتب أحد مصانع الرقائق الإلكترونية الضخمة خارج سان خوسيه.

(1) همريتا في اليونانية القديمة يعني العيب الذي يمتلكه الأبطال التراجيديون الإغريق. خلل يتسبب في سقوط شخصية نبيلة أو استثنائية، وكثيراً ما يقودهم إلى حتفهم. والمصطلح عادة ما يشير إلى خطأ مأساوي لكن عشوائي مع عواقب وخيمة، ولكن دون حكم ضمني على الشخصية.

(2) بالفرنسية في الأصل.

بيانوا! تستحضر الكلمة في ذهني صور سينما السيارات والمنازل المتراسة وموجات الحرارة المتصاعدة من الأسفلت الأسود، تلك السنوات التي أمضيتهـا هناك تركت لي ماضيًا باهتًا يمكنني التخلص منه كأنه كوب بلاستيكي مستعمل، وهو ما أعتقد أنه كان منحة عظيمة جدًا بطريقة ما، عندما غادرت المنزل تمكنت من خلق ماض جديد وأكثر إرضاءً بكثير، مليء بالتفاصيل الباهرة والبسيطة في آن واحد؛ ماضٍ زاهي الألوان، يسهل على الغرباء فهمه والتعاطف معه.

لقد طفى بريق هذه الطفولة الخيالية -العامرة بأحواض السباحة وبساتين البرتقال والوالدين الماجنين والساحرين- على ذكريات طفولتي الحقيقية الباهتة. في الواقع، عندما أحاول استرجاع طفولتي الحقيقية، لا أستطيع أن أتذكر منها الكثير، باستثناء خليط حزين من الأشياء: الأحذية الرياضية التي كنت أرديها طوال العام، وكتب التلوين والكتب المصوّرة المشتراة من السوبر ماركت، وقلة الأشياء التي كانت تثير اهتمامي، وإحساسي بأنني لست جميلًا. كنت طويلًا إلى حد ما بالنسبة إلى عمري، ووجهي مغطى بالنمش. لم يكن لديّ كثير من الأصدقاء، لكن لا أعرف الآن إذا كان ذلك اختيارًا مني أم أنه حدث بحكم الظروف. كنت متفوقًا في المدرسة -على ما يبدو- ولكن ليس بشكل استثنائي، كنت مولعًا بالقراءة خاصة قصص توم سويفت وكتب تولكين، ولكنني أيضًا كنت أقضي كثيرًا من الوقت في مشاهدة التلفاز مستلقيًا على سجادة غرفة معيشتنا الفارغة في فترات ما بعد الظهر الطويلة المملة بعد المدرسة.

بصراحة، لا أستطيع أن أستحضر كثيرًا من التفاصيل عن تلك السنوات سوى الحالة المزاجية التي كانت تسيطر عليّ حينها؛ شعور بالكآبة يرتبط في ذاكرتي بمتابعتي برنامج «عالم ديزني الرائع»⁽¹⁾ مساء كل أحد. كان الأحد يومًا كثيبًا بالنسبة إليّ، إذ كنت أخلد إلى النوم مبكرًا استعدادًا ليوم دراسي جديد في صباح اليوم التالي، وأنا مشحون بقلق دائم بأنني أخطأت في حلّ واجباتي المدرسية. وبينما كنت أشاهد الألعاب النارية تضيء سماء الليل فوق قلاع ديزني لاند المبهجة، غمرني إحساس عميق بالفرع؛ كأني عالق داخل دوامة روتينية مملة بين المدرسة والمنزل. هذه الظروف -على الأقل من وجهة نظري آنذاك- كانت تقدم لي مبررًا كافيًا للشعور بالتعاسة. كان والدي قاسيًا، ومنزلنا كثيبًا، وأمي بالكاد تهتم بي. ملابسي كانت رخيصة وقصة شعري أقصر مما أحبّ، ولم أكن محبوبًا في المدرسة. ومع مرور الوقت، تعزز لديّ شعور بأن هذا الواقع المحبط سيستمر بلا نهاية، وشعرت داخليًا، وبطريقة غامضة، أن وجودي نفسه كان خطأ.

ولذا، لا عجب أنني وجدت صعوبة في التوفيق بين حياتي وحياة أصدقائي، أو على الأقل الحياة التي تخيلتها لهم. تشارلز وكاميللا كانا يتيمان (كم تمنيت أن أكون يتيماً عندما كنت طفلاً)، وقد ربّتهما جدّاهما وعمّاتهما في منزل بولاية فيرجينيا، طفولة تبدو لي في مخيلتي مليئة بصور الخيول والأنهار وأشجار الصمغ الحلو. أما فرانسيس، فقد كانت والدته في السابعة عشرة من

(1) مسلسل تليفزيوني يعرض مختارات من إنتاجات ديزني، بدأ عرضه منذ 1954.

عمرها عندما أنجبته، فتاة باردة ومتقلبة المزاج ذات شعر أحمر، ووالدها ثري. هربت مع عازف طبول من فرقة فانس فاين الموسيقية، ثم عادت إلى منزل عائلتها بعد ثلاثة أسابيع، وفُسخ عقد الزواج بعد ستة أسابيع. وكما يردد فرانسيس دائماً، فقد تربي هو وأمه على يد جديه، ليس كطفل وأمه، بل كأخ وأخت، وقد عاشا معاً بكرم لدرجة أدهشت الجميع. كانت لهما مربيّات إنكليزيّات، والتحقا بمدارس خاصة، وقضيا الصيف في سويسرا والشتاء في فرنسا.

حتى باني، الذي كان أكثر المراوغين بيننا، لم يعيش طفولة مليئة بمعاطف البحّارة⁽¹⁾ ودروس الرقص أكثر مما كانت طفولتي، بل عاش طفولة أمريكية. باني كان ابن نجم كرة قدم سابق في جامعة كليمسون، الذي أصبح فيما بعد مصرفياً، وقد نشأ في منزل ضخم ومزدحم مع أربعة إخوة. كانت طفولته مليئة بالمراكب الشراعية ومضارب التنس وكلاب الجولدن ريتريفر. قضى صيفه في كيب كود، والتحق بمدارس داخلية بالقرب من بوسطن، وحظي بنزهات في الهواء الطلق حيث يوضع الطعام في مؤخرة السيارات⁽²⁾ خلال موسم كرة القدم. هذه التربية الفاخرة تجسدت في كل تفاصيل شخصية باني، من طريقته في المصافحة إلى أسلوبه في إلقاء النكات.

(1) معطف خارجي، مصنوع من الصوف الثقيل، كحلي اللون، كان يرتديه في الأصل بحارة من القوات البحرية الأوروبية ثم القوات الأمريكية لاحقاً.
(2) تجمع في المراء حيث يقدم الطعام والشراب قرب الجزء الخلفي من عربة مركونة.

لا شيء لدي الآن -ولم أملك قط أي شيء مشترك مع أي منهم- سوى معرفتنا باليونانية القديمة وعام من حياتي أمضيته برفقتهم، وإذا كان الحب شيئاً مشتركاً، فأتصور أننا تشاركنا ذلك أيضاً، على الرغم من أنني أدرك أن هذا قد يبدو غريباً في ضوء القصة التي سأرويها.

كيف أبدأ؟

بعد إنهاء المدرسة الثانوية، التحقت بكلية صغيرة في بلدتي. كان والداي يعارضان ذلك، فقد كانا يتوقعان مني أن أساعد أبي في إدارة أعماله، وهذا كان أحد الأسباب التي جعلتني أتوق بشدة إلى الفرار. خلال السنتين اللتين قضيتُهما في تلك الكلية، درستُ اللغة الإغريقية. لم يكن ذلك نابعاً من شغفي بهذه اللغة، بل لأنني تخصصت في العلوم الطبية الأساسية. كما تعلمون، كان المال هو الوسيلة الوحيدة لتحسين فرصتي في الحياة، والأطباء يجنون كثيراً منه. كانت معادلة بسيطة وواضحة. اقترح مرشدي الدراسي عليّ دراسة لغة لتلبية متطلبات تخصصي الطبي، وبما أن محاضرات اللغة الإغريقية كانت تُعقد في فترة ما بعد الظهر، اخترتها حتى أتمكن من النوم حتى وقت متأخر في أيام الاثنين. كان اختياري عشوائياً تماماً، لكنه تبين فيما بعد أنه كان مصيرياً. أتقنت اللغة الإغريقية وتفوقت فيها، حتى أنني فزت بجائزة من قسم الكلاسيكيات في عامي الدراسي الأخير. أحببت هذه المادة، ربّما لأنها كانت المادة الوحيدة التي تُدرس في فصل دراسي عادي دون برطمانات تحوي قلوب الأبقار أو روائح الفورمالديهايد، أو أقفاصاً تعجُّ بصراخ القروذ التي كانت جزءاً من دراستي للعلوم.

في البداية، كنت أظنّ أن العمل الجاد سيمكنني من التغلب على نفوري الفطري من تخصصي في العلوم الطبية، وأنني ربما أستطيع بتكثيف جهودي أن أكتسب موهبة مزيفة في هذا المجال. لكن الحقيقة كانت غير ذلك؛ فقد ظلت غير مهتم بعلم الأحياء، بل شعرت بالاشمئزاز منه، وساءت درجاتي، وأصبح أساتذتي وزملائي يحقرونني.

في لحظة بيروسية⁽¹⁾ يائسة، اتخذت قرارًا جريئًا بالانتقال إلى كلية الأدب الإنجليزي دون إخبار والدي. بدا القرار كأنني أذبح نفسي، وتوقعت أن أندم عليه بشدة. كنت لا أزال مقتنعًا أن الفشل في مجال مربح أفضل من النجاح في مجال أكد لي أبي -الذي لم يكن يعرف شيئًا عن المحاسبة أو الأكاديميا- أنه غير مربح. لقد تخيل أبي أنني سأمكث في المنزل طيلة حياتي أطلب منه المال، الذي كان يُصر دائمًا على أنه لن يعطيني إياه.

وهكذا وجدت نفسي أدرس الأدب، الذي جذبني أكثر بكثير من دراسة الطب، لكن رغم ذلك، لم يزدني هذا حبًا للبيت أو المكان. لا أعتقد أنني أستطيع وصف اليأس الذي غمرني بسبب المحيطين بي. الآن، وبالنظر إلى ما كنت أمر به من ظروف وما كان يجول في نفسي، أظن أنني كنت سأشعر بالتعاسة أينما كنت، سواء في بياريتز أو كاراكاس أو حتى في جزيرة كابري. لكن، في

(1) نسبة إلى بيروس الإيبيري: جنرال إغريقي من العصر الهيليني. كان ملك السلالة المولوسيانة اليونانية، وهو أحد أفراد العائلة المالكة الآخية، ولاحقًا أصبح ملك إبيروس وملك مقدونيا القديمة. كان أحد المعارضين الأشداء لقيام روما المبكرة. وعادة ما يُوصف نصر أو فعل بالبيروسية للإشارة إلى أنه باهظ الثمن ويُكبد كثيرًا من الخسائر لدرجة أنه يكاد يكون هزيمة.

ذلك الوقت كنت مقتنعاً أن تعاستي كانت مرتبطة بهذا المكان تحديداً، وربما كان جزء من ذلك صحيحاً، فكما قال ميلتون⁽¹⁾: «العقل في مكانه يستطيع أن يجعل الجنة جحيماً والجحيم جنة»، لكن بوضوح، لم تكن بيانو مهياة لتكون جنة بأي حال. كانت مدينة كئيبة، أشبه بمسرح بائس تدور فيه أحداث قصتي.

في أيام المدرسة الثانوية، اعتدت التجول في مراكز التسوق بعد المدرسة، أتجول بلا هدف بين طوابق الميزانين⁽²⁾ المضيئة الباردة، محاطاً ببريق السلع التجارية وأكواد المنتجات، متنقلاً بين المتنزهات والسلالم المتحركة والمرايا والموسيقى والضوضاء والأنوار. كنت أغرق في هذا العالم حتى تصيبني حالة من الدوار، ويصبح كل شيء أمامي مشوشاً: ألوان بلا شكل، ودوامة من الجزيئات المفككة. عندها، كنت أتحرك كأنتي زومبي، أمشي نحو ساحة الانتظار، وأقود سيارتي إلى ملعب البيسبول، وأجلس فيها، واضعاً يدي على عجلة القيادة، أهدق إلى سياج الملعب والعشب الشتوي المصفر، حتى تغرب الشمس ويخيم الظلام فلا أتمكن من رؤية أي شيء.

(1) جون ميلتون أو ملتن: شاعر وعالم إنجليزي من القرن السابع عشر، معروف بقصيدته «الفردوس المفقود» التي كتبها عام 1667. أصيب في فترة لاحقة من حياته بالعمى. إلى جانب جيفري تشوسر وويليام شكسبير، يعدّ جون ميلتون من أبرز شعراء الأدب الإنجليزي.

(2) طابق الميزانين: مساحة أرضية وسيطة مبنية بين طابقين أو بين الأرضية والسقف؛ ما يضاعف المساحة الصالحة للاستخدام، وتكون مساحته أصغر من مساحة طابق المبنى الاعتيادي، وبالتالي فهو لا يحصى من بين الطوابق الإجمالية للمبنى. ولهذا يسميه المتخصصون أحياناً «الطابق المسروق».

رغم أنني كنت أظن في ذلك الوقت أن سخطي كان نتيجة ميولي البوهيمية⁽¹⁾، وربما تأثرت قليلاً ببعض الأفكار الماركسية التي كنت أتبناها لإزعاج والدي بآراء اشتراكية سخيفة حينما كنت مراهقاً، لم أكن أفهم حقاً سبب تعاستي العميقة. كان غضبي يتفاقم كلما أشار أحدهم إلى أن هذا السخط ينبع من نزعة بيوريتانية متجذرة في داخلي، وهو ما كان صحيحاً إلى حد ما.

وجدت مؤخراً فقرة في إحدى مفكراتي القديمة، كتبتها عن المنزل عندما كنت في الثامنة عشرة:

«تفوح رائحة عفن في هذا المكان، رائحة العفن التي تسببها الفاكهة الناضجة. لم تصور بشاعة الولادة والجماع والموت وهمجيتها إطلاقاً في أي مكان، تلك الاضطرابات الهمجية في الحياة التي يسميها الإغريق الوَبَالَة⁽²⁾ أو الدنس، ولكنها صُوِّرت لتبدو جميلة إلى هذا الحد مثل هذا المكان؛ هل آمن أكثر الناس إيماناً عميقاً بالأكاذيب والتقلبات والموت... الموت... الموت». أعتقد أن تلك الكلمات قاسية جداً، من الواضح أنني لو كنت بقيت في كاليفورنيا لانتهى بي الأمر عضواً في طائفة دينية أو على الأقل اعتنقت بعض الممارسات الغذائية الغريبة. أذكر أنني قرأت عن فيثاغورس في ذلك الوقت، ووجدت بعض أفكاره جذابة على نحو غريب، مثل ارتداء العباءات البيضاء أو الامتناع عن تناول أي طعام ذي روح.

(1) يشير إلى نمط حياة غير تقليدي وفني، وعادة ما يرتبط بالمواقف المتحررة وغير الملزمة.

(2) الوَبَالَة أو المَيَزَم في الميثولوجيا الإغريقية «قوة معدية» لها حياة مستقلة. وإلى أن يظهرها موت مرتكب الخطيئة، سيصاب المجتمع بكارثة مزمنة.

ولكن بدلاً من ذلك انتهى بي المطاف في إيست كوست.

لقد قادتني المصادفة إلى كلية هامبدن! ففي إحدى ليالي عطلة عيد الشكر الماطرة، التي أمضيها بين تناول التوت البري المعب والمعلب والاستماع إلى ضجيج مباريات كرة القدم المنبعثة من التلفاز، عدت إلى غرفتي بعد جدال مع والدي. لا أذكر تفاصيل هذا الجدال تحديداً، لكنني أذكر أننا كنا نتشاجر كثيراً حول المال والدراسة. وبينما كنت أبحث في خزانتي عن معطفي، فوجئت بسقوط كتيب كلية هامبدن في فيرمونت.

لا أعلم لماذا احتفظت بهذا الكتيب، ربما لجمال شكله. فقد كنت في سنتي الأخيرة من الثانوية، أقضي ساعات طويلة في تأمل صورته، كأنتي -إنْ حدقت إليها بعمق وتوق كافٍ- سأنتقل بطريقة سحرية إلى تلك الأماكن الهادئة الجميلة. لا تزال تلك الصور محفورة في ذاكرتي: مروج خضراء متألقة، وجبال يتصاعد منها الضباب عاليًا فوق الأفق المتموج، وأوراق شجر خريفية متراكمة عند مستوى الكاحل فوق طريق عاصف، ونيران مشتعلة في العراء، وضباب يغمر الوديان، وعزف كمان يملأ الأجواء، ونوافذ بمصاريع داكنة، وثلوج تتساقط بغزارة.

تقع كلية هامبدن في بلدة هامبدن في ولاية فيرمونت، وقد أُسست العام 1895. كانت هذه المعلومة صادمة بالنسبة إليّ، إذ لم أكن أعرف شيئاً في مدينتي بيانو قد بُني قبل العام 1962! كان عدد طلابها لا يتجاوز الخمسمئة، وهي كلية مختلطة تقديمية متخصصة في الفنون الليبرالية.

تأملت الكتيب وفكرت: «إنها كلية انتقائية جداً».

جاء في وصفها: «لا تسعى هامبدن من خلال تقديم منهج شامل في العلوم الإنسانية إلى تزويد الطلاب بخلفية قوية في مجالهم المُختار فحسب، بل أيضًا برؤية عميقة في تخصصات الفن والحضارة والفكر الغربي كافة. ومن خلال ذلك، نأمل أن نزود الطلاب ليس بالمعرفة فقط، بل بالمواد الخام للحكمة». كان لاسم «هامبدن - هامبدن - فيرمونت» إيقاع أنجليكي صارم بالنسبة إلى أذني التي اشتاقت إلى نيو إنجلاند بشدة، وتاقت إلى إيقاعات البلدات التبشيرية الصغيرة المظلمة والعذبة. قضيت وقتًا طويلًا أتأمل صورة «القاعة العامة»، ذلك المبنى الذي يبعث نورًا أكاديميًا شاحبًا، مختلفًا عن أي شيء عرفته في بيانو، نورًا يثير في داخلي صورة للساعات الطويلة التي يمكن قضاؤها داخل مكاتب عتيقة مليئة بالكتب والغبار، وسط صمت مطبق.

حينها طرقت أُمِّي الباب ونادتني، لكنني لم أجبها، فصلت صفحة المعلومات الموجودة في الجزء الخلفي من الكتيب وبدأت بملئها.

الاسم: جون ريتشارد باين.

العنوان: 4487 شارع ميموزا كورت، بلدة بيانو، كاليفورنيا.

هل ترغب في الحصول على معلومات حول المساعدات المالية؟ نعم.

وأرسلته بالبريد في صباح اليوم التالي.

كانت الأشهر التالية معركة مضيئة لا تنتهي تمثلت في كتابة الأوراق، تعج بالمازق والطرق المسدودة. كلما خرجت من تحدٍّ،

وجدت نفسي أمام آخر. رفض والدي استكمال الأوراق المطلوبة للحصول على المساعدات المالية. وفي لحظة يأس، سرقت إقرارات الضرائب من درج القفازات في سيارته التويوتا وأكملتها بنفسي. بعد ذلك، بدأت مرحلة انتظار جديدة. ثم وصلني خطاب من مدير مكتب القبول في الكلية، يطلب مني أن يقابلني شخصياً، ويسأل عن إمكانية سفري إلى فيرمونت. لم أكن أستطيع تحمّل تكاليف السفر إلى هناك، فأرسلت له أوضح ذلك. انتظرت مرة أخرى، ثم جاء الرد: ستتكفل الكلية بنفقات السفر إذا قُبلت في المنحة الدراسية. في هذه الأثناء، وصلت حزمة المساعدات المالية، وكانت مساهمة عائلتي المطلوبة أكبر مما كان والدي قد صرح بأنه قادر على دفعه، وهو مبلغ أعلن بوضوح أنه لن يساهم به. استمرت هذه المعضلة، التي بدت أشبه بحرب عصابات، على مدى ثمانية أشهر. وحتى الآن، لا أفهم تماماً كيف قادتني تلك الأحداث المتشابكة إلى هامبدن. أسأتني المتعاطفون كتبوا لي رسائل توصية، وحصلت على استثناءات خاصة لحالتي. وبعد أقل من عام من جلوسي على سجادة ذهبية مجمدة في غرفتي الصغيرة في بيانو، وأنا أملأ استبيان المعلومات بدافع حسي، وجدت نفسي أنزل من الحافلة في هامبدن، أحمل حقيبتين وخمسين دولاراً فقط في جيبي.

لم يسبق أن سافرت شرق سانتا فيه أو شمال بورتلاند، وعندما ترجلت من الحافلة بعد ليلة طويلة مرهقة بدأت في إلينوي، كانت الساعة السادسة صباحاً، والشمس تشرق فوق الجبال وأشجار البتولا والمروج الخضراء المذهلة. وبينما كنت

مرهقاً من السهر لثلاثة أيام بلا نوم على الطريق السريع، بدت لي هامبدن كأنها مدينة من عالم الأحلام.

لم تكن مهاجع الطلاب التي رأيتها تشبه المهاجع التي أعرفها ذات الجدران الإسمنتية الكئيبة والضوء المصفر، بل كانت منازل بيضاء ذات جدران خارجية من الألواح الخشبية ومصاريع نوافذ خضراء، تقع في أحضان الطبيعة بعيداً عن مبنى الكلية وسط بساتين من أشجار القيقب والمران.

على الرغم من ذلك لم أتوقع يوماً أن تكون غرفتي الخاصة -مهما كانت- إلا مكاناً قبيحاً ومخيباً للآمال. لكنني فوجئت عند رؤيتها لأول مرة؛ كانت غرفة فسيح بيضاء الجدران، تطل نوافذها الضخمة على الشمال. بدت في غاية البساطة بمظهر رهباني، أثاثها متواضع، وأرضيتها من خشب البلوط، وسقفها المائل أضفى عليها دفئاً خاصاً. في ليلتي الأولى هناك، جلست على سريرتي وقت الغسق، أراقب كيف تتغير الجدران ببطء من الرمادي إلى الذهبي ثم إلى الأسود، في حين كان صوت سوبرانو يتردد من بعيد في نهاية الممر، صاعداً وهابطاً كأنما يلامس الروح، حتى غابت الشمس تماماً وبقي الصوت في الظلام يتردد بلا توقف، كأنه صوت ملاك الموت. لا أذكر أنني شعرت بهواء عالٍ وبارد وروحاني مثلما شعرت به في تلك الليلة، أو أنني شعرت من قبل بتلك المسافة الشاسعة التي تفصلني عن المباني المنخفضة المغبرة في بيانو.

أمضيت الأيام الأولى قبل بدء المحاضرات وحيداً في غرفتي المطلية بالجير الأبيض وسط مروج هامبدن المشرقة. كنتُ في

تلك اللحظات في أوج سعادتي، أتجول في حالة من النشوة مأخوذاً
بجمال المكان. في المساء، كنت أرى مجموعة من الفتيات ذوات
الخدود المتوردة يلعبن كرة القدم، ضفائرهن تتطاير في الهواء،
وصدى صيحاتهن وضحكاتهن يتردد خافتاً عبر الملعب المخملي
تحت ضوء الغسق الساحر.

كانت أشجار التفاح مثقلة بالثمار، تتدلى التفاحات الحمراء
وتساقط فوق العشب الأخضر تحتها، ناشرة رائحة حلوة مركزة
أخذة في التعفن، فيما تطن الدبابير حولها بلا توقف. وفي
الخلفية، يرتفع برج ساعة مبنى القاعة العامة، مصنوع من طوب
مغطى باللبلاّب، وينتهي بقمة بيضاء مستدقة تلوح في الأفق
الضبابي البعيد كمنارة آسرة للنظر.

أتذكر دهشتي عند رؤية شجرة البتولا لأول مرة في الليل،
شاهقة وباردة ونحيلة، تقف في الظلام مثل شبح، فيما كانت
الليالي تتجاوز كل ما تخيلته: حالكة، وعاصفة، وهائلة، ومضطربة،
ينيرها ضوء النجوم الخافت.

كنت أنوي التسجيل مرة أخرى في مادة اللغة الإغريقية، فهي
اللغة الوحيدة التي أتقنها، لكن عندما أخبرت مستشاري الأكاديمي
الجديد، أستاذ الفرنسية جورج لافورج، الذي كان ذا بشرة زيتونية
 وأنف طويل نحيل كمنقار السلحفاة، ابتسم بلطف وضغط أطراف
أصابعه معاً، وقال بإنجليزية مميزة بلكنة فرنسية: «أخشى أن
هناك مشكلة».

«لماذا؟».

«ليس لدينا سوى أستاذ واحد للإغريقية، وهو انتقائي جداً في اختيار طلابه».

«درستها مدة عامين».

«قد لا يؤثر ذلك. أيضاً، إذا كنت تتوي التخصص في الأدب الإنجليزي، فستحتاج إلى دراسة لغة معاصرة. لا يزال هناك مكان شاغر في صف الفرنسية الابتدائي، وبعض الأماكن المتاحة في الألمانية والإيطالية. أما الإسبانية...» -راجع قائمته- «فمعظم الفصول ممتلئة، لكن إذا رغبت، يمكنني التحدث إلى السيد ديلجادو».

«ربما يمكنك التحدث إلى أستاذ الإغريقية بدلاً من ذلك».

«لا أظن أن ذلك سيغير من الأمر شيئاً، فهو يقبل عدداً محدوداً جداً من الطلاب، وغالباً بناءً على معايير شخصية أكثر منها أكاديمية».

كان في صوته تلميح بالسخرية، كأنه يفضل ألا تستمر هذه المحادثة إذا لم أعدل عن قراري.

قلت: «لا أفهم ماذا تعني».

لكن في الواقع، كنت أعتقد أنني أعرف.

فاجأتني إجابة لافورج عندما قال: «الأمر ليس كما تظن، صحيح أنه أستاذ متميز وله جاذبية خاصة، لكن يبدو أنه يحمل أفكاراً غريبة حول التعليم. هو وطلابه منعزلون عن باقي القسم. في الحقيقة، لا أعلم لماذا تستمر الكلية في إدراج مقرراته في الكتالوج العام؛ فهذا يضلل الطلاب كل عام ويشير الالتباس، لأن فصوله، في الواقع، أشبه بنادٍ حصري. وقد قيل لي إنه يشترط

على طلابه أن يكونوا قد قرأوا الكتب الصحيحة بالضبط، وأن يحملوا آراء مشابهة لآرائه. لقد رفض مرارًا طلابًا مثلك ممن لديهم خلفية في الكلاسيكيات».

ثم أردف رافعًا حاجبه: «أما أنا، فأؤمن بأنه إذا كان الطالب مهتمًا بما أدرّسه ومؤهلًا، فأرحب به. ديمقراطي جدًا، أليس كذلك؟ إنها الطريقة المثلى».

«هل تحدث مثل هذه الأمور كثيرًا هنا؟»

«بالطبع» أجاب لافورج بخفة، ثم خفض صوته بغموض أدهشني وأضاف: «يوجد أساتذة صعب المراس في كل كلية، بل هناك من هم أشد صعوبة منه بكثير. لكن يجب أن أطلب منك ألا تتقل كلامي هذا لأحد».

فوجئت بهذا السرية، فقلت: «لن أفعل ذلك».

«من الضروري جدًا ألا تفعل». ثم مال إلى الأمام وهمس، بالكاد يتحرك فمه في أثناء حديثه: «يجب أن أؤكد عليك مرة أخرى. ربما لا تدرك هذا، ولكن لدي كثير من الأعداء في كلية الآداب، قد يبدو الأمر غير معقول، ولكن حتى هنا، في قسمي، لدي خصوم شديدي العداوة». ثم عاد إلى نبرة أكثر طبيعية وأردف: «وعلاوة على ذلك، الأستاذ الذي نتحدث عنه حالة خاصة. لقد درّس هنا لسنوات طويلة ويرفض حتى تلقي راتب مقابل عمله».

«لماذا؟»

«إنه رجل ثري يتبرع براتبه للكلية، ولكنه، كما أعتقد، يقبل دولارًا واحدًا سنويًا لأغراض ضريبية».

قلت: «حقًا». على الرغم من أنني لم أمضِ سوى بضعة أيام في هامبدن، فقد اعتدت بالفعل على القصص الرسمية عن الصعوبات المالية والهبات المحدودة وترشيد النفقات.

قال لافورج: «يستهويني التدريس كثيرًا، لكن لديّ عائلة في فرنسا - زوجة وابنة في المدرسة - والمال ضروري، أليس كذلك؟»
«ربما سأحدث إليه بنفسه على أي حال».

هز لافورج كتفيه وقال: «يمكنك المحاولة. لكنني أنصحك بعدم تحديد موعد مسبق معه، وإلا ربما لن يراك، اسمه جوليان مورو».

ما قاله لافورج أثار اهتمامي، ولم أكن مصممًا على دراسة الإغريقية تحديدًا، لكن شعرت بأن هناك شيئًا يستحق الاكتشاف. توجهت إلى الطابق السفلي ودخلت أول مكتب صادفته. في الداخل، كانت هناك امرأة نحيلة بوجه متجهم وشعر أشقر متقصف، جالسة خلف مكتب الغرفة الأمامية وهي تتناول شطيرة. قالت: «إنها ساعة غدائي. عُدّ عند الساعة الثانية».

«عذرًا، أبحث فقط عن مكتب أحد الأساتذة».

«حسنًا، أنا مسؤولة السجلات ولست موظفة استعلامات، ولكن ربما أستطيع مساعدتك. من هو؟»
«جوليان مورو».

قالت متفاجئة: «أوه، ماذا تريد منه؟ أعتقد أنه في الطابق العلوي من قاعة المحاضرات».

«أي غرفة؟»

«إنه الأستاذ الوحيد في الطابق العلوي. يقدّر سلامه النفسي وهدوءه، سوف تجده بسهولة».

لكن في الواقع، لم يكن العثور على مبنى قاعة المحاضرات سهلاً على الإطلاق. كان المبنى صغيراً، يقع على أطراف الحرم الجامعي، مغطى بالبلاب إلى حد جعله يندمج تماماً مع المناظر الطبيعية المحيطة به.

عندما دخلت، وجدت في الطابق السفلي قاعات محاضرات وفصولاً دراسية خالية، تلمع سبوراتها النظيفة، وأرضياتها مشمعة حديثاً. تجولت بيأس حتى صادفت سلماً صغيراً، مضاء إضاءة ضعيفة في ركن بعيد من المبنى.

عند وصولي إلى الطابق العلوي، وجدت نفسي في ممر طويل مهجور.

تابعت السير، مستمتعاً بصوت خطواتي يتردد فوق أرضية المشمع، متفحصاً الأبواب المغلقة، حتى توقفت عند باب يحمل بطاقة نحاسية مكتوب عليها «جوليان مورو». تسمرت في مكاني لحظة ثم طرقت الباب ثلاث نقرات قصيرة.

بعد دقيقة تقريباً، فُتح الباب الأبيض قليلاً، ليظهر خلفه وجه دقيق يوحى بالحكمة والانتباه. ملامحه كانت مزيجاً غريباً؛ حاجباه المقوسان، وأنفه المستقيم وفكه الحاد منحه مظهراً شاباً، إلا أن شعره الأبيض كالثلج أضفى عليه ملامح الكبر. وقف يرمقني للحظة، يرمش بعينين يقظتين.

«كيف يمكنني مساعدتك؟» كان صوته رزيناً وطيباً، يشبه حديث البالغين اللطفاء مع الأطفال.

«أنا... حسناً، اسمي ريتشارد بين». أمال رأسه قليلاً، ورمشت عيناه مرة أخرى، بدا ودوداً ومطمئناً كعصفور. أضفت بسرعة: «أرغب في الانضمام إلى صف اللغة الإغريقية».

عبس وجهه: «آه، أنا آسف». كان صوته صادقًا في نبذة الاعتذار بل بدا أكثر أسفًا مني. «لا شيء أتمناه أكثر من تحقيق رغبتك، ولكن للأسف صفي اكتمل، ولا يوجد مكان شاغر».

منحني هذا الأسف الصادق في صوته الشجاعة، فأجبته: «لا بد أن هناك حلًا، نحن نتحدث عن طالب إضافي واحد فحسب». أجابني بنبرة حزينة كأنه يعزيني في وفاة صديق عزيز محاولاً أن يفهمني أنه لا يستطيع مساعدتي بأي شكل. «آسف جدًا يا سيد بيبين لقد اخترت أن يكون عدد طلابي خمسة فقط، ولا أستطيع حتى التفكير في إضافة طالب آخر». «خمس ليس عددًا كبيرًا».

هز رأسه بسرعة وأغمض عينيه كأنه غير قادر على تحمل أي توسل.

قال: «أود حقًا أن أضمك إلى صفي، لكن الأمر مستحيل، أنا آسف جدًا. هلّا سمحت لي الآن؟ في الداخل طالب ينتظرني».

مضى أكثر من أسبوع، وبدأت محاضراتي، وحصلت على وظيفة مع أستاذ علم النفس الدكتور رولاند. كان عليّ أن أساعده بخصوص «بحث» غامض، لم أتمكن قط من معرفة طبيعته. كان رجلًا مسنًا مشتتًا دائمًا وغير مهتم متخصصًا في علم السلوك، يقضي معظم وقته في غرفة استراحة المعلمين. كوّنت بعض الصداقات، معظمها مع طلاب جدد يعيشون في السكن الجامعي نفسه، قد لا تكون كلمة «أصدقاء» دقيقة هنا. كنا نتناول الطعام معًا، ويرى كل منا الآخر عند قدومه أو مغادرته، لكننا فوجئنا

جميعاً بحقيقة أننا لا نعرف بعضنا حقاً، وهو وضع لم يكن مزعجاً حينها.

من بين القلائل الذين عرفتهم من طلاب هامبدن القدامى، استفسرت عن جوليآن مورو.

بدا أن الجميع قد سمع عنه، وتلقت أذني كثيراً من المعلومات والقصص المتناقضة والمثيرة حوله: قيل إنه رجل عبقرى، وقيل أيضاً إنه محتال، لم يحمل شهادة جامعية، لكنه كان مفكراً بارعاً في أربعينيات القرن الماضى، وكان صديقاً مقرباً لعزرا باوند⁽¹⁾ وت. س. إليوت. أما ثروة عائلته، فقد تنوعت الروايات حول مصدرها؛ قيل إنها جاءت من استثمار في شركة مصرفية بالغة الثراء، كما زُعم أنها نتيجة لشراء ممتلكات مرهونة خلال فترة الكساد الكبير. كما قيل إنه تهرب من الخدمة العسكرية في إحدى الحروب، رغم أن هذا الأمر بقي محاطاً بالغموض تاريخياً. كان على صلة بالفاتيكان وبإحدى العائلات المالكة المخلوعة في الشرق الأوسط وإسبانيا في عهد فرانكو. لم أكن أعلم مدى صحة أي من هذه المعلومات، ولكن كلما سمعت عنه أكثر، زاد اهتمامي بمعرفة المزيد.

بدأت أراقب جوليآن ومجموعته الصغيرة المكونة من أربعة شبان وفتاة، يتنقلون في أنحاء الحرم الجامعي. من بعيد، لم

(1) شاعر وناقد أمريكي مغترب، يعدّ إحدى أهم شخصيات حركة شعر الحداثة في الأدب العالمي في أوائل وأواسط القرن العشرين. بدأت مشاركته الشعرية مع تطور الحركة التصويرية، وهي حركة مشتقة من الشعر الصيني والشعر الياباني، وتشدد على الوضوح والدقة مع الاقتصاد باللغة.

يبدؤا غربيي الأطوار، لكن عن قرب كانوا يشدون الانتباه بطريقة
أسرة، كأنهم من عالم آخر. وأوحوا بامتلاكهم مزيجاً من السمات
الجذابة والخيالية التي لم أرَ مثلها من قبل.

كان اثنان من الفتية يرتديان النظارات، والغريب أن كلاهما
اختار نفس النوع: نظارة صغيرة عتيقة ذات إطار معدني دائري.
أكبرهما كان ضخّم البنية، يزيد طوله على ستة أقدام، ذو شعر
داكن وفك بارز وبشرة شاحبة خشنة. ربما عُدَّ وسيماً لو كانت
ملامحه أقل حدة أو لو كانت عيناه خلف النظارة أقل بروداً.
اعتاد ارتداء بدلات إنجليزية داكنة ويحمل دائماً مظلة؛ منظر غير
مألوف في هامبدن. كان يمشي بين حشود الهيببيين والبيتتيك⁽¹⁾
والبريبيز⁽²⁾ والبانك⁽³⁾ بطريقة متكلفة وخجولة، أشبه براقصة
باليه عجوز؛ ما أدهشني بالنظر إلى ضخامته. «إنه هنري وينتر»،
قال لي أصدقائي عندما أشارت إليه من بعيد، وهو يسير في
منحنى واسع لتجنب مجموعة من لاعبي البينجو على المرج.

(1) المنتمون إلى ثقافة البيت Beat، وهي ثقافة مضادة، غير مادية، تشدد على
مدى تحسين الحياة الداخلية للإنسان، وتجاوز كل الماديات. اتجه بعض كتّاب
هذه الحركة للمعتقدات الشرقية مثل البوذية والطاوية. وتميل إلى أن تكون اتجاهها
ليبيرالياً، كما تهدف إلى محاربة التمييز العنصري.

(2) ثقافة أمريكية مرتبطة بخريجي المدارس الإعدادية في شمال شرق الولايات
المتحدة. ويستخدم المصطلح، وهو اختصار لكلمة «إعدادي preparatory»، للدلالة
على شخص يُنظر إليه على أنه يتشبه بطلاب أو خريجي هذه المدارس.

(3) نسبة إلى حركة البانك، وهي حركة سادت في السبعينيات وكانت علامة على
التمرد والفوضى، فقد جعل الشباب من أزيائهم الغريبة وسيلة للتعبير عن أفكارهم
ورفضهم للبطالة والتمييز الاجتماعي. وكان علامة فارقة في الجمال والإبداع ومن
العناصر التي أثرت كثيراً في عالم الموضة والأزياء. وسرعان ما تحولت هذه
الحركة إلى أسلوب خاص في عالم الموضة.

أما الفتى الأصغر حجمًا - وإن لم يكن بفارق كبير - فكان شابًا أشقر غير مهندم، ذا خدين ورديّين، يعضغ العلكة، ويتصف بسلوك مرح وطائش. كانت يده مدسوستين في جيبي بنطاله الذي بدا مهترئًا عند الركبتين. يرتدي السترة نفسها يوميًا، وهي سترة تويد بنية مهترئة عند المرفقين وقصيرة الأكمام. شعره الأشقر الطويل كان مفروقًا إلى اليسار، تتدلى منه خصلة تغطي إحدى عينيه خلف نظارته الطبية. اسمه باني كوركوران، وبطريقة ما كان اسم «باني» اختصارًا لاسم إدموند. صوته كان عاليًا حادًا، يشبه صوت المزمار، يتردد صده في أرجاء قاعات الطعام.

كان الفتى الثالث في المجموعة هو الأكثر غرابة بينهم. نحيل إلى درجة مقلقة، ويبدو أنيقًا بشكل لافت، بيدين متوترتين ووجه أمهق يحمل مكرًا خفيًا. كان يمتلك شعرًا كثيفًا بلون أحمر ناري، هو الأكثر حمرةً مما رأيته في حياتي. ظننت في البداية - خطأً - أنه يتبع في ملبسه أسلوب ألفريد دوجلاس أو الكونت مونتسكيو، فقد كان يرتدي قمصانًا رسمية أنيقة بكُفّ فرنسية، وربطات عنق فاخرة. دائمًا ما كان يرتدي معطفًا أسود كبيرًا، ينتفش خلفه أثناء سيره؛ ما يجعله يبدو كأنه مزيج غريب بين أمير شاب وجاك السفاح. سرّني ذات مرة أنني رأيته يرتدي نظارة أنفية، لكنني اكتشفت لاحقًا أنها لم تكن نظارة حقيقية، بل مجرد عدسات زجاجية، وأنه يمتلك عينين أكثر حدة بكثير مما ظننت. كان اسمه فرانسيس أبيرناثي. ازداد اهتمامي به؛ ما أثار استغراب معارفي الذين تساءلوا عن سبب اهتمامي بشخص غريب كهذا. ثم كان هناك الثنائي، الشاب والفتاة، اللذان رأيتهما معًا كثيرًا،

وظننت في البداية أنهما عشيقان. لكنني عندما رأيتهما عن قرب أدركت أنهما يجب أن يكونا أخوين، ثم علمت لاحقاً أنهما توأمان. كانا متشابهين إلى حد كبير، بشعر أشقر داكن كثيف، ووجهين صافيين يعكسان البهجة والوقار، أشبه بملائكة من لوحات فلمنية قديمة.

كان أكثر ما يلفت الانتباه فيهما في سياق هامبدن، حيث ينتشر المثقفون الزائفون والمراهقون المنحرفون، وحيث كانت الملابس السوداء قاعدة سائدة، هو أنهما كانا يرتديان ملابس فاتحة اللون، خصوصاً بيضاء، وسط دخان السجائر والمشهد الأنيق المغرق بالملابس السوداء، كانا يبدوان كأنهما شخصيتان من قصة رمزية أو ضيفان في حفلة حديقة من زمن بعيد. كان من السهل تمييزهما، فقد كانا التوأمين الوحيدين في الحرم الجامعي. كان اسماهما تشارلز وكاميلما ماكولاي.

رغم أن الجميع بدا بعيداً إلى حد كبير، راقبتهم باهتمام كلما سنحت الفرصة. أتذكر رؤيتي فرانسيس وهو ينحني ليتحدث مع قطعة فوق عتبة باب، وهنري يمر أمامي بسيارته البيضاء الصغيرة بسرعة، ومعه جوليان إلى جانبه، وباني يطل برأسه من نافذة في الطابق العلوي ليصرخ بشيء ما إلى التوأمين في الحديقة في الأسفل. ببطء عرفت مزيداً من المعلومات عنهم. كان فرانسيس أبيرناثي من بوسطن، وكان ثرياً جداً حسب معظم الروايات، وقيل لي إن هنري أيضاً ثري، وكان عبقرياً في اللغات. تحدثت عدداً من

اللغات القديمة والحديثة، ونشر ترجمة مشروحة لشعر أنكريون⁽¹⁾ عندما كان في الثامنة عشرة من عمره فقط. عرفت ذلك من جورج لافورج، الذي كان متحفظًا وحانقًا بشأن الأمر، واكتشفت لاحقًا أن هنري قد أخرج لافورج أمام كلية الأدب برمتها خلال سنته الأولى في الجامعة، خلال جلسة الأسئلة بعد محاضراته السنوية عن راسين⁽²⁾.

أما التوأم، فقد عاشا في شقة خارج الحرم الجامعي، وكانا ينحدران من الجنوب. لدى باني كوركوران عادة غريبة، إذ اعتاد تشغيل ألحان المسيرات العسكرية لجون فيليب سوزا⁽³⁾ بأعلى صوت ممكن في ساعة متأخرة من الليل.

لم يكن الأمر أنني كنت مهووسًا بأي من هذا. فقد كنت في طور الاستقرار في الكلية حينها، وبدأت المحاضرات وانشغلت بعملتي. كان اهتمامي بجوليان مورو وطلابه في صف اللغة الإغريقية، على الرغم من شدته، قد بدأ يتلاشى إلى أن وقعت مصادفة غريبة غيرت مجرى الأمور.

حدث ذلك في صباح يوم الأربعاء من أسبوعي الثاني، عندما كنت في المكتبة أنسخ بعض الأوراق على طابعة الزيروكس من

(1) أنكريون (582 ق.م - 485 ق.م) كان شاعرًا غنائيًا يونانيًا، اشتهر بأغانيه وأناشيده عن الخمر والغزل الفاحش.

(2) جان راسين: شاعر وكاتب مسرحي فرنسي. كان من الكتاب المسرحيين البارزين في الأدب الفرنسي، نشط خلال عصر الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وعاصر موليير وبوالو.

(3) كان جون فيليب سوزا ملحنًا وقائدًا أمريكيًا في أواخر العصر الرومانسي المعروف في المقام الأول بالمسيرات العسكرية الأمريكية.

أجل الدكتور رولاند قبل محاضرة الساعة الحادية عشرة، بعد نحو ثلاثين دقيقة وقد أخذت بقع من الضوء تسبح أمام عيني، عدت إلى منضدة الاستقبال لأعيد مفتاح الطابعة لأمين المكتبة، وعندما استدرت للمغادرة لمحت باني والتوأمين يجلسون إلى منضدة انتشرت فوقها الأوراق والأقلام وزجاجات الحبر. أتذكر زجاجات الحبر بالتحديد لأنني كنت مفتوناً بها جداً وبالأقلام السوداء الطويلة المستقيمة التي بدت عتيقة ومزعجة جداً. كان تشارلز يرتدي كنزة تنس بيضاء، وكاميللا ترتدي فستاناً صيفياً خفيفاً بياقة بحار وقبعة من القش. كانت سترة باني التويد متدلية على الجزء الخلفي من مقعده؛ ما أظهر عددًا من الشقوق والبقع الكبيرة في بطانتها. كان يسند مرفقيه إلى المنضدة وشعره يغطي عينيه وأكمام قميصه المتجمدة مرفوعة بأربطة مخططة، كانت رؤوسهم متقاربة وهم يتهامسون.

فجأة، تملكني فضول لمعرفة ما كانوا يتحدثون عنه، ذهبت إلى رف الكتب خلف منضدتهما في الطرف البعيد للغرفة متظاهراً بالبحث عن شيء ما، وتحركت على امتداد الممر حتى أصبحت قريباً جداً لدرجة أنني كنت قادراً على أن أمد يدي وألمس ذراع باني. أدرت ظهري لهم، والتقطت كتاباً عشوائياً -صادف أنه نص اجتماعي سخي- وتظاهرت بفحص الفهرس: التحليل الثانوي، الانحراف الثانوي⁽¹⁾، المجموعات الثانوية، المدارس الثانوية.

(1) الانحراف في علم الاجتماع هو وصف للأفعال أو السلوكيات التي تخرق أو تنتهك المعايير الاجتماعية، بما في ذلك القوانين المسنونة، مثل القيام بعمل إجرامي، أو الخروقات غير الرسمية، مثل رفض عادات وأعراف مجتمع ما. الانحراف سلوك لا يتوافق مع القواعد المؤسسية أو قواعد السلوك.

كانت كاميللا تقول: «لا أعرف شيئاً عن ذلك. إذا كان الإغريق يبحرون إلى قرطاج، فلا بد أن تكون في حالة نصب؟ تذكران، المكان- حيث؟ هذه هي القاعدة».

«ذلك غير ممكن». كان هذا صوت باني. كان صوته أنفياً وسريع الكلام، يشبه صوت دبليو سي فيلدز⁽¹⁾ بنبرة لونغ آيلاند المربعة. «إنه ليس» المكان- حيث»، بل «المكان- إلى». أراهن على أنها حالة جر».

علت خشخشة تقليب أوراق.

وقال تشارلز بصوت أجش بلكنة جنوبية خفيفة، تشبه إلى حد كبير صوت أخته: «انتظرا، انظرا إلى هذا. إنهم لا يبحرون فحسب إلى قرطاج! إنهم يبحرون لمهاجمتها».

«أنت مجنون».

«لا، هم المجانين. انظرا إلى الجملة التالية، نحن بحاجة إلى مفعول به غير مباشر».

«هل أنت متأكد؟»

مزيد من خشخشة الأوراق.

«قطعاً، بإضافة اللاحقة آبي ETI إلى قرطاج».

قال باني: «لا أرى كيف يكون ذلك». بدا مثل ثورستون هويل الثالث من «جزيرة جيليجان»⁽²⁾.

(1) ممثل وكوميدي أمريكي بدأ مسيرته الفنية سنة 1898. من أعماله ديفيد كوبرفيلد. امتدت مسيرته الفنية لأكثر من ثمان وأربعين سنة.

(2) ثورستون هويل الثالث: شخصية في المسلسل الكوميدي جزيرة جيليجان التلفزيونية على قناة سي بي إس، التي امتدت من عام 1964 حتى عام 1967.

«حالة الجرّ هي الحل عندما تنعدم كل الحلول الأخرى، الجمل الصعبة دائماً ما تكون حالة جر».

خيم الصمت هنيهة، ثم قال تشارلز: «باني، لقد اختلطت عليك الأمور، حالة الجر موجودة في اللاتينية وليس هنا». قال باني بانزعاج بعد صمت مرتبك أوحى أنه لم يكن يعرف ذلك: «حسناً، بالطبع أعرف ذلك، لكنك تعرف ما أعنيه. الفعل المطلق⁽¹⁾ وحالة الجر إنهما الشيء نفسه، أليس كذلك؟» قالت كاميللا: «انظري يا تشارلز، حالة المفعول غير المباشر لن تتجج».

«بلى، ستتجج. هم يبحدون للهجوم، أليس كذلك؟»

«نعم، لكن الإغريق أبحدوا فوق البحر إلى قرطاج».

«لكنني وضعت أبي ἔτι أمامها».

«حسناً، يمكننا الهجوم ومع ذلك نستخدم أبي ἔτι. علينا

استخدام حالة النصب بسبب القواعد الأولى».

الفصل، الذات، مفهوم الذات... نظرت إلى الفهرس وفكرت في الحالة النحوية التي كانوا يبحثون عنها. أبحر اليونانيون فوق البحر إلى قرطاج، إلى قرطاج، إلى حيث أو من حيث قرطاج. فجأة خطر ببالي شيء ما، أغلقت الكتاب ووضعتة فوق الرف واستدرت. قلت: «عذراً». توقفوا على الفور عن الحديث. دهشوا، واستداروا لينظروا إلي. «أنا آسف، لكن هل الظرف المكاني سيفي بالغرض؟»

(1) أو أوريسست باليونانية وتعني غير المحدد: وهو تصريف للفعل، يشير إلى حدوث الفعل دون الإشارة إلى اكتماله أو مدته أو تكراره.

لم يقل أحد شيئاً مدة طويلة.

قال تشارلز: «الظرف المكاني؟»

قلت: «فقط أضف اللاحقة زدي δεῦρο إلى قرطاج. أعتقد أنها زدي. إذا استخدمتها فلن تحتاج إلى حرف جر باستثناء أبي إن كانوا سيذهبون إلى الحرب، ستعني ضمناً «تجاه قرطاج»، لذا لن تضطر إلى القلق بشأن استخدام حالة معينة أيضاً».

نظر تشارلز إلى ورقته، ثم رفع عينيه نحوي: «ظرف مكاني؟ هذا عويص جداً».

قالت كاميللا: «هل أنت متأكد من إمكانية استخدامه مع قرطاج؟»

لم أفكر في هذا، قلت: «ربما لا، لكنني متأكد من أنه يمكن استخدامه مع أثينا».

مد تشارلز يده وسحب المعجم على الطاولة نحوه، وبدأ يقلب صفحاته.

صرخ بانّي: «يا إلهي، لا داعي للبحث. إذا لم يكن عليك تجنب استخدامه، ولا تحتاج إلى حرف جر، فأنا راضٍ عن ذلك». استرخى في مقعده ونظر إليّ. «أود أن أصافحك، أيها الغريب». مددت يدي إليه، فأمسكها وهزها بقوة، وكاد يُطيح بقنينة حبر بمرفقه وهو يفعل ذلك. قال: «أنا سعيد بلقائك، أجل... أجل»، ثم مدّ يده الأخرى ليزيح خصلة شعر عن عينيه.

شعرت بالحيرة من هذا الاهتمام المفاجئ، كان الأمر كأن شخصيات لوحتي المفضلة، الذين كانوا مستغرقين في شؤونهم الخاصة، نظرت إليّ خارج إطار اللوحة وتحدثت معي.

في اليوم السابق فحسب، مر فرانسيس بجانبى في الممر بعباءته السوداء الكشميرية محاطاً بدخان سيجارته. للحظة عندما لامست ذراعه يدي، شعرت بأنه مخلوق من لحم ودم، ولكن في اللحظة التالية اختفى مرة أخرى في الممر غافلاً عني مثل هلوسة أو نسيج من الخيال، وكما يُشاع فإن الأشباح في جولاتهم الغامضة يكونون غافلين تماماً عن الأحياء. نهض تشارلز الذي كان لا يزال يقلب في صفحات المعجم، ومد يده قائلاً: «اسمي تشارلز ماكولاي».

«ريتشارد بين».

قالت كاميللا فجأة: «أوه، أنت ذاك الشخص».

«ماذا؟».

«أنت. جئت لتسأل عن مادة اليونانية القديمة».

قال تشارلز: «هذه أختي، وهذا بان». استدار إلى باني، وسأله: «هل أخبرته باسمك من قبل؟»

قال باني: «لا، لا أعتقد ذلك. لقد أسعدتني أيها السيد». ثم أضاف وهو يمسك بيدي مرة أخرى: «كان لدينا عشر جمل أخرى مشابهة لنحلها في غضون خمس دقائق، اسمي إدموند كوركوران».

قالت كاميللا: «منذ متى وأنت تدرس اليونانية القديمة؟».

«منذ سنتين».

قال باني: «أنت جيد إلى حد ما فيها، من المؤسف أنك لست في صفنا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

خيم صمت متوتر بيننا.

قال تشارلز بانزعاج: «حسنًا، جوليان غريب بشأن أشياء كهذه».

قال باني: «اذهب لرؤيته مرة أخرى، لن تخسر شيئًا. خذ إليه بعض الزهور وأخبره أنك تحب أفلاطون وسيستجيب لك».

خيم صمت آخر، هذه المرة أثقل وأكثر إزعاجًا.

ابتسمت كاميلا ابتسامة عذبة وشاردة غير موجهة إليّ شخصيًا كأنني نادل أو موظف في متجر. وابتسم تشارلز الواقف بجانبها رافعًا حاجبيه بأدب، وهي حركة ربما تدل على التوتر أو ربما لا تعني شيئًا على الإطلاق، ولكنني فهمت أنها تعني: هل هذا كل شيء؟

تمتت بشيء ما وكنت على وشك المغادرة عندما مدّ باني الذي كان يحدق إلى الاتجاه المعاكس ذراعه وأمسك بي من معصمي قائلاً: «انتظر».

نظرت إلى أعلى مذهولاً. كان هنري قد دخل للتو من الباب بسترته الداكنة ومظلته كعادته.

عندما وصل إلى الطاولة، تظاهر بعدم رؤيتي وقال: «مرحبًا، هل انتهيت؟»

أشار باني برأسه نحوي وقال: «انظر هنا يا هنري، بصحبتنا شخص عليك مقابله».

نظر هنري إليّ من دون أن يتغير تعبير وجهه، أغمض عينيه ثم أعاد فتحهما كأنه وجد أنه من الغريب أن يقف شخص مثلي في مجال رؤيته.

قال باني: «نعم، نعم، اسم هذا الرجل هو ريتشارد... ريتشارد ماذا؟»

«ببين».

«نعم، نعم. ريتشارد بين. إنه يدرس اليونانية القديمة».

رفع هنري رأسه لينظر إليّ، وقال: «ليس هنا بالتأكيد».

نظرت إلى عينيه مباشرة، وقلت: «لا»، لكن نظرت كانت وقحة جداً لدرجة أنني اضطررت إلى إبعاد عيني.

بادر تشارلز قائلاً وهو يقلب أوراقه ثانية: «أوه، هنري، انظر إلى هذا، من فضلك. كنا سنستخدم حالة النصب أو المفعول به غير المباشر هنا لكنه اقترح استخدام ظرف مكاني بدلاً من ذلك؟»

انحنى هنري فوق كتفه ليلقي نظرة إلى الصفحة، وقال: «حسنًا، الظرف المكاني المهجور. هوميري⁽¹⁾ جدًا. بالطبع سيكون صحيحًا من الناحية النحوية، ولكن قد لا يكون دقيقًا في السياق». رفع رأسه لينظر إليّ مرة أخرى. سقط الضوء بزاوية ألقت انعكاسًا على عدسات نظارته الصغيرة، فلم أستطع رؤية عينيه خلفها.

«مثير جدًا. هل درست هوميروس؟»

كان من الممكن أن أجيب بـ«نعم»، ولكن ساورني شعور بأنه قد يسعد بتصيد أخطائي، وأنه لن يجد صعوبة في اكتشاف كذبي، فقلت بخفوت: «يستهويني هوميروس».

(1) نسبة إلى هوميرس: شاعرٌ ملحمي إغريقي أسطوري يُعتقد أنه مؤلف الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة.

نظر إليّ بنفور بارد، وقال: «أنا مغرم بهوميروس». ثم استدرك: «ولكننا بالطبع ندرس أشياء أكثر حداثة مثل أفلاطون وكتّاب التراجيديا وما إلى ذلك».

كنت أحاول التفكير في رد عندما أشاح بعينيه بعيداً بلا اكتراث.

قال: «يجب أن نذهب».

جمع تشارلز أوراقه ونهض مرة أخرى، وقفت كاميللا بجانبه، وهذه المرة مدت يدها لمصافحتي.

كانا متشابهين بشكل لافت وهما متجاورين، تشابهاً ليس جلياً في الملامح مثلما كان في الأسلوب والسلوك، تناغمت إيماءاتهما، بدا أن طرفة عين أحدهما يتردد صداها بعد لحظات في رجة جفن الآخر. كانت أعينهما لامعة وهادئة وتحمل اللون الرمادي نفسه، اعتقدت أنها كانت جميلة جداً بطريقة مؤثرة على غرار جمال العصور الوسطى، جمال قد لا يلاحظه المراقب العادي.

دفع باني مقعده إلى الوراء، وصفعني بين لوحين كتفي برقة، وقال: «حسناً أيها السيد، يجب أن نجتمع معاً في وقتٍ ما ونتحدث عن اليونانية القديمة، أليس كذلك؟»

قال هنري وهو يومئ برأسه: «وداعاً».

قلت: «وداعاً».

غادروا المكتبة معاً مرتصين في كتيبة عريضة جنباً إلى جنب، فيما تسمرت في مكاني أراقبهم يخرجون.

عندما توجهت إلى مكتب الدكتور رولاند بعد بضع دقائق لتسليم المستندات التي طبعتها، سألته إن كان يمكنه أن يمنحني

دفعة مقدمة من مبلغ المساعدات المالية المخصص لعملتي ودراستي.

تراجع بظهره في مقعده، وسلط عينيه الرطبتين المحمرتين نحوي، وقال: «حسنًا، على مدى السنوات العشر الماضية أخذت عهدًا على نفسي بعدم فعل ذلك، دعني أخبرك لماذا اتخذت هذا القرار».

سارعت إلى القول: «أعلم يا سيدي. أفهم ذلك». قد تستغرق خطابات الدكتور رولاند في بعض الأحيان نصف ساعة أو أكثر. أضفت: «أواجه حالة طارئة فحسب».

انحنى إلى الأمام مرة أخرى وتتنح، وقال: «وماذا يمكن أن تكون تلك الحالة يا ترى؟»

نظرت إلى يديه المعقودتين على المكتب، كانت العروق بارزة واللمعان اللؤلؤي المزرق يحيط بمفاصلهما. في تلك اللحظة، كنت بحاجة ماسة إلى عشرة أو عشرين دولارًا، لكنني جئت من دون أن أقرر مسبقًا كيف سأبرر ذلك. قلت: «لا أعرف، مجرد أمر طارئ».

عقد الدكتور رولاند حاجبيه بطريقة جذبت انتباهي. شاع في الكلية أن أسلوب الدكتور رولاند الخرف ما هو إلا واجهة، لكنني اعتقدت أن خرفه حقيقي تمامًا. ومع ذلك في بعض الأحيان عندما أكون غير منتبه، كان وجهه يعكس وميضًا غير متوقع من الوضوح الذي -على الرغم من أنه قد لا يكون مرتبطًا بالموضوع المطروح- كان دليلًا على أن العمليات العقلانية كانت تعمل في مكان ما في الأعماق الموحلة لوعيه.

قلت وقد أتاني إلهام مفاجئ: «إنها سيارتي. أنا بحاجة إلى إصلاحها». لم أكن أملك سيارة في الواقع. لم أتوقع منه أن يستفسر أكثر، لكنه بدلاً من ذلك أمال عنقه إلى الأمام باهتمام. «ما المشكلة بالضبط؟» «شيء يتعلق بناقل الحركة».

«هل محرك سيارتك محرك احتراق داخلي أم مبرد بالهواء؟» قلت: «مبرد بالهواء» ونقلت وزن جسمي إلى قدمي الأخرى. لم أكن مهتمًا بهذه المحادثة، فأنا لا أعرف كثيرًا عن السيارات، وأجد صعوبة حتى في تغيير إطار السيارة. «ما سيارتك؟ هل هي أحد موديلات 6 سلندر الصغيرة؟» «نعم».

«لست متفاجئًا. يبدو أن جميع الفتيان شغوفون بها». لم يكن لدي أي فكرة عن كيفية الرد على هذا. فتح درج مكتبه، والتقط بضعة أشياء وقربها من عينيه ثم أعادها إلى الدرج مرة أخرى.

قال: «حسب تجربتي، عندما تحدث مشكلة في ناقل الحركة تتعطل السيارة تمامًا، خصوصًا موديلات 6 سلندر، أنصحك بأن تأخذ تلك السيارة إلى مكب النفايات، أنا شخصيًا أملك سيارة ريجنسي بروجهام 98، عمرها عشر سنوات. أحافظ عليها من خلال الفحوصات المنتظمة، واستبدال الفلاتر كل ألف وخمسمئة ميل، وتغيير الزيت كل ثلاثة آلاف». وأضاف بحدة: «احترس من ورش السيارات في البلدة».

«عفوًا»

وجد دفتر شيكاته أخيراً، قال وهو يفتحه ويبدأ الكتابة بنشاط: «حسناً، يجب أن تذهب إلى أمين الصندوق، لكن أعتقد أنه لن يمانع في صرف المبلغ. هناك بعض الورش في هامبدن عندما يكتشفون أنك من الكلية يطلبون منك أجراً مضاعفاً. أما ورشة إصلاح السيارات المستعملة فهي خيار أفضل عمومًا، يديرها مجموعة من المسيحيين المتدينين، لكنهم مع ذلك سيستزفون أموالك حتى آخر فلس إذا لم تنتبه لهم».

قطع الشيك من الدفتر وسلمه إليّ. نظرت إليه فخفق قلبي، لقد كان مئتي دولار. كان قد وقع على الشيك، وانتهى الأمر. قال: «لا تدعهم يتقاضون منك فلسًا واحدًا أكثر من اللازم». أجبته بحماس: «لا، يا سيدي»، وأنا بالكاد أستطيع إخفاء فرحتي. ماذا سأفعل بكل هذا المال؟ ربما ينسى حتى أنه أعطاني إياه.

أنزل نظارته عن عينيه، ونظر إليّ من فوقها. وقال: «تذكر: ورشة إصلاح السيارات المستعملة. تقع على الطريق السريع رقم 6، واللافتة على شكل صليب».

قلت: «شكرًا لك».

سرت في الممر، معنوياتي مرتفعة، وفي جيبي مئتا دولار. كان أول شيء فعلته هو هبوط الدرج، والتوجه إلى الهاتف العمومي واستدعاء سيارة أجرة لتقلني إلى بلدة هامبدن.

إذا كنت أجيد شيئًا واحدًا فهو القدرة على إقناع الآخرين بشيء زائف. تلك هي موهبتي.

وماذا فعلتُ في بلدة هامبدن؟ بصراحة، أذهلني حظي الجيد لدرجة أنني لم أتمكن من فعل أي شيء محدد. كان يوماً مجيداً؛ سئمت من الفقر، لذا قبل أن أمنح نفسي فرصة للتفكير، توجهت إلى متجر ملابس رجالية باهظ الثمن في الميدان واشترت قميصين. ثم توجهت إلى مقر جيش الخلاص⁽¹⁾ وبحثت في الصناديق لبعض الوقت حتى وجدت معطفاً تويدياً من ماركة هاريس وزوجاً من الأحذية البنية المدببة التي تناسبني تماماً، بالإضافة إلى بعض أزرار الأكمام وربطة عنق قديمة طريفة عليها صورة رجال يصطادون الغزلان.

عندما خرجت من المتجر شعرت بسعادة غامرة لأنني لا أزال أملك ما يقرب من مئة دولار. تساءلت إن كان عليّ شراء بعض الكتب، أم مشاهدة فيلم في السينما، أم ربما شراء زجاجة سكوتش. في النهاية، كان ذهني يعج بالاحتمالات؛ ما دفعني إلى الانطلاق متمماً لنفسي ومبتسماً للمارة حولي فوق الرصيف الخريفي المشرق، مررت عبرهم مباشرة مثل صبي ريفي متحمس وسط حشد من الناس، وتوجهت إلى كشك الهاتف العمومي في الزاوية، واتصلت بسيارة أجرة لتقلني إلى الكلية.

حالما وصلت إلى غرفتي فردت الملابس فوق سريري. كانت أزرار الأكمام التي جلبتها قديمة قليلاً، وتحمل الأحرف الأولى من اسم شخص آخر لكنها بدت كذهب حقيقي، تتلألأ في شمس

(1) جماعة مسيحية بروتستانتية دولية مستقلة عن الكنائس تقوم بأعمال خيرية لمساعدة الفقراء.

الخريف الناعسة التي تدفقت من خلال النافذة، وشكلت برقاً صفراء على أرضية خشب البلوط فبدت شهوانية وغنية ومُسكرة. شعرت بإحساس غريب بال«الديجاڤو»⁽¹⁾ عندما فتح جوليان الباب بعد ظهر اليوم التالي تماماً كما فعل في المرة الأولى، حيث فتح شقاً صغيراً فقط، ونظر من خلاله بحذر، كأن هناك شيئاً ثميناً في مكتبه يحتاج إلى حراسة ويحرص ألا يراه الآخرون. كان شعوراً سأختبره جيداً في الأشهر المقبلة. حتى اليوم بعد مرور سنوات بعيداً عن هامبدن أحلم أحياناً بأني أقف أمام ذلك الباب الأبيض، أنتظر ظهوره مثل حارس البوابة في قصة خرافية: دائم الشباب ويقظ وماكر كطفل.

عندما رأى أنه أنا، فتح الباب أكثر قليلاً مما فعل في المرة الأولى وقال: «السيد بيبين مرة أخرى، أليس كذلك؟». لم أكلف نفسي عناء تصحيح اسمي له: «أخشى ذلك». نظر إليّ لحظة وقال: «لديك اسم رائع، كما تعلم. فقد حمله كثير من الملوك».

«هل أنت مشغول الآن؟»

أجاب بسرور: «لست مشغولاً أبداً لاستقبال وريث العرش الفرنسي، إذا كنتَ هو بالفعل». قلت مازحاً: «لا، للأسف».

ضحك واقتبس مقولة إغريقية عن كون الصدق فضيلة خطيرة، ولدهشتي فتح الباب ودعاني إلى الدخول.

(1) أو وهم سبق الرؤية، وتعني الكلمة فرنسية الأصل حرفياً (شُوهد من قبل)، وهي ظاهرة عقلية تصف التجربة الغريبة والمذهلة التي يشعر خلالها المرء بأن ثمة حدثاً مألوفاً لك كأنك تختبر شيئاً مررت به سابقاً.

كانت الغرفة رائعة وباهرة، ليست مكتبًا على الإطلاق، كانت رحبة واسعة تفوق ما يوحي به مظهرها الخارجي، جيدة التهوية وذات جدران بيضاء وسقف مرتفع ونسيم عليل يداعب الستائر. في الزاوية بالقرب من رف كتب منخفض، كانت هناك مائدة مستديرة ضخمة امتلأت بأباريق الشاي والكتب الإغريقية، وانتشرت الزهور في كل موضع؛ ورود وقرنفل وشقائق نعمان على مكتبه والمائدة وعتبات النوافذ. كانت الورد عطرة بشكل خاص، وكانت رائحتها معلقة وثقيلة في الهواء ممزوجة برائحة الليمون العطري والشاي الصيني الأسود ورائحة باهتة من الكافور تشبه رائحة الحبر، عندما استنشقت بعمق شعرت بالانتشاء. في كل مكان نظرت إليه، وقعت عيناها على شيء جميل؛ بداية من السجاد الشرقي والخزفيات إلى لوحات صغيرة مثل المجوهرات، بريق من الألوان المتكسرة أذهلني، كأنما خطوت داخل إحدى تلك الكنائس البيزنطية الضيقة التي تبدو بسيطة وفاترة من الخارج، لكنها تخفي في داخلها جدراناً فردوسية مطلية بالذهب والفسيفساء.

جلس على مقعد بذراعين جانب النافذة وأشار إليّ بالجلوس أيضاً. قال: «أفترض أنك أتيت بخصوص فصل اليونانية القديمة». «نعم».

كانت عيناها وديعتين ورماديتين أكثر منهما زرقاوين، ونظرته صريحة. قال: «فات الألوان إلى حد ما».

«أود أن أدرسها ثانية، من العار أن أتخلى عنها بعد عامين».

قوَس حاجبيه العميقين والخبيثين، ونظر إلى يديه المطويتين لحظة: «قيل لي إنك من كاليفورنيا».

قلت مذهولاً بعض الشيء: «نعم، أنا من هناك». من قال له ذلك؟

قال: «لا أعرف كثيراً من الناس من الغرب. لا أعرف إذا كنت سَأحب الإقامة هناك». سكت هنيهة، وبدأ مستغرقاً في أفكاره ومضطرباً على نحو مبهم. «وماذا تفعل في كاليفورنيا؟».

أسهبت في الحديث عن بساتين البرتقال ونجوم السينما الفاشلين وحفلات شرب المارتيني تحت أضواء المصابيح بجوار حوض السباحة، وسط الدخان المتصاعد من السجائر والضرر العميق. كان يستمع إليّ بانتباه شديد، وعيناه مثبتتان على عينيّ، مدهوشاً بوضوح من تلك الذكريات الكاذبة. لم يحدث أن حظيت بمثل هذا الاهتمام من قبل، كان مأخوذاً بكلماتي إلى درجة أشعرتني برغبة في الاسترسال والمبالغة، رغم علمي بأن ذلك قد لا يكون حكيمًا.

وحينما أنهيت حديثي، قال جوليان بحماس ممزوج بنشوة: «كم هذا مشوّق! كم هو رومانسي!»

قلت محاولاً الحفاظ على هدوئي وقد تورد خدائي من بريق نجاحي: «حسنًا، نحن جميعاً معتادون على ذلك هناك، كما ترى». «وماذا يريد شخص رومانسي مثلك من دراسة الكلاسيكيات؟» سألتني كما لو كان من حسن حظه أن اصطاد طائرًا نادرًا مثلي، وكان حريصًا على اقتناص رأيي، فيما كنت لا أزال «أسيرًا» في مكتبه.

أجبتة: «إذا كنت تقصد بالرومانسي الانطوائي والمنعزل، فأعتقد أن الرومانسيين كثيرًا ما يكونون أفضل من يتعامل مع الكلاسيكيات».

ضحك جوليان وقال: «الرومانسيون العظماء كثيرًا ما يكونون كلاسيكيين فاشلين، ولكن هذا خارج موضوعنا، أليس كذلك؟ ما رأيك في هامبدن؟ هل أنت سعيد هنا؟».

تحدثت عن الكلية، شارحًا سبب رضاي عنها في الوقت الحالي، ولم أختصر حديثي كما كان ينبغي لي.

علق جوليان: «عادة ما يجد الشباب الريف مملاً. وهذا لا يعني أن الريف ليس مفيداً لهم. هل سافرت كثيرًا؟ أخبرني ما الذي جذبك إلى هذا المكان؟ أتصور أن شابًا مثلك سيكون في حيرة من أمره خارج المدينة، لكنني أظن أن حياة المدينة تسبب لك الملل أيضًا، أليس كذلك؟».

بمهارة وجاذبية جردني من دفاعاتي تمامًا، وقادني ببراعة من موضوع إلى آخر. رغم أن الحديث بدا كأنه لم يستغرق سوى دقائق، فقد كان أطول بكثير، وتمكن خلاله من استخراج كل ما أراد معرفته عني.

لم يخطر لي أن اهتمامه العميق نابع من أي شيء سوى المتعة التي وجدها في محادثتي. ومع أنني تحدثت باستمتاع عن مواضيع عديدة بعضها شخصي تمامًا، وبصراحة أكثر من المعتاد، كنت مقتنعًا أنني أفعل ذلك بملء إرادتي. تمنيت لو استطعت تذكر المزيد مما قيل ذلك اليوم، ومع أنني أتذكر الكثير، فإن معظم ما قيل يبدو لي الآن سخيًا ولا يستحق التذكر. النقطة الوحيدة

التي اختلفنا فيها كانت علم النفس، وهو موضوع يشغل بالي دائماً بسبب عملي مع الدكتور رولاند. أما بالنسبة إلى ذكر بيكاسو، فقد لاحظت حاجب جوليان المرفوع المتشكك، ولاحقاً حين عرفته أكثر، أدركت أنه اعتبر ذلك إهانة شخصية تقريباً. قال باهتمام: «ولكن هل تعتقد حقاً أنه يمكن للمرء أن يسمي علم النفس «علمًا»؟»

أجبت بثقة: «بالتأكيد، ما هو إن لم يكن كذلك؟»
«ولكن حتى أفلاطون أيقن أن الطبقيّة والتكيف⁽¹⁾ وما إلى ذلك لها تأثير غير قابل للتغير في الفرد. يبدو لي أن علم النفس ليس سوى كلمة أخرى لما أطلق عليه القدماء القدر.»
«علم النفس كلمة مريعة.»

وافقني جوليان بقوة: «نعم، مريعة» لكن تعبيره أوحى بأنه يعتقد أن استخدامي هذا الوصف يفتقر إلى الذوق. «ربما يكون علم النفس بناءً مفيداً في بعض النواحي للحديث عن نوع معين من العقلية، إن سكان الريف الذين يعيشون حولي رائعون لأن حياتهم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقدر إلى درجة جعلتهم محكومين بالقدر، ولكن...». ضحك وأكمل: «أخشى أن طلابي لا يثيرون اهتمامي على الإطلاق لأنني أعرف تماماً ما يفعلون.»

سحرتني محادثته على الرغم من أنها بدت معاصرة واستطردية إلى حد ما، فقد قادتنا من موضوع إلى آخر (بالنسبة إليّ فإن

(1) التكيف: عملية ديناميكية مستمرة، يهدف بها الفرد إلى أن يغير سلوكه، ليشكّل علاقة أكثر توافقاً وتوازناً مع البيئة، كما تدل على مفهوم بيولوجي استخدم في نظرية التطور والبقاء، فالكائن الحي القادر على التكيف مع البيئة، ومفاجاتها يستطيع الاستمرار في البقاء، أما الذي يخفق في التكيف فمصيره إلى الزوال.

السمة المميزة للعقل الحديث هي أنه يحب التجول بعيداً عن موضوعه الأساسي) ولكنني أرى الآن أنه كان يقودني عن طريق الإسهاب إلى النقاط نفسها مراراً، لأنه إذا كان العقل الحديث متقلباً ونزوّياً وهائماً، فإن العقل الكلاسيكي ضيق وغير متردد وعنيد. إنها نوعية من الذكاء نادراً ما نصادفها في أيامنا هذه، ولكن على الرغم من أنني أستطيع الاستطراد مع أفضل العقول فإنني في جوهرى لست سوى مهووس.

تحدثنا مدة أطول ثم لزمنا الصمت، وبعد لحظة قال جوليان بكياسة: «إذا كنت ترغب في ذلك، فسأكون سعيداً بقبولك طالباً في صفى يا سيد بين».

نظرت من النافذة وقد نسيت سبب وجودي هنا تقريباً، ثم التفت لأنظر إليه، ولم أستطع التفكير في شيء أقوله. استطرد جوليان قائلاً: «ومع ذلك قبل أن تقبل، هناك بعض الشروط التي يجب أن توافق عليها».

قلت وقد تنبعت فجأة: «ماذا؟».

«اذهب إلى مكتب موظفة التسجيل غداً وقدم طلباً لتغيير مستشارك الأكاديمي». مد يده ليلتقط قلماً من كوب على مكتبه. المدهش أنه كان مليئاً بأقلام حبر مون بلانك ماركة ميسترشوتوك، على الأقل باثني عشر قلماً، كتب ملاحظة وسلمها لي، وقال: «لا تضيعها لأن موظفة التسجيل لن تدرجني مستشاراً أكاديمياً لأحد الطلاب إلا إذا طلبت ذلك بورقة خطية».

كانت الملاحظة مكتوبة بخط ذكوري يبدو كأنه يرجع إلى القرن التاسع عشر وبحروف E يونانية، وكان الحبر لا يزال رطباً، قلت: «لكن لديّ مستشار بالفعل».

«سياستي ألا أقبل طالباً أبداً ما لم أكن مستشاره الأكاديمي أيضاً، لا يتفق أعضاء هيئة التدريس الآخرون في كلية الآداب مع أساليب التعليم، وقد تواجه مشكلات إذا كان لأحد منهم سلطة الاعتراض على قراراتي. عليك أيضاً ترك مقرراتك وإضافة أخرى، أعتقد أنه سيتعين عليك ترك جميع المقررات التي تدرسها حالياً باستثناء اللغة الفرنسية، التي سيكون من الأفضل لك مواصلة دراستها. يبدو أنك تعاني نقصاً في مجال اللغات الحديثة».

كنت مذهوئاً: «لا أستطيع ترك جميع فصولي».

«ولم لا؟»

«انتهى التسجيل».

قال جوليان بهدوء: «هذا لا يهم على الإطلاق، الفصول التي أريد منك إضافتها ستكون معي، من المرجح أنك ستأخذ ثلاثة أو أربعة مقررات معي في كل فصل دراسي لبقية وقتك هنا في الكلية».

نظرت إليه، لا عجب أنه لم يكن لديه سوى خمسة طلاب، قلت: «ولكن كيف يمكنني ذلك؟».

ضحك: «يبدو أنك جديد هنا في هامبدن، لا تحب الإدارة ذلك كثيراً، لكن لا يمكنهم فعل أي شيء حياله. في بعض الأحيان يحاولون إثارة مشكلات تتعلق بمتطلبات توزيع المقررات، ولكن هذا لم يسبب أي مشكلة حقيقية قط. نحن ندرس الفن والتاريخ والفلسفة وغيرها من المواضيع المتنوعة. إذا وجدت أنك تعاني نقصاً في مجال معين، فقد أقرر أن أقدم لك درساً خصوصياً،

وربما أحيلك إلى مدرس آخر. بما أن الفرنسية ليست لغتي الأولى، أعتقد أنه من الحكمة أن تستمر في دراستها مع السيد لافورج. في العام القادم سأبدأ معك باللغة اللاتينية، إنها لغة عويصة لكن معرفة اللغة اليونانية القديمة ستسهلها عليك. أكثر اللغات إرضاءً هي اللاتينية، سوف تجد تعلمها ممتعاً».

استمعت، وقد شعرت بالإهانة قليلاً من لهجته، كان القيام بما طلبه بمثابة انتقال بالكامل من كلية هامبدن إلى أكاديميته الصغيرة لتعليم اللغة اليونانية القديمة مع عدد قليل من الطلاب خمسة طلاب أو ستة بمن فيهم أنا. «إذن كل دروسي معك؟».

قال بجدية: «ليس كلها تماماً»، ثم ضحك عندما رأى النظرة على وجهي، وقال: «أعتقد أن تنوع المعلمين أمر ضار ومربك للعقول الشابة، ووفقاً للمنطق نفسه، أعتقد أنه من الأفضل معرفة كتاب واحد بعمق بدلاً من معرفة مئة كتاب معرفة سطحية، أعرف أن العالم الحديث يميل إلى معارضتي، ولكن بعد كل شيء، كان لأفلاطون معلم واحد فحسب، وكذلك الإسكندر⁽¹⁾».

أومأت برأسي ببطء محاولاً أن أفكر في طريقة لبقة للانسحاب، حتى التقت أعيننا، وفجأة فكرت: ولم لا؟ شعرت بدوار خفيف بسبب قوة شخصيته، لكن تطرّف عرضه كان جذاباً أيضاً. كان طلابه -إن كانوا يعكسون أي أثر لوصايته وتأثيره- مهيبين بشكل ملحوظ، ومختلفين بقدر ما كانوا جميعاً يتشاركون في نوع من الهدوء، وسحر فاتن ومصقول، لم يكن حديثاً على الإطلاق،

(1) كان سقراط معلم أفلاطون في حين كان أرسطو معلم الإسكندر الأكبر.

ولكنه حمل نفحة غريبة وباردة من العالم القديم، كانوا مخلوقات بديعة بأعينهم وأيديهم ونظراتهم؛ مثل هاتيك الأعين، مثل هذه اليد، مثل ذاك الفم⁽¹⁾. غبطتهم ووجدتهم فاتنين، بالإضافة إلى ذلك، تشير هذه الخاصية الغريبة البعيدة كل البعد عن كونها فطرية أو طبيعية بقوة إلى أنها زرعت فيهم بعناية. (الأمر نفسه مع جولييان، على الرغم من أنه أعطى انطباًغاً معاكساً تماماً بالنضارة والصراحة، لم يكن ذلك عفويًا بل فنًا رفيع المستوى هو ما جعله يبدو غير مرتجل أو متكلف).

وسواء كان متكلفًا أم لا، أردت أن أكون مثلمهم. كان من الطيش الاعتقاد أن هذه الصفات مكتسبة، وأن هذه هي الطريقة التي يمكن أن أتعلّمها بها.

كان هذا كله بعيدًا جدًا عن بيانو ومحطة وقود أبي.

سألتها: «وإذا درستني كل المواد، فهل ستكون جميعها باليونانية القديمة؟»

ضحك. «بالطبع لا. سندرس دانتى وفيرجيل وأشياء أخرى كثيرة، لكنني لا أنصحك بشراء نسخة من كتاب «وداعًا كولومبوس»⁽²⁾ (اشتهر هذا الكتاب على نحو شائن بأنه يجب دراسته في مادة اللغة الإنجليزية لطلاب السنة الأولى) ثم أضاف مازحًا: «آسف على فظاظتي في التعبير».

(1) باللاتينية في الأصل. وهو اقتباس من الإنيادا لفيرجيل.

(2) مجموعة روائية صدرت عام 1959 للروائي الأمريكي فيليب روث. تتضمن المجموعة الرواية القصيرة التي تحمل المجموعة اسمها «وداعًا كولومبوس» التي نُشرت في الأصل في مجلة باريس ريفيو بالإضافة إلى خمس قصص قصيرة.

انزعج جورج لافورج عندما أطلعتة على خططي، وقال معرباً عن قلقه: «هذه خطوة جدية. أتدرك ذلك؟ عليك أن تفهم مدى محدودية تواصلك مع بقية أعضاء هيئة التدريس والكلية؟» فأجبتة: «إنه أستاذ جيد».

«لا يوجد أستاذ جيد إلى هذه الدرجة، إذا نشب أي خلاف أو شعورك بعدم الإنصاف في التعامل، فلن تجد من يساندك في الكلية. عذراً، لكنني لا أعتقد أن دفع رسوم دراسية بقيمة ثلاثين ألف دولار للدراسة مع أستاذ واحد هو خيار حكيم». فكرت في إحالة هذا السؤال إلى صندوق منح كلية هامبدن، لكنني آثرت الصمت.

انحنى جورج إلى الخلف في كرسيه، وأضاف: «اعذرني، ولكنني أعتقد أنك ستجد قيم هذا الأستاذ النخبوية بغيضة. بصراحة هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن قبوله طالباً يحصل على مساعدة مالية كبيرة كحالتك. كلية هامبدن مؤسسة ديمقراطية، ولا تتبنى مثل هذه المبادئ».

قلت: «حسناً، لا يمكن أن يكون نخبوياً إلى هذه الدرجة إذا قبلني».

لم يستوعب سخريتي، ورد بجدية: «أظن أنه يجهل حقيقة حصولك على مساعدة مالية».

فقلت: «حسناً، إن كان لا يعرف، فلن أخبره».

كانت محاضرات جوليان تعقد في مكتبه الخاص، كان عدد طلابه قليلاً جداً، ولم يكن من الممكن لأي قاعة دراسية تقليدية

أن توفر الراحة أو الخصوصية التي ينشدهما جوليان. كان يؤمن بنظرية مفادها أن الطلاب يتعلمون بشكل أفضل في بيئة ودية غير رسمية، لذا كانت تلك الغرفة الدافئة الفاخرة مع نباتاتها الخضراء المزهرة في قلب الشتاء تجسد نموذج أفلاطون المصغر لما يعتقد أنه ينبغي أن تكون عليه غرفة الدراسة.

ذات مرة عندما أشرت إلى الأنشطة الدراسية على أنها «عمل»، نظر إليّ جوليان مدهوشًا وقال: «هل تعتقد حقًا أن ما نقوم به هو عمل؟»

فاستفسرت: «ماذا ينبغي أن أسميه إذن؟».

فأجابني: «يمكنني أن أصفه بأنه أكثر أنواع اللعب روعة».

بينما كنت في طريقي إلى هناك لحضور صفّي الأول، رأيت فرانسيس أبيرناثي يعبر المرج مثل طائر أسود، معطفه يرفرف وراءه داكنًا مثل غراب في مهب الريح. كان مستغرقًا في التفكير، يدخلن سيجارة. غمرني توتر لا أستطيع تفسيره عند التفكير في احتمال رؤيته لي، فانعطفت داخلًا أحد الأبواب وانتظرت حتى اجتازني.

عندما استدرت عند درج قاعة المحاضرات، فوجئت به جالسًا على حافة النافذة. ألقى نظرة سريعة عليه، ثم صرفت بصري بسرعة، كنت على وشك الدخول إلى القاعة عندما نادى: «انتظر». كان صوته هادئًا وبوسطنياً⁽¹⁾، بريطانيًا تقريبيًا. التفت.

(1) نسبة إلى بوسطن.

قال بسخرية: «هل أنت الشاب⁽¹⁾ الجديد؟».

ترجمت في ذهني: الشاب الجديد. لقد كنت كذلك.

«دعنا نرحل معاً⁽²⁾؟»

«ماذا؟».

«لا شيء».

نقل السيارة إلى يده اليسرى، ومد يده اليمنى نحوي، كانت عظامها بارزة وناعمة البشرة كيد فتاة مراهقة. لم يكلف نفسه عناء تقديم نفسه، وبعد صمت قصير ومُرِّك، أخبرته باسمي. أخذ نفساً أخيراً من السيارة ثم ألقاها من النافذة المفتوحة. وقال: «أنا أعرف من أنت».

كان هنري وباني في مكتب جوليان؛ هنري منهمك في كتاب، وباني متكئ على المائدة يتحدث إليه بجدية وصوت عال. «عديم الذوق، هذا هو الوصف الوحيد يا رجل. خاب أمني فيك. توقعت منك التصرف بلباقة أكثر قليلاً من ذلك، إن لم تمنع قلبي هذا...»...

دخل فرانسيس خلفي وأغلق الباب قائلاً: «صباح الخير».

قال باني: «مرحباً»، ثم التفت إليّ وقال: «أوه، مرحباً». تابع حديثه مع فرانسيس: «هل يمكنك أن تخمن؟ اشترى هنري لنفسه قلم من نوع مون بلون».

قال فرانسيس: «حقاً؟»

(1) بالإغريقية في الأصل.

(2) باللاتينية في الأصل.

أوماً باني برأسه إلى كوب الأقلام السوداء الأنيقة الموضوع على مكتب جوليان. «أخبرته أنه من الأفضل أن يكون حذرًا وإلا سيعتقد جوليان أنه سرقه».

قال هنري دون أن يرفع نظره عن كتابه: «كان جوليان معي عندما اشتريته».

قال باني: «ما سعر مثل هذه الأقلام؟»

لم يجب أحد.

«هيا. كم ثمنه؟ ثلاثمائة دولار للقلم الواحد؟» انحنى بثقله كله فوق الطاولة. «أتذكر عندما أخبرتني أن هذه الأقلام قبيحة، وأنتك لن تكتب بشيء سوى القلم المستقيم⁽¹⁾. صحيح؟».

خيم الصمت.

طلب باني: «دعني أراه مرة أخرى، ممكن؟»

وضع هنري كتابه جانبًا، ومد يده إلى جيب قميصه، وسحب القلم ووضعه فوق المائدة. قال: «هاك».

التقطه باني وقلبه بين أصابعه.

قال: «إنه مثل أقلام الرصاص السميكة التي استخدمتها في الصف الأول».

«هل أقنعتك جوليان بالحصول عليه؟»

«أردت شراء قلم حبر».

«هذا ليس سبب حصولك على هذا القلم بالتحديد».

«سئمت من الحديث عن القلم».

(1) أقلام الحبر نوعان: مستقيمة حيث سن القلم جزء من جسم القلم، ومائلة حيث سنه قابلة للفك والاستبدال.

«أعتقد أن هذا القلم عديم الذوق».

قال هنري بحدة: «أنت لست شخصاً مؤهلاً للحديث عن الذوق».

ساد صمت طويل، مال خلاله باني إلى الوراق في كرسيه.
قال باني بنبرة فضولية: «والآن، ما أنواع الأقلام التي يستخدمها الجميع هنا؟ فرانسوا، أنت تفضل القلم الحبر الذي يُملأ بالحَبَّارة مثلي، صحيح؟»
«يمكنك قول ذلك».

وأشار إليّ كما لو كان مقدم برنامج حوارى: «وأنت، ما اسمك؟
روبرت؟ ما نوع الأقلام التي علموك استخدامها في كاليفورنيا؟»
قلت: «القلم الجاف».

أوماً باني بعمق: «رجل صادق أيها السادة، ذوقه بسيط،
يكشف أوراقه على الطاولة، يروق لي ذلك».
وفجأة، فتح الباب ودخل التوأمان.

«ما الذي تصرخ بشأنه يا بان؟» قال تشارلز وهو يضحك، ركل الباب ليغلقه خلفه. «سمعناك من آخر الممر».
انطلق باني يروي قصة قلم مون بلانك.

انحرفت بارتباك نحو زاوية الغرفة، وبدأت أتفحص الكتب الموجودة في خزانة الكتب.

سألني صوت من ورائي: «منذ متى وأنت تدرس الكلاسيكيات؟»
كان ذلك هنري وقد استدار في مقعده لينظر إليّ.
قلت: «سنتين».

«ماذا قرأت باليونانية القديمة؟»

«العهد الجديد».

قال بغضب: «حسنًا، بالطبع قرأت الكوينه⁽¹⁾. ماذا غير ذلك؟
هل قرأت هوميروس والشعراء الغنائيين؟»
كنت أعلم أن هذا المجال هو شغف هنري ونفوذ، وخشيت
أن أكذب.

فأجبت: «قليلاً».

«وأفلاطون؟»

«نعم».

«كل أفلاطون؟».

«بعضه».

«ولكن كل أعماله مترجمة».

ترددت لحظة طويلة جدًا، فنظر إليّ هنري غير مصدق: «لا؟»
دسست يدي في جيبي معطفي الجديد، وقلت: «معظمه»، وكان
هذا ينافي الحقيقة.

«معظم ماذا؟ الحوارات؟ وماذا عن الكتابات اللاحقة؟ وماذا
عن أفلوطين⁽²⁾؟».

«أجل، قرأته». كنت أكذب، فلم أقرأ كلمة واحدة لأفلوطين
حتى يومنا هذا.

«ماذا قرأت له؟»

(1) الكوينه: اللغة العامة، وهي اللغة الإغريقية العامة من الحقبة الهلنستية وحتى
العصر الرومي الإمبراطوري.

(2) فيلسوف إغريقي، يعد أبرز ممثلي الأفلاطونية المُحدثة. يُعرف في المصادر
العربية بـ «الشيخ اليوناني». جميع المعلومات المتوفرة عن الفيلسوف أفلوطين أتت
من تلميذه فرفيوس ودونها في مقدمة كتاب «التاسوعات» لأفلوطين.

لسوء الحظ، أصبح ذهني فارغاً، ولم أستطع التفكير في أي شيء كنت أعلم يقيناً أن أفلوطين قد كتبه. القصيدة الرعوية لا، اللعنة، إنها ليفرجيل. قلت: «في الواقع، أنا لا أهتم كثيراً بأفلوطين».

«لماذا؟»

كان يسألني كأنه شرطي. فكرت متحسراً على فصلي القديم الذي تركته من أجل هذا الفصل: مقدمة للدراما، مع السيد لانيان المرح الذي جعلنا نستلقي على الأرض ونمارس تمارين الاسترخاء فيما هو يتجول ويقول أشياء مثل: «الآن تخيلوا أجسامكم تمتلئ بسائل برتقالي بارد».

لم أجب عن سؤال أفلوطين بالسرعة الكافية التي تناسب مزاج هنري، فقال شيئاً سريعاً باللغة اللاتينية. «أستميحك عذراً؟»

نظر إليّ ببرود، وقال: «لا تهتم»، وانحنى ثانية فوق كتابه.

ولإخفاء ارتباكِي، التفت إلى رف الكتب.

سمعت بانِي يقول: «أأنت سعيد الآن؟ أعتقد أنك وبخته بشدة، أليس كذلك؟».

جاء تشارلز ناحيتي ليلقي التحية وقد أثار ذلك ارتياحي، كان ودوداً وهادئاً تماماً، لكننا بالكاد تبادلنا التحيات عندما فُتح الباب، وعمَّ الصمت مع دخول جوليان وإغلاقه الباب خلفه بهدوء.

قال: «صباح الخير. هل قابلتم طالبنا الجديد؟»

قال فرانسيس بنبرة بدت ضجرة وهو يسحب مقعداً لكاميل، ثم ينزل فوق كرسيه: «أجل».

«رائع. تشارلز، هل يمكنك صب الماء من أجل الشاي؟»

دخل تشارلز إلى غرفة جلوس صغيرة، لا يزيد حجمها عن خزانة، وسمعت صوت المياه الجارية. (لم أعرف قط ما الذي كان في غرفة الجلوس هذه أو كيف تمكن جوليان بأعجوبة من إخراج وجبات مكونة من أربعة أطباق منها). ثم خرج وأغلق الباب خلفه، وجلس.

قال جوليان وهو يطوف بنظره حول الطاولة: «حسنًا. آمل أن نكون جميعًا مستعدين لترك العالم الظاهري وولوج العالم السامي؟».

كان متكلمًا مفوّهًا، ومتحدثًا ساحرًا، وأتمنى لو كنت قادرًا على إعطاء فكرة أفضل عما قاله، ولكن يصعب عليّ بعقلي المتواضع أن أنقل إليكم روعة حديثه، فبعد كل هذه السنوات يصعب تصوير كلمات شخص لامع من دون فقدان الكثير أثناء نقلها. كان موضوع النقاش في ذلك اليوم عن فقدان الذات، وعن صور الجنون الإلهي الأربع لأفلاطون، وعن الجنون بمختلف أشكاله. بدأ بالحديث بما سماه عبء الذات متسائلًا عن سبب رغبة الناس في فقدان ذواتهم في المقام الأول.

قال وهو ينظر حول الطاولة: «لماذا يعذبنا هذا الصوت العنيد في رؤوسنا إلى هذا الحد؟ هل لأنه يذكرنا بوجودنا وبفنائنا وبأرواحنا الفردية التي نخاف فقدانها، ولكنها في نفس الوقت مصدر بؤسنا؟ ولكن أليس الألم أيضًا هو ما يجعلنا أحيانًا أكثر وعيًا بذواتنا؟ إنه لأمر مروع أن ندرك في طفولتنا أننا كيانات منفصلة عن العالم، وأنها فقط من سيتألم عندما نحرق ألسنتنا

أو نجرح رُكبنا، فالأما الجسدية والنفسية هي ملكنا وحدنا، ولا يشعر بها أحد سوانا. والأمر الأكثر فظاعة هو أننا عندما نكبر ندرك أنه لا يمكن لأي شخص أن يفهمنا حق الفهم مهما كان يحبنا.

ذواتنا هي سبب بؤسنا، ولهذا السبب نحن تواقون جدًا إلى فقدانها، ألا تعتقدون ذلك؟ هل تتذكرون الآلهة الإيرينيات⁽¹⁾؟ قال باني وقد تألقت عيناه ثم اختفت تحت خصلة من شعره: «الفوريوس».

«بالضبط. لقد دفعوا الناس إلى الجنون من خلال رفع أصوات مونولوجاتهم الداخلية وتضخيم صفاتهم إلى أقصى حد، وجعلوا الناس يبالغون في حب ذواتهم لدرجة أنهم لم يطيقوها. ولكن كيف يمكننا التخلص من هذه الذات المجنونة؟»

تابع: «الحب؟ نعم، ولكن كما سمع سيفالوس العجوز سوفوكليس يقول ذات مرة: «أقلنا يعرف أن الحب سيد قاسٍ وفضيع. يخسر المرء نفسه من أجل الآخر، لكنه يصبح بذلك عبدًا بائسًا لأكثر الآلهة نزوة».

الحرب؟ يمكن للمرء أن يفقد نفسه في متعة المعركة والقتال من أجل قضية نبيلة، ولكن أين هي القضايا النبيلة في أيامنا

(1) آلهة انتقام أنثى شثونية في الديانات والأساطير الإغريقية القديمة. كما يوصفون في الإلياذة بأنهم «الإيرينيات اللاتي يخرجن من تحت الأرض للانتقام من الرجال الذين يقسمون اليمين الكاذبة».

هذه؟» ضحك. «فبعد أن ولَّى عهد زينوفون⁽¹⁾ وثوسيديدس⁽²⁾، أشك في وجود شباب يضاهونهما في التكتيكات العسكرية هذه الأيام. أنا متأكد من أنكم تستطيعون السير في بلدة هامبدن واحتلالها وحدكم إذا أردتم ذلك!».

ضحك هنري، وقال: «يمكننا أن نفعل ذلك بعد ظهر اليوم بمعونة ستة رجال فقط».

قال الجميع في وقت واحد: «كيف؟»

«شخص واحد سيقطع خطوط الهاتف والكهرباء، وآخر سيتمركز أمام الجسر فوق نهر باتينكيل، وثالث أمام الطريق الرئيسي إلى الشمال. يمكن لبقيتنا التقدم من الجنوب والغرب. نحن قليلون، ولكن إذا تفرقنا فسنتمكن من إغلاق جميع نقاط الدخول الأخرى» وهنا مد يده، وفتح أصابعه على نطاق واسع «ثم يمكننا التقدم إلى المركز من جميع النقاط». أغلق أصابعه في قبضة قوية. قال: «بالطبع، سنمتلك ميزة المفاجأة»، وسرت بداخلي رعشة مباغته بسبب برودة صوته.

ضحك جوليان: «وكم سنة مضت منذ أن تدخلت الآلهة في حروب البشر؟ أتوقع أن ينزل أبولو وأثينا نيكى للقتال إلى جانبكم، (مدعوّين أو غير مدعوّين)، كما قال العراف في دلفي للإسبرطيين، تخيلوا أي أبطال ستصبحون».

(1) جندي ومؤرخ وكاتب فلسفي إغريقي عاش في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. كان أحد تلاميذ سقراط واشترك مع الفرس في حروبهم.

(2) مؤرخ إغريقي شهير صاحب كتاب «تاريخ الحرب البيلوبونيسية»، ويعد أول مؤرخي الإغريق الذين أعطوا للعوامل الاقتصادية والاجتماعية أهمية خاصة.

قال فرانسيس ضاحكاً: «أنصاف آلهة، يمكننا الجلوس على عروش في ساحة البلدة».

«بينما التجار المحليون يدفعون لكم الجزية».

«ذهباً وطواويس وعاجاً».

قال باني: «بل جبن الشيدر والمقرمشات الشائعة أقرب إلى الواقع».

سارع جوليان إلى القول وقد أزعجته الملاحظة المتعلقة بالمقرمشات الشائعة: «إراقة الدماء أمر مريع، لكن الأجزاء الأكثر دموية في هوميروس وإسخيلوس كثيراً ما تكون الأكثر روعة، خذوا على سبيل المثال ذلك الخطاب المجيد الذي ألقته كليتمنسترا⁽¹⁾ على أجاممنون والذي أحبه كثيراً. كاميلا، لعبت دور كليتمنسترا عندما مثلنا الأوريستيا⁽²⁾؛ هل ما زلت تتذكرين شيئاً من ذلك؟»

(1) كليتمنسترا أميرة في الأساطير الإغريقية. تزوجت من أجاممنون ملك مسيني، وتزوجت أختها هيلين أخاه منيلاوس. أنجبت كليتمنسترا ابناً هو أوريستيس، وثلاث بنات هن إيفيجينيا والكترا وكريستوميس. وكما تقول الأسطورة، ذبح أجاممنون ابنته إيفيجينيا كي تسخر الآلهة الريح لأسطول الإغريق المبحر لمهاجمة طروادة، وقد كرهت كليتمنسترا أجاممنون لتضحيته بابنتهما، وأجلت انتقامها عشر سنين حتى تضع الحرب أوزارها.

وبينما هي في انتظار عودة أجاممنون وقعت في حب ابن عمه إيجيستوس، وعند عودة زوجها من طروادة قتلته هي وإيجيستوس. ثم جاء أوريستيس فانتقم لمقتل أبيه بقتلها هي وإيجيستوس.

(2) ثلاثية من التراجيديات اليونانية كتبها إسخيلوس في القرن الخامس قبل الميلاد تتحدث عن مقتل أجاممنون على يد زوجته كليتمنسترا ومقتل كليتمنسترا على يد أوريستيس ومحاكمة أوريستيس ونهاية اللعنة على آل أتريوس وإحلال السلام مع الإرينيات. كما تُظهر الثلاثية كيفية تفاعل الآلهة الإغريق مع الشخصيات وتأثيرهم في قراراتهم المتعلقة بالأحداث والنزاعات.

كان الضوء القادم من النافذة ينسكب مباشرة فوق وجهها فبدت أكثر إشراقًا؛ في مثل هذا النور الساطع يبدو معظم الناس باهتين، لكن ملامحها الواضحة والجميلة كانت باهرة، حتى هالتي النظر إليها؛ إلى عينيها الشاحبتين والمشعيتين برموشهما الداكنة، إلى البريق الذهبي في صدغها الذي يتمازج تدريجيًا في شعرها اللامع الدافئ كالعسل.

قالت: «أتذكر قليلًا».

بينما تنظر إلى بقعة على الجدار فوق رأسي، بدأت بتلاوة السطور، حدقت إليها، هل لها عشيق؛ فرانسيس ربما؟ كانا مقربين، لكن فرانسيس لم يكن يبدو من النوع الذي يهتم كثيرًا بالفتيات والعلاقات الرومانسية. لا يعني ذلك أنني كنت أحظى بفرصة كبيرة، إذ كانت محاطة بكل هؤلاء الشباب الأثرياء الأذكى الذين يرتدون بدلات داكنة؛ أما أنا فكنت أملك يدين خرقاوين وأساليب تقليدية مضجرة.

كان صوتها باللغة اليونانية القديمة وثاقًا ومنخفضًا وجميلًا. «وهكذا مات وتسريت منه الحياة كلها، وعندما فارقت روحه الجسد، رشني بمطر عارم أحمر قان مُرّ المذاق ليجعلني سعيدة، كما تقف البساتين بين زخات الرب في مجدٍ بينما تتفتّح البراعم». ساد صمت قصير بعد أن انتهت من كلامها، ولدهشتي غمز هنري لها بجدية عبر الطاولة.

ابتسم جوليان. قال: «يا له من مقطع جميل، لا أمل أبدًا من الاستماع إليه، ولكن كيف يمكن لشيء مروّع مثل طعن ملكة لزوجها أن يكون جميلًا؟»

قال فرانسيس: «إنه سحر التفعيلة الشعرية، التفعيلة الثلاثية، إنها تجعل حتى أكثر المشاهد بشاعة تبدو ساحرة، خذ على سبيل المثال بيير دي ميديسينا⁽¹⁾، أنفه بالكامل مجدوع ويتحدث من خلال شق دموي في قصبته الهوائية».

قال تشارلز: «يمكنني التفكير في أمثلة أسوأ من ذلك».

«وأنا أيضاً، ولكن هذا المقطع جميل، وذلك بسبب تيرزا ريمما⁽²⁾. إنه جمال الموسيقى الشعرية، يتردد صدى التفعيلة الثلاثية خلال حديث كليتمسترا مثل جرس».

قال جوليان: «لكن التفعيلة الثلاثية شائعة في القصائد الغنائية الإغريقية، أليس كذلك؟ لماذا يخطف هذا المقطع بالذات أنفاسنا؟ لماذا لا نجد أنفسنا منجذبين إلى قصيدة أهدأ أو أكثر سروراً؟»

قال هنري: «يقول أرسطو في كتابه «فن الشعر» إن رؤية أشياء مثل الجثث أمر مؤلم، ولكن تأملها في عمل فني يمكن أن يكون مصدر متعة».

«أعتقد أن أرسطو محق، في النهاية ما أكثر الصور الشعرية التي تبقى محفورة في ذاكرتنا، تلك التي نهيم بها أكثر؟ إنها تلك المشاهد بالتحديد. مقتل أجاممنون وسورة غضب أخيل.

(1) أحد الخطّائين في جحيم دانتي.

(2) تيرزا ريمما أو المقطع ثلاثي الأبيات: شكل شعر مقفى، حيث تتكون القصيدة، أو كل قسم من مقاطع القصيدة، من ثلاث أسطر (مقاطع من ثلاثة أسطر) مع نظام قافية متشابه من ثلاثة أسطر: الكلمة الأخيرة من السطر الثاني في ثلاثية واحدة توفر قافية للسطر الأول. والسطر الثالث في الثلاثي الذي يليه. وربما أقرب صورة له في الشعر العربي هو الموشحة.

عليسة⁽¹⁾ على المحرقة الجنائزية. خناجر الخونة ودماء قيصر،
هل تذكرون كيف وصف سوتونيوس جسده وهو محمول على
المحفة وذراعه متدلّية إلى أسفل؟»

قال هنري: «الموت هو أبو الجمال».

«وما الجمال؟»

«الجمال رعب».

«أحسنّت الإجابة. نادرًا ما يكون الجمال رقيقًا أو مواسيًا، بل
هو النقيض تمامًا، لطالما كان الجمال الحقيقي مخيفًا جدًا».

نظرتُ إلى كاميلّا ووجهها المتوهج في سنا الشمس، وفكرتُ
في هذا البيت من الإلياذة الذي أحبه كثيرًا عن بالاس أثينا⁽²⁾
والأعين الرهيبة اللامعة.

قال جوليان: «وإذا كان الجمال رعبًا، فما الرغبة إذن؟ نعتقد
أن لدينا كثيرًا من الرغبات، ولكن في الواقع لدينا رغبة واحدة
فقط. ما هي؟»

قالت كاميلّا: «الرغبة في العيش».

أضاف باني مستندًا بذقنه على كفه: «في العيش إلى الأبد».
بدأت غلاية الشاي تصفر.

(1) عليسة وتعرف أيضًا بأليسا أو أليسار: شخصية أسطورية لم يثبت وجودها وهي ابنة ملك صور ومؤسسة قرطاج وملكتها الأولى. اشتهرت بعد ذكرها في الإنياذة التي كتبها فرجيل وعرفت بدعائها وحسن تديرها؛ ما سمح لها بإنشاء وحكم قرطاج في شمال إفريقيا.

(2) إلهة الحكمة والقوة والحرب وحامية المدينة في الأساطير الإغريقية. وبالاس لقب لصيق بالمعبودة الإغريقية أثينا بحيث ترد في حالات عديدة باسم «بالاس أثينا».

ما إن وُضِعَت الأكواب على المائدة، وصب هنري شيئاً برتقالياً دافئاً مثل ثمرة ماندرين، شرعنا في التحدث عن صور الجنون الذي أحدثته الآلهة: الشعري، والنبوي، وأخيراً الجنون الباخوسي⁽¹⁾.

قال جوليان: «والجنون الباخوسي هو الأكثر غموضاً، نحن نميل إلى الاعتقاد بأن النشوة الدينية تقتصر على المجتمعات البدائية فقط، ولكنها تحدث أيضاً في المجتمعات الأكثر تحضراً وثقافة. كما تعلمون، لم يكن الإغريق مختلفين كثيراً عنا. كانوا شعباً رسمياً جداً، ومتحضرين، ومقموعين إلى حد ما. ومع ذلك فقد انغمسوا في بعض الأحيان في أنشطة حماسية عنيفة مثل الرقص وطقوس الانتشاء والذبح والرؤى، والتي قد نعوها في عصرنا هذا علامات على الجنون السريري. ومع ذلك كان الإغريق قادرين -بعضهم على أي حال- أن يدخلوا ويخرجوا من تلك الطقوس كما يحلو لهم، لا يمكننا إنكار هذه الروايات أو تجاهلها على أنها خرافات، فقد وُثِّقَت جيداً، على الرغم من أن المعلقين القدماء كانوا محتارين بشأنها مثلنا. فمنهم من يعزوها إلى الصلاة والصوم، ومنهم يعزوها إلى تأثير الكحول. من المؤكد أن الطبيعة الجماعية لهذه الطقوس أدت دوراً في شدة تأثيرها، ومع ذلك يصعب تفسير مدى تطرف هذه الظاهرة».

وتابع قائلاً: «بيدو أن المشاركين في هذه الطقوس قد انغمسوا

(1) الباخوسي أو الديونيسي نسبة إلى الإلهة ديونيسوس أو باخوس في الميثولوجيا الإغريقية. وهو إله الخمر وملهم طقوس الابتهاج والنشوة وعادة ما تكون في سياق الحديث مرادف للجنون والطيش والفوضى.

في حالة غير عقلانية تسبق مرحلة التفكير، فقد استُبدلت شخصياتهم بشيء مختلف تمامًا، وأُعني بكلمة «مختلف» شيئاً ليس فانيًا بأي شكل، شيئاً غير إنساني».

فكرت في مسرحية «الباخوسيات»⁽¹⁾ التي أشعرتني عنفها ووحشيتها بالاضطراب، تمامًا مثل سادية إلهها باخوس المتعطش للدماء.

كانت هذه المسرحية انتصاراً للهمجية على العقل؛ مظلمة وفوضوية ولا يمكن تبريرها، مقارنة بالتراجيديات الأخرى التي سادت فيها مبادئ العدالة.

قال جوليان: «لا يروق لنا الاعتراف بذلك، لكن فكرة فقدان السيطرة تثير إعجاب الأشخاص المُتحكِّم فيهم مثلنا أكثر من أي شيء آخر. كل الشعوب المتحضرة -القدماء لا يختلفون عنا- وصلت إلى تحضرها من خلال القمع المتعمد للذات الحيوانية العتيقة داخلهم. هل نحن -الجالسين في هذه القاعة- مختلفون كثيرًا عن الإغريق أو الرومان؟ ألسنا مهووسين بالواجب والتقوى والولاء والتضحية؟ كل تلك الأشياء التي تقشعر لها الأبدان بالنسبة إلى الأذواق الحديثة؟».

جلت بعينيَّ حول الطاولة إلى الوجوه الستة، كانوا مخيفين بعض الشيء وفقًا لمعايير الأذواق الحديثة، تخيلت أن أي أستاذ آخر كان سيهاثف مكتب الاستشارة النفسية في غضون خمس دقائق إذا سمع ما قاله هنري عن تسليح طلاب صف الإغريقية والزحف نحو بلدة هامبدن.

(1) دراما كتبها الشاعر يوربيديس كجزء ثالث من إحدى رباعياته.

«إنها غواية لأي شخص ذكي، لا سيما أولئك الذين يسعون إلى الكمال مثلنا نحن والقدماء، محاولة قتل الذات البدائية والعاطفية والشهوانية، ولكن ذلك خطأ».

فاستفسر فرانسيس وهو يميل قليلاً إلى الأمام: «لماذا؟».

قوُس جوليان أحد حاجبيه، فبدا أنفه الطويل الحكيم كأنه يدفع جانب وجهه إلى الأمام مثل تمثال إتروسكاني قديم: «لأنه من الخطر تجاهل وجود اللا عقلاني، فكلما كان الشخص أكثر ثقافة وذكاءً وتعرضاً للقمع احتاج إلى وسيلة لتوجيه دوافعه البدائية التي عمل جاهداً على إخضاعها، وإلا فستتجمع هذه القوى العتيقة الباطشة وتشتد حتى تصبح عنيفة بما يكفي لتحرير نفسها بالقوة، وعادة ما تكون ساحقة بما يكفي لاكتساح إرادة الفرد بالكامل، ولإدراك ما قد يحدث في حالة عدم وجود صمام الأمان هذا، يمكننا النظر إلى مثال الرومان، وبالتحديد الأباطرة.

على سبيل المثال، فكروا في تيبيريوس⁽¹⁾، ابن الزوجة القبيح، الذي حاول جاهداً أن يرقى إلى مستوى أوامر زوج أمه أوغسطس، فكروا في الضغط الهائل والمستحيل الذي تعرض له وهو يسير على خطى مخلص، على خطى إله، لقد مقته الناس. مهما بذل من جهد، لم يكن جيداً بما فيه الكفاية، ولم يتمكن قط من

(1) تيبيريوس قيصر (اسمه الأصلي تيبيريوس كلاوديوس نيرون على اسم أبيه): الامبراطور الروماني الثاني. خلف أوغسطس قيصر وكان ابنه بالتبني وصهرًا له. أشرف هيرودس على بناء مدينة طبريا بفلسطين والتي سميت تيمناً باسمه على بحر الجليل. عجل بموته كاليجولا الذي خلفه.

التخلص من الذات الكارهة، وفي النهاية انهارت البوابات التي تحتجز الفيضان داخله. اكتسحته انحرافاته وضلالاته، ومات عجزاً ومجنوناً وضائعاً في حدائق المتعة في كابري، لم يكن حتى سعيداً هناك -كما قد يأمل المرء- بل كان بائساً.

قبل وفاته كتب رسالة إلى مجلس الشيوخ الروماني، قال فيها: «أتمنى أن يزورني جميع الآلهة والإلهات حاملين معهم دماراً أكبر مما أشعر أنني أعانيه يومياً»، وفكروا فيمن جاء بعده: كاليجولا، نيرو». سكت هنيهة قبل أن يتابع: «كانت عبقرية الرومان -أو ربما عيبهم- تكمن في هوسهم بالنظام، يمكن للمرء أن يرى ذلك في هندستهم المعمارية وأدبهم وقوانينهم، هذا الإنكار الشرس والمتزمت للظلامية واللاعقلانية والفوضى». ضحك، ثم تابع: «من السهل أن نرى لماذا اضطهد الرومان -الذين عادة ما يكونون متسامحين جداً مع الديانات الأجنبية- المسيحيين بلا رحمة، كم هو مرعب التفكير في أن شخصاً عادياً قد نهض من بين الأموات، وكم هو مروع احتفال أتباعه بشرب دمه. أخافتهم هذه الفكرة غير المنطقية، ففعلوا كل ما في وسعهم لسحقها. في الواقع أعتقد أن السبب وراء اتخاذهم مثل هذه الخطوات الجذرية هو أنهم لم يكونوا مرعوبين منها فحسب، بل كانوا منجذبين إليها بشدة. عادة ما يكون البراغماتيون⁽¹⁾ مؤمنين بالخرافات بغرابة. ورغم كل منطقهم، من ذا الذي عاش في رعب خارق للطبيعة أكثر دناءة من الرومان؟

(1) البراغماتية: اسم مشتق من اللفظ اليوناني القديم «براغما» ومعناه العمل، وهي مذهب فلسفي وسياسي يرى نجاح العمل المعيار الوحيد للحقيقة.

كان الإغريق مختلفين، لقد شغفوا بالنظام والتناسق مثل كثير من الرومان، ولكنهم أدركوا حماقة إنكار العالم غير المرئي ووجود الآلهة القديمة، لقد فهموا العاطفة والظلام والهمجية». نظر إلى السقف لحظة، وبدأ وجهه متكدراً وهو يقول: «هل تتذكرون ما كنا نتحدث عنه سابقاً عن مدى جمالية الأشياء الدموية والفضيعة في بعض الأحيان؟» استدرك: «إنها فكرة إغريقية عميقة جداً: (الجمال رعب). كل ما نسميه جميلاً نرتجف أمامه. وما الذي يمكن أن يكون أكثر رعباً وجمالاً لأرواح مثل الإغريق أو أرواحنا من فقدان السيطرة تماماً؟ أن نتخلص من قيود وجودنا للحظة، وأن نتخلص من عبء ذواتنا الفانية؟ يتحدث يوربيديس⁽¹⁾ عن نساء ميناد⁽²⁾: «ألقيت رأسي إلى الخلف، وحلقي نحو النجوم، أشبه بغزال أكثر مني إنساناً». أن تكون حراً تماماً! بالطبع يمكن للمرء أن يتعامل مع هذه الأحاسيس المدمرة بطرائق أكثر ابتذالاً وأقل كفاءة، ولكن كم هو مجيد أن نطلق لها العنان دفعة واحدة! أن تغني، أن تصرخ، أن ترقص حافي القدمين في الغابة في جوف الليل، بلا وعي بالفناء أكثر من وعي حيوان! هذه طقوس قوية. خوار الثيران وينايب العسل تتدفق من باطن الأرض، إذا كنا أقوياء بما يكفي في دواخلنا، فيمكننا أن نمزق الحُجُب وننظر إلى ذلك الجمال العاري والرهيب وجهاً لوجه: لنتماهى مع النفحات الريبانية ونتخلى عن ذواتنا وأجسامنا ونفنى حتى نولد من جديد».

(1) يوربيديس: شاعر مسرحي تراجيدي إغريقي ولد في سالاميس 480 ق.م، وتوفي في مقدونيا 406 ق.م.

(2) نساء ميناد هم تابعات الإله باخوس وأبرز أعضاء حاشيته.

كنا جميعاً منحنين إلى الأمام بلا حراك مأخوذين بكلماته،
فمي مفتوح في ذهول، مدرك لكل نفس أتنفسه.
«هذا هو الإغراء الرهيب للطقوس الباخوسية، من الصعب
علينا أن نتخيلها، إنها نار تتبع من كيان نقي».

بعد انتهاء المحاضرة، تجولت في الطابق السفلي في حالة
أشبه بالمنام، رأسي يدور، ولكنني في الوقت نفسه واعٍ بحدة
وبألم بأنني على قيد الحياة وشاب في يوم جميل؛ كانت زرقاة
السماء عميقة ومؤلمة، والرياح تثر الأوراق الحمراء والصفراء
في زوبعة من قصاصات الورق.

الجمال رعب. كل ما نسميه جميلاً، نرتجف أمامه.

في تلك الليلة كتبت في يومياتي: «الأشجار مصابة بالفصام
الآن وبدأت تفقد السيطرة، ساخطة من صدمة ألوانها النارية
الجديدة. أحدهم -أكان فان جوخ؟- قال إن اللون البرتقالي هو
لون الجنون. الجمال رعب. نرغب في أن يلتهمنا، وفي الاختباء
في تلك النار التي تتقينا».

ذهبت إلى مكتب البريد، (طلاب ضجرون، كما هو معتاد)،
وأنا لا أزال أشعر بدوار رهيب. أرسلت بطاقة بريدية مصورة
لأمي، تحمل صورة أشجار القيقب النارية وجدول جبلي، وعلى
ظهر البطاقة نص ينصح قارئها: «خطط لزيارة فيرمونت بين 25
سبتمبر و15 أكتوبر لمشاهدة روعة تساقط أوراق الخريف في
أبهى أشكالها».

وبينما كنت أدس البطاقة في فتحة صندوق البريد المرسل خارج البلدة، رأيت باني في الجهة المقابلة من الغرفة وظهره إليّ وهو يتفحص صف الصناديق المرقمة. توقف أمام صندوق بريدي، وانحنى لوضع شيء ما داخله، ثم استقام فجأة وخرج مسرعاً ويداه في جيبه وشعره يتطاير في كل مكان.

انتظرت حتى رحل، ثم ذهبت إلى صندوقي، كان داخله مظروف أصفر فاتح -ورق سميك ورسمي جداً- ولكن خط اليد المكتوب بقلم رصاص كان مائلاً وطفولياً، يشبه خط يد طالب في الصف الخامس. وكانت الملاحظة داخل المظروف مكتوبة بالقلم الرصاص أيضاً، صغيرة وغير متساوية الحواف ويصعب قراءتها:

ريتشارد، يا رجل، ما رأيك في تناول الغداء يوم السبت، ربما نحو الواحدة؟ أعرف مطعمًا صغيرًا رائعًا، يقدمون كوكتيلات وأطعمة لذيذة، على حسابي. أرجوك، تعال.

المخلص بان

ملاحظة: البس ربطة عنق. أنا متأكد من أنك ستفعل ذلك على أي حال، لكنهم في المطعم يمسون بأي شخص لا يرتدي ربطة عنق ويلبسونه واحدة.

فحصت الرسالة، ثم وضعتها في جيبتي، كنت على وشك المغادرة عندما كدت أصطدم بالدكتور رولاند وهو يدخل من الباب، في البداية لم يبدُ أنه تعرف عليّ، ولكن عندما ظننت أنني سأفقت منه، بدأت ملامح وجهه تتغير، وبدا من نظرته أنه عرفني.

«مرحباً يا دكتور» قلت، متخلياً عن أي أمل في النجاة.

«كيف حالها يا فتى؟» كان يقصد سيارتي الخيالية. عبرت في مخيلتي لوهلة كريستين⁽¹⁾ وتشيتي-تشيتي بانغ-بانغ⁽²⁾.

قلت: «جيدة».

«أخذتها إلى ورشة إصلاح السيارات المستعملة؟»

«نعم».

«وكانت المشكلة في رأس المحرك؟».

قلت: «أجل»، ثم أدركت أنني أخبرته سابقاً أن المشكلة كانت في ناقل الحركة، لكن الدكتور رولاند بدأ الآن بإلقاء محاضرة تثقيفية عن وظيفة رأس المحرك وكيفية العناية به.

واختتم كلامه قائلاً: «هذه إحدى المشكلات الرئيسة التي تواجهك مع سيارة أجنبية. يمكنك إهدار كمية كبيرة من الزيت بهذه الكيفية، سيزداد استهلاكك لصفائح زيت بنسلفانيا قبل أن تدرك ذلك، وذاك الزيت ليس مجانياً».

نظر إليّ نظرة ذات مغزى.

سأل: «من الذي باعك رأس المحرك؟».

«لا أستطيع أن أتذكر»، قلت، وأنا أتأرجح على حافة غيبوبة من فرط الملل، ولكنني في نفس الوقت أتسلل رويداً رويداً من الباب.

(1) كريستين: سيارة من طراز بلايموث فيوري موديل 1958 تسكنها على ما يبدو قوى خارقة للطبيعة، في رواية تحمل الاسم نفسه لستيفين كينج نُشرت عام 1983 وتحولت إلى فيلم صدر في العام نفسه.

(2) سيارة سباق عتيقة تظهر في رواية أطفال تحمل عنوان تشيتي تشيتي بانغ بانغ: السيارة السحرية لإيان فلمنج نُشرت العام 1964، وتحولت إلى فيلم موسيقي، واقتبست للمسرح.

«هل كان اسمه بود؟»

«أعتقد ذلك».

«أو بيل، بيل هوندي رجل جيد».

قلت: «أعتقد أنه كان بود».

«ما رأيك في هذا القيق الأزرق العجوز؟»

لم أكن متأكدًا إنَّ كان يشير بهذا اللقب إلى ذلك المدعو بود أم إلى طائر القيق الأزرق حرفيًا، أم إنَّ كنا نتجه إلى منطقة خرف الشيخوخة الذي يعانيه. كان من الصعب أحيانًا تصديق أن الدكتور رولاند كان أستاذًا دائمًا في قسم العلوم الاجتماعية في هذه الكلية المتميزة، كان أشبه برجل عجوز رث الثياب يجلس إلى جانبك في الحافلة ويحاول أن يريك قصاصات من الورق احتفظ بها مطوية في محفظته.

كان يراجع بعض المعلومات التي قدمها لي سابقًا بشأن رأس المحرك، وكنت أنتظر لحظة مناسبة لأتذكر فجأة أنني تأخرت عن موعد، عندما لاح صديق الدكتور رولاند الدكتور بليند وهو يتقدم بخطوات متثاقلة، مشرق الوجه متكئًا على عصا. كان الدكتور بلايند (يُنطق «بليند») في التسعين من عمره تقريبًا، وقد درَّس على مدار الخمسين عامًا الماضية مقررًا يسمى «الفضاءات الفرعية الثابتة»، واشتهر برتابته وعدم وضوحه، بالإضافة إلى امتحانه النهائي الغريب الذي يتكون -بقدر ما يمكن لأي شخص أن يتذكر- من سؤال واحد فقط يتطلب إجابة بنعم أو لا. وكان السؤال مكونًا من ثلاث صفحات ولكن الإجابة دائمًا «نعم». هذا كل ما تحتاج إلى معرفته لاجتياز مقرر «الفضاءات الفرعية الثابتة».

والدكتور بليند أكثر ثرثرة من الدكتور رولاند. كانا معاً مثل
أحد تحالف الأبطال الخارقين في الكتب المصورة، لا يقهران،
اتحاد من الملل والارتباك لا يمكن هزيمته. تمتعت بعذر ما،
وتسللت مبتعداً، تاركاً إياهما لأحاديثهما التي لا تتضب.

الفصل الثاني

تمنيت أن يكون الطقس بارداً في يوم الغداء مع باني لأن أفضل سترة أملكها كانت من التويد الداكن الخشن، لكن عندما استيقظت يوم السبت كان الطقس حاراً، وازداد سخونة مع مرور الوقت.

قال الفراش وأنا أتجاوزه في الممر: « يبدو أنه سيكون يوماً قائظاً، إنه صيف هندي ».

السترة التي ارتديها جميلة، مصنوعة من الصوف الأيرلندي بلون رمادي مع بقع بلون الطحلب الأخضر، اشتريتها من سان فرانسيسكو بكل سنت ادخرته من عملي الصيفي، ولكن في ذلك اليوم المشمس شعرت أنها ثقيلة بعض الشيء، ارتديتها وتوجهت إلى الحمام لضبط ربطة عنقي.

لم أكن في مزاج للحديث، وفوجئت بمفاجأة غير سارة عندما رأيت جودي بوفي تتظّف أسنانها أمام المغسلة. عاشت جودي بوفي على بعد بضعة أبواب مني، واعتقدت أنه يجب أن يكون بيننا كثير من الأمور المشتركة لأنها من لوس أنجلوس. لقد لاحقتني في الممرات، وحاولت أن ترغمني على الرقص معها في الحفلات. أخبرت كثيراً من الفتيات أنني حبيبها. كانت ترتدي ملابس جامحة، ولها شعر بني داكن تتخلله خصلات أفتح، وتملك سيارة كورفيت حمراء عليها لوحة معدنية تشير إلى كاليفورنيا وتحمل اسمها بحروف كبيرة جودي بي. كان صوتها مرتفعاً، وكان صراخها يتردد في أرجاء السكن الجامعي مثل صياح بعض الطيور الاستوائية المرعبة.

قالت: «مرحباً ريتشارد»، ثم بصقت كمية كبيرة من معجون الأسنان.

كانت ترتدي بنطلون جينز، مرسوم عليه تصاميم غريبة ومجنونة بقلم سميك، وقميصاً من قماش مرن يكشف عن خصرها الرشيق بسبب ممارستها تمارين الأيروبيك بكثرة. «مرحباً»، قلت وأنا أستعد للعمل على تثبيت ربطة عنقي.

«تبدو وسيماً اليوم».

«شكراً».

«هل لديك موعد غرامي؟»

استدرت بعيداً عن المرأة، ونظرت إليها باستغراب: «ماذا؟».

«إلى أين أنت ذاهب؟»

كنت معتاداً على استجواباتها: «سأخرج لتناول الغداء».

«مع من؟»

«باني كوركوران».

«هل تعرف باني؟»

التفتُ للنظر إليها مرة أخرى: «تقريباً. هل تعرفينه؟».

«بالتأكيد. كان في صف تاريخ الفن معي، إنه مرح. لكنني

أكره صديقه العبقري غريب الأطوار ذاك الذي يرتدي النظارة، ما اسمه؟».

«هنري؟».

«نعم هو». انحنت مقتربة من المرأة، وبدأت في نفش شعرها

وتدوير رأسها يميناً ويساراً. لاحظتُ أظافرها الصناعية الحمراء من ماركة شانيل، كانت طويلة جداً إلى درجة بدت أنها من النوع

الرخيص الذي يمكن شراؤه من متجر الأدوية، تابعت قائلة:
«أعتقد أنه متعجرف».

قلت بغضب: «أنا معجب بشخصيته إلى حد ما».

«أنا لست كذلك». ثم فرقت شعرها من المنتصف مستخدمة
ظفر سبابتها المقوس كمشط. «كان دائماً بغيضاً معي، أكره هذين
التوأمين أيضاً».

«لماذا؟ التوأمان لطيفان».

قالت وهي تنظر إليّ شذراً في المرأة: «أوه، حقاً؟ إذا اسمع،
في الحفلة التي أقيمت في الفصل الدراسي السابق، كنت ثملة
جداً، ورحت أرقص دون تركيز، تمام؟ كان كل منا يصطدم بالآخر
بعفوية، وفي خضم ذلك كانت الفتاة التوأم تسير وسط حلبة
الرقص، وفجأة ارتطمتُ بها مباشرة بقوة. ثم قالت شيئاً فظاً،
شيئاً لا مبرر له على الإطلاق، ودون وعي مني ألقيت البيرة في
وجهها. كانت إحدى تلك الليالي التي فقدت فيها السيطرة، كنت
ثملة جداً لدرجة أنني سكبت على نفسي ستة أكواب من البيرة،
وفي تلك اللحظة بدا وكأنني أفعل الصواب، أتفهمني؟

على أي حال، بدأت تصرخ في وجهي، وفي غضون نصف
ثانية ظهر التوأم الآخر وذلك الفتى المدعو هنري أمامي وكانا
على وشك ضربتي».

سحبت شعرها إلى الوراء بعيداً عن وجهها، وربطته في ضفيرة
على هيئة ذيل حصان، ثم تفحصت جانب وجهها في المرأة.

«على كل حال، كنت مخمورة، وهذان الرجلان قريبان مني
ويهددانني، وأنت تعلم أن هنري ضخم البنية. كان الموقف مخيفاً

بعض الشيء لكنني كنت ثملة جداً لدرجة أنني لم أهتم، وطلبت منهما أن يبتعدا».

استدارت بعيداً عن المرأة وابتسمت لي ببشاشة.

«كنت أشرب الكاميكازي في تلك الليلة، دائماً ما يحدث لي شيء فظيع عندما أشرب الكاميكازي، أحطم سيارتي أو أتورط في شجارات».

«ماذا حدث؟»

هزت كتفيها، وعادت لمواجهة المرأة.

«كما قلت، طلبت منهما أن يغربا عن وجهي فحسب، لكن الفتى التوأم بدأ يصرخ في وجهي. أتعلم، كان يبدو كأنه يريد قتلي حقاً! أما هنري فكان يقف هناك دون حراك، لكنه أرعبني أكثر من الآخر. على أي حال، أحد أصدقائي الذين اعتادوا المجيء إلى هنا، وهو شخص قوي جداً، كان عضواً في عصابة راكبي الدراجات النارية، المهووسين بالجنازير وما شابه، هل سمعت من قبل عن سبايك رومني؟».

«سمعت عنه، في الحقيقة رأيته في أول حفلة ذهبت إليها ليلة الجمعة. كان ضخماً، يزن أكثر من مئتي رطل، وكانت لديه ندوب على يديه ومشابك فولاذية لأصابع الأقدام فوق حذاء قيادة الدراجات طويل الرقبة الذي كان ينتعله».

«حسناً، على أي حال، أتى سبايك ورأى هؤلاء الأشخاص سيئون إليّ، فدفع التوأم في كتفه وطلب منه أن ينصرف، وقبل أن أعي ما يحدث، انقض الاثنان عليه، حاول كثير من الأشخاص إبعاد هنري أيضاً، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك، ستة رجال لم يستطيعوا جره بعيداً».

«انكسرت عظمة ترقوة سبايك وضلعين من أضلاعه، وتضرر وجهه بشدة. أخبرت سبايك أن عليه أن يتصل بالشرطة، لكنه كان متورطاً في مشكلة ما ولم يكن من المفترض أن يكون في الحرم الجامعي، كان مشهداً مريعاً مع ذلك».

تركت شعرها ينسدل ثانية حول وجهها.

«أعني أن سبايك قوي وشرس، كنت أعتقد أنه سيتمكن من التغلب على هؤلاء الرجال المخنثين الذين يرتدون البذلات وربطات العنق وما إلى ذلك».

«همم»، قلت محاولاً عدم الضحك. كان من الطريف أن أتخيل هنري بنظارته المستديرة الصغيرة وكتبه باللغة الهالندية⁽¹⁾ وهو يكسر عظمة ترقوة سبايك رومني.

قالت جودي: «إنه أمر غريب. أعتقد أنه عندما يفضب الأشخاص المتشنجون مثل هؤلاء فإنهم يثورون حقاً، مثل أبي». قلت: «نعم، أعتقد ذلك»، ونظرت إلى المرأة وعدلت عقدة ربطة عنقي.

قالت بفتور: «أتمنى لك وقتاً ممتعاً»، ثم توجهت نحو الباب، لكنها توقفت للحظة وسألتني: «قل لي، ألن تشعر بالحر مع تلك السترة؟».

«السترة الجيدة الوحيدة التي أملكها».

«هل تريد تجربة السترة التي لدي؟»

(1) إحدى اللغات الهندية الآرية الوسطى. وهي لغة كثير من الكتب المقدسة البوذية ولغة طقوس الثيرافادا البوذية.

استدرت، ونظرت إليها، كانت متخصصة في قسم الأزياء والتصميم، وكان لدى أمثالها أنواع كثيرة من الملابس الغربية في غرفتها.

قلت: «أهي ملكك؟»

«سرقته من خزانة الملابس في متجر الأزياء، كنت أنوي قصها وحيাকে مشد للصدر منها».

لم أكن متحمسًا ولكني تبعته على أي حال. كانت السترة مفاجأة سارة، كانت من ماركة الإخوة بروكس القديمة، حريرية غير مبطنة، بلون عاجي مع خطوط من اللون الأخضر الطاووسي. كانت فضفاضة قليلًا، لكنها لاءمتني تمامًا. قلت وأنا أنظر إلى الأكمام: «جودي، إنها رائعة حقًا. هل أنت متأكدة من أنك لا تمانعين أن أرديها؟»

قالت جودي: «يمكنك الحصول عليها، لا أملك الوقت لفعل أي شيء بها على أي حال، أنا مشغولة جدًا بخياطة تلك الأزياء اللينة من أجل معرض «كما تحبها» المريع. سينعقد في غضون ثلاثة أسابيع ولا أعرف ماذا سأفعل بعد. لدي عدد كبير من طلاب السنة الأولى الذين يعملون تحت إمرتي هذا الفصل الدراسي والذين لا يعرفون الفرق بين ماكينة خياطة وحفرة في الأرض».

قال باني لي ونحن نترجل من سيارة الأجرة: «بالمناسبة، أعجبتني سترتك يا رجل. حريرية، أليس كذلك؟».

«نعم. كانت لجدي».

قرص باني قطعة من القماش الفخم المصفر بالقرب من
كمي، وفركه بين أصابعه. قال بنبرة جدية: «قماش جميل، لكنها
لا تناسب تمامًا هذا الوقت من العام».

قلت: «لا؟»

«لا، نحن في إيست كوست يا فتى. أعلم أنهم لا يتدخلون كثيرًا
فيما ترتديه في ديارك، لكن هنا لا يمكنك التجول مرتديًا ملابس
السباحة طوال العام.

اللوان الأسود والأزرق، هما لونا الثياب المتعارف عليهما هنا.
الأسود والأزرق... وصلنا، دعني أفتح هذا الباب من أجلك. كما
تعلم، أعتقد أن هذا المكان سيروق لك. ليس بالضبط صالة
البولو⁽¹⁾، ولكن بالنسبة إلى فيرمونت فإنه ليس سيئًا جدًا، ألا
تظن؟»

كان المطعم صغيرًا وجميلًا، بمفارش مائدة بيضاء ونوافذ
بارزة في الجدران تطل على حديقة بسيطة؛ سياج وورود معرشة
ونباتات أبو خنجر تحاذي الممشى الحجري. كان معظم الزبائن
في منتصف العمر وميسورين: محامين ريفيين ذوي بشرة داكنة
اللون يرتدون أحذية مطاطية مع بذلات من ماركة هيكي فريمان
وأزياء فيرمونت. أما السيدات فكن يضعن أحمر شفاه لامعًا،
ويرتدين تنانير من قماش الكالي، ويتمتعن ببشرة مسمرة، ما
يمنحهن مظهرًا طبيعيًا وأنيقًا بطريقة بسيطة وغير متكلفة.

(1) صالة البولو أو بولو لاونج: مطعم خمس نجوم ملحق به حانة، شهير في بيفرلي
هيلز بلوس أنجلوس في كاليفورنيا. ويعد المطعم المفضل لنجوم هوليوود على مدار
سنوات طويلة.

رمقنا زوجان بنظرات فضولية عندما دخلنا، وكنت مدركاً جيداً للانطباع الذي نتركه؛ شابان جامعيان وسيمان من عائلات ثرية ولا ينقصنا شيء في العالم. على الرغم من أن السيدات كن في الغالب في عمر أُمي فإن سيدة أو اثنتين كانتا جذابتين جداً. فكرت في أن الظفر بحياة كهذه سيكون إنجازاً رائعاً، وتخلّلت سيدة شابة تمتلك منزلاً فخماً، تعيش حياة من الدعة وغير ملزمة بفعل أي شيء، وزوجها دائماً ما يكون خارج البلدة في رحلة عمل. وجبات عشاء هائلة، ومصروف جيب سخّي، وربما حتى شيء رائع حقاً مثل سيارة!

اقترب نادل منا: «هل لديكما حجز مسبق؟»

أجاب باني: «ثمة حجز باسم كوركوران»، ثم دس يديه في جيبه، وتمايل بجذعه إلى الأمام والخلف. «أين يختفي كاسبار اليوم؟»

«في عطلة. سيعود خلال أسبوعين».

قال باني بحرارة: «حسناً، هذا جيد بالنسبة إليه».

« سأخبره بأنك سألت عنه».

« أرجو منك ذلك».

بينما نتبع النادل إلى المائدة قال باني: «رئيس الندل في المطعم. رجل عجوز ضخّم ذو شارب، نمساوي أو من منطقة قريبة، وليس...» أخفض صوته: «وليس شاذاً إن أمكنك تصديق ذلك، الشواذ يحبون العمل في المطاعم، هل لاحظت ذلك من قبل؟ أقصد كل شاذ حرفياً».

لاحظت تصلب رقبة النادل قليلاً.

تابع باني: «لم أعرف أحدًا مهووسًا بالطعام مثله قط. أتساءل لماذا؟ ربما شيء نفسي؟ هذا ما يبدو لي».

وضعت إصبعي فوق شفتي وأومأت برأسي نحو ظهر النادل، وفي تلك اللحظة استدار وألقى علينا نظرة ازدراء لا توصف.

«هل تروق لكما هذه المائدة أيها السيدين؟»

قال باني مبتهجًا: «بالتأكيد».

قدم النادل لنا قائمتي الطعام بابتسامة مصطنعة وتهكمية، ثم هرول مبتعدًا.

جلست وفتحت قائمة النبيذ وأنا أشعر بحرج خفيف. جلس باني فوق مقعده، وأخذ رشفة من الماء ونظر حوله بسعادة، وقال: «هذا مكان عظيم».

«إنه لطيف».

«ولكنه ليس صالة البولو»، أراح مرفقه فوق الطاولة، وأبعد خصلات شعره عن عينيه. «هل تذهب إلى هناك كثيرًا؟ أعني... صالة البولو».

«ليس كثيرًا»، لم أسمع بها قط، وربما كان ذلك مفهومًا لأنها تبعد أربعمئة ميل عن المكان الذي عشت فيه.

قال باني مُتفكرًا: «يبدو أنه المكان الذي يصحبك إليه والدك لإجراء محادثة جادة بين رجلين وما إلى ذلك. والذي يفعل الشيء نفسه فيما يتعلق بحانة أوك في فندق بلازا. لقد اصطحبني أنا وإخوتي إلى هناك لibtاع لنا مشروبنا الأول عندما بلغنا الثامنة عشرة».

علقت: «أنا طفل وحيد، إخوة العائلات الأخرى يشيرون اهتمامي». ثم سألته: «هل لديك إخوة؟ كم عددهم؟». «أربعة: تيدي وهيو وباتريك وبرادي». ضحك، ثم قال: «كانت تجربة مروعة عندما اصطحبني أبي إلى حانة أوك لأنني الطفل الأصغر، وكان أمراً جليلاً، وكان لسان حال أبي يقول: «هيا يا بني، تناول مشروبك الأول» و«لن يمر وقت طويل قبل أن تجلس في مكاني»، و«ربما سأموت قريباً»، وكل ذلك الكلام الفارغ. كنت متيبساً من الخوف طوال الوقت. قبل شهر تقريباً ذهبت أنا وصديقي كلوك إلى حانة أوك بعد يوم طويل من العمل على مشروع تاريخي في مكتبة مدرسة جيروم، وكانت فاتورتنا ضخمة، لكننا تسللنا دون أن ندفعها. كما تعلم، شقاوة المراهقين! لكنني اضطررت إلى الذهاب إلى هناك ثانية مع أبي».

«هل تعرفوا عليك؟».

قال بتجهم: «نعم، لقد كنت متأكداً من أنهم سيفعلون. لكنهم كانوا لبقين جداً، لم يقولوا أي شيء، فقط وضعوا الفاتورة القديمة فوق فاتورة أبي».

حاولت أن أتخيل المشهد: الأب العجوز السكير الذي يرتدي بذلة من ثلاث قطع، وهو يشرب كأسه من السكوتش أو أي كان ما يشربه، وباني... على الرغم من ملامحه الناعمة فإنه يمتلك عضلات مفتولة. إنه فتى ضخم، من نوعية الفتيان الذين يمارسون كرة القدم في المدرسة الثانوية. إنه الابن الذي يحلم به كل أب سرّاً: ضخم ولطيف المعشر، وليس ذكياً إلى حد كبير، يعشق الرياضة، موهوب في دعابات الصفع على الظهر وإلقاء النكات المبتذلة.

قلت: «هل لاحظ أبوك الفاتورة؟»

«لا، كان ثَمَلاً تماماً، لو كنتُ أنا ساقى البار في حانة أوك، ما كان ليلاحظها».

كان النادل يتجه نحونا مرة أخرى.

قال باني وهو يلتقط القائمة ويتصفحها: «انظر، ها هو ذا قد عاد. هل اخترت؟»

سألتُ باني وأنا أميل لألقي نظرة إلى المشروب الذي أحضره له النادل: «ماذا يوجد في هذا المشروب، على أي حال؟» كان المشروب بحجم حوض سمك صغير، ذا لون مرجاني لامع، مع قسبة شرب ملونة ومظلات ورقية وشرائح من الفاكهة تبرز منه بزوايا غريبة.

أخرج باني إحدى المظلات ولحق طرفها.

«إنه مزيج من مكونات كثيرة. يحتوي على الرم، وعصير التوت البري، وحليب جوز الهند، والتربيل سيك⁽¹⁾، وبراندي الخوخ، ومشروب المُنْعَنَع⁽²⁾. لا أعرف كل المحتويات. تذوقه، إنه جيد».

«لا. شكراً».

«هيا».

«أنا على ما يرام».

«هيا».

قلت: «لا، شكراً لك، لا أريد أيًا منه».

(1) شراب فرنسي الأصل معمول من قشور البرتقال الحلو والمر، والاسم تربيل يعنى ثلاثي، وبالعادة يشير إلى عدد مرات التقطير المصاحبة لصناعة هذا المشروب.

(2) مشروب كحولي حلو بمذاق النعناع.

قال باني مستعيداً ذكرياته: «لقد شربته لأول مرة خلال رحلة إلى جامايكا، قبل صيفين. أعدّه لي نادل يدعى سام. قال: اشرب ثلاثة من هذا يا صديقي، ولن تتمكن من العثور على الباب، وبالفعل لم أستطع العثور عليه» ثم سألني: «هل زرت جاميكا من قبل؟»

«ليس مؤخرًا، لا».

«من المحتمل أنك معتاد على النخيل وجوز الهند وما شابه في كاليفورنيا. أعتقد أن الرحلة إلى جاميكا كانت رائعة. اشترت ملابس سباحة وردية مرسوم عليها زهور. حاولت إقناع هنري بأن يرافقني في تلك الرحلة، لكنه قال إنه لا توجد هناك أي معالم ثقافية، وهو ما أعتقد أنه غير صحيح، فقد كان لديهم متحف صغير أو شيء من هذا القبيل».

«هل علاقتك جيدة بهنري؟»

قال باني، وهو يميل بظهره إلى الوراء في مقعده: «أوه، بالطبع. كنا رفيقي سكن في السنة الجامعية الأولى».

«وهل يروق لك؟»

«بالتأكيد، بالتأكيد. لكن العيش معه تحت سقف واحد صعب. يكره الضجيج، ويكره الرفقة، ويكره الفوضى. وسيثبطك كل هذا عن جلب فتاتك إلى الغرفة حتى تستمع إلى بعض تسجيلات آرت بيبر، إذا كنت تعرف ما أحاول الإشارة إليه».

«أعتقد أنه وقع إلى حدٍّ ما في سلوكه هذا».

هز باني كتفي: «هذا أسلوبه. كما ترى، عقله لا يعمل بالكيفية نفسها التي يعمل بها عقلك وعقلي. يخلق دائمًا عاليًا فوق

السحاب برفقة أفلاطون والفلاسفة الآخرين. يجتهد في دراسته،
ويأخذ الأمور على محمل الجد، ويدرس اللغة السنسكريتية
والقبطية وغيرها من اللغات الغريبة. أخبرته: هنري، إذا كنت
ستضيع وقتك في تعلم شيء ما إلى جانب اليونانية القديمة
-وهي بالإضافة إلى إنجليزية الملك⁽¹⁾ كل ما يحتاج إليه أي
رجل من وجهة نظري- لماذا لا تشتري لنفسك بعض تسجيلات
بيرلتز وتصل لغتك الفرنسية. ثم تبحث عن فتاة كانكان⁽²⁾ شابة
وتسألها هل تريدين النوم معي؟⁽³⁾».

«كم عدد اللغات التي يجيدها؟»

«فقدت القدرة على العد، سبع أو ثماني لغات. يمكنه قراءة
الهيروغليفية».

«واو».

هز باني رأسه باعتزاز. «ذاك الفتى عبقرى. يمكن أن يكون
مترجمًا لصالح الأمم المتحدة لو أراد ذلك».

«من أين هو؟»

قال بجمود: «ميسوري». ظننت أنه يمزح، فضحكت.

(1) إنجليزية الملك: هي لغة إنجليزية مصقولة وراقية كانت تُستخدم في بلاط الملك الإنجليزي.

(2) الكَنكان رقصة عالية الطاقة تتطلب جهدًا بدنيًا. أصبحت رقصة شعبية في قاعة الموسيقى في فرنسا بأربعينيات القرن التاسع عشر ولا تزال تحظى بشعبية في الملاهى الفرنسية حتى يومنا هذا. وتتكون الرقصة من مجموعة من الرقصات اللاتينية يرتدين تنورات طويلة مزركشة على المسرح يأخذن في الرقص والتمايل في مهارة ورشاقة ويرفعن أرجلهن إلى أعلى في تتابع فائن.

(3) بالفرنسية في الأصل. وهو مقطع من الأغنية الشهيرة «ليدي مارليد» لفرقة «باتي لا بيل آند ذا بلوبيل» الصادرة العام 1975.

رفع باني حاجبيه مستغريباً: «ماذا؟ هل ظننت أنه من قصر
باكنفهام أو ما يشبه؟».

هزرت كتفي، وأنا لا أزال أضحك. كان هنري شخصاً غريب
الأنوار، ومن الصعب تخيل جذوره.

قال باني: «أجل، إنه من ولاية اظهر لي⁽¹⁾. فتى سانت لويس
مثل توم إليوت⁽²⁾ العجوز. والده أحد أقطاب المقاولات، ولكنه لا
يجاهر بذلك، هكذا أخبرني أبناء عمومتي في سانت لويس. لا
يعني ذلك أن هنري سيعطيك أي معلومة عن عمل والده. يتصرف
كأنه لا يعرف، لكنه بالتأكيد لا يهتم».

«هل ذهبت إلى منزله؟».

«هل تمزح؟ إنه كتوم جداً لدرجة أنك قد تعتقد أنه مشروع
مانهاتن⁽³⁾ أو شيء مشابه. لكنني قابلت والدته مرة واحدة
مصادفة. عندما كان طريقها إلى نيويورك توقفت في هامبدن
لرؤيته وصادفتها وهي تتجول في الطابق السفلي في منزل
مونماوث تسأل الناس إن كانوا يعرفون مكان غرفته».

«كيف بدت؟».

«سيدة جميلة، شعرها داكن وعيناها زرقاوان مثل هنري،

(1) Show-me state في الأصل (ولاية اظهر لي / أرني): وهو لقب ولاية ميزوري غير
الرسمي الأكثر شيوعاً ذكره أحد الهنود الأصليين قائلاً بفخر: «أنا من ميزوري،
فاظهر لي من أين أنت».

(2) المقصود توماس ستيرنز إليوت الشاعر والمسرحي والناقد الأدبي الحائز على
جائزة نوبل في الأدب العام 1948، والمعروف بقصيدته أرض اللياب.

(3) مشروع بحث وتطوير جرى العمل عليه في أثناء الحرب العالمية الثانية لإنتاج
الأسلحة النووية لأول مرة. قادت الولايات المتحدة المشروع مدعومةً بالملكة
المتحدة وكندا.

وترتدي معطفًا من فرو المنك، وتضع كثيرًا من أحمر الشفاه ومساحيق التجميل إن سألتني. شابة جدًا. هنري هو فخرها الوحيد إن جاز التعبير، وهي مغرمة به». انحنى إلى الأمام وأخفض صوته. «تمتلك عائلته أموالًا هائلة لدرجة لا يمكنك تصديقها. ملايين وملايين. بالطبع هي ثروة حديثة نسبيًا، ولكن المال هو المال في نهاية المطاف، هل تعرف ما أعنيه؟» غمز لي وقال مازحًا: «بالمناسبة، كنت أود أن أسألك. كيف يكسب أبوك ماله القذر؟»

قلت: «النفط». كان هذا صحيحًا جزئيًا.

فتح فمه في دهشة: «هل تمتلكون آبار نفط؟»

قلت بتواضع: «حسنًا، نملك بئرًا واحدة؟»

«لكنها بئر جيدة؟»

«هكذا أخبروني».

قال باني وهو يهز رأسه: «يا فتى، إنه الغرب الذهبي».

قلت: «لطالما كان سخياً معنا».

قال باني: «يا إلهي، أبي مجرد مدير بنك عجوز بائس».

شعرت أنه من الضروري تغيير الموضوع، مهما بدا ذلك مُحرجًا، إذ كنا نتجه هنا نحو مياه غدارة لا أجيد الخوض فيها، فقلت: «إن كان هنري من سانت لويس، فكيف أصبح ذكيًا هكذا؟».

كان السؤال بريئًا، ولكن باني أجفل على نحو مفاجئ، وقال: «تعرض هنري لحادث مروع في طفولته المبكرة. صدمته سيارة وكاد يموت. اضطر إلى ترك المدرسة بضع سنوات. كان لديه بالطبع معلمون خصوصيون لتعويض ما فاتته في المدرسة، ولكن

لمدة طويلة لم يكن بإمكانه فعل الكثير سوى الاستلقاء في السرير والقراءة. أعتقد أنه كان أحد هؤلاء الأطفال الذين يمكنهم قراءة النصوص الجامعية وهو في عمر سنتين .»
«صدمته سيارة!».

«أعتقد أن هذا ما حدث. لا أستطيع أن أتخيل ما قد يكون السبب غير ذلك، ينفر من الحديث عن الحادث». أخفض صوته.
«تعرف كيف يفرق شعره بحيث يسقط على عينه اليمنى؟ ذلك لأنه يحاول إخفاء ندبة هناك. كاد يفقد عينه اليمنى، ولا يستطيع الرؤية بها جيداً. وطريقة مشيه المتبسة، هو يعرج إلى حد ما. ولكن هذا لا يهم فهو قوي كثور، لا أعرف ما الذي فعله، ربما رفع الأثقال أو شيئاً آخر لا أعرفه، لكنه بالتأكيد بنى نفسه من جديد بعد الحادثة. نسخة من تيدي روزفلت⁽¹⁾؛ تغلب على العقبات التي واجهته، لا يسعك إلا أن تعجب به». أزاح شعره عن وجهه ثانية وأشار بيده للنادل وطلب مشروباً آخر. «أقصد، خذ شخصاً كفرانسيس مثلاً. إذا سألتني فهو ذكي مثل هنري واجتماعي ويملك أطناناً من المال. لكنه عاش حياة سهلة جداً، هو كسول ويحب اللهو، لن يفعل شيئاً بعد الكلية سوى الشرب الكثير وارتياح الحفلات».

رفع حاجبيه وأردف: «في المقابل، هنري... لا يمكنك أن تشتته عن دراسة اليونانية القديمة حتى لو ضربته بالعصا».

(1) ثيودور روزفلت الابن: سياسي ومؤلف ومستكشف وجندي وعالم طبيعة ومصلح أمريكي شغل منصب الرئيس السادس والعشرين للولايات المتحدة الأمريكية من العام 1901 إلى 1909. تعرض لمحاولة اغتيال العام 1912.

ثم التفت إلى النادل الذي كان يقف على بعد ذراع منه حاملاً كأساً أخرى من المشروب ذي اللون المرجاني، وأضاف: «آه، شكراً لك يا سيدي». ثم وجه كلامه إليّ: «هل تريد مشروباً آخر؟» «لا، شكراً».

« هيا يا رجل على حسابي».

قلت للنادل الذي كان قد بدأ بالاستدارة: «مشروب مارتيني آخر، من فضلك»، التفت النادل لينظر إليّ، فقلت بصوت واهن: «شكراً» وأشحت بنظري بعيداً عن ابتسامته البغيضة التي لا تفارق وجهه حتى تأكدت من رحيله.

قال باني بمرح: «كما تعلم، لا يوجد شيء أكرهه مثلما أكره الشاذ الفضولي. إذا سألتني، أعتقد أنه ينبغي جمعهم جميعاً وإحراقهم على وتد».

لقد عرفت رجالاً يرفضون المثلية الجنسية بسبب عدم ارتياحهم لها وربما يعكس ذلك ميولاً دفينية، كما عرفت آخرين يرفضونها بقناعة حقيقية. في البداية، كنت أظن أن باني ينتمي إلى الفئة الأولى، فقد كان ترحيبه الحار ووده الصريح غريبين بعض الشيء ومثيرين للشبهة، بالإضافة إلى ذلك دراسته الكلاسيكيات التي قد تبدو بريئة ولكنها تُثير الشكوك لدى بعض الناس. (هل تريد أن تعرف ما هي الكلاسيكيات اليونانية القديمة؟ حسناً، بإمكانني إخبارك، الكلاسيكيات هي قصص الحروب والمثليين، قد يبدو هذا التصريح مبتذلاً وسطحياً إلا أن فيه شيئاً من الحقيقة).

ومع ذلك، كلما استمعت إلى باني أكثر، ازداد يقيني بأن حديثه لم يكن مُصطنعاً أو بدافع كسب إعجابي، بل كان يعكس لا مبالاة

مرحة لرجل خبير متزوج وله أبناء، يجد الموضوع بغيضاً ومسلماً في نفس الوقت.

قلت: «ماذا عن صديقك فرانسيس؟»

ربما كنت وضيعاً، أو ربما أردت اختبار ردة فعله وكيف سيتمص من الإجابة، على الرغم من أن فرانسيس قد يكون أو لا يكون مثلياً، أو ربما يكون منجذباً إلى السيدات بطريقة غير سوية، ولكنه بالتأكيد ذلك الشخص الأنيق والهادئ الذي قد يثير شكوك باني الذي يزعم أنه يتمتع بحساسية مفرطة نحو هذه الأمور. رفع باني حاجبه، وقال باقتضاب: «هذا هراء. من قال لك ذلك؟»

«لا أحد، جوادي بوفي فحسب» قلت عندما رأيت أنه لن يقبل «لا أحد» كإجابة.

«حسناً، أستطيع أن أرى لماذا تقول ذلك ولكن في وقتنا هذا يطلق الناس الأحكام جزافاً، إنه مجرد شاب تقليدي لديه ارتباط قوي بأمه، كل ما يحتاج إليه فرانسيس هو عشيقة».

ضيق باني عينيه ونظر إليّ من خلال عدسات نظارته الصغيرة كثيرة الخدوش، وقال بشيء من العدائية: «وماذا عنك؟»

«أنت رجل أعزب؟ هل لديك مشجعة صغيرة تنتظرك في الديار في ثانوية هوليوود؟»

قلت: «حسناً، لا». لم أرغب في الكلام عن مشكلاتي الرومانسية، ليس له. لقد تمكنت مؤخراً فحسب من إنهاء علاقة طويلة خانقة مع فتاة في كاليفورنيا، دعنا نطلق عليها اسم كاثي.

التقيتها في السنة الأولى من الجامعة، لقد انجذبت إليها في البداية لأنها بدت ذكية وناقمة وكثيية مثلي، لكن بعد شهر تقريباً عندما أصبحت ملتصقة بي بشدة، بدأت أدرك برعب أنها كانت مجرد نسخة ضحلة ومهووسة بعلم النفس الشعبي من سيلفيا بلاث. لقد استمرت تلك العلاقة مدة طويلة مثل أحد الأفلام التلفزيونية البكائية الممطوطة؛ كل ذلك التعلق، وكل تلك الشكاوى، والاعترافات في ساحة انتظار السيارات عن «الإحساس بعدم الكفاية» و«صورة الذات المتدنية»، وكل تلك الأحزان المبتذلة. كانت كاثيري أحد الأسباب الرئيسة التي جعلتني أتوق بشدة إلى مغادرة المنزل، وأشعر بتحفظ شديد من زمرة الفتيات الجديرات اللامعات والبريئات ظاهرياً اللاتي التقيتهن في الأسابيع الأولى من الكلية هنا.

كدرني التفكير في كاثيري، انحنى باني فوق المائدة.

قال: «هل صحيح أن الفتيات أجمل في كاليفورنيا؟»

بدأت أضحك بشدة لدرجة أنني اعتقدت أن مشروبي سوف يندفع خارج أنفي.

«جماليات في لباس البحر؟» غمز بعينييه. «شاطئ... بطانية... بنغو⁽¹⁾»

«يمكنك الرهان على ذلك.»

(1) Bango Blanket Beach فيلم أمريكي صدر العام 1965 من إخراج ويليام آشر. وهو الفيلم الخامس في سلسلة أفلام «حفلة الشاطئ» المبنية على قصص مصورة تحمل الاسم نفسه. وقد كانت من أفلام الصيف الكوميديّة الغنائية الخفيفة الرائجة التي تدور جل أحداثها على أحد الشواطئ. نجوم الفيلم فرانكي أفالون وأنيت فانتشيلو وليندا إيفانز وديورا والي وبول ليند ودون ريكلز.

بدا بانى مسروراً مثل كلب عمه العجوز المرح، وانحنى فوق الطاولة أكثر ليحدثني عن عشيقته ماريون. قال: «أعلم أنك رأيته من قبل. جسمها ضئيل، وشعرها أشقر وعيناها زرقاوان، وطويلة نسبياً؟»

فى الواقع، قرع هذا الوصف جرساً فى ذهنى. رأيت بانى فى مكتب البريد، فى الأسبوع الأول من الكلية، يتحدث بطريقة طفلية مع فتاة بهذا الوصف.

قال بانى بفخر، وهو يمرر إصبعه على حافة كأسه: «إنها فتاتى. تبقينى منضبطاً وهادفاً، هذا ما يمكننى أن أؤكد لك». هذه المرة ضحكت بشدة وأنا أبلغ ريقى فكدت أختنق.

قال: «وهى أيضاً متخصصة فى التعليم الابتدائى، ألا يعجبك ذلك؟ أعنى أنها فتاة حقيقية». باعد يديه المعقودتين عن بعضهما، كما لو كان يشير إلى وجود مسافة كبيرة بينهما، وأكمل: «شعر طويل، وتمتلك قليلاً من اللحم على عظامها، ولا تخشى ارتداء فستان. يستهوينى هذا. عدّنى قديم الطراز، لكننى لا أهتم كثيراً بالفتيات الذكيات.

خذ كاميلاً مثلاً، إنها مرحة وفتاة لطيفة وكل ما تتمناه».

قلت وأنا لا أزال أضحك: «حسناً، إنها جميلة».

وافقنى قائلاً: «إنها كذلك»، ورفع كفه استرضاءً. «إنها فتاة لطيفة. لطالما قلت ذلك. تبدو تماماً مثل تمثال ديانا فى نادى والدى. كل ما ينقصها هو يد أم حازمة، لكنها فى رأيى مثل وردة عليق بريّة، على النقيض من وردة الشاي المهجنة لديكم فى كاليفورنيا. إنها لا تبذل قصارى جهدها، كما تعلم. وهى تقضى

نصف الوقت تقريباً مرتدياً ملابس أخيها القديمة غير الأنيقة، وهو ما قد تتجو منه بعض الفتيات دون انتقاد، حسناً بصراحة لا أعتقد أن أي فتاة يمكنها حقاً أن تتجو من ذلك، لكن كاميللا بالتأكيد لا تستطيع. إنها تشبه أباها كثيراً. أقصد إن تشارلز رجل وسيم وشخصيته ممتازة من جميع النواحي، لكنني لو كنت امرأة فلن أرغب في الزواج به».

كان باني على وشك مواصلة حديثه، لكنه توقف فجأة، وبدأ عليه الامتناع كأن شيئاً غير سار قد خطر بباله. شعرت بالحيرة، ولكنني استمتعت بعض الشيء؛ هل كان قلقاً من أنه كشف الكثير، أم كان خائفاً من أن يبدو أحمق؟ حاولت التفكير في طريقة لتغيير الموضوع لإنقاذه من هذا الموقف، لكنه في تلك اللحظة استدار في مقعده، ونظر عبر الغرفة.

قال: «انظر هناك. أعتقد أن هذا طلبنا؟ تأخروا كثيراً بالفعل».

على الرغم من الكمية الهائلة من الطعام التي تناولناها بعد ظهر ذلك اليوم: أصنافاً متنوعة من الحساء، والكركند، والبطائر، وحلوى الموس⁽¹⁾، مجموعة مذهلة من ناحية التنوع والكم، فإننا شربنا فوق ذلك ثلاث زجاجات من شامبانيا التاتنجي، فضلاً عن المارتيني الذي شربناه قبل الأكل، ثم البراندي فوق كل ذلك، وهكذا مع مغادرة الزبائن الآخرين رويداً رويداً، أصبحت مائدتنا هي مركز الالتقاء الوحيد في المكان، حيث تدور الأشياء حولها، وتتلأشى بسرعة مذهلة. واصلت شرب الكؤوس التي ظلت تظهر

(1) طبق حلوى فرنسي يتميز سطحه برغوة ناعمة جداً. قد تكون منفوشة ورقيقة إلى قشدية وسميكة، حسب الإعداد.

أمامي كأنما بفعل السحر، وكان باني يقترح النخب تلو الآخر على كل شيء من كلية هامبدن إلى بنيامين جاويت⁽¹⁾ إلى أثينا بركيليس⁽²⁾، وأصبح النخب أرجوانيًا أكثر فأكثر مع مرور الوقت وبدء مغيب الشمس، حتى بحلول وقت وصول القهوة، كان الظلام قد بدأ ينتشر. كان باني مخمورًا بشدة، فطلب من النادل أن يحضر لنا السيجار، وهو ما فعله مع فاتورة الحساب مقلوبة فوق صينية صغيرة.

كانت الغرفة المعتمدة تدور حولي بسرعة لا تصدق، وتدخين السيجار لم يساعد قط في تخفيف الدوار، بل جعلني أرى سلسلة من البقع المضيئة ذات الحواف الداكنة، وذكرني بشكل مزعج بتلك الكائنات الخلوية الفظيعة التي كان عليّ أن أطرف بعيني تحت المجهر لرؤيتها في أثناء دروس الأحياء حتى يدور رأسي. وضعت السيجار في ما ظننت أنه منفضة سجائر، لكنه كان في الواقع طبق الحلوى. خلع باني نظارته ذات الإطار الذهبي، أزالها

(1) كان بنيامين جاويت (1817 - 1893) كاتبًا إنجليزيًا ومعلمًا ومصلحًا إداريًا في جامعة أكسفورد ولاهوتيًا ورجل دين أنجليكانيًا ومترجمًا لأفلاطون وثوسيديديس.

(2) سياسي أثيني عاش بين عامي 495 - 429 قبل الميلاد وحكم أثينا بشكل متقطع من العام 460 ق م حتى وفاته، وكان قد حول الاتحاد الديلي من تحالف متوازن القوى إلى إمبراطورية أثينية، وقاد أثينا في الحرب البيلوبونيسية ضد أسبرطة وله خطاب سجله ثوكيديديس حول نظريته إلى أثينا المستقبلية. ولد لأب يدعى كسانثيوس وأم تدعى أغارثي وفي عام 477 ق م بدأ بناء البارثينون لمدة تسع سنوات عن طريق المهندسين إكتينوس وكالكراتيس تزوين فيدياس، قضى هو وأغلب عائلته في طاعون اجتاح المدينة. وهو أحد رواد حرية التعبير عن الرأي في العصور القديمة، حيث سبق رواد حرية النقد والتعبير اليونانيون (الإغريق) ومنهم سقراط وأفلاطون وأرسطو حيث ترك خطابًا عظيمًا يتضمن مبادئ سامية من أبرز ما تضمنه ما يتصل بحرية التعبير والمناقشة.

بعناية من خلف أذنيه، وبدأ بتلميع العدسات بمنديل. بدت عيناه دون نظارته ضئيلتين وواهنتين ووديعتين، دامعتين بسبب الدخان، ومجمعتين عند الحواف من كثرة الضحك.

قال: «أوه، كان ذلك غداءً لا يُنسى، أليس كذلك يا رفيقي؟» أمسك بالنظارة قبالة الضوء ليفحصها بحثًا عن أي غبار فيما كان يثبت السيجار بين أسنانه. بدا مثل تيدي روزفلت شابًا جدًّا دون شارب، كأنه على وشك قيادة الفرسان الأشداء⁽¹⁾ إلى أعلى تل سان خوان أو الخروج لتعقب الحيوانات البرية.

«كان غداء رائعًا، شكرًا».

زفر سحابة كثيفة من دخان أزرق كريح الرائحة.

«طعام رائع، وصحبة طيبة، ومشروبات وفيرة، لا يمكن للمرء أن يطلب المزيد، أليس كذلك؟ ما هذه الأغنية؟»

«أي أغنية؟»

غنى باني: «أريد عشائي، والمحاذثة، و... شيئًا ما، دوم-تي-دوم».

«لا أعرف».

«لا أعرف أيضًا. إنها لإثيل ميرمان⁽²⁾».

(1) اسم يُطلق على سلاح فرسان الولايات المتحدة الأول، وهو واحد من ثلاثة أفواج نشأت في العام 1898 من أجل الحرب الإسبانية الأمريكية والوحيد الذي شهد القتال.

(2) ممثلة ومغنية أمريكية. في البداية، عُرفت بصوتها القوي ودورها في المسرح الموسيقي، لذلك أطلق عليها «سيدة المسرح الكوميدي الأولى بالإجماع». من المقطوعات العديدة التي قدمتها إيثيل في العروض الموسيقية على برودواي «لدي إيقاع»، و«كل شيء على ما يرام» و«بعض الناس»، و«دور الورد»، و«تخلصت منك».

بدأ الضوء يخفت، ووجدت صعوبة في التركيز على أي شيء خارج محيطنا المباشر. بدا المكان خاليًا إلا منا. وفي زاوية بعيدة، رأيت جسمًا باهتًا اعتقدت أنه نادلنا، كان كائنًا غامضًا وخارقًا للطبيعة إلى حد ما، لكنه لم يكن يحمل ذلك الهواء المختلج الذي يقال إن الظلال تحتله. كنا محور اهتمامه الوحيد، شعرت أنه يوجه نحونا أشعة كراهيته الطيفية.

قلت وأنا أتحرك في مقعدي بحركة كادت تفقدني توازني: «ربما علينا المغادرة».

لَوْحٌ باني بيده بسخاء وقلب الفاتورة، وفتش في جيبه وهو يتأملها. وفي لحظة نظر إلى الأعلى وابتسم: «أقول لك، أيها الحصان العجوز».

«نعم؟»

«أكره أن أفعل هذا بك، ولكن لماذا لا تدفع أنت هذه المرة؟» رفعت حاجبي سكرانًا، وضحكت: «لا أملك سنتًا واحدًا». قال: «ولا أنا! إنه أمر مضحك حقًا، يبدو أنني تركت محفظتي في البيت».

«أوه، هيا. أنت تمزح».

قال بخفة: «لا على الإطلاق، ليس معي حتى عشرة سنتات، يمكنني أن أكشف لك جيوبي إذا أردت، لكن ذلك النادل الغبي سيلاحظ الأمر بالتأكيد».

أدركت فجأة وجود النادل الخبيث الذي كان يتريص بنا في الظلال، لا شك أنه كان يستمع إلى محادثتنا.

قلت: «كم الحساب؟»

مرر إصبعه المرتعش على عمود الأرقام، وقال: «الحساب
مئتان وسبعة وثمانون دولارًا وتسعة وخمسون سنتًا، وهذا دون أي
بقشيش».

صُدمت من المبلغ، ودهشت من عدم اكترائه.
«هذا كثير».

«كل هذا الكحول، كما تعلم».

«ماذا علينا أن نفعل؟»

قال بعدم اكتراث: «ألا يمكنك كتابة شيك أو شيء من هذا؟».

«ليس بحوزتي أي شيكات».

«إذن استخدم بطاقتك الائتمانية».

«ليس لدي بطاقة».

«أوه، هيا».

قلت: «ليس لدي حقًا» وقد تنامي انزعاجي مع كل ثانية تمر.

دفع باني مقعده إلى الخلف، ونهض ونظر إلى أرجاء المطعم
بإهمال مدروس مثل محقق يجول في ردهة فندق، وفي لحظة
طائشة اعتقدت أنه سوف يهرب بجلده، لكنه صفعني على كتفي
وقال: «اجلس يا رجل. سأجري مكالمة هاتفية».

ثم غادر ويداه في جيبه، وكان لون جوربيه الأبيض يلمع في
الظلام.

مضى وقت طويل على مغادرته، ورحت أتساءل إن كان سيرجع
من الأساس، هذا إذا لم يكن قد تسلل فحسب من النافذة وتركني
وحدني لدفع الفاتورة، عندما سمعت صوت باب يغلَق، وعاد باني
بتؤدة إلى مقعده.

قال وهو ينزلق فوق كرسيه: «لا تقلق، لا تقلق. كل شيء تحت السيطرة».

«ماذا فعلت؟»

«هاتفت هنري».

«أهو قادم؟».

«سيصل قريباً جداً».

«هل هو غاضب؟».

قال باني وهو يستبعد هذه الفكرة بنقرة خفيفة من يده: «لا، هو سعيد لفعل ذلك. بيني وبينك، أعتقد أنه مسرور جداً بمغادرة المنزل».

بعد نحو عشر دقائق مزعجة تظاهرها خلالها بأننا نرتشف تفل قهوتنا الباردة، ظهر هنري أخيراً يحمل كتاباً تحت ذراعه. همس باني: «ألم أقل لك؟ لقد عرفت أنه سيأتي». بينما يقترب هنري من الطاولة قال بصوت عالٍ: «أوه، مرحباً، كم أنا ممتن لرؤيتك».

سأل هنري بصوت جاد وجامد: «أين الفاتورة؟»

فأجاب باني وهو يبحث بين الأكواب والكؤوس: «ها هي ذي، يا صديقي القديم. شكراً جزيلاً لك. أنا مدين لك حقاً».

تحدث هنري ببرود، وهو يلتفت نحوي: «مرحباً. كيف حالك؟»
كان صوته مثل الروبوت.
أجبت: «بخير».

قال باني وهو يناول هنري الفاتورة: «تفضل يا صديقي».

أمعن هنري في النظر إلى الحساب، وبدا وجهه جامداً بلا تعبير.

قال باني بهدوء، وصوته يصدح في الصمت المتوتر: «حسنًا، كنت سأعتذر عن إبعادك عن كتابك لو لم تحضره معك. أي كتاب هو؟ هل هو جيد؟»

ناولته هنري الكتاب دون أن ينطق أي كلمة. كانت الكتابة على الغلاف مكتوبة بلغة شرقية. حدق باني إلى الكتاب قليلًا، ثم أعاده إليه، وقال بصوت خافت: «يبدو لطيفًا».

سأل هنري فجأة: «هل أنتما مستعدان للذهاب؟»

قال باني على عجل: «بالتأكيد، بالتأكيد» وقفز من مكانه وكاد يصدم المائدة. «كما تريد، هلم بنا... هلم بنا⁽¹⁾... في أي وقت تشاء».

دفع هنري الحساب فيما وقف باني خلفه مثل طفل مشاكس، كانت الرحلة بالسيارة إلى المنزل مؤلمة، حاول باني الجالس في المقعد الخلفي مرارًا وتكرارًا بدء محادثة، لكن محاولاته الحاذقة باءت بالفشل، فما إن تتوهج وتشتعل حتى تخبو، في حين أبقى هنري عينيه على الطريق، وجلست أنا في المقعد الأمامي بجانبه، أعبت بمنفضة السجائر المدمجة بباب السيارة أفتحها وأغلقها، حتى أدركت أخيرًا مدى ما أسببه من إزعاج، وأجبرت نفسي على التوقف.

توقف هنري أمام منزل باني أولاً. صفع باني كتفي، وأمطرني بوابل من المجاملات، ثم قفز من السيارة. «حسنًا، هنري، ريتشارد. لقد وصلنا. شكرًا جزيلاً لك، كان غداء رائعًا، حسنًا، أراكما لاحقًا». أغلق الباب بقوة ومشى بسرعة نحو المنزل.

(1) بالإسبانية في الأصل.

ما إنْ أمسى داخل منزله، حتى التفت هنري نحوي وقال: «أنا
آسف جداً».

قلت بارتباك: «أوه، لا، من فضلك. كان ذلك مجرد سوء تفاهم،
سأعيد لك المبلغ الذي دفعته». مرر يده على شعره وفوجئت
لرؤيته يرتجف.

قال باقتضاب: «لن أحلم بشيء كهذا، إنه خطؤه».
«لكن...»

«قال إنه يدعوك إلى الغداء، أليس كذلك؟».
كان صوته يحمل نبرة اتهامية، قلت: «حسنًا، نعم».
«وحدث أنه ترك محفظته في المنزل».
«كل شيء على ما يرام».

جأر هنري: «لا، ليس كذلك. إنها خدعة مريعة. كيف كنت
لتعرف؟ يؤمن باني بأن من معه يمكنه توفير مبالغ هائلة في التو
واللحظة. لا يفكر أبدًا في مثل هذه الأشياء، كما تعلم، كم أن ذلك
مُحرج للجميع. أضف إلى ذلك، ماذا لو لم أكن في المنزل؟».
«أنا متأكد من أنه نسي حقًا».

قال هنري بعد هنيهة صمت: «استقللتما سيارة أجرة إلى
هناك، من دفع الأجرة؟» بدأت تلقائيًا بالاحتجاج، لكنني توقفت
فجأة، دفع باني أجرة سيارة الأجرة. وقد أثار ضجة كبيرة بشأن
ذلك.

قال هنري: «كما ترى. إنه ليس ماهرًا جدًا في هذا الأمر،
أليس كذلك؟ من السيئ أن يمارس خدعه على أي شخص، ولكن

يجب أن أقول إنني لم أعتقد قط أنه سيكون لديه الوقاحة لخداع شخص غريب».

لم أعرف ماذا أقول، قاد هنري السيارة إلى بوابة منزل مونماوث في صمت.

قال: «هنا ستنزل إذن، أنا آسف».

«لا بأس حقاً. شكراً لك يا هنري».

«إذا، تصبح على خير».

وقفت أسفل ضوء الشرفة وشاهدته وهو يقود سيارته بعيداً. ثم خطوت داخل المنزل وصعدت إلى غرفتي حيث انهرت فوق سريرى وأنا خدر من فرط السكر.

قال تشارلز: «سمعنا كل شيء عن غداك مع باني».

ضحكت وقلت: «حقاً؟» كان الوقت متأخراً بعد ظهر يوم الأحد، وكنت قد أمضيت معظم اليوم جالساً إلى مكتبي أقرأ بارمينيدس⁽¹⁾. كانت قراءة اللغة اليونانية القديمة صعبة في حد ذاتها، لكنني كنت أعاني أيضاً من تأثير الخُمار، وكنت أحاول قراءة النص مدة طويلة حتى أن الحروف لم تعد تبدو كالحروف، بل كشيء آخر لا يمكن فك طلاسمه، مثل آثار أقدام الطيور على الرمال. كنت أحرق من النافذة في نشوة إلى المرج المجزور

(1) بارمينيدس: فيلسوف يوناني ولد في القرن السادس قبل الميلاد في إيليا وهو من فلاسفة عصر ما قبل سقراط وقد ترك وراءه قصيدة «في الطبيعة» التي يذكر فيها ما يعتقد أنه الحقيقة المطلقة على نحو دوجماتيقي يقيني.

بعناية مثل المخمل الأخضر اللامع، الممتد حتى التلال المكسوة
بالزهور في الأفق، حينما رأيت التوأمين في الأسفل، يتهاديان
مثل شبحين فوق العشب.

انحنيت خارج النافذة وناديتهما. توقفوا واستدارا، وأيديهما
تظلل حواجبهما، وعيناهما ضيقتان في وهج المساء. هتفا:
«مرحبًا». كان صوتاهما الخافتان والمبحوحان يكادان يكونان
صوتًا واحدًا يطفو نحوي. «تعال».

وهكذا، سرت بين التوأمين في البستان خلف الكلية أسفل
غابة الصنوبر الصغيرة ذات الأشجار الكثيفة عند قاعدة الجبال.
بدواً ملائكيين على نحو خاص، شعرهما الأشقر يتطاير في
مهب الريح، وكلاهما يرتدي سترة تنس بيضاء وحذاء تنس. لم
أكن متأكدًا من سبب طلبهما مني النزول، على الرغم من أنهما
مذهبان بما فيه الكفاية، فإنهما بدواً متحفظين ومرتبكين بعض
الشيء، كما لو كنت من بلد بعادات غريبة وغير مألوفة، ما جعل
من الضروري لهما توخي الحذر الشديد حتى لا يروعاني أو
يسيئًا إليّ.

قلت: «كيف سمعتما عن الغداء؟»

«اتصل بان بنا هذا الصباح، وقد أخبرنا هنري عنه الليلة
الماضية».

«أعتقد أنه كان غاضبًا جدًا».

هز تشارلز كتفيه: «غاضب من باني ربما، لكن ليس منك».

«لا يأبه كل منهما بالآخر، أليس كذلك؟»

علت الدهشة وجهيهما لسماعهما ذلك.

قالت كاميلا: «إنهما صديقان قديمان».

قال تشارلز: «أود أن أقول أيضًا إنهما صديقان مقربان، في وقتٍ ما كانا لا يفترقان قط».

«يبدو أنهما يتجادلان كثيرًا».

قالت كاميلا: «حسنًا... بالطبع... لكن هذا لا يعني أنه لا يجب كل منهما الآخر. هنري جاد جدًا، وباني إلى حدٍّ ما... حسنًا... غير جاد، لذا فهما ينسجمان معًا جيدًا حقًا».

قال تشارلز: «نعم، الرجل السعيد والرجل المفكر⁽¹⁾، زوج متكافئ إلى حد كبير، أعتقد أن باني هو الشخص الوحيد تقريبًا في العالم الذي يستطيع أن يُضحك هنري». سكت بغتة وأشار بعيدًا. «هل سبق لك أن ذهبت إلى هناك؟ ثمة مقبرة فوق هذا التل».

بالكاد استطعت أن أراها من خلال أشجار الصنوبر، خط مستو ومتناثر من شواهد القبور متهاكة ومتعرجة منحرفة بزوايا أعطت تأثيرًا محمومًا وغريبًا بالحركة، كما لو أن قوة هستيرية بعثرتها روح شريرة للتو.

قالت كاميلا: «إنها مقبرة عتيقة ترجع إلى القرن الثامن عشر. كانت ثمة بلدة قائمة هناك أيضًا وكنيسة وطاحونة. لم يبقَ سوى الأساسات، لكن لا يزال بإمكانك رؤية الحقائق التي زرعوها. كان

(1) بالإيطالية في الأصل. وهما عنوانا قصيدتين لجون ميتلون.

تفاح البين والورود الطحلبية الحلوة الشتوية تنمو حول المنازل.
الله وحده يعلم ما حدث لتلك البلدة، ربما وباء... أو حريق».
قال تشارلز: «أو الموهوك⁽¹⁾، يجدر بك الذهاب لرؤيتها في
وقت ما، المقبرة خاصة».

«إنها جميلة. لا سيما وقت هطول الثلج».

كانت الشمس قد شارفت على المغيب، فبدت كقرص ذهبي
متوهج بين أغصان الأشجار، وألقت بظلالنا أمامنا على الأرض
طويلة ومشوهة. مشينا مدة طويلة في صمت، كان الهواء ثقیلاً
مشبعاً بروائح نيران مشتعلة بعيداً في العراء، مع نسيمات باردة
تعلن قدوم المساء. لم يكن ثمة ضجيج سوى صوت خشخشة
أحذيتنا فوق الطريق المرصوف بالحصى، وصفير الريح عبر
أشجار الصنوبر؛ شعرت بالنعاس وبدأ رأسي يؤلمني، وكان هناك
شعور غريب بأن كل شيء حولي غير حقيقي، كأنني في حلم.
شعرت أنني قد أستيقظ فزعاً في أي لحظة، ورأسي يتوسد كومة
من الكتب فوق مكتبي لأجد نفسي في غرفة معتمة بمفردي.
وفجأة، توقفت كاميلاً ووضعت إصبعها على شفيتها، وأشارت
إلى شجرة محترقة انشطرت إلى نصفين بسبب البرق، حيث
كانت ثلاثة طيور سوداء هائلة أضخم من أن تكون غريبان تجثم
على أغصانها، لم أرَ في حياتي مثل تلك الطيور.

(1) قبيلة من الأمريكيين القدماء في أمريكا الشمالية، هي عضو في اتحاد
الإيراكوي التي تعرف عن نفسها كأمة. كانوا يعيشون في وادي الموهوك، بالقرب
من بحيرة أونتاريو.

قال تشارلز: «غداً⁽¹⁾».

وقفنا ساكنين، نراقبها. وثب أحدها بطريقة خرقاء حتى نهاية الغصن الذي تمايل تحت ثقله مُجبراً إياه على الطيران ناعماً في الهواء، وتبعه الاثنان الآخران بوابل من الرفرفة، ثم حلق الثلاثة فوق المرج في تشكيلة مثلثة الشكل مُشكلين ثلاثة ظلال داكنة فوق العشب.

ضحك تشارلز: «إنها ثلاثة غربان، ترمز إلى ثلاثتنا هنا. أراهن أن هذا نذير بشيء ما⁽²⁾». قلت مُستفسراً: «نذير بماذا؟».

قال تشارلز: «لا أعرف. هنري عرّاف الطيور هو الذي سيخبرنا».

وأضفت مازحاً: «نعم، هنري مثل عرّاف روماني قديم، بالتأكيد سيعرف معنى ذلك».

استدردنا عائدين إلى المنزل، وعلى قمة أحد المرتفعات رأيت

(1) غُداً أو غُراب القيث Raven: نوع من الغُرابيات التي تنتشر في أوراسيا حيث يمتد نطاقها من إسكندنافيا وأوربّا الغربية إلى سيبيريا شرقاً. طائر اجتماعي كبير أسود الريش، يتميز عن سائر الغربان بمنطقة الجلد البيضاء عديمة الريش في وجه الطائر. الغداف أضخم من الغراب (crow)، حيث يصل طوله إلى 64 سم ووزنه إلى 1.2 كيلوغرام، بينما يصل طول الغراب إلى 46 سم ووزنه إلى 0.5 كيلوغرام. والغداف له منقار أكبر وأكثر انحناءً من الغراب، وله ريش أكثر كثافة فوق العنق والصدر والذيل.

(2) كان توسم الطيور ممارسة دينية يونانية رومانية لمراقبة سلوك الطيور لتلقي البشائر والنذر. وكان الفرد، المعروف باسم البشير أو الأغور، من يستقرئ معنى تلك العلامات.

جملونات⁽¹⁾ منزل مونماوث، موحشة من بعيد . كانت السماء باردة وخالية، وبدا القمر كهلال أبيض رفيع مثل ظفر إبهام يطفو في الظلام. لم أعتد على شفق الخريف الحزين حيث البرودة وانتشار الظلام المبكر. لقد حل المساء بسرعة، وملأني الصمت الذي خيم على المرج بمشاعر غريبة من الحزن والقلق. وتملكني شعور كئيب عند التفكير في منزل «مونماوث» بممراته الفارغة ومواقد الغاز القديمة وصوت المفتاح وهو يدور في قفل غرفتي.

وقف تشارلز أمام باب منزل مونماوث الأمامي، ووجهه شاحب في وهج مصباح الشرفة وقال: «وداعاً، نراك لاحقاً».

رأيت على مبعدة أضواء قاعة الطعام قبالة مبنى القاعة العامة؛ يمكن رؤية الظلال الداكنة لأناس يتحركون متجاوزين النوافذ.

قلت وأنا أدس يدي في جيبي: «كانت النزهة معكما ممتعة، هل تريدان أن تأتيا لتناول العشاء معي؟».

«أخشى أننا لن نستطيع، يجب أن نعود إلى المنزل».

قلت بخيبة أمل ممزوجة بالارتياح: «حسناً، في مرة أخرى».

قالت كاميلا وهي تستدير ناحية تشارلز: «حسناً، أتعلم...؟»

عقد تشارلز حاجبيه، وقال: «همم... أنتِ على حق».

استدارت كاميلا نحوي وقالت: «تعال وتناول العشاء في منزلنا».

قلت بسرعة: «أوه، لا أستطيع».

(1) الجَمَلُونُ عموماً هو الجزء الأعلى من المثلث. ويستخدم المصطلح في الهندسة المعمارية لتعريف نوع من أسقف المنازل والمباني القرميدية مثلثة الشكل.

أصرت كاميللا: «أرجوك».

«شكرًا لكما، لا أريد أن أثقل عليكما».

قال تشارلز بنبرة عطوفة: «أوه، هيا. ليس لدينا أي شيء
فاخر، لكن نود أن تأتي».

شعرت بدفقة من الامتتان تجاهه. رغبت بشدة في الذهاب.
قلت: «إذا كنتما متأكدين أنني لن أثقل عليكما».

قالت كاميللا: «على العكس فأنت تسعدنا بزيارتك، لنذهب».

استأجر تشارلز وكاميللا شقة مفروشة في الطابق الثالث من
أحد منازل نورث هامبدن. عندما تدخلها، تجد نفسك في غرفة
معيشة صغيرة ذات جدران مائلة ونوافذ بارزة. هناك مقاعد
ذات ذراعين وأريكة ضخمة مغطاة بأقمشة مزركشة باهتة رثة
عند الذراعين. زينت الأثاث أنماطٌ من الورود على قماش بني
داكن، وأوراق البلوط والجوز على قماش أخضر طحلي. انتشرت
في أرجاء المكان مفارش أطباق⁽¹⁾ ممزقة و داكنة من فرط
الاستخدام. وعلى رف المدفأة التي لم تعد صالحة للاستخدام،
تلاًل زوج من الشمعدانات المصنوعة من الزجاج الرصاصي إلى
جانب بعض الأطباق الفضية الباهتة.

وعلى الرغم من أن الشقة لم تكن في حالة فوضى عارمة،
فإنها بدت قريبة من ذلك، كانت الكتب مكدسة على كل سطح
متاح، والمناضد تعج بالأوراق ومناضض السجائر وزجاجات

(1) مُنَيِّدِل المائدة أو الدُولِيَّة: سجادة زينة مخرَّمة مصنوعة من الورق أو القماش
تُوضع فوقها الأطباق وأدوات المائدة.

الويسكي وعلب الشوكولاتة. أما غرفة الجلوس الضيقة، فقد صُغيت المظلات والجراميق⁽¹⁾ المرور فيها.

وفي غرفة تشارلز تناثرت الملابس على الأرضية، وتدلّت ربطات عنق كثيرة من باب خزانة الملابس. وفي غرفة كاميلّا تراكمت فناجين الشاي الفارغة وأقلام يتسرب منها الحبر، وزهور القطيفة الذابلة في كأس ماء على منضدة جانب السرير، حيث تركت لعبة ورق «سوليتير» لم تنته بعد.

كان تصميم الشقة غريباً بعض الشيء، بنوافذ وممرات غير متوقعة لا تؤدي إلى أي مكان، وأبواب منخفضة الارتفاع تجبرك على الانحناء للمرور منها. وفي كل ركن من أركان الشقة، كان هناك شيء جديد يلفت الانتباه: مجسم⁽²⁾ قديم لمدينة نيس بشوارعها الشبيهة المليئة النخيل التي تتلاشى في ظلال بنية داكنة، ورؤوس سهام محفوظة في علبة زجاجية مغلّقة، وسرخس مرجاني، وحتى هيكل عظمي لطائر.

توجه تشارلز إلى المطبخ وبدأ بفتح الخزانات وإغلاقها، فيما صَبَّت لي كاميلّا مشروباً من زجاجة ويسكي أيرلندية وجدتها فوق كومة من مجلات «ناشيونال جيوغرافيك».

(1) خف من المشمع عادة يُلبس فوق الحذاء وقد يمتد إلى أسفل ساق البنطلون لحمايته من الاتساخ في أثناء السير في منطقة مُوحلة أو خلال هطول المطر أو الثلوج.

(2) يعد الستيوبيتيكون أو المجسم جهاز عرض شرائح أو «فانوساً سحرياً» يحتوي على عدستين واحدة عادة فوق الأخرى، وقد استخدم أساساً لعرض الصور الفوتوغرافية. تعود هذه الأجهزة إلى منتصف القرن التاسع عشر.

قالت بنبرة عملية: «هل زرت حفر قطران لابريا⁽¹⁾؟»

أجبت بحيرة: «لا» ونظرت إلى مشروبي من دون أن أدري ماذا أقول.

قالت وهي تكلم تشارلز في المطبخ: «تخيل ذلك يا تشارلز، يعيش في كاليفورنيا ولم يسبق له أن زار حفر قطران لابريا». ظهر تشارلز أمام باب المطبخ، ومسح يديه بمنشفة أطباق، وقال بدهشة طفولية: «حقاً ولم لا؟»
«لا أعرف».

«إنها تستحق الرؤية، فكر في الأمر فقط».

غيرت كاميللا الموضوع وسألتني: «هل تعرف كثيراً من الناس هنا من كاليفورنيا؟»
«لا».

«هل تعرف جودي بوفي؟»

دهشت كيف عرفت ذلك؟ قلت: «إنها ليست صديقتي».

قالت: «وليس صديقتي، في العام الماضي ألفت مشروباً في وجهي».

قلت ضاحكاً: «سمعت عن ذلك»، لكنها لم تبتسم.

قالت: «لا تصدق كل ما تسمعه»، وأخذت رشفة أخرى من مشروبها. «هل تعرف كلوك رايبورن؟».

(1) مجموعة من حفر القطران تكونت حول هانكوك بارك في لوس أنجلوس، حيث ترسب الأسفلت الطبيعي من داخل الأرض في هذه المنطقة لعشرات الآلاف من السنين. القطران كثيراً ما يغطي بالغبار وأوراق الأشجار أو المياه، وعلى مدى قرون عديدة حفظت عظام الحيوانات التي علقت داخل القطران.

كنت أعرفه، كان هناك زمرة منغلقة وعصرية من الكاليفورنيين في هامبدن، معظمهم من سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس. كان كلوك رايبورن مركز هذه المجموعة، اشتهر بابتساماته الملولة وعينييه الناعستين وتدخينه الشره. كانت الفتيات من لوس أنجلوس -ومنهن جوذي بوفي- مخلصات بشدة له. كان كلوك من نوعية الأشخاص الذين قد تصادفهم في حمام الرجال في الحفلات، يستشقون الكوكائين فوق المغسلة.

«إنه صديق باني».

قلت متفاجئاً: «كيف هذا؟».

«كانا في المدرسة الإعدادية معاً، في سانت جيروم في بنسلفانيا».

قال تشارلز وهو يشرب رشفة كبيرة من مشروبه: «أنت تعرف هامبدن، هذه الكليات التقدمية يحبون الطالب المشاغب المستضعف. جاء كلوك من إحدى كليات كولورادو بعد عامه الأول، كان يقضي وقته في التزلج وفشل في جميع صفوفه. هامبدن هي ملاذ الأخير».

ضحكت كاميلا وقالت: «إنها الملاذ الأخير لأسوأ الناس».

قلت: «أوه، لا تقولي ذلك».

تابع تشارلز: «حسناً، قد يكون هناك بعض الصحة في ذلك. نصف الطلاب هنا لأنهم لن يُقبلوا في أي مكان آخر، لكن هذا لا يعني أن هامبدن ليست كلية رائعة، في الواقع قد يكون هذا هو السبب الذي يجعلها رائعة، خذ هنري على سبيل المثال، لو لم تقبله هامبدن فربما لم يكن يستطيع الانضمام إلى كلية على الإطلاق».

قلت: «لا أصدق ذلك».

«يبدو الأمر سخيفاً، لكن هنري لم يكمل الصف العاشر في المدرسة الثانوية، أعني كم عدد الكليات المرموقة التي ستقبل طالباً ترك دراسته في الصف العاشر؟ ثم هناك أيضاً مسألة الاختبارات الموحدة. رفض هنري أداء اختبار السات⁽¹⁾، ربما كان سيحقق نتيجة عالية لو خاضه، لكن لديه بعض الاعتراضات الفلسفية عليه. يمكنك تخيل كيف يبدو هذا الرفض أمام لجنة القبول في الكليات». أخذ رشفة أخرى من مشروبه، ثم سألتني: «إذن، كيف انتهى بك المطاف هنا؟».

كان تعبير عينيه صعب القراءة، قلت: «أحببت كتيب كتالوج الكلية».

«وأنا متأكد من أن هيئة القبول وجدت ذلك سبباً وجيهاً للسماح لك بالالتحاق بالكلية».

وددت في تلك اللحظة شرب كأس ماء، كانت الغرفة دافئة وحلقي جافاً، وكان الويسكي قد ترك طعماً مرّاً في فمي، ليس لأنه كان رديئاً بل لأنني كنت أشعر بالخمار، لم أتناول أي طعام طوال اليوم، وشعرت فجأة بالغثيان.

سُمع طرق على الباب، تلاه سلسلة من الطرقات.

من دون كلمة تجرّع تشارلز مشروبه دفعة واحدة وانسحب إلى المطبخ، فيما ذهبت كاميلاً لفتح الباب.

(1) اختبار SAT: اختبار معياري يستخدم عمومًا في الولايات المتحدة كجزء من عملية القبول في الجامعات والكليات.

قبل أن يُفتح الباب بالكامل، استطعت رؤية بريق النظارة المستديرة الصغيرة. ثم ترددت أصوات الترحيب، ودخلوا جميعاً: هنري، وباني حاملاً حقيبة تسوق ورقية بنية، وفرانسيس المهيب بمعطفه الأسود الطويل، ممسكاً بعنق زجاجة شمبانيا بيده المغطاة بقفاز أسود.

كان فرانسيس آخر الداخلين، انحنى ليقبل كاميلاً على خدها مصدراً صوت تقبيل عال. وقال: «مرحباً يا أعزائي، يا له من خطأ سعيد ارتكبناه بقدمونا إلى هنا، أحضرت الشمبانيا وجلب باني بيعة ستاوت حتى نتمكن من إعداد مشروب أسود وأسمر⁽¹⁾. ماذا لدينا على العشاء الليلة؟».

نهضت بحيث صرت في مجال رؤيتهم. صمتوا لجزء من الثانية، ثم دفع باني حقيبته الورقية نحو هنري وخطا إلى الأمام لمصافحتي: «حسناً، حسناً. شريكي في الجريمة هنا إذن، ألم تتل كفايتك من تناول العشاء في الخارج؟» صفعني على ظهري، وبدأ يثرثر.

شعرت بالحمى والإرهاق، تجولت عيناى في أرجاء الغرفة، كان فرانسيس يتحدث إلى كاميلاً، وهنري يقف جانب الباب، ألقى إليّ تحية صغيرة وابتسم ابتسامة خفيفة تكاد لا تُرى. قلت لباني: «عذراً، سأعود في غضون دقيقة واحدة».

اتجهت إلى المطبخ الذي بدا مثل مطبخ في منزل شخص عجوز بأرضية مغطاة بمشمع أحمر بالٍ بما يتماشى مع غرابة

(1) أسود وأسمر: كوكتيل بيعة مصنوع من طبقات بيعة شاحبة وبيعة داكنة. في أيرلندا يطلق على المشروب نصف ونصف لأنه في أيرلندا يعتبر مصطلح «أسود وأسمر» عنصرًا.

هذه الشقة، كان هناك باب يؤدي إلى السطح، ملأت كوبًا من صنبور المياه، ورشفته دفعة واحدة وبسرعة.

كان تشارلز قد فتح الفرن، وأخذ يختبر نضج بعض شرائح لحم الضأن باستخدام شوكة.

لم أكن من محبي اللحوم، ويرجع ذلك بشكل كبير إلى جولة مروعة قمنا بها في مصنع تعبئة اللحوم في الصف السادس الابتدائي، لذلك لم أجد رائحة الضأن جذابة قط، لكنها كانت كريهة خصوصًا في حالتي تلك. كان باب السطح مفتوحًا ويستند إلى أحد مقاعد المطبخ، ما سمح بتدفق تيار هوائي عبر الحاجز الشبكي الصدئ. ملأت كوبي مرة أخرى ووقفت أمام الباب، فكرت في أن كل ما أحتاج إليه هو بضع أنفاس عميقة من الهواء المنعش.

لسع تشارلز إصبعه، فشتم قليلًا وأغلق الفرن. وعندما استدار بدا مدهوشًا لرؤيتي واقفًا هناك.

قال: «هل هناك خطب؟ هل أحضر لك مشروبًا آخر؟»
«لا، شكرًا».

حدق إلى كأسِي: «ماذا لديك؟ هل هذا جن؟ أين عثرت عليه؟»
ظهر هنري أمام الباب وقال لتشارلز: «هل لديك أسبرين؟»
«ستجده هناك، لماذا لا تتناول مشروبًا؟»

قلب هنري زجاجة الدواء وهزها حتى سقطت بضعة أقراص أسبرين في يده، ثم أخرج قرصين غامضين من جيبه، وابتلعها كلها بكأس من الويسكي قدمه له تشارلز.

ترك زجاجة الأسبرين فوق المنضدة، سرت خلسة إليها وأخذت قرصين لنفسي، لكن هنري رأني فقال بنبرة لا تخلُ من طيبة: «هل أنت متعب؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

«لا، مجرد صداع.»

«آمل أنك لا تعاني كثيرًا؟»

قال تشارلز: «ماذا؟ هل الجميع متعب؟»

جاء صوت باني المنزعج صاخبًا من الردهة: «لماذا الجميع هنا؟ متى سنأكل؟»

«انتظر يا باني، دقيقة واحدة فقط.»

دخل المطبخ بخطوات متثاقلة وهو ينظر من فوق كتف تشارلز إلى صينية شرائح اللحم التي أخرجها تشارلز للتو من الشواية، ثم قال: «تبدو ناضجة». مد يده والتقط شريحة قطعة صغيرة قرب طرف العظم، وبدأ يمضغها.

قال تشارلز: «باني، من فضلك لا تفعل ذلك، لن يتبقى ما يكفي للجميع.»

قال باني وفمه ممتلئ: «أنا أتضور جوعًا، أشعر بالضعف من فرط الجوع.»

قال هنري بوقاحة: «ربما يمكننا أن نترك لك العظام لتمضغها.»
«أخرس».

تابع تشارلز: «باني، أتمنى حقًا أن تنتظر دقيقة واحدة فقط.»

قال باني: «حسنًا»، لكنه مد يده وسرق قطعة أخرى عندما أدار تشارلز ظهره، تساقطت بضعة قطرات من العصارة الوردية على يده واختفت داخل كفه.

القول بأن العشاء سار على نحو سيئ سيكون مبالغة، لكنه لم يكن مريحاً أيضاً. على الرغم من أنني لم أقل أو أفعل أي شيء غبي، فإنني شعرت بالاكْتئاب والإرهاق، وكنت صامتاً معظم الوقت ولم أكل إلا القليل. تركّز معظم الحوار حول أحداث لم أكن على دراية بها، وحتى ملاحظات تشارلز التوضيحية اللطيفة لم تساعد كثيراً في توضيح الأمور. استمر هنري وفرانسيس في الجدال بلا نهاية حول مدى تباعد الجنود في الفيلق الروماني عن بعضهم خلال وقوفهم: الكتف إلى الكتف (وفقاً لفرانسيس) أو (كما أكد هنري) بمسافة ثلاثة أو أربعة أقدام تفصل بينهم. ثم انتقلنا إلى نقاش أطول - كان من الصعب متابعته وكان مملاً جداً بالنسبة إليّ - حول إن كانت الفوضى البدائية عند هِسْيُود⁽¹⁾ فضاء فارغاً ببساطة أم فوضى بالمعنى الحديث للكلمة⁽²⁾.

بينما يلتهم باني شريحتي الضأن شغلت كاميلاً تسجيلاً لجوسيفين بيكر.

غادرت مبكراً، وعرض كل من فرانسيس وهنري اصطحابي إلى المنزل بالسيارة؛ ما جعلني أشعر بالسوء لسبب ما. أخبرتهما أنني أفضل المشي وشكرتهما، ثم غادرت الشقة مبتسماً، في

(1) هِسْيُود أو هزيرود أو هسيودوس؛ شاعر إغريقي مشهور، يظن الباحثون أنه عاش بين 750 و650 قبل الميلاد، أي في زمان هوميروس تقريباً. يُعد عمومًا أول شاعر كتابي في التراث الغربي يعد نفسه شخصية فردية لها دور فعال في الموضوع الذي يكتب عنه. عزا كتاب قدماء إلى هسيود وهوميروس ابتداء عادات دينية يونانية.

(2) الفوضى أو الشّواش أو اللاتكوّن (بالإغريقية χᾶος وبالإرومانية kháos): لفظ يشير إلى حالة الفراغ التي سبقت نشأة الكون في أساطير الخلق اليونانية، كما يشير إلى الفجوة الناتجة عن انفصال السماوات عن الأرض.

حالة هذيان تقريباً، ووجهي يحترق تحت نظراتهم الفضولية الباردة.

لم تكن الشقة بعيدة عن الكلية، خمس عشرة دقيقة سيراً على الأقدام فقط، لكن الجو كان بارداً والصداع يؤلمني. تركت الأمسية إحساساً قوياً بالنقص والفشل داخلي، الذي ازداد حدة مع كل خطوة. كانت أفكارني تدور بلا هوادة حول أحداث المساء محاولاً تذكر الكلمات بحذافيرها والنبرات الدقيقة؛ أي إهانات أو إشارات طيبة خفية ربما فاتتني. كان عقلي -بلا طلب مني- يبالغ في الأمور ويحرفها.

عندما وصلت إلى غرفتي، كانت فضية وغريبة تحت ضوء القمر، وكانت النافذة لا تزال مفتوحة، وكتاب بارمينيدس مفتوحاً على مكتبي حيث تركته، وبجانبه كان هناك فتجان قهوة بلاستيكي نصف ممتلئ وبارد اشتريته من مقصف الوجبات الخفيفة. كانت الغرفة قارسة البرودة لكنني لم أغلق النافذة، بدلاً من ذلك استلقيت على سريري من دون أن أخلع حذائي أو أشعل الضوء. وبينما كنت مستلقياً على جنبي أحرق في بركة من ضوء القمر الأبيض المنسكب فوق الأرضية الخشبية، هزّت الريح الستائر، فبدت طويلة وشاحبة مثل الأشباح، ثم رفرفت صفحات الكتاب ذهاباً وإياباً كأن هناك يدًا خفية تتصفحها.

كنت أنوي النوم بضع ساعات فقط لكنني استيقظت في صباح اليوم التالي على ضوء الشمس الساطع في غرفتي، والساعة تشير إلى التاسعة صباحاً إلا خمس دقائق. دون أن أهتم بحلاقة

ذقني أو تمشيط شعري أو حتى تغيير ملابسني، تناولت كتاب «تأليف النثر اليوناني» ومعجم «سكوت وليندل»⁽¹⁾، وركضت إلى المحاضرة متأخراً بضع دقائق لأكون آخر من يدخل الغرفة. كان الجميع حاضرين في المكتب باستثناء جوليان الذي كان حريصاً دائماً على الوصول متأخراً بضع دقائق.

سمعتهم من الممر يتحدثون، لكن عندما فتحت الباب سكت الجميع ونظروا إليّ، لم يقل أحد أي شيء للحظة، ثم قال هنري: «صباح الخير».

قلت: «صباح الخير».

بدا الجميع تحت الضوء منتعشين ومرتاحين ومصدومين من مذهري، حدقوا إلى وجهي فيما مررت يدي بخجل عبر شعري الأشعث.

قال باني لي: «يبدو أنك لم تجد شفرة حلاقة هذا الصباح يا فتى».

أجبت: «يبدو كذلك».

ثم فتح الباب، ودخل جوليان.

كان هناك كثير من العمل في محاضرة ذلك اليوم خصوصاً بالنسبة إليّ، لأنني كنت متأخراً كثيراً عن المقرر، قد يكون من الممتع التحدث عن الأدب أو الفلسفة أيام الثلاثاء والخميس، لكن بقية الأسبوع كانت مخصصة لقواعد اللغة اليونانية القديمة

(1) معجم يوناني/ إنجليزي قديم من إعداد وتحرير جورج ليدل وروبرت سكوت وهنري ستيوارت جونز ورودريك ماكنزي، ونشر في 1843 من إصدار دار نشر جامعة أكسفورد.

وكتابة النثر والتعبير، وكان ذلك في معظمه عملاً شاقاً ومرهقاً، وهو عمل بالكاد أستطيع إجبار نفسي على القيام به الآن بعد أن كبرت في السن وأصبحت أقل جلدًا. كان لديّ بالتأكيد ما يكفي من الهموم، بالإضافة إلى تعامل زملائي البارد معي مرة أخرى، وتضامنهم الكبير مع بعضهم ونظرتهم غير المكترثة إليّ، لقد فتحت ثغرة في صفوفهم سمحت لي بالولوج إلى عالمهم، لكنها أغلقت الآن، يبدو أنني عدت إلى النقطة التي بدأت منها.

بعد ظهر ذلك اليوم ذهبت لرؤية جوليان بحجة الحديث عن كيفية تحويل تقييماتي الأكاديمية وساعاتي الدراسية المعتمدة بعد تركي مقرراتي السابقة، ولكن كان في بالي أمر مختلف تمامًا. لأنني شعرت فجأة أن قراري بالتخلي عن كل شيء من أجل اللغة اليونانية كان قراراً متسرعاً وساذجاً، واتخذته لأسباب خاطئة. ما الذي كنت أفكر فيه؟ لقد استهوتني اليونانية القديمة، وكنت معجباً بالبروفيسور جوليان، لكنني لم أكن متأكدًا إن كنت أستلطف تلاميذه أم لا، وعلى أي حال هل أردت حقًا أن أقضي حياتي المهنية في الكلية وبعدها في النظر إلى منحوتات الكوروس⁽¹⁾ المكسورة، والتفكير في حروف وقواعد اليونانية؟

قبل عامين اتخذت قراراً متسرعاً مشابهاً وانتهى بي الأمر في كابوس دام عامًا كاملاً، عامًا قضيته كله في مشاهدة الأرناب المخدرة والرحلات اليومية إلى المشرحة التي بالكاد نجوت

(1) المنحوتات اليونانية القديمة التي ظهرت لأول مرة في العصر القديم في اليونان وتمثل الشباب الذكور العراة كانت مستوحاة من المنحوتات المصرية القديمة. تعني كلمة كوروس اليونانية القديمة: الشباب، الفتيان، خصوصًا ذوي الرتبة النبيلة.

منها. لم تكن دراسة اليونانية القديمة بمثل هذا السوء (تذكرت برجفة مختبر علم الحيوان القديم الذي كنت أرتاده في الثامنة صباحًا، وأحواض أجنة الخنازير التي تتصاعد منها الفقاقيع). أخبرت نفسي: لم يكن قراري الالتحاق بصف اليونانية القديمة بهذا السوء، ولكنه لا يزال يبدو خطأ كبيرًا، وقد فات الأوان للرجوع إلى مقرراتي السابقة أو تغيير المستشارين مرة أخرى. أعتقد أنني ذهبت لرؤية جولييان من أجل إحياء ثقتي المتزعزعة، على أمل أن يجعلني أشعر بنفس اليقين الذي غمرني في اليوم الأول، كنت متأكدًا إلى حد ما أنه سيفعل ذلك لو تمكنت من مقابلته، لكن ما حدث أنني لم أتمكن من التحدث إليه على الإطلاق؛ عندما وصلت إلى الدرج خارج مكتبه، سمعت أصواتًا في الممر، فتوقفت.

كان جولييان وهنري يتحدثان، لم يسمع أي منهما صعودي الدرج، كان هنري يغادر وجولييان يقف أمام الباب المفتوح. كان جبينه مجعدًا وبدا جديًا كأنه يقول شيئًا بالغ الأهمية. بعد أن خطر ببالي افتراض سخيف جعلني أشك في أنهم يتحدثون عني، اقتربت خطوة واحدة إلى الأمام، ونظرت حول الزاوية بقدر ما أستطيع المخاطرة.

أنهى جولييان كلامه، وأشاح بعينه بعيدًا لحظة، ثم عض شفته السفلى ونظر إلى هنري.

ثم تحدث هنري، كانت كلماته خافتة لكنها واضحة ومميزة:

«هل يجب أن أفعل ما هو ضروري؟»

لدهشتي أخذ جوليان يدي هنري في يديه وقال: « يجب أن تفعل دائماً ما هو ضروري».

فكرت: ماذا يحدث هنا؟ وقفت أعلى الدرج محاولاً عدم إصدار أي صوت، أردت المغادرة قبل أن يرياني لكنني كنت خائفاً من التحرك.

لمفاجأتي الشديدة، انحنى هنري وطبع قبلة صغيرة وسريعة على خد جوليان. ثم استدار ليغادر، لكن لحسن حظي التفت إليه ليقول شيئاً أخيراً. انتهزت الفرصة وتسالت بهدوء أسفل الدرج، ثم بدأت أركض حتى بلغت الطابق الثاني ولم يعد بإمكانهما أن يسمعا خطواتي.

كان الأسبوع الذي تلا ذلك أسبوعاً موحشاً وسريالياً، بدأت ألوان أوراق الشجر تتغير، وهطل المطر بغزارة، وحل الظلام مبكراً. تجمع الطلاب في منزل مونماوث حول المدفأة في الطابق السفلي، يحرقون الحطب الذي سرقوه خلسة من مبنى هيئة التدريس، ويشربون عصير التفاح الدافئ فيما كانت أقدامهم متدثرة بالجوارب. لكنني كنت أذهب مباشرة إلى محاضراتي، وعند الانتهاء أعود إلى مونماوث، وأصعد الدرج إلى غرفتي متجاوزاً هذه المشاهد الاجتماعية الدافئة، لم أكن أتحدث إلى أحد إلا فيما ندر، حتى الطلاب الودودين الذين يدعوني إلى الانضمام إليهم.

أعتقد أنني كنت مكتئباً قليلاً -بعد أن زال سحر التجربة الجديدة- من غرابة المكان الذي وجدت نفسي فيه: أرض غريبة

بعاداتها وأناسها وغموض طقسها الذي لا يمكن التنبؤ فيه. ظننت أنني مريض، على الرغم من أنني الآن لا أعتقد أنني كنت كذلك حقًا. كنت أشعر بالبرد طوال الوقت، ولا أنام جيدًا، وفي بعض الليالي لم أنم سوى ساعة أو ساعتين.

لا شيء يجسد الوحدة والارتباك أكثر من الأرق. كنت أقضي الليالي في قراءة اليونانية حتى الرابعة صباحًا، حتى تلسفني عيناى ويدور رأسي، وأصبح ضوء غرفتي هو الوحيد المضاء في منزل مونماوث. وحين يتعذر عليّ التركيز وتتحول الحروف اليونانية أمامي إلى أشكال غريبة، ألجأ إلى قراءة «غاتسبي العظيم». كان من كتبي المفضلة، استعرتة من المكتبة على أمل أن يخفف عني، لكن بدلاً من ذلك، تعمق شعوري بالكآبة. ففي حالتني، التي خلت تمامًا من أي روح فكاهية، لم أتمكن من رؤية شيء سوى التشابهات المأساوية بين شخصية غاتسبي وحياتي.

في الحفلة تحدثت فتاة شقراء ذات بشرة سمراء إليّ قائلة: «أنا ناجية». كان طولها تقريباً مثل طولني، وعرفت على الفور أنها من كاليفورنيا من دون أن أسألها. أعتقد أن شيئاً في صوتها دلّني على ذلك، أو ربما شيء في بشرتها المحمرة المنمشة المشدودة فوق ترقوتها النحيلة وعظمة قصها وقفصها الصدري النحيف. كان صدرها مسطحاً؛ ما زاد من مظهرها النحيل الذي كان واضحاً من خلال فتحة مشد الخصر ماركة غولتييه.

عرفت أنه كان غولتييه لأنها لم تتوقف عن ذكر ذلك، بدا في نظري كأنه بذلة غطس مربوطة بخشونة في المقدمة.

كانت تصرخ في وجهي ليعلو صوتها فوق صوت الموسيقى: «مررت بحياة صعبة جداً بعد إصابتي»، (سمعت عن إصابتها سابقاً: أوتار عضلاتها رخوة، وهو ما كان في نظرها خسارة لعالم الرقص ومكسباً لفن الأداء) «لكن أعتقد أن لدي إحساساً قوياً بذاتي وباحتياجاتي، الآخرون مهمون عندي بالتأكيد لكنني دائماً ما أحصل على ما أريد منهم، كما تعلم».

كان صوتها أجشّ متقطعاً، وهو ما لاحظته لدى بعض سكان كاليفورنيا عندما يحاولون جاهدين التحدث بلهجة نيويورك. ومع ذلك، كان هناك أيضاً شيء مشرق وحيوي في صوتها يعكس روح الولاية الذهبية.

كانت معجبة بفرقة «الملعونين»⁽¹⁾. كانت هذه الفتاة الجميلة فاقدة الشغف والخواوية من نوع الفتيات اللاتي لم يكن ليعرّني أي انتباه في الديار. لكنني أدركت الآن أنها كانت تحاول مغازلتني. لم أضاجع أي امرأة في فيرمونت باستثناء فتاة ضئيلة الجسم ذات شعر أحمر، التقيتها في حفلة في عطلة نهاية الأسبوع الأولى لي هنا. أخبرني أحدهم لاحقاً أنها وريثة مصنع ورق من الغرب الأوسط. الآن أشيخ بعيني بعيداً عنها كلما التقينا (أسلوب النبلاء للهروب من امرأة، كما اعتاد زملائي في الفصل أن يمزحوا).

هتفت: «هل تريدان سيجارة؟».

«أنا لا أدخن».

(1) The Damned بالإنجليزية: فرقة موسيقى الروك الإنجليزية التي تشكلت في لندن عام 1976 على يد المغني الرئيسي ديف فانيان، وعازف الجيتار برايان جيمس، وعازف موسيقى الكابتن سينسيل، وعازف الطبل رات سكابيس.

قلت: «ولا أنا، إلا في الحفلات».

ضحكت، وصرخت في أذني: «حسنًا، بالتأكيد، أعطني واحدة. ألا تعرف أين يمكننا العثور على بعض الماريجوانا؟».

بينما كنت أشعل السيجارة لها، لكزني أحدهم بمرفقه من الخلف فترنحت إلى الأمام. كانت الموسيقى صاخبة، والناس يرقصون، وتجمعت برك من البيرة المنسكبة على الأرضية. واحتشدت غوغاء صاخبة أمام البار. كل ما استطعت رؤيته هو كتلة دانتية⁽¹⁾ من الأجسام فوق حلبة الرقص، وسحابة من الدخان تحوم بالقرب من السقف، لكن عندما انسكب الضوء من الممر إلى الظلام، رأيت كأسًا مقلوبة هنا، وفمًا عريضًا مطلقًا بأحمر الشفاه يضحك هناك. بالمقارنة مع الحفلات الأخرى، كان هذه الحفل مريعًا، ويزداد سوءًا مع مرور الوقت - كنت متأكدًا بالفعل من أن طلاب السنة الأولى قد بدؤوا بالتقيؤ وهم ينتظرون في طوابير كثيفة لدخول الحمام - لكنه كان يوم جمعة، وقد أمضيت الأسبوع كله في القراءة ولم يكن يهمني. كنت أعلم أن زملائي من طلاب اليونانية لن يكونوا في الحفل، لأنني لم أفوت أي حفلة ليلة جمعة منذ بدء الكلية، فقد علمت أنهم يتجنبونها مثل الطاعون.

قالت الفتاة: «شكرًا لك»، كانت قد انسحبت جانبًا في زاوية هادئة على أحد السلالم. كان الجو هناك أكثر هدوءًا، ولم يعد من الضروري للمرء أن يصرخ حتى يُسمع. لكنني كنت قد تناولت

(1) نسبة إلى دانتى وهو وصف يتسم بصخب باهر في الأسلوب مع جدية عميقة أو كآبة في الشعور.

ست كؤوس من الفودكا، ولم أستطع أن أفكر في شيء أقوله لها،
أو حتى أن أتذكر اسمها.

بعد مدة من الصمت، سألتها ثملاً: «حسناً، ما تخصصك؟»
ابتسمت: «فن الأداء، سألتني عن ذلك سابقاً».
«آسف، لقد نسيت».

رمقتني بنظرة انتقادية: «يجب أن تسترخي، انظر إلى يديك،
إنك متوتر جداً».

قلت بصدق: «أنا مسترخ إلى أقصى درجة».

نظرت إليّ، وبدأت ملامحها تشير إلى تعرفها إليّ، قالت
وهي تنظر إلى سترتي وربطة عنقي المنقوش فوقها صور رجال
يصطادون الغزلان: «أعرف من أنت، أخبرتي جودي كل شيء
عنك، أنت الفتى الجديد الذي يدرس اليونانية مع تلك المجموعة
الغريبة».

«جودي؟ ماذا تقصدين بأن جودي أخبرتك عني؟»

لكنها تجاهلت سؤالتي وقالت: «عليك أن تحتاط، لقد سمعت
بعض الأشياء المريبة والمريبة عن هؤلاء الأشخاص».
«مثل ماذا؟».

«مثل أنهم يعبدون الشيطان».

قلت: «لا وجود للشياطين في الميثولوجيا الإغريقية».

«حسناً، هذا ليس ما سمعته».

«حسناً، ماذا إذن؟ أنت مخطئة».

«هذا ليس كل شيء، سمعت بعض الأمور الأخرى أيضاً».

«ماذا أيضاً؟»

رفضت أن تفصح أكثر.

«من أخبرك بهذا؟ جودي؟».

«لا».

«مَن إذن؟».

قالت: «سيث جارتيل»، كما لو أن هذا الاسم يحسم الأمر. وبالمصادفة، كنت أعرف جارتيل. كان رسامًا سيئًا وناشرًا للشائعات، وكانت مفرداته محدودة إلى حد كبير، وتتكون بشكل أساسي من العبارات الفاحشة والأفعال الحلقية وتعبير «ما بعد الحداثة».

قلت: «ذاك الخنزير، هل تعرفينه؟»

نظرت إليّ نظرة عدائية، وقالت: «سيث جارتيل صديقي». لقد شربت أكثر من اللازم. قلت: «أهو كذلك؟ أخبريني إذاً. من أين حصلت حبيبته على تلك العينين المتورمتين ذواتي الظلال السوداء؟ وهل يتبول حقًا على لوحاته على غرار جاكسون بولوك؟».

قالت ببرود: «سيث عبقرى».

«حقًا؟ إذاً فهو بارع في الخداع بلا شك».

«إنه رسام متميز، وهذا رأيي غير المتحيز، الجميع في قسم الفن يؤكد ذلك».

فقلت ساخرًا: «حسنًا، إذا كان الكل يقول ذلك، فيجب أن يكون الأمر صحيحًا».

وهنا احتدت قائلة: «كثيرٌ من الناس لا يحبون سيث، وأعتقد أنهم يغارون منه».

كانت هناك يد تسحب كم قميصي من الخلف بالقرب من المرفق، تجاهلتها في البداية فمع حظي العاثر الليلة لا يمكن أن تكون سوى جودي بوفي تحاول التقرب مني كعادتها في مثل هذا الوقت من كل ليلة جمعة. لكن ذلك الشخص عاود شدّ كمي مجدداً، هذه المرة بشكل أقوى وأكثر إلحاحاً. استدرت بامتعاض، وكدت أتعثر وأسقط للخلف بسبب اصطدامي بالشقراء.

كانت كاميلاً بعينيها الحديديتين المدهوشتين والمشرقتين اللتين بدوتا كأنهما تتوهجان في ضوء البار الخافت. قالت: «مرحباً».

حدقت إليها وقلت: «مرحباً»، محاولاً التظاهر بعدم المبالاة رغم سعادتي برؤيتها، ثم سألتها مبتسماً: «كيف حالك؟ ما الذي تفعلينه هنا؟ هل يمكنني أن أحضر لك مشروباً؟» قالت: «هل أنت مشغول؟»

تلعثمتُ، كانت خصلات شعرها الذهبية القصيرة ملتفة بطريقة جذابة فوق صدغيها.

قلت: «لا، لا، أنا لست مشغولاً على الإطلاق». لم أستطع أن أنظر إلى عينيها مباشرة فركزت نظري على جبهتها الجميلة. همست قائلة وهي تنظر من فوق كتفي: «إذا كنت مشغولاً فأخبرني فحسب. لا أريد أن آخذك من أحد»، وبالطبع كانت تقصد «الآنسة جولتييه». استدرت متوقعاً بعض التعليقات السخيفة، لكنها كانت قد فقدت الاهتمام وانهمكت في الحديث مع شخص آخر.

قلت لها: «لا، أنا لا أفعل أي شيء».

«هل تريد الذهاب إلى الريف في عطلة نهاية هذا الأسبوع؟»
صرختُ متفاجئاً: «ماذا؟».

أوضحت قائلة: «سنغادر الآن... فرانسيس وأنا. لديه منزل على بعد ساعة من هنا».

كنت ثملاً حقاً، لولا ذلك لما كنت قد هزرت رأسي وتبعتها دون أن أطرح أي سؤال. كان علينا شق طريقنا عبر حشد الراقصين للتمكن من الوصول إلى الباب، حيث كانت أجواء المكان مشبعة بالعرق والحرارة ومضاءة بأضواء الكريسماس الوامضة ومكتظة بالأجساد المتزاحمة. عندما خرجنا أخيراً كان الأمر أشبه السقوط في بركة مياه راكدة وباردة، حيث كانت جلبة الحفلة والموسيقى المنحطة تُسمع مكتومة من النوافذ المغلقة.

قالت كاميلا: «يا إلهي، هذه الأماكن أشبه بالجحيم، الناس يتقيؤون في كل مكان».

كان ضوء القمر يكسو الطريق المرصوف بالحصى بضياءه الفضي، وكان فرانسيس يقف في الظلال أسفل بعض الأشجار، عندما رأنا قادمين خطأ فجأة نحو الممشى المضيء، وقال: «بوا» قفز كلانا إلى الوراء متفاجئين، فابتسم فرانسيس ابتسامة واهنة، وانعكس الضوء على عدسات نظارته، ودخان سيجارته يتماوج خارجاً من منخريه.

قال لي: «مرحباً»، ثم ألقى نظرة إلى كاميلا، وقال: «اعتقدت أنك رحلت ولن تعودى».

فردت عليه: «كان عليك أن تأتي معي لترى الأجواء بنفسك في الداخل».

قال فرانسيس: «أنا سعيد لأنني لم أفعل ذلك، لأنني رأيت بعض الأشياء المثيرة للاهتمام في الخارج هنا».

«مثل ماذا؟».

«مثل بعض حراس الأمن يُخرجون فتاة على نقالة، وكلب أسود يهاجم بعض الهبيين» ضحك، ثم ألقى مفاتيح سيارته في الهواء وتلقفها ثانية. «هل أنتما جاهزان؟»

كانت سيارته موستانج عتيقة بسقف متحرك، انطلقنا في طريقنا إلى الريف وسقف السيارة مفتوح، وجلسنا ثلاثتنا في المقعد الأمامي. من المدهش أنني لم أركب سيارة مكشوفة من قبل، والأكثر إدهاشاً أنني استسلمت للنوم على الرغم من التوتر الذي كان يجب أن يبقيني مستيقظاً، ربما كان تأثير أسبوع من الأرق وستة كؤوس من فودكا التونيك أقوى من أن يقاوم، فغضت وخدي مستند إلى الجلد المبطن لباب السيارة.

لا أذكر الكثير عن الرحلة، كان فرانسيس سائقاً حذراً يقود بسرعة معقولة بخلاف هنري الذي كان يقود بتهور وطيش، اختلطت أصوات الرياح الليلية في شعري وحديثهما الخافت والموسيقى المنبعثة من الراديو وامتزجت جميعها في أحلامي، بدا الأمر كأننا قدنا السيارة بضع دقائق فقط عندما ساد الهدوء وأيقظتني فجأة يد كاميلا على كتفي: «استيقظ، لقد وصلنا».

كنت لا أزال مترنحاً بين الحلم واليقظة، ولم أكن متأكداً تماماً من المكان الذي كنت فيه. هزرت رأسي واعتدلت في مقعدي، ومسحت لعابي الذي سال على خدي بظهر يدي.

سألتني كاميلا: «هل أنت مستيقظ؟».

قلت: «نعم»، رغم أنني لم أكن كذلك، كان الظلام دامساً ولم أستطع رؤية أي شيء، عثرت أخيراً على مقبض باب السيارة، وعندئذ وأنا أترجل من السيارة، بان القمر من خلف غيمة، ورأيت المنزل. مكتبة سُرْمَن قرأ

كان منزلاً هائلاً بتصميمه الذي يشبه القلاع مع أبراجه ورماحه وممشى الأرملة، بدا المنزل حاد المعالم في الظلام كأنه معالمه رسمت بدقة بحبر أسود على خلفية السماء المضاءة بنور القمر الخفيف، قلت لا إرادياً: «يا إلهي».

كان فرانسيس يقف إلى جوارى لكنني لم ألحظ وجوده حتى تحدث، وقد روعني قرب صوته. قال: «لا يمكنك الحصول على انطباع واضح عن المنزل ليلاً».

قلت: «هذا المنزل ملكك؟»

ضحك فرانسيس وقال: «لا، إنه ملك خالتي. إنه كبير جداً لتعيش فيه بمفردها، لكنها ترفض بيعه. تأتي هي وأبناء عمومتي إلى هنا في الصيف، ثم يبقى المنزل مهجوراً باستثناء حارس يعتني به».

فاحت من بهو المدخل رائحة حلوة ومعنّقة، وكانت الإنارة خافتة كأنه مضاء بمصابيح الغاز. أما الجدران فقد بدت مغطاة ببيوت العنكبوت بسبب انعكاس ظلال أشجار النخيل المزروعة في الأحواض عليها، وفوق السقف المرتفع تماوجت ظلالنا المشوهة لدرجة جعلتني أشعر بالدوار. كان هناك صوت عزف بيانو خافت قادم من الجزء الخلفي من المنزل، واصطففت على طول الممر صور فوتوغرافية وصور زيتية قاتمة محاطة بإطارات

قال فرانسيس: «الرائحة هنا لا تُطاق، إذا كان الطقس دافئاً غداً، فسنتفتح النوافذ للتهوية. سيُصاب باني بالربو بسبب كل هذا الغبار». ثم أشار إلى صورة فوتوغرافية لاحظ أنها لفتت انتباهي، قائلاً: «هذه جدة جدتي، وهذا شقيقها بجانبها، المسكين غرق على متن التيتانيك. كل ما وجدوه له كان مضرب التمس الخاص به طافياً في شمال المحيط الأطلسي بعد ثلاثة أسابيع».

قالت كاميلا: «تعال، وألقِ نظرة إلى المكتبة».

سرنا أنا وكاميلا، وتبعنا فرانسيس في الممر، وعبرنا عدة غرف، غرفة جلوس صفراء ليمونية تعج بالمرايا والثريات الذهبية، وغرفة طعام معتمة مع طاولة من خشب الماهوجني. كانت غرفاً أردت أن أستكشفها أكثر، لكننا مررنا بها مرور الكرام. اقتربت موسيقى البيانو، وكانت معزوفة لشوبان، إحدى المقدمات ربما. وعندما دخلنا المكتبة توقفت لحظة مدهوشاً من روعتها. كانت هناك خزائن كتب ذات واجهات زجاجية وألواح قوطية تمتد إلى ارتفاع خمسة عشر قدماً حتى السقف المزين بالرسومات الجدارية والزخارف الجصية. وفي الجزء الخلفي من الغرفة كانت هناك مدفأة رخامية ضخمة وثرثرا كروية بمصابيح غازية تتدلى منها مواشير وسلاسل من الخرز البلوري تتألق في الضوء الخافت.

كان تشارلز يعزف على البيانو وبجانبه كأس من الويسكي. كان عزفه انسيابياً حيث اندمجت النغمات معاً بخفة. حرك النسيم الستائر المخملية الثقيلة التي أكلتها العثة، وداعب شعر تشارلز.

قلت معجباً: «عزف رائع».

توقف تشارلز عن العزف ورفع عينيه قائلاً: «حسناً، ها أنتم أولاء هنا. تأخرتم كثيراً، خلد بانى إلى النوم».

قال فرانسيس: «أين هنري؟»

«يعمل، قد يأتي إلى هنا قبل أن ينام».

توجهت كاميللا إلى البيانو، وأخذت رشفة من كأس تشارلز.

قالت لي: «يجب أن تلقي نظرة إلى هذه الكتب. توجد هنا نسخة من الطبعة الأولى لإيقانهو».

جلس فرانسيس في مقعد بذراعين، وأشعل سيجارته قائلاً: «في الواقع أعتقد أنهم باعوا ذلك الكتاب. هناك كتاب أو اثنان لافتان، لكن معظمها لماري كوريلي⁽¹⁾، وسلسلة روفر بوير القديمة⁽²⁾».

مشيت إلى رفوف المكتبة، لفت انتباهي كتاب عنوانه «لندن من تأليف بينانت⁽³⁾»، وهو كتاب ضخيم مكون من ستة أجزاء

(1) ماري ماكاي وتُعرف باسمها المستعار ماري كوريلي، وهي روائية إنجليزية. منذ ظهور روايتها الأولى «رومانسية عالمين» في 1886، أصبحت الكاتبة الروائية الأكثر مبيعاً في إنجلترا، وكانت أعمالها تتحدث كثيراً عن المسيحية والتقمص والإسقاط النجمي والتصوُّف. وعلى الرغم من محبتها المرموقين الكثيرين تعرضت كثيراً إلى سخرية النقاد.

(2) سلسلة روفر بوير للشباب الأمريكي، كانت سلسلة روايات شعبية كتبها آرثر إم وينفيلد، وهو اسم مستعار لإدوارد ستراتماير. نشر نحو ثلاثين كتاباً بين عامي 1899 - 1926، وأعيد طبع الكتب لسنوات بعد ذلك.

(3) كان توماس بينانت أثرياً وعالم طبيعية ويلزي، وقد حظيت أعماله بشعبية كبيرة في القرن الثامن عشر. بنيت سمعته على دراسته المهمة للتاريخ الطبيعي تحت عنوان «علم الحيوان البريطاني»، التي طبعت لأول مرة في عام 1766، وعلى رواياته عن جولتين في إسكتلندا قام بهما بين عامي 1769 و 1772.

مجمّعة معاً في مجلدات حمراء ضخمة مغلفة بأغلفة جلدية، يصل سمكها إلى قدمين. بجانبه كتاب «تاريخ نوادي لندن»، وهو مجموعة ضخمة بالقدر نفسه مجمّعة معاً في غلاف باهت من جلد العجل، وليبريتو⁽¹⁾ قراصنة بينزانس⁽²⁾، وأعداد لا تحصى من توائم بوبسي⁽³⁾، ومارينو فاليريرو⁽⁴⁾ للورد بايرون في غلاف من الجلد الأسود، مع تاريخ 1821 مختوم بالذهب على كعب الكتاب. قال تشارلز لكاميللا: «هيا، اذهبي وأعدّي مشروبك إذا كنت تريدين واحداً».

«لا أريد مشروباً خاصاً، أريد بعضاً من مشروبك فحسب».

أعطاه الكأس، وعزف على البيانو بيد واحدة على نحو مهزوز سلماً موسيقياً صعباً صعوداً وهبوطاً.

قلت: «اعزف شيئاً».

(1) الليبريتو Libretto بالإيطالية وهي تصغير لكلمة ليبر Libro وتعني كتاباً، والليبريتو هو النص الذي يُكتب للاستخدام في عمل موسيقي كالأوبرا والأوبريت والماسك وال أوراتوريو والكناتات والمسرحية الموسيقية.

(2) أوبرا كوميدية من فصلين، من تلحين آرثر سوليفان وكتابة ديليو إس جيلبرت. كان العرض الرسمي الأول للأوبرا في مسرح الجادة الخامسة في مدينة نيويورك في 31 ديسمبر 1879، حيث لقيت الأوبرا استحسان الجمهور والنقاد.

(3) هي الشخصيات الرئيسية لما كان لمدة 75 عاماً، أطول سلسلة روايات أطفال أمريكية من إصدارات دار نشر نقابة ستراتماير، مكتوبة تحت الاسم المستعار لورا لي هوب. نُشر أول كتاب من أصل 72 كتاباً في العام 1904، وآخرها في العام 1979، علاوة على سلسلة فرعية منفصلة من 30 كتاباً نُشرت من العام 1987 حتى العام 1992. وتتعلق الكتب بمغامرات أطفال عائلة بوبسي من الطبقة المتوسطة العليا التي تضمنت مجموعات من التوائم غير الشقيقة: بيرت ونان وكونا ييلغان من العمر اثني عشر عاماً، وفلوسي وفريدي وكونا في السادسة من العمر.

(4) مارينو فاليريرو دوق البندقية تراجيديا مسرحية من الشعر المرسل من خمسة فصول للورد بايرون، نُشرت واقتبست للمسرح العام 1821.

نظر إليّ شذراً.

قالت كاميلا: «هيا».

«لا».

وقال فرانسيس بنبرة تحمل تعاطفاً مبطناً: «بالطبع، لا يستطيع عزف أي شيء حقاً».

أخذ تشارلز رشفة من مشروبه ثم عزف أوكتاف⁽¹⁾ آخر، وهو يمرر يده اليمنى بعشوائية فوق المفاتيح. ثم سلم الكأس إلى كاميلا، واستخدم يده اليسرى للعزف. ثم انتقل تدريجياً من عزفه العشوائي إلى النغمات الافتتاحية لإحدى مقطوعات الراجتايم⁽²⁾ لسكوت جوبلين.

كان يعزف بكمين مشمّرين وهو يبتسم مستمتعاً بأدائه ويتنقل من الإيقاعات الموسيقية المنخفضة إلى المرتفعة بالتزامن مع إيقاع راقص نقري يصعد أحد سلالم زيجفيلد⁽³⁾.

(1) جواب القرار أو الأوكتاف: اسم يُطلق على ثامن درجة في السلم الموسيقي أو المقام.

(2) موسيقى الراجتايم هو نوع من الموسيقى يستخدم فيها اللحن الرخيم القوي مع الإيقاع المتسق المنتظم. كانت المقطوعات الموسيقية المعزوفة على البيانو تصاحبها دائماً نغمات إيقاعية منتظمة من الجانب الأيسر ولحن شديد الاتساق من الجانب الأيمن. وأصبح مصطلح الراجتايم يستخدم تدريجياً للأشكال الأولى من موسيقى الجاز.

(3) فلورينز إدوارد زيجفيلد جونيور رائد مسرح برودواي الأمريكي، وقد اشتهر بسلسلة عروضه المسرحية التي أشهرها مسرحيات حماقات زيجفيلد المستوحاة من فولتي بيرجير في باريس، و«سالي» (1920)، و«قارب الاستعراض» (1927)، و«ريو ريتا» (1927)، و«حلو مر» (1927). في مسرحية حماقات زيجفيلد ترقص فتيات الكورس الجميلات المعروفات باسم فتيات زيجفيلد رقصات استعراضية في أشياء الصعود والهبوط على سلالم طويلة عرفت بسلالم زيجفيلد.

ابتسمت كاميللا الجالسة بجانبه فبادلتها الابتسامة، أصابني بعض الدوار.

ارتد الصوت عن الأسقف المرتفعة وخلق صدى شبحياً؛ ما جعل هذا المرح اليائس يشبه الذكريات، ذكريات لأشياء لم أعرفها قط.

رقصات شارلستون⁽¹⁾ على الأجنحة المزدوجة لطائرات محلقة، وحفلات على متون سفن تفرق، والمياه المثلجة تفور حول خصور أفراد الأوركسترا فيما يواصلون حتى النهاية في جوقة شُجاعة غناء «نشيد الوداع»⁽²⁾. لكن في الواقع لم يكن «نشيد الوداع» ما غُني في الليلة التي غرقت فيها التيتانيك، بل كانت تراتيل وصلوات «تحيا مريم» التي رتلها الكاهن الكاثوليكي. بدا صالون الدرجة الأولى كأنه غرفة المكتبة هذه تماماً: خشب داكن، ونخيل في أصص، ومظلات مصابيح حربية وردية بشراباتها المتمايلة. كنت ثملاً حقاً، جالساً في مقعدي متشبثاً بمسندي الذراعين، حتى أن الأرضية كانت تتمايل تحت قدمي مثل سطح سفينة تفرق، شعرت كأننا جميعاً على وشك الانزلاق إلى الطرف الآخر من غرفة المكتبة مع صيحات هستيرية! ومعنا البيانو وكل شيء.

(1) رقصة زنجية الأصل تدين باسمها لمدينة شارلستون بولاية كارولينا الجنوبية في الولايات المتحدة الأميركية حيث كانت نشأتها الأولى. راجت رواجاً كبيراً خلال العشرينيات من القرن العشرين.

(2) أغنية إسكتلندية مشهورة خصوصاً في العالم الناطق باللغة الإنجليزية. تقليدياً تُغنى لتوديع العام القديم عند منتصف الليل في ليلة رأس السنة الجديدة، كما يمكن سماعها تُغنى أيضاً في الجنازات وحفلات التخرج وكأغنية وداعية في مناسبات أخرى.

ثم سمعت وقع خطوات على الدرج، دخل باني الغرفة مترنحاً، عيناه نصف مغلقتين، وشعره أشعث مرتدياً بجامته. قال بانزعاج: «ماذا يحدث بحق الجحيم؟ لقد أيقظتموني». لكن لم يهتم أحد لكلامه، أخيراً سكب لنفسه مشروباً وعاد إلى فراشه حاملاً كأسه حافياً بخطوات مترنحة على الدرج.

إن ترتيب الذكريات حسب تسلسلها الزمني لهو أمر مثير للاهتمام حقاً، فقبل عطلة نهاية الأسبوع الأولى في الريف، كانت ذكرياتي عن ذلك الخريف ضبابية وغامضة، ولكن منذ تلك اللحظة استحضرت ذاكرتي تفاصيل حية نابضة، ها هم أولاء الذين قابلتهم للمرة الأولى كدمى جامدة يبدوون بالتشاؤم والتمدد كأنهم يستيقظون من سباتهم، وتكشف شخصياتهم الحقيقية أمامي.

لقد استغرق الأمر شهوراً حتى زال بريق الغموض الذي أحاط بلقائنا الأول، والذي منعني من رؤيتهم بوضوح وموضوعية. على الرغم من أن حقيقتهم كانت أكثر إثارة للاهتمام من أي صورة مثالية رسمتها في مخيلتي، فإنهم في ذاكرتي لم يعودوا غرباء، بل بدؤوا يظهرون على حقيقتهم بكل ما يحملونه من صفاتهم القديمة المشرقة.

حتى أنا أيضاً أبدو غريباً في تلك الذكريات الأولى: حذراً ومتربداً وصامتاً على نحو غريب. طوال حياتي، عدّ الناس خجلي تعالياً أو غطرسة أو مزاجاً سيئاً من نوع ما. «توقف عن التظاهر بأنك أفضل من الجميع!»، هكذا كان أبي يصرخ في وجهي أحياناً عندما كنت أكل أو أشاهد التلفاز أو حتى عندما أكون منشغلاً

بأموري الخاصة. لكن هذه السمة في تعابير وجهي (هذا الانحناء البسيط في زوايا فمي) لم يكن له علاقة بمزاجي الحقيقي، بل كان في بعض الأحيان نعمة وفي أحيان أخرى نقمة.

بعد أشهر من معرفتي بهم، اكتشفت أنهم دهشوا مني في البداية مثلي تمامًا. لم يخطر ببالي قط أنهم قد يعتبرون سلوكي غريبًا ومرتبكًا، أو أنهم قد يرونني غامضًا. في النهاية سألوني لماذا لم أخبرهم أي شيء عن نفسي، ولماذا بنيت أسوارًا عالية لمنعهم من الاقتراب؟ أدركت بذهول أن خدعة التلصص عبر الأبواب التي انتهجتها لم تكن سرية كما اعتقدت. لماذا لم أبادلهم الدعوات والزيارات؟

على الرغم من أنني اعتقدت أنهم كانوا يستبعدونني، فإنني أدركت الآن أنهم كانوا ينتظرونني بأدب مثل العمات العانسات لأبادر بالخطوة التالية.

كانت عطلة نهاية الأسبوع هذه نقطة تحول، فقد بدأت المسافات المظلمة بين مصابيح الشوارع تتقلص كإشارة على اقتراب القطار من منطقة مألوفة، وأنه سوف يمر قريبًا عبر شوارع البلدة المضاءة والمعروفة. كان المنزل ورقتهم الرابعة وكنزهم الأثير، وفي نهاية هذا الأسبوع كشفوا لي عن أسراره وغرفته المخفية بمكر تدريجيًا؛ غرف البرج الصغير التي تسبب الدوار، والعلية المضاءة بكشافات ساطعة، والزلاجة القديمة في القبو التي كانت ضخمة بما يكفي لتجرها أربعة خيول ومزينة بالأجراس. كان الإسطبل هو منزل حارس المنزل وزوجته. «إن السيدة هاتش التي تعيش في الفناء امرأة لطيفة، لكن زوجها

من طائفة الأدفنتست السبتيين⁽¹⁾ صارم جداً، علينا أن نخفي زجاجات المشروبات كلها عندما يأتي إلى الداخل». «ماذا لو لم نفعّل؟»

«سيكتئب ويبدأ بترك منشورات دينية صغيرة في كل مكان». بعد الظهيرة، مشينا إلى البحيرة التي يتشاركها بسرية عدد من ملاك الأراضي المجاورين. وفي الطريق أشاروا إلى ملعب التنس والمنزل الصيفي القديم، وهو نسخة مقلدة من الثولوس⁽²⁾، وأعمدة دوركي⁽³⁾ على طراز بومبي⁽⁴⁾، وأسلوب ستانفورد وايت⁽⁵⁾، ودي دبليو جريفيث⁽⁶⁾ وسيسيل بي ديميل⁽⁷⁾. وفقاً لما ذكره

(1) الأدفنتست السبتيون: طائفة مسيحية بروتستانتية ألفت ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، تقدر الطائفة يوم السبت وتحفظه باعتباره يوم راحة للرب بدلاً من يوم الأحد، تؤمن بقرب المجيء الثاني للمسيح، إذ إن كلمة أدفنتست Adventist تعني «مجيئون».

(2) أحد أشكال البناء الذي كان يستخدم على نطاق واسع في العالم الكلاسيكي. وهو هيكل دائري بجدار دائري وسقف، وعادة ما يُبنى على درجتين، ويكون حلقة من الأعمدة تدعم سقفاً مخروطياً أو مقبباً فوقها.

(3) أحد أنظمة البناء في اليونان القديمة والعمارة الرومانية لاحقاً. ويُعرف عليه من خلال تاج العمود الدائري البسيط في الجزء العلوي من الأعمدة.

(4) مدينة رومانية كان يعيش فيها حوالي عشرون ألف نسمة، واليوم لم يبقَ منها إلا أثارها القديمة. تقع المدينة على سفح جبل بركان فيزوف الذي يرتفع 1,200 متراً عن سطح البحر، بالقرب من خليج نابولي في إيطاليا.

(5) ستانفورد وايت هو مهندس معماري ورسام أمريكي، ولد في 9 نوفمبر 1853 في نيويورك في الولايات المتحدة، وتوفي في 25 يونيو 1906 في مانهاتن في الولايات المتحدة.

(6) ديفيد وارك غريفيث مخرج سينمائي أمريكي. يعتبر رائداً من رواد السينما الحديثة. ويعد من أبرز المخرجين في تاريخ السينما. ساهم في تطوير مجالات الإخراج والتصوير السينمائي والمونتاج. بدأ في مجال السينما العام 1908، وقدم مجموعة كبيرة من الأفلام القصيرة التي تتراوح مدتها من 15 إلى 18 دقيقة.

(7) سيسيل بلونت ديميل مخرج أفلام أمريكي. بين عامي 1914 و1958 قدّم ما مجموعه 70 معلماً، في كلٍّ من الأفلام الصامتة والناطقة. يُعرف أباً مؤسساً للسينما الأمريكية وأكبر منتج ومخرج ناجح تجارياً في تاريخ السينما.

فرانسييس الذي كان يحتقر تلك المحاولات الفيكتورية لمحاكاة الطراز الكلاسيكي. وأضاف أن تلك الأعمدة مصنوعة من الجص، وجاءت على أجزاء من متجر سيرز آند روبروك.

كانت الأراضي تحمل في عدة مواضع علامات التناسق الفيكتوري الهندسي التي حافظت على أصالتها عبر الزمن، فهناك برك أسماك جافة وأعمدة بيضاء طويلة من العرائش الخالية من النباتات ورياض تحفها الصخور حيث لم تعد الزهور تنمو، ولكن معظم هذه الآثار طغى عليها نمو النباتات الكثيفة والأشجار المحلية من الدردار الزلق والأرزية التي فاقت عددًا أشجار السفرجل والقيقب اليابانية.

كانت البحيرة المحاطة بأشجار البتولا مشرقة وساكنة تمامًا. توارى وسط أعشاب الأسلية الطويلة زورق خشبي صغير مطلي باللون الأبيض من الخارج والأزرق في الداخل. قلت مفتونًا: «هل يمكننا الإبحار به؟»

«بالطبع، لكن لا نستطيع أن نبحر به جميعًا، وإلا سنغرق». لم يسبق أن ركبت قاربًا في حياتي، لذا أبحرت مع هنري وكاميللا، تولى هنري التجديف وقد شمر كميّيه حتى مرفقيه، بعد أن وضع سترته الداكنة على المقعد المجاور له. كانت لديه عادة -كما اكتشفت لاحقًا- الانغماس في أحاديث طويلة ووعظية حول كل ما يثير اهتمامه دون أن يأبه إن كنت تستمع إليه، سواء

كان الحديث عن كاتوفيلاوني⁽¹⁾، أم عن لوحة من أواخر العصر البيزنطي، أم عن صيد الرؤوس⁽²⁾ من جزر سليمان. في ذلك اليوم، أذكره يتحدث عن إليزابيث وليستر⁽³⁾ مستعيداً قصة الزوجة المقتولة والبارجة الملكية والملكة على صهوة حصان أبيض تخاطب القوات في حصن تيلبوري وليستر وإيرل إسيكس يمسكان باللجام. اندمج صوت المجدافين وضجيج اليعاسيب المنوم مع نبرة حديثه الأكاديمية. بينما كانت كاميلاً بوجهها المتورد وعينيها الناعستين تداعب الماء بيدها، تساقطت أوراق البتولا الصفراء من الأشجار لتستقر بلطف على سطح القارب. بعد سنوات عديدة وفي مكان بعيد جداً، صادفت مرة هذا المقطع من أرض اليباب: «إليزابيث وليستر يضربان بمجدافين... من سفينة بزغت مؤخرتها... محارة متألفة بالأحمر والذهبي، والأمواج المتراقصة في رشاقة... تداعب الضفتين. والريح الجنوبية الغربية على صفحة الماء... مع جلجلة الأجراس... داخل أبراج بيضاء... وليلا لا ليا... ولا لا ليالا لا⁽⁴⁾».

(1) قبيلة سلتية في جنوب شرق بريطانيا قبل الغزو الروماني. يمكن تتبع ثروات كاتوفيلاوني وملوكهم قبل الغزو من خلال العملات المعدنية القديمة والمراجع المنتشرة في التاريخ الكلاسيكي. ذكرهم كاسيوس ديو الذي يوحى بأنهم قادوا المقاومة ضد الغزو في 43 م.

(2) صيد الرؤوس: ممارسة قطع رأس إنسان والاحتفاظ بها بعد قتله، كان صيد الرؤوس يُمارس في العصور التاريخية في أجزاء من أوقيانوسيا وجنوب آسيا وجنوب شرق آسيا وغرب ووسط إفريقيا وأمريكا الوسطى وأوروبا.

(3) العاشق المفضل والمحتمل للملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا. وسيم وطموح جداً، فشل في الفوز بيد الملكة للزواج لكنه ظل صديقها المقرب حتى نهاية حياته.

(4) أرض اليباب، ت. س. إليوت، ترجمة نبيل راغب بتصرف، إصدار المركز القومي للترجمة.

ذهبنا إلى الطرف الآخر من البحيرة وعدنا، كنا شبه عميان بسبب الضوء المنعكس فوق الماء، لنجد باني وتشارلز على الشرفة الأمامية يأكلان الشطائر ويلعبان الورق. قال باني: «اشربوا بعض الشاي بسرعة، بدأ يفتر». كانا يلعبان اصطد سمكة⁽¹⁾: كانت لعبة الورق الوحيدة التي عرفها باني.

في صباح يوم أحد هادئ، استيقظت مبكراً في ذلك المنزل الغارق في السكون. أعطى فرانسيس ملابسي للسيدة هاتش لتغسلها فارتديت روب الحمام الذي أعارني إياه، ونزلت إلى الطابق السفلي لأجلس على الشرفة بضع دقائق قبل أن يستيقظ الآخرون.

كان الجو بارداً وساكناً في الخارج، السماء بيضاء ضبابية، ما يميز صباحات الخريف، الكراسي الخيزرانية منداة، تلالآت أسيجة النباتات ومساحات واسعة من العشب تحت طبقة من الندى الذي تجمع على شكل خرز فوق خيوط العنكبوت، فبدت كأنها مرصعة بالجواهر اللامعة التي تشبه الصقيع. رفرفت طيور المارتينيز استعداداً لرحلة جنوبية وحلقت فوق المزارب، ومن وسط الضباب الكثيف الذي يغطي البحيرة، اخترقت أذني صرخة بط بري وحيدة وقاسية.

قال صوت بارد خلفي: «صباح الخير».

(1) جو فيش أو اصطد سمكة هي لعبة ورق بسيطة وعادةً ما يلعبها لاعبان اثنان أو أكثر.

التفت مفزوعاً وإذ بي أرى هنري جالساً عند الطرف الآخر من الشرفة. كان بلا سترة لكنه كان نظيفاً ومهندماً حتى في هذه الساعة المبكرة من الصباح: سرواله مكوي بعناية، وقميصه الأبيض ناصع. على الطاولة أمامه كانت هناك كتب وأوراق، وغلاية إسبريسو يتصاعد منها البخار، وفنجان صغير، وسجارة غير مفلتره تحترق في منفضة سجائر.

قلت له: «أنت مستيقظ مبكراً».

«أستيقظ مبكراً دائماً، الصباح أفضل وقت للعمل».

ألقيت نظرة على الكتب: «هل تدرس اليونانية؟».

أعاد هنري الفنجان إلى صحنه: «أعمل على ترجمة الفردوس

المفقود».

«إلى أي لغة؟».

قال بجدية: «اللاتينية».

قلت: «همم، لماذا؟».

«أنا مهتم برؤية النتيجة النهائية. في رأيي، ميلتون هو أعظم شعرائنا الإنجليز ويفوق حتى شكسبير، لكنني أعتقد أنه من المؤسف أنه اختار الكتابة باللغة الإنجليزية، بالطبع كتب قدراً لا بأس به من الشعر باللغة اللاتينية، لكن ذلك كان في وقت مبكر من حياته في أيام دراسته، ما أتحدث عنه أعماله اللاحقة. في «الفردوس المفقود» يدفع ميلتون اللغة الإنجليزية إلى أقصى حدودها، لكنني أعتقد أن أي لغة دون حالات اسمية⁽¹⁾ لن تستطيع

(1) تصف حالات الاسم الشكل أو التصريف الذي يتخذه الاسم بناءً على دوره وموقعه في الجملة.

دعم النظام البنيوي الذي يحاول فرضه»، أعاد وضع سيجارته في منفضة السجائر.

نظرت إليها وهي تحترق: «هل تريد بعض القهوة؟»
«لا، شكرًا».

«أتمنى أن تكون قد نمت جيدًا».

قال هنري: «نعم، شكرًا»، ثم عدّل نظارته وانحنى مجددًا فوق المعجم: «أنام هنا أفضل مما أنام عادةً». كان التعب والإرهاق واضحين على كتفيه المتهدلتين، وهو ما لاحظته على الفور، لأنني قضيت ليلي طويلة بلا نوم.

فجأة، أدركت أن هذه المهمة الشاقة التي أخذها على عاتقه ربما لم تكن أكثر من وسيلة لتمضية ساعات الصباح الباكر، تمامًا مثلما يحل المصابون بالأرق الكلمات المتقاطعة.

سألته: «هل تستيقظ دائمًا في هذا الوقت المبكر؟»

فأجاب من دون أن يرفع رأسه: «في معظم الأحيان، المكان جميل هنا، لكن ضوء الصباح عمومًا يمكن أن يجعل حتى الأشياء العادية تبدو جميلة».

قلت: «أعرف ما تعنيه»، وكنت أعرف ذلك حقًا. فالوقت الوحيد من اليوم الذي استطعت أن أتحمّله في بيانو كان الصباح الباكر جدًا، عند الفجر تقريبًا، حين تكون الشوارع خالية، ويغمر الضوء الذهبي اللطيف العشب الجاف والأسيجة المتسلسلة، وأشجار صنوبر فيرجينيا الموحشة.

أبعد هنري عينيه عن كتبه، ونظر إليّ قائلاً: «أنت لست سعيدًا بالمكان الذي أتيت منه، أليس كذلك؟».

دهشت من هذا الاستنتاج الذي يشبه استنتاجات هولمز،
وارتسمت ابتسامة على وجهه بسبب انزعاجي الواضح.
واستأنف حديثه وهو يعود إلى كتابه: «لا تقلق، فأنت تخفي
ذلك بمهارة شديدة». ثم نظر إلى الأعلى مرة أخرى. «الآخرون لا
يفهمون حقًا هذه الأمور، كما تعلم».

جاءت كلماته من دون أي ضغينة أو تعاطف أو حتى اهتمام يذكر.
لم أكن متأكدًا مما يعنيه، ولكن للمرة الأولى أدركت شيئًا لم أفهمه
سابقًا؛ لماذا كان الآخرون جميعًا معجبين به إلى هذا الحد.

الأطفال البالغون (أدرك أن هذا تناقض لفظي) ينجذبون غريزيًا
إلى كل ما هو متطرف، والشاب الأكاديمي أكثر تحذلقًا من زميله
الأكبر سنًا. ولكوني شابًا أخذت تصريحات هنري على محمل
الجد. وأشك في أن ميلتون نفسه كان سيبهمني أكثر.

وأعتقد أن هناك فترة حاسمة في حياة كل فرد تتبلور فيها
شخصيته بشكل دائم، بالنسبة إليّ كانت فصل الخريف الأول
الذي قضيته في هامبدن. بقيت أشياء كثيرة عالقة في ذهني منذ
ذلك الوقت، وصمدت حتى الآن: تفضيلاتي في الملابس والكتب
وحتى الطعام -يجب أن أعترف أن ذلك إلى حد كبير نتيجة لما
يشبه محاكاة مُراهق لبقية طلاب فصل الإغريقية- لم تتغير حتى
الآن. ومن السهل أن أتذكر روتينهم اليومي، الذي أصبح فيما بعد
روتيني أنا. بغض النظر عن الظروف فقد عاشوا حياة شديدة
التظيم مع قليل من الفوضى التي بدت لي دائمًا جزءًا لا يتجزأ
من الحياة الجامعية، مثل عدم انتظام عادات الطعام والعمل،
والذهاب إلى المغسلة في الساعة الواحدة صباحًا.

كانت هناك أوقات معينة من النهار أو الليل، حتى عندما كان العالم يتداعى، يمكنك فيها دائماً العثور على هنري في غرفة الدراسة الليلية في المكتبة، أو عندما تعلم أن البحث عن باني لن يجدي نفعاً لأنه في موعده الغرامي يوم الأربعاء مع ماريون أو في تمشيته يوم الأحد. (بطريقة تشبه استمرار الإمبراطورية الرومانية الأولى في إدارة نفسها حتى عندما لم يبقَ أحد لإدارتها، وعندما اختفى السبب وراء هذا النظام تماماً. واستمر هذا الروتين حتى خلال الأيام الرهيبة التي أعقبت وفاة باني. حتى النهاية كان هناك عشاء ليلة الأحد في منزل تشارلز وكاميليا باستثناء مساء يوم القتل نفسه، عندما لم يكن أحد يشعر بالرغبة في تناول الطعام وتأجل العشاء إلى يوم الاثنين).

فوجئت بمدى سهولة تمكنهم من إدماجي في كيانهم البيزنطي الدوري، لقد اعتادوا على بعضهم لدرجة أنهم وجدوا فيّ شيئاً منعشاً، وكانوا مفتونين حتى بأكثر عاداتي بساطة؛ ولعي بروايات الغموض، وذهابي المتكرر إلى السينما، وحتى استخدامي لشفرات الحلاقة التي تستعمل مرة واحدة، وقص شعري بنفسني بدلاً من الذهاب إلى الحلاق، ودهشوا أيضاً من قراءتي الصحف ومشاهدتي الأخبار على شاشة التليفزيون من حين إلى آخر، (وهي عادة بدت لهم غريبة الأطوار بشكل شنيع، فقد كنت الوحيد الذي يهتم بما يحدث في العالم الخارجي. وكان جهلهم بالأحداث الجارية وحتى التاريخ الحديث مذهلاً إلى حد كبير). ذات مرة في أثناء تناول العشاء، دهش هنري عندما علم مني أن الإنسان قد مشى على سطح القمر. قال: «لا!»، وهو يضع شوكرته جانباً.

ردد البقية الذين تمكنوا بطريقة ما من التقاط محادثتنا:
«بلى، هذا صحيح».
«لا أصدق ذلك».

أكد باني: «رأيت ذلك، كان على شاشة التليفزيون».
«كيف وصلوا إلى هناك؟ ومتى حدث ذلك؟»

كان حضورهم كمجموعة لا يزال ساحراً، ولكنني تعرفت إليهم حقاً كأفراد، كان هنري الذي علم بسهري حتى ساعة متأخرة يمر عليّ أحياناً في وقت متأخر من الليل في طريقه إلى منزله من المكتبة. أما فرانسيس الذي كان يعاني بشدة من وسواس المرض ويرفض الذهاب إلى الطبيب بمفرده، فقد كان يأخذني معه في كثير من الأحيان، وخلال تلك الرحلات إلى طبيب الحساسية في مانشستر أو طبيب الأنف والأذن والحنجرة في كين أصبحنا صديقين. وفي ذلك الخريف كان عليه أن يخضع لعملية معالجة قناة جذر أحد أسنانه لمدة أربعة أو خمسة أسابيع، لذا كان يأتي إلى غرفتي بعد ظهر كل أربعاء بوجه شاحب وصامت، ثم نذهب معاً إلى إحدى حانات البلدة ونشرب حتى مواعده مع الطبيب في الثالثة عصراً. كان الغرض الظاهري من اصطحابي معه هو مساعدته على العودة إلى المنزل بعد خروجه من العيادة وهو في حالة ذهول وضعف بسبب غاز الضحك المستخدم للتخدير، ولكن لأنني كنت أنتظره في الحانة حين يذهب عبر الشارع إلى عيادة طبيب الأسنان، لم أكن عادة، بسبب الكحول، في حالة أفضل منه للقيادة.

راق التوأمان لي أكثر من الآخرين. عاملاني بسعادة وعفوية، وهو ما أعطى انطباع أنني أعرفهما منذ مدة طويلة.

كنت أكثر انجذاباً إلى كاميلاً من بينهم جميعاً، ولكن بقدر ما استمتعت بصحبته كنت أشعر بعدم الارتياح في حضورها، ليس بسبب افتقارها إلى السحر أو اللطف ولكن بسبب رغبتني الشديدة في إثارة إعجابها. وعلى الرغم من أنني كنت أتطلع إلى رؤيتها وأفكر فيها كثيراً، فإنني كنت أكثر ارتياحاً مع تشارلز. فقد كان يشبه أخته إلى حد كبير، وكان مندفعاً وكراماً، ولكن مزاجه أكثر تقلباً، وعلى الرغم من أنه كان يعاني أحياناً نوبات طويلة من الاكتئاب، فإنه كان ثرثاراً عندما يكون في حالة مزاجية جيدة. وفي كلتا الحالتين كنت أتوافق معه جيداً. استعرنا سيارة هنري مرة، وتوجهنا إلى ماين حتى يتمكن من تناول كلوب ساندوتش في حانته المفضلة هناك، وذهبنا أيضاً إلى بينينجتون ومانشستر وسوق الكلاب السلوقية في باونال، حيث انتهى به المطاف بإحضار كلبة عجوز إلى المنزل لا تستطيع حتى السباق لإنقاذها من القتل الرحيم. كان اسم الكلبة فروست. أحببت كاميلاً، وأصبحت تتبعها في كل مكان. اقتبس هنري مقاطع طويلة عن إيما بوفاري وكتبها السلوقية: «كانت أفكارها تتجول بلا هدف في البداية عشوائية مثل كلبتها السلوقية التي كانت تحوم في دوائر في الريف»⁽¹⁾.

(1) بالفرنسية في الأصل والاقتباس من بوفاري لجوستاف فلوبيير ت، ترجمة: محمد مندور بتصرف.

لكن الكلبة كانت واهنة وعصبية جدًا. وفي أحد صباحات ديسمبر المشرقة، بينما كانت تقفز من الشرفة في مطاردة سعيدة لسنجاب تعرضت لنوبة قلبية. لم يكن هذا الأمر غير متوقع، فقد حذر الرجل في سوق الكلاب تشارلز من أن الكلبة قد لا تعيش حتى نهاية الأسبوع، ومع ذلك شعر التوأمين بالحزن، وقضينا فترة ما بعد ظهر حزينة في دفنها في الحديقة الخلفية لمنزل فرانسيس، حيث كانت لدى إحدى خالاته مقبرة فخمة للقطط، كاملة بشواهد قبور.

أحبت الكلبة باني أيضًا، كانت ترافقني وباني في جولات طويلة ومرهقة على الأقدام عبر الريف كل يوم أحد عبر الأسيجة والجداول والمستنقعات والمراعي.

كان باني نفسه مفرمًا بالمشي مثل كلب عجوز - كانت تمشياته منهكة جدًا، وكان يجد صعوبة في العثور على أي شخص يرافقه سوى أنا والكلبة - ولكن بسبب هذه التمشيات أصبحت على دراية بالمنطقة المحيطة بهامبدن بما في ذلك ممرات نقل جذوع الأشجار ومسارات الصيادين، وكل الشلالات المخفية وثقوب السباحة⁽¹⁾ السرية.

قلما شاهدنا حبيبة باني ماريون في الأنحاء، أعتقد أن ذلك كان جزئيًا لأنه لم يرد وجودها حولنا، ولكن أيضًا على ما أعتقد لأنها كانت أقل اهتمامًا بنا من اهتمامنا بها. (كان باني يقول لي ولتشارلز متفاخرًا: «إنها تحب أن تكون مع صديقاتها، يتحدثن عن

(1) ثقب السباحة: موضع في مساحة مائية (نهر أو نبع إلخ)، يكون واسعًا وعميقًا بقدر يكفي للسباحة.

الملابس والأولاد وما شابه ذلك من ترهات، كما تعلمان»). كانت ماريون شقراء نحيلة من كونيتيكت، جميلة بمعايير الجمال نفسها التي تنطبق على أي وجه مستدير مثلما كان باني وسيماً، وكان اختيارها لملابسها بناتياً ورصيناً في الوقت نفسه بشكل صادم، اعتادت أن ترتدي التنانير المزهرة والكنزات الصوفية المنقوشة بحروف اسمها الأولى، مع حقائب وأحذية متناسقة معها.

كنت أراها من حين إلى آخر في ملعب مركز الطفولة المبكرة وأنا أسير إلى قاعة المحاضرات. كان المركز أحد فروع قسم التعليم الابتدائي في هامبدن، حيث كان أطفال البلدة يذهبون إلى الحضانة وروضة الأطفال هناك، تكون ماريون برفقتهم بكنزاتها الممهورة بحروف اسمها الأولى، تنفخ في صفارة وتحاول أن تسكتهم وترصهم في الطابور.

لم يتحدث أحد عن ذلك كثيراً، لكنني أدركت أن المحاولات السابقة الفاشلة لضم ماريون إلى أنشطة المجموعة انتهت بكارثة. استلظفت ماريون تشارلز الذي كان عموماً مهذباً مع الجميع، ولديه قدرة لا تكل على مواصلة المحادثات مع أي شخص بدءاً من الأطفال الصغار حتى السيدات العاملات في الكافيتيريا، وكانت تنظر إلى هنري كما ينظر إليه معظم من عرفوه باحترام مشوب بالخوف. لكنها كرهت كاميلاً، ووقعت حادثة كارثية بينها وبين فرانسيس، كانت مروعة لدرجة أن أحداً لم يتحدث عنها. وكانت علاقتها بياني متقلبة مثل تلك العلاقات التي نراها بين الأزواج الذين مضى على زواجهم عشرون عاماً أو أكثر، حيث تأرجحت بين كونها حنونة ومزعجة. ففي تعاملاتها

معه كانت متسلطة وعملية، وتعامله بالطريقة نفسها التي تعامل بها تلاميذها في روضة الأطفال، وكان يستجيب بالمثل متأرجحاً بين الحنو والعبوس. وفي معظم الأوقات كان يتحملها بصبر، ولكن عندما لا يفعل كانت تنشب معارك رهيبة بينهما.

في بعض الأحيان كان باني يطرق بابي في ساعة متأخرة من الليل، ويبدو منهكاً وجاحظ العينين وأشعث الشعر أكثر من المعتاد، ويتمتم: «دعني أدخل يا رجل، عليك مساعدتي، ماريون في مزاج عدائي». وبعد دقائق يعلو صوت منتظم لطرقات حادة على الباب؛ دق دق دق. تطرق ماريون، فمها الصغير مطبق بشدة، وتبدو مثل دمية صغيرة غاضبة.

تقول وهي تقف على أطراف أصابعها، وتميل لتتظر ورائي داخل الغرفة: «هل باني هنا؟»
«ليس هنا».

«هل أنت متأكد؟»

«إنه ليس هنا يا ماريون».

وعندها تنادي بنبرة مشؤومة: «باني!». ولا يأتي أي رد.
«باني!».

وبعد ذلك ما كان يسبب لي إحراجاً شديداً يظهر باني بخجل عند الباب: «مرحباً يا عزيزتي».
«أين كنت؟».

على إثر ذلك، يتنحنح باني ويتلثم.
«حسنًا، أعتقد أننا بحاجة إلى الحديث».
«أنا مشغول الآن يا عزيزتي».

«حسنًا»، تنتظر إلى ساعتها الصغيرة الأنيقة ماركة كارتيهه
وتقول: «أنا ذاهبة إلى المنزل الآن، سأبقى مستيقظة مدة ثلاثين
دقيقة تقريبًا، ثم سأنام».

«تمام».

«سوف أراك بعد نحو عشرين دقيقة إذن».

«مهلاً، انتظري ثانية واحدة. لم أقل قط أنني سأتي».

وترد هي: «أراك بعد قليل»، ثم تغادر.

يقول باني: «أنا لن أذهب. لا، لن أذهب. أقصد من تظن
نفسها».

«إذًا، لا تذهب».

«أعني، يجب أن ألقنها درسًا في مرحلة ما. أنا رجل مشغول،
أتحرك باستمرار. وقتي ملكي».

«بالضبط».

ثم سيخيم صمت متوتر بيننا، وأخيرًا ينهض باني قائلاً:

«أظن أنه من الأفضل أن أذهب».

«حسنًا، يا بان».

فيقول بنبرة دفاعية: «أعني أنني لن أذهب إلى منزل ماريون،
إذا كان هذا هو ما تعتقده».

«بالطبع لا».

وكان باني يقول بشروء: «نعم. نعم». ثم يندفع خارجًا كالعاصفة.
وفي اليوم التالي، أراه هو وماريون يتناولان الغداء معًا أو
يسيران بمحاذاة الملعب. ويسأله أحدهما متى رأياه وحده في

المرة التالية: «إذن، فقد سويت أنت وماريون الخلاف بينكما، أليس كذلك؟»

فيجيب باني محرّجاً: «أوه، نعم».

كانت عطلات نهاية الأسبوع في منزل فرانسيس هي أسعد الأوقات، تغيّرت ألوان الأشجار في وقت مبكر من ذلك الخريف، لكن الطقس ظل دافئاً حتى شهر أكتوبر، فقضينا معظم وقتنا في الريف في الهواء الطلق.

بصرف النظر عن مباراة التنس الفاترة التي لعبناها (ضربة هوائية تخرج من الملعب، ونبشنا العشب الطويل بأطراف مضاربنا بحثاً عن الكرة المفقودة) لم نمارس أي نشاط رياضي يذكر، كان هناك شيء ما في هذا المكان يبعث على الكسل والراحة اللذان لم أشعر بهما منذ طفولتي.

الآن حين أفكر في الأمر، أدرك أننا كنا نشرب طوال الوقت. لم نكن نشرب كثيراً دفعة واحدة، لكننا كنا نشرب طوال اليوم تقريباً بدءاً من وجبة الفطور حتى ساعة النوم، ربما كان هذا، أكثر من أي شيء آخر، سبب شعورنا بالخمول والهدوء. وعندما كنت أحاول القراءة كنت أغفو على مقعدي، وعندما كنت أخرج بالقارب كنت أتعب من التجديف وأشرد طويلاً غارقاً في أفكاري. (ذلك القارب! ما زلت حتى اليوم عندما أجد صعوبة في النوم، أحاول أن أتخيل أنني مستلقٍ في ذلك القارب، رأسي يستند إلى الألواح المتقاطعة عند مؤخرته، والماء يرتطم بخشب القارب بصوت هادئ، وأوراق البتولا الصفراء تتساقط مداعبة وجهي).

في بعض الأحيان، كنا نجرب شيئاً أكثر طموحاً. ذات مرة عثر فرانسيس على مسدس بيريتا وذخيرة في أحد الأدراج، مررنا بحالة هوس قصيرة تدريباً خلالها على التصويب (كان علينا أن نحبس الكلبة السلوقية في القبو لأنها كانت تقفز بهياج بسبب سنوات من سماع صوت إطلاق النار قبل السباق)، وإطلاق النار على جرار الماسون التي كانت مصفوفة على طاولة شاي من الخيزران سحبناها إلى الفناء. لكن هذا الهوس انتهى بسرعة عندما أطلق هنري -الذي كان يعاني قصرَ النظر- النارَ خطأً على بطة. تأثر بشدة، وأخفينا المسدس بعدها.

كان الآخرون يحبون لعبة الكروكيه، لكن باني وأنا لم نكن نفهمها، لم نتقنها قط، وكنا دائماً ما نضرب الكرة بعيداً كما لو كنا نلعب الجولف. من حين إلى آخر كنا نستيقظ من خمولنا ونتحمس بما يكفي للتنزه. كنا دائماً ما نخطط له بشكل مبالغ فيه -قائمة طعام فاخرة، ووجهة بعيدة وغامضة- ولكن في النهاية كنا نشعر بالحر والنعاس والسكر قليلاً، ونتردد في بدء رحلة العودة الطويلة إلى المنزل حاملين حاجيات التنزه، كنا نستلقي على العشب طوال فترة ما بعد الظهر، نشرب المارتيني من الترمس، ونراقب النمل وهو يزحف في خط أسود لامع فوق طبق الكعكة الفوضوي، إلى أن ينفد المارتيني أخيراً، وتغرب الشمس، ونضطر إلى المشي بتثاقل في الظلام عائدين إلى المنزل لتناول العشاء. كان قبول جوليان الدعوة لتناول العشاء معنا في الريف مناسبة عظيمة دائماً. كان فرانسيس يطلب الطعام من متجر البقالة، ويتصفح كتب الطبخ، ويشعر بالقلق لعدة أيام بشأن ما يجب

طهيه والنييدُ الذي يجب تقديمه والأطباق التي يجب استخدامها وما يجب تجهيزه كطبق احتياطي في حالة فشل السوفليه. كنا نرسل ملابسنا الرسمية إلى متجر التنظيف، ونشتري الزهور من بائع الزهور، ويضع باني جانباً نسخته من عروس فو مانشو⁽¹⁾ ويحمل بدلاً منها أحد مجلدات هوميروس.

لا أعرف سبب إصرارنا على بذل كل هذا الجهد والاهتمام بأدق تفاصيل تلك العشاءات، فبحلول وقت وصول جوليان كنا دائماً متوترين ومرهقين. لقد فرضت تلك العشاءات ضغطاً رهيباً على الجميع حتى على جوليان نفسه، على الرغم من أنه كان يخفي ذلك ببراعة، فكان يتصرف دائماً بمرح وخفة ظل وسعادة كبيرة، على الرغم من أنه لم يكن يقبل سوى دعوة واحدة من بين كل ثلاث دعوات تقريباً.

أما أنا فكنت أقل مهارة في إخفاء توتري خصوصاً مع ارتدائي ملابس رسمية غير مريحة، ومعرفتي المحدودة بأداب المائدة. كان الآخرون أكثر قدرة على التكيف مع هذا الوضع. فقبل دقائق معدودة من وصول جوليان كانوا يسترخون في غرفة المعيشة -الستائر مسدلة، والبخار يتصاعد من أطباق العشاء في المطبخ، والجميع يشدون ياقاتهم وأعينهم شاحبة من فرط التعب- ولكن ما إن يرن جرس الباب حتى تستقيم ظهورهم، وتدب الحياة في محادثاتهم، وتختفي علامات التعب عن وجوههم.

(1) إحدى أعداد سلسلة روايات الكاتب الإنجليزي ساكس رومر التي تدور حول الشخصية الرئيسية الإجرامية الدكتور فو مانشو.

وعلى الرغم من إرهاقي من تلك العشاءات في ذلك الوقت فإنني الآن أتذكرها بشيء من الحنين. أتذكر تلك الغرفة الكهفية المعتمدة بسقفها المقبب والنار تططق في المدفأة، ووجوهنا متوهجة وشاحبة كالأشباح. كانت ظلالنا تتضخم وتتراقص على الجدران، وألسنة اللهب تتعكس على نوافذ الغرفة كأن المدينة تحترق في الخارج. كان أزيز النيران يشبه زقزقة العصافير المحاصرة في دوامة بالقرب من السقف. وفي أي لحظة كنت أتوقع أن تختفي مائدة الطعام الطويلة المصنوعة من خشب الماهوغوني، المغطاة بالكتان والمزينة بالخزف الصيني والشموع والفواكه والزهور، تمامًا مثلما يختفي تابوت سحري في قصة خرافية.

هناك مشهد متكرر من تلك العشاءات كأنه حلم يطفو في مخيلتي مرارًا؛ جوليان على رأس المائدة الطويلة، يقف رافعًا كأس نبيذه، ويقول: «عيشوا إلى الأبد».

ننهض جميعًا بدورنا، ونقرع كؤوسنا عبر المائدة، مثل كتيبة جيش تتقاطع سيوفها؛ هنري وباني، تشارلز وفرانسيس، كاميللا وأنا.

نردد معًا ونحن نرفع كؤوسنا في تناغم: «عيشوا إلى الأبد».

دائمًا النخب نفسه؛ عيشوا إلى الأبد.

أتعجب الآن كيف أنني كيف كنت قريبًا منهم كثيرًا ومع ذلك لم أعرف سوى القليل عما كان يحدث في نهاية ذلك الفصل الدراسي، لم تكن هناك أي دلائل على حدوث أي شيء غير عادي، كانوا بارعين جدًا في إخفاء أي أثر أو علامة، ولكن حتى

التناقضات الطفيفة التي ظهرت وسط دفاعاتهم كنت أواجهها بنوع من العمى المتعمد. خلاصة القول أنني أردت المحافظة على وهم أن تعاملهم معي كان واضحاً وصادقاً، أننا كنا جميعاً أصدقاء ولا أسرار بيننا، على الرغم من أن الحقيقة الجلية كانت عكس ذلك تماماً، لقد كانوا يخفون عني كثيراً من الأمور وبعضها لم أعرفه إلا بعد مرور وقت طويل. وعلى الرغم من أنني حاولت تجاهل ذلك، فإنني كنت على علم بها. عرفت على سبيل المثال أنهم أحياناً كانوا يفعلون أشياء -لم أكن أعرف بالضبط ما هي- دون أن يدعوني، وإذا واجهت أحدهم فإنهم سيدعمون بعضهم وسيكذبون بكل سلاسة وإقناع. كانوا مقنعين جداً ومتاغمين بشكل يخلو من أي زلة في اختلافاتهم وفي تطابق أكاذيبهم، (استهتار التوأمين غير المحدود يتجلى بوضوح في مقابل حماقة باني، أو انزعاج هنري المشوب بالضجر من إعادة سرد سلسلة تافهة من الأحداث) لدرجة أنني دائماً ما أجد نفسي أصدقهم حتى في وجه الأدلة التي تثبت النقيض.

بالطبع أستطيع الآن أن أرى آثاراً لما حدث ولكنها صغيرة جداً وهو ما يُحسب لهم، فعند النظر إلى الماضي أذكر أنهم كانوا يخفون أحياناً على نحو غامض، ثم يعودون بعد ساعات ليرووا قصصاً مبهمّة عن أماكن وجودهم، كان لديهم نكات خاصة التي لا يفهمها سواهم، بالإضافة إلى أحاديثهم الجانبية باليونانية أو اللاتينية التي كنت أعلم جيداً أنها مقصودة حتى لا أفهمها.

لم يعجبني هذا بالطبع، لكن لم يكن هناك ما يدعو للقلق أو ما يخرج عن المألوف، على الرغم من أن بعض تلك التعليقات

العرضية والنكات اكتسبت أهمية مخيفة لاحقاً. فعلى سبيل المثال في نهاية هذا الفصل الدراسي كان لدى باني عادة غريبة وجنونية في غناء مقاطع من أغنية «الفلاح في الوهدة»⁽¹⁾ فجأة دون سابق إنذار، وجدت الأمر مزعجاً قليلاً، ولم أتمكن من فهم الهياج العنيف الذي كان يصيبهم عند سماعها؛ لم أعلم حينها -كما أعلم الآن- أنها كانت تصيب عظامهم بالقشعريرة.

بالطبع لاحظت بعض الأشياء التي أعتقد أنه كان من المستحيل أن ألاحظها وأنا أقضي كل ذلك الوقت معهم، معظمها أمور غامضة وتناقضات طفيفة لدرجة أنها قد توضح لك مدى ضالة الأسباب التي جعلتني أتخيل أن هناك شيئاً ما خاطئ. على سبيل المثال، بدا أنهم جميعاً يتعرضون للحوادث بشكل غريب، فكانوا دائماً ما يتعرضون لخدوش القشط، أو يجرحون أنفسهم في أثناء حلاقة ذقونهم، أو يتعثرون بمساند القدمين في الظلام ويسقطون، كانت تفسيرات معقولة بالتأكيد ولكن بالنسبة إلى أشخاص قليلي الحركة مثلهم كان لديهم عدد غريب من الكدمات والجروح. كان هناك أيضاً اهتمامهم الغريب بالطقس. كان هذا غريباً بالنسبة إليّ لأنهم لم يكونوا يفعلون أي نشاط قد يتأثر بحالة الطقس، ومع ذلك كانوا مهووسين به خاصة هنري. لقد كان قلقاً بشأن الانخفاض السريع في درجات الحرارة، فكان يتنقل بين محطات الراديو في السيارة بشكل محموم مثل قبطان

(1) أغنية شعبية وترنيمه أطفال من المحتمل أنها ألمانية الأصل ثم انتقلت إلى أمريكا عن طريق المهاجرين.

سفينة قبيل العاصفة، يبحث عن تنبؤات الطقس وقراءات الضغط الجوي وأي شيء يتعلق بهذا الخصوص.

كانت الأخبار التي تفيد بانخفاض الزئبق في الترمومتر تدفعه إلى حالة من الكآبة المفاجئة التي يصعب تفسيرها. تساءلت عمّ سيحدث عندما يحل فصل الشتاء! ولكن مع أول تساقط للثلوج تلاشى هذا الانشغال بالطقس.

كانت هناك أمور صغيرة لفتت انتباهي. أتذكر مرة أنني استيقظت مبكرًا في السادسة صباحًا بينما كان الجميع لا يزالون نائمين، ونزلت إلى الطابق السفلي لأجد أرضية المطبخ مفسولة حديثًا ولا تزال مبللة، كانت نظيفة تمامًا باستثناء آثار أقدام حافية غامضة بين سخان المياه والشرفة. وفي بعض الليالي كنت أستيقظ بين الحلم واليقظة لأسمع بشكل غامض أصواتًا خافتة وحركة، والكلبة السلوقية تنّ بضغف وتخدش باب غرفة نومي... وسمعت ذات مرة همسًا بين التوأمين حول ملاءات السرير.

كانت كاميليا تهمس: «سخيف! لقد أخذنا الملاءات الخطأ، لا يمكننا إعادتها بهذا الشكل»، ولمحت قطعة قماش خشنة ملطخة بالطين.

«سوف نستبدل الملاءات الأخرى».

«لكنهم سيعرفون، ملاءات الكتان ممهورة بختم، سيتعين علينا أن نقول إننا أضعناها».

على الرغم من أن هذا الحديث لم يبقَ عالقًا في ذهني مدة طويلة، فإنني شعرت بالحيرة، وزادت حيرتي بسبب نبرة التوأمين الساخطة عندما سألتهما عن الأمر. ومن الأشياء الغريبة الأخرى

التي صادفتها أنني وجدت بعد ظهر أحد الأيام رجلاً نحاسياً كبيراً يغلي على الشعلة الخلفية للموقد، وينبعث منه بخار برائحة غريبة. وعندما رفعت الغطاء، لفح وجهي بخار لاذع وممر. كان المرجل مليئاً بأوراق لوزية الشكل تغلي في نصف جالون من الماء الداكن، وتساءلت بحيرة وإعجاب: «ما هذا؟!» وعندما سألت فرانسيس، أجاب باقتضاب: «من أجل استحمامي».

من السهل أن نرى الأمور بجلاء عندما نسترجع الماضي، ولكن في ذلك الوقت كنت جاهلاً بكل شيء باستثناء سعادتي. ولا أعرف ماذا أقول سوى أن الحياة نفسها بدت سحرية في تلك الأيام؛ شبكة من الرموز والمصادفات والهواجس والبشائر، كان كل شيء بطريقة ما منسجماً كأن عناية إلهية حكيمة وخيرة تكشف نفسها تدريجياً. كنت أشعر أنني على وشك اكتشاف رائع، كما لو أن كل شيء سيتضح في صباح ما - مستقبلي، وماضي، وحياتي كلها - كأنني سأجلس في السرير ذات يوم مذهولاً وقد هبطت عليّ تلك الفكرة العظيمة وأردد: «آه! آه! آه!»

أمضينا أياماً سعيدة كثيرة في الريف في ذلك الخريف، لدرجة أن تلك الفترة تبدو الآن ضبابية وحلوة وغامضة. فمع حلول الهالوين ذبلت آخر الزهور البرية، وأصبحت الرياح حادة وعاصفة، وتطايرت الأوراق الصفراء فوق سطح البحيرة الرمادية. وفي الأمسيات الباردة عندما كانت السماء رمادية مثل الرصاص والغيوم تتدافع بسرعة كنا نجتمع في المكتبة ونشعل ناراً ضخمة لتدفئتنا. كانت أشجار الصفصاف العارية تنقر على زجاج النوافذ كأنها أصابع عظمية، بينما كان التوأمان يلعبان الورق عند أحد طرفي الطاولة، وهنري يعمل عند الطرف الآخر، كان فرانسيس

يجلس متكورًا حول نفسه بالقرب من النافذة، وفي حجره طبق مليء بشطائر صغيرة، يقرأ باللغة الفرنسية مذكرات دوق سان سيمون⁽¹⁾ الذي كان مصممًا على إنهاؤها لسبب ما .

كان فرانسيس قد ارتاد عدة مدارس في أوروبا، ويتحدث الفرنسية بطلاقة، على الرغم من أنه كان ينطقها باللهجة الكسولة والمتغطرة التي ينطق بها الإنجليزية، في بعض الأحيان كنت أطلب منه مساعدتي في دروسي في مادة الفرنسية السنة الأولى. كان المنهج قصصًا قصيرة مضجرة عن ذهاب ماري وجان كلود إلى متجر التبغ، قرأها فرانسيس بصوت عالٍ وبلهجة متشدقة فاترة ومضحكة. (أحضرت ماري الخضار لأخيها.)⁽²⁾ وكان هذا كافيًا لإثارة موجة من الضحك الهستيري. كان باني يستلقي على بطنه فوق السجادة أمام المدفأة ويحل واجباته، في بعض الأحيان كان يسرق إحدى سندوتشات فرانسيس أو يطرح سؤالاً عويصًا، وعلى الرغم من أن اللغة اليونانية القديمة سببت له كثيرًا من المتاعب فإنه في الواقع درسها لمدة أطول بكثير من أي واحد منا، منذ أن كان في الثانية عشرة من عمره، وهو الأمر الذي كان يتفاخر به دائمًا. وكان يشير بمكر إلى أن هذا كان مجرد نزوة طفولية منه، وهو مظهر من مظاهر العبقرية المبكرة على غرار ألكسندر بوب⁽³⁾؛ لكن حقيقة الأمر -كما عرفت من

(1) كاتب مذكرات ومستشار ودبلوماسي وكاتب من مواليد باريس 1675.

(2) بالفرنسية في الأصل.

(3) ألكسندر بوب -1688 1744: شاعر إنجليزي شهير من القرن الثامن عشر، واشتهر بمقاطع شعرية ساخرة وبترجمته لأعمال هوميروس.

هنري- هي أنه كان يعاني عسر القراءة الشديد إلى حد ما، وأن اللغة اليونانية القديمة كانت جزءاً من علاج إلزامي، فقد افترضت مدرسته الإعدادية أنه من المفيد إجبار الطلاب الذين يعانون من عسر القراءة على دراسة لغات لا تستخدم الأبجدية الرومانية مثل اليونانية والعبرية والروسية. على أي حال، كانت موهبته اللغوية أقل بكثير مما يدعي، ولم يكن قادراً على أداء أبسط المهام من دون أسئلة مستمرة وشكاوى وجرعات موسمية من الطعام، وقرب نهاية الفصل الدراسي أصيب بأزمة ربو، رأيته يتجول في أرجاء السكن الجامعي وهو يتنفس بأزيز مرتدياً ثياب النوم وروب الحمام وشعره منتصب، يلهث على نحو مسرحي في جهاز الاستنشاق. جعلته الحبوب التي تناولها (دون علمه، كما عرفت) عصبياً، وأبقته مستيقظاً طوال الليل، وتسببت في زيادة وزنه.

قبلت هذا التفسير كمبرر لتعكر مزاج باني في نهاية الفصل الدراسي، لكنني أدركت لاحقاً أن السبب كان مختلفاً تماماً. بماذا يجب أن أخبركم؟ عن يوم السبت ذاك من شهر ديسمبر عندما أخذ باني يركض في أرجاء المنزل في الخامسة صباحاً ويقفز فوق أسرتنا ويصرخ «أول تساقط للثلج!»^١ أو عن المرة التي حاولت فيها كاميلاً أن تعلمني خطوة الصندوق^(١)، أو عندما قلب باني القارب -وداخله هنري وفرانسييس- لأنه ظن أنه رأى

(١) خطوة الصندوق: خطوة رقص أساسية سُميت على اسم النمط الذي تنشئه على الأرض وهو مربع أو صندوق. تستخدم في عدد من الرقصات على الطراز الأمريكي مثل الرومبا والفالس.

ثعبان الماء؟ أو عن حفلة عيد ميلاد هنري؟ أو عن المناسبتين اللتين ظهرت فيهما والدة فرانسيس بشعر أحمر وحذاءين من جلد التمساح ومجوهرات من الزمرد وهي في طريقها إلى نيويورك، تجر وراءها كلب يوركشاير ترير وزوجها الثاني؟ (كانت أمه شخصية متقلبة المزاج، وكان كريس زوجها الجديد ممثلًا يلعب دورًا صغيرًا في مسلسل تليفزيوني، وهو بالكاد أكبر سنًا من فرانسيس).

كان اسمها أوليفيا، عندما التقيتها أول مرة كانت قد خرجت مؤخرًا من مركز بيتي فورد بعد شفائها من إدمان الكحول والمخدرات. وكانت تتطلق بمرح في طريق الخطيئة من جديد. ذات يوم أخبرني تشارلز أنها طرقت باب منزله في منتصف الليل، وسألته إن كان يود الانضمام إليها في الفراش، ومع ذلك ما زالت حتى اليوم ترسل لي بطاقات معايدة في الكريسماس. ومع ذلك، لا يزال يوم بعينه عالقًا في ذاكرتي، وهو يوم سبت مشرق من شهر أكتوبر أحد أيام الصيف الأخيرة في ذلك العام. في الليلة السابقة التي كانت باردة إلى حد ما سهرنا نشرب ونتحدث حتى الفجر تقريبًا، واستيقظت متأخرًا أشعر بالحر ويعتريني غثيان طفيف لأجد بطانيتي ملقاة عند قدم السرير وأشعة الشمس تتسلل عبر النافذة. بقيت مستلقيًا مدة طويلة، أشعر بوخز الشمس عبر جفوني، وساقاي الرطبتان تلسعهما حرارة الشمس. كان المنزل هادئًا وبدا كأنه يلمع.

نزلت إلى الطابق السفلي، وقدماي تصدران صوتًا عند كل خطوة على الدرج.

كان المنزل هامداً وخاوياً، أخيراً وجدت فرانسيس وباني يجلسان في الجانب المظلل من الشرفة، كان باني يرتدي قميصاً مع سروال برمودا قصير، بينما كان فرانسيس متورد الوجه ببقع وردية شاحبة، وجفناه مطبقان، ويكاد يرتجف من الألم، ويرتدي روباً مهلهلاً من قماش تيري مسروقاً من أحد الفنادق.

كانا يشريان مشروب محار البراري⁽¹⁾، دفع فرانسيس كأسه نحوي دون أن ينظر إليه، وقال: «هيا، اشرب هذا، سأمرض إذا نظرت إليه ثانية أخرى». كان صفار البيض يرتعش بلطف في حمامه الدموي من الكاتشب وصلصة ورسترشاير. قلت: «لا أريده»، ودفعته نحوه ثانية.

صالب ساقيه وضغط على جسر أنفه بين إبهامه وسبابته، وقال: «لا أعرف لماذا أصنع مثل هذه الأشياء، لا تتجح أبداً، سأذهب لإحضار بعض الأسبرين». أغلق تشارلز الباب الزجاجي خلفه، وتجول بلا مبالاة في الشرفة مرتدياً رداء حمامه المخطط بالأحمر، وقال: «ما تحتاج إليه هو صودا الآيس كريم⁽²⁾».

«اللعنة عليك وعلى صودا الآيس كريم».

«سينجح ذلك وأكد لك، إنه رأي علمي، الأشياء الباردة تساعد في علاج الغثيان».

(1) محار البراري: مشروب تقليدي يتكون من بيضة نيئة وصلصة ورسترشاير، وقد يضاف إليه الخل أو صلصة حارة أو ملح المائدة وفلفل أسود مطحون. ويضاف أحياناً إليه عصير الطماطم. ورغم اسمه فهو لا يحتوي على محار.

(2) صودا الآيس كريم أو المَعْمُوم: مشروب يحتوي على الآيس كريم إما في مشروب غازي أو مع خليط من شراب منكه وماء مكربن.

«أنت تقول ذلك دائماً يا تشارلز، لكنني لا أعتقد أن هذا صحيح».

«هلا استمعت إليّ للحظة واحدة؟ الآيس كريم يبطل عملية الهضم، والكولا تهدئ معدتك والكافيين يعالج الصداع، والسكر يمنحك الطاقة، وإلى جانب ذلك فإنه يجعلك تستقلب الكحول على نحو أسرع، إنه الشراب المثالي».

قال باني: «اذهب وجهز لي كأساً من صودا الآيس كريم. هلاً فعلت؟».

قال تشارلز وقد انزعج فجأة: «اذهب وأعدّه بنفسك».

قال فرانسيس: «أعتقد أنني بحاجة إلى الأسبرين حقاً».

هبط هنري الذي كان قد استيقظ وارتدى ملابسه مع ضوء الفجر الأول بعد ذلك بمدة وجيزة، وتبعته كاميلا الناعسة التي استحمّت للتو فبدت مشرقة ومتوردة، وشعرها الذهبي الأشبه ببتلات الأقحوان معقوصاً بشكل فوضوي ساحر. كانت الساعة تقارب الثانية ظهراً، والكلبة السلوقية مستلقية على جانبها، تغفو وعيناها الكستائيتان نصف مفتوحتين، وتبدو في حالة شرود.

نقد الأسبرين، فدخل فرانسيس حاملاً زجاجة من جعة الزنجبيل وبعض الكؤوس والثلج، وقضينا بعض الوقت معاً فيما أصبحت فترة ما بعد الظهر أكثر سخونة. كانت كاميلا -التي لا تستطيع الجلوس بهدوء أبداً- متململة وعصبية، وعلى الرغم من وجود كتاب معها فإنها لم تكن تقرأه، بل كانت ساقاها تتدليان عن ذراع كرسيها الخيزران، تركل إحداها جانب الكرسي بإيقاع ثابت. ولإسعادها اقترح فرانسيس أن نتمشى إلى البحيرة فوافقت

على الفور. لم يكن هناك أي شيء آخر يمكن فعله لذلك قررت أنا وهنري الانضمام إليهما، في حين كان تشارلز وباني نائمين يشخران في كرسييهما.

كانت السماء ناصعة الزرقة، والأشجار تكتسي اللونين الأحمر والأصفر. كان فرانسيس حافي القدمين ولا يزال يرتدي روب الحمام، يخطو خطوات مترنحة فوق الصخور والأغصان، ويوازن كأسه من مشروب جعة الزنجبيل. عندما وصلنا إلى البحيرة خاض فيها حتى ركبتيه، وانحنى بشكل دراماتيكي ذكّرني بالقديس يوحنا المعمدان. خلعنا أحذيتنا وجواربنا، كانت المياه القريبة من الضفة صافية وخضراء شاحبة وباردة، والحصى في الأسفل تتلألأ تحت أشعة الشمس. سار هنري مرتدياً معطفاً وربطة عنق إلى المكان الذي وقف فيه فرانسيس وسرواله مشمر حتى الركبة كأنه مصرفي من الطراز القديم في لوحة سريالية. هبت الريح عبر أشجار البتولا وداعبت أوراقها الشاحبة من الأسفل، ولاعبت فستان كاميللا ونفخته مثل بالون أبيض. ضحكتم ثم سوّته بسرعة، قبل أن تنفخه الريح مرة أخرى. مشينا نحن الاثنان بالقرب من الشاطئ في المياه الضحلة التي بالكاد تغطي أقدامنا. كانت الشمس تتلألأ على سطح البحيرة في أمواج ساطعة، ولم تكن تبدو في هذه اللحظة بحيرة حقيقية، بل سراباً في الصحراء الكبرى. كان هنري وفرانسيس في عمق البحيرة، فرانسيس يتحدث بحماس ويومئ برأسه بقوة في روبه الأبيض، وهنري يستمع بصبر قد شبك يديه خلف ظهره، وبدأ كشيطان يستمع إلى نبي في الصحراء.

مشينا أنا وكاميليا مسافة طويلة على ضفاف البحيرة، ثم عدنا أدراجنا. كانت كاميليا تظلل عينيها من وهج الشمس، وتحكي لي قصة طريفة عن كلبة مضغت سجادة خالة فرانسيس المصنوعة من جلد الغنم، ومحاولاتهم لإخفاء الدليل، لكنني كنت شارد الذهن، مأخوذاً بجمالها الساحر، فهي تشبه أخاها إلى حد كبير، لكن لمسة الأنوثة فيها كانت تضيف إلى تلك الملامح العنيدة سحرًا رائعًا.

كانت كاميليا حلمًا حيًا بالنسبة إليّ، مجرد رؤيتها تثير في نفسي خيالات لا نهاية لها، من الأساطير اليونانية إلى الطراز القوطي، ومن الأفكار العادية إلى الأفكار الإلهية. كنت مأخوذاً بجمالها، أصغي إلى صوتها العذب النقي، عندما قطع تأملاتي صياح حاد شرودي.

توقفنا، أشارت إلى الماء قائلة: «ما هذا؟ انظروا!»، كان هناك عمود داكن من الدم يتفجر من قدمها، ويلتف في الماء بشكل لولبي حول أصابع قدميها الشاحبة كخيوط من الدخان القرمزي. «بحق الرب ماذا فعلت؟».

«لا أعرف، دعست على شيء حاد»، وضعت يدها على كتفي وأمسكتُ بها من خصرها. كانت هناك شظية من زجاج أخضر طولها نحو ثلاث بوصات مغروسة في قدمها فوق الكعب مباشرة، كان الدم يتدفق مع كل نبضة من نبضات قلبها، كان الزجاج الملتخ بالأحمر يتلألأ في الشمس على نحو يندر بالشر، قالت وهي تحاول الانحناء لترى: «ما هذا؟ هل هو سيئ؟» كانت الشظية قد مزقت شرياناً، وراح الدم يتدفق بغزارة وسرعة.

صرختُ منادياً فرانسيس وهنري.

قال فرانسيس وهو يقترب ليرى: «يا إلهي»، وبدأ يرش رذاذ المياه نحونا ممسكاً بحاشية روبه خارج المياه بيد واحدة. «ماذا فعلتِ بنفسك؟ هل يمكنك المشي؟ دعيني أرى».

شدت كاميلاً قبضتها على ذراعي. كان الجزء السفلي من قدمها مغطى بالدماء. كانت قطرات الدماء الضخمة تتساقط من حافة الشظية، وتنتشر وتتبعثر مثل قطرات حبر في الماء الصافي. قال فرانسيس وهو يغمض عينيه: «يا إلهي. هل تؤلمكِ؟» قالت بحيوية: «لا»، لكنني كنت أعلم أنها تتألم، شعرت بها ترتعش ووجهها صار شاحباً. وسرعان ما ظهر هنري أيضاً، أمسكها وقال: «ضعي ذراعك حول عنقي». رفعها ببراعة وخفة كأنها ريشة، إحدى ذراعيه تحت رأسها والأخرى تحت ركبتيها. «فرانسيس، اركض وأحضر حقيبة الإسعافات الأولية من سيارتك، سنلتقي بك في منتصف الطريق».

قال فرانسيس ممثلاً لأن أحدهم أخبره بما عليه فعله: «حسناً»، وبدأ يركض نحو الضفة.

«هنري، ضعني أرضاً. أنزف على كل جزء منك، تلطخت ثيابك بالدماء».

لكن هنري تجاهل طلبها. قال: «هاك يا ريتشارد، خذ هذا الجورب واربطه حول كاحلها».

كانت هذه هي المرة الأولى التي أفكر فيها في رباط لإيقاف النزيف، يا للطبيب الفاشل الذي كنت لأكونه.

سألتها: «أهو محكم جداً؟»

«هذا جيد. هنري، أتمنى أن تنزلني أرضاً. أنا ثقيلة جداً عليك».

ابتسم لها. كان ثمة كسر بسيط في إحدى أسنانه الأمامية لم لاحظها من قبل؛ أعطى ابتسامته سمة جذابة جداً، قال: «أنت خفيفة كريشة».

في بعض الأحيان، عندما يقع حادث ويكون الواقع مباغتاً وغريباً جداً لدرجة يصعب فهمه تتولى السريالية زمام الأمور. تتباطأ الحركة، وتصبح انسيابية كالحلم، إطاراً تلو الآخر، حركة يد، وجملة منطوقة، تملأ الأبدية. تتضخم الأشياء الصغيرة -صرصور فوق ساق، تفاصيل ورقة الشجرة- وتحضر إلى الواجهة في تركيز مؤلم، هذا ما حدث حينها عندما كنت أمشي عبر الممرج إلى المنزل.

كان المشهد أشبه بلوحة حية مفعمة بالحياة، تفيض بجمال يصعب تصديقه. كل حصة وكل ورقة عشب كانت مرسومة بدقة متناهية، والسماء زرقاء بصفاء يخطف الأنفاس حتى إن النظر إليها يسبب ألماً. كانت كاميلاً مستكنة بين ذراعي هنري، ورأسها متدل إلى الخلف مثل فتاة ميتة، وانحناءة عنقها جميلة وساكنة. أطراف فستانها ترفرف بشكل عشوائي مع النسيم، وبنطال هنري ملطخ ببقع حمراء كقطع نقدية قانية بحيث لا يمكن أن تكون دمًا، كما لو أن أحدهم رسم بفرشاة فوقها. في ذلك السكون المهيّب بين خطواتنا التي لا صدى لها كان صوت نبضي هو الوحيد الذي يصدح رقيقاً وسريعاً في أذني. انزلق تشارلز أسفل التل، حافي القدمين، ولا يزال يرتدي روب الحمام، وتبعه فرانسيس.

ركع هنري ووضعها فوق العشب، رفعت كاميلا جذعها متكئة على مرفقيها.

قال تشارلز لاهثاً: «كاميلا، هل أنت بخير؟» وجثم على الأرض ليفحص الجرح.

قال فرانسيس وهو يفرد الضمادة: «يجب أن نخرج الشظية من قدمها».

قال تشارلز وهو ينظر إليها: «هل تريدني أن أحاول؟»
«احترس».

أمسك تشارلز كعب قدمها بيده، وسحب شظية الزجاج بين إبهامه وسبابته قليلاً برفق. التقطت كاميلا أنفاسها في شهقة سريعة، تراجع تشارلز كأنما احترق، أراد أن يتابع إخراج الشظية مرة أخرى، لكنه لم يستطع، كانت أطراف أصابعه ملطخة بالدماء. قالت كاميلا بصوت ثابت: «حسنًا، استمر».

«لا أستطيع أن أفعل ذلك، أخشى أن أسبب لك الألم».
«يؤلمني الجرح على أي حال».

قال تشارلز بائساً وهو ينظر إليها: «لا أستطيع».

قال هنري بنفاد صبر: «تتحّ جانباً»، وركع سريعاً وأخذ قدمها في يده.

ابتعد تشارلز، كان شاحباً مثلها تقريباً، وتساءلت إن كانت تلك القصة القديمة صحيحة أن أحد التوأمين يشعر بالألم عندما يُصاب الآخر. جفلت كاميلا واتسعت عيناها عندما رفع هنري قطعة الزجاج المقوسة بيد واحدة ملطخة بالدماء قائلاً: «انتهيت»⁽¹⁾.

(1) باللاتينية في الأصل.

بدأ فرانسيس بتطهير الجرح مستخدمًا اليود والضمادات.
التقطت الشظية الملطخة بالدماء ورفعتها نحو الضوء، وقلت
مذهولاً: «يا إلهي!».

قال فرانسيس وهو يلف الضمادات حول كعبها: «لقد كنت
شجاعة حقًا، يا فتاة»، كان لديه أسلوب مريح بشكل غريب
في رعاية المرضى مثل معظم المصابين بالوساوس المرضية.
«انظري إلى حالك، أنت لم تبكي حتى».
«لم أتألم كثيرًا».

قال فرانسيس: «صدقًا؟ كنت شجاعة حقًا».
وقف هنري، وقال: «كانت شجاعة بالفعل».

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، كنت أنا وتشارلز
نجلس في الشرفة، فجأة تغير الجو وأصبح باردًا، كانت الشمس
مشرقة ولكن هناك رياحًا خفيفة، وكان السيد هاتش قد أضرم
النار في الموقد، فامتأل المكان برائحة خفيفة من دخان الحطب.
وفي الداخل كان فرانسيس يُحضر العشاء ويغني بصوته الجهوري
العالي الناشز الذي كان يصدح من نافذة المطبخ.

لم يكن جرح كاميللا خطيرًا، اصطحبها فرانسيس إلى قسم
الطوارئ -ورافقهما باني أيضًا لأنه كان منزعجًا من نومه في أثناء
تلك الأحداث المثيرة- وفي غضون ساعة عادت بست غرز في
قدمها وضمادة وزجاجة من التايلينول الممزوج بالكودائين. في
هذه الأثناء كان باني وهنري في الخارج يلعبان الكروكيه وكانت
كاميللا معهما، تقفز على قدمها السليمة وإصبع قدمها الأخرى،

وتبدو من الشرفة جذلة بشكل غريب. كنت أنا وتشارلز نشرب الويسكي والصودا، كان يحاول أن يعلمني لعب البيكيه (لأنها لعبة الورق التي كان يلعبها راودون كراولي في «سوق الأضاليل»⁽¹⁾) لكنني كنت بطيء التعلم، فتوقفنا عن اللعب وتركنا الورق ملقى بيننا، أخذ تشارلز رشفة من شرابه، لم يكلف نفسه عناء ارتداء ملابسه طوال اليوم وبقي بروب الحمام. قال: «أتمنى ألا نضطر إلى الرجوع إلى هامبدن غداً».

قلت: «أتمنى ألا نضطر إلى الرجوع أبداً، أتمنى لو عشنا هنا».

«حسناً، ربما نستطيع».

«ماذا؟»

«لا أقصد الآن، ولكن ربما نستطيع ذلك بعد الجامعة».

«كيف ذلك؟»

هز كتفيه: «حسناً، خالة فرانسيس لن تبيع المنزل لأنها تريد الاحتفاظ به ضمن العائلة، يمكن لفرانسيس أن يشتريه منها بثمان زهيد عندما يبلغ الحادية والعشرين من عمره. وحتى لو لم يستطع فإن هنري يمتلك أموالاً أكثر مما يعرف ماذا يفعل بها، يمكنهما الاشتراك معاً وشراء المنزل، الأمر سهل وبسيط»، هذه الإجابة العملية. «أعني أن كل ما يريد هنري أن يفعله بعد التخرج

(1) سوق الأضاليل: Vanity Fair رواية للكاتب الإنكليزي وليام ميكبيس تاكيري، نشرت أول مرة بين عامي 1847-1848، وهي تسخر من المجتمع البريطاني في بداية القرن التاسع عشر. تروي قصة امرأتين هما بيكي شارب وأميليا سيدلي وسط أصدقائهما وعائلتهما. والرواية تعتبر من كلاسيكيات الأدب الإنكليزي واقتبست إلى عدة أفلام.

-إذا تخرج بالفعل- هو العثور على مكان هادئ يمكنه فيه كتابة كتبه ودراسة الثقافات الاشتي عشرة العظيمة⁽¹⁾».

«ماذا تقصد، إذا تخرج؟»

«أعني أنه قد لا يرغب في ذلك، فقد يستبد به الضجر، لقد تحدثت عن المفارقة من قبل، ما من سبب لوجوده هنا، ومن المؤكد أنه لن يحصل على وظيفة أبداً».

قلت بفضول: «هل تعتقد ذلك؟»

كنت أتخيل دائماً أن هنري سيدرُس اليونانية القديمة في إحدى الكليات المنعزلة ولكن الممتازة في الغرب الأوسط. شجر تشارلز: «بالتأكيد لا. لماذا يجب عليه؟ هو لا يحتاج إلى المال، وسيكون معلماً سيئاً. لم يعمل فرانسيس قط في حياته. أعتقد أنه يستطيع العيش مع أمه، إلا أنه لا يستطيع تحمل زوجها. سيرغب في الحصول على مكان أفضل هنا، في هذه الحالة لن يكون جوليان بعيداً أيضاً».

أخذت رشفة من مشروبي ونظرت إلى الشخصوس البعيدة على العشب. كان بانى، الذي سقط شعره فوق عينيه، يستعد لضرب كرة الجولف، وهو يثني المضرب ويتمايل بقدميه ذهاباً وإياباً مثل لاعب غولف محترف.

سألت: «هل لدى جوليان عائلة؟»

قال تشارلز وفمه مليء بالثلج: «لديه بعض أبناء العمومة لكنه يكرههم». وأكمل وهو ينهض عن كرسیه فجأة: «انظر إلى هذا».

(1) الحضارات القديمة المتمثلة في إينوك، بابل، ليموريا، مو، أتلانتس، إسرائيل، مملكة شعوب البحر، يس، مملكة الكاهن يوحنا، أغارثا، والأنوناكي.

نظرت عبر العشب، أطلق باني تسديدته أخيراً، ذهب الكرة بعيداً عن القوسين السادس والسابع، لكنها اصطدمت بشكل لا يصدق بالوتد المنحني.

قلت: «انظر، أراهن أنه سيجرب تسديدة أخرى».

قال تشارلز وهو يجلس مجدداً وعيناه لا تزالان ناحية المرج: «لكنه لن ينجح، انظر إلى هنري، يضع قدمه على الأرض». كان هنري يشير إلى الأقواس التي أغفلها باني، وحتى من تلك المسافة كان بإمكانني أن أقول إنه يقتبس من كتاب القواعد، وبخفوت سمعنا صيحات الاحتجاج المدهوشة التي أطلقها باني. قال تشارلز في هذه اللحظة: «أوشك خُماري أن يختفي».

قلت: «وأنا أيضاً».

كان الضوء فوق مرج العشب ذهبياً يلقي بظلال مخملية ممتدة، والسماء المشرقة ملبدة بالغيوم كأنها صورة طبق الأصل من إحدى لوحات كونستابل⁽¹⁾، على الرغم من أنني لم أرغب في الاعتراف بذلك، كنت في حالة سكر خفيف. صمتنا لبعض الوقت، نشاهد. كنت أسمع من النافذة صوت الضربة الخافتة لمطرقة المضرب بكرة الكروكيه قادمة من المرج، مختلطة بصوت قعقعة الأواني وإغلاق الخزائن في المطبخ، وغناء فرانسيس المتحمس كما لو كان يغني أسعد أغنية في العالم: «نحن خراف سوداء صغيرة ضالة... با... با... با...».

(1) جون كونستابل، عضو الأكاديمية الملكية للفنون هو رسّام - ناظر طبيعية إنجليزي من أتباع الحركة الطبيعية. وُلد في سوفولك، واشتهر في الدرجة الأولى بسبب رسوماته للمناظر الطبيعية في وادي ديدهام، المنطقة المحيطة بمنزله - تعرف الآن بـ «بلد كونستابل» - التي وظفها بعاطفة شديدة.

قلت أخيراً: «لو اشترى فرانسيس المنزل؟ هل تعتقد أنه سيسمح لنا بالعيش هنا؟»

«بالتأكيد، سيشعر بالملل إذا بقي هنا مع هنري فقط. أعتقد أن باني قد يضطر إلى العمل في البنك مع والده، لكن يمكنه دائماً القدوم في عطلات نهاية الأسبوع، إذا ترك ماريون والأطفال في المنزل».

ضحكت عندما تذكرت حديث باني في الليلة السابقة عن رغبته في إنجاب ثمانية أطفال، أربعة صبيان وأربع بنات، الأمر الذي دفع هنري لإلقاء محاضرة جدية حول كيف أن الإنجاب المفرط هو نذير بالتدهور السريع والموت.

قال تشارلز: «هذا فظيع! يمكنني أن أتخيله وهو يقف في فناء أحد المنازل يرتدي مئزراً غيباً».

«ويطهو الهامبرغر على الشواية».

«ونحو عشرون طفلاً يركضون حوله ويصرخون».

«نزهاات تخييم».

«وكراسي ليزيبوي»⁽¹⁾.

«يا إلهي».

هبّت ريح مفاجئة عبر أشجار البتولا، وتطايرت حفنة من الأوراق الصفراء نحونا، أخذت رشفة من مشروبي، لو كنت قد نشأت في ذلك المنزل لما كنت سأحبه أكثر مما أحبه الآن،

(1) كرسي أمريكي الصنع يسمح لك برفع مسند ساقيك عن طريق سحب رافعة أو الضغط على زر. عندما تكون هذه الكراسي في وضع طبيعي، يمكن أن تهتز وتدور وتتكئ للخلف.

ولم يكن من الممكن أن أكون أكثر دراية بخشخشة الأرجوحة في فناءه، أو كروم الياسمين التي تتسلق التعريشات، أو انحناء أرضه المخملية فيما تستحيل إلى اللون الرمادي في الأفق، حيث يظهر شريط الطريق السريع بشكل خافت بين التلال خلف الأشجار. تغلغلت ألوان المكان في دمي؛ تمامًا مثلما قدمت هامبدن نفسها دائمًا في السنوات اللاحقة في مخيلتي كدوامة مشوشة من الأبيض والأخضر والأحمر، كذلك ظهر المنزل الريفي كلوحة ضبابية مجيدة من الألوان المائية؛ العاجي والأزرق اللازوردي والكستائي والبرتقالي والذهبي المحروقين، ثم تتفصل تدريجيًا لتتخذ حدود الأشياء التي أتذكرها؛ المنزل والسماء وأشجار القيقب.

لكن حتى في ذلك اليوم، هناك فوق الشرفة، وتشارلز بجانبني ورائحة دخان الحطب عالقة في الهواء، كان الأمر بمثابة ذكرى، كان المشهد ماثلاً أمام عيني، ومع ذلك فقد كان جميلًا جدًا لدرجة لا يمكن تصديقها.

خيم الظلام تدريجيًا، قريبًا سوف يحين وقت العشاء، أنهيت ما تبقى من مشروبي بجرعة واحدة. خطرت في ذهني فكرة العيش هنا، وتمنيت ألا اضطر أبدًا إلى العودة مرة أخرى إلى الأسفلت ومراكز التسوق والأثاث النمطي، تخيلت أن نبقي معًا أنا وتشارلز وكاميليا وهنري وفرانسيس وربما حتى باني، ولا أحد منا يتزوج أو يعود إلى دياره أو يحصل على وظيفة في بلدة تبعد آلاف الأميال أو يفعل أيًا من الخيانات التي يفعلها الأصدقاء بعد التخرج في الجامعة، يبقى كل شيء كما هو تمامًا، في تلك

اللحظة كانت الفكرة مثالية حقًا لدرجة أنني لست متأكدًا إن كنت قد صدقتها حقًا حتى في ذلك الوقت، لكنني أردت أن أصدق أنني فكرت فيها.

كان فرانسيس يقترب من النهاية الدرامية لأغنيته: «السادة المطربون منتشون... محكوم عليهم بالفشل من اللحظة وحتى الأبدية».

رمقني تشارلز بنظرة جانبية: «وماذا عنك؟»

«ماذا تقصد؟»

ضحك: «أقصد، هل لديك أي خطط؟ ماذا ستفعل خلال الأربعين أو الخمسين سنة القادمة من حياتك؟».

في الخارج فوق مرج العشب، كان باني قد ضرب للتو كرة هنري خارج الملعب مسافة سبعين قدمًا تقريبًا. علت أصوات ضحك خشنة، خافتة لكن واضحة، وحلقت مرتدة إلينا خلال هواء الأمسية.

ما زالت تلك الضحكة تطاردني.

الفصل الثالث

منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدميَّ هامبدن، بدأت أهاب نهاية الفصل الدراسي، إذ يعني ذلك عودتي إلى بيانو والأرض الأسفلتية المسطحة ومحطات الوقود والغبار. مع مرور الفصل الدراسي وازدياد تساقط الثلوج صارت الصباحات أكثر سوادًا، كان كل يوم يقربني إلى التاريخ الموجود على الورقة المطبوعة بالآلة الناسخة الملصقة داخل باب خزانتي (17 ديسمبر - موعد تسليم جميع البحوث النهائية)، تحولت كأبتي إلى جرس إنذار، فلم أعد أطيق فكرة قضاء الكريسماس في منزل والدي مع شجرة بلاستيكية وغياب الثلج وصوت التليفزيون المزعج الذي لا ينقطع، لم يكن والداي متحمسين كثيرًا لوجودي هناك أيضًا، خصوصًا بعد أن أصبح لديهما أصدقاء جدد، زوجان ثرثاران لم يرزقا بأطفال يحملان لقب ماك نات.

بينما كان السيد ماك نات يعمل في بيع قطع غيار السيارات، كانت زوجته ذات الجسم الممتلئ تبيع مستحضرات تجميل إيفون. لقد دفعا والديَّ إلى فعل أشياء غريبة عنهما، مثل الذهاب في رحلات بالحافلة إلى منافذ بيع المصانع، ولعب لعبة النرد المسماة «بنكو»، والسهر في بار البيانو في نزل رامادا. تزيد هذه الأنشطة بشكل ملحوظ خلال العطلات، وكان حضوري قصير الأمد وغير المنتظم عائقًا في منظورهما، وشيئًا يدفعهما إلى لومي أحيانًا.

لم تكن العطلات هي المشكلة الوحيدة، فموقع هامبدن النائي في الشمال، وتكلفة تدفئة المباني القديمة المرتفعة، أدت إلى

إغلاق أبواب الكلية خلال شهري يناير وفبراير.

يمكنني سماع والدي يشكوني ثملاً إلى السيد ماك نات، فيستفزه السيد ماك نات بملاحظات مأكرة عن كوني مدلاً، وكيف أنه لن يسمح لأي من أبنائه بمعاملته بتلك الوقاحة. كان ذلك يثير غضب والدي، فيقتحم غرفتي ويأمرني بمغادرة المنزل وسبابته ترتعش، بينما ينطلق الشرر من عينيه مثل عطيل. لقد فعل هذا عدة مرات عندما كنت في المدرسة الثانوية وفي الكلية في كاليفورنيا من دون أي سبب سوى إظهار سلطته أمام أُمي وزملائه في العمل. لطالما رَحَّب بعودتي عندما يمل من الاهتمام الذي ناله بطردي، ويسمح لأُمي بإقناعه بالسماح لي بالعودة، ولكن هذه المرة، لم أعد أمتلك حتى غرفة نومي في كاليفورنيا، فقد باعت أُمي الأثاث وحولت الغرفة إلى مشغل خياطة.

في بداية شهر ديسمبر فوجئت بإعلان باني وهنري عن خططهما للسفر إلى إيطاليا لقضاء عطلة الشتاء في روما، كان هذا الإعلان مفاجئاً بعض الشيء خصوصاً أن المزاج العام بينهما كان متوتراً خلال الشهر الماضي. علمت أن باني كان يلح على هنري بشدة ليمنحه المال في الأسابيع الأخيرة، وعلى الرغم من تدمير هنري فإنه بدا غير قادر على رفض طلبات باني على نحو غريب، كنت على يقين أن تدمير هنري لا يتعلق بالمال في حد ذاته، بل بالمبدأ والطريقة الفظة التي يطلبه بها باني منه، كنت متأكداً أيضاً أنه مهما كان التوتر بينهما فإن باني كان غافلاً عنه. لم يكن باني يتحدث عن شيء سوى الرحلة إلى روما، اشترى ملابس وكتيبات إرشادية وشريط تسجيل بعنوان «نحن نتحدث

الإيطالية»⁽¹⁾ الذي وعد بتعليم المستمع اللغة الإيطالية في أقل من أسبوعين (يتباهى غلاف التسجيل: «حتى لأولئك الذين لم يحالفهم الحظ في دورات اللغة الأخرى!»)، كما اقتنى نسخة من ترجمة دوروثي سايرز لجحيم دانتي. كان باني يعلم أنني لا أملك خططا لعطلة الشتاء، واستمتع بفرك الملح على جراحي كما يقول المثل، قال وهو يغمز لي: «سأفكر فيك وأنا أحتسي الكامباري راكباً الجندول».

في المقابل لم يكن لدى هنري الكثير ليقوله عن الرحلة، فبينما كان باني يثرثر بحماس اكتفى هنري بالجلوس وإطلاق نفثات عميقة وحازمة من سيجارته متظاهراً بعدم فهمه اللغة الإيطالية الركيكة التي يحاول باني استعراضها.

لحسن الحظ تلقيت دعوة من فرانسيس لقضاء الكريسماس معه في بوسطن ثم مرافقته إلى نيويورك، كما عرض التوأمان استضافتي طيلة عطلة الشتاء في فرجينيا عند جدتهما التي أبدت لهما ترحيبها بقدومي، ولكنني كنت بحاجة إلى المال، كان عليّ أن أجد وظيفة خلال الأشهر المقبلة إذا أردت العودة إلى الكلية في الربيع، ولن أتمكن من التركيز في العمل إذا كنت أتسكع مع فرانسيس، كان التوأمان يعملان بدوام جزئي خلال العطلات مع خالهما المحامي، ولكن كان لديهما كثير من وقت الفراغ بسبب تقسيم المهام بينهما، فقد كان تشارلز يقلّ العم أورمان بالسيارة إلى أماكن بيع العقارات وإلى متجر الطرود،

(1) بالإيطالية في الأصل.

فيما تجلس كاميللا في المكتب في انتظار الرد على هاتف لم يرن قط.

أنا متأكد أنه لم يخطر ببالهما قط أنني قد أرغب في الحصول على وظيفة أيضاً، فقد صدّقاً قصصي عن الثراء في كاليفورنيا أكثر مما كنت أتوقع.

سألتهما: «ماذا سأفعل عندما تكونان في العمل؟»، على أمل أن يفهما مقصد كلامي لكنهما بالطبع لم يفعلا. اعتذر تشارلز: «أخشى أنه ليس هناك الكثير لتفعله، يمكنك القراءة أو التحدث مع جدتنا أو اللعب مع الكلاب».

بدا أن خيارى الوحيد هو البقاء في بلدة هامبدن، كان الدكتور رولاند مستعداً للسماح لي بمواصلة العمل معه، ولكن الراتب لم يكن كافياً لدفع إيجار معقول. كان تشارلز وفرانسيس يخططان لتأجير شقتهم خلال العطلة، وكان أحد أعمام فرانسيس سيقم في شقته، أما شقة هنري فكما علمت ستظل شاغرة، ولكنه لم يعرض عليّ البقاء فيها، ومنعتي كبريائي من طلب ذلك منه. كان المنزل الريفي خالياً أيضاً، ولكنه كان يبعد ساعة عن هامبدن، ولم أكن أملك سيارة.

ثم تعرفت إلى أحد الهبيين المسنين، وهو طالب سابق في كلية هامبدن يدير ورشة لإصلاح الآلات الموسيقية في مستودع مهجور، أخبرني أنه سيسمح لي بالعيش في المستودع مجاناً إذا ساعدته أحياناً في نحت الأوتاد أو صنفرة آلات المندولين.

أخفيت الظروف الحقيقية لمكان إقامتي، ربما كان السبب جزئياً هو عدم رغبتى في أن يراني أحد في موقف ضعف أو أن أشعر بازدراء الآخرين وشفقتهم.

ولعدم رغبة والديّ عديمي النفع في استقبالي خلال العطلات فقد قررت البقاء وحدي في هامبدن (في مكان غير معلوم بالتحديد)، والعمل على تحسين إتقاني اليونانية القديمة، رافضاً بسبب كبريائي عروضهما غير الجدية لتقديم المساعدة المالية إلي.

لقد أكسبتي هذه الرواقية وهذا التفاني الشبيه بتفاني هنري في دراساتي واحتقاري للماديات إعجابَ جميع الأطراف، خاصة هنري.

قال لي ذات ليلة مظلمة من أواخر شهر نوفمبر ونحن نسير عائدين من منزل تشارلز وكاميللا، وأحذيتنا تغوص حتى الكاحلين في أوراق الشجر الرطبة التي تغطي الطريق: «لا أمانع البقاء هنا هذا الشتاء، الكلية مغلقة والمتاجر في البلدة تغلق أبوابها مبكراً قرابة الساعة الثالثة بعد الظهر. كل شيء أبيض وفارغ، ولا يكسر هدوءه سوى صوت الرياح. في الأيام الخوالي كان الثلج يصل إلى مستوى أفاريز الأسطح، وكان الناس يحاصرون في منازلهم ويتضورون جوعاً حتى يموتون، ولا يعثر عليهم أحد حتى الربيع». كان صوته حالماً وهادئاً، لكن كلماته غمرتني بعدم اليقين، ففي الشتاءات التي عشتها حتى تلك اللحظة، لم أرَ الثلج قط.

كان الأسبوع الأخير من الدراسة مليئاً بالحركة، فالجميع مشغولون بحزم أمتعتهم والرقن على الآلة الكاتبة وحجز الطيران والمكالمات الهاتفية مع الأهل، باستثنائي أنا. لم أكن بحاجة إلى إنهاء أبحاثي مبكراً فلم يكن لديّ مكان أذهب إليه، ويمكنني حزم أمتعتي على مهل بعد أن تصبح المهاجع فارغة.

كان باني أول من غادر، لقد أمضى الأسابيع الثلاثة الماضية مذعورًا بسبب بحثٍ كان عليه كتابته لمقرره الأدبي المسمى «روائع الأدب الإنجليزي». كان البحث المطلوب عن جون دون⁽¹⁾، طُلب منه كتابة خمس وعشرين صفحة. تساءلنا جميعًا كيف سيفعل ذلك فهو ليس كاتبًا بارعًا. وعلى الرغم من أن عسر القراءة الذي يعانيه كان المتهم المعتاد فإن المشكلة الحقيقية لم تكن فيه، بل في مدى انتباهه القصير مثل انتباه الأطفال، فهو نادرًا ما كان يُكمل قراءة النصوص المطلوبة أو الكتب التكميلية لأي مقرر. وبدلاً من ذلك، كانت معرفته بأي موضوع خليطاً من الحقائق المشوشة التي تكون خارج السياق بشكل لافت للنظر، والتي يصادف أنه يتذكرها من المناقشات التي دارت خلال المحاضرات أو يعتقد أنه قرأها في مكان ما. وعندما يحين وقت كتابة ورقة بحثية، كان يكمل هذه الأجزاء المشكوك فيها بسؤال هنري (الذي كان معتاداً على استشارته كأنه أطلس) أو بالرجوع إلى موسوعة الكتاب العالمي أو إلى مرجع بعنوان «رجال الفكر والأفعال»، وهو عمل مكون من ستة مجلدات من تأليف القس إي تيبتون تشاتسفورد، يعود تاريخه إلى تسعينيات القرن التاسع عشر، ويتألف من رسومات مصغرة لرجال عظماء عبر العصور، موجه للأطفال، وملئ بالنقوش الدرامية.

(1) جون دون: شاعر إنجليزي. كان جون دون واحداً من أبرز الشعراء الإنجليز في القرن السابع عشر، وكاتباً لامعاً لا تزال قصائده الغزلية وتأملاته الطريفة الساخرة والمريرة حتى يومنا تثير الاهتمام. وكان إلى ذلك كاهناً، وصفت مواعظه بأنها كانت أفضل مواعظ القرن.

كان أي شيء يكتبه باني فريداً إلى حد مذهل، فهو يبدأ بمصادر غريبة ثم يعدلها بأسلوبه وتدقيقه المرتبك، ولكن بحث جون دون كان الأسوأ على الإطلاق من بين جميع أبحاثه السيئة (كانت تلك مفارقة ساخرة، لأنه كان الشيء الوحيد الذي كتبه وطُبِعَ على الإطلاق، فبعد اختفائه طلب أحد الصحفيين مقتطفاً من عمل الباحث الشاب المفقود وأعطته ماريون نسخة من هذا البحث، حيث وجدت فقرة محررة منه طريقها في النهاية إلى مجلة بيبول).

سمع باني في مكان ما أن جون دون كان على معرفة بإيزاك والتون، وفي دهاليز عقله المعتمدة نمت هذه الصداقة أكبر فأكبر، حتى أصبح الرجلان في ذهنه قابلين للمبادلة عملياً كأنهما الشخص نفسه، لم نفهم قط كيف تأسس هذا الارتباط القاتل: ألقى هنري باللوم على كتاب «رجال الفكر والأفعال»، ولكن لم يكن أحد يعرف على وجه اليقين. وقبل أسبوع أو أسبوعين من موعد تسليم الورقة البحثية، بدأ باني يظهر في غرفتي نحو الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً، مظهره يوحي أنه نجا للتو من كارثة طبيعية، ربطة عنقه ملتوية وعيناه جامحتين زائفتين. وفي إحدى المرات قال وهو يدخل ويمرر كلتا يديه خلال شعره الأشعث: «مرحباً، مرحباً. آمل ألا أكون قد أيقظتك. هل تمانع لو أشعلت الضوء؟ آه، نعم، هكذا... نعم نعم».

أشعل الضوء ثم أخذ يمضي ذاهباً وإياباً مدة من الوقت دون أن يخلع معطفه، شابكاً يديه خلف ظهره ويهز رأسه بقلق. وأخيراً، توقف في مكانه، وقال بنظرة يائسة: «الميتاميرالزم.

حدثني عنه. أخبرني بكل ما تعرفه عنه. يجب أن أعرف شيئاً
عن الميتميرالزم». «آسف، لا أعرف ما هذا».

قال باني بنبرة محطمة: «وأنا أيضاً لا أعرف، له علاقة بالفرن
أو الرعوية⁽¹⁾. أحتاج إلى استخدامها للربط بين جون دون وإيزاك
والتون معاً، كما ترى»، واستأنف تجواله في الغرفة ذهاباً وإياباً.
«دون... والتون... الميتميرالزم... هذه هي المشكلة كما
أراها».

«باني، لا أعتقد أن «الميتميرالزم» كلمة حقيقية».
«بالتأكيد هي كذلك... مشتقة من اللاتينية، لها علاقة بالتهكم
والرعوية. نعم... هذا كل ما في الأمر... ربما تكون لوحة أو نحتاً
أو...».

«هل الكلمة في المعجم؟».

«لا أدري. لا أعرف تهجئتها. أعني...». صنع إطاراً بيديه وأكمل:
«الشاعر والصيد... رفقة ممتازة... صديقان مقربان... يقضيان
أوقاتها في الخارج في الهواء الطلق، يعيشان حياة طيبة، لا بد
أن الميتميرالزم هو الغراء الذي يربط بينهما، أليس كذلك؟».

وهكذا استمر النقاش أحياناً لنصف ساعة أو أكثر، وباني
يهذي عن الصيد والسوناتات وأشياء أخرى لا يعلم ماهيتها إلا

(1) الرَعْوِيَّة أو الأدب الرعوي أو الرُعائي هو الأدب الذي يمجّد الحياة الريفية
ويتخذها مثلاً أعلى. إنه يصور مجتمع الرعاة ببساطته ونقاؤه مغايراً عن مجتمع
المدينة بتعقيده وفساده. والرعوية مغلّة في القدم، وللشعراء على اختلاف
عصورهم محاولات متفاوتة في هذا المضمار.

الله، حتى تخطر بباله في منتصف كلامه فكرة «عبقرية» فيندفع مفادراً فجأة كما أتى.

أنهى الورقة البحثية قبل أربعة أيام من الموعد النهائي، وهرول في كل مكان يعرضها على الجميع قبل تسليمها. قال تشارلز بحذر: «هذه ورقة بحثية جيدة يا باني». «شكراً... شكراً».

«ولكن ألا تعتقد أنه عليك أن تذكر جون دون أكثر من ذلك؟ ألم تكن هذه هي المهمة الأساسية؟»

قال باني بسخرية: «أوه، دون، لا أريد إقحامه في هذا». رفض هنري قراءتها: «أنا متأكد من أنها تفوق قدرتي على الفهم». ثم أردف وهو يلقي نظرة على الصفحة الأولى: «باني، ما الخطأ في تلك الكتابة؟».

قال باني بفخر: «تركت مسافة فارغة بمقدار سطرين بعد كل جملة».

«هذه الجمل متباعدة بمسافة بوصة تقريباً».

«يبدو كأنه شعر حر، أليس كذلك؟»

أصدر هنري صوت شخير مقتضب وغريب من أنفه.

قال: «يبدو لي كأنه قائمة طعام».

كل ما أتذكره من الورقة البحثية هو أنها انتهت بهذه الجملة: «وبينما نترك دون ووالتون على شواطئ الميتايرميرالزم، نلوح بأيدينا في وداع حار لهذين الصديقين المقربين المشهورين من الماضي».

تساءلنا إن كان سيرسب، لكن باني لم يكن قلقاً؛ رحلته القريبة إلى إيطاليا التي أصبحت الآن وشيكة بما يكفي لرؤية برج بيزا

المائل في أحلامه، ألقت به في حالة من الإثارة والتوتر، وكان تَوَاقًا إلى مغادرة هامبدن في أقرب وقت ممكن، والتخلص من التزاماته العائلية، وبدء رحلته إلى خارج البلاد.

طلب مني بفضاضة -بما أنني لست مشغولاً- أن أساعده في حزم أمتعته، وافقت وذهبت إلى غرفته لأجده يلقي محتويات الأدرج في حقائب السفر، والملابس مبعثرة في كل مكان.

رفعت يدي وتناولت بعناية رسمة يابانية مؤطرة عن الجدار ووضعتها على مكتبه، فصرخ: «لا تلمسها»، وأسقط درج الكومود على الأرض بقوة واندفع لانتزاع الرسمة مني. «هذا الشيء عمره مئتا عام». في واقع الأمر كنت أعلم أن عمرها ليس كما ذكر، فقد رأيته قبل أسابيع قليلة وهو يقطعها بعناية من كتاب في المكتبة. لم أقل شيئاً، لكنني كنت مستاء جداً لدرجة أنني غادرت على الفور، وسط ما سمحت به كبرياؤه من اعتذارات فجأة. لاحقاً بعد رحيله وجدت رسالة اعتذار غريبة في صندوق بريدي، ملفوفة حول نسخة ورقية من قصائد روبرت بروك⁽¹⁾ وصندوق من حلوى جونيور مينتس.

رحل هنري بسرعة وهدوء، في إحدى الليالي أخبرنا أنه سيغادر، وفي اليوم التالي ذهب. (إلى سانت لويس؟ إلى إيطاليا مباشرة؟ لم يكن أحد منا يعلم). غادر فرانسيس في اليوم التالي

(1) كان روبرت بروك (1887-1915) شاعراً إنجليزياً معروفاً بأشعاره الغنائية عن الحرب ذات الطابع المثالي، التي كتبها خلال الحرب العالمية الأولى، خصوصاً «الجندي». كان مشهوراً أيضاً بوسامته الصبيانية، التي قيل إنها دفعت الشاعر الإيرلندي ديليو. بي. بيتس على وصفه بأنه أوسم شاب في إنجلترا.

بعد وداع طويل ومؤثر، وقفنا أنا وتشارلز وكاميللا إلى جانب الطريق، والبرد القارس يلسع أنوفنا، وآذاننا نصف متجمدة. هتف فرانسيس إلينا من نافذة سيارته المستأنسة التي بدأ محركها يدور بخمول مطلقاً سحباً كبيرة من الدخان الأبيض لمدة بلغت خمساً وأربعين دقيقة على الأقل.

كرهت رؤية التوأمين يرحلان أكثر من الآخرين ربما لأنهما كانا آخر من غادر، فبعد أن تلاشى صوت بوق سيارة فرانسيس في المسافة الثلجية الخالية من الصدى، عدنا إلى منزلهما في صمت سالكين الممشى عبر الغابة. عندما أشعل تشارلز الضوء، كان المنزل مرتباً بصورة تبعث على الأسى، فمغسلة المطبخ فارغة، والأرضيات ملمّعة، وحقائب السفر مصطفىة بجوار الباب. كانت قاعات الطعام قد أغلقت أبوابها ظهر ذلك اليوم، تواصل سقوط الثلج بغزارة واشتد ظلام الليل رويداً رويداً، لم يكن معنا سيارة، وكانت الثلجة -التي نُظِّفَت حديثاً وتفوح منها رائحة الديتول- فارغة. اجتمعنا حول مائدة المطبخ لتناول عشاء بسيط مليء بالهموم يتكون من حساء الفطر المعلّب ومقرمشات الصودا وشاي دون سكر أو حليب.

دار حديثاً حول خط سير رحلة تشارلز وكاميللا، وكيف سيحملان أمتعهما، وأي ساعة يجب أن يستدعيا فيها سيارة الأجرة حتى يتمكنوا من ركوب القطار في السادسة والنصف صباحاً. انضمت إلى حديث السفر هذا، لكن حزناً عميقاً لم يهدأ لعدة أسابيع قد بدأ يخيم عليّ، كان صوت سيارة فرانسيس وهو يتراجع ثم يختفي في الأفق المغطى بالثلوج لا يزال يطن في

أذني، وللمرة الأولى أدركت مدى الوحدة التي سأشعر بها خلال الشهرين القادمين مع إغلاق الكلية وهطول الثلوج الكثيف ورحيل الجميع.

على الرغم من طلب تشارلز وكاميليا مني عدم الذهاب لتوديعهما في الصباح الباكر فإنني وجدت نفسي هناك في الخامسة، كان الفجر مظلماً وصافياً ومزداناً بالنجوم، وكانت برودة الهواء القارسة قد خفّضت سائل الترمومتر الموجود على شرفة مبنى الكلية الرئيس إلى الصفر. كانت سيارة الأجرة المتوقفة وسط سحابة من الدخان تنتظر في المقدمة، وكان السائق قد أغلق للتو غطاء صندوق السيارة الذي امتلأ إلى آخره بالأمّعة، فيما كان تشارلز وكاميليا يغلقان باب السيارة خلفهما. كانا متوترين ومنشغلين جداً لدرجة أنهما لم يستطيعا الاستمتاع بحضوري. كانا قلقين، فقد قُتل والداهما في حادثة سيارة في أثناء رحلة عطلة نهاية أسبوع بالسيارة إلى واشنطن، ما جعلهما متوترين دائماً في الأيام القليلة التي تسبق سفرهما إلى أي مكان. كانا أيضاً متأخرين عن موعدهما، وضع تشارلز حقيبته ليصافحني قائلاً: «كريسماس سعيد يا ريتشارد، أتمنى أن تكتب لنا»، ثم ركض في الممر نحو سيارة الأجرة، في حين كانت تكافح لحمل حقيبتين ضخمتين، أسقطتهما في الثلج، وقالت: «تُبا، لن نتمكن أبداً من إدخال كل هذه الأمّعة إلى القطار».

كانت تتنفس بصعوبة، وظهرت دوائر عميقة من اللون الأحمر على وجنتيها اللامعتين، في حياتي كلها لم أر قط امرأة بمثل هذا الجمال الأخاذ الذي كانت عليه في تلك اللحظة. وقفت

أرمش في وجهها بغباء، والدم يتدفق في عروقي، ونسيت خططي التي تدربت عليها بعناية لقبله الوداع، وفجأة وجدت ذراعيها تحيط بي، وشعرت بدفء أنفاسها. كان خدها باردًا كالثلج عندما وضعتة على خدي، وعندما أمسكت يدها التي ترتدي قفازًا شعرت بنبض معصمها النحيل تحت أصابعي.

علا صوت بوق سيارة الأجرة وأخرج تشارلز رأسه من النافذة، وصرخ: «هيا».

حملتُ حقائبها إلى الرصيف، ووقفت تحت مصباح الشارع والسيارة تبتعد بهما.

استدارا في المقعد الخلفي ولوحا إليّ ووقفت أراقبهما، تراجع شبح انعكاسي المشوه في منحنى الزجاج الداكن عندما دارت السيارة عند المنعطف واختفت. بقيت وحدي في الشارع المهجور حتى تلاشى صوت المحرك، ولم يبقَ سوى صوت هسهسة الثلج الناعم الذي تحركه الرياح في دوامات صغيرة بلطف فوق الأرض، ثم عدت أدراجي إلى الحرم الجامعي، يداي مدسوستان في جيبي، وقدماي تقرعان الأرض بصوت عالٍ لا يطاق، كانت مهاجع الطلاب مظلمة وصامتة، وساحة انتظار السيارات الكبيرة خلف ملعب التنس خالية إلا من بعض سيارات أعضاء هيئة التدريس، وشاحنة خضراء وحيدة من قسم الصيانة. في منزل مونماوث كانت الممرات تعج بصناديق الأحذية وشماعات المعاطف، والأبواب مفتوحة، وكان كل شيء داكنًا وهادئًا مثل قبر. كنت مكتئبًا أكثر من أي وقت مضى في حياتي، أسدلت الستائر واستلقيت على سرير غير المرتب، واستغرقت في النوم.

كانت أمتعتي قليلة لدرجة أنه كان من الممكن نقلها في رحلة واحدة إلى ورشة إصلاح الموسيقى حيث سأقضي عطلة الشتاء. استيقظت في ساعة الظهيرة تقريباً، حزمت حقيبتي سفري، ووضعت مفتاحي في صندوق الأمانات، وحملتُهما عبر الطريق المهجور المغطى بالثلج إلى البلدة، ثم إلى العنوان الذي أعطاني إياه الهبيي عبر الهاتف.

كانت المسافة التي يجب أن أمشيها أطول مما توقعت، فسرعان ما أخذني العنوان بعيداً عن الطريق الرئيسي ماراً بمنطقة مقفرة بشكل خاص بالقرب من جبل كترأكت. كان مساري موازياً لنهر «باتنكيل» السريع الضحل الذي تمتد الجسور المغطاة على امتداده، تناثر عدد محدود من المنازل حوله، ولم ألاحظ إلا عدداً قليلاً ومتباعداً من تلك المقطورات المنزلية الكثيفة التي عادة ما نراها في غابات فيرمونت الخلفية وعلى جانبيها أكوام هائلة من الخشب، والتي ينبعث من مدخنتها دخان أسود كثيف. لم أرَ أي سيارة على الإطلاق باستثناء بعض العربات المهجورة بين الفينة والأخرى، تستقر على كتل من الطوب في الفناء الأمامي لأحد البيوت. كان من الممكن أن تكون نزهة ممتعة على الرغم من صعوبتها في فصل الصيف، لكن في ديسمبر وسط ثلوج يبلغ ارتفاعها قدمين ومع حقيبتين ثقيلتين، وجدت نفسي أتساءل إن كنت سأتمكن من إكمال الرحلة. كانت أصابع قدمي ويدي متجمدة، واضطرت إلى التوقف لأخذ قسط من الراحة أكثر من مرة، ولكن تدريجياً أصبح الريف أقل وحشة، وأخيراً لاح الطريق الذي قيل أن آتي إليه؛ شارع بروسبكت في شرق هامبدن.

كان هذا الجزء من البلدة غريباً عليّ، بعيداً كل البعد عن الجانب الذي أعرفه؛ أشجار القيقب وواجهات المتاجر الخشبية، وخضرة القرية وساعة المحكمة. أما هذه المنطقة من هامبدن فقد كانت مختلفة تماماً، حيث أبراج المياه التي تعرضت للقصف وخطوط السكك الحديدية الصدئة والمستودعات والمصانع المتداعية المغلقة أبوابها والمكسورة نوافذها. بدا كل شيء كأنه مهجور منذ الكساد العظيم باستثناء حانة صغيرة قدرة في نهاية الشارع التي -بالنظر إلى حشد الشاحنات المركونة خارجها- كانت مزدحمة حتى في هذا الوقت المبكر من فترة ما بعد الظهيرة.

كانت الحانة مزينة بأضواء عيد الميلاد وأوراق الشجر البلاستيكية المعلقة فوق أضواء النيون الساطعة. وعندما نظرت إلى الداخل رأيت صفّاً من الرجال يرتدون قمصاناً صوفية خفيفة يحتسون الجعة، وفي الخلف كانت هناك مجموعة من الشبان البدينين يرتدون قبعات البيسبول ويتحلقون حول طاولة البلياردو. وقفت خارج الباب الأحمر المبطن بالفينيل، ونظرت من خلال الكوة العلوية قليلاً. هل يجب أن أدخل لأسأل عن الاتجاهات وأحصل على مشروب دافئ؟ وبينما كنت أهم بالدخول واضعاً يدي على مقبض الباب النحاسي اللزج عندما رأيت اسم الحانة في النافذة؛ «بولدر تاب»، وكما سمعت عنه من الأخبار المحلية، فقد كانت الحانة مركزاً للجرائم الصغيرة التي وقعت في هامبدن؛ طعن بالسكاكين وحالات اغتصاب دون وجود أي شهود. لم يكن مكاناً قد ترغب في التوقف فيه بمفردك لتناول مشروب إذا كنت

طالبًا جامعيًا تائهاً قادمًا من أعلى التل. ولكن اتضح أن العثور على المكان الذي يعيش فيه الهيبى لم يكن صعبًا بعد كل شيء. كان أحد المستودعات الواقعة مباشرةً على النهر والمطلية باللون الأرجواني الفاتح.

بدا الهيبى غاضبًا كأننى أيقظته للتو عندما أتى أخيرًا إلى الباب. قال بنبرة متجهمة: «يا رجل، في المرة القادمة ادخل دون استئذان، ولا تثر كل هذه الجلبة». كان رجلاً قصير القامة وبدينًا، يرتدي قميصًا مبقعًا بالعرق، وله لحية حمراء، ويبدو كأنه أمضى كثيرًا من الأمسيات الجميلة مع «أصدقائه» حول طاولة البلياردو في حانة بولدر تاب. أشار إلى الغرفة التي سأقيم فيها، أعلى مجموعة من الدرجات الحديدية (دون درابزين بالطبع)، ثم اختفى دون أن ينطق بكلمة أخرى.

كانت الغرفة التي صعدت إليها كهفية الشكل مغبرة ذات أرضية خشبية وعوارض عالية مكشوفة، بالإضافة إلى خزانة ملابس محطمة، وكرسي عالٍ في الزاوية، كانت الغرفة فارغة تمامًا من الأثاث باستثناء جزاة عشب وبرميل زيت صدئ وطاولة ذات أرجل طويلة تناثرت فوقها أوراق الصنفرة وأدوات النجارة وبعض قطع الخشب المقوسة التي قد تكون أجزاء من الهياكل الخارجية لآلات المندولين، غطت الأرضية طبقة من نشارة الخشب والمسامير وأغلفة الطعام وأعقاب السجائر ومجلات بلاي بوي القديمة التي تعود إلى سبعينيات القرن الماضي، كانت النوافذ ذات الألواح الزجاجية مكسوة بطبقة من الصقيع والأوساخ.

تركزت حقائبي تسقط من يدي الخدرتين، وفي تلك اللحظة كان ذهني الخدر يسجل هذه الانطباعات دون أي رد فعل، ثم فجأة استيقظت على صوت صاخب ومتسارع، اقتربت من النوافذ الخلفية خلف الطاولة، وراعتي رؤية مساحة من الماء على بعد ثلاثة أقدام فقط في الأسفل.

وفي مكان أبعد في الأسفل أمكنني رؤية المياه وهي ترتطم بسد، والرداذ يتطاير من حولها. وبينما كنت أحاول تنظيف دائرة متسخة على زجاج النافذة بيدي حتى تسنح لي الرؤية بشكل أفضل، لاحظت أن أنفاسي لا تزال بيضاء حتى وأنا في الداخل. فجأة اجتاحني شيء لا يمكنني وصفه إلا بانفجار جليدي، فرفعت بصري إلى الأعلى، لمحت ثقباً ضخماً في السقف، ومن خلاله رأيت سماء زرقاء وسحابة سريعة تتحرك من اليسار إلى اليمين عبر الحافة السوداء المسننة للثقب، ومنه كانت الثلوج تتساقط بلطف متهادية على الأرضية الخشبية للغرفة حتى تستقر متخذة شكل الثقب الذي فوقها بمثابة لم يفسدها شيء، باستثناء الخط الحاد لأثر قدم منفرد، أثر قدمي.

سألني كثير من الناس لاحقاً إن كنت أدرك مدى خطورة محاولة العيش في مبنى بلا تدفئة في شمال فيرمونت خلال الأشهر الأبرد في العام، ولكي أكون صريحاً هنا، لم أدرك ذلك على الإطلاق. في الجزء الخلفي من ذهني كانت القصص التي سمعتها عن السكارى وكبار السن والمتزلجين المهملين الذين تجمدوا من البرد حتى الموت، ولكن لسبب ما لم يخطر ببالي قط أنني قد أواجه نفس المصير. كانت غرفتي غير مريحة

وقذرة وقارسة بالتأكيد، لكنني لم أتخيل قط أنها غير آمنة. لقد عاش طلاب آخرون هناك من قبل، وعاش الهبي نفسه في تلك الغرفة، أخبرني موظف استقبال في مكتب شؤون الطلاب بذلك. ما لم أكن أعرفه هو أن غرفة الهبي كانت مدفأة بشكل مناسب، وأن الطلاب السابقين كانوا مجهزين جيداً بالمدافئ والبطانيات الكهربائية، علاوة على ذلك كان الثقب في السقف قد تطور حديثاً، ولم يكن وجوده معروفاً لمكتب إحالة الطلاب، أعتقد أن أي شخص يعرف القصة كان سيحذرنى، لكن الحقيقة هي أنه لم يكن أحد على علم بها، شعرت بالحرج الشديد من العيش في مكان حقير كهذا لدرجة أنني لم أخبر أحداً بمكان إقامتي، ولا حتى الدكتور رولاند، كان الشخص الوحيد الذي يعرف كل شيء هو الهبي، ولم يكن مهتماً على الإطلاق برفاهية أي شخص سوى نفسه.

في الصباح الباكر بينما كان الظلام لا يزال مخيماً، كنت أستيقظ متدثراً بالبطانية فوق الأرضية (كنت أنام مرتدياً ستريتين أو ثلاث وملابس داخلية طويلة وسراويل صوفية ومعطفاً) ثم أخرج بملاسي ذاتها إلى مكتب الدكتور رولاند. كانت رحلة طويلة، وإذا كان الثلج يتساقط أو كانت الرياح عاصفة فإنها تصبح مروعة. وبينما كنت أصل إلى مبنى القاعة العامة وأنا أشعر بالبرد والإرهاق، كان البواب يفتح أبواب المبنى لبدء يوم جديد. بعد ذلك، كنت أهبط السلالم، وأحلق وأستحم في غرفة مهجورة في القبو، كانت سيئة المنظر إلى حد ما؛ بلاط أبيض وأنايب مكشوفة وبالوعة في منتصف الأرضية. كانت هذه الغرفة

جزءاً من مستوصف مؤقت أنشئ خلال الحرب العالمية الثانية، استخدم الفرّاشون صناديق تلك الغرفة لملء دلاء الغسيل، لذلك كانت المياه لا تزال تصل إلى هنا، وكان هناك أيضاً سخان غاز، احتفظت بشفرة حلاقة وصابونة ومنشفة مطوية مخبأة خلف أحد الخزانات الفارغة ذات الواجهة الزجاجية، بعد ذلك كنت أذهب لأعد لنفسي حساء معلباً وبعض القهوة سريعة التحضير على الموقد المحمول في مكتب العلوم الاجتماعية، وبحلول الوقت الذي يصل فيه الدكتور رولاند والسكرتيرات أكون قد بدأت بالفعل يوم العمل.

كان الدكتور رولاند الذي تأقلم بحلول ذلك الوقت مع تغيبي وأعذارى المتكررة وإخفاقي في إكمال المهام المنوطة إليّ في الموعد النهائي، مدهوشاً ومتشككاً إلى حد ما من هذا التحول المفاجئ في سلوكي. أشاد بعملتي، واستجوبني بدقة، سمعته في عدة مناسبات في الممر يناقش تحولي المفاجئ مع الدكتور كابريني رئيس قسم علم النفس، والأستاذ الآخر الوحيد في المبنى الذي لم يغادر الكلية في عطلة الشتاء، في البداية لا شك أنه اعتقد أنها مجرد خدعة جديدة مني، ولكن مع مرور الأسابيع ومع استمرارتي في العمل بجهد كل يوم، بدأ يصدق، أولاً بحذر ثم بشكل كامل.

قراءة الأول من فبراير، منحني الدكتور رولاند علاوة. ربما كان يأمل بمنهجه السلوكي أن يدفعني هذا إلى مستويات أعلى من الإنتاجية، ومع ذلك فقد ندم على هذا الخطأ عندما انتهى الفصل الدراسي الشتوي، ورجعت إلى غرفتي الصغيرة المريحة في منزل مونماوث، وعدت إلى عاداتي السلبية القديمة.

كنت أعمل في مكتب الدكتور رولاند حتى آخر لحظة ممكنة من دون أن أثير الشفقة، ثم أتوجه إلى مقصف الوجبات الخفيفة في مبنى القاعة العامة لتناول العشاء. في بعض الليالي، كنت أجد أماكن أستطيع الذهاب إليها بعد ذلك، فأقلب لوحات الإعلانات بنفاد صبر، أبحث عن اجتماعات لمدمني الخمر المجهولين أو عروض بريجادون⁽¹⁾ التي تقدمها المدرسة الثانوية المحلية. لكن في أغلب الأحيان، لم أجد شيئاً. ومع إغلاق القاعة العامة أبوابها عند الساعة السابعة، كنت أواجه رحلتي الطويلة إلى المنزل، وحيداً وسط الثلوج والظلام.

لم يكن البرد في المستودع يشبه أي شيء عرفت من قبل. ربما لو فكرت جيداً، لكنني اشتريت مدفأة كهربائية، لكنني وصلت قبل أربعة أشهر فقط من إحدى أكثر المناطق دفئاً في أمريكا، ولم أكن أعلم بوجود مثل هذه الأجهزة. لم يخطر ببالي أن نصف سكان فيرمونت لم يختبروا في حياتهم كلها ما أعيشه كل ليلة: برد يخرق العظام ويؤلم مفاصلي، برد لا يرحم، لدرجة أنني كنت أرى في أحلامي نفسي عالقاً في جليد طاف وسط بعثة استكشافية تائهة، بينما تتأرجح أضواء طائرات البحث فوق القمم البيضاء، وأنا أغوص وحيداً في بحار القطب الشمالي المظلمة. وعندما أستيقظ في الصباح، أجد جسدي متيبساً ومتألماً، كما لو تعرضت للضرب المبرح. ظننت في البداية أن

(1) مسرحية برودواي موسيقية من إنتاج 1947 وتأليف آلان جاي ليرنر وفريدريك لوي، تحولت إلى فيلم موسيقي عام 1954 من بطولة جين كيلي وفان جونسون وسيد تشاريس.

النوم على الأرض هو السبب، لكنني أدركت لاحقاً أن ما كان يرهقني هو ارتجافي المستمر طوال الليل، فقد كانت عضلاتي متقلصة دائماً، كما لو كانت تتعرض لنبضات كهربائية.

الغريب أن الهيبى -واسمه ليو- كان يغضب بشدة لأنني لم أكن أقضي وقتاً أطول في نحت دعامات المندولين أو ألواح التسدية⁽¹⁾، أو أي شيء آخر كان من المفترض أن أفعله في الطابق العلوي.

كان كلما رأياني قال مهدداً: «أنت تستغلني يا رجل». كان مقتنعاً تماماً بأنني درست تصميم الآلات، وأنني قادر على تنفيذ جميع أنواع الأعمال الفنية المعقدة، رغم أنني لم أخبره بذلك قط، وعندما اعترفت بجهلي قال: «بلى، أخبرتني بذلك. قلت إنك عشت في جبال بلو ريدج ذات صيف، وصنعت آلات السنطور⁽²⁾ في كنتاكي».

لم يكن لديّ ما أقوله ردّاً على ذلك، لم أعتد مواجهة أكاذيبي، لكن أكاذيب الآخرين كانت دائماً تضعني في حالة من الحيرة والارتباك. كل ما استطعت فعله هو الإنكار، مؤكداً أنني لا أعرف حتى ما السنطور. رد عليّ بوقاحة آمرة: «انحت الأوتاد... كنّس

(1) لوح يحتوي على عدد من الأوتاد مثبتة عليه على مسافات متساوية من بعضها. يستخدم لوح التسدية لفصل مجموعات الغزل في أثناء التجهيز لعملية التسدية (إحدى عمليات النسيج الأساسية، حيث تجهز الأطوال المناسبة من خيوط السدى من أجل العمليات التالية، وذلك بجمع عدد من الخيوط دون فقد أحدها في أي جزء مع المحافظة على مرونة الخيوط).

(2) السنطور: آلة موسيقية وترية شرقية، يعني اسمها Dulcimer الصّوت الجميل، استخدمها الموسيقيون مدة طويلة في آسيا وأوروبا، فقد كانوا يعزفون عليها عن طريق نقر الأوتار بأصابع اليد أو باستخدام قوس يشبه قوس الكمان لتنتج أصواتاً موسيقية مختلفة.

الأرض». حاولت جاهداً أن أوضح له، مستخدماً كلمات كثيرة، أنني بالكاد أستطيع نحت الأوتاد في غرفة باردة إلى حدّ أنني لا أجرؤ على خلع قفازاتي. لكنه أجاب ببرود: «اقطع أطراف أصابعك يا رجل». كانت هذه الحوارات القصيرة في الردهة الأمامية هي أقصى درجات تواصلنا معه.

في النهاية، أدركت أن ليو -رغم كل حديثه عن حبه للمندولين- لم يعمل في الورشة قط، بل ولم يصعد إليها منذ شهور قبل مجيئي للعيش فيها. بدأت أتساءل إن كان يعرف حتى بوجود الثقب في السقف. وحين تجرأت على ذكره له ذات يوم، قال ببساطة: «اعتقدت أن هذا كان من الأشياء التي يمكنك إصلاحها هنا». وهذا يظهر بؤسي حقاً، لأنني حاولت بالفعل، في يوم أحد، إصلاح الثقب باستخدام بعض قطع خشب المندولين التي وجدتتها في المكان. كدت أفقد حياتي في تلك المحاولة؛ كانت حافة السقف حادة جداً وفقدت توازني، وكدت أسقط في السد أسفله. لحسن الحظ، تمكنت من التثبيت بأنبوب صرف صدئ، الذي -بفضل رحمة القدر- تحمّل وزني.

بصعوبة بالغة تمكنت من إنقاذ نفسي، جرح الصفيح الصدئ يداي، واضطرتت إلى أخذ حقنة ضد الكزاز، لكن الأدوات التي كنت أستخدمها -مطرقة ليو ومنشاره وقطع خشب المندولين- سقطت جميعها في السد. غرقت الأدوات، وربما حتى يومنا هذا لا يعرف ليو أنها مفقودة. لسوء الحظ، طفت قطع المندولين على السطح واستقرت كتلة واحدة فوق مجرى التصريف أمام نافذة غرفة نوم ليو مباشرة. بالطبع، كان لديه كثير من الكلام عن هذا،

وعن طلاب الجامعات الذين لا يقدرون ممتلكات الآخرين، وعن أولئك الذين يحاولون سرقة.

مرّ الكريسماس دون أن أشعر به، سوى أن عدم وجود عمل وإغلاق جميع الأماكن جعلني بلا ملجأ من البرد سوى الكنيسة، حيث قضيت فيها بضع ساعات للتدفئة. بعد ذلك، عدت إلى المنزل، ولففت نفسي بالبطانية، أتأرجح بجسدي ذهاباً وإياباً، بينما البرد يعشش في عظامي. أفكر في كل أعياد الميلاد المشمسة التي عشتها في طفولتي؛ البرتقال، والدراجات، وأطواق الهولا هوب، وأشرطة الزينة الخضراء المتألئة تحت أشعة الشمس الحارقة.

وصل البريد من حين إلى آخر إلى صندوق بريدي في كلية هامبدن. أرسل لي فرانسيس رسالة من ست صفحات يشكو فيها ضجره وملله، والطعام الرديء الذي اضطر إلى تناوله منذ آخر مرة التقينا. أما التوأمان -بارك الله فيهما- فقد أرسلنا إليّ صناديق مليئة بالسكويات الذي صنعه جدتهما، مصحوبة برسائل مكتوبة بحبر متناوب: الأسود لتشارلز والأحمر لكاميللا. وفي الأسبوع الثاني من شهر يناير، وصلتني بطاقة بريدية من روما من دون عنوان للرد، تحمل صورة لتمثال أغسطس بريما بورتا. أضاف باني بجانب التمثال رسماً كاريكاتورياً بارعاً له ولهنري مرتديين اللباس الروماني (التوجا⁽¹⁾)، ونظارات مستديرة صغيرة)،

(1) لباس كان يرتديه المواطنون في الإمبراطورية الرومانية قبل ألفي سنة. وهو يتكون من رداء أبيض متفاوت الطول يلف حول الجسم. عادة ما تكون التوجا منسوجة من الصوف وكانت تلبس فوق الغلالة التي كانت بدورها مصنوعة من الكتان.

وهما ينظران بفضول نحو الاتجاه الذي تشير إليه ذراع التمثال الممدودة. (كان القيصر أوغسطس هو بطل بانى المفضل؛ إذ أخرجنا جميعاً عندما هتف بصوت عالٍ عند ذكر اسمه أثناء قراءة قصة بيت لحم من إنجيل لوقا في حفلة الكريسماس التي أقامها قسم الأدب. وعندما حاولنا إسكاته قال: «ماذا في ذلك؟ يجب أن تُفرض الضرائب على العالم كله»).

ما زلت أحتفظ بهذه البطاقة البريدية، رغم أن الكتابة عليها بقلم الرصاص قد بهتت مع مرور السنين، لا تزال واضحة تماماً. لا توقيع عليها، ولكن لا شك في هوية الكاتب: ريتشارد يا رجل، هل تتجمد عندك؟ الجو هنا دافئ جداً. نحن نقيم في بنسيون⁽¹⁾. أمس طلبت محار الكونشا بالخطأ في أحد المطاعم، كان مذاقه سيئاً، لكن هنري أكله. الجميع هنا كاثوليك! حتى نلتقي قريباً⁽²⁾.

نراك قريباً.

لم يكفّ فرانسيس والتوأمان عن سؤالي بإلحاح عن عنواني في هامبدن. كتب تشارلز بالحبر الأسود: «أين تعيش؟» وتبعته كاميلا باللون الأحمر: «نعم، أين؟» (استخدمت حبراً أحمر ذا مسحة مغاربية، أعاد إلى ذاكرتي بلمسة خاطفة رقعة صوتها ودفء حضورها). ولكن بما أنني لم أكن أملك عنواناً دقيقاً لأعطيه لهم، تجاهلت أسئلتهم، وكتبت ردوداً عامة فضفاضة حول الثلج والجمال والعزلة. كثيراً ما تساءلت كيف يتخيل هؤلاء الأشخاص

(1) نُزل بالإيطالية.

(2) بالإيطالية في الأصل.

البعيدون حياتي، وأنا أكتب لهم بأسلوب فلسفي عام، متجنباً ذكر التفاصيل الدقيقة عن يومي. كنت أعرف أن ذلك يثير لديهم أسئلة كثيرة لا إجابات عنها، وفراغات في السرد، حتى بدت رسائلي كأنها تصدر عن راهب روحاني مثل بوذا.

كتبت تلك الرسائل كل صباح قبل العمل في المكتبة، وخلال جلسات التسكع الطويلة في القاعة العامة، حيث أمكث حتى يُطلب مني المغادرة. شعرت أن حياتي كلها تتألف من أجزاء متناثرة من الوقت، متقللاً بين أماكن عامة كمن ينتظر قطارات لن تصل أبداً، مثل تلك الأشباح التي يُقال إنها تحوم في محطات القطار ليلاً، تسأل المارة عن موعد قطار منتصف الليل الذي خرج عن مساره قبل عشرين عاماً. كنت أتجول من ضوء إلى آخر، حتى تأتي تلك الساعة المخيفة التي تُغلق فيها جميع الأبواب، ويطردي دفاء البشر وأحاديثهم إلى الخارج. حينها، يبدأ البرد القديم بالتسلل مجدداً إلى عظامي، ويعود كل شيء إلى طي النسيان؛ يتلاشى الدفاء، وتخفت الأضواء، ويظل الصقيع رقيقاً أبدياً.

أصبحت بارعاً في جعل نفسي غير مرئي. كنت أستطيع احتساء فنجان قهوة على مدى ساعتين، وتناول وجبة طعام كاملة في أربع ساعات من دون أن تلاحظني النادلة. على الرغم من أن البواب في القاعة العامة كان يوبخني كل ليلة عند الإغلاق، فإنني أشك في أنه أدرك أنه تحدث إلى الشخص نفسه مرتين. كل يوم أحد بعد الظهر، كنت أجلس في المستوصف، متخفٌ بـ«عباءة» من عدم الاكتراث، أقضي هناك ست ساعات متواصلة، أقرأ بهدوء نسخاً من مجلتي «يانكي» (البحث عن المحار في رمال

جزيرة كوتي هانك) و«ريدرز دايجست» (عشر طرائق للمساعدة في مواجهة آلام الظهر!)، فيما يمر موظف الاستقبال والطبيب والزملاء المرضى من دون أن يشعروا بوجودي.

لكن مثل الرجل الخفي في رواية إتش جي ويلز، اكتشفت أن هذه القدرة على الاختفاء تأتي بثمن. لم يكن ثمنها جسدياً بل كان عقلياً، كأن الظلام بدأ يتسلل إلى ذهني شيئاً فشيئاً. بدأت أشعر أن الناس لا يرونني بل يعبرون من خلالي، كأنتي غير موجود بالفعل. تحوّلت هواجسي إلى نوع من الهوس، وبدأت أقنع أنها مسألة وقت فقط قبل أن ينهار الدرج الحديدي الذي يؤدي إلى غرفتي ويسقطني، فأكسر رقبتني أو ساقي، وأظل هناك متجمداً أو جائعاً حتى يُكتشف أمري ويتمكن ليو من مساعدتي. في أحد الأيام عندما صعدت الدرج بنجاح ودون خوف، خطرت ببالي أغنية قديمة لبراين إينو: «في نيودلهي وهونج كونج جميعهم يعرفون أنه لن يمر وقت طويل حتى...»، ومنذ ذلك اليوم، صارت تلك الأغنية رفيقتي في كل رحلة صعود أو هبوط على الدرج.

أما عندما كنت أعبر جسر المشاة فوق النهر، الذي أمرّ عليه مرتين كل يوم، كان عليّ أن أتوقف وأبحث في الثلج الموحل بلون القهوة عن حجر مناسب، ثم أتكئ على السور المغطى بالجليد وألقيه في النهر السريع المتدفق فوق صخور الجرانيت البيضاء المرقطة، تلك الصخور التي تشبه بيض الديناصورات. كنت أفعل ذلك كأنتي أقدم قرباناً لإله النهر، أملاً في عبور آمن، أو ربما كان ذلك محاولة يائسة لإثبات أنني -رغم اختفائي عن الأنظار-

ما زلت موجوداً. في بعض الأيام، كانت المياه ضحلة وصافية لدرجة أنني أسمع صوت الحجر لحظة ارتطامه بالقاع. كنت أقف هناك، مستنداً بكلتا يدي إلى السور الجليدي، أهدق إلى المياه البيضاء وهي تتساب برفق فوق الصخور الملساء، وأتساءل؛ كيف سيبدو الأمر لو سقطت وانكسر رأسي على إحدى تلك الصخور؟ هل سيكون هناك صدع هائل في جمجمتي، أو تدفق للعروق الحمراء على المياه الزجاجية؟

فكرت، لو رميت نفسي، فمن سيعثر عليّ في كل هذا الصمت الأبيض؟ هل سيجرفني التيار فوق الصخور حتى يتركني خلف مصنع الأصباغ، حيث تلمحني سيدة ما على ضوء مصابيح سيارتها الأمامية؟ أم ربما سأظل ملتصقاً بجلمود صخر ضخمة، كما استقرت قطع المندولين التي سقطت مني من قبل؟

كان ذلك في الأسبوع الثالث من يناير، عندما أخذت درجات الحرارة في الانخفاض، وحياتي التي كانت قبل ذلك وحيدة وبائسة تحولت إلى جحيم لا يُطاق. كنت أتنقل يومياً بين العمل والمنزل في حالة من الذهول، متجاهلاً البرد القارس الذي كان ينخفض أحياناً إلى عشرين درجة تحت الصفر، وأحياناً أخرى كنت أتحدى عواصف ثلجية عاتية لا أرى خلالها سوى البياض الممتد أمامي، وكان السبيل الوحيد لعودتي إلى المنزل هو اتباع السياج الممتد على جانب الطريق.

وعندما أصل إلى المنزل، كنت أسقط على الأرض ملفوفاً في بطانيتي المتسخة، مثل رجل ميت. وفي اللحظات القليلة التي

كنت أتمكن فيها من الهروب من قبضة البرد القارس، كانت أفكاري تأخذني إلى خيالات مريضة، تشبه تلك التي كتبها إدغار آلان بو. في إحدى الليالي، رأيت نفسي في المنام ممدداً في الثلج، شعري متيبس، وعيناي جاحظتان بفعل الصقيع.

كنت أذهب إلى مكتب الدكتور رولاند كل صباح في مواعي المحدد بدقة. لم يلاحظ عليّ -رغم أنه عالم نفس- أي علامات تدل على انهيار عصبي أو أي شيء آخر مما يُفترض أن يكون بارعاً في اكتشافه. بدلاً من ذلك، كان يستغلّ صمتي ليحكي عن نفسه، يتحدث عن كرة القدم والكلاب التي اقتناها في صباه. تعليقات قليلة كانت موجهة إليّ، ومع ذلك بدت غامضة وغير مفهومة، كقوله لي ذات مرة: «لماذا لا تشارك في المسرحيات وأنت في قسم الدراما؟» رغم أنني لم أكن أدرس في قسم الدراما. ثم يضيف: «ما المشكلة؟ هل أنت خجول يا فتى؟ أظهر لهم معدنك الحقيقي». وفي مناسبة أخرى، أخبرني بشكل مرتجل أن زميله في السكن في جامعة براون كان يسكن في الطابق السفلي لغرفته! وذات يوم قال لي إنه لم يكن يعلم أن صديقي كان في هامبدن خلال الشتاء.

قلت له: «لا يبقى أي من أصدقائي هنا في الشتاء»، وكنت صادقاً في قلبي.

فأجاب: «لا تدفع أصدقاءك بعيداً بهذه الطريقة. الأصدقاء الذين تصنعهم الآن هم أفضل الأصدقاء الذين ستحظى بهم في حياتك. ربما لا تصدقني الآن، لكنهم يبدوون بالانسحاب من حياتك عندما تصل إلى سني».

في تلك الليلة، وأنا أسير عائداً إلى المنزل، بدت الأشياء بيضاء ومشوشة، شعرت أنني بلا ماضٍ أو ذكريات كأنتي عالق إلى الأبد في هذا الطريق المضيء.

لم أكن أعلم حينها ما الذي أصابني بالضبط. قال الأطباء إنه كان انخفاضاً حاداً في حرارة جسمي، مصحوباً بسوء تغذية والتهاب رئوي بسيط. لكنني لا أعلم إن كان هذا يفسر كل الهلاوس والارتباك الذهني الذي مررت به. في ذلك الوقت، لم أكن أعرف حتى أنني مريض. كانت المعاناة التي أعيشها تبتلع كل إحساس آخر، فلم أعد أشعر بالحمى أو الألم.

كنت أعيش في محنة حقيقية. كان هذا الشهر الأكثر برودة منذ خمسة وعشرين عاماً. كنت مرعوباً من التجمد حتى الموت، لكن لم يكن لدي أي مكان آخر أذهب إليه. خطر لي أن أطلب من الدكتور رولاند البقاء في شقته التي كان يتقاسمها مع عشيقته، لكن الخجل من طرح هذا الطلب كان أكبر من أن أتحملة، حتى أن الموت بدا لي خياراً أسهل. لم أكن أعرف أحداً آخر يمكنني اللجوء إليه، ولا حتى معرفة سطحية، ولم يكن لدي خيار سوى طرق أبواب الغرباء.

في إحدى الليالي المريرة حاولت الاتصال بوالدي من الهاتف العمومي الموجود خارج حانة بولدر تاب. كان الصقيع يتساقط وكنت أرتجف بشدة، بالكاد تمكنت من إدخال العملات المعدنية في فتحة النقود.

ورغم أنني كنت آمل بشدة أن يرسل لي مائلاً أو تذكرة طائرة، لم أكن متأكداً مما أردت سماعه منهما. ربما كان كل ما أحتاج إليه

هو سماع أصوات من مكان بعيد، أصوات لأناس يعيشون في دفاء بعيد عن هذا الجحيم الجليدي الذي أعيشه. لكن عندما ردّ أبي بعد الرنة السادسة أو السابعة، كان صوته الثمل والممتعض كفيلاً بأن يغلق حلقي شعور بالفراغ والجفاف. فأغلقت الخط فوراً.

عاد الدكتور رولاند لاحقاً للحديث عن صديقي الخيالي مجدداً. قال إنه رآه هذه المرة أعلى البلدة يمشي في الساحة في وقت متأخر من الليل، فيما كان هو يقود سيارته إلى المنزل. قلت له: «أخبرتكَ أنه ليس لدي أي أصدقاء هنا».

«أنت تعرف من أقصد. فتى ضخم يرتدي نظارة».

هل كان يتحدث عن هنري؟ أم باني؟ «لا بد أنك مخطئ».

مع انخفاض درجات الحرارة بشكل غير مسبوق، اضطررت إلى قضاء عدة ليالٍ في نُزل كاتامونت. كنت النزيل الوحيد هناك، باستثناء الرجل العجوز ذي الأسنان المتعرجة الذي يدير المكان، والذي كان يقيم في الغرفة المجاورة؛ أبقاني مستيقظاً بسبب صوت سعاله المرتفع وبصقه.

كان باب غرفتي مزوداً بترياس قديم يمكن فتحه بسهولة بدبوس شعر. وفي الليلة الثالثة استيقظت مذعوراً من حلم مزعج؛ كان كابوساً عن سلالٍ متعرجة متفاوتة الارتفاع والعرض، ورجل يهبط أمامي بسرعة كبيرة. سمعت صوت نقر خافت. جلست في السرير، وشعرت بالذعر يجتاحني عندما رأيت مقبض الباب يدور ببطء تحت ضوء القمر. صرخت: «من هناك؟» فتوقف الصوت على الفور، بقيت مستيقظاً في الظلام مدة طويلة، وفي صباح

اليوم التالي غادرت النزل. كنت مستعداً لمواجهة موت هادئ في منزل ليو، أفضل من أن أُقتل في سريري.

في الأول من فبراير، هبت عاصفة عاتية قطعت خطوط الكهرباء وحاصرت السيارات في الثلوج الكثيفة. جلبت العاصفة معها نوبة من الهلاوس؛ تحدثت معي أصوات غامضة فيما كنت أسمع في الخلفية خريز مياه وهسهسة ثلوج، همست لي: «استلق... استدر يساراً... ستندم إذا لم تفعل».

كانت آلتى الكاتبة موضوعة بجانب نافذة مكتب الدكتور رولاند. في ساعة متأخرة من أحد الأيام، بينما كان الظلام ينتشر ببطء، نظرت إلى الفناء الفارغ ودهشت عندما رأيت ظلاً داكناً لا يتحرك يقف تحت المصباح، وهو يدس يديه في جيبي معطفه الداكن ويرنو إلى نافذتي. كانت الأجواء ضبابية والثلج يتساقط بكثافة، همست: «هنري؟» وأغمضت عيني بقوة حتى رأيت نجوماً، وعندما فتحتهما مجدداً، لم أر سوى الثلج يتراقص في مخروط الضوء المنبعث من المصباح.

في الليل، رقدت على الأرض مرتجفاً، أراقب ندف الثلج المضيفة تنهادر من ثقب السقف، وأنا أغرق ببطء في بحر اللاوعي على وشك الدخول في غيبوبة، سمعت صوتاً يحذرني أنه إذا استسلمت للنوم فقد لا أستيقظ أبداً. أجبرت عيني على البقاء مفتوحتين بصعوبة بالغة. وفجأة، تشكل الثلج اللامع في زاوية وعيي المعتم بصورة ملاك الموت المرعبة، كان يهددني وهو يبتسم، لكنني كنت مرهقاً جداً لدرجة أنني لم أهتم، شعرت وأنا أنظر إليه بأن قبضتي على الوعي تتراخي، وبعدها سقطت في هاوية النوم المظلمة.

بدأ الزمن يتشوش، ومع ذلك كنت أجز نفسي يومياً إلى مكتب الدكتور رولاند، فقط لأن الدفء كان يخفف من معاناتي. بطريقة ما كنت أتمكن من إنجاز المهام البسيطة المطلوبة مني، لكنني حقاً لا أعلم كم كان بإمكانني الاستمرار في ذلك لو لم يحدث أمر مفاجئ تماماً.

لن أنسى تلك الليلة ما حييت. كان يوم جمعة، وكان الدكتور رولاند قد غادر البلدة، ولن يعود حتى يوم الأربعاء التالي. كان هذا يعني أربعة أيام من العزلة في المستودع، وكان واضحاً بالنسبة إليّ حتى في حالتي العقلية الغائمة أنني قد أتجمد حتى الموت هذه المرة.

عندما أغلقت القاعة العامة أبوابها، سرت عائداً إلى المنزل. كان الثلج يصل حتى مستوى الركبتين، وسرعان ما شعرت بوخز وخدر يمتد من قدمي إلى ركبتيّ. ومع وصولي إلى شرق هامبدن، بدأت أتساءل بجدية إن كان بإمكانني الوصول إلى المستودع، وما الذي سأفعله إن وصلت.

كان كل شيء في شرق هامبدن حالكاً ومهجوراً حتى حانة بولدر تاب، وكان الضوء الوحيد في الأفق ذلك الذي يحيط بالهاتف العمومي على بعد أميال. شققت طريقي نحوه كأنه سراب في الصحراء، كان في جيبي نحو ثلاثين دولاراً فقط، وهو مبلغ يكفي لاستدعاء سيارة أجرة تأخذني إلى فندق كاتاماونت، إلى غرفة ضيقة وقذرة بباب بلا قفل.

كان صوتي متلعثماً، ولم تعطني عاملة الهاتف رقم شركة سيارات الأجرة، قالت: «عليك أن تعطيني اسم خدمة سيارات أجرة محددة، غير مسموح لنا ب...».

قلت بتثاقل: «لا أعرف اسم خدمة سيارات محددة. هل يوجد هنا دليل هاتف؟».

«أنا آسفة يا سيدي، لكن ليس مسموحًا لنا بذلك».

بدأت أحاول تخمين الأسماء يائسًا: «ريد توب؟ يلو توب؟ تاكسي البلدة؟ شيكر؟»

أخيرًا أعتقد أنني خمنت اسمًا صحيحًا، أو ربما شعرت عاملة الهاتف بالأسف لحالي.

سمعت صوت نقرة، ثم أعطاني صوت آلي رقمًا. حاولت الاتصال بسرعة حتى لا أنسى الرقم، بسرعة كبيرة لدرجة أنني أخطأت وخسرت عمليتي المعدنية.

كانت لدي قطعة نقدية أخرى، آخر ما تبقى معي. خلعت قفازي، وأخذت أبحث عنها في جيبتي بأصابع متجمدة. وأخيرًا وجدتتها، لكن بينما كنت على وشك إدخالها في الفتحة، انزلقت من أصابعي. اندفعت لالتقاطها، لكن جبهتي ارتطمت بالزاوية الحادة من الدرج المعدني أسفل الهاتف.

بقيت مستلقيًا على وجهي في الثلج بضع دقائق، ملأ ضجيج متسارع أذني. خلال سقوطي أسقطت سماعة الهاتف من الخطاف، وبدأ صوت صفير انشغال الخط القادم من السماعة التي تتأرجح ذهابًا وإيابًا كأنه يأتي من مكان بعيد جدًا.

تمكنت من النهوض على أربع، وبينما كنت أجدق إلى الثلج حيث سقطت، رأيت بقعة داكنة عليه. عندما لمست جبهتي بيدي العارية، شعرت بحرارة الدم، كانت أصابعي ملطخة باللون الأحمر. اختفت القطعة النقدية، ونسيت الرقم. فكرت أن أعود

لاحقًا، عندما تفتح حانة بولدر تاب لأحصل على عملات جديدة. جاهدت للوقوف على قدمي تاركًا سماعة الهاتف تتأرجح بسلكها الأسود.

صعدت الدرج زاحفًا على يدي وركبتي، كان الدم يسيل على جبهتي، توقفت عند بسطة الدرج لألتقط أنفاسي. شعرت بالعالم حولي يصبح ضبابيًا وغير واضح، مثل شاشة التليفزيون القديمة عندما لا تتمكن من ضبط القناة، لم أعد أرى سوى مجموعة من الخطوط السوداء والبيضاء المهتزة، ثم عادت الصورة فجأة، لم تكن واضحة تمامًا، لكنها كانت قابلة للتمييز مثل صورة من كاميرا مهتزة.

أخيرًا، وصلت إلى محطتي الأخيرة على ضفاف النهر مستودع مندولين ليو، أفضل فندق على الإطلاق من ناحية الأسعار إن كنت تحتاج إلى مكان تبيت فيه، وفوق ذلك لست بحاجة إلى ثلاجة لحفظ اللحوم التي تشتريها.

دفعت باب الورشة بكتفي، وبدأت أبحث عن مفتاح الضوء، لكن ما رأيته بجوار النافذة جعلني أترنح من الصدمة، كان هناك شخص يرتدي معطفًا أسود طويلًا يقف بلا حراك في الجهة المقابلة من الغرفة، ويداه متشابكتان خلف ظهره، وبالقرب من إحدى اليدين رأيت وهجًا خافتًا لجمرة سيجارة.

اشتعلت الأضواء بفرقة وأزيز، واستدار الظل الذي كان حتى تلك اللحظة مبهمًا ليصبح هنري. بدا لي أنه على وشك أن يدلي بتعليق مازح، لكن عندما رأني اتسعت عيناه وفتح فمه مدهوشًا.

تجمدنا في أماكننا، نتبادل النظرات عبر الغرفة لحظات.
أخيراً همست: «هنري؟».

ترك السيجارة تسقط من بين أصابعه وتقدم خطوة نحو،
كان هو حقاً بوجنتيه المتوردتين الرطبتين، والثلج الذي تكس
على أكتاف معطفه، قال بصوت مليء بالقلق: «يا إلهي، ريتشارد،
ماذا حدث لك؟»

رأيت في وجهه تعبيرَ مفاجأة لم أره يظهر عليه من قبل،
وقفت ساكناً في مكاني، أهدق إليه، وأشعر بعدم التوازن، بدا كل
شيء حولي شديد السطوع، مددت يدي نحو إطار الباب، والشيء
التالي الذي عرفته هو أنني كنت أسقط، واندفع هنري إلى الأمام
ليلتقطني.

أنزلني برفق على الأرض وخلع معطفه ليضعه فوقي كبطانية،
نظرت إليه ومسحت فمي بظهر يدي متسائلاً: «من أين أتيت؟»
أجاب وهو يمشط شعري بعيداً عن جبهتي محاولاً إلقاء نظرة
على جرحي: «غادرت إيطاليا مبكراً»، رأيت الدم على أطراف
أصابعه.

ضحكت وقلتُ: «أعيشُ هنا في مكان جميل صغير».
نظر إلى الثقب الموجود في السقف، وقال بلهجة فظة: «نعم،
مثل البانثيون»، ثم انحنى مرة أخرى ليفحص رأسي.

ما أتذكره بعد ذلك وجودي في سيارة هنري، والأضواء حولي
والناس يميلون فوق، اضطررت إلى الجلوس على الرغم من
أنني لم أرغب في ذلك. أذكر أيضاً شخصاً حاول سحب دم من
وريدي، وأنا أشكو منه بضعف. ولكن أول شيء أذكره بوضوح أنني

استيقظت في غرفة بيضاء قاتمة مستلقياً على سرير مستشفى، وفي ذراعي أنبوب وريدي.

كان هنري يجلس بجانبني على كرسي، يقرأ بجوار الأباجور. ترك كتابه عندما رآني أتحرك وقال: «جرحك لم يكن خطيراً، كان نظيفاً وسطحياً، ولم يتطلب سوى بضع غرز».

«هل أنا في المستشفى؟»

«أنت في مونتبليير، أحضرتك إلى المستشفى».

«ما فائدة هذا المحلول الوريدي؟»

قال بدمائة: «يقولون إنك مصاب بالتهاب رئوي، هل ترغب في

قراءة شيء ما؟»

«لا، شكرًا. كم الساعة؟»

«الواحدة صباحًا».

«لكنني اعتقدت أنك في روما».

«عدت منذ أسبوعين. إذا كنت ترغب في النوم مجددًا،

فيمكنني استدعاء الممرضة لتعطيك حقنة منومة».

«لا، شكرًا. لماذا لم أرك قبل الآن؟»

«لأنني لم أكن أعرف أين تعيش، العنوان الوحيد الذي أملكه

لك هو عنوانك في الكلية، بعد ظهر هذا اليوم ذهبت وسألت

عنك في مكاتب الكلية، وبالمناسبة: ما اسم البلدة التي تعيش

فيها والداك؟»

«بيانو. لماذا تسأل؟»

«اعتقدت أنك قد ترغب في أن أتصل بهما».

قلت وأنا أغوص في سريرى: «لا تشغل بالك». كان المحلول الوريدي يسري مثل الثلج في عروقي. أردفت بصوت خافت: «أخبرني عن روما».

بدأ يتحدث بهدوء شديد عن منحوتات الطين المحروق الإتروية⁽¹⁾ في فيلا جوليا⁽²⁾، وبرك الزنابق والنافورات في هيكل حُورِيَّات الماء⁽³⁾ خارجها؛ عن فيلا بورغيزي والكولوسيوم، والمنظر من تل بالاتين في الصباح الباكر، تحدث عن حمامات كاراكلا وكم كانت رائعة في العصر الروماني بالرخام والمكتبات والكالديوم⁽⁴⁾ الدائري الضخم، والفريجيداريوم⁽⁵⁾، مع بركتها الفارغة الضخمة التي لا تزال قائمة حتى الآن، وربما تحدث عن كثير من الأشياء الأخرى أيضاً، لكنني لا أتذكر لأنني غفوت.

(1) الحضارة الإتروية كانت حضارة في إيطاليا القديمة، تقريباً في المنطقة التي تدعى الآن توسكانا وغرب أومبريا وشمال لاتسيو وأجزاء شمالية في وادي بو، التي هي الآن إميليا رومانيا وجنوب شرق لومبارديا وجنوب فينيتو، وجنوباً في بعض مناطق كامبانيا الحالية.

(2) فيلا جوليا: فيلا في روما إيطاليا، شيدها البابا يوليوس الثالث ما بين 1551-1553 على ما كان آنذاك حافة المدينة. وهي اليوم مملوكة للدولة، وتضم متحف إتروسكو الوطني الذي يحوي مجموعة من الفنون والتحف الإتروية.

(3) هَيْكَلُ حُورِيَّاتِ الْمَاءِ أو النمفيوم، في العمارة اليونانية والرومانية القديمة، نصب تذكاري مكرس للحوريات الأسطورية خصوصاً حوريات الينابيع.

(4) الكالديوم: غرفة مع حَمَّام مغطس ساخن كانت تُستخدم في الحَمَّامات الرومانيّة القديمة.

(5) فريجيداريوم: بركة ضخمة باردة المياه في الحَمَّامات الرومانيّة. يمكن الوصول إليها واستخدامها بعد عبور مدخل الحمام والمرور عبر الأبوديتيريوم، حيث يُخزّن المرء ملابسه، ومن ثم غرف التبييداريوم والكالديوم التي كانت تُستخدم لفتح مسام الجلد، في حين كان الماء البارد في هذه الغرفة يغلق المسام.

مكثت في المستشفى أربعة أيام، وكان هنري بجانبني طوال تلك المدة تقريباً. كان يأتي لي بالمشروبات الغازية عندما أطلبها، وأحضر لي شفرة حلاقة وفرشاة أسنان، كما أحضر لي من ملابسه الخاصة بيجاما ناعمة من القطن المصري لونها قشدي، وقمصاناً ماركة مارشبانكس مطرزة بحروف صغيرة قرمزية على الجيب، كما جاءني بأقلام وأوراق لم أستخدمها كثيراً، ولكنها كانت تلك بلا شك تضحية كبيرة منه، بالإضافة إلى كومة من الكتب، نصفها بلغات لم أفهمها، والنصف الآخر لم أستطع قراءته.

في إحدى الليالي، وبعد أن أصبت بالصداع بسبب قراءة هيغل، طلبت منه أن يجلب لي مجلة. بدا مستغرباً من طلبي، وعندما عاد كانت معه مجلة تجارية عن آخر التحديثات في علم الأدوية، كان قد وجدها في الممر، بالكاد تبادلنا الحديث، كان يقضي معظم وقته في القراءة بتركيز مدهش. في إحدى المرات، جلس ست ساعات متواصلة من دون أن يرفع عينيه عن الكتاب، ولم يعرني اهتماماً يُذكر.

ومع ذلك كان يسهر بجانبني في الليالي السيئة، عندما كنت أعاني صعوبة في التنفس وتمنعي رثاي من النوم. في إحدى المرات تأخرت الممرضة المناوبة عن إعطائي الدواء ثلاث ساعات، فنهض هنري وتبعها إلى الممر، ووبخها توبيخاً قاسياً بلهجة رتيبة وهادئة، لدرجة أن تلك الممرضة ذات الشعر المصبوغ مثل نادلة مسنة والمعروفة بخشونتها وسلوكها العدائي أصبحت أكثر لطفاً في تعاملها معي بعد ذلك. أذكر مرة أنها

مزقت الضمادات حول الأنبوب الوريدي بقسوة شديدة، وتسببت في تلون جلدي ببقع زرقاء وسوداء في أثناء بحثها العشوائي عن أوردة صالحة للحقن ولكنها تغيرت كثيرًا بعد توبيخ هنري حتى أنها نادتنني بـ«عزيزي» أثناء قياس درجة حرارتي.

أخبرني طبيب الطوارئ أن هنري أنقذ حياتي، كان ذلك القول درامياً ومريحاً لي، وكررت قوله بعد ذلك لعدة أشخاص، لكنني في أعماقي كنت أعتقد أن هناك شيئاً من المبالغة فيه. ولكن مع في السنوات اللاحقة بدأت أشعر أن الطبيب ربما كان على حق، عندما كنت أصغر سنًا كنت أعتقد أنني لا أقهر. وعلى الرغم من أنني تعافيت بسرعة على المدى القصير، فإنني لم أتجاوز ذلك الشتاء تمامًا. منذ ذلك الحين أصبحت رثائي ضعيفتين، وأُصاب بالبرد بسهولة، وأشعر بألم في عظامي مع أقل قشعريرة. عندما أخبرت هنري بما قاله الطبيب، بدت عليه علامات الاستياء.

أدلى بعبوس ببعض التعليقات الجافة التي ما زلت مدهوشًا أنني نسيته، ربما لشدة إحراجي، ولم أذكرها مرة أخرى قط. وعلى الرغم من كل شيء، أعتقد أنه أنقذ حياتي، وسأظل ممتًا لما فعله معي طوال حياتي.

ربما أبدو عاطفيًا الآن، لكنني في بعض الأحيان عندما أسترجع هذه الذكريات، لا يسعني إلا أن أكون كذلك.

في صباح يوم الاثنين سمحوا لي أخيرًا بمغادرة المستشفى بعد أربعة أيام مع زجاجة مضادات حيوية وذراع مليئة بوخز الإبر

الطبية. ومع أنني كنت قادراً تماماً على المشي، أصرّوا على نقلي إلى سيارة هنري على كرسي متحرك؛ ما جعلني أشعر بالإهانة كأ أنني طرد بريدي.

عندما وصلنا إلى هامبدن، طلبت منه أن يأخذني إلى فندق كاتاماونت، لكنه رفض قائلاً بحزم: «لا، ستأتي لتقيم عندي».

كان هنري يقيم في الطابق الأول من منزل قديم بشارع ووتر في نورث هامبدن بالقرب من منزل تشارلز وكاميللا وعلى مقربة من النهر، لم يكن هنري من الأشخاص الذين يحبون استضافة الآخرين، ولم أزره في منزله إلا مرة واحدة لوقت قصير. كانت شقته مختلفة تماماً عن شقة تشارلز وكاميللا، كانت واسعة وغامضة بأرضيات خشبية عريضة ونوافذ بلا ستائر وجدران مطلية بالأبيض، كان الأثاث رغم جودته بسيطاً ومهترئاً، ولم يكن هناك كثير منه، كان المكان كله يحمل طابعاً مهجوراً وخالياً، بعض الغرف لم تكن تحتوي على أي شيء على الإطلاق، علمت من التوأمين أن هنري يكره الأضواء الكهربائية، لذلك كانت هناك مصابيح كيروسين متناثرة على عتبات النوافذ.

كانت غرفة نومه التي سأقيم فيها مغلقة في زيارتي السابقة. حوت الغرفة كتب هنري، ليست كثيرة كما كنت أتوقع. كان هناك سرير فردي وخزانة ذات قفل كبير وبارز وبعض الأشياء القليلة الأخرى. على باب الخزانة كانت هناك صورة بالأبيض والأسود من مجلة قديمة مكتوب عليها «حياة» تعود إلى العام 1945، يظهر فيها جوليان الذي يبدو شاباً يهمس بشيء في أذن فيفيان لي التي كانت تضحك، كانا في حفل كوكتيل، وكان جوليان يحمل نظارته.

سألت هنري: «أين التقطت هذه الصورة؟».

«لا أعرف، يقول جوليان إنه لا يستطيع التذكر. أحياناً يعثر على صور له في مجلات قديمة».

«لماذا؟».

«كان يعرف كثيراً من الناس في الماضي».

«من هؤلاء الناس؟»

«معظمهم ماتوا الآن».

«مثل من؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

أجاب بصوت هادئ: «أنا حقاً لا أعرف يا ريتشارد»، ثم أضاف بنبرة أخف: «رأيت صوراً له مع الثلاثي سيتويل⁽¹⁾، وتي. إس. إليوت، وأيضاً صورة طريفة مع ممثلة لا أستطيع تذكر اسمها. لقد ماتت الآن». توقف قليلاً ثم تابع: «كانت شقراء، أعتقد أنها كانت متزوجة من لاعب بيسبول».

«مارلين مونرو؟»

رد هنري: «ربما. لم تكن صورة جيدة جداً، مجرد ورق جرائد».

خلال الأيام الثلاثة الماضية، نقل هنري أغراضه من منزل ليو إلى شقته، وكانت حقائبه موزعة بجانب السرير.

قلت له: «لا أريد أن آخذ سريرك، يا هنري. أين ستنام أنت؟».

أجابني: «هناك سرير في إحدى الغرف الخلفية يمكن فرده وطيّه حسب الرغبة. لم أستخدمه من قبل، لكنني أعتقد أنه سيكون مناسباً».

(1) كان آل سيتويل (إديث وأوزبرت وساشيفيريل)، من سكاربورو، بشمال يوركشاير، ثلاثة أشقاء شكلوا زمرة أدبية وفنية مميزة في لندن في أوائل القرن العشرين.

«إذن لماذا لا تسمح لي بالنوم هناك؟»

«لا، لديّ فضول لأعرف كيف سيكون النوم في ذاك السرير، وأظن أنه من الجيد تغيير مكان النوم من وقت إلى آخر، أعتقد أنه يمنح المرء أحلامًا أكثر تشويقًا».

كانت خطتي أن أبقى مع هنري بضعة أيام فقط، لذلك عدت إلى العمل مع الدكتور رولاند يوم الإثنين التالي، ولكن انتهى بي المطاف بالمكوث في منزله حتى بدء الدراسة مرة أخرى، لم أستطع أن أفهم لماذا قال باني إنه من الصعب التعايش مع هنري، كان أفضل رفيق سكن على الإطلاق، فهو هادئ ومرتب، وعادةً ما يلزم مكانه المعتاد في المنزل. يكون عادة خارج البيت عندما أعود من العمل، لم يخبرني أين يذهب، ولم أسأله قط، لكن في بعض الأحيان كنت أجده يحضر العشاء عند عودتي، لم يكن طبّاخًا ماهرًا مثل فرانسيس، وكان يحضر أطباقًا بسيطة مثل الدجاج المشوي والبطاطا المشوية وغيرها من وصفات العزوبية، وكنا نجلس إلى الطاولة في المطبخ نتناول الطعام ونتحدث.

في ذلك الوقت، كنت قد تعلمت أنه من الأفضل عدم التدخل في شؤونه، لكن ذات ليلة لم أتمالك فضولي وسألته: «هل ما زال باني في روما؟»

مرت عدة لحظات قبل أن يجيب. قال وهو يضع شوكتة جانبًا: «أعتقد ذلك، كان لا يزال هناك عندما غادرت».

«لماذا لم يرجع معك؟».

«لا أعتقد أنه أراد المغادرة، سأتكفل بإيجاره حتى شهر فبراير».

«هل ألزمتك ذلك؟».

أخذ هنري قضيعة أخرى من طعامه، وبعد أن انتهى من مضغها وبلعها، قال: «بصراحة، بغض النظر عما يخبرك به باني، الحقيقة عكس ذلك، فهو لا يملك سنتاً واحداً، ولا والده أيضاً». قلت بغضب: «ظننت أن والديه كانا ميسورين».

رد هنري بهدوء: «لن أقول ذلك. ربما كان لديهما المال في الماضي ولكنهما بذّراه منذ مدة طويلة. منزلهما المترف كلف ثروة، وهما يتباهيان بعضويتهما في نوادي اليخوت والنوادي الريفية ويرسلان أبناءهما إلى مدارس مكلفة، لكن هذا يجعلهما مدينين بما يفوق قدرتهما على السداد. قد يظهران بمظهر الأثرياء، لكنهما لا يملكان سنتاً واحداً. أظن أن السيد كوركوران على وشك الإفلاس».

«يبدو أن باني يعيش حياة جيدة جداً».

قال هنري بتهكم: «لم يكن في جيب باني سنتاً واحداً طوال الوقت الذي عرفته فيه، ومع ذلك لا يعجبه إلا الأشياء الباهظة». «هذا مؤسف».

استأنفنا تناول الطعام في صمت.

قال هنري بعد مدة طويلة: «لو كنت مكان السيد كوركوران لجعلت باني ينخرط في التجارة بعد المدرسة الثانوية، لا مكان له في الكلية، لم يستطع القراءة حتى بلغ العاشرة تقريباً من عمره».

قلت: «إنه يرسم جيداً».

«أظن ذلك أيضاً، لكنه ليس موهوباً بما يكفي للحصول على منحة دراسية، كان ينبغي لوالديه أن يضعاه تحت رعاية رسام منذ صغره بدلاً من إرساله إلى تلك المدارس الباهظة لعلاج صعوبات التعلم».

«أرسل لي رسماً كاريكاتورياً جميلاً جداً لكما أنت وهو، وأنتما تقفان بجانب تمثال القيصر أوغسطس».

قال هنري بلهجة ساخطة: «كان ذلك في الفاتيكان، أمضى اليوم يتحدث باستهزاء عن الداغوس⁽¹⁾ والكاثوليك».

«على الأقل هو لا يتحدث الإيطالية».

قال هنري باقتضاب: «كان يتحدثها جيداً بما يكفي ليطلب أغلى شيء في القائمة كلما ذهبنا إلى مطعم».

اعتقدت أنه من الحكمة تغيير الموضوع، وقد فعلت ذلك.

في صباح يوم السبت الذي يسبق استئناف الدراسة كنت مستلقياً على سرير هنري أقرأ كتاباً، كان هنري قد غادر قبل أن أستيقظ. وفجأة، سمعت طرْقاً قوياً على الباب الأمامي. ذهبت لأفتح الباب معتقداً أن هنري قد نسي مفتاحه. لكنني وجدت باني يقف أمامي مرتدياً نظارة شمسية ومختلفاً تماماً عما عهدته. فقد استبدل ببذلته التويدية عديمة الشكل بدلة أخرى إيطالية أنيقة وحديثة، ويبدو أنه اكتسب وزناً إضافياً يتراوح بين عشرة وعشرين رطلاً.

(1) لفظة مهينة تطلق على الأشخاص من أصل إيطالي أو إسباني.

بدا متفاجئاً لرؤيتي.

قال وهو يصافح يدي بحرارة: «مرحباً بك يا ريتشارد. صباح الخير⁽¹⁾، سررت لرؤيتك. لم أرَ سيارة هنري في الخارج، ولكني وصلت إلى البلدة للتو وفكرت في المرور إلى هنا. أين صاحب البيت؟»

«ليس في البيت».

«إذن ماذا تفعل هنا؟ كسرت الباب ودخلت؟»

«أقيم هنا منذ مدة، تلقيت بطاقةك البريدية».

نظر إليّ بغرابة وقال: «تقيم هنا؟ لماذا؟».

فوجئت أنه لا يعرف، فقلت ببساطة: «كنت مريضاً»، وشرحت له بعض التفاصيل مما حدث.

قال بانني: «همم».

«هل تريد بعض القهوة؟»

مشينا عبر غرفة النوم لنصل إلى المطبخ.

قال بفضاضة وهو ينظر إلى أشياءي المعلقة وحقائبي على الأرض: «يبدو أنك تقيم فعلاً هنا. هل لديك قهوة أمريكية؟»

«ماذا تقصد؟ قهوة من نوع فولجرز؟»

«أعني، لا يوجد إسبرسو؟».

«لا يوجد، آسف».

قال بإسهاب: «أنا رجل الإسبرسو. شربتها طوال الوقت في إيطاليا، هناك كثير من الأماكن الصغيرة حيث يمكنك الجلوس وشرب القهوة».

(1) بالإيطالية في الأصل.

«سمعت بذلك».

خلع نظارته الشمسية وجلس إلى الطاولة، قال وهو ينظر إلى الثلاثة فيما كنت أفتح بابها لأخرج القشدة: «يبدو أنه ليس هناك شيء لذيذ يُؤكل، لم أتناول غدائي بعد».

وسَّعت فتحة باب الثلاثة حتى يتمكن من رؤية ما في داخلها. قال: «هذا الجبن سيكون كافياً».

وعندما لاحظت أنه لم يظهر أي نية لإعداد الطعام بنفسه، قطعت بعض الخبز وصنعت له شطيرة جبن، ثم صببت له القهوة وجلست، قلت: «أخبرني عن روما».

قال وهو يتناول شطيرته: «روما مدينة رائعة، مدينة خالدة، مليئة بالفن والكنايس في كل زاوية».

«إلى أين ذهبت؟»

«إلى أماكن كثيرة، من الصعب تذكر الأسماء كلها الآن، كما تعلم كنت أتحدث الإيطالية بطلاقة عندما غادرت».

«هيا أخبرني قليلاً عن رحلتك».

ضم إبهامه وسبابته معاً وهزهما في الهواء كما يفعل الطهاة الفرنسيون في الإعلانات التليفزيونية.

قلت: «ماذا يعني ذلك؟».

أجاب بانِي وهو يعود إلى تناول شطيرته: «يعني: أيها النادل، أحضر لي أفضل طبق محلي لديكم».

في تلك اللحظة سمعت صوتاً خفيفاً لمفتاح يلج في القفل، ثم سمعت الباب يُغلق، سارت الخطى بهدوء نحو الطرف الآخر من الشقة.

صاح باني: «هنري، أهذا أنت؟».

توقفت الخطوات، ثم اقتربت بسرعة من المطبخ، عندما وصل هنري إلى الباب، وقف عند المدخل وحقق إلى باني دون أي تعبير على وجهه: «عرفت أنه أنت».

قال باني بفم ممتلئ وهو يعتدل في جلسته: «أهلاً بك أيضاً. كيف حالك يا صديقي؟».

قال هنري: «بخير. وأنت؟».

غمز باني لي وقال مازحاً: «سمعت أنك كنت ترعى المرضى. أكان ضميرك يؤنبك؟ وفكرت في فعل بعض الأعمال الصالحة؟».

لم يرد هنري بشيء، وكنت متأكداً أن أي شخص لا يعرفه سيعتقد أنه بلا مشاعر، لكنني شعرت باضطرابه الشديد. سحب كرسيًا وجلس، ثم نهض مرة أخرى وذهب ليصب لنفسه فنجاناً من القهوة.

قال باني: «هل تمانع أن تصب لي مزيداً من القهوة أيضاً؟» ثم أضاف: «من الرائع أن أعود إلى الولايات المتحدة، أرض الفرص، حيث تُطهى شطائر الهامبرغر على شواية مفتوحة. عسى أن ترفرف رايتها طويلاً».

«منذ متى وأنت هنا؟».

«أقلعت طائرتي إلى نيويورك في ساعة متأخر من الليلة الماضية».

«أنا آسف لأنني لم أكن هنا عندما وصلت».

قال باني بنبرة مرتابة: «أين كنت؟».

«في السوق». كانت هذه كذبة. لم أعرف أين كان، ولكن من المؤكد أنه لم يمضِ أربع ساعات في التسوق للبقالة. قال باني: «أين أغراض البقالة التي اشتريتها حتى نساعدك في إحضارها إلى الداخل».

«طلبت منهم توصيلها إلى هنا».

قال باني مذهولاً: «أعند متجر فوود كينج خدمة توصيل؟»

قال هنري: «لم أذهب إلى فوود كينج».

نهضت بصعوبة وتوجهت إلى غرفة النوم.

قال هنري: «لا، لا، لا تذهب». تناول جرعة طويلة من قهوته ووضع الفئجان في المغسلة. «باني، أتمنى لو علمت أنك قادم. ولكن عليّ أنا وريتشارد أن نغادر في غضون دقائق قليلة». «لماذا؟».

«لديّ موعد في البلدة».

«مع محام؟» ثم ضحك باني بصوت عالٍ على نكته.

«لا، مع طبيب العيون. لهذا السبب أتيت». ثم وجه كلامه إليّ: «آمل أنك لا تمانع، سوف يضعون قطرات في عيني، ولن أستطيع الرؤية فلن أقود».

قلت: «لا، بالتأكيد».

«لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً. لا يجب عليك الانتظار، أوصلني فحسب ثم عد لاحقاً لتأخذني».

رافقنا باني إلى السيارة، وأقدامنا تسحق الثلج تحتها. قال وهو يتنفس بعمق ويصفع صدره مثل أوليفر دوغلاس في المشهد

الافتتاحي للهكتارات الخضراء⁽¹⁾: «الهواء هنا ينعشني. إذن، متى تعتقد أنك ستعود يا هنري؟».

قال هنري وهو يسلمني المفاتيح، ويسير نحو مقعد الراكب: «لا أعرف».

«حسنًا، أود أن أتحدث قليلاً معك».

«في الحقيقة، أنا متأخر قليلاً الآن، يا بان».

«الليلة إذا؟»

قال هنري وهو يركب السيارة ويغلق الباب: «إذا أردت».

ما إن جلس في السيارة، أشعل هنري سيجارة ولم ينطق بكلمة واحدة. كان يدخن بشراهة منذ عودته من إيطاليا، علبة تقريباً في اليوم، مع أنه بالكاد كان يدخن من قبل. قدنا السيارة إلى البلدة، وعندما توقفت أمام عيادة طبيب العيون، هزَّ هنري جذعه ونظر إليَّ بملامح جامدة.

سألته: «ما الأمر؟ في أي وقت يجب أن آتي لأخذك؟».

نظر هنري من نافذة السيارة إلى المبنى الرمادي المنخفض، وإلى اللافتة الموجودة أمامه التي تقول مركز هامبدن لقياس البصر.

ثم ضحك ضحكة قصيرة مريرة ومتفاجئة، وقال: «يا إلهي، هل صدقت؟ استمر في القيادة».

خلدت إلى الفراش مبكراً في تلك الليلة نحو الساعة الحادية عشرة. في الثانية عشرة استيقظت على صوت طرق عالٍ ومستمر

(1) كان أوليفر ويندل دوجلاس الشخصية الرئيسية في مسلسل كوميديا الموقف «الهكتارات الخضراء» على قناة CBS في الستينيات.

على الباب الأمامي. بقيت في السرير دقيقة أصغي إلى الصوت، ثم نهضت لأرى من الطارق.

التقيت هنري في الردهة المظلمة مرتدياً روب حمامه، وهو يعبث بنظارته، كان يحمل أحد مصابيح الكيروسين الذي ألقى بظلال طويلة وغريبة على الجدران الضيقة. وعندما رأني وضع إصبعه على شفتيه. وقفنا في الممر نستمع.

كان ضوء المصباح مخيفاً. وبينما كنت أقف هناك بلا حراك مرتدياً روب الحمام نعساناً، والظلال تومض حولي، شعرت كأنني استيقظت من حلم إلى آخر أكثر وحشة، كما لو كنا في ملجأ قنابل غريب في زمن الحرب.

بقينا واقفين مدة بدت طويلة، حتى بعد أن خفت الأصوات وسمعنا وقع أقدام تبتعد. تبادلنا النظرات بصمت، ثم قال هنري أخيراً: «لقد انتهى الأمر الآن»، واستدار مبتعداً نحو غرفته متمائلاً بضوء المصباح.

انتظرت بضع لحظات في الظلام، ثم عدت إلى غرفتي واستلقيت في سريري.

في اليوم التالي نحو الساعة الثالثة بعد الظهر، كنت أكوي قميصي في المطبخ عندما سمعنا طرْقاً آخر على الباب. ذهبت إلى الممر فوجدت هنري واقفاً هناك.

قال بهدوء: «هل تعتقد أن هذا باني؟».

«لا». كان الطرْق خفيفاً بشكل غير معتاد، يطرق باني الباب بعنف عادة كأنه يريد كسره.

«أذهب إلى النافذة الجانبية، وانظر إذا كان بإمكانك رؤية الطارق».

ذهبت إلى الغرفة الأمامية وتقدمت بحذر نحو النافذة، لم تكن هناك ستائر وكان من الصعب الاقتراب من النوافذ البعيدة من دون أن يراك من في الخارج. كانت النوافذ مائلة بزاوية غريبة وكل ما استطعت رؤيته هو كتف معطف أسود مع وشاح حريري يتطاير مع الريح، عدت إلى هنري في المطبخ وقلت: «لم أستطع أن أرى بوضوح، ولكنني أظن أنه فرانسيس».

قال هنري: «أوه، يمكنك السماح له بالدخول، على ما أعتقد»، ثم استدار وعاد إلى مكانه المعتاد من المنزل.

ذهبت إلى الغرفة الأمامية وفتحت الباب. كان فرانسيس ينظر خلفه كما لو كان يتساءل إن كان عليه المغادرة. قلت: «مرحباً».

استدار ورآني: «مرحباً!» يبدو أن وجهه أصبح أنحف وأكثر بروزاً منذ آخر مرة رأيته فيها. «ظننت أنه لا يوجد أحد في المنزل. كيف تشعر؟»

«بخير».

«تبدو متعباً».

قلت ضاحكاً: «أنت أيضاً لا تبدو في حالة جيدة».

«شريت كثيراً الليلة الماضية، وأعاني ألماً في المعدة بسبب ذلك. أريد أن أرى هذا الجرح الهائل في رأسك. هل سيترك ندبة؟»

قدته إلى المطبخ، ودفعت لوح الكي جانباً ليتسنى له الجلوس.

قال وهو يخلع قفازيه: «أين هنري؟»

«في الخلف».

بدأ يفك وشاحه وقال: «سأذهب لألقي عليه التحية وأعود فوراً».

انتظرت طويلاً، بدأت أشعر بالملل وكنت على وشك إتمام كي قميصي عندما سمعت فجأة صوت فرانسيس يرتفع بنبرة هيسديرية. نهضت واتجهت إلى غرفة النوم لأسمع ما يجري. «يفكر في ماذا؟ يا إلهي، لكنه يمر بسورة غضب هائلة... لا يمكنك أن تخبرني أنك تعرف ما قد يفعله».

ثم سمعت همهمة خافتة، صوت هنري، ثم وصلني صوت فرانسيس مرة أخرى.

قال بحرارة: «لا أهتم، لكنك حققت هدفك، برافول»

ثم قال رداً على همهمة أخرى من هنري: «عدت إلى البلدة منذ ساعتين فحسب، وبصراحة لا يهمني. إلى جانب ذلك تأخر الوقت قليلاً على هذا، أليس كذلك؟»

عمَّ الصمت، ثم تحدث هنري بصوت خافت وغير واضح، فلم أتمكن من سماع كلماته.

قال فرانسيس: «لا يروق لك ذلك؟ أنت؟ ماذا عني؟»

اختفى صوته فجأة ثم استأنف الحديث بهدوء شديد فلم أعد أستطيع سماعه.

رجعت بهدوء إلى المطبخ وحضرت الماء لإعداد الشاي.

كنت لا أزال أفكر في ما سمعته حينما ارتفع صوت خطوات في الممر بعد بضع دقائق، ثم دخل فرانسيس إلى المطبخ بخطى

سريعة، ودار حول طاولة الكي ليلتقط قفازيه ووشاحه.

قال معذراً: «آسف، يجب أن أغادر الآن. عليّ أن أفرغ أغراضي من السيارة وتنظيف شقتي. لقد تركها ابن عمي في حالة من الفوضى، وأشك أنه أخرج القمامة مرة واحدة طوال مدة إقامته هناك». ثم أضاف: «دعني أرى جرح رأسك».

سحبت الشعر فوق جبهتي إلى الوراء، وأريته مكان الجرح. كنت قد نزعْتَ الفرز منذ مدة طويلة، وبالكاد كان أثر الجرح ملحوظاً.

انحنى إلى الأمام لينظر إليه من خلال نظارته: «يا إلهي، لا بد أنني أعمى، ولا أستطيع رؤية أي شيء. متى تبدأ محاضرات الفصل الدراسي الثاني؟ الأربعاء؟»

«الخميس، على ما أعتقد».

قال: «إلى اللقاء إذن»، ثم غادر.

وضعت قميصي على المشجب، ثم دخلت غرفة النوم لأحزم أغراضي، كان من المتوقع أن يُعاد فتح منزل مونماوث بعد ظهر ذلك اليوم، وربما سيوصلني هنري إلى الكلية مع حقائبي لاحقاً. كنت على وشك الانتهاء عندما ناداني هنري من الجزء الخلفي من الشقة: «ريتشارد؟».

«نعم؟»

«هل يمكنك المجيء إلى هنا للحظة من فضلك؟».

عدت أدراجي إلى غرفته، كان يجلس على طرف السرير القابل للطي وأكمامه مرفوعة حتى المرفقين، وأوراق لعبة السوليتير مبعثرة فوق البطانية عند قدمه. كان شعره قد سقط فوق الجانب

الخطأ من جبهته، واستطعت رؤية ندبة طويلة مشوهة تمتد من منبت شعره حتى عظمة الحاجب.

نظر إلي: «هل يمكنك أن تقدم لي معروفًا؟»

«بالتأكيد».

تتهد بعمق ودفع نظارته إلى أعلى أنفه: «هل يمكنك الاتصال بيباني وسؤاله إذا كان يرغب في القدوم بضع دقائق؟».

فوجئت بطلبه، وصمتُ لحظة قبل أن أقول: «بالتأكيد، يسعدني فعل ذلك».

أغمض عيني، وفرك صدغيه بأطراف أصابعه، ثم رمش في وجهي وقال: «شكرًا لك».

«لا داعي للشكر».

قال بهدوء: «إذا كنت تريد أن تأخذ أغراضك إلى الكلية بعد ظهر اليوم، فيمكنك أن تستعير السيارة».

فهمت ما يقصده، فقلت: «بالتأكيد».

وفقط بعد أن حملت حقائبي في السيارة، وقدتها إلى مونماوث وطلبت من الحراس فتح غرفتي، اتصلت بيباني من الهاتف العمومي، كانت قد مرّت نصف ساعة كاملة.

الفصل الرابع

ظننت أنه عندما يعود التوأمان ونستقر مرة أخرى، ونشرع في إنجاز الواجبات في مادة النثر اليوناني والبحث في معجم ليديل وسكوت، سنستعيد الروتين المريح الذي كان سائداً في الفصل الدراسي السابق، وأن كل شيء سيعود كما كان. لكنني كنت مخطئاً تماماً. كتب تشارلز وكاميلاً أنهما سيصلان إلى هامبدن بالقطار في وقت متأخر نحو منتصف ليل الأحد، وبعد ظهر يوم الاثنين عندما بدأ الطلاب بالعودة إلى منزل مونماوث مع معدات التزلج وأجهزة تشغيل الموسيقى وصناديقهم الكرتونية، توقعت أن يزوراني لكنهما لم يفعلوا. مر يوم الثلاثاء من دون أن أسمع شيئاً منهما أو من هنري أو من أي شخص آخر باستثناء جولييان الذي ترك رسالة ودية صغيرة في صندوق بريدي، يرحب فيها بعودتي إلى الكلية، ويطلب مني ترجمة قصيدة لـ«بندار»⁽¹⁾ من أجل محاضرتنا الأولى. ذهبت يوم الأربعاء إلى مكتب جولييان لأطلب منه التوقيع على بطاقات تسجيلي، بدا سعيداً برؤيتي، وقال: «تبدو في حالة جيدة، وإن لم تكن كما ينبغي. كان هنري يبقيني على اطلاع دائم بشأن تعافيك».

«أوه؟»

قال جولييان وهو يلقي نظرة سريعة إلى أوراقتي: «أعتقد أن عودته المبكرة كانت أمراً حسناً، لكنني فوجئت برؤيته أيضاً.

(1) بندار: شاعر غنائي إغريقي. وهو من بين الشعراء الغنائيين التسعة المشهورين في اليونان القديمة.

ظهر أمام منزلي قادمًا مباشرة من المطار وسط عاصفة ثلجية في منتصف الليل».

أثار هذا الأمر دهشتي، فسألته: «هل أقام معك؟».

«نعم، ولكن بضعة أيام فقط، كان مريضًا في إيطاليا أيضًا».

«مّم كان يعاني؟»

«هنري ليس قويًا كما يبدو عليه، يعاني مشكلة في عينيه، ونوبات صداع رهيبة، وأحيانًا يمر بأوقات عصيبة، لم أعتقد أنه في حالة مناسبة للسفر، لكن من حسن الحظ أنه لم يبقَ هناك، وإلا لما تمكن من العثور عليك والاعتناء بك، أخبرني كيف انتهى بك الأمر في مثل هذا المكان المروع؟ هل رفض والداك إعطائك المال، أم أنك لم ترغب في أن تطلبه منهما؟»
«لم أرد أن أطلبه».

ضحك جوليان وقال: «إذن أنت أكثر رواقية مني. لكن يبدو أن والديك لا يحبانك كثيرًا، هل أنا محق؟»
«ليسا مغرمين بي، صحيح».

«ما سبب ذلك من وجهة نظرك؟ أم أن سؤالي وقح؟ يبدو لي أنهما كانا ليكونا فخورين بك جدًّا، لكنك تبدو أكثر يُتمًا من الأيتام الحقيقيين». ثم نظر إلى الأعلى وقال: «قل لي، لماذا لم يأتِ التوأمان لرؤيتي؟»
«لم أرهما أيضًا».

«أين يمكن أن يكونا؟ أنا لم أرَ حتى هنري، فقط أنت وإدموند. تحدثت مع فرانسيس هاتفيًا لوقت قصير، كان في عجلة من

أمره، وقال إنه سيزورني لاحقًا، لكنه لم يفعل... لا أعتقد أن إدموند تعلم كلمة إيطالية واحدة، أليس كذلك؟»
«لا أتكلم الإيطالية لأعرف».

«ولا أنا، لم أعد أجيدها الآن كما كنت سابقًا، كنت أتحدثها بطلاقة فيما مضى، فقد عشت في فلورنسا قبل ما يقرب من ثلاثين عامًا، هل ستلتقي أحدًا بعد ظهر اليوم؟»
«ربما».

«هذا ليس بالأمر الكبير، ولكن يجب تسليم استثمارات التسجيل للفصل الدراسي الجديد إلى مكتب العميد بعد ظهر اليوم، وأخشى أنه سيفضب إذا لم أرسلها. لا يهمني غضبه، لكن قد يتخذ إجراءات مزعجة بحق أي منكم إن قرر ذلك».

كنت أشعر بالضيق بعض الشيء. مضت ثلاثة أيام منذ أن وصل التوأمان إلى هامبدن، ولم يتصلا بي حتى مرة واحدة، لذا عندما غادرت مكتب جوليان، مررت على شقتهما، لكنهما لم يكونا في المنزل.

ولم يحضرا العشاء تلك الليلة، ولا أي من الآخرين.

توقعت على الأقل أن أرى باني، لكنني مررت بغرفته في طريقي إلى قاعة الطعام فوجدت ماريون تغلق بابه، أخبرتني بنبرة رسمية أن لديهما خططهما الخاصة لقضاء الليل، ولن يعودا إلا في وقت متأخر.

تناولت الطعام وحدي، ثم عدت إلى غرفتي عند الغسق وسط الثلوج، يملكني شعور لاذع بالوحدة والغربة، كأنني ضحية مزحة مدبرة. في الساعة، اتصلت بفرانسيس لكنه لم يرد، وعندما حاولت الاتصال بمنزل هنري لم أحصل على إجابة أيضًا.

قرأت اليونانية حتى منتصف الليل، وبعد أن فرشت أسناني وغسلت وجهي وكنت على وشك النوم تقريباً نزلت إلى الطابق السفلي وعاددت الاتصال، ولكن لم يجبني أحد. استرددت العملة المعدنية بعد المكالمات الثلاثة ورميتها في الهواء، ثم دفعني حدس ما إلى الاتصال بمنزل فرانسيس في الريف.

لم أتلّق إجابة هناك أيضاً، لكن شيئاً ما جعلني أستمّر في رفع السماعة أطول مما ينبغي، وفي النهاية بعد نحو ثلاثين رنة، سمعت نقرة، وصوت فرانسيس يقول عبر الهاتف بفضاضة: «مرحباً؟»، كان يحاول التحدث بنبرة عميقة لإخفاء صوته، لكنه لم يخدعني. لم يتحمل فرانسيس ترك الهاتف بلا إجابة، لقد سمعته يستخدم هذا الصوت السخيف من قبل.

قال مرة أخرى: «مرحباً». وتحول صوته المصطنع إلى ارتباك في النهاية. ضغطت على زر إنهاء المكالمات وسمعت الخط ينقطع. كنت مرهقاً لكنني لم أستطع النوم، شعرت بأن حنقي وقلقي يزدادان مع مرور الوقت مصحوبين بشعور غريب بعدم الارتياح. أشعلت الأنوار وأخذت أبحث في كتبي حتى عثرت على رواية لريموند تشاندلر أحضرتها معي من الديار، قرأتها سابقاً، ولكنني ظننت أن قراءة بضع صفحات ستجعلني أنام، لكنني نسيت معظم الحكمة، وقبل أن أدرك ذلك كنت قد قرأت مئة صفحة.

مرت عدة ساعات من دون أن أشعر بالنعاس إطلاقاً. كان نظام التدفئة يعمل بكامل قوته، فأصبحت الغرفة حارة وجافة، شعرت بالعطش فقرأت حتى نهاية الفصل، ثم نهضت وارتديت معطفي فوق بيجامتي وذهبت لإحضار علبة كوكاكولا. كان مبنى الكلية

فارغاً عديم الملامح ومهجوراً، تفوح منه رائحة الطلاء الحديث. مشيت عبر غرفة الغسيل التي كانت نظيفة ومضاءة جيداً، بدت غريبة بجدرانها ذات اللون القشدي دون تلك الكتابات التي كانت تغطيها في الفصل الدراسي السابق، اشتريت علبة كوكاكولا من إحدى آلات البيع المضيئة في نهاية الممر.

بينما كنت عائداً، استوقفتني موسيقى خافتة قادمة من غرفة الجلوس العامة. كان التلفزيون يعمل، وكانت شاشته مشوشة وغير واضحة ولكنها كانت تعرض مشهداً من لوريل وهاردي وهما يحاولان نقل بيانو ضخّم إلى أعلى السلالم. في البداية ظننت أن الغرفة فارغة، لكنني لاحظت رأساً أشقر أشعث يسترخي فوق ظهر الأريكة الوحيدة التي تواجه التلفزيون.

مشيت ناحيته ثم جلست.

قلت: «باني، كيف حالك؟».

نظر إليّ بعينين زائفتين، واستغرق بضع لحظات ليذكر من أكون، كانت تفوح منه رائحة الكحول، قال بصوت مرتفع: «ريتشارد؟».

«نعم، ماذا تفعل هنا؟»

تجشأ، «أشعر بغثيان شديد، أخبرك بالحقيقة بكل صدق».

«هل شربت كثيراً؟»

قال بغضب: «لا، إنها إنفلونزا المعدة».

باني المسكين، لم يكن ليعترف قط بأنه مخمور، كان يقول دائماً إنه يعاني صداً أو يحتاج إلى تعديل عدسات نظارته، كان يميل إلى إخفاء الحقائق في أمور كثيرة. أذكر مرة بعد

لقاء غرامي مع ماريون، جاء لتناول الفطور ومعه صينية مليئة بالدونات بالحليب والسكر. وعندما جلس لاحظت بقعة أرجوانية كبيرة على رقبتة فوق الياقة.

سألتها: «ما سبب تلك البقعة يا بان؟» كنت أمزح فحسب لكنه استاء بشدة.

قال بفضاضة: «سقطت من فوق أحد السلالم»، ثم تناول الدونات في صمت.

قررت أن أساير كذبة إنفلونزا المعدة، فقلت: «ربما التقطت العدوى من خارج البلاد».

«ربما».

«هل ذهبت إلى المستوصف؟»

«لا، لا شيء يمكنهم فعله. يجب أن أترك الأمر يأخذ مجراه، من الأفضل ألا تجلس بالقرب مني يا رجل».

على الرغم من أنني كنت على الجانب الآخر من الأريكة، فإنني ابتعدت قليلاً. جلسنا نشاهد التلفاز بصمت. كان الاستقبال رديئاً، دفع أولي قبعة ستان فغطت عينيه، وحجبت عنه الرؤية فأخذ ستان يتحرك في دوائر، ويصطدم بالأشياء ويسحبها بشدة بكلتا يديه، ثم اصطدم بأولي الذي ضربه على رأسه بقبضته. ألقيت نظرة خاطفة على باني، ورأيت أنه كان منغمساً في المشاهدة، نظراته ثابتة وفمه مفتوح قليلاً.

قلت: «باني».

قال من دون أن يبعد عينيه عن التلفزيون: «أجل؟»

«أين الجميع؟»

قال باستياء: «ربما نائمون».

«هل تعرف إن كان التوأمان هنا في هامبدن؟»

«أعتقد ذلك».

«هل رأيتهما؟»

«لا».

«ماذا أصاب الجميع؟ هل أنت غاضب من هنري أم هناك أمر آخر؟».

لم يجب، تأملت جانب وجهه، ورأيت أنه كان جامد الملامح تمامًا، شعرت بالتوتر لحظة ونظرت إلى التليفزيون: «هل تشاجرتما في روما أم ماذا؟».

فجأة تنحنح بصوت عالٍ، واعتقدت أنه سيطلب مني أن أكف عن التطفل، لكنه بدلًا من ذلك أشار إلى شيء ما وتنحنح مرة أخرى: «هل ستشرب الكولا؟»

كنت قد نسيت أمرها تمامًا، كانت تقبع متعركة وغير مفتوحة فوق الأريكة، أعطيتها له ففتحها وتناول رشفة كبيرة منها، وتجشأ. قال محاكيًا الإعلان: «الاستراحة التي تتعش»، ثم أضاف: «اسمح لي أن أقدم لك نصيحة صغيرة عن هنري، يا رجل».

«ماذا؟».

أخذ رشفة أخرى من الكولا، ثم التفت إلى التلفاز مجددًا وقال: «هنري ليس كما تظن».

انتظرت للحظة ثم سألته: «ماذا تعني بذلك؟»

رد بنبرة أعلى: «أعني أنه ليس الشخص الذي تظنونه، لا أنت، ولا جوليان، ولا أي شخص آخر»، ارتشف مرة أخرى من الكولا

قبل أن يضيف: «لقد خدعني مدة طويلة، لكنني اكتشفت الحقيقة في النهاية».

قلت له بشك، بعد لحظة طويلة أخرى من الصمت: «نعم؟»
لكن شعرت أنه ربما من الأفضل ألا أعرف التفاصيل.

تأملت ملامحه المتجهمة ونظاراته التي انزلقت إلى طرف أنفه الصغير الحاد وبدايات الترهل الذي بدا واضحًا عند خط فكه. لم أستطع تخيل أي سر يستدعي كل هذه السرية والهمسات والتلميحات التي تحدث بها هنري وفرانسيس، أو يكون له هذا التأثير القوي على باني. كان باني الوحيد بيننا الذي لديه عشيقة، ومع ذلك كان يتميز بحساسية مفرطة وسرعة انفعال، وفي الأساس كان منافقًا. وهناك أمر آخر غريب بشأنه: كان هنري يقدق عليه المال بشكل متكرر، يدفع فواتيره، ويغطي نفقاته، تمامًا كما يفعل الزوج مع زوجته المبدرة. ربما كان باني جشعًا بما يكفي ليقبل بهذا، لكنه انزعج عندما اكتشف أن سخاء هنري كان مقترنًا بشروط.

لكن هل كان هذا هو جوهر الأمر؟ بدا لي أن هناك خيوطًا تقود إلى شيء أعمق، تذكرت تلك اللحظات التي رأيت فيها هنري وجوليان يتحدثان في الرواق خارج مكتب جوليان، كانت العلاقة بينهما تتجاوز بكثير مجرد علاقة بين طالب وأستاذه، كان هنري يوقر جوليان بصورة خارجة عن المألوف.

أخذت أتذكر ملاحظاتي حول هنري، إذا كان هناك جانب من شخصيته لم أكن أعرفه (وهذا ممكن)، فهل كان يمكن أن يكون معجبًا بشخصية باني؟ الجواب شبه المؤكد كان: لا.

لم يكن هنري يتصرف معه بإعجاب، بل كان يبدو كأنه بالكاد يتحمله، بل إن هنري بدا يشعر بالاشمئزاز من باني في كثير من الأحيان. بالنسبة إليّ، كان باني جذاباً من بعيد فقط، لكن عند التدقيق لم أرَ فيه سوى قمصان متسخة وعضلات مترهلة وجوارب قدرة، ربما كانت الفتيات يتجاهلن هذه العيوب، لكن بالنسبة إليّ كان يشبه مدرب كرة قدم عجوز.

شعرت فجأة بإرهاق شديد، فنهضت. حذق باني إلى وجهي فاغراً فمه.

قلت: «أشعر بالنعاس يا باني، ربما أراك غداً».

رمش في وجهي، وقال باقتضاب: «أمل ألا تصاب بهذه العدوى اللعينة يا رجل».

أجبت: «وأنا أيضاً»، وأنا أشعر بشفقة غير مبررة تجاهه.
«طاب مساؤك».

استيقظت في السادسة من صباح يوم الخميس، كنت أنوي استذكار بعض دروس اللغة اليونانية، ولكن واجهتني مشكلة إذ لم أجد معجم «ليدل وسكوت» في أي مكان، بحثت عنه بقلق حتى تذكرت فجأة أنني تركته في منزل هنري، كنت قد لاحظت غيابه وأنا أحزم أمتعتي، لم يكن مع كتبي الأخرى لسبب ما، بحثت عنه حينها بشكل سريع ثم تراجع، وقلت إنني سأعود لأخذه لاحقاً. وضعتني هذه المشكلة في مأزق حقيقي، فأولى محاضرات اليونانية يوم الإثنين، وقد كلفني جوليان بكمية كبيرة من الواجبات، وفوق ذلك كانت المكتبة لا تزال مغلقة، فقد كانوا

يغيرون نظام الفهرسة من نظام ديوي العشري إلى نظام مكتبة الكونجرس.

نزلت إلى الطابق السفلي واتصلت بمنزل هنري، ولكن لم أتلّق أي رد كما توقعت، كانت أجهزة التدفئة تئن بهدوء في الممر البارد بينما كنت أستمع إلى رنين الهاتف للمرة الثلاثين تقريباً، حتى خطرت لي فكرة مفاجئة: لماذا لا أذهب إلى نورث هامبدن وأحضر المعجم بنفسني؟

هنري ليس في المنزل -أو هكذا اعتقدت- والمفتاح بحوزتي، خمنت أن هنري في منزل فرانسيس الريفي وسيحتاج إلى وقت طويل حتى يصل إلى منزله، وإذا انطلقت بسرعة يمكنني أن أصل هناك في غضون خمس عشرة دقيقة، أغلقت الهاتف واندفعت خارج الباب.

بدت شقة هنري في ضوء الصباح البارد كأنها مهجورة، لم تكن سيارته مصفوفة أمام المنزل، ولا في أي مكان قريب منه حيث كان يصفها عادةً عندما لا يريد أن يعلم أحد بوجوده، ومع ذلك طرقت الباب للتأكد خشية أن أجد هنري واقفاً في الردهة الأمامية بروب حمامه يحدق إليّ، وعندما لم يأتِ أي رد، أدت المفتاح بحذر شديد ودخلت.

كانت الشقة في حالة من الفوضى؛ الكتب متناثرة، والأوراق مبعثرة، وفناجين القهوة وكؤوس النبيذ الفارغة ملقاة هنا وهناك، وطبقة خفيفة من الغبار تغطي كل شيء. كان النبيذ قد جف في قاع الكؤوس وترك وراءه بقعاً أرجوانية لزجة، كان المطبخ مليئاً بالأطباق المتسخة، وعبوة الحليب متروكة خارج الثلاجة وقد

فسدت. استغرقت ذلك كثيرًا فقد كان هنري عادةً شديد الحرص على النظافة، لم أره يومًا يخلع معطفه من دون أن يعلقه بعناية. في قاع أحد فناجين القهوة كانت هناك ذبابة ميتة طافية. شعرت بتوتر شديد كأني اقتحمت مسرح جريمة. فتشت الغرف بسرعة، وصدى خطواتي يرن بصوت عالٍ في الصمت الثقيل. لم يمر وقت طويل حتى عثرت على معجمي ملقى على طاولة في الردهة، في مكان واضح جدًا لدرجة أنه كان من المستحيل ألا أراه. تساءلت كيف لم أره من قبل؟ هل وجده هنري ووضعه هناك من أجلي؟ أمسكت به بسرعة، وشعرت بذعر يتصاعد داخلي، ورغبت في الرحيل بأسرع ما يمكن.

لكن قبل أن أخرج، لفتت انتباهي قصاصة ورق موضوعة على الطاولة، كان مكتوبة بخط هنري: TWA 219 795 X 4. وفي الأسفل كان هناك رقم هاتف مكتوب بخط يد فرانسيس، يتضمن رمز المنطقة 617. التقطت الورقة وتفحصتها بفضول.

كتب هنري تلك المعلومات على ظهر إشعار بإرجاع كتب مستعارة من المكتبة يعود تاريخه إلى ثلاثة أيام فقط. من دون أن أدرك السبب تمامًا، تركت معجمي جانبًا وأخذت الورقة معي إلى الهاتف في الغرفة الأمامية، كان رمز المنطقة يشير إلى ماساتشوستس وربما بوسطن. نظرت إلى ساعتني، ثم قررت الاتصال بالرقم محوّلًا رسوم المكالمات إلى مكتب الدكتور رولاند، بعد انتظار قصير رن الهاتف مرتين قبل أن يجيب تسجيل صوتي: «أنت تتصل بمكتب حمامة روبسون تافت في شارع فيدرال. تحويل المكالمات لم يبدأ بعد. يرجى الاتصال بين الساعة

التاسعة و...». أغلقت الخط ووقفت متأملًا الورقة، متذكرًا بقلق حديث باني عن حاجة هنري إلى محام.

ثم التقطت الهاتف مرة أخرى واتصلت بخدمة الدليل للحصول على رقم شركة الخطوط الجوية العابرة للعالم، قلت لموظفة الهاتف: «مرحبًا، معك السيد هنري وينتر، اتصل لتأكيد حجزتي». أجابتنى: «لحظة من فضلك يا سيد وينتر، ما رقم حجزك؟».

تلعثمت قليلًا محاولاً التفكير بسرعة وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهابًا، قلت: «آه، لا يبدو أن البيانات في متناول يدي الآن، ربما يمكنك فحسب...». ثم لاحظت الرقم مكتوبًا في الزاوية اليمنى العليا من الورقة. قلت: «آه، انتظري، أعتقد أنه 219».

وصلني صوت نقر على لوحة مفاتيح جهاز كمبيوتر. نقرت بقدمي بصبر نافد وألقيت نظرة سريعة من النافذة لتأكد أن سيارة هنري لم تعد، ثم تذكرت بصدمة أن سيارة هنري ليست معه، لم أعدها إليه بعد أن استعرتها يوم الأحد، ولا تزال متوقفة خلف ملاعب التنس في الكلية حيث تركتها.

كدت أقفل الخط في ردة فعل مذعورة، إذا لم تكن السيارة مع هنري فلن أتمكن من سماع صوته عند وصوله، وقد يكون في طريقه إلى هنا في أي لحظة، ولكن قبل أن أنهي المكالمة عاد صوت عاملة الهاتف.

قالت بنبرة مهنية: «كل شيء مؤكد يا سيد وينتر، ألم يخبرك الوكيل الذي باعك التذاكر أنه ليس من الضروري تأكيدها إذا كانت قد اشتريت قبل أقل من ثلاثة أيام؟»

قلت باستعجال: «لا»، كدت أنهي المكالمة، لكن ما قالتها أوقفني. «ثلاثة أيام!»

أوضحت: «نعم، عادة ما تؤكد الحجوزات في تاريخ الشراء، لا سيما إذا كانت التذاكر غير قابلة للاسترداد كما هي الحال هنا، كان ينبغي للوكيل أن يخبرك بذلك عندما اشتريت التذاكر يوم الثلاثاء».

تاريخ الشراء؟ غير قابلة للاسترداد؟ شعرت بالدهشة، وقلت: «هل يمكنني التأكد من أنني حصلت على المعلومات الصحيحة؟» أجابت بحيوية: «بالطبع يا سيد وينتر. رحلتك رقم 401 على متن شركة الخطوط الجوية العابرة للعالم، تغادر من بوسطن غدًا من مطار لوغان، البوابة 12، الساعة 8:45 مساءً، وتصل إلى بوينس آيرس، الأرجنتين، الساعة 6:01 صباحًا، مع توقف في دالاس، حجز أربع تذاكر بسعر سبعة وخمسة وتسعين دولارًا لكل منها ذهابًا فقط، دعنا نرى...». أدخلت بعض الأرقام الإضافية على الكمبيوتر «المجموع الكلي هو ثلاثة آلاف ومئة وثمانون دولارًا بالإضافة إلى الضريبة، وقد دفعت ببطاقة أمريكيان إكسبريس الخاصة بك، هل هذا صحيح؟».

بدأ رأسي يدور. بوينس آيرس! أربع تذاكر! ذهاب فقط! غدًا!

أنهت الموظفة المكالمة ببهجة: «أمل أن تحظى أنت وعائلتك برحلة ممتعة على متن الخطوط الجوية العابرة للعالم، يا سيد وينتر»، ثم أغلقت الخط.

وقفت هناك ممسكًا بالسماعة، حتى بدأت نغمة انقطاع الخط ترن في أذني.

فجأة خطرت في بالي فكرة. وضعت السماعة، وذهبت إلى غرفة النوم وفتحت الباب. اختفت الكتب التي كانت موضوعة على الرف، والخزانة التي كانت دائمًا مقفلة وجدتها مفتوحة وفارغة.

وقفت هناك لحظة، أتأمل الحروف الرومانية البارزة التي تشكل كلمة «نبي» المنقوشة على الجزء السفلي من الخزانة، ثم أسرع إلى غرفة النوم الإضافية. كانت الخزانات هناك أيضًا فارغة أيضًا، لا شيء سوى علاقات المعاطف تتأرجح على القضيب المعدني. استدرت بسرعة، وكدت أتعثر في حقيبتين ضخمتين من جلد الخنزير، مربوطتين بأشرطة من الجلد الأسود، وضعتا عند المدخل مباشرة. التقطت واحدة منهما، وكان وزنها ثقيلًا لدرجة أنني كدت أفقد توازني.

فكرت مصدومًا: «يا إلهي، ما الذي يخططون لفعله؟»

عدت إلى الممر، وضعت الورقة مكانها، وخرجت مسرعًا من الباب الأمامي ومعني كتابي.

بعد أن غادرت نورث هامبدن، مشيت ببطء مشوّش الفكر تتقاذفني الأفكار القلقة، شعرت بحاجة ملحة إلى فعل شيء ما، لكنني لم أكن أعرف ما هو. هل كان باني على علم بما يحدث؟ لسبب ما، لم أعتقد أنه يعرف، وفكرت أنه من الأفضل ألا أسأله. الأرجنتين... ما الذي ينتظرهم هناك؟ سهول شاسعة وخيول ورعاة بقر يرتدون قبعات عريضة تتدلى منها كرات

مزرکشة، وبورخيس الكاتب. سمعت أن بوتش كاسيدي⁽¹⁾ قد اختبأ هناك، إلى جانب الدكتور منجيله⁽²⁾، ومارتن بورمان⁽³⁾ ومجموعة من الشخصيات الأقل جاذبية.

تذكرت حديثاً لهنري ذات ليلة في منزل فرانسيس، وهو يروي قصة عن إحدى دول أمريكا الجنوبية، ربما كانت الأرجنتين، لست متأكداً! حاولت أن أتذكر، ذكر شيئاً عن رحلة مع والده لإدارة أعمال تتعلق بوالده، كما تحدث عن جزيرة تقع قبالة الساحل، لكن والد هنري كان كثير السفر. وحتى لو كان هناك رابط، فماذا يمكن أن يكون؟ أربع تذاكر؟ ذهاب فقط؟

(1) روبرت ليروي باركر (13 أبريل 1866 - 7 نوفمبر 1908)، المعروف باسم بوتش كاسيدي، كان سارقاً للقطارات والبنوك الأمريكية وزعيم عصابة من المجرمين معروفة باسم «وايلد بانش» في الغرب القديم. استمر في جرائمه لأكثر من عقد من الزمان مفلتاً من قبضة العدالة. عندما ضاق الخناق به فرّ إلى الأرجنتين ومنها إلى بوليفيا حيث قضى نحبه.

(2) جوزيف رودولف منجيله (16 مارس 1911 - 7 فبراير 1979) كان ضابطاً وطبيباً ألمانياً في قوات الحماية الخاصة خلال الحرب العالمية الثانية. لُقّب بـ«ملاك الموت»، فقد أجرى تجارب مميتة على السجناء في معسكر اعتقال أوشفيتز الثاني «بيركيناو»، بعد سقوط النظام النازي، هرب منغيل إلى الأرجنتين.

(3) مارتين بورمان من مواليد 17 يونيو 1900، وانتحر بتاريخ 2 مايو 1945، كان محارباً نازياً قديماً، من أكبر الموالين لأدولف هتلر وأقوى قادة الجيش الألماني، كما أنه تولى رئاسة الحزب النازي، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، جرت محاولات عديدة للبحث عنه وإخضاعه للمحاكمة في نورمبرغ بألمانيا وكان يعتقد أنه لم يمت، وقيل إنه شوهد في أوروبا وباراغواي وفي دول أخرى عديدة في أميركا الجنوبية، وفي مؤتمر صحفي عام 1967 أعلن عدد من المسؤولين أن بورمان لا يزال حياً، وهذا على الرغم من تأكيد الكثيرين مثل إريك كيمبكا، وأرتر واكسمان، على أنه توفي خلال محاولته عبور الحدود الروسية، وفي عام 1999 عُثر على بعض الأشلاء وأثبت جنائياً أنها تعود لبورمان.

وإذا كان جوليان على علم بالأمر فقد كان يعرف كل شيء عن هنري، أكثر مما نعرفه نحن، فلماذا كان يستفسر عن مكان الجميع بالأمس؟

شعرت بصداق في رأسي، عندما خرجت من الغابة القريبة من هامبدن إلى امتداد المروج المغطاة بالثلوج المتلاثلة في ضوء الصباح، رأيت خيوطاً مزدوجة من الدخان تتصاعد من المداخل التي اسودت بفعل مرور الزمن عند طرفي مبنى القاعة العامة. كان كل شيء هادئاً وبارداً، باستثناء شاحنة توصيل الحليب التي كانت متوقفة عند المدخل الخلفي، كان هناك رجلان صامتان يبدو عليهما النعاس يفرغان الصناديق ويتركانها تسقط بصوت مرتفع على الأسفلت.

كانت قاعات الطعام مفتوحة، مع أنه لم يكن هناك طلاب في تلك الساعة المبكرة من الصباح، كان عمال الكافيتريا ورجال الصيانة يتناولون وجبة الفطور قبل بدء نوبات عملهم. صعدت إلى الطابق العلوي، أحضرت لنفسني فنجاناً من القهوة وبيضتين مسلوقتين، وجلست بمفردي على طاولة بالقرب من النافذة في غرفة الطعام الرئيسة الفارغة.

بدأت محاضرات يوم الخميس، لكن محاضرتي الأولى مع جوليان كانت يوم الإثنين التالي. بعد الإفطار عدت إلى غرفتي وبدأت مذاكرة النوع الثاني من الأفعال المطلقة⁽¹⁾ غير المنتظمة.

(1) الأفعال المطلقة Aorist في اليونانية القديمة هي أفعال تشير إلى حدث في الماضي دون تحديد إن كان لحظياً أم مستمراً.

لم أغلق كتبي إلا في الرابعة بعد الظهر تقريباً، وعندما نظرت من نافذتي المطلّة على المرج، كان الضوء قد بدأ يتلاشى غرباً، وأشجار المُرّان والطقسوس تلقي بظلالها الطويلة على الثلج. بدا الأمر كأنني استيقظت للتو نعيماً ومشوشاً، لأكتشف أن الظلام قد حلَّ وأن النهار قد مضى.

في تلك الليلة كان هناك عشاء كبير بمناسبة «العودة إلى الكلية»؛ لحم بقر مشوي وفاصولياء خضراء مع اللوز وسوفليه الجبن وبعض أطباق العدس المتقنة للنباتيين. تناولت عشاءي وحدي على الطاولة نفسها التي جلست عليها في الصباح. كانت القاعات مزدحمة، الجميع يدخلون ويضحكون، وكراسٍ إضافية محشورة بجوار الطاولات المكتظة، وكان هناك أشخاص يحملون أطباقهم يتقلّون من مجموعة إلى أخرى لإلقاء التحية.

بالقرب مني كانت تجلس مجموعة من طلاب قسم الفن، وقد ميزتهم بسبب أظافرهم الملطخة بالحبر والطلاء المتناثر على ملابسهم، كان أحدهم يرسم على منديل بقلم أسود سميك، وآخر يأكل الأرز باستخدام فرشاتي رسم مقلوبتين كما لو كانت عيدان طعام، لم أرهم من قبل. وبينما كنت أحتسي قهوتي وأجول بعيني إلى غرفة الطعام، أدركت أن جورج لافورج كان محقّقاً، كنت منعزلاً عن بقية الكلية، مع أنني لم أكن مهتماً بالتقرب من أولئك الذين يستخدمون فرش الرسم كأدوات مائدة.

قريباً من طاولتي كان هناك ولدان يحاولان بجد جمع المال لتمويل حفل بيرة في أستوديو النحت، كانا يذكرانني بإنسان النياندرتال. في الواقع، كنت أعرفهما، كان من المستحيل أن ترتاد

هامبدن دون أن تعرفهما، أحدهما كان نجل رئيس شركة مشهورة بالتورط في الجريمة المنظمة في ويست كوست والآخر ابن منتج أفلام، كانا رئيس ونائب رئيس مجلس الطلاب، وقد استغلا مكاتب المجلس لتنظيم مسابقات الشرب ومسابقات القمصان المبللة وبطولات المصارعة في الوحل، كان كلاهما طويل القامة يفوق ستة أقدام بفك متدلٍ ووجه غير حليق. كانا متهورين وأبلهين، من النوع الذي يحب السهر بعد غروب الشمس في الربيع، فيفترش العشب بصدر عارٍ مع مبرد مليء بالمشروبات وجهاز تشغيل موسيقى يعمل من الفجر حتى الفسق. كان الجميع ينظر إليهما أنهما شخصان جيدان ومحترمان، خصوصًا في مواقف معينة كأن تعيرهما سيارتك لشراء البيرة للحفلة أو تبيعهما الماريجوانا أو مواقف أخرى مشابهة، لكن كلاهما -خصوصًا ابن منتج الأفلام- كان لديه بريق غير مريح في عينيه لم يعجبني على الإطلاق. لُقّب بـ«خنزير الحفلات»، ولم يكن هذا اللقب يدل عن محبة حقيقية، لكنه أحب هذا الاسم، وكان يفتخر به بشكل أحمق. لطالما كان يسكر ويفعل أمورًا طائشة مثل إشعال الحرائق أو حشر الطلاب الجدد في المداخلن أو رمي براميل البيرة من النوافذ.

في تلك اللحظة كان «خنزير الحفلات» (اسمه جود) وفرانك يشقان طريقهما نحوي. أمسك فرانك بعلبة طلاء مليئة بالعملات المعدنية والأوراق النقدية المجمعة، وقال: «مرحبًا يا رجل، هناك حفلة بيرة في استوديو النحت الليلة، هل ترغب في التبرع بشيء؟»

وضعت قهوتي جانباً، ودسست يدي في جيب سترتي ووجدت ربعاً معدنياً وبعض البنسات. قال جود بنبرة توحى بالتهديد: «أوه، هيا يا رجل. يمكنك أن تتبرع بأفضل من ذلك».

يا للهمج الرعاع⁽¹⁾! قلت: «آسف»، ثم نهضت عن المائدة، وتناولت معطفي وغادرت.

عدت إلى غرفتي وجلست إلى مكتبي وفتحت معجمي، لكنني لم أنظر إليه. تحدثت إلى الجدار: «الأرجنتين!»

في صباح يوم الجمعة ذهبت إلى محاضرة اللغة الفرنسية، كان كثير من الطلاب نائمين في الجزء الخلفي من القاعة، على الأرجح تحت تأثير حفلة الليلة السابقة. كانت رائحة المطهر ومنظف السبورة بالإضافة إلى إضاءة مصابيح الفلورسنت المتهتزة والتكرار الرتيب للأفعال الشرطية تشعرنني بالفتور والارتخاء، جلست على مكتبي أتأرجح قليلاً من فرط الضجر والإرهاق دون أن أشعر بمرور الوقت.

بعد انتهاء المحاضرة، نزلت إلى الطابق السفلي بحثاً عن هاتف عمومي، واتصلت برقم فرانسيس في الريف وتركته يرن مراراً بلا إجابة، عدت إلى منزل مونماوث متعثراً عبر الثلج،

(1) باليونانية في الأصل (Hoi Polloi) وتعني الكلمة حرفياً الكثيرين أو الدهماء أو الرعاع؛ طبقة عامة الشعب أو الجماهير في الإمبراطورية الرومانية، التي اندرج فيها أغلبية المواطنين الرومان الأحرار، ممن لم ينتموا إلى طبقة نبلاء الرومان، وفق ما يقره الرقيب الروماني. كان يعد معظم أصحاب المحال والحرف والعاملين المهرة أو غير المهرة أفراداً من طبقة الدهماء، وأعطيت الكلمة في اللغة الإنجليزية دلالة سلبية مغلوطه.

وذهبت إلى غرفتي وفكرت، أو بالأحرى لم أفكر، لكنني جلست على سريري وحدقت من النافذة إلى أشجار الطقسوس المكسوة بالجليد.

بعد مدة نهضت وتوجهت إلى مكتبي، لكنني لم أستطع المذاكرة أيضًا. قالت موظفة الطيران إن التذاكر ذهاب فقط، ولا يمكن استرداد قيمتها.

كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا في كاليفورنيا، وكان والداي على الأرجح في العمل. نزلت إلى الهاتف العمومي الذي بات أشبه بصديق قديم، واتصلت بشقة والدتي فرانسيس في بوسطن محولاً رسوم المكالمات إلى والدي.

قالت بلهجة دافئة عندما عرفت أخيراً من أنا: «أوه، عزيزي ريتشارد! كم لطيف أن تتصل بنا. اعتقدت أنك ستقضي الكريسماس معنا في نيويورك. أين أنت الآن؟ هل يمكنك إرسال أحدهم لاصطحابك؟».

«شكراً لك، أنا في هامبدن. هل فرانسيس موجود عندك؟»

ردت باستغراب: «أليس فرانسيس في الكلية؟».

ارتبكت فجأة وقلت: «آسف»، كان من الخطأ الاتصال هكذا من دون التخطيط لما سأقوله، «ربما أخطأت بالاتصال، اعتقدت أنه قال شيئاً عن الذهاب إلى بوسطن اليوم».

أجابت متفاجئة: «حسنًا يا عزيزي، إذا كان هنا، لم أره بعد. هل أنت متأكد أنك لا تريدني أن أرسل كريس ليأخذك؟».

قلت محاولاً إنهاء المكالمات: «لا، شكراً. أنا لست في بوسطن. أنا فقط...».

قاطعتني بقلق: «هل تتصل من الكلية؟ هل هناك خطب ما؟». أجبت بنبرة مطمئنة: «لا، لا شيء، كل شيء على ما يرام». فجأة، شعرت برغبة ملحة في إنهاء المكالمة، لكن الوقت كان قد فات على ذلك. حاولت أن أخلق عذراً: «جاء إلى غرفتي الليلة الماضية وهو نصف نائم، أقسم إنه قال إنه ذاهب إلى بوسطن... أوه! ها هو ذا هناك!» قلت ذلك باندفاع متمنياً ألا تلاحظ خدعتي.

سألت باستغراب: «أين يا عزيزي؟ هل تراه؟» قلت مرتبكاً: «نعم، أراه قادماً عبر المرح. شكراً جزيلاً، سيدتي أبيرناثي». كنت غير قادر على تذكر اسم زوجها الحالي. أجابت بلطف: «نادني أوليفيا، يا عزيزي. وامنح هذا الولد الشرير قبلة مني، واطلب منه أن يتصل بي يوم الأحد». ودعتها بسرعة، وأغلقت الهاتف وأنا أشعر بالتوتر والحرج وأتصبب عرقاً. كنت على وشك العودة إلى غرفتي عندما رأيت باني -الذي كان يرتدي بدلة جديدة أنيقة ويمضغ علكة بحماس- يتجه نحوي عبر القاعة الخلفية بخطوات واسعة.

كان آخر شخص أرغب في التحدث إليه، لكنني لم أستطع تفاديه.

قال: «مرحباً يا رجل، أين اختفى هنري؟»

ترددت قبل أن أجيب: «لا أعرف».

رد بعدوانية: «لا تتهرب، لم أره منذ يوم الاثنين ولا فرانسيس ولا التوأمين أيضاً. مع من كنت تتحدث على الهاتف؟».

لم أعرف ماذا أقول، أجبت: «فرانسيس، كنت أتحدث مع فرانسيس».

قال بتشكك: «همم»، اتكأ إلى الخلف ووضع يديه في جيبه.
«من أين كان يتصل؟»

«هامبدن على ما أظن».

واصل باني استجوابي: «ليس من مكان أبعد؟»
وخزنتي رقبتني، ماذا يعرف باني عن هذا الأمر؟
«لا، ليس على حد علمي».

«هل أخبرك هنري بأي شيء عن مغادرة البلدة؟»
«لا، لماذا تسأل؟»

صمت قليلاً ثم قال: «لم يكن ثمة ضوء واحد في منزله في
الليالي الماضية، واختفت سيارته. ليست متوقفة في أي مكان في
شارع ووتر».

ضحكتُ بشكل غير مبرر، مشيت إلى الباب الخلفي الذي كان
يحوي نافذة تواجه ساحة انتظار السيارات خلف ملاعب التنس،
كانت سيارة هنري هناك في المكان الذي أوقفتها فيه واضحة
كالشمس، أشرت إليها، وقلت: «لكن سيارته هنا، انظروا»
تبيس فك باني، وأصبح وجهه غائماً مستغرقاً في التفكير، ثم
قال: «هذا غريب».
«لماذا؟»

ظهرت فقاعة وردية من بين شفتيه، وتضخمت ببطء، ثم
انفجرت مصدرة صوت فرقعة. قال بمرح: «لا يوجد سبب»،
واستأنف مضغ علكته.

سألته: «لماذا قد يغادرون البلدة؟».

مد يده إلى أعلى وأبعد الشعر عن عينيه، وقال بمرح:
«سُتُفاجأ، ماذا تفعل الآن يا رجل؟»

صعدنا معاً إلى غرفتي، وفي الطريق توقف باني أمام الثلاجة،
فتحها ونظر داخلها بعناية. ثم قال مازحاً: «هل هذه لك أيها
العجوز؟»
«لا».

مد يده إلى الداخل وأخرج كعكة جبن متجمدة، وعليها
ملاحظة مكتوبة على علبة الكعكة: «من فضلك لا تسرق هذه،
اعتمد على المساعدات المالية. جيني دريكسلر».
نظر باني حوله بحذر: «أنت الكعكة في الوقت المناسب، هل
هناك أحد قادم؟»
«لا».

وضع الكعكة تحت معطفه وهو يصفر، ومشى معي إلى غرفتي.
بمجرد دخوله، بصق علسته وألصقها على الحافة الداخلية
لسلة القمامة بخفة، كما لو كان يأمل ألا أراه يفعل ذلك، ثم
جلس وبدأ بتناول كعكة الجبن مباشرة من العلبة مستخدماً ملعقة
وجدها فوق طاولتي.
«أوه، طعمها مريع. هل تريد بعضاً منها؟»
«لا، شكرًا».

لعق الملعقة بحرص: «مشكلتها أنها حامضة جداً. وليس فيها
ما يكفي من الجبن القشدي». ثم صمت قليلاً قبل أن يسألني:
«لقد أمضيت وقتاً كثيراً مع هنري الشهر الماضي، أليس كذلك؟»
أجبت بحذر: «نعم، يمكنني قول ذلك».

«هل تحدثتما كثيراً».

«إلى حد ما».

سألني وهو ينظر إليّ باهتمام: «هل أخبرك عن رحلتنا إلى روما؟»

«ليس كثيراً».

«هل قال شيئاً عن مغادرته مبكراً؟»

فكرت متنفساً الصعداء: أخيراً سنصل إلى لب هذا الموضوع. قلت: «لا، لم يخبرني بالكثير»، كانت هذه هي الحقيقة. أكملت: «علمت أنه غادر روما عندما عاد، لكنني لم أعلم أنك لا تزال هناك، وعندما سألته عنك ذات ليلة أخبرني أنك ما زلت في روما، هذا كل شيء».

أخذ باني قزمة كسولة من كعكة الجبن: «هل أخبرك لماذا غادر؟»

أجبت: «لا».

وعندما لم يكمل باني حديثه، أضفت: «كان ذلك بسبب المال، صحيح؟»

«هل هذا ما قاله لك؟».

أجبت: «لا».

ولأنه غرق في الصمت من جديد أضفت: «لكنه قال أنك تواجه بعض الصعوبات المالية، وأنه يتعين عليه دفع إيجارك وما شابه، هل هذا صحيح؟».

بينما كان باني يمضغ، أشار بيده بإيماءة تدل على الرفض وقال: «هذا هو هنري. نحب، لكن بيني وبينك، أعتقد أن لديه بعض الهواجس بشأن المال».

سألته: «ماذا تعني بذلك؟»

تناول باني قضمة أخرى من كعكة الجبن، واستغرق لحظة قبل أن يرد. قال أخيراً: «لم أرَ أحداً يشتكي بقدر ما يفعل هنري من مساعدة الأصدقاء. بصراحة، هنري يخشى أن يستغله الناس». سألته متعجباً: «كيف ذلك؟».

بلع باني ما في فمه وأجاب: «ربما قال له أحدهم عندما كان صغيراً: يا بني، لديك مال كثير، وسيأتي اليوم الذي يحاول فيه الناس سلبه منك».

تدلت خصلة من شعره على إحدى عينيه مثل قبطان بحر عجوز، حذق إلى وجهي بدهاء بالعين الأخرى. تابع قائلاً: «الأمر لا يتعلق بالمال في حد ذاته، هنري ليس بحاجة إلى المال، فلديه ما يكفي. المسألة بالنسبة إليه هي أن يتأكد من أن الناس يحبونه لشخصه وليس لما يملكه».

أدهشني هذا التفسير لأنه كان مغايراً تماماً لما كنت أعرفه عن كرم هنري السخي والمتكرر وفقاً لمعايري الحسابية. قلت أخيراً: «إذن الأمر لا يتعلق بالمال؟» «لا».

«إذن ما الأمر، إذا كنت لا تمنع سؤالني؟».

انحنى باني إلى الأمام ووجهه شارد الفكر كأن شيئاً عميقاً على وشك أن يُكشف، بدا كأنه سيُبوح بالحقيقة، ولكن بدلاً من ذلك تتحنح وسألني إن كان بإمكانني أن أعد له فنجاناً من القهوة.

في تلك الليلة، بينما كنت مستلقياً في سريري أقرأ اليونانية، تذكرت فجأة شيئاً كوميض برق في عقلي. الأرجنتين. لم تفقد هذه الكلمة سطوتها في إثارة قلقي، بل أخذت حياة خاصة بها في ذهني، كان هناك مقطع «أر» الخشن في بدايتها، الذي استدعى إلى ذهني الذهب والأصنام والمدن المفقودة في الأدغال، ثم المقطع «جن» الصامت والمظلم، والمقطع «تين» الفضولي الذي يلمع في نهايتها، وعلى الرغم من أنها مجرد أفكار عابثة، فإن الاسم كان بالنسبة إليّ أحد الحقائق القليلة التي يمكنني التمسك بها، بدا كأنه يحمل شيفرة أو دليلاً خفياً.

لكن ما أقلقني لم يكن مجرد ذكرى الأرجنتين، بل إدراكي المفاجئ للوقت عندما نظرت إلى ساعتَي؛ التاسعة وعشرين دقيقة.

كانوا جميعاً الآن على متن الطائرة، متجهين نحو الأرجنتين الغامضة التي نسجتها مخيلتي. وضعت الكتاب جانباً وجلست بجوار النافذة، وظللت مستيقظاً طوال الليل عاجزاً عن مواصلة الدراسة.

انقضت عطلة نهاية الأسبوع كعادتها في عزلة هادئة مليئة بدراسة اللغة اليونانية، وتناول الوجبات وحيداً في قاعة الطعام، وحيرة متجددة تستبد بي كلما عدت إلى غرفتي. كنت أتألم، وافتقدت رفاقي أكثر مما كنت أجروء على الاعتراف به، وفوق ذلك لاحظت أن باني كان يتصرف بغرابة؛ رأيت عدة مرات خلال عطلة نهاية الأسبوع برفقة ماريون وصديقاتها، يتحدث بزهو،

وهنَّ ينظرنَّ إليه بإعجابٍ سخيفٍ. معظمهن كن يدرسن في كلية التعليم الابتدائي مثل ماريون، وأفترض أنهن كن يعتقدن أن باني عبقري لمجرد أنه يدرس اليونانية القديمة ويرتدي نظارة ذات إطارٍ سلكي. ذات مرة رأيته مع صديقه القديم كلوك رايبورن، لكنني لم أكن أعرف كلوك جيداً وترددت في التوقف لتحيته. كنت أنتظر حصة اللغة اليونانية يوم الاثنين بشغفٍ كبير. استيقظت في السادسة صباحاً، ولأنني لم أرغب في الوصول مبكراً جداً، جلست في غرفتي مرتدياً ملابسٍ بالكامل بعض الوقت، أشعر بشيء من الإثارة. وعندما نظرت إلى ساعتَي أدركت أنني إذا لم أسرع فسوف أتأخر، أمسكت بكتبي وخرجت مسرعاً، وفي منتصف الطريق إلى قاعة المحاضرات أدركت أنني كنت أركض، فأجبرت نفسي على التباطؤ والمشى، التقطت أنفاسي وأنا أفتح الباب الخلفي.

صعدت الدرج ببطء، قدماي تتحركان بلا وعي، وعقلي فارغ بشكل غريب، مثلما كنت أشعر صباح الكريسماس عندما كنت طفلاً وأنا أسير في الممر بعد ليلة من الترقب والحماس نحو الباب المغلق الذي خلفه هداياي، فقد كنت أشعر أنني فقدت رغبتني في الهدايا، وأن الكريسماس تحول إلى يومٍ عادي!

كانوا جميعهم هناك؛ التوأمان جالسان بوقار بجوار النافذة، وفرانسيس يدير ظهره لي، وهنري بجانبه، وباني في الجهة المقابلة من الطاولة مائلاً إلى الخلف في كرسيه يسرد قصة ما، نظر إلى هنري وفرانسيس وقال: «افهما هذا»، ثم أدار وجهه نحو التوأمين لينظر إليهما، كانت أعين الجميع مركزة عليه، ولم

يلاحظ أحد دخولي، وتابع: «قال المأمور: «يا بني، قرار عفوك لم يصل من الحاكم، وقد تجاوزنا الخامسة بالفعل. هل لديك كلمات أخيرة؟»، فكر الرجل للحظة، وبينما كانوا يأخذونه إلى غرفة الإعدام».

رفع باني قلمه الرصاص إلى عينيه، متأملاً للحظة وأكمل: «نظر من فوق كتفه وقال: حسناً، من المؤكد أن الحاكم فلان قد خسر صوتي في الانتخابات القادمة!».

ضحك باني متكئاً على كرسيه أكثر، ثم نظر إلى الأعلى ورآني واقفاً في المدخل كالأبله، فقال وهو يخفض الأرجل الأمامية للكرسي الخشبي مصدراً صوتاً قوياً: «أوه، ادخل، ادخل».

رفع التوأمان رأسيهما مذهولين كزوج من الغزلان، كان هنري هادئاً كالبوذا على الرغم من أنك لو دقتت النظر لرأيت توتراً بسيطاً في فكه، في حين كان فرانسيس شاحباً جداً.

قال باني بلطف وهو يتكئ على ظهر كرسيه: «نحن نتبادل بعض النكات قبل الدرس». أزاح شعره عن عينيه، وأكمل: «حسناً، هاك نكتة أخرى. ارتكب سميث وجونز عملية سطو مسلح، وحكم عليهما بالإعدام. بالطبع مرا بكل مستويات المحاكمة كالعادة، ولكن صدر الحكم النهائي على سميث أولاً، وقرروا تنفيذ حكم الإعدام بالكرسي الكهربائي». ارتسم على وجهه تعبير فلسفي مستسلم، ثم غمز لي بشكل غير متوقع، وتابع: «لذا سمحوا لجونز بالخروج من زنزانته ليشهد عملية الإعدام، كان يراقبهم وهم يربطون صديقه» - رأيت تشارلز يعض على شفته السفلى بعينين خاويتين- «ثم جاء المأمور، وقال: هل سمعت شيئاً عن

استئنافك يا جونز؟ فرد جونز: لا أيها المأمور. فقال المأمور وهو ينظر إلى ساعته: حسناً، إذن لا داعي للعودة إلى زنزانتك، أليس كذلك؟». ألقى باني رأسه إلى الخلف وضحك بسرور، لكن لم يبتسم أحد آخر. وعندما بدأ باني بسرد نكتة جديدة: «ثم هناك تلك النكتة المتعلقة بالغرب القديم، عندما كانوا لا يزالون يشنقون الناس...»، اقتربت كاميللا من حافة النافذة وابتسمت لي بعصبية، نهضت وجلست بينها وبين تشارلز. منحتني قبلة سريعة على خدي وقالت: «كيف حالك؟ هل تساءلت أين كنا؟».

قال تشارلز بهدوء وهو يستدير نحوي ويضع كاحله فوق ركبته: «لا أصدق أننا لم نرك». كانت قدمه ترتجف بشدة كأنها تتحرك مستقلة عنه، فوضع يده عليها ليهدئها. «لقد تعرضنا لحادثة فظيعة تتعلق بالشقة».

لم أعرف ما الذي كنت أتوقع سماعه منهما، لكن هذا كان خارج كل توقعاتي، قلت بذهول: «ماذا حدث؟»
«نسينا المفتاح في فرجينيا».

«اضطرت خالتي ماري جراي أن تقود السيارة إلى رونوك للوصول إلى شركة فيدرال إكسبريس لترسل لنا المفتاح».

قلت بنبرة مرتابة: «ألم يكن هناك شخص يستأجر الشقة منكما؟»

«لقد غادر منذ أسبوع. طلبنا منه مثل البله أن يرسل المفتاح بالبريد. مالكة المنزل في فلوريدا. كنا في الريف عند فرانسيس طوال الوقت».

«محاصران مثل الفئران».

قال تشارلز: «قادنا فرانسيس إلى هناك وعلى بعد ميلين من المنزل، حدث شيء فظيع للسيارة، تصاعد منها دخان أسود، وأحدثت ضوضاء مرعبة... ثم انغrustت السيارة في خندق».

كان كلاهما يتحدث بسرعة كبيرة، وفي تلك اللحظة ارتفع صوت بانى بقوة فوقهما: «...الآن كان لدى هذا القاضي نظام معين يحب اتباعه. كان يشنق سارق ماشية يوم الاثنين، ومحتالاً يوم الثلاثاء، وقاتلاً يوم الأربعاء...».

أكمل تشارلز: «وهكذا كان علينا أن نسير إلى منزل فرانسيس، ظللنا عدة أيام نحاول الاتصال بهنري ليأتي وينقذنا، لكنه لم يكن يرد على الهاتف. أنت تعلم مدى صعوبة الوصول إليه».

«لم يكن هناك طعام في منزل فرانسيس باستثناء بعض علب الزيتون الأسود وعلبة بسكويت».

«نعم، أكلنا الزيتون والبسكويت».

تساءلت فجأة هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ شعرت ببعض الارتياح مدة وجيزة، يا إلهي كم كنت سخيلاً ولكن بعد ذلك تذكرت الطريقة التي كانت تبدو بها شقة هنري وحقائب السفر عند الباب.

واصل بانى إلقاء نكته مقترئاً من النهاية الكبرى: «لذا قال القاضي: يا بني، إنه يوم جمعة، وأود أن أنهى الأمر وأشنقك اليوم، لكن عليّ أن أنتظر حتى يوم الثلاثاء القادم لأن...».

قالت كاميللا: «لم يكن هناك حليب حتى، كان علينا أن نخلط البسكويت بالماء».

عندها سمعت صوت نحنة خفيفة، نظرت فرأيت جوليان يدخل ويفلق الباب خلفه.

قال وسط الصمت المفاجئ الذي عمَّ الغرفة: «يا إلهي، أيها العاقون، أين كنتم جميعاً؟»

سعل تشارلز وعيناه مثبتتان على نقطة بعيدة في الغرفة، وبدأ يروي بشكل آلي قصة المفتاح الضائع والسيارة العالقة في الخندق، والوجبة الغريبة من الزيتون والبسكويت. كان ضوء الشمس الشتوي يتسلل عبر النافذة ليعطي كل شيء مظهرًا جامدًا وتفصيليًا بدقة، بدا كل شيء غير حقيقي، كأنني كنت أشاهد فيلمًا معقدًا دخلت السينما عند منتصفه ولم أفهم تمامًا ما يدور فيه، لسبب ما أزعجتني نكات باني عن السجن، على الرغم من أنني أتذكر أنه كان دائمًا يروي نكاتًا مشابهة في الخريف. كانت تلك النكات مثل الآن تُقابل بصمت متوتر، لكنها كانت في النهاية نكاتًا سخيفة وسطحية. كنت أفترض دائمًا أن لديه كتابًا قديمًا عن نكات المحامين في غرفته، ربما على رف كتبه بجانب سيرة بوب هوب الذاتية وروايات فو مانشو وكتاب «رجال الفكر والأفعال» (وهو ما تبين صحته في النهاية).

قال جوليان متعجبًا وربما بشعور من الإهانة عندما أنهى تشارلز قصته: «لماذا لم تتصلوا بي؟»

نظر التوأمان إليه بوجهين جامدين. قالت كاميللا: «لم يخطر ببالنا».

ضحك جوليان واقتبس مقولة مأثورة لـ«زينوفون»⁽¹⁾، الذي كان يتحدث حرفياً عن الخيام والجنود والأعداء القريبين، لكن الاقتباس كان يحمل تلميحاً ضمنياً بأن في الأوقات العصيبة من الأفضل أن يلجأ المرء إلى شعبه طلباً للمساعدة.

عدتُ من المحاضرة إلى المنزل وحدي، وأنا غارق في حالة من الحيرة والاضطراب، كانت أفكارى متضاربة ومزعجة إلى حد جعلني عاجزاً عن الفهم أو التفسير، فقط أتساءل بغباء عما يحدث حولي حقاً. لم يكن لديّ محاضرات أخرى بقية اليوم، لكن فكرة العودة إلى غرفتي كانت لا تُطاق.

قررت الذهاب إلى القاعة العامة، حيث جلست على كرسي بجوار النافذة لما يقرب من خمس وأربعين دقيقة، فكرت: هل أذهب إلى المكتبة؟ أم أستقل سيارة هنري التي ما زالت بحوزتي وأخرج في جولة؟ ربما لأرى إن كان هناك عرض سينمائي نهاري في البلدة؟ أم أطلب من جودي بوفي بعض الحبوب المهدئة؟ أخيراً قررت أن الحبوب المهدئة ستكون ضرورية قبل اتخاذ أي خطوة أخرى، توجهت إلى منزل مونماوث وصعدت إلى غرفة جودي، لأجد ملاحظة مكتوبة بقلم ذهبي على الباب:

«بيث، تعالي إلى مانشستر لتناول الغداء معي ومع تريسي؟»

(1) فيلسوف يوناني قديم ومؤرخ وجندي ومرتزق، كان أحد طلاب سقراط. عرف زينوفون بتاريخه لزمانه المعاصر في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد، حيث يروي عمله «هيلينيك» السنوات السبع الأخيرة للحرب البيلوبونيسية وآثارها، ويعتبر استمراراً لتاريخ ثوقيديدس للحرب البيلوبونيسية.

أنا في متجر الأزياء حتى الحادية عشرة. ج».

وقفت أحرق إلى باب جودي الذي كان مزيناً بصور حوادث السيارات وعناوين شنيعة مقصوصة من مجلة ويكلي وورلد نيوز، ودمية باربي عارية تتدلى من مقبض الباب، كانت الساعة الآن الواحدة ظهراً. عدت إلى غرفتي التي كان بابها ناصع البياض وخالياً من أي زينة، على عكس الأبواب الأخرى في الجناح التي كانت مغطاة بدعايات دينية وملصقات فرقة «فلاش تونز» واقتباسات انتحارية لأنطونين أرتو⁽¹⁾، وتساءلت كيف تمكن هؤلاء الناس من تعليق كل هذا الهراء على أبوابهم بهذه السرعة ولماذا فعلوا ذلك أصلاً.

استلقيت على سريرى وحدقت إلى السقف شارد الذهن أفكر في موعد عودة جودي، وفي ما يمكنني فعله في أثناء ذلك. سمعت طرقاً على الباب، نهضت وفتحته لأجد هنري واقفاً أمامي يحمل كتاباً تحت إبطه، أفسحت له المجال ليدخل، وحدقت إليه دون أن أقول شيئاً، نظر إليّ نظرة ثابتة بعينين هادئتين، بلا اكتراث. قال: «مرحباً». ساد صمت قصير آخر أطول من الأول.

قلت بعد مدة: «مرحباً».

«كيف حالك؟»

«بخير».

(1) أنطونين أرتو: شاعر سريالي وممثل وناقد وكاتب ومخرج مسرحي فرنسي، ساهم في بلورة ما يعرف بمسرح القسوة في كتابة الخاص «المسرح وقرينه» الذي يعد المرجع الأول لتوجهه المسرحي، يعد أرتو امتداداً طبيعياً لاتجاهات رفض الواقعية والتمرد عليها، ولكنه ذهب إلى مدى أبعد من الذي ذهب إليه أصحاب اتجاهات مناهضة الواقعية.

«هذا جيد».

ساد صمت طويل آخر.

قال بأدب: «هل ستفعل أي شيء بعد ظهر اليوم؟»

قلت مستغرياً: «لا».

«هل ترغب في الذهاب معي في رحلة بالسيارة؟».

أحضرت معطفي وخرجنا معاً.

بعد أن غادرنا بلدة هامبدن، انعطفنا عن الطريق السريع الرئيسي إلى طريق مرصوف بالحصى لم أره من قبل.

سألت بقلق: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

فأجاب هنري بهدوء: «فكرت أن نلقي نظرة على أثاث مستعمل معروض للبيع في طريق أولد كواري».

فوجئت كثيراً عندما انعطفنا أخيراً من الطريق الرئيسي بعد نحو ساعة، وتوقفنا أمام منزل ضخم تعلوه لافتة كتب عليها «أثاث للبيع». على الرغم من روعة المنزل فإن المعروض للبيع لم يكن كثيراً؛ بيانو ضخم مغطى بالفضيات وأوانٍ زجاجية متشققة وساعة ذات صندوق طويل الأجداد وعدة صناديق مليئة بأسطوانات التسجيل وأدوات مطبخ وألعاب وبعض الأثاث المنجد تبدو عليه آثار خدوش قشط ما، وكلها معروضة خارجاً في المرأب.

تصفحت مجموعة من النوتات الموسيقية القديمة، فيما أراقب هنري بزاوية عيني. ألقى نظرة غير مكترثة إلى الفضيات، ثم عزف مقطوعة عشوائية من «الحلم» لشوبان على البيانو بيد واحدة، ثم فتح ساعة الجد وألقى نظرة إلى التروس، ثم أجرى

محادثة طويلة مع ابنة أخت المالك التي كانت قد نزلت للتو من المنزل الضخم حول الوقت المناسب لزرع زهور التوليب، بعد أن راجعت النوتات الموسيقية مرتين، انتقلت إلى الأواني الزجاجية ثم الأسطوانات الموسيقية، اشترى هنري مجرفة حديقة بخمسة وعشرين سنتاً.

قال هنري في طريق العودة: «أعتذر لأنني أزعجتك وأحضرتك كل هذه المسافة».

أجبتة وأنا أجلس في مقعدي قريباً من الباب: «لا عليك، لا بأس».

ثم قال: «أشعر ببعض الجوع. هل أنت جائع؟ هل ترغب في تناول شيء ما؟».

توقفنا عند مطعم على أطراف هامبدن، كان شبه مهجور في هذه الساعة المبكرة من المساء.

طلب هنري وجبة كبيرة؛ حساء البازلاء ولحم بقر مشوي وسلطة وبطاطس مهروسة بالمرق وقهوة وفطيرة. تناول طعامه بصمت وبطريقة منظمة مستمتعاً بكل لقمة. أما أنا فكنت أتناول عجة البيض التي طلبتها بعصبية، ولم أستطع منع نفسي من مراقبته. شعرت كأنني في عربة طعام في القطار، وقد جلست بجوار مسافر غريب، لطيف لكنه صامت، لا يتحدث لغتي، لكنه راضٍ تماماً عن مشاركتي العشاء كأنه يعرفني منذ زمن طويل. بعد أن أنهى طعامه، أخرج علبة سجائر من جيب قميصه (كان يدخل سجائر لاكي سترايك، وكلما فكرت في هنري، تجسدت أمامي علامة التصويب الحمراء الصغيرة فوق قلبه). قدم لي

سيجارة، وهو يهز العلبة ليخرج منها سيجارتين، رفع أحد حاجبيه فهزرت رأسي رافضاً. أشعل واحدة ثم أخرى، ونظر إليّ فيما كنا نتناول فنجان القهوة الثاني.

سألني فجأة: «لماذا كنت هادئاً جداً بعد ظهر اليوم؟»

هزرت كتفي بلا إجابة.

«ألا تريد أن تعرف عن رحلتنا إلى الأرجنتين؟»

وضعت فنجانني في الصحن ونظرت إليه بترقب، ثم ضحكت وقلت: «نعم، بالطبع، أخبرني».

«ألا تتساءل كيف عرفت؟ أعني كيف عرفتُ أنك تعرف؟»

لم يخطر هذا السؤال ببالي، وأعتقد أنه رأى ذلك في وجهي لأنه ضحك في تلك اللحظة، وقال: «إنه ليس لغزاً. عندما اتصلت لإلغاء الحجوزات - لم يكن من السهل إلغاؤها بالطبع، فالتذاكر غير قابلة للاسترداد، لكننا تمكنا من ترتيب الأمر في النهاية - فوجئت عندما أخبروني أنني أكدت الحجز في اليوم السابق».

سألته: «وكيف عرفت أنه أنا؟».

أجاب ببساطة: «من يمكن أن يكون غيرك؟ كان معك مفتاح الشقة». وعندما حاولت مقاطعته، أكمل: «أعلم، أعلم. لقد تركت لك المفتاح عمداً. كان من الممكن أن يسهل الأمور لاحقاً لأسباب عديدة، لكنك وصلت عن طريق المصادفة في وقت غير مناسب. لم أغادر الشقة إلا بضع ساعات، ولم أتوقع قط أنك ستأتي بين منتصف الليل والسابعة صباحاً. لا بد أنك وصلت بعد مغادرتي بقليل، لو جئت بعد ساعة لكان كل شيء قد انتهى».

أخذ هنري رشفة من قهوته، كانت هناك أسئلة كثيرة تدور في ذهني، وكان من الصعب ترتيبها في أي نظام متماسك.

سألته أخيراً: «لماذا تركت لي المفتاح؟»

هز كتفيه وقال: «كنت واثقاً أنك لن تستخدمه إلا إذا اضطررت إلى ذلك. لو كنا قد سافرنا بالفعل، لكان على أحدهم أن يفتح الشقة لمالكة المنزل، وكنت سأرسل لك تعليمات حول من عليك الاتصال به وكيفية التصرف في الأغراض التي تركتها، لكنني نسيت أمر معجم «ليدل وسكوت». كنت أعلم أنك تركته هناك، لكنني كنت مستعجلاً ولم أظن أنك ستعود في منتصف الليل والضباب⁽¹⁾ لتأخذه، كان هذا سوء تقدير مني، فأنت تعاني صعوبة في النوم مثلي».

«اسمح لي بأن أسأل عن هذا بصراحة، ألم تذهبوا إلى الأرجنتين؟».

ضحك هنري بسخرية وأشار للنادل ليحضر الفاتورة، ثم قال: «بالطبع لا، كيف سأكون هنا لو سافرنا؟»

بعد أن دفع الفاتورة سألني إن كنت أرغب في الذهاب إلى منزل فرانسيس، وقال: «لا أظن أنه هناك».

سألته مستغرباً: «فلماذا نذهب إذن؟».

أجاب: «لأن شقتي في حالة فوضى، وأريد أن أمكث عنده حتى أتمكن من إحضار أحدهم لتنظيفها. هل تعرف خادمة جيدة؟ قال فرانسيس إن آخر خادمة استأجرها من مكتب التوظيف في

(1) بالألمانية في الأصل.

البلدة سرقت زجاجتين من النبيذ وخمسين دولاراً من درج خزانة ملايسه».

في طريقنا إلى نورث هامبدن، كان كل ما أستطيع فعله لتجنب إغراق هنري بالأسئلة هو التزام الصمت حتى وصولنا .
قال وهو يفتح الباب الأمامي: «أنا متأكد أنه ليس هنا».
«أين هو؟»

«اصطحبه باني إلى مانشستر لتناول العشاء، ثم أعتقد أنهما سيذهبان بعدها لمشاهدة فيلم أراد باني مشاهدته. هل ترغب في بعض القهوة؟».

كانت شقة فرانسيس في مبنى قبيح يعود إلى سبعينيات القرن الماضي، مملوك للكلية. كانت أكثر اتساعاً وخصوصية من البيوت القديمة ذات الأرضيات الخشبية المصنوعة من البلوط التي كنا نعيش فيها داخل الحرم الجامعي، لذلك كان الطلب عليها كبيراً، لكن الأرضيات كانت مغطاة بالمشمع، والممرات سيئة الإضاءة، والتركيبات حديثة لكنها رخيصة، شبيهة بتلك التي نجدها في النزل السياحية.

يبدو أن فرانسيس لم يكن يمانع ذلك كثيراً، فرش شقته ببعض الأثاث الشخصي الذي أحضره من منزله الريفي، لكنه اختاره بلا مبالاة، كان مزيجاً غير متناسق من التصاميم والمفروشات والأخشاب الفاتحة والداكنة. خلال بحثنا عن القهوة أو الشاي، لم نجد سوى بضع زجاجات من السكوتش وبعض مياه فيشي. قال هنري وهو ينظر إلى خزانة أخرى فارغة: «يبدو أنه بحاجة إلى الذهاب إلى محل البقالة»، أحضرت بعض الثلج وكأسين، وأخذنا

زجاجة الويسكي الإسكتلندي لم يتبق سوى خمسها إلى غرفة الجلوس ذات الإضاءة الخافتة، كانت أحذيتنا تنقر على المسمع الأبيض بينما نسير.

بعد أن جلسنا وصب هنري لنا كأسين، قلت: «إذا، لم تسافروا».

«لا».

«ولم لا؟»

تنهد هنري، وأخرج سيجارة من جيب قميصه وأشعلها، تحدث فيما توهجت شعلة عود الثقاب في الظلام: «المال! ليس لديّ وديعة مثل فرانسيس كما ترى، فقط بدل عائلي شهري. إنه أكثر بكثير مما أحتاج إليه عمومًا للعيش، وقد أودعت معظمه لسنوات في حساب توفير، لكن بانني يكاد يستنزفه بالكامل. لم يكن بإمكانني جمع أكثر من ثلاثين ألف دولار حتى لو باعت سيارتي».

«ثلاثون ألف دولار مبلغ كبير».

«نعم».

«لماذا تحتاج إلى هذا القدر؟»

زفر هنري حلقة دخان ارتحل نصفها إلى دائرة الضوء الصفراء أسفل المصباح، ونصفها الآخر تلاشى في الظلام المحيط.

قال: «لأننا كنا نخطط لعدم العودة أبدًا، لا أحد منا يملك تأشيرة عمل، وما نأخذه كان يجب أن يكفينا نحن الأربعة مدة طويلة»، ثم رفع صوته قليلًا كأنه يخشى أن أقاطعه على الرغم من أنني كنت مذهولًا لدرجة أنني لم أستطع التحدث: «بالمناسبة، بوينس آيرس لم تكن وجهتنا النهائية، كانت مجرد محطة توقف».

«ماذا؟».

«لو كنا نملك المال الكافي لكننا سافرنا إلى باريس أو لندن، مدينة يسهل منها الانتقال إلى أماكن مختلفة، ومن هناك إلى أمستردام، وأخيرًا إلى أمريكا الجنوبية. بهذه الطريقة كان من الصعب تتبعنا. لكن لم يكن لدينا المال الكافي، لذا كان البديل هو الأرجنتين، ومن هناك الانتقال بطريقة غير مباشرة إلى أوروغواي، مكان خطر وغير مستقر ولكنه مناسب لنا. والذي لديه بعض الاهتمامات العقارية هناك، ولم نكن لنواجه مشكلة في العثور على مكان للعيش».

سألته: «والدك؟ هل كان على علم بهذا؟»

«كان سيعرف في النهاية، في الحقيقة كنت امل أن أطلب منك الاتصال به عندما نصل إلى هناك. لو حدث شيء غير متوقع لكان بإمكانه مساعدتنا وربما إخراجنا من البلاد إذا لزم الأمر، يعرف أشخاصًا هناك، أشخاصًا في الحكومة، وإلا لم يكن أحد ليعرف بنا لو حدث مكروه».

«هل كان سيفعل ذلك من أجلك؟»

قال هنري: «أنا وأبي لسنا مقربين، ولكنني ابنه الوحيد»، ثم شرب ما تبقى في كأسه وحرك الثلج المتبقي. «على أي حال، على الرغم من قلة السيولة المتاحة لي، كانت بطاقات الائتمان توفر لي مرونة كافية. كانت المشكلة في جمع مبلغ كبير يكفيننا مدة من الزمن، وهنا أتى دور فرانسيس، كما تعلم يعيش هو ووالدته على أرباح صندوق ائتماني، لكن لديهما أيضًا الحق في سحب ما يصل إلى ثلاثة بالمئة من رأس المال سنويًا، وهو ما قد يصل إلى مئة وخمسين ألف دولار. عمومًا هما لا يسحبان

هذا المبلغ، ولكن من الناحية النظرية يمكنهما سحبه متى أرادا. تدير شركة حمامة في بوسطن هذا الصندوق، وفي صباح الخميس غادرنا المنزل الريفي وتوجهنا إلى هامبدن بضع دقائق لحزم أغراضنا، ثم انطلقنا جميعاً إلى بوسطن وحجزنا في فندق باركر هاوس. إنه فندق رائع، هل تعرفه؟ لقد كان ديكنز يقيم هناك عندما زار أمريكا. على أي حال كان لدى فرانسيس موعد مع محاميه، أما التوأمان فكان عليهما تسوية بعض الأمور مع مكتب الجوازات. يتطلب الأمر تخطيطاً أكثر مما قد تتخيل لترتيب أمورك ومغادرة البلاد، لكننا رتبنا كل شيء تقريباً، كنا سنغادر في الليلة التالية، وكانت الأمور تسير على ما يُرام. كنا قلقين بعض الشيء بشأن التوأمين، لكن حتى لو اضطرا إلى الانتظار عشرة أيام إضافية للحاق بنا لم يكن ذلك ليشكل مشكلة، كان لديّ بعض الأمور الصغيرة لأعتني بها، ولكنها لم تكن كثيرة، وكان فرانسيس قد طمأنني أن الحصول على المال من الصندوق الائتماني لن يتطلب سوى الذهاب إلى وسط المدينة وتوقيع بعض الأوراق. صحيح أن والدته كانت ستكتشف سحب المال، لكن ماذا يمكنها أن تفعل بعد أن نرحل؟

لكن الأمور لم تسر كما خططنا، لم يعد فرانسيس في الوقت المتوقع، ومرت ثلاث بل أربع ساعات، عاد التوأمان وكنا نحن الثلاثة قد طلبنا للتو الغداء من خدمة الغرف عندما دخل فرانسيس، وهو في حالة نصف هستيرية. اكتشف أن المال لهذا العام قد سُحب بالفعل؛ أمه كانت قد سحبت كل سنت في بداية العام دون أن تخبره، كانت صدمة كبيرة لكنها كانت أفضع في

ظل هذه الظروف، جرب كل ما خطر له؛ حاول اقتراض المال بضمان الوديعة نفسها، وهو فعل يائس إذا كنت تعرف شيئاً عن الصناديق الائتمانية، كان التوأمان يضغطان للاستمرار في الخطة رغم الظروف.

لكن الموقف كان صعباً، ما إن تغادر لن تتمكن من العودة، وماذا كان يفترض بنا أن نفعل حين نصل؟ نعيش في بيت شجرة مثل ويندي والأولاد التائهين؟» تههد ثم أضاف: «وهكذا على الرغم من أننا حزمنا حقائبنا وجوازات سفرنا جاهزة، لم يكن معنا أي مال، أعني لا شيء حرفياً. لم يكن معنا نحن الأربعة سوى خمسة آلاف دولار. بعد نقاش طويل، قررنا في النهاية أن خيارنا الوحيد هو العودة إلى هامبدن، على الأقل في الوقت الحاضر».

قال كل هذا بهدوء تام، لكنني وأنا أستمع إليه شعرت بكتلة ثقيلة تتنامى في معدتي. لم تكن الصورة واضحة بالكامل، لكن ما بدا لي منها كان مزعجاً جداً. ظللت صامتاً مدة طويلة، أحرق إلى الظلال التي يلقيها المصباح على السقف.

قلت أخيراً: «هنري، يا إلهي». كان صوتي جامداً وغريباً حتى لأذني.

رفع حاجبه ولم يقل شيئاً، يمسك بكأس فارغة، ونصف وجهه غارق في الظل.

نظرت إليه، وقلت: «يا إلهي. ماذا فعلتم؟!»

ابتسم بتجهم، وانحنى إلى الأمام بعيداً عن الضوء ليصب لنفسه مزيداً من الويسكي، قال: «أعتقد أن لديك الآن فكرة جيدة جداً، والآن اسمح لي أن أسألك شيئاً، لماذا كنت تتستر علينا؟»

قلت مرتبكاً: «ماذا؟».

«كنت تعلم أننا سنغادر البلاد، عرفت ذلك طيلة الوقت ولم تخبر أحداً. لماذا؟».

في تلك اللحظة شعرت كأن الجدران بدأت تتداعى من حولي والظلام يبتلع الغرف، كان وجه هنري يبرز من خلال الضوء الخافت شاحباً وبارداً، ونظارته تعكس نقاط الضوء الشاردة التي تتوهج في الأعماق الكهربائية لكأس الويسكي في يده، وتسطع باللون الأزرق في عينيه.

قلت: «لا أعرف».

ابتسم ببرود وقال: «حقاً؟»

نظرت إليه ولم أقل شيئاً، قال: «في نهاية المطاف لم نشق بك». كانت نظرته إليّ ثابتة ومركزة. «كان بإمكانك إيقافنا في أي وقت، لكنك لم تفعل ذلك، لماذا؟».

«هنري، ماذا فعلتم بحق الرب؟».

ابتسم، وقال: «أنت أخبرني».

الأمر الفظيع أنني كنت أعرف بطريقة أو بأخرى، قلت بصوت مرتعش: «لقد قتلتم أحداً، أليس كذلك؟».

نظر إليّ لحظة، ثم انحنى إلى الورا في كرسيه وضحك وأنا أنظر إليه في دهشة، قال: «رائع. أنت ذكي تماماً كما ظننت. كنت متأكداً أنك ستكتشف الأمر عاجلاً أم آجلاً، وهذا ما قلته للآخرين طوال الوقت».

كان الظلام يحيط بدائرتنا الصغيرة من ضوء المصباح مثل الستارة، ثم شعرت بنوبة من الدوار، كأن الجدران تندفع نحونا

ثم تتحسر مبتعدة إلى ما لا نهاية، تاركة إيانا معلقين في فراغ مظلم لا حدود له.

بلغت ريتقي بصعوبة، ونظرت إلى هنري: «من كان؟»
هز كتفيه وقال بلا مبالاة: «أمر بسيط، مجرد حادثة».
«ليس عمداً؟»
قال متفاجئاً: «لا، قطعاً».
«ماذا حدث؟»

«لا أعرف من أين أبدأ». توقف هنيهة وأخذ رشفة من مشروبه.
«هل تذكر الخريف الماضي، عندما درسنا في صف جوليان ما يسميه أفلاطون الجنون التخاطري⁽¹⁾؟ العريضة الباخوسية⁽²⁾».
قلت بصبر نافذ قليلاً: «نعم، أذكر». بدا طرح شيء كهذا الآن متسقاً مع شخصية هنري.
تابع هنري: «حسناً، قررنا أن نحاول ممارسة العريضة الباخوسية».

للحظة ظننت أنني أسأت الفهم، فسألته بتعجب: «ماذا؟».
«نعم، قررنا أن نجربها».
«حقاً؟»

(1) يُستخدم مصطلح «الجنون» لوصف حالة من التجربة العاطفية العميقة التي تتجاوز العقل والمنطق. في الفلسفة اليونانية، وخاصة في فكر أفلاطون، يشير «الجنون التلستي» إلى نوع من الجنون الذي يعد أحد أشكال الإلهام أو الارتباط بالقوى الروحية. «الجنون» هنا لا يعني فقدان العقل بمعناه السلبي المعتاد، ولكنه يشير إلى حالة روحية عميقة واندماج مع القوى الروحية أو الطاقات الإبداعية.

(2) العريضة الباخوسية: من طقوس الإغريق والرومان القديمة التي كانت تستخدم أحياناً المسكرات وغيرها من أساليب بلوغ النشوة مثل الرقص والموسيقى، لإزالة الموانع والقيود الاجتماعية وتحرير الفرد للعودة إلى حالته الطبيعية.

«إنها الحقيقة».

نظرت إليه غير مصدق: «لا بد أنك تمزح».

قال ببساطة: «لا».

«هذا أغرب شيء سمعته في حياتي».

هز كتفيه بلا اكتراث.

«لماذا تريدون فعل شيء كهذا؟»

«كنت مهووسًا بالفكرة».

«لماذا؟».

«حسنًا، على حد علمي لم يُجر أحد هذا الطقس منذ ألفي عام». توقف عندما رأى أنه لم يقنعني. وقال: «في نهاية المطاف هناك إغراء كبير في التخلي عن ذاتك ولو لمدة قصيرة، والهروب من قيود الواقع، والتخليق فوق كينونتك. هناك مزايا أخرى لهذا الطقس من الصعب التحدث عنها، أمور تلمح إليها المصادر القديمة من دون أن تذكرها صراحة، أمور لم أفهمها حقًا إلا بعد أن وقعت».

«مثل ماذا؟».

قال هنري بحنق: «حسنًا، لا يُسمى هذا طقسًا من دون سبب».

ثم استرسل: «صدقني، لا ينبغي أن نستهن بالسحر الكامن في فكرة فقدان الذات والانعتاق التام من أغلالها، أن يتلاشى الإنسان تمامًا ليُولد من جديد متحررًا من قيود الفناء والزمن لينطلق في حياة أبدية متجددة. لقد أسرتني هذه الفكرة منذ اللحظة الأولى حتى قبل أن أمتلك أي معرفة عميقة بالموضوع، كنت كعالم أنثروبولوجيا يدرس ظاهرة مثيرة للفضول أكثر من

كوني شخصاً يسعى لخوض هذه التجربة الروحية. كان المعلقون القدماء حذرين جداً عند التطرق إلى هذا الموضوع، ولكننا تمكناً بعد كثير من الجهد من اكتشاف بعض الأسرار المقدسة وفك شيفرة الترانيم والأشياء الرمزية، وما يجب ارتداؤه وما يجب فعله وقوله، لكن التحدي الأكبر كان الطقس نفسه؛ كيف يصل المرء إلى تلك الحالة الروحية المتعالية؟ وما المحفز الذي يشعل شرارة هذا التحول؟»

كان صوته يحمل نبرة حاملة، وكان مستمتعاً بسرد التفاصيل: «جربنا كل شيء؛ الشراب والمخدرات والصلاة، حتى جرعات صغيرة من السم. في ليلة محاولتنا الأولى، أفرطنا في الشرب وفقدنا الوعي مرتدين خيتونات⁽¹⁾ في الغابة القريبة من منزل فرانسيس».

«ارتديتم خيتونات!»

قال هنري بانزعاج: «نعم. كان ذلك لنجرب الطقس بكامل تفاصيله، صنعناها من ملائات السرير في عليّة فرانسيس، على أي حال في الليلة الأولى لم يحدث شيء، سوى أننا استيقظنا مصابين بصداع وأجسادنا متيبسة بسبب النوم على الأرض. لذلك في المرة التالية قللنا من الشرب، لكننا كنا جميعاً هناك، في منتصف الليل على التل خلف منزل فرانسيس سكارى بالخيتونات، نغني ترانيل إغريقية كأنها طقوس أخوية، حتى بدأ باني يضحك بشدة فسقط وتدحرج أسفل التل مثل قارورة بولينج».

(1) الخيتون: نوع من الغلالات يُثَبَّت عند الكتف، كان يرتديه الرجال والنساء في اليونان القديمة وروما.

أضاف بنبرة من التأمل: «كان واضحاً أن الشراب وحده لن يفي بالغرض. يا إلهي، لا أستطيع أن أخبرك بكل الأشياء التي جربناها؛ البقاء مستيقظين طوال الليل والصيام وتقديم قربان من الخمر⁽¹⁾، يحزنني حتى التفكير في الأمر، أحرقنا أغصان الشوكران واستشقنا الأبخرة، قرأت أن البيثيا⁽²⁾ كانت تمضغ أوراق الغار، لكن ذلك لم ينجح أيضاً، إذا كنت تتذكر فقد عثرت على أوراق الغار تلك على الموقد في مطبخ فرانسيس».

نظرت إليه بدهشة وسألت: «لماذا لم أعلم بأي من هذا؟»
أخرج هنري سيجارة من جيبه وأجاب: «حسناً، أعتقد أن السبب واضح إلى حدٍّ ما».

«ماذا تقصد؟»

«بالطبع لم نكن لنخبرك، بالكاد كنا نعرفك، كنت ستظن أننا مجانين».

صمت لحظة، ثم تابع: «كما ترى، لم يكن لدينا سوى قليل من الأدلة الملموسة نعتمد عليها. في البداية لقد ضللتني الروايات عن البيثيا التي تتحدث عن الإلهام الروحي⁽³⁾ بعد استنشاق الأبخرة السامة، تلك الطقوس على الرغم من أنها غير واضحة، فإنها موثقة بشكل أفضل من الطقوس الباخوسية، وقد ظننت

(1) صب شعائري للشراب قرباناً لإله أو لروح أو لذكرى وفاة أحد الموتى، كانت شائعة في أديان كثيرة في العصور القديمة ولم تزل مستمرة في بعض الحضارات اليوم.

(2) كاهنة الإله أبولو، وكان مقرها في معبد أبولو في دلفي، الذي يقع على منحدرات جبل بارناسوس. وكان لبيثيا الفضل الكبير في التحدث بنبوءات أبولو.

(3) باليونانية في الأصل، والإشارة إلى استخدام القنب في الطقوس الدينية.

لوقت طويل أنهما مرتبطتان. لكن بعد مدة طويلة من التجارب والأخطاء، أدركت أن الأمر ليس كذلك، وأن ما كنا نفتقده كان شيئاً بسيطاً جداً، وقد كان كذلك بالفعل».

«وماذا يمكن أن يكون هذا الشيء؟»

«هناك مطلب أساسي واحد، فحتى يستقبل المرء الإله في هذا الطقس أو في أي طقس آخر، عليه أن يكون في حالة من النقاء⁽¹⁾ والطهارة الدينية، هذا هو جوهر الطقس الباخوسي، حتى أفلاطون يتحدث عن ذلك. حتى تتماهى مع الإله يجب تطهير النفس البشرية الفانية المخلوقة من التراب، يجب أن تتحلل وتضمحل إلى أقصى حد ممكن».

«وكيف هذا؟»

«من خلال أفعال رمزية، معظمها كان منتشراً في العالم الإغريقي كصب الماء على الرأس والاستحمام والصيام، إن سألتني لم يكن باني جيداً في الصيام ولا حتى في الاستحمام، لكن بقيتنا مارسوا هذه الشعائر. ومع ذلك كلما فعلنا ذلك أكثر، بدا الأمر بلا جدوى، حتى خطرت لي فكرة بسيطة لكنها واضحة، وهي أن أي طقوس دينية تبقى بلا معنى ما لم يتمكن المرء من إدراك ما خلفها من معنى عميق».

(1) باليونانية في الأصل؛ إيفيميا أي النقاء نسبة إلى إيفيما الشهيدة العذراء. ماتت لإيمانها بمجمع خلقيدونية في عام 303 بعد الميلاد. طبقاً للتقاليد، استشهد إيفيميا لرفضه تقديم تضحيات لآريس. قُبِضَ عليها وبعد تعرضها لأشكال مختلفة من التعذيب، ماتت في الساحة في تشالسيدون متأثرة بجرح أصيبت به من دب، وأصبح قبرها موقعاً للحج.

توقف لحظة ثم استأنف قائلاً: «هل تعلم ماذا يقول جوليان عن الكوميديا الإلهية؟»
«لا يا هنري، لا أعلم».

«يقول إنها غير مفهومة لشخص غير مسيحي، وأنه إذا أراد أحدهم قراءة دانتى وفهمه فعليه أن يصبح مسيحياً ولو بضع ساعات فقط، ينطبق الشيء نفسه هنا، إذ كان لا بد من الاقتراب من الطقوس بشروطها الخاصة وليس من منظور فضولي شهواني أو حتى علمي، في البداية كان من المستحيل رؤيتها بطريقة مختلفة، لأننا كنا نراها فقط من خلال الأخبار المجزأة التي وصلت عنها عبر الزمن، وقد حُجبت عنا حيوية الفعل بالكامل والجمال الكامن فيه والرعب والتضحية»، أخذ نفثة أخيرة من سيجارته ثم أطفأها.

تابع: «بكل بساطة، لم نكن نؤمن بما نقوم به، وكان الإيمان هو الشرط الأساسي الذي لا غنى عنه، الإيمان والاستسلام الكامل».
انتظرت أن يواصل حديثه.

قال بهدوء: «في تلك المرحلة يجب أن تفهم أننا كنا على وشك التخلي عن الأمر، كانت المغامرة مثيرة لكنها لم تكن تستحق كل هذا العناء، خصوصاً مع ما صاحب ذلك من متاعب، إنك لا تعرف عدد المرات التي كدتَ تعثر فيها علينا وتكشف حقيقة ما نفعل، أليس كذلك؟».

أجبت: «لا، لم أكن أعلم».

تابع وهو يأخذ رشفة من الويسكي: «لا أعتقد أنك تتذكر تلك الليلة في الريف عندما نزلت إلى الطابق السفلي في الساعة

الثالثة صباحًا للبحث عن كتاب في المكتبة، لقد سمعتك على الدرج، كنتُ مختبئًا خلف الستائر، وكان بإمكانني أن أمد يدي وألمسك لو أردت. وفي مرة أخرى استيقظت مبكرًا قبل عودتنا إلى المنزل، كان علينا أن نتسلل عبر الباب الخلفي، ونصعد الدرج بهدوء مثل اللصوص، كان الأمر مرهقًا خصوصًا أننا كنا حفاة الأقدام في الظلام، والطقس يزداد برودة. يقولون إن طقس الأوريباسيا⁽¹⁾ كان يُمارس في منتصف الشتاء، لكنني أعتقد أن مناخ بيلوبونيز⁽²⁾ كان أكثر اعتدالًا في ذلك الوقت من العام مقارنة بفيرمونت».

عملنا على هذا الأمر مدة طويلة، وبدا أنه من غير المنطقي في ضوء ما توصلنا إليه ألا نكمل مسعانا قبل أن يتغير الطقس. فجأة أصبحت الأمور جادة، صمنا ثلاثة أيام، أطول مما صمناه من قبل، جاعني رسول في المنام، كان كل شيء يسير بشكل جميل، على وشك أن يكتسب أجنحة ويطير إن جاز التعبير، شعرت بشعور غريب لم أختبره من قبل، أن الواقع نفسه كان يتحول من حولنا بطريقة ساحرة وخطرة، وأننا كنا نقاد بقوة غامضة نحو نهاية مجهولة».

مد يده ليأخذ رشفة من مشروبه، وقال: «كانت المشكلة الوحيدة هي باني. لم يستوعب أن الأمور قد تغيرت بشكل جذري. كنا أقرب من أي وقت مضى لتحقيق ما نريد، وكل يوم كان له أهمية

(1) احتفال ليلي للنساء المؤمنات بباخوس في اليونان القديمة.

(2) كانت بيلوبونيس إقليمًا عسكريًا مدنيًا بيزنطيًا يشمل شبه جزيرة البيلوبونيز في جنوب اليونان، وكانت عاصمتها كورينثوس.

قصوى. كان الجو بارداً بالفعل، وإذا تساقطت الثلوج، وهو ما كان متوقعاً في أي لحظة، لكان علينا الانتظار حتى الربيع. لم أستطع تحمل فكرة أن كل ما فعلناه سيفشل في اللحظة الأخيرة، وكنت واثقاً بأن باني سيفسد الأمر، وأنه في اللحظة الحاسمة سيبدأ بإلقاء بعض النكات السخيفة ويخرب كل شيء، راودتني الشكوك حوله بحلول اليوم الثاني، وفي مساء اليوم نفسه رأى تشارلز باني في القاعة العامة وهو يتناول شطيرة جبن مشوية و«مليك شيك»، كانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير، قررنا الذهاب إلى المنزل الريفي من دونه، كان الخروج في عطلات نهاية الأسبوع أمراً محفوظاً بالمخاطر، لأنك كدت تلحق بنا عدة مرات بالفعل، لذلك كنا نقود السيارة في ساعة متأخرة من يوم الخميس ونعود نحو الساعة الثالثة أو الرابعة في صباح اليوم التالي، ولكننا هذه المرة، غادرنا مبكرين قبل العشاء، ولم نقل له كلمة واحدة».

أشعل سيجارة، وصمت مدة طويلة.

قلت: «إذن، ماذا حدث؟»

ضحك. «لا أعرف كيف أشرح ذلك».

«ماذا تقصد؟»

« أقصد أن الطقس قد نجح».

«نجح؟»

«تماماً».

«ولكن كيف يمكن...؟»

«لقد نجح!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لا أعتقد أنني أفهم ما تعنيه عندما تقول نجح».

«أعني ذلك حرفياً».

«ولكن كيف؟»

قال بصوت حالم: «كان الطقس مهيئاً، يصيبك بالدوار، مشاعل تتوهج، غناء وغناء يصدح بلا توقف، وذئاب تعوي حولنا، وثور يجأر في الظلام، والنهر يجري أبيض اللون. كان المشهد مثل فيلم سريع الحركة، القمر يزد وينقص والغيوم تتسارع عبر السماء. نمت العرائش بسرعة كبيرة ولفت الأشجار مثل الثعابين، كانت الفصول تمر في لحظات كأن سنوات كاملة تمر أمام أعيننا. عادة ما نعتقد أن التغيير هو ما يحدد الوقت، لكن هذا غير صحيح، فالزمن هو الشيء الذي يتجاوز الفصول والتغيرات، ويتحدى الربيع والشتاء، والولادة والانحلال، والخير والشر، الزمن كيان ثابت لا يفنى. تلاشت الازدواجية، لم يعد هناك «ذات» أو «أنا»، ومع ذلك لم يكن الأمر كما تصفه بعض الأديان الشرقية بأن الذات قطرة ماء يبتلعها محيط الكون. بل كان الأمر أشبه بأن الكون يتسع ليحتوي حدود الذات. لا يمكنك أن تتصور كم تصبح الحياة العادية باهتة ومملة بعد أن تعيش مثل هذه النشوة. كنتُ كطفل رضيع، لم أستطع حتى تذكر اسمي، كانت قدمي مجروحة ولم أشعر بالألم».

«لكن هذه طقوس شهوانية في جوهرها، أليس كذلك؟» لم يكن ذلك سؤالاً بقدر ما كان تذكيراً بحقيقة نعرفها جيداً. لم يرمش، بل جلس ينتظرني أن أتابع حديثي. «حسنًا؟ أليس كذلك؟»

انحنى ليضع سيجارته في منفضة السجائر، وقال بهدوء: «بالطبع» بدا باردًا مثل كاهن في بدلته السوداء ونظارته الزهيدة. «أنت تعرف ذلك كما أعرفه».

جلسنا نتبادل النظرات لحظات، ثم قلت: «ماذا فعلتم بالضبط؟»

قال بهدوء: «لا أعتقد أننا بحاجة إلى الخوض في التفاصيل الآن، كان هناك جانب جسدي في تلك الطقوس، ولكن الظاهرة كانت ذات طبيعة روحية في المقام الأول».

«أظن أنكم رأيتم باخوس؟»

لم أقصد السؤال بجدية، لكنني صدمت عندما أومأ برأسه بعفوية، كأني سألته إذا كان قد أدى واجباته المدرسية.

«رأيتموه حقًا؟ بشحمه ولحمه؟ بجلد الماعز والثيرسوس⁽¹⁾؟»

سألني هنري بنبرة حادة: «وكيف تعرف ماهية باخوس؟ ماذا تعتقد أننا رأينا؟ رسمًا كاريكاتوريًا؟ رسمة على جانب مزهريّة؟»

«لا أستطيع أن أصدق أنك تخبرني أنكم رأيتموه بالفعل».

فأجابني بجدية: «ماذا لو لم ترَ البحر من قبل؟ ماذا لو كان الشيء الوحيد الذي تعرفه عن البحر هو رسم طفل ما بخطوط زرقاء وأمواج متقطعة؟ هل ستتعرف على البحر الحقيقي لو رأيته أول مرة؟ هل ستدرك حقيقةته؟ أنت لا تعرف كيف يبدو باخوس، نحن نتحدث عن إله هنا، والإله مسألة جدية لا هزل فيها»، انحنى إلى الورا في كرسيه ونظر إليّ بتأمل. «ليس عليك

(1) عصا من الشمر العملاق المغطى بأوراق اللبلاب أو العنب.

أن تصدق ما أقول لكننا كنّا أربعة، وجد تشارلز علامة عضّة دامية على ذراععه، ولم يكن لديه أي فكرة عن كيفية حدوثها، لكنها لم تكن عضّة بشرية بل كانت ضخمة جدًّا بثقوب غريبة تشبه الأسنان. قالت كاميلّا إنها شعرت في لحظة من الطقوس بأنّها تحولت إلى غزال، وهذا كان غريبًا أيضًا لأننا نحن الثلاثة الآخرين نتذكر بوضوح أننا كنا نطارّد غزالًا عبر الغابة لأميال، في الواقع كانت المسافة أميالًا حقيقية، من الواضح أننا ركضنا وركضنا لأنه عندما استعدنا وعينا لم تكن لدينا أي فكرة عن مكان وجودنا، اكتشفنا لاحقًا أننا كنا بعيدين عن أرض فرانسيس على بعد سبعة أو ثمانية أميال في عمق الريف، بعد أن تجاوزنا أربعة أسوار من الأسلاك الشائكة، دون أن نعرف كيف فعلنا ذلك. وهنا يأتي الجزء المؤسف من قصتي، ليس لديّ سوى ذكرى مبهمّة عنه، سمعت شيئًا ما خلفي أو ربما شخصًا ما، فاستدّرت بسرعة وكدت أفقد توازني، ثم اندفعت نحو هذا الشيء، كان أصفرَ وضخمًا وغير واضح، انقضضت بقبضتي اليسرى عليه، وهي ليست قبضتي القويّة كما تعلم. شعرت بألم رهيب في مفاصلي، وبعد ذلك مباشرة ضربني شيء ما بقوة شديدة حتى كدت أفقد وعيي، كان الظلام حالكًا، لم أستطع أن أرى شيئًا بوضوح. ضربت مرة أخرى بيمينني بكل قوتي، وسمعت صوت فرقة عالية وصراخًا.

لا نعرف تمامًا ما حدث بعد ذلك، كانت كاميلّا تتقدمنا بمسافة كبيرة لكن تشارلز وفرانسيس كانا قريبين مني، أذكر بوضوح أنني كنت واقفًا على قدمي عندما رأيتهما يخترقان

الشجيرات. يا إلهي، أستطيع أن أرى تلك اللحظة أمامي الآن، كان شعرهما متشابكاً مع أوراق الشجر وملطخاً بالطين وملابسهما ممزقة.

وقفنا هناك لاهئين وأعينهما عدوانية وخالية من الحياة، لم أعرف عليهما في البداية، وأعتقد أننا ربما كنا سنبدأ بالاعتقال لولا أن القمر ظهر من خلف غيمة، تبادلنا النظرات وعندها بدأت الأمور تعود إلى طبيعتها، نظرت إلى يدي فوجدتها مغطاة بالدماء وبما هو أسوأ من الدماء.

تقدم تشارلز ببطء وركع ليتفحص شيئاً أسفل قدمي، فانحنيت بدوري لأرى ماذا هناك. كان هناك رجل ميت. بدا في منتصف الأربعينيات من عمره، كان يرتدي قميصاً صوفياً أصفر من تلك التي يرتديها الناس هنا. كانت رقبته محطمة، ومما لا يسر وصفه أن قطعاً من نسيج دماغه كانت تغطي وجهه بالكامل. حقاً لا أدري كيف حدث ذلك، سادت حالة من الفوضى، كنت غارقاً في الدماء حتى أن بعض الدماء التصقت بنظارتني.

ثم تابع قائلاً: «يروي تشارلز رواية مختلفة، يقول إنه يتذكر رؤيتي إلى جانب الجثة، لكنه أيضاً يتذكر أنه كان يصارع شيئاً بقوة، ويشد بأقصى ما يستطيع، وفجأة أدرك أن ما كان يشده هو ذراع رجل، وقدمه مثبتة تحت إبطه. أما فرانسيس فلا أستطيع الجزم بما حدث معه، ففي كل مرة يتحدث عن الأمر يستحضر ذكرى مختلفة».

«وكاميللا؟»

تهدهد هنري قائلاً: «أعتقد أننا لن نعرف أبداً ما حدث معها بالضبط، لم نعثر عليها إلا بعد مدة طويلة. كانت جالسة بهدوء

على ضفة النهر وقدمها في الماء، ثوبها كان أبيض بالكامل، ولم يكن هناك أي دماء على جسدها باستثناء شعرها المبلل، كان الشعر مغطى بدماء داكنة متخثرة كأنها صبغته باللون الأحمر». سألت مستغرباً: «كيف يمكن أن يحدث هذا؟»

أجاب هنري: «نحن لا نعرف». ثم أشعل سيجارة أخرى وأردف: «على أي حال، كان الرجل ميتاً. وها نحن أولاء في وسط الغابة نصف عراة يغطيها الطين، والجثة ملقاة أمامنا، كنا في حالة ذهول تام. شعرت بأنني أغرق في داخلي وأعود إلى الواقع في ذات الوقت وكدت أغفو، لكن عندما اقترب فرانسيس لإلقاء نظرة فاحصة تعرض لنوبة عنيفة من الإقياء والغثيان، كان هذا ما أعادني إلى رشدي. طلبت من تشارلز أن يبحث عن كاميرا، ثم ركعت بجانب الجثة وبحثت في جيوبه. لم أجد أشياء كثيرة، وجدت فقط بعض الأشياء التي تحمل اسمه لكنها لم تكن ذات فائدة، لم أكن أعلم ما الذي يجب فعله، يجب أن تتذكر أن الجو كان قارساً، وأنني لم أنم أو أكل منذ مدة طويلة، كان ذهني مضطرباً. لوهلة فكرت في حفر قبر، يا إلهي كم كان الوضع محيراً، لكنني سرعان ما أدركت أن ذلك سيكون جنوناً، لم يكن بإمكاننا البقاء هناك طوال الليل، لم نكن نعلم أين نحن أو من قد يمر مصادفة أو حتى كم الساعة، بالإضافة إلى ذلك لم يكن لدينا أدوات لحفر القبر، شعرت بنوبة هلع تتابني، لم يكن بإمكاننا ترك الجثة في العراء، أليس كذلك؟ لكنني أدركت أن هذا هو الخيار الوحيد المتاح، يا إلهي لم نكن نعرف حتى أين كانت السيارة.

لم أستطع تخيل سحب الجثة عبر التلال والأودية إلى الأبد، وحتى لو وصلنا بها إلى السيارة، أين سنأخذها؟ لذلك عندما عاد تشارلز مع كاميللا قررنا المغادرة. وعندما فكرت في الأمر لاحقاً، أدركت أن ذلك كان التصرف الأذكى، ففرق الطب الشرعي لا تنتشر في جميع أنحاء فيرمونت، إنه مكان بدائي، والناس يموتون فيه بطرق طبيعية عنيفة طوال الوقت. لم نكن نعرف حتى من كان هذا الرجل، ولم يكن هناك شيء يربطنا به، كل ما كان علينا فعله هو العثور على السيارة والعودة إلى المنزل دون أن يرانا أحد». انحنى وصب لنفسه مزيداً من الويسكي. «وهذا بالضبط ما فعلناه».

صبيت لنفسى كأساً أخرى أيضاً، وجلسنا بصمت لدقيقة أو أكثر، ثم قلت أخيراً: «هنري؟».

رفع حاجبه وقال: «في الواقع، كان الأمر مزعجاً أكثر مما تتخيل. ذات مرة صدمت غزالاً بسيارتي، كان مخلوقاً جميلاً، وكانت رؤية جسده يتلوى والدماء منتشرة حوله وساقاه مكسورتان تعصر قلبي حزناً، ما حدث معنا في الغابة كان أشد وطأة، لكنني ظننت أن الأمر انتهى، ولم أتخيل قط أن نتحدث عن هذا الأمر مجدداً». تناول رشفة من السكوتش وأضاف: «ولكن للأسف علم باني بما حدث».

«ماذا تقصد؟»

«رأيتَه بنفسك هذا الصباح، يدفعنا إلى حافة الجنون بسبب هذا، يكاد الكيل أن يطفح».

في تلك اللحظة سمعنا صوت مفتاح يدور في القفل، رفع
هنري كأسه وشرب ما تبقى من الويسكي في جرعة طويلة،
وقال: «هذا فرانسيس»، وأشعل المصباح العلوي.

الفصل الخامس

عندما أُضيئت الأنوار تلاشت دائرة الظلام لتعود حدود غرفة الجلوس إلى شكلها الطبيعي والمألوف؛ مكتب مكتظ بالأوراق، وأريكة منخفضة ومهترئة، وستائر مغبرة ومصممة بأسلوب عصري، كانت قد انتقلت إلى ملكية فرانسيس بعد إحدى حملات تغيير الديكور التي قامت بها والدته في منزلها. وكأن مصباحاً أضيء بعد كابوس طويل مزعج؛ شعرت بالارتياح عندما وجدت الأبواب والنوافذ لا تزال في أماكنها، وأن الأثاث لم يتحرك بفعل سحر شيطاني ما في الظلام.

عندما دار الترباس، دخل فرانسيس قادماً من الممر المظلم، يتنفس بصعوبة وهو يحاول أن يخلع قفازيه بنفاد صبر. قال متذمراً: «بحق المسيح يا هنري، يا لها من ليلة».

كنت خارج مجال رؤيته، نظر هنري إليّ وتحنج بخفوت. استدار فرانسيس نحوي، حاولت أن أبدو طبيعياً قدر الإمكان، لكن من الواضح أنني لم أفعل ذلك، لا بد أن وجهي فضحني، حدق إلى وجهي طويلاً ونصف قفازه معلق بيده.

قال أخيراً من دون أن يزيح نظره عني: «أوه، لا، هنري، أنت لم تقل شيئاً».

قال هنري: «أخشى أنني فعلت».

أغمض فرانسيس عينيه بقوة، ثم فتحهما مجدداً. وقد اكتسى وجهه شحوب أبيض بلون بودرة التلك، أشبه برسم بالطباشير على ورق خشن، للحظة تساءلت إن كان سيفقد وعيه.

قال هنري بلهجة مطمئنة: «لا بأس».

لكن فرانسيس لم يتحرك، قال هنري بنبرة أكثر حدة: «حقًا يا فرانسيس، لا بأس. اجلس».

أخذ يتنفس بصعوبة، عبر إلى زاوية الغرفة ثم تهاوى بقوة على كرسي بذراعين، بحث في جيبه عن سيجارة.
قال هنري: «لقد كان يعلم بالفعل، قلت لك ذلك».

نظر فرانسيس إليّ، وسيجارته غير المشتعلة ترتعش في أطراف أصابعه، وسأل بصوت مضطرب: «هل كنت تعلم؟»
لم أجب للحظة، تساءلت إن كان هذا مجرد مزحة فظيعة، هرش فرانسيس جانب وجهه وقال: «أفترض أن الجميع يعرف الآن، لا أدري حتى لماذا أشعر بالسوء حيال ذلك».

دخل هنري إلى المطبخ ليحضر كأسًا، وعندما عاد صبَّ بعضًا من السكوتش وناولته لفرانسيس، ثم قال: «إنه لأمر بائس أن يُفتضح أمرك⁽¹⁾».

لدهشتي ضحك فرانسيس بفتور وقال: «يا إلهي»، ثم شرب رشفة طويلة، وتابع: «يا له من كابوس، لا أستطيع أن أتخيل ما يدور في ذهنك عنا يا ريتشارد».

قلت بلا تفكير: «لا يهم»، لكنني عندما قلت ذلك، أدركت وأنا أرتجف أن هذا صحيح، لم يكن الأمر مهمًا إلى هذا الحد، على الأقل ليس بالطريقة التي قد يتوقعها المرء.

(1) باللاتينية في الأصل.

قال فرانسيس وهو يفرك عينيه بإبهامه وسبابته: «حسنًا، يمكن القول إننا في مأزق هائل، لا أعرف ماذا سنفعل مع باني، أردت أن أصفعه عندما كنا نقف في الطابور لشراء تذاكر هذا الفيلم اللعين».

سأله هنري: «هل أخذته إلى مانشستر؟».

أجاب فرانسيس: «نعم، لكن الناس فضوليون جدًا، ولا تعرف أبدًا من الذي قد يجلس خلفك، أليس كذلك؟ ولم يكن حتى فيلمًا جيدًا».

سأله هنري: «عمَّ كان الفيلم؟».

أجاب فرانسيس: «مجرد هراء عن حفلة توديع العزوبية، لا أريد سوى تناول حبة منومة والخلود إلى النوم»، ثم شرب ما تبقى من كأسه وصب لنفسه قليلًا، وأضاف موجهًا كلامه إليّ: «يا إلهي، أنت تتصرف بلطف شديد حيال هذا الأمر، أشعر بالحرَج الشديد من كل شيء».

ساد صمت طويل، وأخيرًا قلت: «ماذا ستفعلون؟»

تتهد فرانسيس وأجاب: «لم نخطط لفعل أي شيء، أعلم أن الأمر يبدو سيئًا، ولكن ماذا يمكننا أن نفعل حيال ذلك الآن؟» أغضبتني نبرة صوته الخانعة، وأزعجتني في الوقت نفسه، فقلت: «لا أعرف، لماذا بحق الرب لم تذهبوا إلى الشرطة؟».

رد هنري بنبرة جافة: «من المؤكد أنك تمزح».

قلت: «أخبروهم أنكم لا تعرفون ماذا حدث؟ أنكم وجدتموه ميتًا في الغابة؟ أو ربما، لا أعلم، أنكم صدمتموه بالسيارة أو أنه ركض فجأة أمامكم أو ما يشبهه؟».

قال هنري: «سيكون ذلك أمرًا أحمق جدًّا، كان حادثًا مؤسفًا، وأنا آسف لوقوعه، لكن بصراحة لا أرى كيف سيخدم مصالح دافعي الضرائب أو مصالحني أن أقضي ستين أو سبعين عامًا في سجن فيرمونت».

قلت: «لكنه كان حادثًا، قلت ذلك بنفسك». هز هنري كتفيه، فتابعت: «لو كنت قد ذهبت إلى الشرطة فورًا، ربما لكنت عوقبت بتهم بسيطة، وربما لم تكن لتوجَّه إليك أي تهمة على الإطلاق». قال هنري بقبول: «وربما لا، لكن تذكر، هذه فيرمونت».

سألت: «ما الفرق؟»

أجاب هنري: «فرق كبير، لسوء الحظ، إذا وصلت القضية إلى المحاكمة فسنحاكم هنا، كما أحب أن أنوه أن هيئة المحلفين لن تكون مؤلفة من أشخاص من أقراننا».

«إذن؟»

«قل ما تريد، لكن لا يمكنك إقناعي بأن هيئة محلفين من سكان فيرمونت الفقراء سيكون لديهم أدنى قدر من الشفقة تجاه أربعة طلاب جامعيين يحاكمون بتهمة قتل أحد جيرانهم».

قال فرانسيس وهو يشعل سيجارة جديدة مستخدمًا طرف سيجارته القديمة المتقد: «الناس في هامبدن يأملون منذ سنوات أن يحدث شيء كهذا، لن نفلت من الأمر باتهامنا بالقتل الخطأ فحسب، سنكون محظوظين إذا لم نذهب إلى الكرسي الكهربائي».

قال هنري: «تخيل كيف سيبدو الأمر، نحن جميعًا شباب، ولدينا مستوى تعليم عالٍ، وفي وضع مالي ميسور، وربما الأهم من ذلك لسنا من سكان فيرمونت، أفترض أن أي قاضٍ منصف

قد يتسامح معنا لأننا يافعين ولأن ما حدث كان حادثاً غير مقصود وما إلى ذلك، ولكن...».

قال فرانسيس: «أربعة شباب جامعيون أثرياء؟»

«ثملون؟ تحت تأثير المخدرات؟ على أرض هذا الرجل في منتصف الليل؟»

سألت: «كنتم على أرضه؟».

قال هنري: «حسناً، على ما يبدو، هذا هو المكان الذي قالت الصحف أنهم عثروا على جثته فيه».

لم يمضِ على وجودي في فيرمونت مدة طويلة، ولكنها كافية لأعرف ما الذي سيفكر فيه أي شخص محترم في فيرمونت بشأن هذا الأمر؛ التعدي على أرض أحدهم يُعد بمثابة اقتحام منزله.

قلت: «يا إلهي».

قال فرانسيس: «وهذا ليس كل ما حدث، كنا نرتدي ملابس سرير، وحفاة الأقدام، وغارقين في الدم، تفوح منا رائحة نتنة وسكارى، هل يمكنك أن تتخيل لو أننا ذهبنا إلى مكتب مأمور الشرطة وحاولنا شرح كل ذلك؟».

قال هنري بنبرة حاملة: «فوق ذلك لم نكن في وضع يسمح لنا بالتفسير من الأساس، أتساءل حقاً إن كنت تفهم الحالة التي كنا فيها، قبل ساعة واحدة فحسب كنا جميعاً قد فقدنا عقولنا، ومررنا بتجربة تفوق قدرة البشر على فقدان ذواتهم، لكن هذا لا يقارن بالجهد الذي عليك بذله لاستعادة ذاتك مرة أخرى بعد مثل هذه التجربة».

قال فرانسيس: «بالتأكيد لم نستعد ذواتنا القديمة بمجرد الضغط على زر، صدقني كان الأمر أشبه بعلاج بالصدمة الكهربائية».

قال هنري: «لا أعلم حقًا كيف تمكنا من العودة إلى المنزل دون أن يلاحظنا أحد، لم يكن بإمكاننا بأي حال أن نخلق قصة معقولة بناء على هذه الفوضى، يا إلهي لقد استغرق الأمر مني أسابيع لتجاوز ما حدث، أما كاميليا فلم تستطع النطق بكلمة واحدة مدة ثلاثة أيام».

تذكرت بقشعريرة طفيفة كاميليا وقد لفت حلقها بوشاح أحمر عاجزة عن الكلام، حينها قالوا لي إنها مصابة بالتهاب في حنجرتها.

قال هنري: «نعم، كان ذلك غريبًا جدًا، كانت تفكر بوضوح، لكن الكلمات لم تخرج من فمها بالشكل الصحيح، كما لو أنها أصيبت بسكتة دماغية».

وعندما استعادت القدرة على الكلام، استعادت اللغة الفرنسية التي تعلمتها في المدرسة الثانوية قبل أن تستعيد لغتها الإنجليزية أو اليونانية، كانت تردد كلمات بسيطة من مرحلة الحضانة، أتذكر كيف كنت أجلس بجوار سريرها، أستمع إليها وهي تعد من واحد إلى عشرة، وأراها تشير إلى النافذة أو الأريكة».

ضحك فرانسيس وقال: «كانت مضحكة جدًا، عندما سألتها عن شعورها، قالت: أشعر كأنني هيلين كيلر يا صديقي القديم».

«هل ذهبت إلى الطبيب؟»

أجاب هنري ساخرًا: «هل تمزح؟».

سألت: «وماذا لو لم تتحسن؟».

«حسنًا، حدث الشيء نفسه لنا جميعًا، لكنه اختفى تقريبًا في غضون ساعتين».

«لم تستطيعوا التحدث؟»

قال فرانسيس: «كانت أجسادنا مليئة بالعضات والخدوش، وكنا معقودي اللسان؟ نصف مجانيين؟ لو ذهبنا إلى الشرطة لكانوا اتهمونا بكل جريمة قتل لم يجدوا حلًا لها في نيو إنجلاند خلال السنوات الخمس الماضية»، ثم رفع يديه كأنما يحمل صحيفة وهمية.

قال هنري: «مجانون هيببون متهمون بجريمة قتل مثيرة وقعت في الريف».

«مجموعة من الشبان يذبحون مزارعًا عجوزًا يُدعى أبي في خضم ممارسة طقوس غريبة».

أضاف هنري وهو يشعل سيجارة: «مراهقون من عبدة الشيطان يقتلون أحد سكان فيرمونت القدامى».

بدأ فرانسيس يضحك.

قال هنري: «سيكون الأمر مختلفًا لو أتحت لنا فرصة الحصول على جلسة استماع لائحة لكن لن نحظى بذلك أبدًا».

«وأنا شخصيًا لا أستطيع أن أتخيل ما هو أسوأ من أن يحاكمني قاضٍ في محكمة دائرة فيرمونت وهيئة محلفين مؤلفة من أشخاص غير مؤهلين».

قال هنري: «الأمور ليست على ما يرام، لكنها بالتأكيد يمكن أن تكون أسوأ، المشكلة الكبرى الآن هي باني».

«ما خطبه؟».

«لا يعاني أي شيء».

«إذا، ما المشكلة؟».

«لا يستطيع أن يبقى فمه مطبقاً، هذا كل شيء».

«ألم تتحدثوا معه؟»

قال فرانسيس: «نحو عشرة ملايين مرة».

«هل حاول التوجه إلى الشرطة؟».

أجاب هنري: «إذا استمر على هذا المنوال، فلن يحتاج إلى ذلك، سوف يأتون إلينا مباشرة، والتحدث معه بعقلانية لا يجدي نفعاً، لا يدرك مدى خطورة المسألة».

قلت: «من المؤكد أنه لا يريد رؤيتكم خلف القضبان».

قال هنري بهدوء: «إذا فكر في الأمر ملياً، فسيُدرك أنه لا يريد ذلك، وأيضاً لا يريد أن يُزج به في السجن أيضاً».

«باني؟ لكن لماذا؟»

قال فرانسيس: «لأنه كان على علم بهذا الأمر منذ نوفمبر، ولم يتجه إلى الشرطة».

أضاف هنري: «لكن هذا ليس موضوعنا، حتى باني لديه ما يكفي من رجاحة العقل ليدرك أنه من الأفضل ألا يُسلمنا للشرطة، فهو أيضاً ليس لديه حُجَّة غياب قوية ليلة القتل، وإذا انتهى بنا الأمر في السجن، فهو يعرف أنني سأفعل كل ما في وسعي لأراه يُشاركنا المصير». ثم أطفأ سيجارته وتابع: «المشكلة أنه أحمق، وعاجلاً أم آجلاً سيقول الشيء الخطأ للشخص الخطأ، ربما ليس عن عمد، لكن لا يمكنني التظاهر بأنني مهتم بالدافع في

تلك المرحلة، سمعته بنفسك هذا الصباح، سيكون في موقف صعب إذا وصلت القضية إلى الشرطة، لكنه يعتقد أن تلك النكات المروعة كلها مأكرة وذكية ولن يفهمها أحد».

قال فرانسيس وهو يصب لنفسه: «إنه ذكي بما يكفي ليُدرك خطأ تسليمنا للشرطة، ولكن لا يبدو أننا نستطيع إقناعه بأن من مصلحته ألا يتجول في الأنحاء ويتحدث كما يفعل الآن، وفي الحقيقة لست متأكدًا أنه لن يخبر أحدًا عندما يكون في إحدى حالاته المزاجية الاعترافية».

سألت: «يخبر أحدًا؟ مثل من؟»

قال فرانسيس: «ماريون، والده، عميد الكلية». ثم ارتجف وقال: «تسري قشعريرة في جسدي لمجرد التفكير في ذلك. باني من النوع الذي يقف دائمًا في الجزء الخلفي من قاعة المحكمة خلال الدقائق الخمس الأخيرة من بيري ماسون⁽¹⁾».

قال هنري بنبرة جافة: «باني كوركوران، المحقق الصبي».

سألت: «كيف اكتشف ذلك؟ لم يكن معكم تلك الليلة، أليس كذلك؟»

قال فرانسيس: «في الواقع، كان معك أنت». ألقى نظرة سريعة على هنري، ولدهشتي بدأ الاثنان يضحكان. سألت بحذر: «ماذا؟ ما المضحك؟»

(1) يشير إلى برنامج تليفزيوني أمريكي شهير من فترة الستينيات يتناول قصص المحامي البارع بيري ماسون، الذي يحل قضايا جنائية معقدة في قاعة المحكمة. في هذه السلسلة كان بيري ماسون معروفًا بمهارته في كشف الحقيقة وإثبات براءة موكله في اللحظات الأخيرة من المحاكمة.

أدخلهما ذلك في موجة ضحك جديدة.

قال فرانسيس أخيرًا: «لا شيء».

تهد هنري بتوتر وقال: «لا شيء فعلاً، أغرب الأشياء تضحكني هذه الأيام». أشعل سيجارة جديدة وتابع: «كان برفقتك تلك الليلة، على الأقل في بداية المساء، هل تتذكر؟ ذهبتما إلى السينما».

قال فرانسيس: «فيلم الخطوات التسعة والثلاثين⁽¹⁾».

عدت بذاكرتي إلى تلك الليلة بشيء من الصدمة؛ كانت ليلة خريفية عاصفة، والبدر يتوارى خلف السحب الداكنة، عملت حتى ساعة متأخرة في المكتبة ولم أتناول العشاء. في طريقي إلى المنزل، كنت أحمل شطيرة من مقصف الوجبات الخفيفة في جيبتي، وأوراق الشجر الجافة تتطاير وتتراقص حولي، عندما صادفت باني في طريقه لمشاهدة مسلسل هيتشكوك⁽²⁾ الذي كانت جمعية السينما تعرضه في قاعة العرض.

وصلنا متأخرين، فلم نجد مقاعد شاغرة، جلسنا على الدرج المغطى بالسجاد. كان باني مستلقياً على مرفقيه وساقاه ممدودتان أمامه، وهو يقضم مصاصة دوم-دوم صغيرة بشرود. كانت الرياح تعصف في الخارج وتهز الجدران الرقيقة، انفتح باب المسرح وانغلق حتى أبقاه أحدهم مفتوحاً بطوبة. على الشاشة

(1) فيلم إثارة بريطاني لعام 1978 من إخراج دون شارب، مع سيناريو من إخراج الكاتب البريطاني مايكل روبسون، الفيلم مقتبس من رواية مغامرة للمؤلف الإسكتلندي جون بوكان.

(2) مسلسل مختارات تليفزيونية أمريكي من ابتكار وإنتاج وتقديم ألفريد هيتشكوك.

كانت القاطرات تصرخ وهي تندفع فوق جسر حديدي يمتد فوق
هاوية سحيقة، كان المشهد أشبه بكابوس بالأبيض والأسود.

قلت: «تناولنا مشروبًا بعد ذلك، ثم ذهب إلى غرفته».

تهدد هنري وقال: «ليته فعل ذلك».

قلت: «أتذكر الآن، ظل يسألني إن كنت أعرف مكانك».

قال هنري: «كان يعرف جيدًا أين نحن، وهددناه ست مرات
بتركه في المنزل إن لم يحسن التصرف». أضاف فرانسيس وهو
يصب كأسًا أخرى: «ثم خطرت له فكرة رائعة بأن يذهب إلى
منزل هنري ليخيفه».

تابع هنري: «كنت غاضبًا جدًا من ذلك. حتى لو لم يحدث
شيء، كان فعله هذا خسيسًا. كان يعرف مكان المفتاح الاحتياطي،
فأخذه ودخل المنزل. وربما لم يكن ليحدث شيء لو لم تتوالى
المصادفات المروعة، لو توقفنا في الريف للتخلص من ملابسنا،
أو ذهبنا إلى مكان آخر... لو أن باني لم ينم».

سألت: «كان نائمًا؟»

«نعم، وإلا لكان ضجر وغادر».

قال هنري: «لم نعد إلى هامبدن حتى السادسة صباحًا، كانت
معجزة أننا عثرنا على السيارة وسط الحقول المظلمة، كان من
الحماقة أن نقود إلى نورث هامبدن بملابس ملطخة بالدماء،
كنا عرضة لأن توقفنا الشرطة أو أن نتعرض لحادث، لكنني كنت
مرهقًا ولم أكن أفكر بوضوح، فقادتني غريزتي إلى شقتي».

قلت: «غادر غرفتي في منتصف الليل».

«كان بمفرده في شقتي من الثانية عشرة والنصف حتى السادسة صباحًا، وقدر الطبيب الشرعي وقت الوفاة بين الواحدة والرابعة، هذه واحدة من الأوراق القليلة التي منحنا إياها القدر، فعلى الرغم من أنه لم يكن معنا، فإنه سيواجه صعوبة في إثبات غيابه، لكن هذه الورقة لا يمكننا استخدامها إلا في ظروف قاهرة». هز كتفيه وتابع: «لو أنه ترك المصباح مضاءً، لربما انتبهنا لوجوده».

«لكن المفاجأة كانت أنه انقض علينا من قلب الظلام، دخلنا وأشعلنا الضوء، وكان الوقت قد فات، استيقظ على الفور، لنجد أنفسنا أمامه».

علق فرانسيس متجهماً: «كل ثيابنا كانت بيضاء ومدماة، كأننا خرجنا من عالم إدغار آلان بو».

«يا إلهي، ماذا فعل؟»

«ماذا تتوقع؟ رؤّعنا حتى كدنا نموت من الفزع».

قال هنري: «مع ذلك نال ما يستحق».

«أخبره عن الآيس كريم».

أوضح هنري بغضب: «في الواقع كانت تلك القشة الأخيرة؛ أخرج ربع جالون من الآيس كريم من ثلاجتي ليأكله أثناء انتظاره، ولم يكلف نفسه عناء وضعه في طبق. أراد أن يأكله كله، وعندما غفا ذاب الآيس كريم فوقه وعلى مقعدي وعلى السجادة الشرقية الثمينة، لقد كانت قطعة أثرية رائعة، لكن عمال التنظيف الجاف قالوا إنها تضررت هي والمقعد بشكل لا يمكن إصلاحه». ثم أخرج

سيجارة من جيبه وأشعلها، وأكمل: «صرخ مثل بانشي⁽¹⁾ عندما رأنا».

تابع فرانسيس: «ولم يتوقف عن الصراخ، كانت الساعة السادسة صباحًا، والجيران نائمين» هز رأسه، وأكمل: «أذكر أن تشارلز تقدم نحوه محاولاً التحدث معه، وكان باني يصرخ بأعلى صوته، وبعد دقيقة أو دقيقتين...».

قاطعه هنري: «لم تكن سوى بضعة ثوانٍ في الواقع».

«...أمسكت كاميلًا منفضة سجائر زجاجية ورمتها باتجاهه، فارتطمت ب صدره».

قال هنري بشرود: «لم تكن ضربة قوية، لكنها جاءت في الوقت المناسب. سكت فوراً وحدث إليها، فقلت له: باني، صه. ستوقظ الجيران، اصطدمنا بغزال في طريق عودتنا إلى المنزل».

قال فرانسيس: «بعد ذلك مسح جبينه ونظر إلينا بغضب، ثم بدأ روتينه المعتاد: يا إلهي، لقد أخفتموني يا رفاق. لا بدّ أنكم كنتم شبه نائمين. واستمر في الثرثرة إلى ما لا نهاية».

قال هنري: «كنا نحن الأربعة واقفين هناك بملاءات ملطخة بالدماء والأضواء مشتعلة ولا توجد ستائر، مرئيين لأي شخص قد يمر بسيارته. وكان باني يتحدث بصوت عالٍ جدًا، والأضواء ساطعة، وأنا بالكاد أستطيع الوقوف من شدة الإرهاق والصدمة

(1) روح مؤنثة في الأساطير الأيرلندية تنذر بوفاة أحد أفراد الأسرة عادة عن طريق الصراخ أو النواح. ويرتبط اسمها بـ«الجثوات» أو التلال الأسطورية التي تنتشر في الريف الأيرلندي.

لدرجة أنني لم أستطع فعل شيء أكثر من التحديق إليه. غطتني دماء هذا الرجل، وحملناه معنا إلى داخل المنزل، والشمس كانت تشرق، وفوق كل ذلك كان باني، لم أستطع إجبار نفسي على التفكير في ما يجب فعله، ثم أطفأت كامبلا الضوء بتفكير عقلائي منها، وفجأة أدركت أنه مهما كان الأمر، وبغض النظر عما قد يكون هناك، كان علينا أن نخلع ملابسنا ونغتسل على الفور».

قال فرانسيس: «لقد اضطررت إلى تمزيق الملابس عن جسدي، جف الدم والتصق بجلدي. وبحلول الوقت الذي تمكنت فيه من التخلص منها، كان هنري والآخرون في الحمام بالفعل. كان الرذاذ يتطاير، اصطبغت المياه في مغطس الاستحمام بالأحمر، وتناثرت بقع الدماء على البلاط، كان كابوساً».

قال هنري وهو يهز رأسه: «لا أستطيع أن أصف لك مدى سوء وجود باني هناك، لكن بحق السماء لم يكن بوسعنا الوقوف مكتوفي الأيدي ننتظر حتى يغادر، كانت الدماء في كل مكان، وكان الجيران سيستيقظون قريباً، وربما حتى الشرطة ستطرق الباب في أي لحظة».

قال فرانسيس: «صحيح، كان من المؤسف أننا جعلناه يشعر بالقلق، ولكن في النهاية لم يكن باني محققاً ولم نكن أمام جي إدغار هوفر».

قال هنري: «بالضبط، لا أريد الإيحاء بأن وجود باني كان يشكل تهديداً كبيراً في تلك اللحظة، كان مجرد مصدر إزعاج، لأنني عرفت أنه سيتسائل عمّ يجري، لكنه في تلك اللحظة كان

أقل مشكلاتنا، لو كان لدينا وقت، لكنك جلست معه وشرحت له كل شيء فور دخولنا، لكن لم يكن أمامنا أي وقت». قال فرانسيس مرتجفًا: «ما زلت لا أستطيع دخول حمام هنري حتى اليوم، كانت الدماء تلتطخ البلاط، وشفرة حلاقة هنري تتأرجح من مشجب على الجدار، وأجسادنا مليئة بالكدمات والخدوش».

«تشارلز كان الأسوأ على الإطلاق».

«يا إلهي، علقت الأشواك في جميع أنحاء جسده».

«وتلك العضة».

قال فرانسيس: «لم أرَ شيئًا كهذا من قبل، حجمها أربع بوصات، وعلامات الأسنان كانت محفورة بعمق في اللحم، هل تتذكر ما قاله باني؟».

ضحك هنري وقال: «نعم، أخبره».

قال فرانسيس: «كنا جميعًا هناك، وكان تشارلز يستدير ليتناول الصابون، لم أكن أدرك أن باني كان واقفًا هناك، أعتقد أنه كان ينظر من الباب. فجأة سمعته يقول، بنبرة عملية غريبة: يبدو أن هذا الغزال قد نهش قطعة من ذراعك يا تشارلز».

قال هنري: «ظل واقفًا هناك بعض الوقت يدلي بتعليقات مختلفة، ولكنه اختفى فجأة، انزعجت من الطريقة التي غادر بها، لكنني كنت سعيدًا لأنه ابتعد. كان لدينا أمور كثيرة لنفعلها ولم يكن لدينا متسع من الوقت».

«ألم تكن خائفًا من أن يخبر أحدا؟»

نظر هنري إليه باستغراب وقال: «من؟»

«ماريون، أي شخص».

أجاب هنري: «لا، في تلك المرحلة لم يكن لدي أي سبب للاعتقاد بأنه سيفعل شيئاً كهذا، لقد شارك معنا في محاولات سابقة كما تعلم، لذلك لم يكن منظرنا غير عادي بالنسبة إليه كما قد يبدو لك، كان الأمر برمته سرّاً خطيراً، وكان متورطاً فيه معنا منذ شهور، كيف يمكنه أن يخبر أحداً دون أن يشرح كل شيء ويجعل نفسه يبدو أحمق؟ جوليان كان يعرف أيضاً ما كنا نحاول فعله، لكنني كنت واثقاً بأن باني لن يتحدث معه من دون الرجوع إلينا أولاً، وكنت على حق».

سكت هنري قليلاً، وأشعل سيجارة أخرى: «كان الفجر يقترب، وما زالت الأمور في حالة فوضى رهيبة؛ أثار أقدام مغطاة بالدماء على الشرفة، والخيتونات ملقاة على الأرض حيث أسقطناها. ارتدى التوأمان بعض ملابس القديمة وخرجوا لتنظيف الشرفة والسيارة، كنت أعلم أنه يجب حرق الخيتونات، لكنني لم أرغب في إشعال حريق كبير في الفناء الخلفي، ولم أرغب أيضاً في إحراقها داخل المنزل خوفاً من إطلاق جهاز إنذار الحريق. كانت مالكة المنزل تحذرنني دائماً من استخدام المدفأة لكنني كنت أشك في أنها تعمل، جريتها ولحسن الحظ اشتعلت».

قال فرانسيس: «لم أكن ذا نفع على الإطلاق».

رد هنري باستياء: «لا، بالتأكيد لم تكن كذلك».

«لم أستطع تمالك نفسي، شعرت أنني سأفقد السيطرة وأتقيأ، عدت إلى غرفة هنري واستغرقت في النوم».

«أعتقد أننا جميعاً كنا نرغب في النوم، ولكن كان علينا تنظيف المكان، عاد التوأمان إلى الداخل نحو السابعة صباحاً، كنت لا أزال أعاني أثناء تنظيف الحمام، كان ظهر تشارلز مليئاً بالأشواك المغروسة مثل وسادة دبابيس، قضيت وقتاً طويلاً مع كاميللا في استخراجها باستخدام ملقطين، ثم عدت إلى الحمام لأكمل ما بدأت. انتهى أسوأ ما في الأمر، لكنني كنت مرهقاً جداً، بالكاد أستطيع إبقاء عيني مفتوحتين. لم تكن المناشف قدرة جداً، حاولنا تجنب استخدامها كثيراً لكن كانت هناك بقع على بعضها، لذا وضعناها في الغسالة مع بعض الصابون، كان التوأمان نائمين على السرير القابل للطوي في الغرفة الخلفية، فدفعت تشارلز فوقه، واستلقيت بجواره».

قال فرانسيس: «نمت أربع عشرة ساعة، لم أنم قط هذه المدة في حياتي كلها».

رد هنري: «ولا أنا، نمت كأنتي ميت، بلا أحلام».

قال فرانسيس: «لا أستطيع وصف مدى ارتباكِي، كانت الشمس تشرق عندما خلدت إلى النوم، شعرت كأنتي بالكاد أغمضت عيني عندما استيقظت من جديد لأجد الظلام قد حلّ. كان الهاتف يرن بلا توقف، ولم يكن لدي أي فكرة عن مكان وجودي، ظل يرن ويرن، وأخيراً نهضت متثاقلاً وتوجهت نحو الردهة، قال أحدهم لا تجب، ولكن...».

قاطعه هنري قائلاً: «لم أرَ شخصاً مثلك لا يستطيع مقاومة الرد على الهاتف، حتى لو كان في منزل شخص آخر».

أجاب فرانسيس: «وماذا كان من المفترض أن أفعل؟ أتركه يرن؟ على أي حال رفعت السماعة وكان على الطرف الآخر باني مبتهجًا كطائر القبرة، كان يمازحنا حول حالتنا المزرية ويسأل إن كنا قد تحولنا إلى مجموعة من العراة، ثم اقترح أن نذهب إلى الحانة الفرنسية لتناول العشاء».

اعتدلت في مقعدي وقلت: «انتظر، هل كان ذلك في تلك الليلة؟»

أوما هنري برأسه وقال: «نعم، لقد جئت معنا أيضًا، أتذكر؟» قلت: «بالطبع»، وشعرت بإثارة غير مبررة لأن القصة بدأت تتقاطع مع تجربتي الشخصية. «بالطبع، التقيت باني وهو في طريقه إلى منزلك».

قال فرانسيس: «إذا سمحت لي بالقول، لقد فوجئنا قليلاً عندما ظهر برفقتك».

قال هنري: «أعتقد أنه أراد في النهاية أن يجمعنا لنحدث عما حدث، لكن الأمر لم يكن عاجلاً، تذكر أن مظهرنا لم يكن غريباً بالنسبة إليه كما قد نتوقع، كان معنا قبل بضعة ليالٍ عندما ... ما الكلمة التي أبحث عنها؟»

قال فرانسيس: «عندما كنا سكارى، وسقطنا في الوحل، ولم نعد إلى المنزل حتى الفجر. كان هناك دماء، وربما كان يتساءل كيف قتلنا ذلك الغزال، لكن مع ذلك ...».

عادت إليّ ذكريات الباخوسيات باضطراب؛ الحوافر والضلوع الملطخة بالدماء، والأشلاء المتدلّية من أشجار التنوب. ثمة كلمة

في اليونانية تعبر عن ذلك؛ «أوموفاجيا»، أي أكل اللحم النيء⁽¹⁾. وفجأة، تذكرت بوضوح: لحظة دخولي شقة هنري، ومعى كل تلك الوجوه المرهقة، وتحية بانى الساخرة: «مرحبًا، يا قتلة الغزلان!» في تلك الليلة كانوا هادئين وشاحبين، ولكنى لم أفكر إلا أنهم يعانون من الخُمار، فقط التهاب حنجرة كاميلا بدا غير عادي. أخبروني أنهم ثملوا في الليلة السابقة حتى فقدوا وعيهم تقريبًا، ثملوا مثل البندقوط⁽²⁾، وأن كاميلا أصيبت بالبرد عندما تركت كنزتها في المنزل وهم في طريقهم إلى نورث هامبدن، في الخارج كان الظلام قد حلّ، وراحت الأمطار تهطل بغزارة، أعطاني هنري مفاتيح السيارة وطلب منى القيادة.

كانت ليلة جمعة ولكن الطقس السيئ أبقي الناس في منازلهم، فكانت الحانة الفرنسية شبه مهجورة، تناولنا ريريت الويلزية⁽³⁾ واستمعنا إلى صوت المطر وهو ينساب فوق السطح، شريت أنا وبانى الويسكي بالماء الساخن، فيما اختار الآخرون الشاي.

(1) أكل اللحم النيء: المصطلح ذو أهمية في سياق عبادة باخوس، وهو جزء كبير من الأسطورة الباخوسية. أحد ألقاب باخوس «أكل اللحم النيء». والأوموفاجيا تعد رمزًا لانتصار الطبيعة البرية على الحضارة، ورمزًا لكسر الحدود بين الطبيعة والحضارة.

(2) حيوان ثديي يعيش في أستراليا وغينيا الجديدة، يزن أقل من كيلوجرام واحد، وكثيرًا ما يكون لون فروه بنيًا أو رماديًا.

(3) الأرنب الويلزي أو ريريت الويلزية هو طبق يتكون من صلصة الجبن الساخنة التي تقدم على شرائح من الخبز المحمص. كان الاسم الأصلي للطبق في القرن الثامن عشر هو «الأرنب الويلزي»، الذي أعيد تسميته لاحقًا على أنه «ريريت»، لأنه لا يحتوي على لحم الأرنب.

قال باني بمكر بعد أن سجل النادل طلباتنا: «أشعر بالغثيان،
يا أتباع باخوس».

رمقته كاميلا بنظرة حادة.

عندما خرجنا إلى السيارة بعد العشاء، دار باني حولها وتفقد
المصابيح الأمامية وركل الإطارات، قال وهو يرمش تحت المطر:
«هل هذه السيارة التي كنتم تستقلونها الليلة الماضية؟»
«نعم».

أزاح شعره المبتل بعيداً عن عينيه، وانحنى ليفحص المصد،
وقال: «السيارات الألمانية! أكره الاعتراف ولكن يبدو أن الألمان
تفوقوا على ديترويت ميتال، لا أرى أي خدش».
سألته عمّ يقصده.

«أوه، كانوا يتجولون بالسيارة وهم ثملون، أثاروا جلبة في
الطريق العام، وصدموا غزلاً».

ثم سأل هنري: «هل قتلته؟»

رفع هنري رأسه وهو يدور حول السيارة ليصل إلى مقعد
الراكب الأمامي: «عمّ تتحدث؟»

«الغزال... هل قتلته؟»

فتح هنري الباب، وقال: «بدا لي ميتاً تماماً».

ساد صمت طويل، كانت عيناى تدمعان من الدخان الكثيف
الذي ملأ الغرفة، كان هناك ضباب رمادي كثيف معلق بالقرب
من السقف.

قلت: «إذا ما المشكلة؟».

«ماذا حدث؟ هل أخبرتموه بما حدث حقاً أم لا؟»

تنهد هنري بعمق وقال: «لا، ربما كنا لنفعل ذلك، ولكن من الواضح أنه كلما كان عدد من يعرفون أقل كان أفضل، عندما رأيته لأول مرة بمفرده، طرحت الموضوع بحذر، لكنه بدا مقتنعاً بقصة الغزال، فتركت الأمر عند هذا الحد، إذا لم يكن قد اكتشف الحقيقة بنفسه، فلا حاجة إلى إخباره».

لقد عثروا على جثة الرجل، ونُشر مقال عنها في صحيفة هامبدن إكزامينر بلا أي مشكلة تُذكر. لكن بعد ذلك، وبضربة حظ عاثر -إذ يبدو أن هذه القصص نادرة في هامبدن- نشروا مقالة تكميلية بتفاصيل جديدة بعد أسبوعين بعنوان «الميتة الغامضة في مقاطعة باتنكيل»، وقرأ باني تلك المقالة.

قال فرانسيس بغضب: «كان هذا أسوأ شيء يمكن أن يحدث، باني لا يقرأ الجريدة أبداً، لم يكن لأي من هذا أن يحدث لولا ماريون البغيضة».

قال هنري وهو يفرك عينيه: «لديها اشتراك في الجريدة ربما بسبب عملها في مركز الطفولة المبكرة، كان باني معها في القاعة العامة قبل الغداء. وبينما كانت ماريون تتحدث إلى إحدى صديقاتها، شعر باني بالملل وبدأ بقراءة الصحيفة، ذهبت أنا والتوأمان لنلقي التحية عليه، كان أول شيء قاله وهو يصرخ عبر الغرفة: انظروا هنا يا رفاق، قُتل أحد مزارعي الدجاج في العراء بالقرب من منزل فرانسيس».

ثم قرأ جزءاً من المقال بصوت عالٍ: جمجمة مكسورة، لا سلاح جريمة، لا دافع، ولا أدلة. كنت أحاول التفكير في طريقة لتغيير الموضوع عندما قال: مهلاً، العاشر من نوفمبر؟ تلك هي الليلة التي كنتم فيها يا رفاق في منزل فرانسيس، الليلة التي دهستم فيها ذلك الغزال.

فقلت: لا أرى كيف يمكن أن يكون هذا صحيحاً.

قال: العاشر، أتذكر ذلك لأنه كان في اليوم السابق لعيد ميلاد أمي، هذا شيء لافِت حقاً، أليس كذلك؟ قلنا: أجل، إنه كذلك بالتأكيد.

قال: لو كنت شخصاً مُرتاباً، لظننت أنكم من فعلتم ذلك يا هنري، فقد عدتم من مقاطعة باتنكيل في تلك الليلة والدماء تغطيكم من رؤوسكم إلى أقدامكم».

أشعل هنري سيجارة أخرى وقال: «كان ذلك وقت الغداء، والقاعة العامة مكتظة، وماريون وصديقتها كانتا تستمعان إلى كل كلمة، وبالإضافة إلى ذلك أنت تعرف كيف يبدو صوته... ضحكنا جميعاً، وقال تشارلز شيئاً فكاهياً، ونجحنا في تغيير الموضوع، لكن باني عاد لينظر إلى الصحيفة مرة أخرى، وقال: لا أستطيع أن أصدق هذا يا شباب، جريمة قتل حقيقية، في الغابة أيضاً، على مسافة لا تزيد على ثلاثة أميال من مكانكم. كما تعلمون لو أن رجال الشرطة أوقفوكم في تلك الليلة، فمن المحتمل أن تكونوا في السجن الآن. هناك رقم هاتف للاتصال به إذا كان لدى أي شخص أي معلومات، إذا أردت أراهن أنني أستطيع أن أوقعكم في مشكلات كثيرة...».

وتابع هنري: «بالطبع، لم أكن أعرف في ماذا أفكر، هل كان يمزح؟ هل كان يشك حقاً؟ في النهاية تمكنت من تغيير الحديث، لكنني شعرت بشعور فظيع لأنه أدرك مدى التوتر الذي سببته كلماته لي. يعرفني جيداً، ولديه حاسة سادسة بخصوص هذا النوع من الأمور، كنت متوتراً جداً. يا إلهي كان ذلك قبل الغداء مباشرة، وكان حراس الأمن حولنا، ونصفهم على صلة بمركز الشرطة في هامبدن، كنت أعلم أن قصتنا لن تصمد أمام أي تحقيق دقيق، من الواضح أننا لم نصطدم بغزال.

لم يكن هناك أي خدش على السيارتين، ولو تمكن أحدهم من الربط بيننا وبين ذلك الرجل الميت... لهذا كنت سعيداً عندما توقف باني عن الحديث في الموضوع، لكن حتى في ذلك الحين شعرت بأن هذه القصة لم تنتهِ بعد، استمر في مضايقتنا بشأنها طوال الفصل الدراسي في العلن وفي السر، ربما بقصد بريء، ولكنك تعرف كيف هو باني، ما إن يعلق شيء ما في ذهنه لا يتخلى عنه أبداً».

كنت أعرف ذلك جيداً، كان باني يمتلك قدرة عجيبة على اكتشاف المواضيع التي تزعج مستمعيه، وما إن يحددها يتكلم عنها بسخرية لا تعرف الرحمة، لم يتوقف قط عن مضايقتي طوال الأشهر التي عرفته فيها، حتى بشأن تفاصيل تافهة مثل السترة التي ارتديتها في اليوم الأول الذي تناولنا فيه الغداء معاً، كان يرى في أسلوبه في ارتداء الملابس مادة للسخرية إذ وصفه ذات مرة بأنه كاليفورني رديء وعديم الذوق، ومن منظور محايد لم تكن ملابسني تختلف عن ملابسه، لكن تعليقاته الدنيئة لم تكن

تتوقف، وأعتقد أنه أدرك بحدس خفي مدى انزعاجي العميق وخرجي من تلك الفروق البسيطة في الأسلوب والسلوك بيني وبين الآخرين، على الرغم من ضحكتي الودودة.

اعتدت أن أتأقلم بمهارة مع البيئات المختلفة -لم تكن لترى شخصاً يجسد صورة المراهق الكاليفورني النموذجي، أو طالباً مستهتراً يدرس في السنة التمهيدية في كلية الطب مثلي؛ لكن مع ذلك لم أستطع يوماً أن أندمج بالكامل، كنت دائماً أتميز بطريقة ما عن محيطي، مثلما تظل الحرياء الخضراء كيائاً مميزاً عن الورقة التي تجثم عليها مهما كانت درجة تشابه اللون، وعندما كان باني يتهمني بوقاحة أمام الملأ بارتداء قميص من خليط البوليستر والقطن، أو يسخر من قصة بنطالي التي سماها «القصة الغريبة»، مع أنه في الحقيقة لا يمكن تمييزه عن بنطاله، كان يستمتع بذلك لأنه أدرك بيقين مطلق أن هذه الأمور البسيطة تسبب لي انزعاجاً حقيقياً.

لم يكن من الممكن أن تفوته ملاحظة الأثر الذي تركته تعليقاته عندما ذكر جريمة قتل المزارع لهنري، وما أن شعر بتأثيرها، لم يستطع مقاومة الرغبة في الاستمرار في استفزازه.

قال فرانسيس: «بالطبع، لم يكن يعرف شيئاً، في الواقع لم يكن يدرك الحقيقة، كان الأمر بالنسبة إليه مجرد مزحة كبيرة، لذا كان يستمتع بإلقاء تلميحات عن ذلك المزارع الذي قتلناه فقط ليرى رد فعلي المرعوب، وفي أحد الأيام أخبرني أنه رأى شرطياً أمام منزلي يسأل مالكة المنزل عني».

أضاف هنري: «فعل الشيء نفسه معي، كان يمزج دائماً قائلاً إنه سيتصل بالرقم المخصص للإدلاء بمعلومات عن الجريمة وسيقسم أموال المكافأة بيننا، كان يمسك الهاتف ويتظاهر بالاتصال.

تستطيع أن تتخيل كم أصبح الأمر مزعجاً بعد مدة من الوقت، يا إلهي، بعض تلك الأشياء قالها أمامك... والأمر الأكثر رعباً هو أنك لا تعرف أبداً متى سيلدغ لدغته التالية ويتطرق إلى الموضوع. قبل انتهاء الفصل الدراسي ومغادرتنا الكلية بقليل، دسّ نسخة من تلك المقالة الصحفية تحت مساحة الزجاج الأمامي لسيارتي: «الميتة الغامضة في مقاطعة باتنكيل»، كان من المروع أن نعلم أنه احتفظ بتلك المقالة كل ذلك الوقت».

قال هنري: «الأسوأ من ذلك كله أنه لم يكن بوسعنا فعل أي شيء على الإطلاق، في لحظة ما خطر لنا أن نصارحه بكل شيء ونسلم أنفسنا إلى رحمته، ولكننا أدركنا حينها أنه كان من المستحيل التنبؤ بردة فعله. كان مكتئباً ومريضاً وقلقاً بشأن درجاته الدراسية.

ومع اقتراب نهاية الفصل الدراسي، بدا أن الخيار الأفضل هو البقاء بجانبه حتى عطلة الكريسماس، فنأخذه إلى بعض الأماكن، ونشتري له ما يحتاج إليه، ونوليّه كل اهتمامنا، على أمل أن ينسى الأمر مع مرور الشتاء».

تتهد هنري وتابع: «في نهاية كل فصل دراسي تقريباً، كان باني يقترح أن نساfer معاً في رحلة، وهو ما يعني أن يختار الوجهة فيما أتحمّل أنا كل التكاليف، لم يكن يملك المال حتى للسفر إلى مانشستر بمفرده.

وعندما طرح باني الموضوع -كما توقعت- قبل أسبوع أو أسبوعين من انتهاء الدراسة، فكرت: ولمَ لا؟ على الأقل سيكون أحدنا قادرًا على مراقبته خلال الشتاء، وربما يكون تغيير المكان مفيدًا له. كما أنني لم أمانع إذا شعر ببعض الامتنان تجاهي، كان يرغب في السفر إلى إيطاليا أو جامايكا، وبما أنني لم أكن أستطيع تحمل تكلفة رحلة إلى جامايكا، اشترت تذكرتين إلى روما، ورتبت حجز بعض الغرف بالقرب من ساحة إسبانيا⁽¹⁾. قال فرانسيس: «وأعطيته كذلك المال لشراء الملابس وكتب إيطالية لا قيمة لها».

تابع هنري: «نعم، كانت تلك النفقات تبذيرًا هائلًا لكنها بدت لي استثمارًا جيدًا، حتى أنني توقعت أن الرحلة قد تكون ممتعة ومثيرة، ولكن ما حدث فاق كل تصوراتي حتى في أكثر أفكارني جموحًا. لا أعرف من أين أبدأ، أتذكر عندما رأى غرفنا التي كانت في الواقع تحفة فنية بسقوفها المزخرفة برسومات جصية رائعة وشرفة عتيقة جميلة وإطلالة خلابة، كنت فخورًا بنفسني لإيجادي هذا المكان لكن باني كان غاضبًا وغير راضٍ، بدأ يتذمر من أنها متهاكة، وأن الجو بارد جدًا وأن السباكة رديئة، وباختصار، المكان غير مناسب على الإطلاق، وتساءل كيف خدعوني لأقبل بهذه الغرف. قال إنه كان يعتقد أنني أملك من الفطنة والدراية ما يكفي لأتجنب الوقوع في شرك تلك الفخاخ المريعة التي تُصَبّ للسياح، لكن للأسف اتضح أنه مخطئ. وألمح إلى أنهم

(1) بالإيطالية في الأصل (بيازا دي إسبانيا) إحدى أشهر الساحات في روما.

قد يقطعون حناجرنا في هزيع الليل، في تلك المرحلة كنت أكثر استعداداً لمجاعة رغباته. سألته إذا لم تعجبه الغرف فأين يفضل الإقامة؟ فاقترح أن نحصل على جناح -ليس غرفة بل جناح- في فندق جراند هوتيل.

واصل الإلحاح، وأخيراً أخبرته بحزم أنني لن أنفذ فكرته، كان لديّ سببي الوجيه فقد كان سعر الصرف غير ملائم، وتجاوزت تكلفة الغرف في جراند هوتيل قدرتي المالية خصوصاً مع ضرورة دفع ثمنها مسبقاً، ظل عابساً عدة أيام متظاهراً بمعاناته من نوبة ربو، كان يهيم بلا هدف، ويئن بصوت عال في جهاز الاستنشاق، ويزعجني باستمرار متهماً إياي بالبخل وما إلى ذلك. ويذكر أنه عندما يسافر فإنه يحب أن يفعل كل شيء على النحو الصحيح. في النهاية فقدت أعصابي، أخبرته أنه إذا كانت الغرف مناسبة لي، فهي بالتأكيد أفضل مما اعتاده، أعني... يا إلهي... كان ذاك الفندق قصراً في الماضي، وكان ملكاً لكونتيسة، وقد دفعت ثروة مقابل حجز غرفتين فيه، وباختصار لم يكن من الممكن أن أدفع خمسمئة ألف ليرة في الليلة لأحظى بصحبة سياح أمريكيين وبعض المفارش الفاخرة.

لذلك، بقينا في ساحة إسبانيا حيث حوّل باني إقامتنا إلى ما يشبه الجحيم، لم يتوقف عن التذمر والشكوى من كل شيء؛ من السجادة والسباكة وما اعتبره نقصاً في مصروف جيبه، كنا نقيم على بعد خطوات من شارع فيا كوندوتي؛ أغلى شارع تسوق في روما، وهو ما كان ضربة حظ موفقة، فلا عجب أنني استمتعت بوقتي في التسوق بينما كان باني يستلقي في العلية وهو يتنفس

بصفير مثل طفل محروم، حاولت جاهداً أن أرضيه، ولكن كلما اشتريت له شيئاً، طالب بالمزيد.

علاوة على ذلك لم يتركني باني وشأني، كان يشتكي إذا غبت عنه دقائق معدودة، وإذا دعوته لمرافقتي إلى متحف أو كنيسة -يا إلهي، نحن في روما- كان يشعر بالملل سريعاً ويطلب المغادرة، وصل الأمر إلى حد أنني لم أتمكن حتى من قراءة كتاب من دون أن يقاطعني، تخيل أنه كان يقف خارج الباب يثرثر بينما أستحم، حتى أنه تجرأ على العبث بمحتويات حقيبتي، من المزعج أن تتقاسم مثل هذه الأماكن الضيقة مع شخص آخر فما بالك بشخص متطفل مثل باني، ربما نسيت كيف كانت الحال عندما عشنا معاً في السنة الجامعية الأولى، أو ربما كنت قد اعتدت العيش بمفردي، بعد أسبوعين من هذا الوضع شعرت أنني على شفا انهيار عصبي، لم أعد أطيق رؤيته، وكنت قلقاً بشأن أشياء أخرى أيضاً».

ثم قال هنري لي فجأة: «أتعلم، أحياناً تصيبني نوبات صداد فظيعة».

كنت أعلم ذلك بالفعل فقد وصف لي باني-المولع بالحديث عن أمراضه وأمراض الآخرين- تلك النوبات ذات مرة، أخبرني بهمس مشوب بالرهبة كيف كان هنري يستلقي في غرفة مظلمة، وكمادات الثلج فوق رأسه، ومنديل معقود بإحكام حول عينيه.

قال هنري: «لم أعد أصاب بتلك النوبات كثيراً كما في السابق، كانت تلازمي باستمرار عندما كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، لكنها الآن تأتي بشكل نادر، ربما مرة واحدة

في السنة، ولكنها أصبحت أسوأ بكثير. وبعد بضعة أسابيع في إيطاليا شعرت بأن نوبة الصداع باتت وشيكة، لا لبس في ذلك! فالضوضاء أصبحت أعلى، والأشياء حولي تومض، ورؤيتي المحيطية تتلاشى، وأرى أشكالاً غير مألوفة تحوم على أطراف عيني، شعرت بضغط رهيب في الهواء حولي، ولم أعد قادراً على قراءة لافتات الشوارع أو فهم أبسط الجمل المنطوقة.

لم يكن هناك شيء يمكنني فعله حينها، لذا بقيت في غرفتي، وأسدت الستائر، وتناولت الدواء، وحاولت البقاء في هدوء تام، وأدركت في النهاية أنني بحاجة إلى إرسال برقية إلى طبيبي في الولايات المتحدة، فالأدوية التي أتناولها في هذه الحالات قوية ولا تُصرف إلا بوصفة طبية، وعادة أحتاج إلى حقنة في غرفة الطوارئ، لم أكن متأكداً مما سيفعله الطبيب الإيطالي إذا ذهب سائح أمريكي إليه طالباً حقنة من الفينوباربيتال.⁽¹⁾

لكن بحلول ذلك الوقت كان الأوان قد فات، هاجمني الصداع في غضون ساعات، ولم أعد قادراً على العثور على طبيب أو شرح حالتي حتى لو تمكنت من العثور على أحدهم. لا أعلم إن كان باني قد حاول مساعدتي في العثور على طبيب أم لا، لغته الإيطالية ركيكة جداً، وعادة ما ينتهي به الأمر إلى إهانة الشخص الذي يحاول التحدث معه. لم يكن مكتب أمريكي إكسبريس بعيداً عن مكان إقامتنا، وأنا واثق بأنهم كانوا سيعطونه اسم طبيب يتحدث الإنجليزية، لكن بالطبع لم يخطر هذا بباله.

(1) دواء مهدئ ومنوم ومضاد للاختلاج.

لا أكاد أتذكر ما حدث في الأيام القليلة التالية، بقيت مستلقيًا في غرفتي والستائر مغلقة وورق الجرائد ملصق فوقها ليمنع أي ضوء، كان من المستحيل حتى طلب ثلج إلى الغرفة، وكل ما كان متاحًا لي هو أبريق من مياه الصنبور⁽¹⁾ الفاترة، لكن بعد ذلك واجهت صعوبة في التحدث بالإنجليزية، فما بالك بالإيطالية. الرب وحده يعلم أين غاب باني في ذلك الوقت، ليس لديّ أي ذكرى عنه أو عن أي شيء تقريبًا خلال نوبة الصداع. على أي حال بقيت مستلقيًا على ظهري عدة أيام، بالكاد أستطيع إغلاق عيني من دون أن أشعر أن جبهتي على وشك الانفجار، وأن كل شيء حولي مظلم ويشير غثياني، تأرجحت بين الوعي واللاوعي حتى لاحظت أخيرًا خيطًا رفيعًا من الضوء يتسلل من حافة الستارة، لا أدري كم من الوقت أمضيت في مراقبته، لكنني أدركت تدريجيًا أن الصباح قد بزغ، وأن الصداع بدأ يتراجع قليلًا، وأنتي أستطيع التحرك بلا معاناة كبيرة، أدركت أيضًا أنني كنت عطشانًا جدًا.

لم يكن ثمة ماء في إبريقي، لذا نهضت وارتديت معطفي المنزلي، وذهبت لأشرب.

كانت غرفتي وغرفة باني تفتحان على غرفة مركزية كبيرة، يبلغ ارتفاع سقفها خمسة عشر قدمًا، مزينة بلوحة جدارية على طراز كاراتشي⁽²⁾، وإطار جصي منحوت بإتقان. وكان هناك

(1) بالإيطالية في الأصل.

(2) أنيبيل كاراتشي وهو رسام باروكي إيطالي ولد في نوفمبر 1560 في مدينة بولونيا في إيطاليا، وتوفي في يوليو 1609 في روما.

أبواب فرنسية تؤدي إلى الشرفة. أعمى ضوء الصباح عيني، لكنني استطعت تحديد ظل اعتقدت أنه باني، كان منحنيًا فوق بعض الكتب والأوراق على مكتبي. انتظرت حتى أصبحت صورته أوضح، وضعت يدي على مقبض الباب لأحافظ على توازني، ثم قلت: «صباح الخير يا باني».

نهض باني عن مقعده فجأة كأنه قد تعرض لحرق، وعبث بالأوراق بعصبية كأنه يخفي شيئًا ما، في تلك اللحظة أدركت ما كان يمسك به، تقدمت نحوه وانتزعت الأوراق منه، كانت مذكراتي. لطالما كان يفتش في أغراضي محاولاً الاطلاع عليها، وكنت أخفيها خلف المدفأة، لكن يبدو أنه استغل فترة مرضي ليبحث في غرفتي مجددًا، لقد عثر عليها من قبل، لكنني كنت أكتب باللاتينية فلم أعتقد أنه سيفهم كثيرًا منها، لم أستخدم حتى اسمه الحقيقي، بل أطلقت عليه لقب «الأرنب المزعج»⁽¹⁾، الذي ظننت أنه لن يفهم معناه بلا قاموس.

لكن لسوء حظي، في أثناء مرضي أتاحت له الفرصة للبحث في القاموس، وعلى الرغم من أننا كنا نسخر من باني بسبب ضعفه في اللاتينية، فإنه استطاع ترجمة تدويناتي الأخيرة إلى الإنجليزية بشكل مذهل. لم أكن أتصور أنه قادر على إنجاز شيء كهذا، لا بد أنه قضى أيامًا في ذلك.

لم أكن غاضبًا حتى، ولكن صُدمت بشدة، نظرت إلى الترجمة ثم إليه، وفجأة دفع كرسيه إلى الخلف وبدأ بالصراخ في وجهي،

(1) باللاتينية في الأصل.

اتهمني بأننا قتلنا ذلك الرجل بدم بارد، ولم نكلف أنفسنا عناء إخباره، رغم أنه كان يشك في وجود شيء مريب طوال الوقت، تساءل بغضب عن سبب نعته بـ«الأرنب»، وهدد بالذهاب إلى القنصلية الأمريكية لاستدعاء الشرطة، في تلك اللحظة -بدافع من الإحباط وليس الغضب- صفعته على وجهه بأقصى ما أستطيع، لم يكن يجب أن أفعل ذلك، كنت مرهقاً ومريضاً وأردت فقط إسكاته، خشيت أن يسمعه أحد؛ لم أعتقد أنني أستطيع تحمل ذلك ثانية أخرى، ضربته بقوة أكبر مما قصدت لدرجة أنه فتح فمه من هول الصدمة.

تركت يدي علامة بيضاء كبيرة على خده، وسرعان ما تدفق الدم إلى وجهه، فاحمر بشكل ساطع. بدأ يصرخ في وجهي بهستيرية ويلعنني بجنون، ويحاول توجيه اللكمات لي. في تلك اللحظة سمعت خطوات سريعة على الدرج تلاها طرق قوي على الباب، وصوت صياح هذياني باللغة الإيطالية، أمسكت بالمذكرات وترجمتها وألقيت بهما في الموقد، حاول باني انتشالهما لكنني منعتة، حتى بدأت الخطوات تقترب، ثم صرخت منادياً الطارق، لتدخل خادمة الغرف.

دخلت الخادمة إلى الغرفة، وهي تصرخ بالإيطالية بسرعة كبيرة فلم أتمكن من فهم أي كلمة مما قالت. في البداية ظننت أنها غاضبة بسبب الضجيج، لكن سرعان ما أدركت أنها كانت قلقة عليّ، عرفت أنني مريض، ولم تسمع أي صوت من الغرفة منذ عدة أيام، وبعد ذلك سمعت الصراخ، فظننت أنني ربما قد فارقته الحياة ليلاً ووجدني الشاب الآخر، لكنها عندما رأته

واقفاً أمامها، أدركت أنها كانت مخطئة. سألتني إن كنت بحاجة إلى طبيب أو إسعاف أو حتى بيكرينات الصودا، شكرتها وطمأنتها أنني بخير، حاولت التفكير في عذر مقنع لما حدث، لكنها لم تكن مهتمة، ثم غادرت لإحضار وجبة الفطور.

بدا باني مشوشاً، ولم يكن لديه أي فكرة عن سبب قدوم الخادمة، أعتقد أن الأمر بدا له مريباً وغير مفسّر، سألتني إلى أين ذهبت الخادمة وما الذي قالته، لكنني كنت مريضاً وغاضباً فلم أستطع الإجابة. عدت إلى غرفة نومي وأغلقت الباب خلفي، وبقيت هناك حتى عادت الخادمة بوجبة الفطور.

وضعتته على الشرفة، وخرجنا لتناوله، كان من الغريب أن باني لم يكن لديه الكثير ليقوله. بعد مدة من الصمت المشحون، سألتني عن صحتي وأخبرني بما فعله خلال مرضي، ولم يقل شيئاً عما حدث قبل قليل، تناولت فطوري مدركاً أن كل ما يمكنني فعله هو الحفاظ على هدوئي، كنت أعلم أنني جرحت مشاعره، في الواقع كتبت عنه أشياء غير لطيفة في مذكراتي، لذلك قررت أن أتعامل معه بلطف قدر استطاعتي آملاً ألا تحدث مشكلات أخرى بيننا.

سكت لحظة ليأخذ رشفة من كأس الويسكي، نظرت إليه وقلت: «هل كنت تظن حقاً أن المشكلات لن تقع؟»

قال هنري بغضب: «أعرف باني أفضل مما تعرفه.»
«لكن ماذا عن تهديده بالشرطة.»

«كنت واثقاً بأنه لم يكن جاداً بشأن إبلاغ الشرطة.»

قال فرانسيس وهو يميل إلى الأمام في مقعده: «لو كانت المسألة تتعلق بالرجل الميت فقط، لكانت الأمور مختلفة، ألا

تري؟ لا يتعلق ذلك بتأنيب الضمير أو شعوره بأي غضب أخلاقي. إنه فقط يشعر بأنه تعرض للظلم وأنتا خدعناه بإخفاء الحقيقة عنه».

رد هنري: «في الحقيقة ظننت أنني أسدي له معروفًا بعدم إخباره، لكنه كان غاضبًا - يبدو أنه لا يزال غاضبًا حتى الآن - لأنه شعر بأننا استبعدناه، وأخفينا الأحداث عنه. وأفضل شيء يمكنني فعله كان محاولة تعويضه عن ذلك، في النهاية نحن صديقان قديمان».

قال فرانسيس: «أخبره عن تلك الأشياء التي اشتراها باني ببطاقات ائتمانك عندما كنت مريضًا».

رد هنري بحزن: «لم أكتشف ذلك إلا لاحقًا، لكن ذلك لا يشكل فرقًا كبيرًا الآن». أشعل سيجارة أخرى، وواصل: «بعد أن اكتشف باني الأمر أصيب بصدمة، كان في بلد غريب لا يعرف لغته، ولم يكن لديه أي مال، تصرف بشكل جيد لبعض الوقت، لكن ما إن استوعب الحقيقة، ولم يستغرق وقتًا طويلاً، أدرك أنه كان يتحكم في الوضع، وأنتي أنا من كنت تحت رحمته، بدأ بتعذيبني بشكل لم أكن أتصوره».

تحدث عن الموضوع في كل مكان؛ في المطاعم، في المتاجر، في سيارات الأجرة، ومع أن الموسم لم يكن موسم سياحة، ولم يكن هناك عدد كبير من السياح الإنجليز، ولكنني كنت أعلم أن هناك عائلات كاملة من الأمريكيين في أوهايو يتساءلون إن كان... يا إلهي.

ألقى باني خطباً مطولة في هوستيريا ديل أورسو⁽¹⁾، وتشاجرنا في شارع سيستري⁽²⁾، وحاول إعادة تمثيل الحادثة في بهو فندق جراند هوتيل.

ثم في أحد الأيام، بينما كنا في مقهى لاحظت رجلاً يجلس إلى الطاولة المجاورة ويبيدي انتباهه إزاء كل كلمة يقولها باني، وعندما نهضنا للمغادرة تبعنا الرجل. لم أكن متأكداً مما يجب أن أفكر فيه، لكنه كان يتحدث الألمانية مع النادل، ولم أكن أعلم إن كان يفهم الإنجليزية أو كان قادراً على سماع باني بما يكفي ليستوعب حديثه، لكنني لم أرغب في المخاطرة، أخذت باني عبر الأزقة الملتوية حتى تأكدت أننا تخلصنا منه، ولكن في صباح اليوم التالي عندما نظرت من النافذة كان الرجل الألماني يقف بجوار النافورة.

كان باني مبتهجاً، ظن أن الأمر لا يعدو كونه لعبة تجسس. أراد الخروج ليرى إن كان الرجل سيتبعنا، وكان عليّ منعه بالقوة. قضيت بقية الصباح أراقب من النافذة. وقف الألماني، دخن بضع سجائر، ثم غادر بعد ساعات.

ولكن بحلول الساعة الرابعة تقريباً بدأ باني الذي كان يتذمر منذ الظهر يلح للخروج من الفندق، فخرجنا أخيراً لتناول الطعام. وبينما كنا نسير في الشارع على بعد بنايات قليلة من

(1) مبنى في روما يعود إلى القرن الرابع عشر يقع بين ساحة نافونا ونهر التيبر. يضم فندقاً ومطعماً.

(2) يقع شارع سيستري في وسط منطقة أثرية صغيرة في روما، وهو شارع يعج بالمُتاجر المتخصصة في الأواني الكنسية، إلى جانب المطاعم ومتاجر التنظيف الجاف وغيرها.

الساحة رأيت الألماني مرة أخرى يسير خلفنا من بعيد، استدرت ونظرت إلى الوراء لمواجهته لكنه اختفى، ثم ظهر مرة أخرى أمامي بعد دقائق. بدأت أشعر بالخوف حقًا. انعطفنا على الفور إلى شارع جانبي وعدنا إلى الفندق عبر طرق ملتوية، لم يتناول باني غداءه قط في ذلك اليوم، وكاد يقودني إلى الجنون. جلست بجوار النافذة حتى حلّ الظلام، وأمرت باني بالصمت وأنا أحاول التفكير في ما يجب فعله. لم أعتقد أن الرجل يعرف بالضبط أين نقيم، وإلا فلماذا يتجول عشوائيًا في الساحة، ولا يأتي مباشرة إلى فندقنا إذا كان لديه ما يقوله؟

على أي حال غادرنا الفندق في منتصف الليل وانتقلنا إلى فندق إكسلسيور، كان الفندق يتمتع بخدمة غرف ممتازة، كما تعلمان، لذلك وجده باني مناسبًا. بقيت متوترًا أبحث عن الرجل الألماني طوال مدة إقامتي في روما، وما زلت حتى الآن أحلم به، ولكنني لم أره مرة أخرى قط.»

سألته: «ما الذي تعتقد أنه كان يريد؟ المال؟»

هز هنري كتفيه وقال: «من يعلم؟ في تلك المرحلة من الرحلة لم يتبقَ لي سوى قليل من المال لأقدمه له. كادت رحلات باني المتكررة إلى الخياطين وما شابه أن تفلسني، بالإضافة إلى انتقالنا إلى فندق جديد، لم أكن أهتم بالمال حقًا، لكن باني كان يقودني إلى حافة الجنون، لم يترك لي لحظة من الراحة، لم أتمكن حتى من كتابة رسالة أو إجراء مكالمة هاتفية دون

أن أجد باني يتربص في الخلفية بأذان منتصبه⁽¹⁾، وعندما كنت أستحم كان يدخل غرفتي ويعبث بأغراضي، كنت أخرج لأجد ملابسي مكومة بشكل فوضوي، وأوراق مفكراتي مليئة بالتجاعيد، كان يشك في كل شيء أفعله.

تحملت الأمر لأطول مدة ممكنة، لكنني بدأت أشعر بالإرهاق، وبصراحة بدأت صحتي تتدهور. كنت أعلم أن تركه في روما قد يكون خطراً، لكن الوضع كان يزداد سوءاً كل يوم، وفي النهاية أدركت أن البقاء لم يعد خياراً. كنا نحن الأربعة نعلم بالفعل أنه من المستحيل العودة إلى الكلية كأن شيئاً لم يحدث في الربيع -ولكن انظر إلى عودتنا الآن- وأنه من الضروري وضع خطة، ربما تكون مكلفة وغير مرضية تماماً، لكنني كنت بحاجة إلى بعض الوقت والهدوء والوضوح الذهني لبضعة أسابيع في الولايات المتحدة إذا كنت سأتمكن من تنفيذ أي خطة. لذلك، في إحدى الليالي في فندق إكسلسيور، بينما كان باني غارقاً في نوم عميق بعد أن شرب كثيراً، حزمت ملابسي، وتركت له تذكرة العودة إلى الوطن وألفي دولار من دون أن أترك له أي رسالة، ثم استقلتُ سيارة أجرة إلى المطار وصعدت على متن أول طائرة عائدة إلى الديار.

قلت مصعوقاً: «تركتَ له ألفي دولار؟»

هز هنري كتفيه.

ضحك فرانسيس بسخرية وأمال رأسه قائلاً: «هذا مبلغ تافه».

(1) باللاتينية في الأصل.

حدقت إليهما .

قال هنري بهدوء: «بالفعل هو كذلك، لا أستطيع أن أخبرك كم كلفتني تلك الرحلة إلى إيطاليا، صحيح أن والديّ كريمان لكنهما ليسا بهذا السخاء، لم أطلب المال قط في حياتي حتى الأشهر القليلة الماضية، الحقيقة أن مدخراتي أوشكت أن تنفد، ولا أعلم كم من الوقت يمكنني الاستمرار في مماطلتهما بقصص مثل تصليح السيارة وما شابه، كنت على استعداد للتعامل بعقلانية مع باني، لكنه لا يبدو أنه يفهم أنني في النهاية مجرد طالب يعتمد على إعانة أسرته ولست بئراً لا تتضب من المال، والمشكلة الأكبر أنني لا أرى نهاية لهذا الوضع، لا أعرف ماذا سيحدث إذا نفذ صبر والديّ من طلباتي المتكررة وقطعا عني الدعم المالي، وهو أمر ممكن جداً إذا استمر الوضع على هذه الحال».

سألت: «هل يبتذك؟»

تبادل هنري وفرانسييس النظرات.

قال فرانسييس: «ليس بالضبط».

هز هنري رأسه وقال بملل: «باني لا يفكر في الأمر بهذه الطريقة، عليك أن تفهم طبيعة والديه أولاً، عائلة كوركوران أرسلت أبناءها إلى أفضل المدارس، لكنها تركتهم يعيلون أنفسهم بالكامل بمجرد انضمامهم إليها، لم يقدموا له أي دعم مالي، أخبرني باني أنه عندما أرسلاه إلى مدرسة سانت جيروم الداخلية، لم يعطياه المال حتى لشراء كتبه المدرسية، هذه طريقة غريبة جداً في تربية الأطفال، تشبه طريقة بعض الزواحف التي تترك صغارها يتدبرون أمورهم بأنفسهم فور خروجها من البيض، ليس من

المستغرب أن يكون هذا قد غرس في باني فكرة أن العيش على حساب الآخرين أكثر شرفاً من العمل».

قلت: «لكنني كنت أعتقد أن عائلته من الأرستقراطيين الأثرياء».

«عائلة كوركوران لديها أوهام عظيمة، مشكلتهم أنهم يفتقرون إلى المال لدعمها، يظنون أن دفع أبنائهم للاعتماد على الآخرين هو جزء من هذه العظيمة».

قال فرانسيس: «باني لا يشعر بأي خجل من الاعتماد على الآخرين، حتى مع التوأمين اللذين يعانيان الفقر مثله تقريباً».

عقب هنري: «كلما كانت المبالغ التي يحصل عليها من الآخرين أكبر كان ذلك أفضل، لا يفكر أبداً في سدادها، وبالطبع يفضل الموت على الحصول على وظيفة».

قال فرانسيس بمرارة وهو يشعل سيجارته ويسعل وهو يزفر دخانها: «عائلة كوركوران تفضل رؤيته ميتاً على أن يعمل، لكن هذا النفور الشديد من العمل يتلاشى عندما يصبح من الضروري تحمل تكاليف العيش».

قال هنري: «لا أستطيع تخيل شيء كهذا، أفضل أن أعمل في أي وظيفة أو حتى ست وظائف على أن أمد يدي للناس طلباً للمال». ثم أضاف: «انظر إلى نفسك، والداك ليسا كريمين معك، ومع ذلك تحرص بشدة على عدم اقتراض المال أبداً، وهذا تصرف غريب إلى حدٍ ما».

شعرت بالإحراج، فأثرت الصمت.

تابع هنري: «يا إلهي، أعتقد أنك كنت تفضل الموت في ذلك المستودع على أن تلجأ إلى أحدنا وتقترض بضع مئات من

الدولارات». أشعل سيجارة ونفث سحابة كثيفة من الدخان: «هذا مبلغ ضئيل جداً، أنا واثق بأننا سننفق ضعفي أو حتى ثلاثة أضعاف هذا المبلغ على باني قبل نهاية الأسبوع القادم».

نظرت إليهما غير مصدق: «أنتما تمزحان، صحيح؟»

قال هنري: «ليتي كنت أمزح».

ثم أضاف فرانسيس: «أنا أيضاً لا أمانع إقراض المال لو كنت أملكه، لكن باني يقترض بطريقة تفوق كل منطق، حتى في الماضي لم يتردد قط في طلب مئة دولار دون تفكير أو سبب واضح».

قال هنري بامتعاض: «ولا يكلف نفسه عناء قول كلمة شكر، أو يخبرك في ما ينفقها! لو كان لديه أي احترام لذاته لذهب إلى مكتب التوظيف وحصل على عمل».

رد فرانسيس بمرارة، وهو يصب لنفسه كأساً أخرى من الويسكي ويسكب جزءاً كبيراً منه فوق الطاولة: «قد نضطر أنا وأنت إلى الذهاب إلى مكتب التوظيف بعد أسبوعين إذا استمر على هذه الحال». ثم وجه كلامه إليّ وهو يرتشف من كأسه المرتعشة: «أنفقنا عليه آلاف الدولارات، معظمها على فواتير المطاعم، ذلك الخنزير يتصرف بطريقة ودية ويسألك بلطف: لماذا لا نخرج لتناول العشاء؟، ولكن بالطريقة التي تسير بها الأمور، كيف يمكنني أن أقول له لا؟»

تعتقد أمني أنني أتعاطى المخدرات، لا أظن أن لديها أي تفسير آخر، طلبت من جدي أن يتوقف عن إعطائي أي أموال، ومنذ يناير لم أحصل سوى على شيك أرباحي، صحيح أنه مبلغ

جيد لكنه لا يكفي لأخذ الناس إلى العشاء بمئة دولار كل ليلة». هز هنري كتفيه وقال: «كان دائماً هكذا، إنه مسلّ. أنا معجب به، وقد شعرت بالأسف عليه قليلاً، وهذا ما دفعني إلى إقراضه المال لشراء كتبه الدراسية وأنا أعلم أنه لن يعيده إلي أبداً». رد فرانسيس: «لكن الأمر الآن لا يقتصر على شراء الكتب الدراسية فقط، نحن في وضع لا يسمح لنا بالرفض». سألت: «إلى متى يمكنكما الاستمرار هكذا؟». «ليس إلى الأبد».

تابعت: «وماذا ستفعلان عندما ينفد المال؟» قال هنري وهو يمد يده خلف نظارته ليفرك عينيه مرة أخرى: «لا أعرف».

اقترحت: «ربما أستطيع التحدث معه». رد هنري وفرانسيس في نفس اللحظة، وبلهفة فاجأتني: «لا». «لماذا؟».

سادت لحظة صمت غريبة، كسرهما فرانسيس أخيراً، وقال: «حسناً، ربما تعرف هذا أو لا تعرفه، لكن باني يغار منك قليلاً. سيعتقد بالفعل أننا جميعاً نتآمر ضده. إذا شعر أنك تقف في صفنا...».

قاطعه هنري: «لا ينبغي لك أن تخبره بذلك أبداً، إلا إذا كنت ترغب في تعقيد الأمور أكثر».

للحظة لم يتحدث أحد. كانت الغرفة مغطاة بسحابة من الدخان، ومن خلاله بدت الأرضية البيضاء باردة وسريالية. كانت الموسيقى تتسلل عبر الجدران من جهاز تسجيل أحد الجيران: فرقة غريغول ديد. يا لها من مفارقة!

فجأة، قال فرانسيس: «ما فعلناه كان فظيئاً، صحيح أن الرجل الذي قتلناه لم يكن فولتير، لكن مع ذلك أشعر بالعار، أشعر بالسوء بسبب ما فعلت».

رد هنري بواقعية: «بالطبع أشاركك الشعور بالسوء، لكن ليس بالدرجة التي تجعلني أرغب في دخول السجن بسببه».

ضحك فرانسيس بسخرية، وصب لنفسه كأساً أخرى من الويسكي وشربها دفعة واحدة، وقال: «لا، ليس إلى هذه الدرجة».

ساد صمت آخر، شعرت بالنعاس والإعياء كأنني عالق في حلم طويل وثقيل.

كررت سؤالاً كنت قد سألته من قبل، لكن هذه المرة بدا صدى صوتي مفاجئاً في الغرفة الهادئة: «ماذا ستفعلون؟»

قال هنري بهدوء كما لو كنت قد سألته عن خططه لقضاء فترة ما بعد الظهر: «لا أعرف ما الذي سنفعله».

قال فرانسيس: «أما أنا، فأعلم ما سأفعله». وقف مترنحاً وشد ياقة قميصه بسبابته، نظرت إليه بدهشة، فضحك لدهشتي، وقال وهو يرمقني بنظرة ميلودرامية: «أريد أن أنام، أن أنام لا أن أعيش»⁽¹⁾.

قال هنري مبتسماً: «في رقاد أحلى من الموت»⁽²⁾.

قال فرانسيس: «يا إلهي يا هنري، أنت تعرف كل شيء لدرجة تجعلني أشعر بالغثيان».

استدار متمائلاً، وفك ربطة عنقه وهو يترنح مغادراً الغرفة.

(1) بالفرنسية في الأصل. بيت من قصيدة نهر النسيان لشارلز بودلير.

(2) بالفرنسية في الأصل وهو البيت المكمل للبيت في الهامش السابق.

وبينما كان الباب يغلق، سمعنا صوت المياه تتدفق بقوة في الحمام.

قال هنري: «أعتقد أنه ثمل قليلاً، لا يزال الوقت مبكراً، هل ترغب في لعب الورق؟»
رمشتُ في وجهه.

مد يده وأخرج مجموعة من أوراق اللعب من صندوق في المنضدة الجانبية، أوراق من ماركة تيفاني ذات ظهر أزرق سماوي وعليها مونجرام⁽¹⁾ يرمز إلى فرانسيس باللون الذهبي، وبدأ في خلطها بخبرة.

قال وهو يتابع خلط الأوراق: «يمكننا لعب البيزيكي أو الأويكر إذا كنت تفضل أحدهما، شخصياً أحب البوكر مع أنها لعبة مبتذلة، وليست ممتعة مع لاعبين اثنين فقط، ولكن ما زال هناك عنصر من العشوائية فيها يروق لي».

نظرت إلى هنري، إلى يديه الثابنتين وهو يخلط الأوراق بإتقان. وفجأة، قفزت إلى ذهني ذكرى غريبة؛ كان توجو⁽²⁾ يجبر كبار مساعديه في ذروة الحرب على السهر معه طوال الليل للعب الورق.

(1) الجمع بين حرفين أو أكثر من حروف اللغة بشكل متداخل لتشكيل رمز واحد. عن طريق الجمع بين الأحرف الأولى للاسم، كثيراً ما تكون رمزاً شخصياً أو شعار شركة.

(2) هيدوكي توجو وُلد العام 1884 وتوفي العام 1948، جنرال ياباني، كان رئيس وزراء اليابان السابع والعشرين خلال الحرب العالمية الثانية من 17 أكتوبر 1941 إلى 22 يوليو 1944، وكان مسؤولاً -بصفته رئيس وزراء اليابان- عن الأمر بالهجوم على ميناء بيرل هاربر الذي أشعل الحرب بين اليابان والولايات المتحدة العام 1941.

دفع مجموعة الأوراق نحوي وأشعل سيجارة، ثم قال: «هل ترغب في توزيع الورق؟»

نظرت إلى الأوراق، ثم إلى شعلة عود الثقاب المستقرة بين أصابعه من دون أن تهتز.

قلت: «يبدو أنك لست قلقاً بشأن هذا الأمر، أليس كذلك؟».

أخذ هنري نفساً عميقاً من سيجارته ومجّ الدخان ببطء، ثم هز عود الثقاب ليطفئه، وقال وهو يتأمل خيط الدخان المتموج المتصاعد من الطرف المحترق: «لا، لست قلقاً. أعتقد أننا نستطيع أن نخرج من هذا المأزق سالمين. لكن الأمر يعتمد على الفرصة المناسبة، وعلينا أن نكون مستعدين لاغتنامها. كما يعتمد الأمر أيضاً إلى حد ما على مدى استعدادنا لاتخاذ الخطوات اللازمة». ثم مد يده نحو الأوراق مرة أخرى وسأل: «هل أوزع أنا؟».

استيقظت من نوم عميق بلا أحلام لأجد نفسي مستلقياً على أريكة فرانسيس في وضع غير مريح، وشمس الصباح تتسلل من النوافذ خلفي. استلقيت بعض الوقت بلا حراك، أحاول تذكر أين أنا وكيف وصلت إلى هنا. ساورني شعور لطيف سرعان ما تلاشى عندما تذكرت أحداث الليلة الماضية. جلست وفركت وجهي حيث طبعت الوسادة مربعات على خدي، آلمت الحركة رأسي. حدقت إلى المنفضة المليئة بأعقاب السجائر، وزجاجة الفيموس غروس التي كانت شبه فارغة، وأوراق البوكر المبعثرة على الطاولة. إذن كان كل شيء حقيقياً، ولم يكن حلمًا.

كنت عطشاناً فتوجهت إلى المطبخ، تردد صوت خطواتي في الصمت، شربت كأساً من الماء عند المغسلة. كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً حسب ساعة المطبخ.

ملأت كأسي مرة أخرى وعدت بها إلى غرفة المعيشة، وجلست على الأريكة، شربت الماء ببطء هذه المرة لأن شرب الكأس الأولى دفعة واحدة جعلني أشعر بالغثيان قليلاً. نظرت إلى أوراق البوكر المبعثرة، لا بد أن هنري وزّع الأوراق فيما كنت نائمًا.

بدلاً من بذل قصارى جهده للحصول على فلاش⁽¹⁾ أو فول هاوس⁽²⁾ وأربعة على التوالي⁽³⁾، وهي الحركات الحكيمة في هذه اللعبة، حاول هنري الحصول على زوج من الستريت فلاش⁽⁴⁾، وأخطأ.

لماذا فعل ذلك؟

هل كان يحاول تحدي الاحتمالات؟

(1) Flush أو تدفق في البوكر: أن تحتوي يد اللاعب على خمس بطاقات تحمل أرقاماً وصوراً مختلفة ولكن كل البطاقات تحمل الرمز واللون ذاتهما.

(2) في البوكر فول هاوس أو بيت كامل: أن تحتوي يد اللاعب على خمس بطاقات، ثلاث منها تحمل الرقم نفسه واشتتان تحملان رقمًا مختلفًا، ولا يشترط تشابه الألوان أو الرموز.

(3) في البوكر أربعة على التوالي: أن تحتوي يد اللاعب على أربع بطاقات تحمل أرقامًا متتالية (لا يشترط تشابه اللون أو الرمز) أما البطاقة الخامسة فلا تكون ذات صلة بالبطاقات الأربعة.

(4) في البوكر الستريت فلاش أن تحتوي يد اللاعب على خمس بطاقات تحمل خمسة أرقام متتالية (لا يشترط تشابه اللون أو الرمز)، ويعد من الصعب الحصول على مثل هذه اليد ولكن متى حصل عليها اللاعب فمن المرجح أن يفوز على منافسيه.

أم أنه كان مرهقاً فحسب؟

التقطت الأوراق وخلطتها، ثم وزعتها مرة أخرى وفقاً للقواعد الاستراتيجية التي علمني إياها هنري نفسه، وتمكنت من التفوق عليه بخمسين نقطة، كانت الوجوه الباردة والأنيقة على الأوراق تحديق إلي؛ جاك (خادم الملك) باللونين الأسود والأحمر، وملكة البستوني بنظرها المريبة. فجأة اجتاحتني موجة من التعب والغثيان، نهضت وأخذت معطفي من الخزانة، وغادرت مغلقاً الباب ورائي بهدوء.

بدت الردهة في ضوء الصباح كأنها ممر في مستشفى، توقفت مترنحاً فوق الدرج، ونظرت إلى باب غرفة فرانسيس الذي لم يكن يختلف عن الأبواب الأخرى في الممر الطويل عديم الملامح.

أعتقد أنه لو كان هناك لحظة شك، فقد كانت تلك اللحظة وأنا أقف هناك فوق الدرج البارد والمخيف، أنظر إلى الشقة التي خرجت منها، من هم هؤلاء الناس؟ إلى أي مدى أعرفهم حقاً؟ هل أستطيع الوثوق بأي منهم عندما يصبح الأمر على المحك؟ ولماذا اختاروا أن يخبروني أنا بالذات من بين كل الناس؟ إنه لأمر غريب، ولكن أفكر في الأمر الآن، أنني أدرك أن تلك اللحظة بالذات، وأنا أقف هناك في الردهة المهجورة مغمض العينين، كانت النقطة الوحيدة التي ربما كنت سأختار فيها مساراً مختلفاً تماماً عما فعلته في النهاية، لكن بالطبع لم أر تلك اللحظة الحاسمة على حقيقتها حينها، أعتقد أننا نادراً ما نرى الأمور على حقيقتها قبل حدوثها، عوضاً عن ذلك تتأهب

وانتفضت لأبعد الذهول الذي أصابني بضع لحظات، ثم واصلت
طريقي هابطاً الدرج.

عندما عدت إلى غرفتي شاعراً بالدوار والإرهاق، لم أرغب
في شيء أكثر من إسدال الستائر والاستلقاء على سريري الذي
بدا لي فجأة كأنه المكان الأكثر إغراءً في العالم، على الرغم
من وسادته البالية وملاءته القذرة وكل عيوبه، لكن ذلك لم يكن
ممكناً، فقد كانت محاضرة النثر اليوناني بعد ساعتين، ولم أنجز
واجبي بعد، كان عليّ كتابة مقال من صفحتين باللغة اليونانية
القديمة عن إحدى إبيجرامات⁽¹⁾ كاليماخوس⁽²⁾، لكنني لم أكتب
سوى صفحة واحدة، أسرعرت في كتابة بقية المقال بأسلوب غير
صبور وربما غير أمين، فقد كنت أكتب بالإنجليزية ثم أترجم إلى
اليونانية كلمة بكلمة، وهذا بالضبط ما حذرنا جوليان منه، لقد
قال إن قيمة التأليف النثري اليوناني لا تكمن في اكتساب مهارة
لغوية معينة، بل في تعلم كيفية التفكير باليونانية وهذا ما تكتسبه
حين تكتب بشكل سليم من الذاكرة، وأوضح أن التفكير يتغير حين
نُجبر على التعبير بلغة صارمة وغنية بالقواعد وغير مألوفة مثل
اليونانية، فقد يصبح التعبير عن بعض الأفكار الشائعة مستحيلاً،

(1) الإبيجرام أحد الفنون التي عُرفت في اليونان القديمة، ويطلق عليها أحياناً
القصيدة المختزلة أو الحكمة الساخرة، وتعني باليونانية الكتابة المنقوشة على
القبور والتماثيل بعبارات مختصرة يغلب عليها طابع الحكمة، ومن أهم مبدعي هذا
اللون الأدبي ملياجروس السوري وكليماخوس

(2) يُعرف باسم كاليماخوس القوريني هو باحث ونحّاء وشاعر إغريقي ولد بقورينة في
برقة بشرق ليبيا حالياً نحو سنة 305 ق.م. درس في أثينا حيث عمل باحثاً وتوفي
فيها عام 240 ق.م، يعد من أعظم شعراء العصر الهيلينستي قاطبة لدرجة أنه
يُرى على أنه المثال الكامل لشعراء هذا العصر.

وفي نفس الوقت قد تتبثق أفكار جديدة لم نكن لتصورها من قبل وتدبّ فيها الحياة ويصبح لدينا تعابير إعجازية جديدة. بطبيعة الحال، أجد من الصعب أن أشرح هذا بدقة باللغة الإنجليزية، دعني أضرب مثلاً على ذلك بالاختلافات الدقيقة في معاني الكلمات التي تشير إلى «النار»، فكلمة «incendium» «إنسينديوم»⁽¹⁾ تختلف تماماً عن «feu»⁽²⁾ التي يشعل بها رجل فرنسي سيجارته، وكلاهما مختلف عن كلمة «pur» «سَقَر»⁽³⁾ النار الإلهية المرعبة التي عرفها اليونانيون، ذلك اللهب الرهيب الذي اجتاح أبراج إليون وقفز فوق شاطئها العاصف في محرقة باتروكلوس⁽⁴⁾ الجنائزية.

تحمل كلمة «Pur» وحدها سر الوضوح الساطع للغة اليونانية القديمة، كيف يمكنني أن أجعلك ترى هذا الضوء الفريد الذي يغمر مؤلفات هوميروس وينير حوارات أفلاطون؟ إنه ضوء غريب لا يمكن التعبير عنه بلغتنا المعاصرة؛ لغة التعقيد والغرابة، لغة تناسب القَرَع والصعاليك وأدوات الخياطة والبيرة ولسان أهاب⁽⁵⁾

(1) باليونانية القديمة (incendium): تعني نار أو حريق، أو حرارة حارقة، أو حرارة شغف.

(2) Feu بالفرنسية في الأصل.

(3) باليونانية في الأصل (Pur) وهي من أعلى دركات النار. ومنها اشتقت كلمة Pyre أي محرقة. وارتأينا استخدام كلمة سقر لتعبر عنها بالعربية

(4) اسم بطل من الأساطير اليونانية، ويعتبر شخصية بارزة في ملحمة الإلياذة التي كتبها هوميروس، باتروكلوس هو صديق حميم لأخيل، وأحد المحاربين الشجعان الذين قاتلوا في حرب طروادة، عندما يُقتل باتروكلوس في المعركة، يغضب أخيل بشدة ويقرر الانتقام لموته، ويحرق جثته في محرقة جنائزية مهيبة.

(5) شخصية أدبية معروفة من رواية «موبي ديك» للكاتب الأمريكي هيرمان ملفيل، القبطان «أهاب» هو قائد سفينة «بيكود» الذي يحمل هوساً لا يُقاوم بالانتقام من الحوت الأبيض العملاق «موبي ديك»، الذي كان قد فقد ساقه بسببه.

وفالستاف⁽¹⁾ والسيدة غامب⁽²⁾، وبينما أجدها مناسبة لمثل هذه التأمّلات، فإنها تخذلني تمامًا عندما أحاول وصف ما أحبه، وعلى النقيض منها فإن اللغة اليونانية القديمة لغة مباشرة وخالية من المراوغة، تعشق الحركة والانتقال السلس من فكرة إلى أخرى في تسلسل منطقي أنيق يؤدي إلى نتيجة حتمية واحدة.

أدركت أن هذا ربما كان السبب في شعوري بالتقارب مع زملائي في صف اليونانية، فقد كانوا مغرمين بهذا العالم القديم الجميل والرائع الذي مضى منذ قرون، لقد عاشوا التجربة نفسها في رؤية العالم من خلال عيون القرن الخامس، وأدركوا كم يبدو العالم الحديث بطيئًا وغريبًا كأنه ليس عالمهم. ولهذا السبب أعجبت بجوليان، وأعجبت أكثر بهنري.

كان منطقهم وأعينهم وآذانهم متوجهة دومًا نحو تلك الإيقاعات القديمة والصارمة، يعيشون في عالم مختلف عن عالمنا الحالي أو على الأقل عن العالم الذي أعرفه. وعلى الرغم من أنني كنت أشعر بالغربة والإعجاب بهذا العالم القديم، فقد كنت مجرد زائر عابر، أما هم فكانوا سكانًا دائمين ينتمون إلى تلك الأرض الساحرة.

(1) السيد جون فالستاف: شخصية ظهرت في ثلاثة من مسرحيات شكسبير ويؤدي دور رفيق الأمير هال في مسرحيات هنري الرابع.

(2) سارة أو سايري غامب أو كما تُعرف أكثر السيدة غامب: ممرضة في رواية مارتن تشوزلويت التي كتبها تشارلز ديكنز ونُشرت سلسلة خلال عامي 1843-1844. وتُوصف السيدة غامب بأنها مستهترة وخرقاء وثملة في معظم الأحيان، وتعد مثالًا سيئ السمعة عن الممرضات اللاتي تنقصهن الكفاءة والتدريب في الحقبة الفيكتورية.

اللغة اليونانية القديمة لغة صعبة وعويصة، وقد يدرسها المرء طيلة حياته من دون أن يتمكن من التحدث بها بطلاقة، ولكن ما يثير ابتسامتي حتى اليوم هو التفكير في الإنجليزية الرسمية المتأنية التي كان هنري يتحدث بها مقارنة بطلاقته وثقته المذهلة عندما يتحدث باليونانية، فقد كان يتحدث بها بسرعة وبلاغة وذكاء. كان دائماً ما يدهشني سماعه يتحدث مع جوليان باليونانية، يتجادلان ويمزحان بطلاقة لم أعدها منهما عند التحدث بالإنجليزية، رأيت هنري مراراً يرفع سماعة الهاتف ليقول بعبوس: «مرحباً»، ولكنني لن أنسى أبداً ابتسامته الواضحة ونبرته المبهجة عندما يقول: «خيرى⁽¹⁾!» عندما يكون المتصل جوليان.

بعد القصة التي سمعتها الليلة الماضية شعرت بعدم الارتياح من إبيجرامات كاليماخوس التي تتحدث عن الخدود المتوردة والنبض وقلبات الشباب تحت ضوء المشاعل، لذلك اخترت إبيجراماً حزيناً بدلاً منها، الذي يقول باللغة الإنجليزية: «في الصباح دفنا ميلانيوس؛ ومع غروب الشمس انتحرت العذراء باسيلو، لأنها لم تتحمل أن ترى شقيقها يُحرق وتظل حية، وهكذا غمر الحزن البيت مرتين، وأحنت قورنيا⁽²⁾ رأسها عندما رأت منزل الأطفال السعداء وقد أصبح مقفراً».

(1) مرحباً باليونانية القديمة.

(2) قورنيا أو كيريني كانت أميرة ثيسالية في الميثولوجيا الإغريقية، وبعد ذلك ملكة وحاكمة مدينة قورنيا في شمال إفريقيا في ليبيا.

أنهيت كتابة الموضوع في أقل من ساعة، وبعد أن راجعت
نهايات الكلمات غسلت وجهي، وغيّرت قميصي، ثم توجهت إلى
غرفة باني مع كتيبي، من بيننا نحن الستة كنت أنا وباني الوحيدين
اللذين نقيم في الحرم الجامعي، يقع المنزل الذي يعيش فيه على
الجانب الآخر من المرج في الطرف المقابل للقاعة العامة، لديه
غرفة في الطابق الأرضي، لكنني واثق بأنه لم يرتح فيها لأنه
كان يقضي معظم وقته في مطبخ المنزل بالطابق العلوي، حيث
يكوي سرواله ويبحث في الثلاجة أو يطلّ من النافذة وهو يرتدي
ملابسه اليومية موجّهاً صياحه للمارة.

عندما لم يفتح باب غرفته صعدت للبحث عنه في المطبخ،
ووجدته جالساً على حافة النافذة مرتدياً قميصه الداخلي،
يشرب القهوة فيما يتصفح مجلة، فوجئت بالتوأمين هناك أيضاً؛
كان تشارلز يقف في وضعية متكاسلة، يحرك ملعقة ببطء داخل
فنجان قهوته، وينظر من النافذة بملامح متجهمّة، أما كاميلّا
التي لم تكن بارعة في الأعمال المنزلية فقد كانت منهمكة في
كي أحد قمصان باني.

رحب بي باني: « أهلاً يا عزيزي، تفضل بالدخول وانضم
إلينا في دردشة سريعة أثناء شرب القهوة⁽¹⁾»، ثم لاحظ نظراتي
نحو كاميلّا ولوح الكي، فأضاف مازحاً: «نعم، النساء بارعات في
بعض الأمور، لكنني كرجل نبيل». وغمز بعينه قائلاً: «لن أتطرق
إلى الأمر الآخر الذي يتفوقن فيه، إذ لا يليق ذكره في حضور

(1) kaffeeklatsch بالألمانية في الأصل والكلمة تتكون من مقطعين - قهوة ونميمة.

النساء». ثم قال لتشارلز: «من فضلك أحضر لريتشارد فنجاناً من القهوة». وبينما أخرج تشارلز فنجاناً متسخاً من المطبقة وفتح الصنبور، أضاف بصوت عالٍ: «لا داعي لغسل الفجان، إنه نظيف بما يكفي».

سألني: «هل كتبت موضوع التعبير؟»

«نعم».

«أي إيجرام اخترت؟»

«الثاني والعشرين».

«همم... يبدو أن الجميع اختاروا البكائيات. كتب تشارلز عن ذاك الإيجرام الذي يتحدث عن الفتاة التي ماتت، وافتقدها جميع أصدقائها. وأنت يا كاميليا ماذا اخترت؟».

قالت كاميليا من دون أن ترفع عينيها وهي تضغط بعنف على ياقة القميص بطرف المكواة: «الثاني عشر».

«أهه، أما أنا فقد اخترتُ أحد الإيجرامات المفعمة بالحياة، هل زرت فرنسا من قبل يا ريتشارد؟».

قلت: «لا».

«إذن، من الأفضل أن تأتي معنا هذا الصيف».

«معنا؟ من تقصد؟».

«هنري وأنا».

فوجئت تماماً، لدرجة أن كل ما أمكنني فعله هو أن أغمض

عيني، قلت: «فرنسا؟»

«أجل، جولة لمدة شهرين، ستكون رحلة مميزة حقاً، ألق نظرة»، ورمى إليّ المجلة التي تبين لي أنها كتيب لامع لجولة

سياحية فاخرة، تصفحتها بسرعة، كانت جولة رائعة حقًا؛ رحلة بحرية بمراكب فندقية فاخرة تبدأ في مقاطعة شمبانيا ثم تمضي عبر منطاد هواء ساخن إلى بورغوندي، حيث تستمر الرحلة على متن المراكب مرة أخرى مرورًا ببوجوليه، وصولًا إلى الريفيرا وكان ومونت كارلو، كان الكتيب مليئًا بالصور الباهرة للطعام اللذيذ والمراكب المزينة بالزهور والسائحين السعداء الذين يفتحون زجاجات الشمبانيا ويلوحون من سلال المنطاد للفلاحين المسنين الساخطين في الحقول أدناهم.

قال باني: «تبدو رائعة، أليس كذلك؟»

«خلاصة».

«كانت روما جيدة، لكنها في الحقيقة أشبه بحفرة عميقة عندما تصل إليها، أريد تجربة أكثر إثارة، أريد التنقل باستمرار ورؤية بعض العادات المحلية. وبينك وبينني، أراهن أن هنري سيستمع بهذه الرحلة».

فكرت: أراهن أيضًا أنه سيستمع بهذا، فيما أحرق إلى صورة امرأة تحمل قطعة من الخبز الفرنسي أمام الكاميرا، وتبتسم ابتسامة عريضة مثل المجنونة.

كان التوأمان يتجنبان النظر إليّ. كانت كاميللا منحنية فوق قميص باني، بينما أدار تشارلز ظهره لي مرتكزًا بمرفقيه على الخزانة الجانبية، ينظر خارج نافذة المطبخ.

قال باني متأملًا: «هذا المنطاد رائع بالطبع، لكنني كنت أتساءل كيف تقضي حاجتك على منته؟».

قالت كاميللا فجأة: «اسمع، يبدو أن الأمر سيسغرق مني بضع دقائق أخرى، إنها الساعة التاسعة تقريباً، فلماذا لا تذهب مع ريتشارد يا تشارلز؟ أخبر جوليآن ألا ينتظرنا».

رد باني بحدة وهو يقترب ليرى ما تفعله: «حقاً؟ ألا يمكن أن تتجزيه بسرعة أكبر؟ ما المشكلة العويصة هنا؟ أين تعلمت الكي؟».

أجابته كاميللا: «لم أتعلمه قط، عادة نرسل قمصاننا إلى المفصلة».

خرج تشارلز خلفي من الغرفة، مشينا عبر الردهة ونزلنا الدرج من دون أن نتبادل أي كلمة، لكن ما إن وصلنا إلى الطابق السفلي اقترب مني فجأة وأمسك بذراعي وسحبني إلى غرفة لعب ورق فارغة، كانت لعبة البريدج رائجة في هامبدن في العشرينيات والثلاثينيات، لكن مع مرور الوقت خفتت شعبيتها، وأصبحت هذه الغرف مهجورة، تستخدم فقط لأغراض مشتبه فيها مثل صفقات المخدرات والكتابة على الآلة الكاتبة أو اللقاءات الرومانسية السرية.

أغلق الباب وراءنا، نظرت حولي فوجدت طاولة لعب ورق قديمة، مرصعة في زواياها الأربع برموز الألماسة ♦ والقلب ♥ والبستوني ♠ والمجرفة (سباتي) ♣.

قال تشارلز: «اتصل بنا هنري». كان يخدش حافة الألماسة البارزة بإبهامه، ورأسه منخفض.

«متى؟»

أجاب: «في وقت مبكر من هذا الصباح».

ظللتنا صامتتين لحظة.

ثم رفع تشارلز بصره وقال: «أنا آسف».

«آسف على ماذا؟»

قال: «آسف لأنه أخبرك، آسف على كل شيء، كاميللا مستاءة جدًا»، كان يبدو هادئًا بشكل ملحوظ، متعبًا لكنه هادئ، التقت عيناه المتقدمتان عينيَّ بصدق حزين ورزين، فجأة شعرت بالضيق، كنت مغرمًا بفرانسيس وهنري، لكن فكرة أن يحدث شيء سيئ للتوأمين كانت غير قابلة للتصور، تذكرت كم كانا لطيفين معي دائمًا، كاميللا برقتها خلال الأسابيع الأولى الصعبة، وتشارلز بطريقته اللبقة في الاقتراب مني بزيارتي في غرفتي، أو التوجه نحوي عندما نكون وسط حشد من الناس ليمنحني شعورًا دافئًا بأننا صديقان مقربان، تذكرت نزهاتهما معي ورحلات السيارة والعشاء في منزلهما ورسائلهما التي كانت تصلني بانتظام خلال الشتاء الطويل، والتي أبقيتها سرًا ونادرًا ما كنت أرد عليها.

سمعنا من مكان ما في الأعلى صرخة وزئير أنايب مياه.

تبادلنا النظرات.

قلت: «ما الذي تنوون فعله؟»، يبدو أن هذا هو السؤال الوحيد الذي كنت أطرحه طوال الأربع والعشرين ساعة الماضية، ومع ذلك لم يعطني أحد إجابة مرضية.

هز كتفيه، اهتزت إحدى الكتفين فيما بقيت الأخرى ثابتة وهو ما بدا مضحكًا، وهو سلوك مشترك بينه وبين أخته، قال بضجر: «لا أعرف، أعتقد أننا يجب أن نذهب».

عندما وصلنا إلى مكتب جوليان، كان هنري وفرانسيس هناك بالفعل. لم يكن فرانسيس قد انتهى من مقالته بعد، كان يكتب بسرعة في الصفحة الثانية وأصابه ملطخة بالحبر، فيما كان هنري ينقح الصفحة الأولى، يصحح ويضيف علامات التشكيل العلوية والسفلية⁽¹⁾ بقلمه الحبر، لم يرفع رأسه عن الورقة، قال بهدوء: «مرحباً، أغلق الباب لو سمحت».

ركل تشارلز الباب بقدمه، وقال: «خبر سيئ».

«سيئ جداً؟»

«من الناحية المالية، نعم».

لعن فرانسيس بصوت خافت وسريع من دون أن يتوقف عن الكتابة، أنهى هنري تصحيح الصفحة وهزها في الهواء لتجفيف الحبر، ثم قال بلطف: «حسناً، آمل أن يكون بوسع الخبر أن ينتظر، لا أريد التفكير فيه في أثناء المحاضرة، كيف حال الصفحة الأخيرة معك يا فرانسيس؟»

قال فرانسيس بمشقة: «دقيقة واحدة فحسب»، كانت كلماته تلاحق خريشات قلمه السريعة.

وقف هنري وراء مقعد فرانسيس وانحنى فوق كتفه، وبدأ بتدقيق الجزء العلوي من الصفحة الأخيرة واضعاً أحد مرفقيه على المنضدة، سأل: «هل كاميلا معه؟»

«نعم، تكوي قميصه القديم القذر».

«همم». أشار هنري إلى شيء ما بطرف قلمه، وقال: «فرانسيس، إنك بحاجة إلى صيغة تفضيل هنا بدلاً من صيغة

(1) تأخذ علامة التشكيل في الأبجدية اليونانية شكل ضربة رأسية صغيرة أو صورة مصغرة توضع أسفل الحرف.

الشرط». كان فرانسيس في نهاية الصفحة تقريباً ولكنه رفع يده بسرعة لتعديلها .

«وهذا الحرف الساكن يجب أن يكون باي، وليس كبا⁽¹⁾».

وصل باني متأخراً، وكان في مزاج سيئ.

قال بنبرة حادة: «تشارلز، إذا كنت ترغب في أن تجد أختك زوجاً يوماً ما، فمن الأفضل أن تعلمها كيف تستخدم المكواة». كنت منهكاً ولا أملك أي طاقة، وكل ما استطعت فعله هو محاولة التركيز في المحاضرة، كانت لديّ محاضرة باللغة الفرنسية في الساعة الثانية، لكنني بعد محاضرة اليونانية عدت مباشرة إلى غرفتي، تناولت حبة منوم، وخلدت إلى النوم. كان تناول الحبة خطوة غير معتادة، لم أكن بحاجة إليها فعلاً، لكن مجرد احتمال أن أصاب بالقلق في فترة ما بعد الظهيرة المليئة بالكوابيس وصوت الأنابيب المزعج جعلني أشعر بالتوتر، وهكذا نمت بعمق وبسلام أكثر مما كنت أتوقع، وانقضى اليوم بسهولة. عندما استيقظت كان الظلام قد حل تقريباً، وسمعت في مكان ما عبر غياهب النوم صوت طرقات على بابي، كانت كاميللا... لا بد أنني كنت أبداً في حالة مزرية، لأنها رفعت حاجبها وضحكت عندما رأتني.

قالت بابتسامة: «كل ما تفعله هو النوم، لماذا دائماً تكون نائماً عندما آتي لرؤيتك؟».

(1) كبا الحرف العاشر وباي الحرف السادس عشر في الأبجدية اليونانية القديمة.

رمشتُ في وجهها ونظرت إليها، كانت ستائري مسدلة والممر مظلمًا وكنت أقف مترنحًا ونصف نائم، لم تبدُ كاميلًا في بهائها المشرق الذي لا يمكن سبر أغواره، بل كانت تبدو مثل طيف ضبابي ورقيق بمعصميهما النحيلين وهالة الجمال التي تحيط بها، وشعرها الأشعث يضيف سحرًا إلى مظهرها الغامض، كانت تقف هناك كأنها حلم جميل وسط كواييسي الكثيبة.

قلت: «ادخلي».

دخلت وأغلقت الباب خلفها. جلستُ على حافة السرير غير المرتب، وقدماي حافيتان وياقتي مفتوحة. فكرت كم سيكون رائعًا لو كان هذا مجرد حلم، لو كان بإمكانني الاقتراب منها، ووضع يدي على جانبي وجهها، وتقبيل جفניה وفمها وذلك الموضع في صدغها حيث يتحول شعرها العسلي إلى ذهب حريري.

تبادلنا النظرات مدة طويلة.

قالت: «هل أنت مريض؟»

كان سوارها الذهبي يلمع في الظلام، بلعت ريتي بصعوبة، كان من الصعب التفكير في ما سأقوله. وقفت كاميلًا مجددًا، وقالت: «من الأفضل أن أذهب، أنا آسفة لإزعاجك، جئت لأسألك إن كنت تريد الذهاب في نزهة بالسيارة».

«ماذا؟».

«نزهة بالسيارة، لكن لا بأس، في وقت آخر».

«أين؟»

«إلى مكان ما، لم نحدد بعد، سألتقي فرانسيس أمام مبنى القاعة العامة بعد عشر دقائق».

قلت: «لا، انتظري».

شعرت بشيء من الحماسة، كان تأثير الحبة المنومة لا يزال
يثقل أطرافى بلذة، تخيلت كم سيكون ممتعاً أن أسير معها إلى
القاعة العامة في حالة بين النوم واليقظة في ضوء المساء
الخافت والثلج. استغرقت وقتاً طويلاً كي أقف، كانت الأرضية
تسحب تحت قدمي كأني أزداد ببطء بفعل قوة خفية، ثم
توجهت إلى خزانة ملابسى، تمايلت الأرضية تحتي بلطف كما
لو كنت على متن سفينة هوائية، وجدت معطفي ثم وشاحاً، كان
ارتداء القفازات معقداً، فقررت عدم ارتدائها.
قلت: «حسناً. أنا جاهز».

رفعت حاجبها وقالت: «الجو بارد، ألا تعتقد أنه عليك ارتداء
حذاء؟»

مشينا إلى القاعة العامة وسط الأمطار الغزيرة والباردة،
وعندما وصلنا إلى هناك كان تشارلز وفرانسيس وهنري في
انتظارنا. مكتبة سُرْمَن قرأ

شعرت أن هذا التجمع له أهمية بطريقة لم تكن واضحة تماماً
لي، كان الجميع حاضراً باستثناء باني.

قلت وأنا أرمش بعيني نحوهم: «ما الذي يحدث؟»
أجاب هنري وهو يرسم نمطاً على الأرضية بطرف مظلته
المتألئة: «لا شيء، سنذهب في نزهة بالسيارة فقط، ظننت أن
ذلك سيكون ممتعاً». سكت هنيهة قبل أن يكمل: «...لنبتعد عن
الكلية بعض الوقت، وربما لتناول بعض العشاء».

فكرت: من دون باني، هذه هي الكلمات المستترة غير المذكورة
هنا، أين هو يا ترى؟

تلاً سن مظلة هنري المدببة، نظرت إلى الأعلى ولاحظت أن

فرانسييس كان ينظر إليّ بحاجبين مرفوعين.

قلت بانزعاج وأنا أتمايل بجسمي قليلاً أمام الباب: «ما الأمر؟».

زفر فرانسييس بدهشة ممزوجة بالاستكثار وقال: «هل أنت ثمل؟».

كانوا جميعاً ينظرون إليّ بنظرات غريبة.

«نعم»، لم تكن هذه الحقيقة، لكنني لم أرغب في تقديم تفسيرات إضافية.

كانت السماء الباردة المغطاة برذاذ المطر المتسلل بين قمم الأشجار تجعل من المشهد المألوف حول هامبدن يبدو بعيداً وغريباً. كانت الوديان مغطاة ببياض الشبورة، وقمة جبل كتاركت قد اختفت تماماً خلف ستار من الضباب البارد. حاولت جاهداً رؤية الجبل الذي لطالما كان يفرض هيئته على هامبدن وضواحيها، شعرت بالارتباك في تحديد الاتجاهات، بدا الأمر كأننا نسير في منطقة غامضة بلا معالم، على الرغم من أنني مررت بهذا الطريق مئات المرات في مختلف حالات الطقس، كان هنري يقود السيارة بسرعة كعادته، وكانت الإطارات تن على الطريق الأسود المبتل، والمياه تتناثر عالياً على الجانبين.

اقتربنا من منزل مزرعة أبيض فوق تل، كانت رزم القش متناثرة فوق المراعي المغطاة بالثلوج، قال هنري مهدئاً السرعة: «لقد ألقيت نظرة إلى هذا المكان منذ نحو شهر، لا يزال معروضاً للبيع، لكنني أعتقد أن السعر مرتفع جداً».

سألته كاميلاً: «كم فداناً؟»

رفعت كاميلاً يدها لتبعد خصلات شعرها عن عينيها، فتألق سوارها مجدداً؛ الشعر المتطاير جميل، والشعر الكستنائي المتطاير أمام فمها. الشعر الليلكي الأسمر⁽¹⁾... وقالت: «ماذا ستفعل بكل هذه الأرض؟»، ثم أضافت ضاحكة: «هل تفكر في زراعتها؟»

رد هنري: «من وجهة نظري، كلما زادت مساحة الأرض كان ذلك أفضل، أود أن أمتلك مساحة كبيرة من الأرض بحيث لا أرى من منزلي أي طريق سريع أو عمود هاتف أو أي شيء لا أرغب في رؤيته. أعلم أن هذا مستحيل في زماننا هذا، وهذا المكان يقع تقريباً على الطريق، لكن هناك مزرعة أخرى رأيته على جانب الطريق في نيويورك».

وفي تلك اللحظة اندفعت شاحنة بجوارنا متجاوزة سيارتنا بصوت عالٍ وسط رذاذ الماء المتناثر.

بدا الجميع هادئين ومرتاحين بشكل غريب، واعتقدت أنني أعرف السبب؛ باني لم يكن معنا. كانوا يتجنبون ذكره متعمدين، فكرت: لا بد أن باني في مكان ما الآن، يفعل شيئاً ما، لكنني لم أرغب في السؤال.

انحنيت إلى الوراء وراقبت المسارات الفضية التي كانت تصنعها قطرات المطر وهي ترتطم بزجاج نافذتي.

قالت كاميلاً: «لو أردت شراء منزل فسأشتريه هنا، لطالما أحببت الجبال أكثر من شطآن البحر».

(1) بيت من قصيدة أربعاء الرماد للشاعر تي إس إليوت.

قال هنري: «وأنا كذلك، أعتقد أن ذوقي في هذا الصدد هلنستي⁽¹⁾ إلى حد كبير، تجذبني المناطق البعيدة عن البحر والآفاق البعيدة عن العمران والبشر والأرياف التي لا تزال تحتفظ بجمال الطبيعة. لم يكن لدي أي اهتمام بالبحر، يشبه ذلك ما يقوله هوميروس عن الأركاديين، تتذكرون؟ لم يكن لديهم أي علاقة بالسفن».

قال تشارلز: «هذا لأنك نشأت في الغرب الأوسط».

«ولكن لو اتبعنا هذا المنطق، فهذا يعني أنني أحب الأراضي المسطحة والسهول، وهذا منافٍ للحقيقة. أوصاف طروادة في الإلياذة فضيحة؛ تلك الأراضي المسطحة والشمس الحارقة. لا، انجذبت دائماً إلى التضاريس البرية المتكسرة، فمن هذه الأماكن تتبع أغرب اللغات وأعجب الأساطير وأقدم المدن وأكثر الأديان بدائية، وُلد بان⁽²⁾ نفسه في الجبال، كما تعلمون». ثم تابع بنبرة حاملة منتقلاً إلى الحديث باليونانية: «وزيو. في پارهاسيا⁽³⁾،

(1) العصر الهلنستي: حقبة في التاريخ القديم كانت فيها الثقافة اليونانية تزخر بكثير من مظاهر الحضارة. وقد بدأت بعد وفاة الإسكندر الأكبر العام 323 ق م، واستمرت نحو 200 سنة في اليونان ونحو 300 سنة في الشرق الأوسط.

(2) بان حسب الميثولوجيا الإغريقية: إله المراعي والصيد البري والأحراش، يظهر بجلد ماعز وقرون وأرجل ماعز يصاحب أتباع ديونيسوس كما يصاحب الحوريات. اشتق اسمه من الكلمة اليونانية (باين) التي تعني «يرعى»، وكثيراً ما ذُكر في الأساطير القديمة مصاحباً للأدب الرعوي والموسيقى الرعوية، ويعود أصله إلى أركاديا اليونانية.

(3) منطقة في جنوب أركاديا باليونان، أعطاهما بارهاسيوس ابن ليكاون اسمه. تتوافق اليوم هذه المنطقة مع أركاديا الحديثة الجنوبية الغربية غرب ميغالوبولي وجنوب شرق إليس. قيل إن حورية أرتميس المسماة كاليستو التي ولدت الإلهة هيرا ودُب زيوس لاحقاً في كوكبة الدب الأكبر جاءت من پارهاسيا.

ولدتك ريا⁽¹⁾».

كان الظلام قد أسدل ستاره على التل، حيث أحاطت بنا الشجيرات الكثيفة، وكان الريف حولنا محجوباً وغامضاً يغلفه صمت الليل والضباب، كانت هذه أرضاً نائية وغير مطروقة وصخرية ومكسوة بغابات كثيفة. خالية من سحر هامبدن وتلالها المتموجة وشاليهات التزلج ومتاجر التحف القديمة. هذه الأرض مرتفعة ومحفوفة بالمخاطر وبدائية، كل شيء هنا أسود ومقفر وخالٍ، حتى اللوحات الإعلانية التي غابت عن الأنظار.

قال فرانسيس الذي كان على دراية بهذه المنطقة أكثر منا: «ثمة نزل قريب»، ولكن من الصعب تصديق أن هناك شيئاً صالحاً للسكن على مسافة خمسين ميلاً». ثم عندما أخذنا منعطفاً أضاءت مصابيح السيارة الأمامية لافتة معدنية صدئة مغطاة بآثار طلاقات رصاص، تخبرنا أن نزل «هوساتونيك»⁽²⁾ الواقع أمامنا مباشرة هو أول مكان في العالم طُهِيت فيه الفطيرة العصرية⁽³⁾، كان النزل محاطاً بشرفة خارجية متهالكة مع مقاعد هزاة بالية وطلاء متقشر.

لم يأت أحد لأخذ طلباتنا بل ظهر العشاء فجأة بما يشبه السحر الفوري؛ لحم خنزير مشوي ورقائق بسكويت ولفت وذرة

(1) ريا هي زوجه كرونوس وأم زيوس كبير الآلهة الإغريق، وأيضاً أم هيرا ويوسيدون وهاديس. وقد أخفت ابنها زيوس في جزيرة كريت خوفاً من أن يبتلعه كرونوس هو الآخر، ووضعت بدلاً منه صخرة ليبتلعها كرونوس ظناً منه أنها ابنه.

(2) يعني الاسم ما وراء الجبال.

(3) بالفرنسية في الأصل Pie a la Mode: فطيرة تقدم مع الآيس كريم. ورغم المقطع الفرنسي في اسمها فإنها حلوى أمريكية نشأت في مينيسوتا.

وقرع الجوز، كلها في أطباق خزفية واسعة مزينة بصور للرؤساء (حتى نيكسون) على حوافها. كان النادل شاباً وجهه محمر وأظافره مقضومة، وقف لحظة ثم قال بخجل: «يا شباب، أنتم من نيويورك؟».

قال تشارلز وهو يتناول طبق البسكويت من هنري: «لا، من هنا».

«من هوساتونيك؟»

«لا، أعني فيرمونت».

«ليس نيويورك؟»

قال فرانسيس بمرح، وهو يقطع اللحم المشوي: «لا، أنا من بوسطن».

أجاب الصبي بإعجاب: «لقد زرت بوسطن من قبل».

ابتسم فرانسيس بملل ومد يده ليتناول أحد الأطباق.

«لا بد أنكم يا شباب تحبون ريد سوكرس⁽¹⁾».

أجاب فرانسيس: «أحبه قليلاً، لكنهم لا يفوزون أبداً، أليس كذلك؟».

«أحياناً يفوزون، لكني لا أظن أننا سنراهم يفوزون بالدوري».
كان يتلصق محاولاً إيجاد شيء آخر يقوله، عندما التفت إليه هنري فجأة وقال: «اجلس وتناول العشاء معنا».

وبعد قليل من التردد سحب كرسيًا وجلس على الرغم من أنه رفض تناول أي شيء، أخبرنا أن غرفة الطعام تغلق عند الساعة الثامنة، وأنه من غير المرجح أن يدخلها أي شخص آخر.

(1) أحد فرق دوري المحترفين الأمريكي للبيسبول، مقر النادي في بوسطن.

قال: «نحن بعيدون جدًا عن الطريق السريع، معظم الناس ينامون مبكرًا هنا».

اكتشفنا أن اسمه جون ديكون، وكان في مثل عمري؛ عشرين عامًا، وتخرج في مدرسة إكوينوكس الثانوية في هوساتونيك قبل عامين فقط، ومنذ ذلك الحين عمل في مزرعة عمه، كانت وظيفة النادل جديدة عليه، شيئًا يملأ به ساعات الشتاء.

قال: «هذا هو أسبوعي الثالث هنا فقط، يعجبني المكان، الطعام جيد، وأحصل على وجباتي مجانًا».

كان هنري يكره عامة الناس، وهم بدورهم يكرهونه، وهي فئة توسعت من منظوره لتشمل المراهقين مع أجهزة الموسيقى التي يحملونها بالإضافة إلى عميد كلية الدراسات في هامبدن الذي كان ميسور الحال وحائز على شهادة في الدراسات الأمريكية من جامعة ييل، ومع ذلك كانت لديه موهبة حقيقية في التعامل مع البسطاء والريفيين. وعلى الرغم من أنه لم يعاملهم على قدم المساواة، فهو لم يعامل أي شخص على هذا النحو، ولم يلجأ إلى الود المتعالي الذي يستخدمه الأثرياء عادة، كان موظفو هامبدن يحتقرونه، لكن عمال النظافة والبستانيون والطهاة كانوا يحبونه، وعلى الرغم من هذا التباين كان تعامل هنري مع الناس مختلفًا، لم يكن يعاملهم كأنداد، لكنه أيضًا لم يتصرف بتلك الطريقة المتعالية التي يفعلها الأغنياء عادة.

أذكر أن جوليان قال ذات مرة: «أعتقد أننا أكثر نفاقًا فيما يتعلق بالمرض والفقر مما كان عليه الناس في العصور السابقة. في أمريكا يحاول الرجل الغني أن يتظاهر بأن الفقير يساويه في كل شيء عدا المال، وهذا ببساطة غير صحيح. هل يتذكر أحدكم

تعريف أفلاطون للعدالة في الجمهورية؟ العدالة في المجتمع هي أن يعمل كل فرد في مكانه ويكون راضياً به، الرجل الفقير الذي يرغب في تجاوز مقامه يجعل نفسه بائساً بلا داع، والفقراء الحكماء دائماً ما يعرفون ذلك، وأيضاً الأغنياء الحكماء».

لست متأكداً اليوم إن كانت تلك الفكرة صحيحة، لأنه إذا كانت كذلك، فأين كنت لأجد نفسي؟ هل كنت لأظل أمسح زجاج السيارات في بيانو؟ ومع ذلك، كان هنري واثقاً ثقة راسخة في قدراته ومكانته في العالم، وارتياحاً عميقاً لموقعه، لدرجة أنه أثر بطريقة غريبة على الآخرين -بمن فيهم أنا- وجعلنا نشعر بالرضا عن أماكننا الأدنى. ورغم أن الفقراء لم يكونوا في الغالب مبهورين بنهجه، فإنهم شعروا نحوه بإعجاب غامض، ما سمح لهم برؤية هنري الحقيقي؛ هنري الذي أعرفه، الرجل قليل الكلام والمهذب والمباشر والبسيط في جوانب كثيرة مثلهم. كانت هذه موهبة يتشاركها مع جوليان، الذي كان يحظى بإعجاب كبير من سكان الريف المحيطين، كما يُحب أن يتخيل المرء أن بلينيوس الرؤوف⁽¹⁾ كان محبوباً من الفقراء في كوموم⁽²⁾ وتيفيرنوم⁽³⁾.

(1) جايوس بلينيوس كاسيليوس الثاني المولود باسم جايوس كاسيليوس أو جايوس كاسيليوس سيلو المشهور باسم بلينيوس الأصغر: محام ومؤلف وقاض روماني، نشأ وتعلم على يدي عمه بلينيوس الأكبر.

(2) مدينة هامة في بلاد الغال كيسالينا، تقع في الطرف الجنوبي من لاکوس لاريوس، عند سفح جبال الألب مباشرة، وبعيدة عن ميلانو بـ 28 ميلاً. وهي المدينة التي ولد فيها بلينيوس الأصغر.

(3) مدينة وبلدية في مقاطعة بيروجيا، في الجزء الشمالي من أومبريا. تقع على منحدر جبال الأبينيني، على سهل الفيضان على طول الجزء العلوي من نهر التيبر، عرفها الرومان باسم Tifernum Tiberinum أي تيفيرنوم على نهر التيبر، بالقرب منها بنى بلينيوس الأصغر فيلته في توسكيس.

خلال تناولنا العشاء تحدث هنري والصبي كأنهما يعرفان بعضهما منذ سنوات، كانت الراحة والانسجام في حديثهما محيرتان بالنسبة إليّ، تطرق حديثهما إلى الأراضي المحيطة بهامبدن وهوساتونيك، وتناولوا موضوعات تقسيم المناطق والمشاريع التطويرية وأسعار الأراضي وسندات الملكية وإلى من تعود ملكية الأراضي في المنطقة، في حين تناولنا نحن الآخرون طعامنا مستمعين. على الرغم من أن هذه المحادثة قد تكون اعتيادية ويمكن سماعها في أي محطة وقود ريفية أو متجر أعلاف، فإنها بعثت في نفسي شعوراً غريباً بالسعادة والاطمئنان إلى العالم.

عندما أنظر إلى الوراء، أستغرب ضعف تأثير ذكرى المزارع الميت في خيالي الهستيري المهووس بالموت، كنت أتوقع أن حدثاً مثل هذا كان ليثير سيلاً من الكوابيس (كأن أفتح باب حجرة الفصل في حلم، لأجد شخصاً بلا وجه يرتدي قميصاً صوفياً، ويتكئ على المكتب أو يستدير ليبتسم لي)، لكنني بالكاد أفكر فيه الآن، وفقط عندما يُذكرني شيء ما به. يبدو أن الآخرين عانوا ذلك بدرجة أقل، كما يتضح من استمرار حياتهم بشكل طبيعي وبروح دعابة جيدة. وعلى الرغم من وحشيتها لم تبدُ الجثة أكثر من أداة، شيء أخرجه عمال خشبة المسرح في الظلام ووضعوه أمام قدمي هنري ليُكتشف عند إضاءة الأنوار، كانت صورتها المحدقة والهامدة بدمائها المتخثرة تثير الرعدة في داخلي، لكنها بدت أقل ضرراً مقارنة بالتهديد الحقيقي والمستمر الذي مثله باني.

في الحقيقة، كان باني شخصية مضطربة وغير متزنة إلى حد كبير، رغم ما يبدو عليه من صلابة واستقرار، وكان لذلك أسباب عدة أبرزها تسرعه وعدم تفكيره قبل الإقدام على أي تصرف، لقد كان يتنقل في هذا العالم مسترشداً بغريزته ودوافعه واثقاً بأن طريقه سالكة ولن تعترضها عقبات لا يمكنه تخطيها، ولكن عندما وقعت جريمة القتل تغير كل شيء، فقد خانت غريزته في ظل هذه الظروف الجديدة، الآن بعد أن أُعيد ترتيب العلامات الإرشادية المألوفة في الظلام، أصبحت آلية التوجيه التي اعتمد عليها عديمة الفائدة، بات يتعثر ويتخبط بلا هدف متجاوزاً الحواجز الرملية ومنحرفاً في اتجاهات عشوائية.

أعتقد أن باني -في نظر المراقب العادي- بدا كأنه هو نفسه ذاته القديمة المرححة، يصفع الناس على ظهورهم ويأكل حلوى «توينكي» و«هوهوز» في غرفة القراءة بالمكتبة، ويسقط الفتات في أغلفة كتبه اليونانية. لكن خلف تلك الواجهة الزائفة، طرأت تغييرات مقلقة وواضحة، تغييرات كنت على دراية بها، لكنها أصبحت أكثر وضوحاً مع مرور الوقت.

حاولنا أن نستمر في حياتنا الطبيعية قدر الإمكان على الرغم من كل ما حدث، فقد كنا نحضر المحاضرات وندرس اليونانية ونتظاهر أن كل شيء على ما يرام. في ذلك الوقت كان يطمئنني أن باني على الرغم من اضطرابه الواضح استمر في مواصلة روتينه القديم بسهولة، لكنني أدرك الآن أن ذلك الروتين كان الشيء الوحيد الذي يبقيه متماسكاً، كان النقطة المرجعية الوحيدة التي تبقت له، فتشبث بها بشدة بإصرار بافلوفي بدافع

العادة من ناحية، ولأنه لم يكن يملك شيئاً آخر يعتمد عليه من ناحية أخرى. أعتقد أن الآخرين شعروا بأن مواصلة عاداتهم القديمة كان نوعاً من الدعم لباني، استمروا فيها لتهديته، لكنني لم أفعل، ولم يكن لديّ أدنى فكرة عن مدى انزعاجه حقاً حتى وقع الحدث التالي.

كنا نقضي عطلة نهاية الأسبوع في منزل فرانسيس، وبغض النظر عن التوتر الذي كان يخيم بشكل غير مرئي على تعاملاتنا مع باني في ذلك الوقت، بدا أن الأمور تسير بسلاسة. كان باني في مزاج جيد خلال العشاء تلك الليلة، وعندما ذهبت إلى النوم كان لا يزال في الطابق السفلي يشرب النبيذ المتبقي من العشاء ويلعب الطاولة مع تشارلز، ويبدو أنه على سجيته المعتادة، ولكن في منتصف الليل استيقظت على صياح عالٍ غير مفهوم قادم من غرفة هنري.

جلست في سريري وأشعلت الضوء.

سمعت باني يصرخ: «أنت لا تهتم بشيء، أليس كذلك؟»، تلا ذلك صوت اصطدام، كما لو أن كتباً سقطت من المكتب على الأرض. «لا تهتم إلا بنفسك الأنانية، أنت وبقيتهم... أيها الوغد، أود أن أعرف ما الذي سيفكر فيه جولييان لو أخبرته ببعض الأمور».

ثم صرخ باني: «لا تلمسني، ابتعد عني... أنا...».

تلا ذلك مزيد من أصوات الارتطام كأن الأثاث يُقلب، ثم سمعت صوت هنري سريعاً وغاضباً.

ارتفع صوت باني فوقه: «هيا!»، صرخ بصوت عالٍ وأنا متأكد من أنه أيقظ المنزل كله: «حاول أن توقفني! لست خائفاً منك،

أنت تشعرني بالغثيان، أيها الحثالة، أيها النازي البخيل الحقير القذر».

ثم سمعت صوت تحطم آخر بدا وكأنه خشب يتكسر، أعقبه صوت باب يُصْفَع، ثم تبعت ذلك خطوات سريعة في الممر، ثم ضجيج نحيب مكتوم، نحيب رهيب استمر طويلاً.

نحو الساعة الثالثة صباحاً، عندما هدأ كل شيء وكنت على وشك العودة إلى النوم، سمعت خطوات هادئة في الممر تلاها طرُق على باب غرفتي.

كان هنري!

قال بشرود وهو ينظر في أرجاء غرفتي، إلى سريري غير المرتب وملابسي المتناثرة على السجادة جانبه: «يا إلهي، أنا ممتن لأنك مستيقظ، رأيت ضوء الغرفة مشتعلًا».

«يا إلهي، ما سبب كل ما حدث؟»

مرر يده من خلال شعره المجعد، وقال وهو ينظر إليّ بجمود: «ماذا تعتقد؟».

«لا أعرف، حقًا».

«لا بد أنني فعلت شيئاً أثاره، مع أنني لا أعرف ما هو حقًا. كنت أقرأ في غرفتي، فجاء باني وطلب قاموسًا، أو طلب مني أن أبحث له عن شيء... هل لديك قرص أسبرين؟».

جلست على حافة سريري وأخذت أبحث في درج الطاولة الجانبية بين المناديل الورقية ونظارة القراءة ومنشورات العلوم المسيحية التي تخص إحدى قريبات فرانسيس المسنات، وقلت: «لا أرى شيئاً هنا، ماذا حدث بعد ذلك؟».

تتهد هنري وارتمى فوق كرسي، وقال: «يوجد أسبرين في غرفتي، في علبة في جيب معطفي. وأيضاً علبة زرقاء لحفظ أقراص الدواء وسجائري. هل يمكنك إحضارها لي؟».

كان هنري شاحباً ويرتجف لدرجة أنني تساءلت إن كان مريضاً، سألته: «ماذا جرى؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

«لا أريد دخول غرفتي».

«ولم لا؟»

«لأن باني نائم على سريري».

نظرت إليه، وقلت: «حسناً، بحق الله، لن...».

لكن هنري قاطعني بحركة من يده المتعبة: «كل شيء على ما يرام، أنا فقط منزعج جداً ولا أريد أن أذهب بنفسي، باني يغط في النوم بسرعة».

خرجت بهدوء من غرفتي وسرت في الممر، كان باب غرفة هنري في نهايته، توقفت في الخارج واضعاً يدي على مقبض الباب، وسمعت بوضوح صوت شخير باني الغريب قادماً من الداخل.

على الرغم مما سمعته سابقاً، لم أكن مستعداً لما رأيته عندما دخلت؛ الكتب مبعثرة على نحو جنوني على الأرض، والكومود محطم، وكرسي أسود مكسور وملقى على الأرض بجوار الحائط، كانت الأباجرة الأرضية مائلة، تلقي ضوءاً غير منتظم على الغرفة. كان باني مستلقياً وسط هذا الفوضى، وجهه مستند إلى مرفق سترته التويدية، وإحدى قدميه متدلية من السرير ولا تزال تتلعل فردة حذائه، كان فمه مفتوحاً، وعيناه منتفختين من

دون نظارته، وهو يتنفس بعمق ويتمتم في نومه، أخذت أغراض هنري وغادرت الغرفة بسرعة.

في صباح اليوم التالي نزل باني إلى الطابق السفلي في ساعة متأخرة منتفخ العينين ومتجهماً، فيما كنت أنا وفرانسيس والتوأمان نتناول فطورنا.

تجاهل تحياتنا المرتبكة وتوجه مباشرة إلى الخزانة، وأعد لنفسه صحنًا من رقائق الذرة المحلاة، ثم جلس إلى المائدة من دون أن ينطق بكلمة، ساد الغرفة فجأة صمت واجم بعد قدوم باني، قطعه دخول السيد هاتش من الباب الأمامي. اعتذر فرانسيس وأسرع لمقابلته، وسمعت الاثنين يتهامسان في الممر، في حين كان باني يمضغ طعامه بكآبة.

مرت بضع دقائق، وأنا أراقب باني خلسة وهو يميل فوق صحنه، عندما رأيت فجأة في النافذة خلف رأسه خيال السيد هاتش وهو يبتعد عبر الحقل المفتوح خلف الحديقة، حاملاً بقايا الكرسي المكسور إلى مكب النفايات.

على الرغم من أن ثورات باني الهستيرية كانت مقلقة فإنها كانت نادرة، ولكنها كانت تتبئ بمدى انزعاجه وكيف يمكن أن يصبح بغيضاً عند تعرضه للاستفزاز. كان هنري الشخص الذي أثار غضب باني أكثر من أي شخص آخر، فهو الذي خانته وهو الذي كان دائماً محط هذه الانفجارات. ومع ذلك كان هنري بطريقة غريبة الأكثر تحملاً لتصرفات باني اليومية، كان باني ينزعج من الآخرين بسبب أو من دون سبب، وينفجر أحياناً في

وجه فرانسيس إذا أدلى بتعليقات يعتبرها متصنعة، أو يفضب بشكل غير مفهوم إذا عرض عليه تشارلز شراء الآيس كريم، لكن مع هنري لم تكن تلك المعارك بنفس الدرجة من التفاهة والتعسف، مع أن هنري لم يبذل جهداً لتهديئته كما فعل الآخرون. عندما طرح باني فكرة الرحلة عبر فرنسا، وقد تطرق إليها في أحيان كثيرة، كانت مشاركة هنري فيها روتينية، وردوده كانت ميكانيكية ومصطنعة، بالنسبة إليّ، كانت ثقة باني وتطلعه إلى هذه الرحلة مرعبين أكثر من أي نوبة غضب، كيف يمكنه أن يخدع نفسه بالاعتقاد بأن الرحلة ستمضي وأنها لن تكون كابوساً؟ لكن باني بسعادته الساذجة ظل يتحدث لساعات عن أوهامه حول الريفييرا، غافلاً التوتر الظاهر في فك هنري أو الصمت المشؤوم الذي ساد عندما جلس، ذقنه متكئة على يده، يحدق حالمًا في الفراغ.

وفي معظم الأحيان بدا أن باني نقل غضبه من هنري إلى تعاملاته مع الآخرين، كان مهينًا ووقحًا، وسريعًا ما يتشاجر مع كل من يقابله. تلقينا أخباراً عن سلوكه من مصادر متعددة؛ ألقى بحذائه على بعض الهيببيين الذين كانوا يلعبون بكرة قماشية خارج نافذته، وهدد بضرب جاره لأنه شغل الراديو بصوت عال، وأهان إحدى السيدات في مكتب أمين الصندوق بالكليات واصفًا إياها بـ«ساكنة الكهف»، لحسن حظنا كانت دائرة معارفه الواسعة تضم عددًا قليلًا من الأشخاص الذين كان يراهم بانتظام، رأى جولييان باني بقدر ما رأى أي شخص آخر لكن علاقتهما لم تتجاوز قاعة المحاضرات، كانت صداقته مع زميله القديم كلوك رايبورن وعلاقته بماريون العلاقات الأكثر إزعاجًا.

عرفنا أن ماريون لاحظت التغيير في سلوك باني بالوضوح نفسه الذي لاحظناه، وتحيرت وغضبت بسبب ذلك، لو رأت الطريقة التي كان يتصرف بها معنا لأدركت بلا شك أنها لم تكن السبب، ولكن بما أنها لم ترَ من باني سوى المواعيد الغرامية المتقطعة وتقلبات المزاج والكآبة والغضب السريع غير العقلاني الموجه إليها فحسب، فلا بد أنها تساءلت: هل كان يقابل فتاة أخرى؟ هل أراد الانفصال؟ أخبر أحد معارفها في مركز الطفولة المبكرة كاميلا أن ماريون اتصلت بباني ست مرات في أحد الأيام الدراسية، وفي المرة الأخيرة أغلق باني الهاتف في وجهها.

قال فرانسيس، وهو يرفع عينيه نحو السماء عندما سمع هذا الخبر: «يا إلهي، أرجوك يا رب، دعها تنفصل عنه». لم يُضف أحدٌ شيئاً آخر بعد ذلك، لكننا راقبناهما بعناية، نأمل في انفصالهما. لو كان باني في حالة عقلية سليمة، لحافظ بالتأكيد على فمه مطبقاً، لكن الآن بعد أن تحرر عقله الباطن من لجامه، وراح يتخبط بشكل عشوائي في الممرات المजوفة لجمجمته مثل خفاش، لم تكن هناك طريقة للتأكد مما قد يفعله.

كان باني يرى صديقه كلوك بوتيرة أقل، لم يكن لديهما قواسم مشتركة كثيرة سوى المدرسة الإعدادية، كان كلوك غارقاً في الملذات وتعاطي المخدرات ومشغولاً بنفسه إلى حد كبير وغير مهتم بسلوك باني كثيراً. كان يعيش في المبنى المجاور لمنزلي، مبنى دربنستول الذي أطلق عليه رواد الحرم الجامعي الظرفاء

«قاعة دالمان⁽¹⁾»، وكان مركزاً صახباً لما سمته الإدارة «النشاط المريب المتعلق بالمخدرات». كانت زيارتنا هناك تتخللها أحياناً انفجارات وحرائق صغيرة، ضحاياها متعاطو الكوكائين أو طلاب الكيمياء الذين يعملون في الطابق السفلي، لحسن حظنا كان كلوك يعيش في مقدمة الطابق الأرضي، وبما أن ستائره كانت دائماً مفتوحة ولم تكن هناك أشجار قريبة، كان من الممكن الجلوس بأمان على شرفة المكتبة على بعد نحو خمسين قدماً، والاستمتاع بمشهد واضح لباني مؤطراً في نافذة كلوك المشرقة يحدق إلى كتب مصورة أو يتحدث ملوحاً بذراعيه إلى كلوك غير المرئي لنا. قال هنري: «لا أريد سوى الحصول على فكرة -ولو ضئيلة- عن المكان الذي يذهب إليه».

لكن في الواقع كان من السهل جداً مراقبة باني، فهو أيضاً لم يكن راغباً في ترك الآخرين خصوصاً هنري بعيداً عن أنظاره لمدة طويلة.

ومع ذلك كان باني يعامل هنري بشيء من التوقير، ولكن بقيتنا اضطرروا إلى تحمل وطأة غضبه المُنْهَكة يوماً بعد يوم. في معظم الأوقات كان باني مزعجاً بشكل لا يحتمل، على سبيل المثال عندما كان يسخر بجهلٍ من الكنيسة الكاثوليكية بشكل متكرر وغير مطلع.

(1) أحد الأسماء التجارية للفلورازيبام، وهو دواء من فئة البنزوديازيبينات. يستخدم لعلاج الأرق، والقلق، ومضاد للاختلاج، ومنوم، ومهدئ، وقد يبقى أثره في الدم عدة أيام. وهو من المواد المدمنة عند استخدامه بكثرة وجرعات عالية.

على الرغم من أن عائلة باني كانت تنتمي إلى الكنيسة الأسقفية⁽¹⁾، ولم يكن لوالدي أي انتماء ديني على حد علمي، فإن هنري وفرانسيس والتوأمين نشؤوا كاثوليك، ومع أنهم لم يكونوا يزورن الكنيسة بانتظام، فإن سخافات باني الجاهلة التي لا تنتهي حول الكاثوليكية كانت تغضبهم. كان باني يروي بسخرية لاذعة وبنبرة متهكمة قصصاً عن الراهبات المرتدات والفتيات الكاثوليكيات الفاسقات والكهنة المتحرشين بالأطفال مختلفاً أحداثاً شنيعة عن فساد الباباوات، ويمزج هذه القصص بأمور غير معروفة عن العقيدة الكاثوليكية، ثم يهذي بنظريات عن المؤامرات التي يقودها الفاتيكان متجاهلاً تفتيدات هنري الواضحة وتعليقات فرانسيس الجانبية عن البروتستانت المتسلقين اجتماعياً.

والأسوأ من ذلك أنه اختار التركيز على شخص واحد على وجه الخصوص، وقد كان لديه مهارة خارقة في معرفة كيف يلمس العصب الحساس في اللحظة المناسبة لإيذاء الآخرين وإثارة غضبهم. كان تشارلز طيب القلب وصبوراً، ولكنه أحياناً يتأثر بشدة من هذه الخطابات المعادية للكاثوليكية، حتى أن فنجان الشاي كان يرتجف في يده، وكان تشارلز حساساً أيضاً تجاه التعليقات حول شربه، في الواقع كان تشارلز يشرب بشراهة مثلنا جميعاً، ولكنه لم يكن يشرب بشكل مفرط أمامنا، ومع ذلك

(1) الكنيسة الأسقفية يطلق عليها أحياناً الكنيسة الأسقفية البروتستانتية. والكنيسة الأسقفية الأمريكية هي كنيسة بروتستانتية وطائفة أنجليكانية رئيسة في الولايات المتحدة، وتعد من أكبر الطوائف البروتستانتية في أمريكا الشمالية.

كنت ألاحظ رائحة الكحول في أنفاسه في أوقات غير مألوفة، أو أجده يشرب كأسًا عندما أزوره بشكل مفاجئ في وقت مبكر من بعد الظهر، وهو أمر قد يكون مفهومًا بسبب الضغوط التي كنا نمر بها. كان باني بأسلوبه الاستفزازي بيدي قلقلًا زائفًا حول شرب تشارلز، مطلقًا تعليقات دينية حول السكارى ومدمني الكحول مبالغًا في إحصائيات استهلاك تشارلز للكحول، ويترك استبيانات (هل تشعر أحيانًا أنك بحاجة إلى مشروب لتتمكن من تجاوز أعباء يومك؟) ومنشورات تحذر من مخاطر الإفراط في الشرب في صندوق بريده (طفل ذو وجه منمّش يحدق بأسى في والديه ويسأل: «ماما، ما معنى كلمة «ثمل»؟»). لم يتوقف عند هذا الحد، بل ذهب إلى تقديم اسمه لنادي مدمني الكحول المجهولين في الحرم الجامعي، فأغرق تشارلز بسيل من المنشورات والمكالمات الهاتفية، وحتى زيارة شخصية من أحد المتعافين من الإدمان حسني النية.

أما بالنسبة إلى فرانسيس، فكانت الأمور أكثر تعقيدًا وبغضًا. لم يتحدث أحد بصراحة عن الموضوع، لكننا جميعًا كنا ندرك أنه مثلي الجنس، وكان يكره المجاهرة بذلك. على الرغم من أنه لم يكن منحلًا، فإنه كان يختفي أحيانًا بطرائق غامضة في الحفلات. في إحدى المرات، عندما كنا حديثي المعرفة، حاول فرانسيس التودد إليّ بطريقة غير مباشرة ولكن واضحة، وذلك بعد ظهر أحد الأيام عندما كنا في حالة سكر وحدنا على متن قارب تجديف. وبينما كنت أستعيد مجدافًا أسقطته عن طريق الخطأ، شعرت بلمسة خفيفة من أطراف أصابعه على وجنتي

قرب عظمة فكي. التفتُ مفزوعاً، وعندما تلاقت أعيننا للحظة، شعرت بموجة من الارتباك الشديد. غيرت اتجاه نظري بعيداً بسرعة، وعندها بشكل غير متوقع انفجر فرانسيس ضاحكاً. قال: «لا»

قلت مرتاحاً: «لا».

قد يبدو أن هذه الحادثة ستجعل صداقتنا باردة، لكن الغريب أنها كانت بداية لتصفية الأجواء بيننا. أدركت أنني كنت أخشى وقوع هذا الموقف، وعندما حدث وانتهى، شعرت براحة كبيرة في الوجود معه، حتى في أكثر المواقف إثارة للريبة، بعد ذلك لم أعد أشعر بأي توتر أثناء وجوده، حتى عندما كنا بمفردنا، سواء كنا في حالة سكر أم في شقته، أم حتى جالسين متلاصقين في المقعد الخلفي للسيارة.

لكن القصة كانت مختلفة بين فرانسيس وباني، على الرغم من أنهما كانا يقضيان الوقت معاً بسهولة في البداية، فإنه كان واضحاً أن التوتر يتصاعد بينهما عندما يمضيان وقتاً طويلاً معاً. كنا ندرك جميعاً أن السبب الحقيقي لهذا التوتر هو اعتماد باني المادي على فرانسيس، ومع ذلك لم أفكر قط أن باني كان يخفي حقاً حقيقةً تجاه فرانسيس، وأن نكاته القاسية لم تكن مجرد دعايات سخيفة، بل كانت تعبيراً عن احتقار حقيقي.

كان اكتشاف هذه الحقيقة صدمة، وربما كانت من أسوأ الصدمات. أدركت أن تلك النكيات التي كنت أعتبرها مجرد سخرية لم تكن كذلك، بل كانت تعبيراً عن مشاعر حققت دفينة. على الرغم من أن فرانسيس كان قادراً على الدفاع عن نفسه

في الظروف العادية، وكان يمتلك مزاجًا سريع القلب ولسانًا لاذعًا، فإنه كان مترددًا في هذه المرحلة في مواجهة باني. كنا جميعًا ندرك الخطر الكامن في تصرفاته، كأنه يحمل معه دائمًا قارورة مجازية من النيتروجين، وكان يذكرنا بذلك من حين إلى آخر، كأنه يريدنا ألا ننسى أنه قادر على إحداث انفجار في أي لحظة.

لا أجرؤ على سرد كل الأفعال الشائنة والكلمات القاسية التي وجهها باني لفرانسييس، من النكات السخيفة إلى التعليقات المهينة عن الميول الجنسية، وحتى الأسئلة المذلة التي كان يطرحها علنًا حول تفاصيل حياته الخاصة. أسئلة دقيقة ومفصلة تتناول أمورًا بالغة الخصوصية.

أتذكر كيف كان فرانسييس يهمس من بين أسنانه، وقد امتلأ بالغضب: «مرة واحدة فقط. مرة واحدة فقط أود أن...». ولكن لم يكن هناك أي شيء يمكن لأي منا قوله أو فعله حيال ذلك.

قد يتصور المرء أنني -لكوني بريئًا تمامًا من أي إساءة تجاه باني أو تجاه الإنسانية- سأكون بمنأى عن هجماته اللاذعة، لكن لسوء الحظ لم أسلم منها بل ربما كنت أعانيها أكثر مما يدرك، كيف يمكن لباني أن يكون أعمى إلى هذا الحد عن خطورة تنفير الشخص الوحيد الذي كان يحتفظ بحياده، والحليف المحتمل الوحيد له؟ لأنني كنت أكنُّ لباني محبة ومودة على الرغم من إعجابي بالآخرين، ولم أكن لأسرع في الانضمام إلى بقية المجموعة ضده لو لم يبدأ بمهاجمتي بهذه القسوة، ربما كانت غيرته مني مبررة في ذهنه، فقد بدأت مكانته في المجموعة

تراجع في نفس الوقت الذي أصبحت فيه أنا جزءاً منها، كان استياؤه طفولياً وسخيفاً إلى حد كبير، ولم يكن ليظهر على السطح لولا أنه كان مفعماً بالارتياح وغير قادر على التمييز بين العدو والصديق.

تدريجياً أصبحت أبغضه، كان باني مثل كلب صيد لا يكل، يلتقط بحدسه السريع كل ما يشعرني بالاستياء في حياتي، كل الأشياء التي كنت أحاول جاهداً إخفاءها، كان يستمتع بلعب ألعاب سادية معي ويستدرجني إلى الكذب ثم يفضحني بلا رحمة، كان يقول: «ربطة عنق رائعة، هذه ماركة هيرميس، صحيح؟»، وعندما أوافق، يمد يده عبر الطاولة ليكشف عن الأصل المتواضع لربطة عنقي الرخيصة، أو يقطع الحديث فجأة ليسألني: «ريتشارد، يا رجل، لماذا لا تحتفظ بأي صور لأهلك في الغرفة؟»

كانت تلك هي التفاصيل التي كان يلتقطها، كانت غرفته مليئة بتذكارات عائلية مثالية مرتبة كأنها جزء من إعلانات؛ باني وإخوته يلوحون بعصي اللاكروس في ملعب مضاء، أو مشهد عائلي لعيد الكريسماس حيث يظهر والداه الأنيقان يرتديان ملابس منزلية فاخرة وخمسة أطفال شقر يرتدون بيجامات متطابقة يلعبون مع كلب سبينلي ضاحك في مشهد تتوسطه لعبة قطار فاخرة مع شجرة عيد الميلاد الشامخة في الخلفية، أو والدته الشابة المتباهية بنفسها ترتدي معطفاً فاخراً من فرو المنك الأبيض في حفلها الراقص الأول.

ثم كان يسألني ببراءة مزيفة: «ماذا؟ لا توجد كاميرات في كاليفورنيا؟».

«ألا يمكنك أن تسمح لأصدقائك برؤية والدتك وهي ترتدي ملابس من البوليستر؟».

وعندما حاولت التحدث قاطعني بسخرية: «أين درس والدك؟ هل تخرجاً في إحدى جامعات الأيفي ليج⁽¹⁾؟ أم اكتفياً بإحدى الجامعات الحكومية؟»

كانت تلك قسوة لا مبرر لها. كانت أكاذيبي حول عائلتي مقنعة لأي شخص آخر، لكنها لم تصمد أمام هجماته الفظة. لم يمه والداي دراستهما الثانوية، في الصورة الوحيدة التي كانت لدي لها، ارتدت والدتي ملابس رخيصة اشترتها من متجر بيع تابع لمصنع⁽²⁾، كانت تحرق بشكل شارد إلى الكاميرا، ويدها على سياج من الأسلاك المتشابكة، واليد الأخرى على جزاة عشب اشترها أبي حديثاً، أرسلوا لي هذه الصورة لأنهم ظنوا أنني سأهتم بالمشتريات الجديدة، احتفظت بها لأنها كانت الصورة الوحيدة التي أملكها لوالدتي، ووضعتها بين صفحات قاموس ويبستر تحت حرف «ميم- أم⁽³⁾» في مكتبي. ولكن في إحدى الليالي، استبد بي الخوف من أن يعثر باني على الصورة في أثناء عبثه في غرفتي، فلم أجد مخبأً آمناً لها، وفي النهاية أحرقتها في منفضة السجائر.

(1) الأيفي ليج: رابطة تجمع ثمانى جامعات تعد من أشهر وأقدم وأعرق جامعات الولايات المتحدة الأمريكية في العالم. كلها تقع في الشمال الشرقي للولايات المتحدة.

(2) يشير إلى متجر يبيع البضائع بشكل مباشر من المصنع للجماهير، هذه المتاجر تعرض المنتجات عادة بأسعار مخفضة لأن البضائع قد تكون فائضة عن الحاجة أو تأتي في تصميمات وتشكيلات قديمة.

(3) M-Mother في الأصل

كانت تلك «الاستجابات الشخصية» التي خضعت لها على يد باني مزعجة جداً، ولكنني لا أجد كلمات تصف العذاب الذي شعرت به عندما قرر ممارسة فنه هذا علناً. لقد مات باني الآن - فليرقد بسلام - لكنني ما دمت حيًا، لن أنسى أبدًا تلك اللحظات من العنف التي مارسها عليّ في شقة التوأمين.

قبل بضعة أيام بدأ باني يستجوبني عن مدرستي الإعدادية، لا أعلم لماذا لم أتمكن من قول حقيقة أنني ذهبت إلى مدرسة عامة في بيانو.

درس فرانسيس في مدارس حضرية⁽¹⁾ في إنجلترا وسويسرا، ودخل هنري مدارس أمريكية مرموقة قبل أن يترك الدراسة في الصف الحادي عشر، أما التوأمان فقد ذهبا إلى مدرسة نهائية⁽²⁾ صغيرة في رونوك، وحتى مدرسة سانت جيروم التي ارتادها باني كانت مدرسة تقوية باهظة الثمن من تلك التي يعلن عنها في الصفحات الأخيرة من مجلة «الريف والمدينة»، مخصصة للأطفال المتأخرين أكاديميًا.

لم تكن مدرستي مخزية كثيرًا في هذا السياق، ومع ذلك تجنبت الحديث عنها قدر المستطاع، في النهاية تحت الضغط واليأس أخبرته بأنني التحقت بمدرسة رينفرو هول، وهي مدرسة رخيصة للبنين تهتم برياضة التنس بالقرب من سان فرانسيسكو،

(1) مدارس تضع شروطًا معينة للمتحمسين بها.

(2) المدرسة النهارية: مدرسة يُعلم فيها الطلاب خلال ساعات النهار فقط، ويعودون إلى منازلهم في نهاية اليوم دون الحاجة إلى المبيت، كما في المدارس الداخلية.

بدا أنه تقبل هذا الأمر لكن سرعان ما أثار الموضوع مرة أخرى أمام الجميع؛ ما أثار حنقي.

قال بلهجة ودية وهو يستدير نحوي ويضع حفنة من الفستق في فمه: «إذن، فقد درست في رينفرو».

«نعم».

«متى تخرجت؟»

ذكرت تاريخ تخرجي الحقيقي من المدرسة الثانوية.

قال وهو مشغول بقضم مكسراته: «إذن كنت هناك مع فون رومر».

«ماذا؟».

«أليك... أليك فون رومر، من سان فرانسيسكو، صديق كلوك. زارنا في الغرفة في ذلك اليوم وتحدثنا، لقد قال: هناك كثير من خريجي رينفرو في هامبدن».

لم أقل شيئاً متمنياً أن يتوقف عند هذا الحد.

«إذن أنت تعرف أليك».

قلت: «آه، قليلاً».

ردّ وهو يتناول حفنة أخرى من الفستق دون أن يرفع عينيه عني: «من الغريب أنه قال إنه لا يتذكرك مطلقاً».

«إنها مدرسة ضخمة».

تنحني وقال: «أحقاً تعتقد ذلك؟»

«نعم».

«قال فون رومر إنها صغيرة، لا يتجاوز عدد طلابها مئتي طالب» ثم سكت هنيهة، مضغ حفنة أخرى من الفستق، وأضاف: «في أي مهجع كنت تقيم؟».

«لن تعرفه».

«طلب مني فون رومر أن أسألك عن ذلك».

«ما الفارق؟»

قال باني بسرور ساخر: «أوه، لا شيء، لا شيء على الإطلاق، يا صديقي. فقط إنه أمر غريب جداً، أليس كذلك؟⁽¹⁾ أنت وأليك تعيشان معاً لمدة أربع سنوات، في مكان صغير مثل رينفرو، ولم يرك قط ولو لمرة واحدة؟»

«قضيت هناك عامين فحسب».

«لماذا لست في الكتاب السنوي⁽²⁾ إذا؟»

«أنا في الكتاب السنوي».

«لا، لست كذلك».

بدا التوأمان مصدومين، أما هنري فقد كان يدير ظهره لنا متظاهراً بعدم الاستماع.

وفجأة قال هنري من دون أن يلتفت: «كيف تعرف إن كان في الكتاب السنوي أم لا؟»

قال فرانسيس بعصبية: «لا أعتقد أنني كنت في أي كتاب سنوي في حياتي، لا أحب التقاط الصور، كلما حاولت أن...». لم يعرفه باني أي اهتمام، انحنى إلى الخلف في كرسيه وقال: «هيا، سأعطيك خمسة دولارات إذا استطعت أن تخبرني باسم المهجع الذي كنت تقيم فيه».

(1) بالفرنسية في الأصل.

(2) الكتاب السنوي، ويعرف كذلك باسم الحولية، هو نوع من المنشورات السنوية التي تُعد من أجل تسجيل واستذكار السنة الماضية من المدرسة أو الجامعة.

كانت عيناه مثبتتين على عينيّ، وتلمعان بتلذذ رهيب.

تمتت بشيء غير واضح، ثم نهضت مذعوراً وتوجهت إلى المطبخ لأحضر كوباً من الماء. وقفت متكئاً على المغسلة، ووضعت الكأس على صدغي، وسمعت فرانسيس يقول شيئاً غاضباً في غرفة المعيشة، ثم ضحك باني بغلظة، سكبت الماء في المغسلة وفتحت الصنبور على آخره حتى لا أسمع ما يُقال. ما زلت أتساءل كيف أن عقلي الهش والمعقد والذي بالكاد أحافظ على توازنه استطاع ضبط نفسه تماماً بعد صدمة جريمة القتل، في حين أن عقل باني الأقوى والأكثر اتزاناً فقد صوابه تماماً. لو كان باني يسعى حقاً للانتقام، لكان بإمكانه تحقيقه بسهولة ومن دون تعريض نفسه للخطر.

فما الذي كان يأمل في تحقيقه من هذا التعذيب البطيء والخطر؟ هل كان هناك هدف أو غاية في ذهنه؟ أم أن أفعاله كانت غامضة حتى بالنسبة إليه؟

أو ربما لم تكن غامضة تماماً، فكما قالت كاميللا ذات مرة لم يكن الأمر السيئ الذي حدث أن باني تعرض لتغيير جذري في شخصيته أو انهيار فصامي مفاجئ، بل كانت الحقيقة أن جوانب بغيضة متفرقة من شخصيته، لم نلاحظها سابقاً إلا لماماً، تجمعت وتضخمت حتى أصبحت قوة طاغية.

على الرغم من أن سلوكه كان بغيضاً، فإننا رأينا تلك التصرفات من قبل، وإن كانت أقل تركيزاً وقسوة. حتى في أفضل الأوقات كان يسخر من لهجتي الكاليفورنية ومن معطفي المستعمل ومن غرفتي الخالية من التحف أو الزخارف الفاخرة، لكنه كان يفعل

ذلك بطريقة بريئة، لم أملك إلا أن أضحك معها، كان يقول: «يا إلهي، يا ريتشارد»، وهو يلتقط أحد فردتي حذائي القديم، ويدخل إصبعه في ثقب نعل الحذاء. «ما خطبكم يا أبناء كاليفورنيا؟ كلما زاد ثراؤكمظهرتم أكثر بؤسًا، ألا تذهب حتى إلى الحلاق؟ قريبًا، سينسدل شعرك طويلاً حتى كتفيك وستتجول بملابس ممزقة مثل هوارد هيزز⁽¹⁾». لم أشعر بالإهانة قط، كان هذا هو باني، صديقي الذي كان يملك مصروفًا أقل مني، وكان بنطاله ممزقًا عند القاعدة.

لكن الجزء الأكبر من رعبي جاء من حقيقة أن سلوكه الجديد كان مشابهًا لطريقته القديمة في ممازحتي، ولكن مع فرق أنه أصبح أكثر شراسة، ما تركني في حيرة وغضب، كما لو كنا في مباراة ملاكمة ودية وفجأة انقلب عليّ وضربني بلا هوادة.

وما زاد الطين بلة أنه على الرغم من تلك الذكريات غير السارة كانت هناك أشياء كثيرة تذكرني بباني القديم ذلك الصديق الذي عرفته وأحببته. في بعض الأحيان عندما كنت أراه من بعيد يصفر واضعًا يديه في جيبيه ويتهاذى بتلك الخطوات المرحلة التي اعتدتها، كانت تفيض في قلبي موجة قوية من

(1) هوارد روبارد هيزز جونيور: مهندس طيران أمريكي ورجل أعمال ومنتج أفلام ومستثمر وطيار، اشتهر خلال حياته بأنه أحد أغنى الأشخاص وأكثرهم نفوذًا في العالم. بدأ منتج أفلام بارز، ثم شخصية مهمة في صناعة الطيران. نما عند هيزز هاجس وخوف من الجراثيم، ويقال إنه عانى اضطرابًا ذهنيًا لا إراديًا وشيزوفرينيا بسبب تعرض دماغه لأضرار نجمت عن اصطداماته المتكررة في الطائرات. وقد تفاقم مرضه ذلك بمرور الوقت حتى عمد في مرحلة لاحقة من حياته إلى الاختفاء تمامًا.

المودة ممزوجة بالندم، لقد غفرت له مرارًا وتكرارًا من دون سبب سوى نظرة أو لفتة أو حركة رأس منه. في تلك اللحظات كان يبدو من المستحيل أن أغضب منه مهما فعل، ولكن لسوء الحظ كانت تلك اللحظات نفسها التي كان يختارها للهجوم؛ يبدأ حديثه بود ولطف ثم فجأة دون أن يغير أسلوبه ينحني إلى الخلف في كرسيه ويقول شيئًا فظيئًا، أو يوجه لي نقدًا لاذعًا لا أجد عليه ردًا. كان يغلف حديثه بالمدح ولكنه في الحقيقة يقصد به الذم لدرجة أنني كنت أتعهد بألا أنساه أو أسامحه أبدًا.

لكنني نقضت هذا العهد مرارًا، كنت سأقول إن ذلك وعد كان عليّ الوفاء به في النهاية، لكن الحقيقة هي أنني حتى الآن لا أستطيع أن أشعر بأي غضب حقيقي تجاه باني. في الواقع، لا أستطيع أن أتخيل شيئًا أتمناه أكثر من أن يدخل باني الغرفة الآن بنظاراته الضبابية ورائحة الصوف المبلل تفوح منه، ينفض المطر عن شعره مثل كلب عجوز، ويقول: «ديكي⁽¹⁾، يا صديقي، ماذا لديك هنا ليشربه رجل عجوز عطشان؟»

يروق للمرء أن يصدق أن هناك شيئًا صادقًا في تلك العبارة المبتذلة: «الحب يقهر كل شيء⁽²⁾». لكن إذا كنت قد تعلمت شيئًا واحدًا في حياتي القصيرة والمليئة بالحزن، فهو أن تلك العبارة بالذات كذبة، الحب لا يقهر كل شيء، ومن يعتقد ذلك فهو أحمق. كان باني يعذب كاميلًا لمجرد أنها فتاة، كانت كاميلًا في بعض النواحي أضعف أهدافه وأسهلها ليس بسبب أي خطأ من

(1) أحد كُنَى اسم ريتشارد. وتعني القائد القوي.

(2) باللاتينية في الأصل.

جانبها، ولكن ببساطة لأن النساء في المجتمع اليوناني القديم كن مخلوقات أقل شأنًا، يُفضَّل رؤيتهن على الاستماع إليهن، كان هذا الشعور السائد بين أهل آرغوس⁽¹⁾ متأصلًا لدرجة أنه تغلغل في اللغة نفسها، ولا يوجد دليل أوضح على ذلك من إحدى البديهيّات الأولى التي تعلمتها في قواعد اللغة اليونانية: «الرجال لديهم أصدقاء، والنساء لديهن أقارب، أما الحيوانات فلديها بني جنسها».

لم يدافع باني عن هذا الرأي بدافع حبه للنقاء الإغريقي بل ببساطة بسبب خبث نيّاته، لم يكن يحب النساء ولا يستمتع بصحبتهن، حتى ماريون التي تقبلها باني على مضض بصفتها محظيته.

أما مع كاميلّا فقد اضطر إلى اتخاذ موقف أبوي متعالٍ، فقد كان يبتسم لها بتنازل كأنها طفلة بلهاء، وكان يشتكي لنا من ضعف مستواها الأكاديمي معتبرًا إياه عائقًا أمام حصولها على منحة دراسية جادة. كنا جميعًا نجد ذلك غريبًا جدًّا، في الحقيقة لم يكن أي منا حتى أذكنا مقدّرًا له أن يحقق إنجازًا أكاديميًا كبيرًا في السنوات اللاحقة، كان فرانسيس كسولًا جدًّا، وتشارلز مشتت الاهتمامات، وهنري كان عشوائيًا وغريب الأطوار مثل مايكروفت

(1) إحدى أقدم المدن المأهولة في العالم، وواحدة من أقدم المدن في أوروبا.

هولمز⁽¹⁾ في مجال فقه اللغة الكلاسيكية⁽²⁾. لم تكن كاميلا مختلفة، فهي كانت تفضل سرًا -مثلما كنت أفضل أنا- متعة الأدب الإنجليزي على الشقاء الذي يتطلبه الأدب اليوناني القديم. المضحك هو أن باني الذي كان أضعفنا أكاديميًا كان قلقًا بشأن قدرات الآخرين الفكرية.

لا بد أن حقيقة أنها كانت الأنثى الوحيدة فيما كان يشبه ناديًا للصبيان كان أمرًا صعبًا عليها، ومع ذلك لم تحاول تعويض ذلك بالقسوة أو العدائية، وذلك يعدُّ أعجوبة! بل ظلت فتاة لطيفة وناعمة تستلقي على السرير وتأكل الشوكولاتة، وتفوح من شعرها رائحة الزنابق، وترفرف أوشحتها البيضاء ببهجة في النسيم. كانت غريبة ورائعة! خصلة من الحرير في غابة من الصوف الأسود، لكنها لم تكن بتلك الهشاشة التي قد يتصورها البعض، أظهرت كاميلا في مواقف كثيرة رباطة جأش وكفاءة تضاهي هنري، وكانت عنيدة ومنطوية على نفسها، وتعيش وفق عاداتها الخاصة. في الريف كانت تتسلل كثيرًا بمفردها إلى البحيرة أو إلى القبو، حيث وجدتتها مرة جالسة في عربة تزلج قديمة تقرأ ومعطفها الفرو ملقى على ركبتها.

(1) مايكروفت هولمز: شخصية خيالية ابتكرها آرثر كونان دويل، وهو الشقيق الأكبر للمحقق الشهير شرلوك هولمز، ويُوصف في قصص شارلوك هولمز بأنه يملك قدرات استنتاجية تتجاوز حتى تلك التي يتمتع بها أخيه الأصغر، ومع ذلك فهو غير مناسب لأداء العمل البوليسي لأنه غير راغب في بذل الجهد اللازم لحسم القضايا.

(2) فقه اللغة الكلاسيكية أو القديمة فرع من الفلسفة يدرس العناصر الأدبية (اللغات والحضارات والآداب) في العصور القديمة الكلاسيكية، يضم هذا الفرع بشكل أساسي فقه اللغة اليونانية واللاتينية.

كانت الأمور لتصبح غريبة وغير متوازنة من دونها، كانت الملكة التي أكملت تشكيلة جاك الأسود والملك الأسود والجوكر. إذا وجدت التوأمين باهرين جداً، فربما كان السبب هو وجود شيء ضئيل لا يمكن تفسيره، شيء كنت على وشك فهمه لكنني لم أتمكن من ذلك قط، كان تشارلز بروحه الطيبة والحساسة لغزاً، لكن كاميلا كانت اللغز الحقيقي والخزانة التي لم أستطع فتحها قط، لم أكن متأكداً قط من رأيها في أي شيء، وأعلم أن باني كان يجد صعوبة في فهمها أكثر مني، في الأيام الخوالي كان كثيراً ما يسيء إليها من دون قصد، ولكن بعد حادثة القتل حاول إهانتها والتقليل من شأنها بطرائق أكثر قسوة، لكن كاميلا كانت منيعة ضد هذه الإهانات المتعلقة بمظهرها، كانت تنظر مباشرة إلى عينيه من دون أن ترمش وهو يسرد نكات بذيئة، وتضحك إذا حاول الاستخفاف بذوقها أو ذكائها، وتتجاهل تماماً أحاديثه المليئة بالاقتباسات المغلوطة التي كان يجتهد في التنقيب عنها والتي توحي بأن النساء جميعاً أدنى شأنًا منه، وأنهن غير مؤهلات للفلسفة والفن والتفكير العميق بل فقط للزواج ورعاية المنزل. لم أر كاميلا تفقد أعصابها إلا مرة واحدة، كان ذلك في شقة التوأمين في ساعة متأخرة جداً من الليل. لحسن الحظ كان تشارلز في الخارج مع هنري يجلبان الثلج، كان قد شرب كثيراً ولو كان حاضراً لانفلتت الأمور بالتأكيد.

كان باني ثملاً جداً حتى أنه بالكاد استطاع الجلوس، ومع أن مزاجه كان مقبولاً معظم الأمسية، فإنه فجأة ومن دون أي تمهيد التفت إلى كاميلا وسألها: «كيف تعيشان معاً؟»

أجابت كاميللا بهزة كتف واحدة خفيفة، الحركة التي كانت تميزها هي وتشارلز.

تابع بانى قائلاً: «كلي آذان مصغية».

قالت كاميللا: «الحياة معاً مريحة وأقل تكلفة».

«حسناً، لكني أعتقد أن الأمر غريب جداً».

«عشت مع تشارلز طوال حياتي».

«أليس هناك نقص في الخصوصية؟ في مكان ضيق كهذا؟

محشوران معاً طوال الوقت؟»

أجابت: «الشقة تتكون من غرفتي نوم».

«وعندما تشعران بالوحدة في منتصف الليل؟»

ساد صمت قصير.

قالت كاميللا ببرود: «لا أفهم ما الذي تحاول الإشارة إليه».

ابتسم بانى بخبث: «بالتأكيد تعرفين، مريحة جداً، وأيضاً كلاسيكية إلى حدٍّ ما». ثم أضاف وهو يستعيد كأس الويسكي التي كانت على وشك السقوط من فوق ذراع كرسيه: «هؤلاء الإغريق كانوا يفعلون ما يحلو لهم مع إخوتهم وأخواتهم من دون رادع، بالطبع هذا مخالف للقانون الآن، ولكن ما الذي يعنيه ذلك لكما؟ إذا كسر المرء قانوناً، فلم لا يكسر جميع القوانين، أليس كذلك؟».

صُغِقت، نظرت أنا وفرانيسيس إليه في صدمة، بينما كان يفرغ كأسه بلا مبالاة في جوفه، ويمد يده إلى الزجاجاة مرة أخرى.

لدهشتي المطلقة، ردت كاميللا بنبرة لاذعة: «لا بد أنك تظن

أنني أنام مع أخي فقط لأنني لا أنام معك».

ضحك باني ضحكة خبيثة مكتومة وقال: «لا يمكنك أن تدفعي لي مقابل النوم معك، يا عزيزتي، حتى لو كان الثمن كل شاي الصين».

نظرت إليه كاميلا بعينين شاحبتين خاليتين من أي تعبير، ثم وقفت وغادرت إلى المطبخ، تاركة إياي وفرانسيس في صمت مطبق كان الأكثر تعذيباً في حياتي.

إن الافتراءات الدينية ونوبات الغضب والشتائم والابتزاز والديون كلها أمور تافهة في ظاهرها، ولا يمكن أن تكون دوافع كافية لخمسـة أشخاص عقلاء لارتكاب جريمة قتل، ولكن بعد أن شاركت في قتل إنسان أدركت مدى تعقيد جريمة القتل وغموض دوافعها، وأنها لا تُعزى بالضرورة إلى دافع دراماتيكي واحد، ربما يكون من السهل أن نعزو جريمة القتل إلى سبب واحد واضح، لكن الحقيقة أكثر تعقيداً من ذلك، نعم كان هناك دافع، ولكن غريزة البقاء ليست مقنعة كما قد يتخيل المرء، فخطر باني لم يكن وشيكاً وفورياً بل كان بطيئاً ومتزايداً من النوع الذي يمكن تجنبه أو تأجيله بطرق عديدة، أستطيع أن أتخيل أننا في تلك اللحظة ترددنا، وربما حتى تراجعنا عن تنفيذ خطة قتله في اللحظة الأخيرة.

ربما كان الخوف على حياتنا هو الذي دفعنا إلى قيادته إلى المشنقة وربط حبل المشنقة حول رقبته، ولكن كان لا بد من وجود قوة محفزة أكثر إلحاحاً لنقوم بالخطوة النهائية ونركل الكرسي وننتهي حياته، من الغريب أن باني من دون أن يدرك كان

هو من زودنا بتلك القوة. أتمنى لو أستطيع القول إنني كنت مدفوعاً بدافع قوي وقاهر، لكن الحقيقة أنني سأكون كاذباً إذا زعمت ذلك، إذا دفعتمكم إلى الاعتقاد بأنه بعد ظهر ذلك الأحد من شهر أبريل، كنت مدفوعاً حقاً بدافع مشابه.

وهنا سؤال مثير للاهتمام؛ ما الذي كنت أفكر فيه عندما رأيت عينيه تجحضان بذهول (هيا يا رفاق، أنتم تمزحون، أليس كذلك؟) ما الذي خطر ببالي في تلك اللحظة؟ لم أفكر في حقيقة أنني كنت أساعد في إنقاذ أصدقائي، وبالتأكيد لم أفكر في الخوف أو الذنب، لكنني فكرت في تلك الأشياء الصغيرة وتلك الإهانات والتلميحات والأفعال البغيضة التافهة التي ارتكبتها باني في حقي وحقهم، مئات الإهانات الضئيلة التي لم تنتقم منها، والتي كانت تتراكم وتغلي داخلي منذ أشهر، فكرت فيها ولا شيء أكثر من ذلك.

وبفضلها تمكنت من مشاهدته من دون أدنى ذرة من الشفقة أو الندم، وهو يتأرجح على حافة الجرف مدة طويلة، كانت ذراعه تتطايران وعيناه تدوران في محجريهما كأنه ممثّل كوميدي في فيلم صامت ينزلق فوق قشرة موز، قبل أن يسقط ويلقى حتفه. أعتقد أن هنري كانت لديه خطة لكنني لم أكن أعرف ماهيتها، فقد كان يختفي دائماً في مهام غامضة، وربما كانت كلها مكملات للمهمة نفسها، ولكن الآن مع رغبتني في تصديق أن أحداً كان يسيطر على الموقف، كنت أنظر إلى تلك الأمور الغريبة بتفاؤل معتقداً أن هنري كان يدير الأمور، فمثلاً رفض هنري عادة الرد على باب منزله حتى في الساعات المتأخرة من الليل عندما يكون

النور مضاء في الداخل، وكنت أعلم أنه موجود، كما أنه ظهر في أكثر من مناسبة متأخراً عن العشاء وحذاؤه مبلى وشعره أشعث بفعل الريح والطين يلطخ بنطاله الداكن الأنيق. وذات مرة لمحت كومة من الكتب الغامضة مكتوبة بلغة شرقية تشبه اللغة العربية وتحمل ختم مكتبة كلية ويليامز في المقعد الخلفي لسيارته، كان هذا محيراً، لأنني لم أعتقد أنه يجيد العربية، كما أنه على حد علمي لم يكن يتمتع بامتيازات الاستعارة في مكتبة كلية ويليامز، تفقدت خلسة الغلاف الخلفي لأحد تلك الكتب، ووجدت أن بطاقة الاستعارة لا تزال في الجيب المعتاد، وأن آخر من استعاره كان «إف لوكيت» العام 1929.

لكن ربما كان الشيء الأغرب في كل هذا هو ما رأيته بعد ظهر أحد الأيام عندما ذهبت بالسيارة إلى هامبدن مع جودي بوفي، كنت أريد أن آخذ بعض الملابس إلى متجر التنظيف، وعرضت عليّ جودي التي كانت ذاهبة إلى البلدة أن توصلني. أنجزنا مهماتنا، وتناولنا جرعة هائلة من الكوكائين في مرأب سيارات برجر كنج، ثم توقفنا في سيارتها الكورفيت عند إشارة مرور حمراء. كنا نستمع إلى موسيقى صاخبة (أغنية «فري بيرد» تبثها محطة إذاعة مانشستر) وجودي تتحدث بلا توقف مثل مدمنة كوكائين حقيقية عن شخصين مارسا الجنس داخل متجر فوود كينج (داخل المتجر مباشرة! في ممر الأطعمة المجمدة!)، عندما ألقت نظرة خاطفة من نافذتها.

قالت: «انظر، أليس هذا صديقك ذا النظارة هناك؟»

انحنيت إلى الأمام مدهوئاً، كان على الجانب الآخر من الشارع متجر صغير يبيع النرجيلة⁽¹⁾ والمنسوجات الجدارية وأصنافاً متنوعة من الأعشاب والبخور مع العبوات الحافظة لها، لم أر يوماً أحداً داخل هذا المتجر باستثناء صاحب المتجر الهيبى العجوز الحزين خريج جامعة هامبدن الذي يرتدي نظارة الجدة⁽²⁾، ولكن هذه المرة لدهشتي رأيت هنري هناك مرتدياً بدلته السوداء، يقف حاملاً مظلته بين المنسوجات الجدارية التي رسم عليها خرائط سماوية أو حيوانات وحيد القرن، كان يقف أمام المنضدة يتحدث إلى صاحب المتجر، لكن سرعان ما قاطعه وأشار إلى شيء خلف المنضدة، انحنى الهيبى وأخرج قنينة صغيرة عن الرف، تابعت المشهد وأنا أكم أنفاسي.

تساءلت جودي في دهشة: «ماذا تعتقد أنه يفعل هناك، هل يحاول مضايقة هذا الديد هيد⁽³⁾ العجوز المسكين؟ بالمناسبة هذا المتجر رديء، سبق أن دخلته مرة لأبحث عن ميزان، لكنني لم أجد سوى كرات بلورية وتقاهات أخرى، هل تعرف تلك الموازين البلاستيكية الخضراء؟»، كانت جودي تتحدث من دون توقف عن أشياء تافهة ولكنني كنت غارقاً في التفكير محدقاً خارج النافذة أراقب الهيبى الذي انحنى وأخذ يبحث تحت المنضدة، تدمرت

(1) أو البونج: جهاز ترشيح يستخدم عموماً لتدخين الحشيش أو التبغ أو أي مواد عشبية أخرى.

(2) نظارات ذات إطار معدني وعدسات صغيرة.

(3) Dead Head: الاسم الذي عُرف به محبو فرقة الروك غريتييل ديد Grateful Dead.

عندما رأتنى غير مهتم بكلامها: «مهلاً، أنت لا تستمع إليّ، أليس كذلك؟ هل يجب أن أضغط على بوق السيارة لتتبه إليّ؟» صرخت بعصبية من تأثير الكوكائين: «لا»، ودفعتُ يدها بعيداً عن البوق.

«يا إلهي، لا تخيفني هكذا»، ضغطت بكفها على صدرها. وأضافت بغضب: «دماغي يكاد أن ينفجر، لا بد أن هذا الكوكائين كان ممزوجةً بشيء آخر»، ثم أطلقت شاحنة الغاز التي خلفنا بوقها عندما تحول الضوء إلى الأخضر.

كتب عربية مسروقة! وذلك المتجر المشتبه فيه في بلدة هامبدن! لم أستطع أن أتخيل ما كان يفعله هنري، ولكن على الرغم من أن أفعاله بدت عشوائية وغير منسجمة، فإنني آمنت به بطريقة طفولية كما كان الدكتور واتسون يثق بشيرلوك هولمز، وانتظرت بفارغ الصبر حتى تتضح الأمور.

وبالفعل في غضون يومين بدأ كل شيء يتكشف.

كانت ليلة الخميس نحو الساعة الثانية عشرة والنصف. كنت أرتمي بيجامة وأحاول قص شعري أمام المرأة، من دون أن أفصح أبداً في إتمام قصة جيدة، إذ كان شعري ينتهي دوماً بمظهر فوضوي يشبه قصة شعر آرثر رامبو. وفجأة طُرق الباب، فتحته وأنا لا أزال ممسكاً بالمقص والمرأة فوجدت هنري.

قلت: «أوه، مرحباً، ادخل».

دخل هنري بحذر متجنباً خصلات شعري البنية المتناثرة على الأرض، وجلس عند مكتبي. تابعت قص شعري وأنا أراقب انعكاسي في المرأة.

سألته: «ما أخبارك؟»، وأنا أمد يدي لأقص خصلة طويلة من الشعر بالقرب من أذني.

فاجأني بسؤاله: «درست الطب لبعض الوقت، أليس كذلك؟». ثم رفع نظارته وأكمل: «هناك سموم ممتازة عديدة، ومعظمها يفوق هذا بكثير. سوف تمتلئ الغابة قريباً بنباتات مثل الثعلب⁽¹⁾ وتاج الملوك⁽²⁾، ويمكنني الحصول على الزرنخ من ورق الذباب⁽³⁾، حتى الأعشاب النادرة هنا مثل الخربق⁽⁴⁾ وتفاع الجن⁽⁵⁾ وزيت الشيخ⁽⁶⁾ النقي هي مواد قاتلة. يا إلهي كانت عائلة بورجيا⁽⁷⁾ ستبكي فرحاً إذا رأت متجر الأطعمة والمنتجات الصحية الذي

(1) قفاز الثعلب أو الدبجيتاليس جنس من النباتات من الفصيلة الحملية من رتبة الشفويات، يشمل نحو عشرين نوعاً، أوراقها شديدة السمية.

(2) أقونيطون أو أقونيطون أو الأنثلة أو تاج الملوك، من النباتات السامة التي تستخدم علاجاً لسم الافاعي.

(3) أداة لصيد الذباب تُستخدم فيها مادة عطرة سامة تجذب الذباب (الزرنخ عادة)، يلتصق فيها الذباب ولا يستطيع الفكك منها، ويظل فيها حتى يموت. من المُحتمل أن تكون المادة التي تُستخدم في هذا الشريط أيضاً مادة ضارة للإنسان والحيوانات الأخرى.

(4) الخربق أو قاتل الذئب جنس نباتي يتبع الفصيلة الحوذانية من طائفة ثنائيات الفلقة. وهو سام للبشر والحيوانات.

(5) اليبرج أو تفاع الجن: جنس من النباتات ينتمي إلى الفصيلة الباذنجانية، تنمو أنواع هذا الجنس بصورة برية في المشرق العربي وغرب آسيا وجنوب أوروبا. يمتلك نبات تفاع الجن خصائص علاجية دوائية استُعمل منذ العصور القديمة مهدداً ومسكناً ومخدراً ولزيادة الرغبة الجنسية، ولكنه بجرعة عالية يسبب الهلوسة وشديد السمية.

(6) نبات الشيخ: عشبة مرّة معروفة بأنها أحد مكونات الأفسنتين. لها فوائد علاجية عديدة، على الرغم من أنها ليست مهلوسة فإن مركبها النباتي ثوجون يمكن أن يكون ساماً وحتى مميتاً بكميات كبيرة.

(7) عائلة شهيرة من عصر النهضة الإيطالية مشهورة باستخدام السموم لتحقيق أهدافها السياسية والشخصية.

وجدته في براتلبورو الأسبوع الماضي، الناس يشترون هذه الأعشاب لأنهم يظنون أنها طبيعية وآمنة كأن ذلك يجعلها أقل خطورة من المواد الكيميائية الموجودة في السوبر ماركت، كانوا يبيعون الشيح كطارد عضوي للحشرات ولكن زجاجة واحدة منه كافية لقتل جيش».

عبث بنظارته مرة أخرى، ثم قال: «تكمُن مشكلة هذه المواد على الرغم من كونها ممتازة في صعوبة قياس تأثيرها، فكما قلت الأماتوكسينات⁽¹⁾ تسبب مجموعة مزعجة من الأعراض مثل القيء واليرقان والتشنجات العصبية، وليست مثل السموم الإيطالية سريعة المفعول واللطيفة نسبياً، لكن السؤال هو: كيف يمكن استخدامها بطريقة آمنة؟ لستُ عالم نبات، وحتى علماء الفطريات يجدون صعوبة في تمييز أنواع الفطر السامة، يقطف أحدهم الفطر فيختلط قليل من الفطر السام مع الجيد، فيصاب البعض بمرض خطر، فيما يظل الآخرون سالمين». هز كتفيه. تبادلنا النظرات، سألته: «كيف يمكنك أن تضمن أنك لن تتناول كمية زائدة؟»

أجاب بهدوء: «لا يمكنني أن أضمن ذلك حقاً، ستكون حياتي على المحك أيضاً، وليس لديّ سوى هامش صغير للخطأ، لكن إذا كنتُ حذراً فسأتمكن من تحقيق ذلك، كل ما يجب أن أقلق بشأنه هو نفسي، وباقي الأمور ستسير كما ينبغي».

(1) الأماتوكسين مجموعة فرعية مكونة على الأقل من تسع مركبات سامة موجودة في ثلاثة أجناس من الفطر السام ونوع واحد من جنس فوليويتينا. الأماتوكسينات قوية جداً، إذ إن كمية قليلة منها يمكن أن تسبب إصابة خطيرة للكبد.

كنت أعرف ما يقصده، كانت الخطة محفوفة بالمخاطر ومليئة بالعيوب، لكنها كانت رائعة في جوهرها، وإذا كان هناك شيء واحد يمكن الاعتماد عليه بيقين، فهو أن باني في أي وجبة يأكل تقريباً ضعف ما يأكله أي شخص آخر.

كان وجه هنري شاحباً وحالماً يتوارى خلف ضباب دخان سيجارته. أدخل يده في جيبه وأخرج الفطر مجدداً، وقال: «الآن، قبة واحدة فقط من أمانيتا فالويدس بهذا الحجم تكفي لإصابة كلب سليم بوزن سبعين رطلاً بالمرض الشديد، حدث قيء وإسهال لكنني لم أرَ أي تشنجات، لا أعتقد أن هناك خللاً خطيراً أصاب الكبد، لكن ذلك ما يجب أن نخبرنا به الأطباء البيطريون». قاطعته: «هنري، كيف تعرف ذلك؟»

صمت لحظة، ثم قال: «هل تعرف هذين الكلبين البوكسر الرهيبيين اللذين يملكهما الزوجان اللذان يعيشان في الطابق العلوي من منزلي؟».

كانت الفكرة مرعبة، لكن لم أتمكن من كبح الضحكة التي انفجرت مني.

قلت: «لا، لم تفعل ذلك؟»

رداً بنبرة جافة وهو ينفث دخان سيجارته: «أخشى أنني فعلت. أحدهما بخير لسوء الحظ، أما الآخر فلن يسحب القمامة إلى شرفتي الأمامية مرة أخرى، نفق في غضون عشرين ساعة وبجرعة أكبر قليلاً فحسب، ربما كان الفارق جراماً واحداً. مع هذه المعرفة يبدو لي أنني يجب أن أتمكن من تحديد كمية السم المناسبة لكل منا، ما يقلقني هو تفاوت تركيز السم من فطر إلى

آخر، فنحن لا نقيسها بدقة عند صيدلي، ربما أكون مخطئاً - أنت تعرف أكثر مني في هذا الأمر - لكن من الممكن أن يحتوي فطر يزن جرامين على نفس كمية السم التي يحتويها فطر يزن ثلاثة جرامات، وهنا تكمن مشكلتي».

أخرج ورقة مليئة بالأرقام من جيب صدره وقال: «أكره أن أشركك في هذا، لكن لا أحد يعرف شيئاً عن الرياضيات، وأنا شخصياً لا يمكن الاعتماد عليّ. هل يمكنك إلقاء نظرة؟»

تناولت الورقة منه بشكل آلي، كانت مليئة بالمعادلات الجبرية، لكن في تلك اللحظة كان الجبر آخر شيء يدور في ذهني. كنت على وشك إعادتها إليه، عندما أدركت فجأة أنني أمام فرصة لإنهاء هذا الأمر هنا والآن، كان هنري بحاجة حقيقية إلى مساعدتي وإلا لما أتى إليّ، كنت أعلم أن التوسلات العاطفية لن تجدي نفعاً، لكن إذا تظاهرت بأنني أفهم ما أفعله فقد أتمكن من إقناعه بالتراجع عن خطته.

جلست إلى مكتبي، وأمسكت بقلم الرصاص، وأجبرت نفسي على دراسة الأرقام المتشابكة خطوة بخطوة. لم تكن معادلات التركيز الكيميائي يوماً نقطة قوتي، وكانت صعبة بما فيه الكفاية عند التعامل مع تركيز ثابت في معلق⁽¹⁾ من الماء المقطر، لكن هنا في هذه الورقة كان التعامل مع تركيزات متغيرة في أوعية غير منتظمة الشكل أمراً شبه مستحيل. استخدم هنري كل معرفته

(1) المعلق هو خليط غير متجانس يحتوي على مواد صلبة كبيرة الحجم بما فيه كفاية للترسيب بحيث يمكن فصل مكوناته عادة بالترشيح أو الترويق، ويمكن تمييز دقائق المذاب بالعين المجردة.

البسيطة في الجبر لحل هذه المسألة، ويقدر ما استطعت متابعة ما كتبه، كان عمله رائعاً، لكن هذه المشكلة لم تكن لتُحل بالجبر وحده، إن كانت لتُحل أصلاً.

ربما يكون بوسع شخص درس حساب التفاضل والتكامل ثلاث أو أربع سنوات جامعية أن يصل إلى حل أكثر إقناعاً، وبعد محاولات مضنية تمكنت من تعديل النسب قليلاً، لكنني كنت قد نسيت معظم ما تعلمته من حساب التفاضل والتكامل، وكانت الإجابة التي توصلت إليها على الرغم من أنها أدق من إجابته لا تزال بعيدة عن الحقيقة.

أنزلت القلم ونظرت إلى هنري، استغرقت المحاولة مني نحو نصف ساعة، وكان هنري قد التقط نسخة من كتاب دانتي «المظهر» من رف كتبتي واستغرق في قراءته.

قلت: «هنري». رفع رأسه ببطء وحدثني بعينين شاردين.

«هنري، لا أعتقد أن هذا سينجح».

أغلق الكتاب على إصبعه، وقال: «أدركت أنني ارتكبت خطأ في الجزء الثاني، حيث يبدأ التقسيم».

«هذه محاولة جيدة، لكن من الواضح أن المسألة تتطلب معرفة دقيقة بالجداول الكيميائية وحساب التفاضل والتكامل والكيمياء الأساسية، لا يمكن حلها ببساطة، فالتركيزات الكيميائية لا تُقاس بالجرام أو المليجرام بل بما يُعرف المولات⁽¹⁾».

«هل يمكنك حلها من أجلي؟»

(1) المول: وحدة قياس كمية المادة في الكيمياء.

قلت: «أخشى أنني لا أستطيع، على الرغم من أنني بذلت قصارى جهدي، من الناحية العملية لا أستطيع أن أعطيك إجابة قاطعة، حتى أستاذ الرياضيات سيجد صعوبة في ذلك».

نظر هنري إلى الورقة على المكتب، وقال: «حسناً، أنا أثقل من بان بخمسة وعشرين رطلاً، يجب أن يكون لهذا تأثير، أليس كذلك؟»

«ربما، لكن الفارق ليس كبيراً بما يكفي للاعتماد عليه خصوصاً مع وجود هامش واسع للخطأ، لو كان الفرق خمسين رطلاً، ربما...».

تابع هنري: «لن يسري مفعول السم لمدة اثنتي عشرة ساعة على الأقل، لذا حتى لو تناولت جرعة زائدة فسيكون لدي وقت للتصرف مع وجود ترياق قريب مني، فقط في حالة...».

قاطعتُه بحدة وأنا أتكئ على مقعدي: «ترياق؟ هل هناك شيء كهذا؟»

«الأتروبين، يُستخرج من نبتة ست الحسن⁽¹⁾ المميّنة».

«يا إلهي، هنري، إذا لم تقضِ على نفسك بأحدهما، ستفعل ذلك بالآخر».

«الأتروبين آمن تماماً عند تناوله بجرعات صغيرة».

«يقولون الشيء نفسه عن الزرنيخ لكنني لن أود تجربة ذلك».

(1) ست الحسن أو أتروبا بيلادونا، أو الباذنجان المميّنة: نبتة عشبية معمرة من العائلة الباذنجانية، يرجع أصلها إلى أوروبا وشمال إفريقيا وآسيا الغربية وبعض المناطق في كندا والولايات المتحدة الأمريكية. اسم ست الحسن أو المرأة الجميلة يرجع إلى استخدام خلاصة النبتة كقطرة لتوسيع حدقات أعين النساء؛ ما كان يزيد من جمالهن. ويحتوي النبات على مركبي الأتروبين والسكوبولامين السامين.

«في الواقع يضادان بعضهما في التأثير، فالأترويين ينشط الجهاز العصبي ويزيد من ضربات القلب، أما الأماطوكسينات تبطله».

«لا يزال الأمر يبدو مريباً، سم يبطل مفعول سم آخر».

«ليس تماماً، الفرس كانوا خبراء في السموم، ويُقال إنهم...».

تذكرت الكتب التي رأيتها في سيارة هنري فقلت: «الفرس؟»

«نعم، على حد قول الملك الفارسي».

«لم أكن أعلم أنك تقرأ العربية».

«أنا لا أقرأها جيداً، لكنهم مرجعية عظيمة في مثل هذا الموضوع، والكتب التي أحتاج إليها لم تُترجم بعد، ألقيت نظرة عامة إليها مستعيناً بالقاموس».

تذكرت الأغلفة المتهترئة للكتب المغبرة التي رأيتها وسألت:

«متى كُتبت هذه الكتب؟»

«أظن أنها كتبت في منتصف القرن الخامس عشر تقريباً».

وضعت قلّمي على المكتب وقلت: «هنري».

«ماذا؟».

«لا بد أنك تعرف ذلك، لا يمكنك الاعتماد على شيء قديم إلى هذا الحد».

«الفرس كانوا أسياد السموم، هذه الكتب كتيبات عملية إذا شئت، لا يوجد شيء يضاهيها».

«تسميم الناس أمر مختلف تماماً عن علاجهم».

«لقد استخدم الناس هذه الكتب عدة قرون، لا جدال في دقتها».

«أنا أحترم المعرفة القديمة مثلك، لكنني لا أعلم إن كنت سأخاطر بحياتي بالاعتماد على دواء منزلي من العصور الوسطى». قال من دون اقتناع كبير: «ربما أتتحقق من الأمر في مكان آخر».

«حقًا، إنها مسألة خطيرة جدًا».

قاطعني بهدوء: «شكرًا لك، لقد كنت عونًا كبيرًا».

ثم التقط كتاب «المطهر» مرة أخرى وبدأ يتصفحه بتراخ، قال: «هذه ليست ترجمة جيدة كما تعلم، ترجمة سينجلتون⁽¹⁾ هي الأفضل إذا لم تكن تقرأ الإيطالية، الترجمة حرفية وتفتقد إلى موسيقى القافية. لذا عليك قراءة النص الأصلي، في الشعر العظيم تظهر الموسيقى حتى عندما لا تفهم اللغة، لقد أحببت دانتي قبل أن أعرف كلمة واحدة بالإيطالية».

قلت بصوت منخفض ومُلح: «هنري».

نظر إليَّ بانزعاج وقال: «أي شيء أفعله سيكون محفوفًا بالخطر، كما تعلم».

«لكن لا شيء سيفيدك إذا مت».

أجاب: «كلما سمعته يتحدث عن اليخوت الفاخرة في فرنسا، بدا الموت أقل فظاعة، لقد كنت عونًا كبيرًا لي، طاب مساؤك».

في ظهيرة اليوم التالي، زارني تشارلز.

(1) تشارلز إس. سينجلتون: ناقد أدبي وصحفي أمريكي، ولد في 21 أبريل 1909 في ملك لود في الولايات المتحدة، وتوفي في 10 أكتوبر 1985 في مقاطعة كارول في الولايات المتحدة، وقد ترجم الكوميديا الإلهية لدانتي.

قال وهو يخلع معطفه المبلل ويرميه على ظهر المقعد: «يا إلهي، الجو حار هنا».

كان شعره رطباً، ووجهه محمراً ولامعاً، ارتجفت قطرة ماء فوق طرف أنفه الطويل الناعم، تنشق ومسحها قائلًا: «لا تفكر في الخروج مهما كان السبب، الجو سيئ جدًا. على أي حال، هل رأيت فرانسيس؟»

مررت يدي في شعري، كان ذلك بعد ظهر الجمعة ولم يكن لديّ محاضرات، لذا لم أغادر غرفتي طوال اليوم، ولم أنم جيدًا الليلة الماضية، فأجبت: «زارني هنري الليلة الماضية».

«حقًا؟ ماذا أراد؟ أوه، صحيح، كدت أنسى»، مد يده إلى جيب معطفه وأخرج حزمة ملفوفة في مناديل. «أحضرت لك شطيرة لأنك لم تتناول الغداء، قالت كاميلّا إن السيدة في قاعة الطعام رأته وأنا أسرقها، ووضعت علامة سوداء بجانب اسمي».

كانت شطيرة جبنة قشدية ومربى البرتقال، عرفتها من دون أن أنظر إليها، كانت المفضلة لدى التوأمين، لكنني لم أكن أفضلها كثيرًا، فتحت إحدى زوايا الحزمة وأخذت قزمة من الشطيرة قبل أن أضعها على المكتب، ثم سألته: «هل تحدثت مع هنري مؤخرًا؟»

«نعم، هذا الصباح. أوصلني إلى البنك».

التقطت السندويش وأخذت قزمة أخرى، كانت الغرفة غير مرتبة، وشعري المقصوص لا يزال متناثرًا على الأرض، سألت: «هل ذكر شيئًا عن...؟»

«عن ماذا؟».

«عن دعوته لباني لتناول العشاء خلال أسبوعين؟».

استلقى تشارلز على سريري واستند برأسه إلى الوسادة قائلاً:
«أوه، هذا».

«خمنت أنك تعرف ذلك بالفعل».

«كان يفكر في هذا الأمر منذ مدة».

«وما رأيك؟».

«أعتقد أنه سيجد صعوبة كبيرة في جمع كمية كافية من
الفطر لإصابته حتى بالمرض، لا يزال الوقت مبكراً لنمو الفطر،
في الأسبوع الماضي جعلني وفرنسيس نخرج لمساعدته لكننا
بالكاد وجدنا شيئاً، عاد فرانسيس متحمساً، وقال: «يا إلهي،
انظرا، لقد وجدت كل هذا الفطر!» لكن عندما نظرنا في حقيبته
وجدناها مليئة بالفطر النّفّاث».

«هل تعتقد أنه سيتمكن من العثور على ما يكفي؟».

«بالتأكيد، إذا انتظر لبعض الوقت. هل لديك سجائر؟».

«لا».

«أتمنى لو كنت مدخناً، لا أفهم لماذا لا تدخن مع أنك لم تكن
رياضياً في المدرسة الثانوية، أليس كذلك؟».

«بلى».

«لهذا السبب لا يدخن بان، تأثر بمدرّب كرة قدم من النوع
الذي يستهجن التدخين عندما كان في سن حساسة، فلم يدخن
قط».

سألته: «هل رأيت بان مؤخراً؟»

«ليس كثيراً، كان في شقتنا الليلة الماضية، ومكث طويلاً».

نظرت إليه بتركيز وقلت: «هل ستستمرون حقًا في ذلك أم أنه مجرد كلام؟»

أجاب بحزم: «أفضل أن أذهب إلى السجن على أن أعيش حياتي مهددًا من باني، ومع ذلك لست متحمسًا لفكرة السجن عندما أفكر في الأمر».

ثم أضاف وهو يجلس على السرير وينحني كأنه يشعر بالألم في معدته: «أتعلم، أتمنى لو كان لديك بعض السجائر، من تلك الفتاة المزعجة التي تعيش في نهاية الرواق، اسمها جودي؟».

قلت: «جودي بوفي».

قال: «اذهب واطرق بابها، واطلب منها علبة سجائر، أراهن أن لديها عدة علب في غرفتها».

بدأ الجو يزداد دفئًا شيئًا فشيئًا، وأخذت قطرات المطر الدافئة تذيب الثلوج، تاركة خلفها بقعًا تكشف من خلالها العشب الأصفر الزلق. وكانت رقاقات الثلج المتجمدة تتصدع وتسقط عن الأسطح مثل خناجر حادة.

في إحدى الليالي ونحن نشرب البوربون من فناجين الشاي في غرفتي، ونستمع إلى صوت المطر يتساقط من الأفاريز، قالت كاميللا: «تخيل لو كنا في أمريكا الجنوبية الآن، أليس ذلك غريبًا؟»

أجبتها: «نعم، رغم أنني لم أتلق دعوة للانضمام إليكم».

«لم تكن الفكرة مغرية حينها، ولكنني الآن أظن أننا كنا سنتدبر أمورنا هناك».

«لا أرى كيف».

أسندت كاميللا خدها إلى قبضتها المتكئة وقالت بتأمل: «لم يكن الأمر سيئاً إلى درجة كبيرة، كنا سننام في أسرة شبكية معلقة، ونتعلم الإسبانية، ونعيش في بيت صغير نربي الدجاج في فناءه».

قلت مستهجنًا: «ربما كنت لتمرضي أو تتعرضي لإطلاق نار». قالت وهي ترمقني بنظرة جانبية قصيرة اخترقتني حتى شغاف قلبي: «أستطيع أن أتصور أمورًا أسوأ». اهتز زجاج النوافذ بعاصفة مفاجئة. قلت: «على أي حال، أنا سعيد أنك لم تذهبي». تجاهلت كاميللا تعليقي، ونظرت من النافذة المظلمة، وأخذت رشفة أخرى من فتجان الشاي.

كان ذلك الأسبوع الأول من شهر أبريل، ولم يكن وقتًا ممتعًا بالنسبة إليّ أو إلى أي شخص آخر. باني الذي ظل هادئًا خلال المدة الماضية أصبح الآن غاضبًا لأن هنري رفض أن يصطحبه بسيارته إلى العاصمة واشنطن لزيارة معرض طائرات الحرب العالمية الأولى في سميثسونيان. كان التوأمان يتلقيان مكالمات مقلقة مرتين يوميًا من شخص يُدعى بي بيرى يعمل في بنكهما، وهنري كان يتلقى مكالمات من الدكتور وايد الذي يعمل في بنكه، حتى والدته فرانسيس اكتشفت محاولته سحب الأموال من الصندوق الائتماني، وأصبحت تلاحقه باتصالات لا تنتهي. تتمم فرانسيس وهو يمزق مظروف آخر رسالة وصلته من والدته باشمئزاز: «يا إلهي».

قرأ فرانسيس رسالة والدته بصوت جاف: «بني، أنا وكريس قلقان جداً عليك، أعلم أنني لست خبيرة في شؤون الشباب، وربما أمر بشيء لا أفهمه بسبب سني، لكنني كنت دائماً أتمنى أن تتمكن من اللجوء إلى كريس لحل مشكلاتك».

قلتُ ساخراً: «يبدو أن كريس لديه مشكلات أكثر منك بكثير».

جسد كريس في مسلسل «الأطباء الشبان»، شخصية رجل يخون أخاه مع زوجته ويشارك في عصابة لتهريب الأطفال، وبدأ آخر شخص يمكن أن يلجأ إليه فرانسيس في أي شيء.

قال فرانسيس بتهكم: «أعتقد أنه من الإنصاف القول بأن كريس لديه مشكلاته. فهو في السادسة والعشرين من عمره ومتزوج من والدتي، أليس كذلك؟».

ثم تابع قراءة الرسالة بصوت ساخر: «أكره أن أطرح هذا الموضوع، ولولا إلحاح كريس لما كنت فكرت فيه، لكنه -كما تعلم يا عزيزي- يحبك كثيراً، ويقول إنه واجه مثل هذه الأمور كثيراً بين الممثلين في عالم الفن، لذا اتصلت بمركز بيتي فورد⁽¹⁾، ما رأيك يا عزيزي؟ لديهم غرفة صغيرة لطيفة في انتظارك».

قال فرانسيس عندما بدأت أضحك: «انتظر، دعني أكمل الرسالة» ثم تابع: «أعلم أنك تكره هذه الفكرة، ولكن لا داعي للخجل، إنه مرض، هذا ما قالوه لي عندما ذهبت إلى هناك

(1) مركز علاج سكني غير ربحي لمدمني المخدرات في رانشو ميراج بكاليفورنيا.

من قبل، وقد شعرت بتحسن لا يمكن تصويره بعد المكوث هناك، لا أعلم ما الذي تتعاطاه، ولكن مهما كان لا بد أنه باهظ الثمن جداً، وللأسف علينا أن نكون صادقين تماماً، نحن ببساطة لا نستطيع تحمل ذلك خصوصاً مع حالة جدك والضرائب على المنزل والمصاريف الأخرى....».

قلت: «عليك أن تذهب».

رد فرانسيس ساخراً: «هل تمزح؟ المركز في بالم سبرينغز أو مكان مشابه، وأعتقد أنهم يجبرونك على ممارسة تمارين رياضية هناك».

ثم نظر مجدداً إلى الرسالة وأضاف: «يبدو أن أمي تشاهد التلفاز كثيراً».

بدأ الهاتف يرن، فتتهد فرانسيس قائلاً: «اللعنة».

قلت له: «لا ترد».

فأجابني بنبرة يائسة: «إذا لم أرد، ستتصل بالشرطة». ثم رفع السماعة.

استأذنت بالمغادرة فيما كان فرانسيس يجوب الغرفة بعصبية، يردد بصوت متهمك: «غريب؟ ماذا تعنين، إنني أبدو غريباً؟»، توجهت إلى مكتب البريد، ولدهشتي وجدت رسالة صغيرة أنيقة في صندوقي من جوليان يدعوني فيها للانضمام إليه على الغداء في اليوم التالي.

كان جوليان أحياناً في المناسبات الخاصة يدعو المجموعة كلها إلى الغداء، فقد كان طباًحاً ماهراً ومضيفاً مشهوراً في

أوساط النخبة حين كان يعيش في أوروبا مستفيداً من عائدات صندوقه الائتماني. وكان هذا السبب الرئيس في معرفته بشخصيات بارزة كثيرة. أشار أوسبيرت سيتويل⁽¹⁾ في مذكراته إلى «الحفلات الصغيرة الرائعة» التي كان جوليان يقيمها، وهناك إشارات مماثلة في رسائل لشخصيات أخرى مثل تشارلز لوتون⁽²⁾ ودوقة وندسور⁽³⁾ وجيرترود شتاين⁽⁴⁾. حتى سيريل كونولي⁽⁵⁾ المشهور بأنه لا يعجب بضيافة أي أحد أخبر هارولد أكتون⁽⁶⁾ بأن جوليان «أكرم أمريكي قابله في حياته»، وهي مجاملة قد تحتمل

(1) كان الكاتب والشاعر البريطاني أوزبرت سيتويل شخصية بارزة في الأوساط الأدبية والاجتماعية الراقية. يشير ذكره للحفلات الصغيرة الرائعة التي أقامها جوليان في مذكراته إلى المكانة الاجتماعية المرموقة التي كان جوليان يتمتع بها. (2) تشارلز لوتون: ممثل أمريكي من أصل إنجليزي، وُلد في إنجلترا وشارك في عديد من الأفلام السينمائية والأعمال المسرحية، اشتهر أيضًا بإخراجه لفيلم واحد هو «ليلة الصيد»، تدرب لوتون في الأكاديمية الملكية للفنون المسرحية في لندن وبدأ مسيرته المهنية كممثل محترف في العام 1926.

(3) واليس سمبسون هو الاسم الذي اشتهرت به دوقة وندسور زوجة الأمير إدوارد الثامن ملك المملكة المتحدة. كانت مطلقة مرتين وتسببت رغبة الدوق في الزواج بها بأزمة كبيرة في المملكة المتحدة والإمبراطورية البريطانية؛ ما أدى إلى تنازله عن العرش للارتباط بها.

(4) جيرترود شتاين: روائية وشاعرة وكاتبة مسرحيات أمريكية، بالإضافة إلى كونها هاوية جمع تحف فنية. وُلدت في حي غرب أليني في بيتسبرغ ونشأت في أوكلاند، كاليفورنيا. انتقلت إلى باريس العام 1903، حيث قضت بقية حياتها هناك. (5) سيريل كونولي: كاتب وروائي وناقد أدبي بريطاني، كان المحرر الأدبي للمجلة الأدبية الشهيرة «هورايزون»، ومؤلف كتاب «أعداء الوعد» الذي جمع بين النقد الأدبي والسيرة الذاتية.

(6) السير هارولد ماريو ميشل: كان كاتبًا وباحثًا بريطانيًا مشهورًا، كتب في مجالي الرواية والسيرة الذاتية. خلال إقامته في الصين، درس اللغة الصينية بالإضافة إلى الدراما والشعر الصيني.

معاني متعددة، كما كتبت له سارة ميرفي⁽¹⁾ وهي ليست بأي حال ضيفة عادية تطلب منه وصفته لطهي سمك موسى بصلصة الفرونيك⁽²⁾.

مع علمي بأن جوليان كان يدعو هنري أحياناً إلى تناول الغداء معه بمفرده، لم أكن قد تلقيت دعوة مشابهة من قبل، شعرت بالإطراء لكن أيضاً بشيء من القلق المبهم، في ذلك الوقت كان أي شيء خارج عن المألوف يحمل في طياته نذير شؤم بالنسبة إليّ، وعلى الرغم من سعادتي بالدعوة، لم أستطع التخلص من الشعور بأن وراءها غاية أخرى غير مجرد الاستمتاع بصحبتني، أخذت الدعوة معي إلى المنزل وتأملتُها طويلاً، لم يساعدي الخط المائل والأسلوب الرشيق الذي كتبت به الرسالة في تبديد شعوري بأن هناك ما هو أعمق مما يبدو في مضمونها، اتصلت بعامل الهاتف، وتركت لجوليان رسالة بأنني سأصل عند الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالي.

عندما التقيت هنري مرة أخرى على انفراد، بادرت به بالسؤال: «هل يعرف جوليان شيئاً عما حدث؟»

(1) جيرالد كليري ميرفي وزوجته سارة: كانا من الأمريكيين الأثرياء الذين انتقلوا للعيش في الريفييرا الفرنسية في أوائل القرن العشرين، بفضل كرم ضيافتهما وذوقهما الرفيع في تنظيم الحفلات، أسسا دائرة اجتماعية نابضة بالحياة في العشرينيات من القرن الماضي، ضمت عدداً من فنانين وكتاب الجيل الضائع. جدير بالذكر أن جيرالد ميرفي كانت له مسيرة مهنية قصيرة ولكنها مهمة كرسام.

(2) طبق كلاسيكي فرنسي يتكون من سمك موسى المطهو في الفرن في صلصة كريمة تسمى صلصة فيرونيك التي تزين بالعنب. ابتكر هذا الطبق في نهاية القرن التاسع عشر على يد الشيف الفرنسي الشهير أوغست إسكوفيه كتقدير منه لأوبرا فيرونيك.

قال هنري وهو يرفع عينيه عن كتابه: «ماذا؟ أوه، نعم، بالطبع».

«هل يعلم أنكم قتلتم ذلك الرجل؟».

استدار هنري في مقعده وقال بحدة: «في الحقيقة لا داعي لأن يكون صوتك عاليًا جدًا هكذا». ثم واصل بنبرة أكثر هدوءًا: «لقد كان على علم بما كنا نحاول فعله بخصوص طقس باخوس، ووافق على الأمر، وفي اليوم التالي لما حدث، ذهبنا إلى منزله الريفى وأخبرته بكل شيء، وكان مسرورًا».

«هل أخبرته بكل شيء؟»

قال هنري وهو يعدل نظارته ويعود إلى كتابه: «حسنًا، لم أرَ أي فائدة في إزعاجه، إذا كان هذا هو ما تقصده».

كان جوليان، بطبيعة الحال، قد أعد الغداء بنفسه، وتناولنا الطعام على المائدة المستديرة الضخمة في مكتبه. بعد أسابيع من التوتر العصبي والمحادثات السيئة والطعام الرديء في قاعة الطعام، كان احتمال تناول وجبة معه أمرًا مبهجًا جدًا؛ كان رفيقًا ساحرًا، وكانت وجبات غدائه -على الرغم من بساطتها الخادعة- تتمتع بمنافع صحية ورفاهية أوغسطية لم تفشل قط في تهدئتي. أعد لحم ضأن مشويًا، وبطاطس طازجة، وبازلاء مع كراث، وشمر؛ مع زجاجة لذيذة من نبيذ شاتو لاتور. تناولت الطعام بشهية مفتوحة افتقدتها منذ زمن طويل عندما لاحظت ظهور طبق رابع، بسحر خفي، عند مرفقي؛ فطر. كان شاحبًا ونحيل السيقان، من النوع الذي رأيته من قبل، يغلي في صلصة النبيذ الأحمر التي تفوح منها رائحة الكزبرة وعشبة السذاب.

سألته متعجبًا: «من أين حصلت على هذا الفطر؟»

أجاب بسرور: «أنت دقيق الملاحظة. أليس رائعاً؟ إنه نادر جداً، هنري أحضره لي».

أخفيت هلمي برشفة من النبيذ.

قال جوليان وهو يومئ نحو الطبق: «هنري أخبرني عن هذا الفطر، هلاً ناولتني الطبق؟»

ناولته إياه، فوضع بعضاً من الفطر في طبقه وقال: «شكراً لك. ماذا كنت أقول؟ نعم، هنري أخبرني أن هذا النوع من الفطر كان مفضلاً لدى الإمبراطور كلوديوس، مثير للاهتمام، أليس كذلك؟ خصوصاً إذا تذكرت كيف مات كلوديوس».

تذكرت بالطبع، دست زوجته أجريبيناً فطراً مسموماً في طبقه وقتلته.

بينما يتناول جوليان قضمة من الفطر واصل كلامه: «إنه لذيذ جداً، هل شاركت هنري في أي من رحلاته الاستكشافية لجمع الفطر؟»

«ليس بعد، لم يطلب مني ذلك».

«يجب أن أقول، لم أكن أعتقد أنني سأهتم بالفطر يوماً لكن كل ما أحضره لي هنري كان مذهلاً».

فجأة أدركت أنه ربما كان هذا تصرفاً محسوباً من هنري، فسألته: «هل أحضر لك الفطر من قبل؟».

أجاب: «نعم بالطبع، لا أثق بأي شخص في هذه الأمور، لكن يبدو أن هنري يعرف كثيراً عنها».

قلت وأنا أفكر في كلبَي البوكسر: «أعتقد أنه يعرف عنها أكثر مما نتصور».

علّق جوليان بإعجاب: «من اللافت للنظر مدى براعته في كل شيء يفعله، سواء كان زراعة الزهور أم إصلاح الساعات مثل صائغ ماهر أم حساب الأرقام المعقدة في رأسه، حتى في أبسط الأمور مثل تضميد إصبع مجروحة، يفعل كل شيء بإتقان».

صب لنفسه كأسًا أخرى من النبيذ وأضاف: «أعتقد أن والديه يشعران بخيبة أمل لأنه اختار التركيز على دراسة الكلاسيكيات، لا أوافقهما بالطبع، لكنه كان ليصبح طبيبًا أو جنديًا أو عالمًا عظيمًا».

ضحكت وقلت: «أو ربما جاسوسًا ماهرًا».

شاركني جوليان الضحك وقال: «أعتقد أنكم كلكم تصلحون لأن تكونوا جواسيس ممتازين، تتسللون إلى الملاهي الليلية وتنتصتون على رؤساء الدول. ألا ترغب في تجربة هذا الفطر؟ إنه بديع».

شربت بقية نبيذي وقلت: «لم لا؟» ومددت يدي إلى الطبق. بعد الغداء عندما رُفعت الأطباق ولم نعد نتحدث عن شيء محدد، سألتني جوليان فجأة إذا كنت قد لاحظت شيئًا غريبًا في سلوك باني مؤخرًا.

أجبت: «لا، لم ألاحظ»، وأخذت رشفة من الشاي بحذر. رفع حاجبه وسألني: «لا؟ أعتقد أنه يتصرف بغرابة شديدة، كنت أنا وهنري نتحدث أمس كم أصبح فظًا وصداميًا».

قلت: «ربما كان في حالة مزاجية سيئة مؤخرًا».

هز رأسه وقال: «لا أعرف، إدموند شخص بسيط، ولم أعتقد يومًا أنني سأفاجأ بشيء يفعله، لكن دار بيني وبينه حديث غريب جدًا مؤخرًا».

قلت بحذر: «حديث غريب؟»

«ربما قرأ شيئاً أزعجه، لا أعرف، أنا قلق عليه».

«لماذا؟»

«بصراحة، أخشى أنه قد يكون على شفا تحوّل ديني كارثي».

خالجني توتر شديد .

«حقاً؟»

«لقد رأيت ذلك يحدث من قبل، ولا أستطيع أن أجد أي تفسير آخر لهذا الاهتمام المفاجئ بالأخلاق، لا يعني ذلك أن إدموند شخص فاسق، لكنه كان من أقل الأشخاص الذين عرفتهم اهتماماً بالأخلاق، أذهلني عندما بدأ يسألني -بكل جدية- عن قضايا مثل الخطيئة والغفران، بل إنه يفكر في الذهاب إلى الكنيسة. أليس ذلك غريباً؟ هل تعتقد أن الفتاة لها علاقة بالأمر؟»، كان يقصد ماريون، وكان دائماً ينسب إليها بطريقة غير مباشرة عيوب باني؛ كسله ومزاجه السيئ ورداءة ذوقه.

قلت: «ربما».

«هل هي كاثوليكية؟»

قلت: «أعتقد أنها مشيخية⁽¹⁾».

أظهر جوليان ازدراءً مهذباً ولكنه صارم تجاه التقاليد المسيحية بغض النظر عن طوائفها. على الرغم من إشارته أحياناً إلى

(1) المشيخية (أو النظام المشيخي أو البريسبيتارية): تشير إلى عدة كنائس مسيحية تتبع تعاليم العالم اللاهوتي البروتستانتي جون كالفين وتنظم تحت حكم مجالس شيوخ بشكل ديمقراطي، فيوجد في كل مجمع دورة مكونة من شيوخ حاكمين وشيوخ معلمين .

عشقه لأعمال دانتي وجيوتو⁽¹⁾، فإن أي شيء ديني صريح كان يثير فيه قلقًا وثنيًا عميقًا. وربما كان مثل بليني⁽²⁾ الذي يشبهه في كثير من النواحي، يعتقد سرًا أن الدين نظام طائفي منحط. قال فزعًا: «مشيخة؟ حقًا؟»

«أعتقد ذلك».

«حسنًا، مهما كان رأي المرء في الكنيسة الرومانية، فهي خصم قوي ومستحق، يمكنني أن أقبل هذا النوع من التحول الديني بعزة نفس، لكنني سأشعر بخيبة أمل كبيرة إذا فقدنا الرجل لصالح المشيخين».

في الأسبوع الأول من أبريل تغير الطقس فجأة وبشكل غير معتاد ليصبح رائعًا، كانت السماء زرقاء صافية، والهواء دافئًا وخاليًا من الرياح، أشرقت الشمس على الأرض الموحلة بدفء جميل كأنها لا تستطيع الصبر حتى يأتي يونيو. عند أطراف الغابة بدأت الشجيرات الصفراء تكتسي بلون أخضر خفيف من

(1) جوتو دي بوندوني المعروف باختصار جوتو. رسام ومهندس معماري إيطالي من فلورنسا (1266-1337). يعد عمومًا من كبار الفنانين الذين ساهموا في النهضة الإيطالية. يُقال إن الرسام الإيطالي تشيمايو شاهد جوتو دي بوندوني، وهو بعد فتى في العاشرة من عمره، يرسم الحيوانات على الحجارة في الحقول.

(2) بلينيوس سكوندوس الملقب بـ«بليني الأكبر» (23-79): كان أشهر مؤرخ روماني على الإطلاق فقد كانت لكتاباتهِ الجغرافية والتاريخية والطبيعية حيّز كبير في إثراء الثقافة الرومانية في تلك الحقبة.

وُلد بليني في شمال إيطاليا، وعمل محاميًا، تولى مناصب حكومية مهمة، وكان أدميرالاً على الأسطول الذي تمركز بالقرب من بومبي عندما ثار جبل فيزوف في العام 79 ومات هناك وهو يحاول إنقاذ النازحين.

الأوراق الجديدة، وملاً صوت نقار الخشب الذي يشبه الضحك الأجواء مع قرعه المستمر على جذوع الأشجار. كنت مستلقياً على سريرى والنوافذ مفتوحة، فأسمع صوت جريان وقرقرة الثلج الذائب في المزاريب طوال الليل.

مع حلول الأسبوع الثاني من أبريل، انتظر الجميع بترقب إن كان هذا الطقس الربيعي سيستمر أم لا. واستمر بالفعل من دون أي علامات على أنه سيتغير قريباً، تفتحت أزهار الأقحوان والнерجس البري في الحدائق، وزينت زهور البنفسج والعنقية المروج، ورفرفت الفراشات البيضاء التي ما زالت أجنحتها مبتلة بسعادة في الحقول الخضراء كأنها سكرى بتأثير نشوة هذا الطقس البهيج. خلعت معطفي الشتوي وحدائي، وتجولت في الأرجاء، وأنا أشعر بدوار من شدة الفرح وقد شمّرت أكمام قميصي.

قال هنري: «هذا الطقس لن يدوم».

وبالفعل مع الأسبوع الثالث من أبريل، حين أصبحت المروج خضراء كالجنان وتفتحت أزهار التفاح بكثافة، كنت أقرأ في غرفتي ليلة الجمعة، والنوافذ مفتوحة، والرياح الباردة الرطبة تحرك الأوراق على مكثبي. كان هناك حفل على الجانب الآخر من المرج، والضحكات والموسيقى تملأ هواء الليل. كان الوقت متأخراً بعد منتصف الليل، وكنت نصف نائم فوق كتابي، حين سمعت أحدهم يصرخ باسمي من خارج نافذتي، نهضت مذعوراً لأرى فردة حذاء باني تندفع عبر نافذتي المفتوحة وتسقط على الأرض بدويّ، قفزت من مكاني وانحنيت فوق عتبة النافذة لأرى

ظله المترنح بشعره الأشعث، يحاول التمسك بجذع شجرة صغيرة للحفاظ على توازنه.

صرخت: «ما خطبك بحق الجحيم؟»

لكنه لم يرد، رفع يده فقط في إشارة نصفها تلويحة ونصفها تحية، ثم اختفى في الظلام. سمعت الباب الخلفي يُغلق بعنف، وبعد لحظات كان يطرق باب غرفتي، عندما فتحته دخل وهو يعرج مرتدياً فردة حذاء واحدة تاركاً آثار أقدام موحلة وغير متناسقة خلفه، كانت نظارته معوجة ورائحة الويسكي تفوح منه، تمتم: «الفتى ديكى»، بدا أن صياحه تحت نافذتي قد أنهكه وجعله عاجزاً عن التواصل بشكل واضح، خلع جوربه الموحل ورماه بعيداً بطريقة خرقاء ثم ترنح إلى سريرى. بدأت أستخلص منه تفاصيل المساء شيئاً فشيئاً، أخذه التوأمان لتناول العشاء ثم إلى حانة في البلدة لشرب المزيد، ثم ذهب بمفرده إلى الحفلة في المرح، حيث حاول رجل هولندي أن يجبره على تدخين الماريجوانا، وصبت له فتاة في السنة الأولى مشروب تيكىلا من ترمس. (كانت فتاة صغيرة جداً، على ما يبدو أنها من محبي فرقة «ديد هيد»). كانت ترتدي قباقيب، هل تعرف تلك الأشياء؟ وقميصاً مربوطاً مصبوغاً، لم أحتملها، وقلت لها: «عزيزتي، أنت لطيفة جداً، لماذا تريدان التورط في مثل هذه الأشياء؟».

فجأة توقف عن سرده واندفع خارجاً، تاركاً باب غرفتي مفتوحاً خلفه، وسمعت صوت قىء صاخباً وعنيفاً. اختفى مدة طويلة، وعندما عاد كانت رائحته حامضة ووجهه شاحباً جداً، لكنه بدا هادئاً.

قال وهو ينهار على مقعدي ويمسح جبينه بمنديل أحمر: «يا للعجب، لا بدّ أني تقيأت بسبب شيء أكلته».

سألته بشك: «هل تمكنت من الوصول إلى الحمام؟» كان صوت القوي قريباً جداً من باب غرفتي.

أجاب وهو يتنفس بصعوبة: «لا، تقيأت في خزانة المكنس. هل يمكنك أن تحضر لي كوباً من الماء؟»

كان باب خزانة المكنس في الممر مفتوحاً جزئياً، ما أتاح لي رؤية سريعة للرعب النتن داخلها، مررت بها مسرعاً إلى المطبخ. عندما عدت نظر إليّ باني بعينين متعبتين، وكان تعبيره قد تغير تماماً؛ ما جعلني أشعر بعدم الارتياح. أعطيته الماء فشرب جرعة كبيرة منه بعطش.

قلت منبهاً: «تمهل».

لكنه لم يعرني اهتماماً، وشرب الباقي في جرعة واحدة، ثم وضع الكأس على المكتب بيد مرتجفة. تفصدت حبات العرق فوق جبينه، وقال: «يا إلهي».

جلست على سريري بتوتر محاولاً التفكير في موضوع محايد، لكن قبل أن أتمكن من قول أي شيء تحدث مرة أخرى، تمتم قائلاً: «لا أستطيع تحمل ذلك بعد الآن، لا أستطيع».

لم أجب، مرر يده المرتعشة فوق جبينه، وقال بنبرة مليئة بالأسى: «إنك لا تعرف حتى عما أتحدث».

شعرت بالاضطراب فصالبت ساقِيّ، لقد توقعت هذا منذ أشهر، وكنت أخشى أن يحدث. راودتني رغبة قوية في الهروب من الغرفة وتركه وحده، لكن في تلك اللحظة دفن وجهه بين

يديه، وتمتم قائلاً: «كل شيء صحيح، صحيح تماماً، أقسم لك. لا أحد يعرف سواي».

لسبب غامض تمنيت أن يكون ما سمعته إنذاراً كاذباً، ربما انفصل هو وماريون، أو ربما توفي والده بنوبة قلبية، جلست في مكاني عاجزاً عن الحركة، مسح باني جبهته بكفيه بقوة كأنه يمسح العرق عنها، ثم نظر إليّ بعينين محتقنتين بالدماء متقدتين بشدة.

قال بصوت متهدج: «ليس لديك أدنى فكرة»، كان يكررها كأنه يحاول أن يجعلني أفهم شيئاً لا أستطيع إدراكه.

لم أتحمل ذلك أكثر، فنهضت وطففت بعيني في أرجاء الغرفة بشكل مشتت، قلت: «هل تحتاج إلى أسبرين؟ كنت أنوي أن أسألك سابقاً، إذا تناولت قرصين الآن فلن تشعر بالسوء في الصباح». قاطعني باني فجأة: «إنك تعتقد أنني مجنون، أليس كذلك؟».

لطالما توقعنت أن يأتي هذا اليوم، حيث نكون نحن الاثنان وحدنا، باني ثمل وفي ساعة متأخرة من الليل. قلت محاولاً تهدئته: «لماذا تقول ذلك؟ كل ما تحتاج إليه هو قليل من الراحة». قال بمرارة: «إنك تعتقد أنني مجنون وغريب الأطوار، لا أحد يستمع إليّ».

شعرت بالقلق فقلت بصوت هادئ: «اهداً، أنا أستمع إليك». «حسناً، أستمع إلى هذا».

استمر حديثه حتى الساعة الثالثة صباحاً، كانت القصة التي رواها -وهو تحت تأثير السكر- متقطعة وغير متسلسلة ومليئة بالذم والانتقاد والاستطرادات التي يمجدها فيها نفسه، ومع ذلك

لم أجد صعوبة في فهم جوهر ما قاله، كانت حكاية سمعتها من قبل بنفس التفاصيل، بعد أن انتهى من الحديث جلسنا صامتتين مدة، وكل منا غارق في أفكاره. كان ضوء المكتب يسطع في عيني، وأصوات الحفلة في الجهة المقابلة لا تزال مفعمة بالحياة، وأغنية راب صاحبة تدوي بشكل مزعج في الأرجاء.

أصبح تنفس باني عاليًا ومختنقًا، سقط رأسه على صدره ثم استيقظ فزعًا كأن أحدهم صرخ في أذنه، وقال بارتباك: «ماذا؟ آه، نعم».

لم أقل أي شيء.

«ما رأيك فيما قلته، ها؟»

لم أتمكن من الإجابة، تمنيت فقط أن يكون قد نسي كل ما قاله.

«أغرب شيء... الحقيقة أصدق من الخيال، مهلاً هذا ليس صحيحًا. ما المقولة بالضبط؟»

صححت له بآلية: «الحقيقة أغرب من الخيال».

لم أكن بحاجة إلى بذل جهد لأبدو مهتمًا أو مدهوشًا، كنت منزعًا جدًا لدرجة أنني شعرت بالإعياء.

قال باني ثملاً: «ما حدث يُثبت ذلك، يمكن أن يكون الرجل في الغرفة المجاورة لك، يمكن أن يكون أي شخص، لا يمكنك أن تميز ذلك».

وضعت وجهي بين يديّ.

قال باني بصوت مليء باليأس: «فلتخبر أي شخص تريده بالقصة. لست أهتم حتى لو أخبرت عمدة البلدة، سيُقبض عليهم وستزج المحكمة بهم في السجن».

ثم أضاف متممًا: «يظن أنه ذكي جدًا، لو لم تكن هذه فيرمونت لم يكن لينام هائنًا في الليل. دعني أخبرك بهذا، أبي صديق مقرب لمفوض الشرطة في هارتفورد، لو علم بما حدث، يا إلهي... لقد ارتاد هو وأبي المدرسة معًا، وواعدت ابنته في الصف العاشر».

ثم بدأ رأسه يتدلى فهز نفسه ليستفيق.

قال وهو يكاد يسقط عن الكرسي: «يا إلهي». حدقت إليه.

«هلا أعطيتني هذا الحذاء؟»

ناولته الحذاء والجوارب، نظر إليهما لحظة ثم دسهما في الجيب الخارجي لسترته.

قال بابتسامة باهتة: «لا تدع بق الفراش يلدغك»، ثم رحل تاركًا باب غرفتي مفتوحًا.

سمعت خطواته المتعثرة تتردد في الممر وهو يهبط الدرج، شعرت أن الغرفة برمتها تتبض مع كل دقة من قلبي. جلست على سرير في حالة من الذهول، وأسندت أحد مرفقي إلى حافة النافذة، محاولاً أن أجمع شتات أفكار. من المبنى المقابل انطلقت موسيقى الراب الشيطانية، فيما كان شخصان غامضان يجلسان القرفصاء فوق السطح، ويرميان علب البيرة الفارغة على مجموعة من الهيببيين البائسين المتجمعين حول نار مشتعلة في سلة نفايات محاولين تدخين الماريجوانا. رأيت علبة بيرة تطير في الهواء، ثم أخرى طائرة لتصيب أحدهم على رأسه بخفوت، تبع ذلك صوت ضحك وصرخات متألمة.

كنت أحرق إلى الشرر المتطاير من سلة القمامة عندما باغتتني فكرة مروعة؛ لماذا اختار باني المجيء إلى غرفتي بدلاً من الذهاب إلى كلوك أو ماريون؟ نظرت خارج النافذة، وعندها بدت لي الإجابة واضحة تمامًا لدرجة أنها أصابتني بقشعريرة؛ كانت غرفتي الأقرب إليه بفارق كبير، ماريون تعيش في منزل روكسبورغ على الطرف الآخر من الحرم الجامعي، أما كلوك فيسكن في الجانب البعيد من منزل دوربنستل. كلا المكانين بعيد وغير واضح لرجل ثمل يترنح في الليل، ولكن منزل مونماوث لا يبعد سوى ثلاثين قدمًا، ولا بد أن غرفتي بنورها الساطع بدت له كمنارة في الظلام.

أفترض أن من المثير للاهتمام أن أقول إنني في تلك اللحظة شعرت بالتمزق الداخلي، وأن هناك صراعًا أخلاقيًا عصف بي بخصوص العواقب المترتبة على أي قرار أتخذه، لكن الحقيقة أنني لا أذكر أنني شعرت بأي شيء من هذا.

ارتديت صندلي وهبطت الدرج متجهًا إلى الهاتف العمومي للاتصال بهنري.

كان الهاتف في مونماوث مثبتًا إلى أحد الجدران بجانب الباب الخلفي ومكشوفًا جدًا للمارة بشكل أزعجني في تلك اللحظة، لذا قررت السير إلى مبنى العلوم، حيث وجدت مقصورة هاتف معزولة في الطابق الثالث قرب مختبرات الكيمياء، ظل الهاتف يرن بلا توقف من دون إجابة، وأخيرًا أغلقت الخط ساخطًا واتصلت بالتوأمين.

رن الهاتف ثماني مرات... تسع مرات... ثم أخيراً جاءني صوت تشارلز الناعس: «مرحباً».

قلت بسرعة: «مرحباً، إنه أنا. طراً شيء مهم».

رد تشارلز وقد انتبه فجأة: «ماذا؟» استطعت سماعه وهو يعتدل في فراشه.

«لقد أخبرني، الآن فحسب».

ران صمت طويل.

قلت: «مرحباً؟»

قال تشارلز فجأة: «أغلق الخط واتصل بهنري فوراً».

«لقد حاولت، لكنه لا يجيب».

سمعت تشارلز يلعن بصوت منخفض، ثم قال: «دعني أفكر... يا إلهي، هل يمكنك القدوم الآن؟»

«بالتأكيد، الآن؟»

«سأذهب إلى منزل هنري وأحاول إحضاره. ينبغي أن نصل قبل أن تصل أنت. تمام؟»

أجبت: «حسناً»، لكن تشارلز كان قد أغلق الخط بالفعل.

عندما وصلت إلى شقة التوأمين بعد عشرين دقيقة، وجدت تشارلز عائداً وحده من ناحية منزل هنري.

«لم يحالفك الحظ؟».

أجاب وهو يلهث: «لا». كان شعره مجعداً ويرتدي معطفاً واقياً من المطر فوق بيجاما.

قلت: «ماذا سنفعل الآن؟»

ردّ: «لا أعرف، تعال إلى الأعلى، سنفكر في شيء ما».

في اللحظة التي خلعنا فيها معطفينا، أُضيئت غرفة كاميلا، ثم ظهرت عند المدخل ترمش بعينيها الناعستين وخديها المتوردين. قالت: «تشارلز؟»

ثم سألت عندما رأته: «ما الذي تفعله هنا؟»
بدأ تشارلز يشرح ما حدث بطريقة متقطعة، استمعت كاميلا وهي تحمي عينيها من الضوء الساطع بحركة ناعسة من مرفقها، كانت ترتدي قميص نوم رجاليًا فضفاضًا جدًا عليها، حدقت إلى ساقها العاريتين دون انتباه، كانت بشرة ساقها سمراء، وكاحلاها نحيلين وقدماهما صغيرتين وجميلتين.

سألت كاميلا: «هل هنري في منزله؟».

«أنا متأكد من أنه هناك».

«هل أنت متأكد؟»

«أين يمكن أن يكون في الساعة الثالثة صباحًا؟»

قالت: «انتظر لحظة»، ثم توجهت إلى الهاتف، وأكملت: «أريد فقط تجربة شيء ما».

اتصلت، ثم استمعت لحظة، ثم أغلقت الخط واتصلت مرة أخرى.

سألها تشارلز: «ماذا تفعلين؟»

أجابت وهي تمسك السماعة بين كتفها وأذنها: «إنها شيفرة، رنتان، ثم إغلاق الخط، ثم رنة واحدة».

سألها تشارلز بدهشة: «شيفرة؟»

«نعم. أخبرني بها ذات مرة». ثم قالت فجأة: «أوه، مرحبًا، هنري».

نظر إليّ تشارلز بدهشة، وقال بهدوء: «يا إلهي، لا بد أنه كان مستيقظًا طوال الوقت».

كانت كاميلّا تتحدث على الهاتف وتحقق إلى الأرض، وتؤرجح قدم ساقها المتقاطعة فوق الأخرى لأعلى وأسفل، قالت: «حسنًا، سأخبره» ثم أقفلت الخط.

نظرت إليّ وقالت: «يقول هنري إن عليك الذهاب إليه فورًا، إنه في انتظارك».

ثم استدارت نحو تشارلز بنبرة غاضبة: «لماذا تنظر إليّ هكذا؟»

«شيفرة، ها؟»

«ماذا عنها؟»

«لم تخبريني بذلك قط».

«إنها مجرد شيء سخيف بيني وبين هنري، لم يخطر ببالي قط أن أخبرك عنه».

«لماذا تحتاجين أنت وهنري إلى شيفرة سرية؟»

«ليست سرية».

«إذن لماذا لم تخبريني؟»

«تشارلز، كف عن التصرف كالأطفال».

استقبلني هنري عند الباب في روب حمام، كان مستيقظًا تمامًا بلا أي تفسير لذلك في تلك الساعة المتأخرة، دخلنا المطبخ، حيث صب لي فنجانًا من القهوة ودعاني للجلوس.
قال: «الآن، أخبرني بما حدث».

أخبرته بالتفاصيل.

جلس هنري مقابلي إلى المائدة يدخن سيجارة تلو الأخرى، فيما كانت عيناه الزرقاوان الداكنتان ثابتتين عليّ. قاطعني مرة أو مرتين فقط لطرح سؤال أو لطلب توضيح حول بعض النقاط، كنت مرهقاً إلى حد أنني بالكاد أستطيع التعبير بوضوح لكنه استمع إلى حديثي بإمعان وصبر.

عندما انتهيت من رواية الأحداث، كانت الشمس قد أشرقت وبدأت الطيور ترقزق، وراحت بقع داكنة تسبح أمام عيني، داعب نسيم رطب وبارد الستائر، أطفأ هنري المصباح وتوجه إلى الموقد بطريقة آلية ليعد بعض لحم الخنزير المقدد والبيض، راقبته في نور الفجر الخافت وهو يتحرك في أرجاء المطبخ حافي القدمين، ونحن نتناول الطعام، تأملتة بفضول. كان شاحباً وعيناه متعبتان وشاردتان، لكن لم يكن هناك ما يوحي بما يجول في ذهنه.

قلت: «هنري».

انتفض قليلاً، كانت هذه المرة الأولى التي يقول فيها أي منا كلمة منذ أكثر من نصف ساعة.

«فيم تفكر؟»

«لا شيء».

«هل لا تزال تراودك فكرة تسميمه...».

نظر إليّ بغضب سريع لم أكن أتوقعه وقال بحدة: «لا تكن سخيّاً. أتمنى أن تصمت قليلاً وتدعني أفكر».

حدقت إليه.

نهض فجأة ليصب لنفسه فنجاناً من القهوة. وقف وظهره نحوي لحظة، ويداه مثبتتان على المنضدة.

ثم استدار وقال بإنهاك: «آسف، ليس من السهل أن تنتظر إلى الوراء لتدرك أن الأمر الذي بذلت فيه كثيراً من الجهد والتفكير كان فكرة حمقاء تماماً، تبدو فكرة التسميم كأنها مأخوذة من أحد كتب السيد والتر سكوت⁽¹⁾».

دُهِشت، وقلت: «لكنني اعتقدت أنها كانت فكرة جيدة إلى حدٍّ ما».

فرك هنري عينيه بإبهامه وسبابته وقال: «جيدة بشكل مبالغ فيه. عندما يواجه شخص اعتاد التفكير الذهني مهمةً عملية مباشرة يميل إلى تعقيد الأمور بشكل زائد عن اللزوم، تبدو الفكرة منطقية على الورق. لكن عندما تريد تنفيذها فعلياً تدرك مدى تعقيدها».

«ما الخطأ الذي اكتشفته؟»

عدّل نظارته: «السم بطيء جداً».

«اعتقدت أن هذا ما أردته».

«ثمة مشكلات عديدة في ذلك، وقد أشرت أنت إلى بعضها، إن التحكم في الجرعة محفوف بالمخاطر لكن الوقت هو مصدر القلق الحقيقي، من وجهة نظري كلما طالت المدة كان ذلك أفضل، لكن... يمكن لأي شخص أن يتحدث كثيراً خلال اثنتي عشرة ساعة».

(1) كان والتر سكوت كاتباً وروائياً مشهوراً من القرن التاسع عشر، وعُرف بكتابة الروايات التاريخية والمغامرات مثل «إيفانهوي» و«روب روي».

سكت هنية قبل أن يتابع: «بالطبع لقد لاحظت ذلك سابقاً، كانت فكرة قتله مقرفة لدرجة أنني لم أستطع التفكير فيها بجدية، كنت أعاملها وكأنها مسألة نظرية فقط أو لعبة ذهنية، ليس لديك فكرة عن مقدار التفكير الذي بذلته في هذا الأمر حتى في اختيار نوع السم، يقال إنه يسبب انتفاخ الحلق، هل تعلم ذلك؟ ويُقال إن الضحايا يصبحون في حالة ذهول ولا يستطيعون تحديد من سممهم».

تهدد وقال: «من السهل جداً أن أخدع نفسي بأفكار عن آل ميديشي وآل بورجيا⁽¹⁾ وكل تلك الخواتم والورود المسمومة. أعلم كيف أسمع وردة وأقدمها هدية لتخز السيدة خنصرها ثم تسقط ميتة، وأعرف كيف أصنع شمعة قاتلة تُحرق في غرفة مغلقة، أو كيف أسمع وسادة، أو كتاب تراتيل».

قلت: «وماذا عن الحبوب المنومة؟»

نظر إليّ منزعجاً.

«أنا جاد. يموت الناس بسببها طوال الوقت».

«من أين سنحصل على حبوب منومة؟»

«نحن في كلية هامبدن، إذا كنا نريد حبوب منومة فسنحصل

عليها».

تبادلنا النظرات.

«كيف سنعطئها لباني؟»

(1) كانت عائلة ميديشي وبورجيا من أبرز العائلات في عصر النهضة الإيطالية المعروفة بدعمها الحماسي للفنون والعلوم الناشئة. واشتهرتا باستخدام السموم في الاغتيالات.

«أخبره أنها تايلينول».

«وكيف نجعله يبتلع تسعة أو عشرة أقراص من التايلينول؟».

«يمكننا تفتيت محتواها في كأس من الويسكي».

«هل تعتقد أنه سيشرب كأساً من الويسكي مليئاً بمسحوق

أبيض مترسب في قاعه؟».

«أعتقد أنه لن يمانع فعل ذلك مثلما لم يكن ليمانع تناول طبق

من الفطر».

ساد صمت طويل، قطعته تغريدة طائر بصوت عالٍ خارج

النافذة، أغمض هنري عينيه مدة طويلة وفرك صدغيه بأطراف

أصابعه.

قلت: «ماذا ستفعل؟».

«أعتقد أنني سأخرج لأنجز بعض المهام، أريدك أن تذهب

إلى المنزل وتخلد إلى النوم».

«هل لديك أي أفكار؟»

«لا، ولكن هناك أمراً أريد التحقق منه. كنت سأقلك بالسيارة

إلى الكلية، لكنني لا أعتقد أنه من الجيد أن يرانا أحد معاً في

هذه الساعة».

بدأ هنري يفتش في جيب روبه، وسحب بعض أعواد الثقاب

وأسنان قلم حبر وعلبة أقراص بغطائها المصنوع من المينا،

وأخيراً وجد بضعة أرباع معدنية ووضعها فوق المائدة.

قال: «هاك، توقف عند كشك الصحف واشترِ الصحيفة في

طريقك إلى المنزل».

«لماذا؟».

«في حال تساءل أحدهم لماذا كنت تتجول في مثل هذه الساعة، قد أحدث معك الليلة، إذا لم أجذك في غرفتك، سأترك لك رسالة على الهاتف مفادها أن دكتوراً يدعى سبرينجفيلد قد اتصل، لا تحاول التواصل معي قبل ذلك إلا في حالة الضرورة القصوى».

«بالتأكيد».

قال وهو على وشك مغادرة المطبخ: «أراك لاحقاً».

ثم التفت إليّ عند الباب وقال بلهجة عادية وواقعية: «لن أنسى جميلك أبداً، كما تعلم».

«لم أفعل شيئاً».

«فعلت كثيراً، وأنت تعرف ذلك».

قلت: «وأنت أيضاً قدمت لي كثيراً».

لكنه كان قد غادر بالفعل ولم يسمعني، ولم يرد على أي حال. اشتريت الجريدة من المتجر الصغير في الشارع، وسرت عائداً إلى الكلية عبر الغابة الكثيفة شديدة الرطوبة بعيداً عن الطريق الرئيسي، وخطوت فوق الصخور الضخمة وجذوع الأشجار المتعفنة التي اعترضت طريقي أحياناً.

كان لا يزال الوقت مبكراً عندما وصلت إلى الحرم الجامعي، دخلت من الباب الخلفي إلى منزل مونماوث، وتمهلت عند أعلى الدرج، حيث فوجئت برؤية رئيسة المنزل ومجموعة من الفتيات في معاطفهن المنزلية يتجمعن حول خزانة المكانس، ويتحدثن بنبرات غاضبة. عندما حاولت أن أتجاوزهن، أمسكت جودي بوفي التي كانت ترتدي كيمونو أسود بذراعي.

قالت: «مهلاً، أحدهم تقيء في هذه الخزانة».

قالت فتاة ورائي مباشرة: «أعتقد أنه أحد طلاب السنة الأولى. يشملون حتى يفوح منهم الخمر، ثم يأتون إلى أجنحة الطلاب الراقية ليتقيؤوا».

قالت رئيسة المنزل: «حسناً، لا أعرف من فعل ذلك، لكن أياً كان، فقد تناول معكرونة على العشاء».

قالت الفتاة: «همم. هذا يعني أنه لا يتناول وجباته في قاعة الطعام إذن».

شقت طريقي عبرهن إلى غرفتي، وأغلقت الباب ورائي، ثم ألقيت بنفسي على السرير وغرقت في النوم على الفور.

نمت طوال النهار، ووجهي مدفون في الوسادة، في وضعية مريحة كأنني أطفو على الماء، لا يزعجني سوى أصوات الواقع البعيدة -أحاديث ووقع أقدام وأبواب تغلق- التي تسلت بشكل متقطع عبر أحلامي الدافئة والمعتمة، جاء الليل وما زلت نائماً، حتى أجبرني صوت اندفاع المياه في أحد المراحيض على الاستيقاظ.

بدأت حفلة ليلة السبت في منزل بوتنام المجاور؛ ما يعني أن العشاء قد انتهى وأغلق مقصف الوجبات الخفيفة أبوابه، وهذا يشير إلى أنني قد نمت قرابة أربع عشرة ساعة، وجدت المنزل خالياً تماماً، نهضت، وحلقت ذقتي، وأخذت حماماً ساخناً، بعدها ارتديت روب الحمام، وتناولت تفاحة وجدتها في المطبخ، ثم نزلت إلى الطابق السفلي حافي القدمين لأتفقد إن كانت هناك رسائل هاتفية، وجدت ثلاث رسائل؛ واحدة من باني كوركوران

عند الساعة السادسة والربع، وأخرى من أمي في كاليفورنيا عند الساعة الثامنة، وأخيرًا رسالة من الدكتور هـ. سبرينجفيلد الذي اقترح عليّ زيارته في أقرب وقت.

كنت جائعًا جدًّا، وعندما وصلت إلى منزل هنري شعرت بالارتياح لرؤية تشارلز وفرانسيس لا يزالان يتناولان بعض الدجاج البارد والسلطة، بدت على هنري علامات الإرهاق كأنه لم يذق طعام النوم منذ آخر مرة رأيته فيها، كان يرتدي سترة تويد قديمة مرقعة عند الكوع، وكانت بقع العشب متناثرة على ركبتي بنطاله، وواقيات للساقين كاكية اللون مثبتة فوق حذائه الملطخ بالطين. قال وهو يسحب كرسيه ويجلس بثقل كأنه مزارع عجوز عاد للتو من حقله: «ستجد الأطباق في خزانة أدوات المائدة إذا كنت جائعًا».

«أين كنت؟»

«سنتحدث عن ذلك بعد العشاء».

«أين كاميللا؟»

ضحك تشارلز فيما وضع فرانسيس ساق الدجاجة من يده وقال: «لديها موعد غرامي».

استغربت وسألت: «أنت تمزح! مع من؟»

«كلوك رايبورن».

أضاف تشارلز: «هما في الحفل الآن، جاء ليأخذها لتناول المشروبات قبل الحفل».

قال فرانسيس: «ماريون وباني معهما، كانت فكرة هنري، الليلة ستراقب كاميللا الشخص الذي تعرفه».

أخبرتهم: «الشخص الذي تعرفونه ترك لي رسالة هاتفية بعد ظهر اليوم».

قال تشارلز وهو يقطع شريحة من الخبز: «لقد كان عدائياً طوال اليوم».

قال هنري بصوت مرهق: «ليس الآن، من فضلكم».

بعدما انتهينا من العشاء، أسند هنري مرفقه إلى المائدة وأشعل سيجارة، كان بحاجة ماسة إلى حلاقة ذقنه، ولاحظت الهالات الداكنة تحت عينيه.

سأل فرانسيس: «ما الخطة؟»

رد هنري وهو يرمي عود الثقاب في منفضة السجائر: «في عطلة نهاية هذا الأسبوع، غداً».

تجمدت يدي، كان فنجان القهوة في منتصف الطريق إلى شفتيّ ونظرت إليه مدهوئاً.

سأل تشارلز الذي بدا عليه الاضطراب: «يا إلهي، أليس هذا قريباً جداً؟»

أجاب هنري: «لا يمكننا الانتظار أطول من ذلك».

تساءل تشارلز: «كيف؟ ماذا يمكننا أن نفعل في مثل هذه المدة القصيرة؟»

اعترف هنري: «لا يعجبني الأمر أيضاً، ولكن إذا انتظرنا، فقد لا تُتاح لنا فرصة أخرى حتى نهاية الأسبوع المقبل، وفي هذه الحالة قد لا نحظى بفرصة على الإطلاق».

خيم صمت قصير.

قال تشارلز بعدم يقين: «هل هذا شيء مؤكد؟»

قال هنري: «لا شيء أكيد، لن تكون الظروف تحت سيطرتنا بالكامل، لكن أريد أن نكون جاهزين إذا سنحت الفرصة».

قال فرانسيس: «هذا يبدو غير أكيد».

رد هنري: «لسوء الحظ لا يمكن أن يكون أكيداً، لأن باني سيقوم بمعظم العمل».

قال تشارلز، وهو يميل إلى الورا في كرسيه: «وكيف ذلك؟»

«حادث... حادث أثناء تمشية، تحديداً».

سكت هنري لحظة ثم تابع: «الغد يوم الأحد».

«نعم».

«إذن، إذا كان الطقس صحواً غداً، فمن المرجح أن يخرج باني للمشي».

علق تشارلز: «لكنه لا يخرج دائماً».

«لنفترض أنه فعل، ولدينا فكرة جيدة إلى حد ما عن المسار الذي سيسلكه».

تدخلت قائلاً: «المسار الذي يسلكه ليس ثابتاً».

رافقت باني في كثير من تلك التمشيات في الفصل الدراسي السابق، كان يروق له عبور الجداول وتسلق الأسوار، ويحب أن يسلك بشكل غير متوقع الطرق الالتفافية.

قال هنري: «نعم، بالطبع، ولكن إلى حد كبير نعرف مساره».

ثم أخرج قطعة من الورق من جيبه وفردها على المائدة.

انحنيت إلى الأمام لأرى أنها خريطة.

قال هنري: «يخرج من باب منزله الخلفي، ويدور خلف ملاعب التنس، وعندما يصل إلى الغابة يتجه شرقاً نحو جبل

كاتاراك، تلك منطقة كثيفة الأشجار لا تسمح بالمشي كثيرًا، يستمر بانى حتى يصل إلى درب الغزلان -تعرف الطريق الذي أعنيه يا ريتشارد، ذلك الممر الذي تميزه الصخرة البيضاء الكبيرة- وينعطف بشدة نحو الجنوب الشرقي، يمتد هذا الدرب ثلاثة أرباع الميل ثم يتفرع....».

قاطعت هنري: «لكن إذا انتظرته هناك فقد تسهو عنه، قد يختار بانى الانعطاف غربًا بدلًا من التوجه جنوبًا». قال هنري: «حسنًا، قد نفقده قبل ذلك في هذه الحال، أعرفه جيدًا حتى أنني أتوقع أنه ربما يتجاهل ذاك المسار كله ويستمر في التوجه شرقًا حتى يبلغ الطريق السريع، لكنني أراهن أنه لن يقوم بذلك. سيكون الطقس لطيفًا، ولن يرغب في مثل هذه التمشية السهلة».

«ولكن ماذا عن المسار الثاني؟ لا يمكننا أن نكون متأكدين من الاتجاه الذي سيختاره من هناك».

«لا حاجة إلى أن نعرف، هل تذكر إلى أين يؤدي هذا الطريق في النهاية؟ إلى الوادي».

قال فرانسيس: «آه، صحيح».

ساد صمت طويل.

قال هنري وهو يخرج قلم رصاص من جيبه: «حسنًا، استمعوا. سيأتي من الكلية من جهة الجنوب، يمكننا تقادي مساره تمامًا عبر الدخول من الطريق السريع رقم 6 إلى الغرب».

سألت: «هل سنأخذ السيارة؟»

«لجزء من الطريق، نعم. حتى باحة الخردة مباشرة وقبل المنعطف إلى باتينكيل، يوجد طريق مفروش بالحصى، ظننته ممراً مملوكاً لجهة خاصة وفي هذه الحالة كان يجب أن نتجنبه، لكنني تأكدت من السجلات في قاعة المحكمة بعد ظهر اليوم ووجدت أنه درب قديم لقطع الأشجار، ينتهي هذا الدرب في منتصف الغابة، ولكنه يقودنا مباشرة إلى الوادي على بعد ربع ميل، سنمشي بقية الطريق».

«وعندما نصل إلى هناك؟»

أجاب هنري: «ننتظر. لقد سرت من الكلية إلى الوادي مرتين بعد ظهر اليوم لحساب المدة الزمنية في كلا الاتجاهين، سيستغرق الأمر من باني ما لا يقل عن نصف ساعة منذ مغادرته غرفته، وهو وقت كافٍ للدوران حول الطريق الخلفي ومفاجأته».

«ماذا لو لم يأت؟»

«لن نخسر سوى بعض الوقت».

«ماذا لو رافقه أحدنا؟»

هز هنري رأسه وقال: «فكرت في ذلك، لكنها ليست فكرة جيدة، إذا سار إلى الفخ بمفرده وبمحض إرادته، فلن يتمكن أحد من ربط الأمر بنا».

قال فرانسيس بحنق: «الأمر كله مبني على الافتراضيات، هذا يبدو عشوائياً جداً بالنسبة إليّ».

رد هنري: «هذا ما نريده، شيئاً عشوائياً».

«لا أرى ما يشوب الخطة الأولى».

أجاب هنري بحزم: «الخطة الأولى معقدة جداً، هناك تخطيط كبير في كل تفاصيلها، لذا يمكن كشفها».

«لكنني أفضل التخطيط على المصادفة».

فرد هنري الخريطة المجمعدة على المائدة بحد كفه وقال: «في ذلك أنت مخطئ، إذا حاولنا أن نصمم الأحداث بدقة زائدة، يمكن لأي شخص يتبع نفس المسار أن يصل إلى نفس النتيجة وقد يكتشفنا، إن المنطق دائماً واضح للأعين الفاحصة، أما المصادفة؟ فهي غير مرئية وغير منظمة كأنها ضرب من الحظ. من الأفضل لنا أن ندع بانى يختار ظروف وفاته بنفسه؟».

أمسى كل شيء ساكناً، في الخارج أزلت صراصير الليل برتابة ومزقت حجاب الصمت، كان وجه فرانسيس متعرقاً وشاحباً جداً، عض شفته السفلية ثم قال: «اسمحوا لي بأن أستوعب الأمر بوضوح، سننتظر في الوادي ونأمل أن يمر بانى من هناك مصادفة، وإذا فعل ذلك فسندفعه من فوق الحافة في وضح النهار ثم نعود أدراجنا إلى منازلنا، هل هذا صحيح؟»
قال هنري: «إلى حد بعيد».

«ماذا لو لم يأت بمفرده؟ ماذا لو كان هناك شخص آخر يتجول في الأرجاء؟»

أجاب هنري: «ليس جريمة أن تكون في الغابة بعد ظهر يوم ربيعي، يمكننا إلغاء الخطة في أي لحظة قبل أن يسقط، وإذا صادفنا أحداً في طريق العودة إلى السيارة، أعتقد أن ذلك غير محتمل، ولكن إن حدث يمكننا القول إننا تعرضنا لحادثة ونبحث عن مساعدة».

«لكن ماذا لو رأنا أحداً؟»

قال هنري وهو يضع مكعب سكر في فنجان قهوته، أحدث رذاذاً صغيراً عند ملامسته السطح: «الاحتمال ضعيف جداً، ولكنه ممكن. كل شيء ممكن. لكن إذا تركنا الأمور تسير بطبيعتها، فستعمل الاحتمالات لصالحنا، ما احتمال أن يعثر شخص لم نلاحظه من قبل على تلك البقعة المعزولة في اللحظة التي سندفع فيها بانتي؟»

«قد يحدث».

«قد يحدث أي شيء، يا فرانسيس. قد تصدمه سيارة الليلة وتجنبنا كثيراً من المتاعب».

هَبَّ نسيم عليل مشبع برائحة المطر وعبق أزهار التفاح من النافذة، ولامس وجهي الذي غمره عرق بارد من دون أن أشعر. تنحج تشارلز فالتفتنا إليه، قال متردداً: «هل أنت متأكد من أن الارتفاع كافٍ ماذا لو أنه...؟»

رد هنري بهدوء: «ذهبت إلى هناك اليوم ومعني شريط قياس، يصل ارتفاع أعلى نقطة إلى ثمانية وأربعين قدماً، وهذا أكثر من كافٍ، التحدي الحقيقي سيكون في إيصال بانتي إلى هناك، إن سقط من ارتفاع أقل، قد ينتهي الأمر بإصابة بسيطة كأن تكسر ساقه، بالطبع يعتمد ذلك على كيفية سقوطه، فالسقوط على ظهره يناسب غاييتنا أكثر من السقوط على وجهه».

قال فرانسيس بقلق: «لكنني سمعت عن أشخاص سقطوا من الطائرات ونجوا. ماذا لو لم يقتله السقوط؟».

فرك هنري عينيه خلف نظارته وقال: «حسناً، كما تعلمون، هناك جدول صغير في قاع الوادي، وعلى الرغم من ضحالة مائه فإنه كافٍ لتنفيذ خطتنا، سيفقد وعيه في كل الأحوال».

حينها يمكننا أن نسحبه ونغمر وجهه في الماء مدة وجيزة،
أتوقع أن الأمر لن يستغرق سوى دقيقتين على الأكثر حتى يختنق،
وإن لم يفقد وعيه، يمكن لاثنتين منا أن ينقضا عليه ويغمراه في
الماء».

مرر تشارلز يده على جبينه المتعرق وقال: «يا للهول! فقط
استمعوا إلى ما نقول».

«ماذا جرى؟»

«هل نحن مجانيين؟».

«عمّ تتحدث؟»

«هل نحن مجانيين؟ هل فقدنا عقولنا؟ كيف يمكننا أن نفكر
في فعل شيء كهذا؟»

«أمقت الفكرة مثلما تمقتها أنت، ولكن ما باليد حيلة».

«هذا جنون، لا أعرف حتى كيف يمكننا التحدث عن هذا،
يجب أن نجد حلاً آخر».

أخذ هنري رشفة من قهوته وقال: «إذا كان لديك حل آخر،
فسأكون سعيداً بسماعه».

«حسناً... أعني، لماذا لا نغادر ببساطة؟ نركب السيارة الليلة
ونهرب؟»

قال هنري بنبرة جامدة: «إلى أين؟ وبأي مال؟»

صمت تشارلز.

قال هنري وهو يرسم خطاً على الخريطة بقلم رصاص:
«سيكون من السهل التسلل من دون أن يرانا أحد، لكن يجب
أن نكون حذرين جداً عندما نتعطف إلى درب قطع الأشجار ثم
نخرج إلى الطريق السريع».

قال فرانسيس: «هل سنستخدم سيارتي أم سيارتك؟»
«سيارتي، على ما أعتقد. فسيارتك تلفت الانتباه».
«ربما يجب أن نستأجر سيارة».

«لا، شيء كهذا قد يدمر كل شيء. إذا تصرفنا بعفوية فلن يشك أحد فينا، فالناس لا يلاحظون تسعين بالمئة مما يرونه».
تبع ذلك صمت قصير، ثم قال تشارلز بصوت مبحوح: «وبعد ذلك؟ سنعود إلى المنزل فحسب؟»

قال هنري: «أجل، سنعود إلى المنزل فحسب».

أشعل سيجارة، وعندما هز عود الثقاب ليطفئه، أضاف: «لا يوجد ما يدعو للقلق. يبدو الأمر محفوظاً بالمخاطر، ولكن إذا نظرنا إليه بعقلانية فلن يكون أكثر أماناً من ذلك. لن يبدو الأمر كجريمة قتل على الإطلاق، ومن يدري أن لدينا دافعاً لقتله؟»
حاولت مقاطعته للتحدث، ولكنه أكمل بنفاد صبر: «أعلم، أعلم. ولكني سأكون مدهوشاً جداً إذا كان قد أخبر شخصاً آخر».
سأله: «كيف يمكنك أن تكون واثقاً من ذلك؟ ربما أخبر نصف الموجودين في الحفلة».

أجاب هنري: «لكنني على استعداد للمراهنة أنه لم يفعل، صحيح أنه لا يمكن التنبؤ بتصرفات باني، ولكن تصرفاته حتى الآن لا تزال تحمل منطقاً بسيطاً يمكن توقعه، كنت أتوقع أنه سيخبرك أنت أولاً».

سألت بدهشة: «ولماذا تعتقد ذلك؟»

«ألا ترى أنه لم يكن من باب المصادفة أنه اختارك من بين الجميع ليخبرك؟».

قلت: «لا أعرف، ربما لأنه كان من الأسهل أن يصل إليّ».

رد هنري بصوت هادئ لكن نافذ الصبر: «من كان ليتمكن أن يخبر غيرك؟ لن يذهب مباشرة إلى الشرطة، لأنه سيخسر مثلما نخسر نحن إذا فعل ذلك، ولن يجروا على إخبار شخص غريب؛ ما يترك لديه مجموعة محدودة من الأشخاص المقربين؛ ماريون ووالديه وكلوك وجوليان وأنت».

«وما الذي يجعلك تعتقد أنه لم يخبر ماريون، على سبيل المثال؟»

«قد يكون باني ساذجاً، لكنه ليس أحمق لدرجة أن يخبر ماريون، لو فعل لكانت القصة انتشرت في أرجاء الكلية على مائدة الغداء في اليوم التالي، أما كلوك فهو خيار غير مضمون لأسباب عديدة، وعلى الرغم من أنه قد لا يفقد صوابه تماماً، فإنه ليس محل ثقة، فهو مزاجي ومتهور، ويضع مصلحته الشخصية دائماً في المقام الأول، صحيح أن باني يحترمه لكنه لن يلجأ إليه في أمر كهذا، وأما والداه فبالتأكيد لن يخبرهما حتى بعد مليون عام، صحيح أنهما سيساندانه لكنهما سيذهبان مباشرة إلى الشرطة».

«وجوليان؟»

هز هنري كتفيه وقال: «حسناً، قد يخبر جوليان، لا أستبعد ذلك تماماً، لكنه لم يخبره بعد، وأظن أنه لن يفعل على الأقل لبعض الوقت».

«ولم لا؟»

رفع هنري حاجبه وأجاب: «لأنه إذا أخبر جوليان فهل تعتقد أنه سيصدق؟ من سيصدق جوليان أكثر، نحن أم باني؟».

ساد الصمت، أخذ هنري نفساً عميقاً من سيجارته، ثم نفث الدخان وقال: «إنها مسألة إقصاء؛ لم يخبر ماريون أو كلوك لأنه يخشى أن يفشي أحدهما السر، ولم يخبر والديه لنفس السبب تقريباً، ربما يلجأ إليهما كملاذ أخير. ما الخيارات المتبقية إذا؟ إما أن يخبر جوليان الذي لن يصدق وإما يخبرك أنت، ولكن الفرق أنك ستصدق ولن تخبر أحداً».

نظرت إليه وقلت: «هذا مجرد تخمين».

رد هنري: «هل تعتقد أننا سنكون جالسين هنا الآن لو أنه أخبر شخصاً آخر؟ وهل تظن أنه بعد أن أخبرك، سيكون غيباً لدرجة إخبار شخص ثالث قبل أن يعرف ردة فعلك؟ لماذا تعتقد أنه اتصل بك بعد ظهر اليوم؟ ولماذا تعتقد أنه ظل يضايقنا طوال اليوم؟»

لم أجبه.

تابع هنري: «كان يجس نبضنا، في الليلة الماضية كان ثملاً ومغروراً، واليوم لم يعد واثقاً برأيك، يريد رأياً آخر، وسيتربدك بحثاً عن إشارة».

قلت: «لا أفهم».

أخذ هنري رشفة من قهوته: «ما الذي لا تفهمه؟».

«لماذا أنت مستعجل جداً لقتله إذا كنت تعتقد أنه لن يخبر أحداً سواي؟»

هز هنري كتفيه وقال: «لم يخبر أحداً بعد، لكن هذا لا يعني أنه لن يفعل قريباً».

«ربما يمكنني ثنيه عن ذلك».

أجاب هنري بنبرة هادئة: «بصراحة، لا أستطيع المخاطرة بذلك».

اعترضت: «في رأيي، أعتقد أنك تأخذ مخاطرة أكبر بكثير». نظر إليّ هنري بعينين مجهدتين وقال: «سامحني لكوني صريحًا. إذا كنت تعتقد أن لديك أي تأثير على باني فأنت مخطئ للأسف، ليس مولعًا بك، ولأكون واضحًا لم يكن كذلك قط، إذا حاولت التوسط فستكون النتائج كارثية». قلت: «أنا الشخص الذي لجأ إليه».

رد هنري: «لأسباب واضحة، ولا شيء منها عاطفي». هز كتفيه وتابع: «لو كنت متأكدًا من أنه لم يخبر أحدًا، لكننا انتظرنا إلى الأبد، لكنك كنت جرس الإنذار يا ريتشارد. الآن بعد أن أخبرك ولم يحدث شيء، سيعتقد أن الأمر لم يكن سيئًا، وسيتجرأ على إخبار شخص آخر. لقد بدأ الأمر بالتدهور، وأشعر أننا سنشهد تطورات سريعة».

تصببت راحتي عرقًا، بدت الغرفة ضيقة وخائقة على الرغم من النافذة المفتوحة، استطعت سماع صوت تنفس الجميع، كانت الأنفاس الهادئة والموزونة تخرج وتدخل بانتظام مربع، أربع مجموعات من ثماني رئات تستهلك كمية الأكسجين الضئيلة في الغرفة.

أخذ هنري يحرك أصابعه بتوتر، يطويها ويفردها حتى أصدرت صوت طقطقة.

قال لي: «يمكنك المغادرة الآن إذا أردت».

قلت بحدة: «أتريد مني أن أرحل؟»

رد هنري: «يمكنك البقاء أو الرحيل، الأمر متروك لك، لكن لا يوجد سبب لبقائك. أردت أن أعطيك فكرة تقريبية، ولكن كلما عرفت تفاصيل أقل، كان ذلك أفضل».

ثم تشاءب وقال: «كان هناك بعض الأمور التي كان عليك معرفتها، لكنني أشعر أنني سببت لك ضرراً بإشراكك إلى هذه الدرجة».

وقفت ونظرت حول الطاولة وقلت: «حسنًا ... حسنًا ... حسنًا».

رفع فرانسيس حاجبه في وجهي.

قال هنري: «تمنّ لنا التوفيق».

ربّْتُ على كتفه بارتباك وقلت: «حظاً سعيداً».

رأيت تشارلز يبتسم لي خارج مجال رؤية هنري، حرك شفثيه

بكلمات صامتة: سأُتصل بك غداً، حسنًا؟

فجأة، غمرتني مشاعر مختلطة. خفت أن أفعل أو أقول شيئاً

طفولياً قد أندم عليه، ارتديت معطفي، وشربت بقية قهوتي في

رشفة طويلة، وغادرت بلا أي وداع.

في طريقي إلى المنزل عبر الغابة المظلمة، كنت أسير ورأسي

مطأطأً ويداي في جيبي. وفجأة، اصطدمت بكاميللا، كانت ثملة

بشدة، ولكنها في حالة من البهجة الواضحة.

قالت بابتسامة وهي تتأبط ذراعي وتقودني عائدة إلى حيث

أتيت: «مرحباً! هل تصدق؟ لقد كنتُ في موعد غرامي».

«سمعت بذلك».

ضحكت ضحكة حلوة خافتة أسعدتني.

تابعت حديثها: «أليس هذا مضحكاً؟ أشعر أنني جاسوسة، عاد باني للتو إلى منزله، لكن المشكلة هي أنني أظن أن كلوك قد أعجب بي إلى حدٍّ ما».

كان الظلام شديداً فلم أستطع رؤية ملامح وجهها بوضوح، لكن إحساس ذراعها وهي متكئة على كتفي وأنفاسها الدافئة الحلوة العبقة برائحة مشروب الجن التي تلامس وجهي، كان مريحاً جداً.

سألتها: «هل تصرف كلوك معك بلباقة؟».

أجابت: «نعم، كان لطيفاً جداً. دفع حساب العشاء واشترى لي مشروباً أحمر يشبه مذاقه المثلجات».

خرجنا من ظلال الغابة إلى شوارع نورث هامبدن المهجورة المنارة بضوء أزرق. كل شيء كان ساكناً وغريباً في ضوء القمر، هبّ نسيم خفيف وحرك أجراس الرياح المعلقة على شرفة أحد البيوت، ما جعلها ترن برفق. توقفت عن المشي، لكنها شدتني من ذراعي.

قالت: «ألن تدخل؟»

«لا».

«ولم لا؟»

كان شعرها مجعداً، وفمها الجميل ملطخاً ببقايا ذلك المشروب الأحمر، أدركت من مجرد النظر إليها أنها لا تعرف شيئاً عما يدور في منزل هنري.

ستذهب معهم غداً بلا شك، وربما يحاول أحدهم إقناعها بعدم الذهاب، لكنها في النهاية ستذهب.

سعلت وقلت: «استمعي إليّ».

«ماذا؟».

«تعالى معي إلى منزلي».

نظرت إليّ بحاجبين معقودين: «الآن؟»

«نعم».

«لماذا؟».

رنت أجراس الريح مرة أخرى بصوت لطيف وهادئ.

«لأنني أريدك أن تأتي معي».

نظرت إليّ بعينين مشوبتين بالسكر، ثم وقفت على حافة قدمها المغطاة بجوارب سوداء كالغزال، ولوت كاحلها في حركة عفوية، أمسكت بيدي بقوة، كانت الغيوم تتحرك سريعاً فوق القمر.

قلت: «ها».

وقفت على أطراف أصابعها وطبعت قبلة باردة وناعمة على خدي، كان طعمها لذيذاً مثل الثلجات، خفق قلبي بشدة داخل صدري، لكنها فجأة تراجع وت قالت: «يجب أن أذهب».

قلت: «لا، أرجوك لا تذهبي».

ردت بحزم: «عليّ الذهاب، سوف يتساءلون أين أنا».

منحتني قبلة سريعة أخرى، ثم استدارت ومضت في الشارع. راقبتها حتى اختفت عند الزاوية، ثم وضعت يديّ في جيبتي وعدت إلى المنزل.

استيقظت في اليوم التالي فزعاً، شعرت بدفء أشعة الشمس يتسلل من النافذة، وسمعت صوت موسيقى ينبعث من جهاز ستيريو في الممر، كان الوقت متأخراً في الصباح... أو ظهراً... أو ربما حتى بعد الظهر، نظرت إلى الساعة بجوار السرير، فأصابني الذعر بعنف أكبر مرة أخرى، كانت الساعة الثالثة والرّبع عصراً! قفزت من السرير بسرعة وبدأت بارتداء ملابس على عجل من دون أن أكرّث بالحلاقة أو تمشيط شعري، ارتديت سترتي في الممر، وعندها رأيت جودي بوفي تتجه نحوي بخطى سريعة، كانت بكامل أناقتها، وكانت تميل رأسها جانباً تعبت بقرطها الذي تحاول تثبيته في أذنها.

قالت عندما رأيتني: «هل أنت قادم؟».

سألتها بحيرة ويدي لا تزال تمسك بمقبض باب غرفتي: «إلى أين؟».

ردت بنبرة متهمكة: «ماذا دهالك؟ هل تعيش على المريخ أم ماذا؟».

حدقت إليها، فقالت بنفاد صبر: «الحفل! حفل استقبال الربيع خلف منزل جينينجز، لقد بدأ منذ ساعة».

كانت حافة أنفها المدببة محمرة ومتورمة، وعندما مدت يدها لتمسح أنفها لاحظت طلاء أظافرهما الأحمر. قلت: «دعيني أخمن ما الذي كنت تفعلينه».

ضحكت وقالت: «ما زال لديّ الكثير. عاد جاك تيتلبوم من نيويورك نهاية الأسبوع الماضي بحمولة من المخدرات، ولورا

ستورا تمتلك مخزوناً من الإكستاسي⁽¹⁾. وحتى ذلك الرجل المقرف في قبو دربينستيل... هل تعرفه؟ الذي يدرس الكيمياء... طهى مؤخراً كمية كبيرة من الميثامفيتامين. هل تحاول أن تقنعني أنك لا تعلم عن كل هذا؟

أجبتها بلا مبالاة: «لا».

ردت بنبرة حماسية: «حفل استقبال الربيع مناسبة كبيرة، كان الجميع يستعد له منذ أشهر، لكن من المؤسف أنهم لم يقيموه أمس فقد كان الطقس رائعاً. هل تناولت الغداء؟»

أدركت أنها تقصد إن كنت قد خرجت من المنزل اليوم. قلت: «لا».

تابعت: «حسناً، الطقس رائع لكنه بارد قليلاً، خرجت من المنزل فلسعني البرد، يا له من أمر سيئ، على أي حال، هل ستأتي؟»

نظرت إليها ببلاهة، كنت قد غادرت غرفتي دون أدنى فكرة عن المكان الذي كنت أتوجه إليه، قلت أخيراً: «أحتاج إلى تناول شيء ما أولاً».

أجابت: «فكرة جيدة. في العام الماضي ذهبت إلى الحفل من دون أن أكل شيئاً، دخنت الماريجوانا وشربت نحو ثلاثين كأساً من المارتيني. كنت على ما يرام، لكن بعد ذلك ذهبت إلى مهرجان المرح، هل تتذكر؟ بالطبع لا، لم تكن هنا بعد، على أي حال كان

(1) إكستاسي: أحد أنواع المنشطات، مشتق من الأمفيتامين، له تأثير نفسي قوي. اسم «إكستاسي» هو الاسم الشائع لهذا النوع من المنشطات التي تسمى أيضاً «حبوب النشوة» أو «حبوب السعادة».

ذلك خطأ كبيراً، شريت طوال اليوم، وأُصبت بحروق شمسية، وكنت برفقة جاك تيتلبوم وأولئك الشبان.

لم أكن سأركب القطار السريع، ثم فكرت... حسناً... عجلة فيريس⁽¹⁾، يمكنني ركوب عجلة فيريس، لا مشكلة لدي في ذلك». استمعتُ باهتمام إلى بقية قصتها التي انتهت كما توقعت بإصابتها بتقيؤ انفجاري خلف كشك لبيع الهوتدوغ.

تابعت قائلة: «لذا هذا العام قررت أنني لن أسكر، سأكتفي بالكوكائين وأمتع عن المشروبات، بالمناسبة عليك أن تذهب إلى صديقك... ما كان اسمه؟ أجل، باني... أحضره معك، إنه في المكتبة».

قلت، وكلي آذان مصغية الآن: «ماذا؟»

«أجل، أخرجته من بين الكتب واجعله يدخل بعضاً من الماريجوانا».

«إنه في المكتبة؟»

ردت مؤكدة: «نعم، رأيته من خلال نافذة غرفة القراءة قبل قليل، أليس لديه سيارة؟»
«لا».

قالت: «حسناً، كنت أفكر أنه ربما يمكنه إيصالنا إلى الحفل، المسافة إلى منزل جينينجز طويلة جداً. أو ربما المشكلة عندي وحدي، أشعر أنني فقدت لياقتي، يجب أن أعود إلى تمارين جين

(1) لعبة ترفيهية كبيرة تتكون من عجلة عمودية دوارة مع مقصورات متعددة لحمل الركاب مثبتة على حافتها.

فوندا⁽¹⁾ مرة أخرى».

كانت الساعة تشير إلى الثالثة حينها، أغلقت باب غرفتي وسرت نحو المكتبة، وأنا أعبت بالمفتاح في جيبى بعصبية. كان الجو غريباً وهادئاً، والضباب يلف الحرم الجامعي المهجور، فقد كان الجميع في الحفل على ما يبدو. كانت الحديقة الخضراء وزهور التوليب الزاهية تبدو ساكنة تحت السماء الملبدة بالغيوم. سمعت في مكان ما صرير مصراع نافذة، فوق رأسي كانت هناك طائفة ورقية عالقة بين المخالب الشريرة لأغصان شجرة دردار، أخذت تتأرجح بقوة بفعل الرياح ثم همدت، في تلك اللحظة، فكرت: «هذه هي كانساس. كانساس قبل أن يضربها الإعصار».

كانت المكتبة هادئة كالقبر، يغمرها ضوء فلورسنت بارد يزيد من برودة ورمادية فترة ما بعد الظهر في الخارج. بدت نوافذ غرفة القراءة مضيئة وبيضاء، وكانت رفوف الكتب ومقصورات القراءة فارغة تماماً من أي وجود بشري.

جلست أمينة المكتبة -امرأة بائسة تُدعى بيجي- خلف مكتب الاستقبال تقرأ مجلة «يوم النساء»، ولم تكلف نفسها عناء رفع عينيها عندما دخلت، في الزاوية أصدرت آلة طباعة زيروكس طنيناً خافتاً.

(1) تمارين جين فوندا: فيديو تمارين رياضية من إنتاج 1982 تؤدي فيه الممثلة الأمريكية جين فوندا مجموعة من التمارين الرياضية من تصميم مدربة اللياقة لينني كازدين، كان الفيديو موجهاً في الأساس إلى النساء كوسيلة للتدريب في المنزل.

صعدت إلى الطابق الثاني متوجّهاً إلى غرفة القراءة عبر قسم اللغة الأجنبية، كانت الغرفة فارغة تماماً كما توقعت، ولكن على إحدى الطاولات الأمامية لاحظت مجموعة صغيرة من الكتب والأوراق المجمعة وأكياس رقائق البطاطس تشي بأن المكان قد هُجر مؤخراً، اقتربت لإلقاء نظرة فاحصة، كان هناك علبة شبه فارغة من صودا العنب، وعندما لمستها وجدت ما زالت باردة ورطبة، لوهلة تساءلت إن كان باني قد ذهب إلى الحمام فقط وأنه سيعود في أي لحظة، كنت على وشك المغادرة عندما لاحظت قصاصة ورق فوق أحد مجلدات موسوعة الكتاب العالمي.

كانت الورقة مطوية بعناية، وتحمل كلمة «ماريون» بخط باني الدقيق صعب القراءة على حافتها الخارجية، فتحتها بسرعة وقرأت: «عزيزتي، شعرت بالملل، توجهت إلى الحفلة لأخذ بيرة، أراك لاحقاً».

أعدت طي الورقة وجلست بتثاقل على ذراع كرسي باني، اعتاد باني أن ينطلق في تمشية في الأيام التي يفعل بها ذلك في الساعة الواحدة بعد الظهر، كانت الساعة الآن الثالثة، وهو في حفل جينينجز.

لقد فات الأوان إذن.

هبطت الدرج الخلفي وخرجت من باب القبو، ثم توجهت إلى مبنى القاعة العامة ذي الواجهة الحمراء المسطحة كأنها خلفية مسرح مقابل السماء الفارغة. اتصلت بهنري من الهاتف العمومي لكنه لم يرد، حاولت الاتصال بمنزل التوأمين أيضاً ولكن بلا فائدة.

كانت القاعة العامة مهجورة باستثناء عاملي نظافة مسنين ومتعبين، والسيدة ذات الشعر المستعار الأحمر التي تجلس أمام لوحة مفاتيح تحويل المكالمات، والتي كانت تظل منشغلة في حياكة القماش طوال عطلة نهاية الأسبوع بلا أي اهتمام بالمكالمات الواردة. ومضت الأضواء على لوحة المفاتيح بشكل محموم تمامًا مثل الجهاز اللا سلكي المشؤوم على متن السفينة كاليفورنيا ليلة غرق التيتانيك، لكنها لم تكن تكثرث. مررت بجانبها عبر الممر حتى وصلت إلى ماكينات البيع، حيث حصلت على كوب من القهوة الفورية، ثم عدت إلى الهاتف مرة أخرى. لا رد مجددًا.

أغلقت الهاتف، ومشيت بتثاقل إلى حجرة الجلوس العامة المهجورة ممسكًا بنسخة من مجلة الخريجين وجدتها في مكتب البريد، وجلست بجوار النافذة لأشرب قهوتي.

مرت خمس عشرة دقيقة، ثم عشرون. كانت مجلة الخريجين مملة، فقد بدا أن خريجي هامبدن لا يفعلون شيئاً بعد تخرجهم سوى افتتاح متاجر الخزف الصغيرة في نانتوكيت أو الانضمام إلى الأشارم⁽¹⁾ في نيبال. ألقيت المجلة جانباً وحدقت من النافذة بتعبير فارغ.

كان الضوء في الخارج غريباً بشكل لا يصدق، حيث زاد شيء ما من حدة لون المرج الأخضر لدرجة بدا فيها ساطعاً بشكل غير طبيعي كأنه لا ينتمي إلى هذا العالم.

(1) جمع أشرم وهو صومعة أو دير روحاني في الديانات الهندية.

راقبت علماً أمريكياً وحيداً يرفرف في مواجهة السماء
القرمزية على سارية نحاسية، جلست وتأملته لحظة، وفجأة
شعرت بعدم القدرة على تحمل البقاء مدة أطول، ارتديت معطفي
وبدأت السير نحو الوادي.

كانت الغابة لا تزال ساكنة بشكل مخيف، أكثر وحشة مما
عهدتها من قبل، كانت خضراء وسوداء مظلمة تفوح منها رائحة
الطين والعفن، لم يكن هناك ريح ولا طيور تغني ولا أوراق تتمايل،
كانت أزهار القرانيا البيضاء سريالية وساكنة في مواجهة السماء
المظلمة والهواء الثقيل، هرولت متجاوزاً الأغصان التي تتكسر
تحت قدمي وصوت تنفسي الأجش يملأ أذني، وسرعان ما
وصلت إلى فسحة خالية من الأرض، وقفت هناك ألهث، مرت
لحظة قبل أن أدرك أنني كنت وحدي.

كان الوادي إلى يساري وعراً وغدّاراً، يطل على هوة عميقة
تنتهي بالصخور في الأسفل. اقتربت بحذر من الحافة لإلقاء
نظرة، كان كل شيء ساكناً تماماً، التفتُ نحو الغابة التي جئت
منها للتو، وعندها فوجئت؛ سمعت حفيفاً ناعماً ورأيت رأس
تشارلز يظهر من العدم.

همس مسروراً: «أهلاً!»

«ماذا؟».

قطع حديثي صوت مفاجئ: «اخرس».

وبعد لحظة ظهر هنري كأنه تجسد من العدم متقدماً نحوي
من بين الأدغال، عجزت عن الكلام من شدة انفعالي، رمقني
بنظرة غاضبة، وكان على وشك التحدث عندما صدر صوت

مفاجئ من وسط الأغصان، استدرت بدهشة لأرى كاميلاً مرتدية بنطلوناً كاكياً، تهبط برشاقة من فوق جذع شجرة.

سمعت فرانسيس يقول من مكان قريب جداً: «ماذا يحدث هنا؟ هل يمكنني تدخين سيجارة الآن؟»

لم يرد هنري.

قال بنبرة منزعة جداً: «ما الذي تفعله هنا؟»

«هناك حفلة اليوم».

«ماذا؟».

«حفلة! إنه هناك الآن»، سكّت هنيهة، وقلت: «لن يأتي».

قال فرانسيس بامتعاض وهو يخطو بحذر من فوق الدغل ويمسح يديه: «أرأيت، لقد أخبرتك». لم يكن يرتدي ملابس مناسبة للموقف بل كان يرتدي بدلة أنيقة، تابع فرانسيس: «لا أحد يستمع إليّ، قلت إنه كان علينا المغادرة قبل ساعة، فهو لن يأتي».

سأل هنري: «كيف تعرف أنه في الحفلة؟».

«ترك ملاحظة في المكتبة».

قال تشارلز وهو يمسخ لطحمة موحلة عن خده بظهر يده: «لنعد».

لكن هنري لم يعره انتباهاً، وقال: «اللعة!»، هز رأسه بسرعة مثل كلب ينفذ الماء عن جسمه، وتابع: «كنت آمل أن نتمكن من إنجاز الأمر».

ساد صمت طويل.

قال تشارلز: «أنا جائع».

قالت كاميللا بشرود: «أنا أتضور جوعاً أيضاً». ثم اتسعت عيناها، وصاحت: «أوه، لا».

قال الجميع في وقت واحد: «ماذا؟».

«العشاء... الليلة ليلة الأحد، إنه قادم إلى شقتنا لتناول العشاء الليلة».

ساد صمت كئيب.

قال تشارلز: «لم أفكر في ذلك قط... ولو لمرة واحدة».

قالت كاميللا: «ولا أنا، وليس لدينا شيء نأكله في المنزل».

«علينا التوقف عند متجر البقالة في طريق العودة».

«ماذا سنشتري؟»

«لا أعرف، سنجد شيئاً سريع التحضير».

قال هنري بغضب: «لا أستطيع تصديقكما! لقد ذكرتما بذلك الليلة الماضية».

رد التوأمان بصوت واحد يغلبه اليأس: «لكننا نسينا».

«كيف يمكن أن تنسيا هذا؟»

«حسناً، إذا استيقظت وأنت تنوي قتل أحدهم في الساعة الثانية، من الصعب أن تفكر في ماذا ستطعم الجثة على العشاء!»

قال فرانسيس محاولاً المساعدة: «الهليون في ذروة موسمه».

«نعم لكن هل سنجد أيّاً منه في متجر فوود كينج؟»

تهدهد هنري وبدأ يمشي نحو الغابة.

سأله تشارلز بقلق: «إلى أين تذهب؟»

أجاب هنري: «سأقطف بعض السراخس. ثم يمكننا المغادرة».

قال فرانسيس وهو يشعل سيجارة ويلقي عود الثقاب بعيداً: «دعك من ذلك، لن يرانا أحد».

لكن هنري استدار وقال بحزم: «ربما يراني أحدهم، وإن حدث ذلك أريد أن أملك عذراً لوجودي هنا».

ثم قال بغضب لفرانسيس الذي زفر سحابة من الدخان ونظر إليه شزراً: «والتقط عود الثقاب هذا عن الأرض».

كان الجو يزداد ظلمة وبرودة، زرّرت معطفي وجلست على صخرة رطبة مائلة على الوادي، أحرق إلى غدير المياه الموحد المغطى بأوراق الشجر الذي يتدفق في الأسفل، وأستمع بلا تركيز إلى التوأمين وهما يتجادلان بخصوص ما سيحضران للعشاء، انحنى فرانسيس على شجرة وهو يدخن، وبعد مدة أطفأ السيجارة بنعل حذائه وجاء ليجلس بجانبني.

مرت دقائق في صمت، كانت السماء ملبدة بالغيوم لدرجة انها بدت أرجوانية، هب النسيم عبر أشجار البتولا على الضفة المقابلة، شعرت بارتعاشة خفيفة، واصل التوأمين جدالهما الرتيب. كلما كانا في حالة مزاجية كهذه منزعجين ومستاءين بدوا كهيكل وجيكل، فجأة برز هنري من بين الشجيرات الكثيفة وهو يمسح بنطاله بيديه المتسختين.

قال بهدوء: «أحدهم قادم».

توقف التوأمين عن الحديث ورمشا بعينيهما نحو هنري.

قال تشارلز: «ماذا؟»

«من ناحية الطريق الخلفي، استمعوا».

التزمنا الهدوء فيما نتبادل النظرات. هب نسيم بارد عبر الغابة وتطايرت مجموعة من بتلات زهور القرانيا البيضاء إلى فسحة أرض الوادي الخالية.

قال فرانسيس: «لا أسمع أي شيء».

وضع هنري إصبعًا على شفثيه، وقف خمستنا متأهبين نترقب للحظة أطول، تنفست بعمق وكنت على وشك التكلم عندما سمعت شيئاً فجأة؛ خطوات تقترب وتكسر أغصان، تبادلنا النظرات بقلق. عض هنري على شفثه وطاف بعينيه بسرعة في الأرجاء. كان الوادي مكشوفاً ولا مكان للاختباء، ولا يمكننا عبور فسحة الأرض إلى الغابة من دون إحداث ضجة، كان هنري على وشك أن يتحدث عندما سمعنا صوتاً قريباً جداً لشخص يمر عبر الشجيرات، خطا هنري خارج فسحة الأرض بين شجرتين كأنه يتسلل عبر باب في أحد الشوارع.

تبادلنا النظرات نحن الأربعة الباقين في العراء، ثم نظرنا إلى هنري الذي كان يبعد عنا ثلاثين قدماً مختلفياً عند حافة الغابة المظلمة، لَوَّحَ لنا بنفاد صبر، سمعت فجأة صوت الخطوات تسير على الحصى، ومن دون أن أدرك تماماً ما أفعله، استدرت بحركات متشنجة متظاهراً بفحص جذع شجرة قريبة.

دنت الخطوات، شعرت بالوبر الخفيف في مؤخرة عنقي ينتصب. انحنيت لأفحص جذع الشجرة عن كثب؛ كان اللحاء الفضي بارداً تحت يدي، والنمل يخرج من أحد الشقوق ويسير في طابور أسود لامع.

قبل أن أدرك تماماً توقفت الخطوات، كانت قريبة جداً من ظهري.

رفعت رأسي فرأيت تشارلز، كان يحدِّق إلى الأمام بتعبير مروع على وجهه، كنت على وشك أن أسأله عمَّ يحدث، لكنني

فجأة شعرت بصدمة من الارتباك وعدم التصديق تغمرني، عندما سمعت صوت باني خلفي مباشرة.

قال بحماسة: «يا لها من مفاجأة! ما هذا؟ اجتماع نادي العناية بالطبيعة؟».

استدرت ببطء، كان باني يقف خلفي بجسده الذي يبلغ طوله ستة أقدام وثلاث بوصات، يرتدي معطفًا مطريًا ضخمًا أصفر اللون يصل إلى كاحليه تقريبًا.

مكتبة

ران صمت رهيب.

قالت كاميليا بخفوت: «مرحبًا، بان».

«مرحبًا بكم».

كان يمسك زجاجة من البيرة ماركة رولينج روك، من المضحك أنني أتذكر ذلك التفصيل. رفعها إلى شفثيه وأخذ رشفة طويلة منها مصحوبة بصوت قرقرة.

قال: «يا إلهي، إنكم تتسللون إلى الغابة كثيرًا هذه الأيام» ثم أضاف وهو يلكنني في أضلاعي: «كما تعرف، كنت أحاول الوصول إليك»، شعرت بأن حضوره المفاجئ والصاخب يتجاوز قدرتي على التحمل، كنت أحرق إلى وجهه عاجزًا عن الكلام، فيما يشرب من زجاجته مرة أخرى، ثم يخفضها ويمسح فمه بظهر يده، كان يقف قريبًا جدًا مني لدرجة أنني شعرت بحرارة أنفاسه المتسارعة ورائحة البيرة المنبعثة منها.

أزاح خصلات شعره عن عينيه وقال: «أهه». تجشأ قبل أن يتابع: «إذن ما القصة يا قتلة الغزلان؟ هل قررتم جميعكم فجأة دراسة النباتات؟»

صدر صوت حفيف وسعال خافت من جهة الغابة.

قال صوت بارد: «حسنًا، ليس بالضبط».

استدار باني فزعًا، وكذلك استدرتُ أنا، فرأينا هنري يخرج من الظل، تقدم نحو باني متأملًا إياه بنظرة مستمتعة، كان يحمل مجرفة حديقة ويداه يغطيهما الطين.

قال هنري: «مرحبًا، يا لها من مفاجأة».

رمقه باني بنظرة طويلة جامدة: «يا إلهي، ماذا تفعل هنا، هل تدفن الموتى؟».

ابتسم هنري، وقال: «في الواقع، من حسن الحظ أنك مررت هنا».

«أهذا اجتماع من نوع ما؟»

قال هنري موافقًا بعد هنيهة صمت: «أجل أفترض أنه ربما يمكن أن نسميه كذلك».

مكتبة

قال باني بسخرية: «ربما».

عض هنري على شفته السفلية، وقال بجدية: «نعم، ربما نسميه كذلك، على الرغم من أنه ليس المصطلح الذي سأختاره». خيم السكون على كل شيء من مكان بعيد في الغابة، وصل إلى مسامعي صوت نقار خشب، كان صوته يشبه ضحكة باهتة خالية من المعنى.

قال باني: «أخبرني فقط، ما الذي تفعلونه هنا بحق الجحيم؟»، بدا لي أنني لاحظت لأول مرة نبذة ريبة في صوته.

كانت الغابة صامتة تمامًا، لا صوت على الإطلاق.

ابتسم هنري، وقال: «أبحث عن سراخس نابثة حديثًا».

ثم تقدم خطوة نحو باني.

t.me/soramnqraa

التاريخ السري

The Secret History

رواية

دونا تارت
Donna Tartt

ترجمة:
محمد نجيب

2025

مكتبة
t.me/soramnqraa

kalemat

الكتاب الثاني

باخوس [هو] سيد الأوهام، الذي يستطيع أن يجعل كرمة تنمو
من لوح سفينة، وفي العموم يمكّن أتباعه من رؤية العالم على
غير حقيقته.
إي. آر. دودس⁽¹⁾، الإغريق واللا عقلاني.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) كان إريك روبرتسون دودز عالمًا أيرلنديًا كلاسيكيًا، وعمل أستاذًا للغة اليونانية القديمة في جامعة أكسفورد من 1936 إلى 1960.

الفصل السادس

لأوضح موقفى هنا، لا أرى نفسى شخصاً شريراً (رغم أن مجرد قول هذا يجعلنى أبدو أشبه بقاتل!). كلما قرأت عن جرائم القتل فى الأخبار، أدهش من ذلك اليقين العنيد الذى يجعل المجرمين فى مختلف الولايات على اختلاف أشكالهم من أولئك المجرمين الذين يخنقون ضحاياهم إلى أطباء الأطفال الذين يقتلونهم بالحقن؛ يصرون على إنكار الشر الكامن فى أنفسهم، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك فيؤكدون بشكل زائف امتلاكهم أخلاقاً قديمة مدعين أنهم فى جوهرهم أشخاص طيبون.

خذ على سبيل المثال هذه القضية التى تابعتها فى الصحف باهتمام، قاتل متسلسل يواجه مصيره الحتمى بالإعدام على الكرسي الكهربائى بعد أن قتل نصف دزينة من الممرضات فى تكساس بفأسه الملطخة بالدماء، وقبل تنفيذ الحكم قال بكل ثقة: «فى الأساس أنا شخص صالح جداً»

ومع ذلك، على الرغم من أننى لا أعتبر نفسى شخصاً صالحاً جداً، فإننى لا أستطيع أيضاً تصديق أننى شخص سيئ جداً، ربما يكون من المستحيل على المرء أن يرى نفسه بهذه الطريقة، وصديقنا من تكساس خير مثال على ذلك. ما فعلناه كان فظيلاً لكننى لا أعتقد أن أياً منا كان سيئاً فى جوهره، ربما كان ذلك ضعفاً من جانبي، وخطرة من جانب هنري، وانغماس عميق فى الأدب اليونانى... أياً كان ما ترغب فى تسميته.

لا أعرف، ربما كان يجب أن أكون أكثر وعياً بما كنت أسمح
لنفسي بفعله، ومع ذلك بدت جريمة القتل الأولى -قتل المزارع-
بسيطة جداً، مثل حجر سقط في قاع البحيرة من دون أن يحدث
أي تموج يُذكر. كانت الجريمة الثانية بسيطة أيضاً، على الأقل
في البداية، لكنني لم أدرك تماماً كم ستكون مختلفة. ظننا أن
ما فعلناه كان أشبه بحجر يسقط في البحيرة سقوطاً بسيطاً ثم
ينحدر نحو القاع ويختفي في المياه المظلمة من دون أن يترك
أثراً، ولكنه كان قبلة انفجرت بعنف في الأعماق وتسببت بفوضى
عارمة في سطح البحيرة الهادئ، وتدايعات انفجارها لم تنتهِ
حتى الآن.

في نهاية القرن السادس عشر أجرى الفيزيائي الإيطالي
جاليليو جاليلي تجارب حول طبيعة الأجسام المتساقطة، إذ يُشاع
أنه أسقط الأجسام من برج بيزا لقياس معدل تسارعها في أثناء
سقوطها.

كانت نتائجه تشير إلى أن الأجسام تكتسب سرعة خلال
سقوطها، وتتناسب هذه السرعة طردياً مع المسافة التي يسقطها
الجسم، وسرعة الجسم الساقط تساوي تسارع الجاذبية مضروباً
في زمن السقوط بالثواني. بناءً على ذلك كان جسد باني يتحرك
بسرعة أكبر من اثنين وثلاثين قدماً في الثانية حين اصطدم
بالصخور القابعة في الأسفل، إنها سرعة هائلة يصعب تخيلها!
ومن المستحيل إبطاء شريط الفيلم لدراسة كل إطار على حدة،
لكن ما رأيته في ذلك الوقت كان حادثاً سريعاً ومربكاً؛ حصى
تتطاير، وذراعين تلوحان في الهواء مثل أذرع طاحونة، ويداً تحاول

عبثاً التشبث بغصن، وسرباً من الغربان يطير مذعوراً من بين الشجيرات ناعماً في السماء الداكنة، ثم ينتقل المشهد إلى هنري وهو يتراجع بعيداً عن حافة المنحدر، ثم تهتز الصورة وتسود الشاشة، وتظهر شارة النهاية⁽¹⁾.

عندما أستلقي على سريري في ظلمة الليل، أشاهد مكرهاً هذا الفيلم الوثائقي القصير الذي يدور في مخيلتي، يختفي عندما أفتح عيني لكنه يُستأنف بلا هوادة ما إن أغمضهما، أعجب كم يبدو المشهد غريباً عني كأني أشاهد حدثاً لم أشارك فيه، كم هو غريب في تفاصيله وخالٍ من أي مشاعر أو عاطفة، مع أنه في ذلك يصور التجربة التي مررت بها تماماً كما شعرت في وقت الحادثة، ولكني مع مرور الوقت والمشاهدات المتكررة لهذه الذكرى شعرت بخطورتها وتهديدها أكثر مما شعرت في البداية.

لقد شاهدت كل ذلك يحدث بهدوء تام بلا خوف، بلا شفقة، بلا أي شيء سوى فضول ذاهل، حتى بات الحدث محضوراً في أعصابي البصرية بشكل لا يمحي، لكنه غاب بغرابة عن قلبي. لقد استغرق الأمر مني ساعات لأستوعب حقيقة ما اقترفناه، وأياماً أو ربما أشهر قبل أن أبدأ فهم مدى فظاعته. أظن أننا فكرنا في الأمر كثيراً وتحدثنا عنه كثيراً حتى لم يعد مجرد خيال، بل أصبح كياناً مرعباً قائماً بذاته.

(1) باللاتينية في الأصل.

لم يخطر ببالي قط أن ما حدث كان أمراً حقيقياً وليس لعبة. حتى يوم الجريمة نفسه كان غارقاً في جو من اللا واقعية كأننا لم نكن نخطط لموت أحد أصدقائنا بل لنزهة خيالية لم نعتقد -على الأقل أنا- أننا سنقوم بها حقاً.

«ما لا يمكن تصوره لا يمكن تحقيقه»، كان هذا قولاً مأثوراً يكرره جولييان في صف اليونانية القديمة. وعلى الرغم من أنني أعتقد أنه كان يقوله ليحفزنا على أن يكون تفكيرنا أكثر انضباطاً، فإن له أثراً مشوهاً في هذه المسألة تحديداً. كانت فكرة قتل باني مروعة ومستحيلة، ومع ذلك واصلنا التفكير فيها بشكل مستمر، وأقنعنا أنفسنا بعدم وجود بديل، وصغنا خطأً بدت غير واقعية إلى حد ما وسخيفة، لكنها في الواقع نجحت بشكل مذهل عند تطبيقها، لا أدري... قبل شهر أو شهرين، كانت فكرة ارتكاب جريمة قتل تجعلني أرعب، لكن في ظهيرة ذلك الأحد وأنا أشاهد جريمة القتل تحدث أمامي، بدا الأمر كأنه أسهل شيء في العالم، كم كانت نهايته سريعة، وكيف انتهى كل شيء بسرعة.

أجد صعوبة في كتابة هذا الجزء تحديداً، ربما لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بليالٍ طويلة تشبه هذه الليلة التي كانت فيها أعصابي محطمة لدرجة أن معدتي ألمتني، كانت الساعة في تلك الليالي تتحرك ببطء شديد من الرابعة إلى الخامسة صباحاً، كما أنني أشعر بالإحباط لأنني أدرك أن محاولات التحليل تبدو عديمة الجدوى إلى حد كبير، لا أعرف لماذا فعلنا ذلك، ولا أستطيع أن أقول بثقة إننا -في ظروف صعبة مماثلة- لن نكرر

فعلتُنا. وإذا كنت أشعر بالندم بطريقة ما، فإن ندمي لا يشكل فارقًا كبيرًا.

أشعر بالخجل أيضًا من تقديم مثل هذا التفسير السطحي والمخيب للآمال لما هو في الواقع الجزء المحوري من قصتي، لقد لاحظت أن حتى أكثر القتلة وقاحة يتهربون من الحديث عن جرائمهم، منذ بضعة أشهر اشترت من متجر كتب في أحد المطارات السيرة الذاتية لقاتل سيئ السمعة، وشعرت بخيبة أمل كبيرة عندما وجدتها خالية من التفاصيل المروعة، في اللحظات الأكثر إثارة (ليلة ممطرة، وشارع مهجور، وأصابع تلتف حول عنق الضحية الرابعة الجميلة) يتحول الحديث فجأة بعد إظهار قليل من الخجل إلى أمور لا علاقة لها بالجريمة إطلاقًا. (هل كان القارئ يعلم أن اختبار الذكاء الذي أجري على القاتل المتسلسل في السجن أظهر أنه يملك معدل ذكاء يقارب درجة ذكاء جوناثان سولك⁽¹⁾) وخصص الجزء الأكبر من الكتاب لأحداث مملة عن الحياة في السجن كالطعام الرديء والمشاجرات في ساحة التمرين والهوايات التي يمارسها السجناء، شعرت أنني أهدرت الدولارات الخمسة التي دفعتها ثمنًا للكتاب.

لكن بطريقة ما أفهم شعور زميلي، ليس لأن كل شيء «أصبح مظلماً» وغرق في النسيان، لا، فالأمر ليس كذلك، ولكن الحدث نفسه كان مغلفًا بغشاوة من التخدير الأولي الذي طمسه في وقت حدوثه. أعتقد أن هذا التأثير هو نفسه الذي يسمح للألم المدعورة

(1) جوناثان إدوارد سولك: طبيب أمريكي وعالم وباحث طور التجربة الناجحة الأولى للقاح شلل الأطفال.

بالسباحة في نهر جليدي أو بالاندفاع إلى منزل محترقة لإنقاذ طفلها، وهو ذات التأثير الذي يسمح لشخص مفجوع بتشجيع جنازة فقيد من دون أن يذرف دمعة واحدة. إن بعض الأحداث مروعة لدرجة يصعب استيعابها في لحظتها، وبعضها أشد ترويعاً ورعباً بحيث لا يمكن استيعابها على الإطلاق، فقط بعد مرور بعض الوقت عندما نكون بمفردنا نتذكر ما حدث يبرز الإدراك؛ عندما يبرد الرماد، عندما يغادر المشيعون، وعندما ينظر المرء حوله ليجد نفسه -ويا للدهشة- في عالم مختلف تماماً.

عندما عدنا إلى السيارة لم تكن الثلوج قد بدأت بعد بالتساقط، لكن الغابة تحت السماء المتلبدة بالغيوم بدت كأنها تتكمش بصمت مترقب، كما لو أن بإمكانها الشعور بثقل الثلج الذي سيهطل عليها في الليل.

قال فرانسيس وهو ينظر إلى الطريق: «يا إلهي، انظروا إلى هذا الوحل»، قفزنا بالسيارة بقوة فوق حفرة أخرى في الطريق، تطاير الطين البني على النوافذ محدثاً ضجيجاً يشبه قرع الطبول، انتقل هنري إلى السرعة الأولى، صادفنا حفرة أخرى أذعرتني. وبينما كنا نحاول الخروج منها، كانت الإطارات تتحب، وترش بقعاً طينية جديدة على النوافذ، ارتدت مقاعدنا إلى الخلف عندما سقطنا في الحفرة مرة أخرى بعنف. شتم هنري وضبط السيارة على وضعية الرجوع إلى الخلف. فتح فرانسيس نافذته، وأخرج رأسه ليلقي نظرة، ثم قال: «يا إلهي. أوقف السيارة. لن نستطيع الخروج من هنا».

«نحن لسنا عالقين».

«بلى، نحن عالقين، أنت تجعل الأمر أسوأ. هنري، أوقف...».

قال هنري بصوت حازم: «اصمت».

تأوهت الإطارات الخلفية مجدداً، والتفت التوأمان الجالسان إلى جانبي لينظرا من النافذة الخلفية إلى الوحل المتطاير، فجأة انتقل هنري إلى السرعة الأولى وانطلق إلى الأمام، وبقفزة مفاجئة جعلت قلبي يطير من السعادة خرجنا أخيراً من الحفرة. تراجع فرانسيس في مقعده مسترخياً. كان فرانسيس سائقاً حذراً، وكان ركوب السيارة مع هنري يجعله متوتراً، حتى في أفضل الظروف. عند وصولنا إلى البلدة اتجهنا نحو شقة فرانسيس، كان علينا أن نفترق؛ أنا أعود إلى الحرم الجامعي، والتوأمان إلى شقتهم، فيما يتولى هنري وفرانسيس أمر السيارة. أوقف هنري المحرك، وغمرنا صمت غريب مريب، نظر إليّ هنري في مرآة الرؤية الخلفية، وقال: «نحتاج إلى الحديث قليلاً».

«ما الأمر؟».

«متى غادرت غرفتك؟»

«نحو الثالثة والرّبع».

«هل رأكَ أحد؟».

«لا أعتقد ذلك».

كانت السيارة تبرّد بعد الرحلة الطويلة، بدأت بإصدار أصوات خافتة وهادئة. ظل هنري صامتاً لحظة، وكان على وشك التحدث عندما أشار فرانسيس فجأة خارج النافذة، وقال: «انظروا، هل هذا ثلج؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

انحنى التوأمان ليريا من النافذة، بينما لم يُعر هنري الأمر أي اهتمام، قال أخيرًا: «كنا نحن الأربعة في عرض سينمائي صباحي في دار سينما أورفيوم بالبلدة، وشاهدنا عرضًا متتاليًا لفيلمين من الساعة الواحدة حتى الرابعة وخمس عشرة دقيقة. ثم أخذنا جولة قصيرة بالسيارة وعدنا» -نظر إلى ساعته- «في الساعة الخامسة والربع». استدار إليّ وقال: «هذا بخصوصنا، أما بالنسبة إليك لست متأكدًا مما يجب فعله بشأنك».

قلت متسائلًا: «لماذا لا أقول إنني كنت معكم؟».

«لأنك لم تكن».

«من سيكتشف ذلك؟».

«فتاة التذاكر في دار سينما أورفيوم. ترجلنا من السيارة واشترينا تذاكر لعرض ما بعد الظهر، ودفعنا ثمنها بورقة نقدية بقيمة مئة دولار، ستتذكرنا بالتأكيد، جلسنا في الشرفة وتسللنا عبر مخرج الطوارئ بعد نحو خمس عشرة دقيقة من بدء الفيلم».

«لماذا لا يمكنني القول إنني قابلتكم هناك؟»

«لأنك لا تملك سيارة، ولا يمكنك القول إنك استقلت سيارة أجرة لأن هذا يمكن التحقق منه بسهولة. يمكنك أن تقول إنك كنت تتجول في الأنحاء عندما قابلتنا في باحة السينما؟»

«أجل».

«إذن لا يوجد أمامك سوى أن تدعي أنك عدت مباشرة إلى المنزل، القصة ليست مثالية، ولكن ليس لديك أي خيار آخر. وإذا لزم الأمر في حال أن أحدهم قد رآك يمكننا أن نقول إننا

اتصلنا بك في الساعة الخامسة والتقيتنا بعد العرض في موقف السيارات، ثم عدت معنا إلى منزل فرانسيس، وبعدها مشيت إلى منزلك ثانية». «حسنًا».

«عندما تصل إلى المنزل، تحقق في الطابق السفلي لترى إن كان هناك أي رسائل هاتفية بين الثالثة والنصف والخامسة، إذا كان هناك شيء سنحتاج إلى تبرير لماذا لم ترد عليها». قال تشارلز: «انظروا يا رفاق، الثلج يهطل حقًا». نظرت من النافذة ورأيت ندف الثلج تتساقط ببطء فوق قمم أشجار الصنوبر.

قال هنري: «شيء آخر... لا نريد أن نبدو كأننا ننتظر أخبارًا هامة، عودوا إلى منازلكم، اقرؤوا كتابًا أو أي شيء آخر، ولا تحاولوا الاتصال ببعضكم الليلة إلا للضرورة القصوى». رد فرانسيس، وهو ينظر خارج النافذة: «لم أرَ الثلج يهطل في هذا الوقت المتأخر من العام من قبل. أمس كانت درجة الحرارة تقترب من سبعين فهرنهايت».

سأل تشارلز: «هل توقعوا ذلك في النشرة الجوية؟».

رد فرانسيس: «ليس حسب ما سمعت».

«يا إلهي، انظروا إلى هذا... كأننا في عيد الفصح».

قال هنري بغضب: «لا أفهم سبب حماسك الشديد، سوف يقتل الثلج كل الزهور». كان يتمتع بمعرفة عملية تشبه معرفة المزارع بكيفية تأثير الظروف الجوية في النمو والإنبات وأوقات الإزهار وما إلى ذلك.

مشيت إلى المنزل مسرعًا بسبب البرد، وكان سكون نوفمبر يخيم بتناقض مخيف فوق المناظر الطبيعية لشهر أبريل، الآن كانت الثلوج تهطل بكثافة كأنها بتلات زهور عملاقة بيضاء تتراقص عبر الغابة الربيعية، ثم تجمعت هذه البتلات لتشكل باقات أكبر تغطي الظلام ببياضها الثلجي، كان المشهد كأنه من عالم مقلوب رأسًا على عقب، شيء أشبه بما يوجد في كتب القصص الخيالية، مررت على صف من أشجار التفاح المكتملة النمو التي كانت تلمع في الشفق مثل شارع مليء بالمظلات الشاحبة. كانت رقائق الثلج الكبيرة تحلق من خلالها، لم أتوقف لأتأمل، بل هرولت مسرعًا إلى الأمام. ذلك الشتاء في هامبدن تركني في رهاب دائم من الثلج.

لم أجد أي رسائل هاتفية متروكة لي في الطابق السفلي. صعدت إلى غرفتي وبدلت ملابسني، ولكنني ترددت في اتخاذ قرار بشأن ما سأفعله بالملابس التي خلعتها. فكرت في غسلها، ثم تساءلت إن كان ذلك سيبدو مريبًا، وأخيرًا حشرتها في قاع حقيبة الغسيل، جلست على سريرني، ونظرت إلى الساعة.

كان وقت العشاء قد حان، ولم أكن قد تناولت أي طعام طوال اليوم، لكنني لم أكن أشعر بالجوع، سرت نحو النافذة، وراقبت ندف الثلج وهي تتراقص في أقواس الضوء فوق ملاعب التنس، ثم عدت إلى السرير مجددًا.

مرت الدقائق بطيئة، كانت حالة الخدر التي ساعدتني على اجتياز الأحداث الماضية بدأت تتلاشى. ومع كل لحظة تمر،

أصبح قضاء الليلة بمفردي أكثر صعوبة، حاولت تشغيل الراديو ثم أطفأته، حاولت القراءة ولكنني لم أستطع التركيز، جريت كتاباً آخر لكن بعد مرور عشر دقائق فقط، عدت إلى الكتاب الأول ثم تركته جانباً، وأخيراً على الرغم من كل ما كان يمليه عليّ عقلي، نزلت إلى الطابق السفلي، واتجهت إلى الهاتف العمومي واتصلت بفرانسييس.

أجابني فوراً بعد الرنة الأولى.

«مرحباً».

قال بعد أن أخبرته أنني من يتصل: «ما الخطب؟» أجبت: «لا شيء».

«هل أنت متأكد؟» سمعت صوت هنري في الخلفية يتذمر.

ثم قال فرانسييس شيئاً غير واضح وهو يبعد السماعه عن فمه، سألته: «ماذا تفعلون؟»

«لا شيء يذكر، نتناول مشروباً»، ثم توجه هنري بكلامه إلى فرانسييس، فطلب فرانسييس مني الانتظار لحظة.

ساد صمت قصير، تخلله حديث مبهم بينهما، ثم جاء صوت هنري الحاد عبر الهاتف: «ما الأمر؟ أين أنت؟».

«أنا في البيت».

«ما المشكلة؟»

«كنت أتساءل فقط إن كان بإمكانني أن آتي لتناول مشروب».

«ليست فكرة جيدة، كنت على وشك المغادرة عندما اتصلت».

«إلى أين ستذهب؟»

«بصراحة، كنت سأستحم وأخلد إلى النوم».

ساد صمت للحظة، ثم قال هنري: «هل ما زلت هنا؟».

قلت: «هنري، سأجن. لا أعرف ماذا أفعل».

قال هنري بلطف: «حسنًا، افعل ما تشاء، ما دمت بقيت قريبًا من المنزل».

«لا أرى ما الفرق الذي سيحدثه إذا...».

قاطعه هنري فجأة: «عندما تشعر بالقلق، هل جربت التفكير بلغة مختلفة؟».

«ماذا تعني؟»

«ذلك يبطئ عقلك، ويمنع أفكارك من الانفلات ويساعدك على السيطرة على نفسك في أي موقف، أو ربما عليك أن تجرب ما يفعله البوذيون».

«ماذا تقصد؟»

«في ممارسة الزن، هناك تمرين يسمى زازن، أعتقد أنه مشابه لممارسة تيرافادا⁽¹⁾ للفياسانا⁽²⁾، حيث يجلس الشخص أمام جدار فارغ، ويبقى بلا حراك مهما كانت مشاعره قوية أو عنيفة، التحدي يكمن في الاستمرار بالجلوس».

سادت لحظة صمت شعرت خلالها بعدم قدرتي على التعبير عن رأيي في نصيحته الحمقاء.

(1) التيرافادا (تعني طريق الأقدمين): أحد المذاهب الرئيسيين للبودية. ينتشر بكثرة في سريلانكا وتايلاند وميانمار ولاوس وكمبوديا. فيما تمارسها أقليات في الهند وبنغلاديش والصين ونيبال وفيتنام. كما يمارس بودية التيرافادا جماعات الشتات من هذه البلدان بالإضافة إلى معتقيها من جميع أنحاء العالم.

(2) فيياسانا: مصطلح في التقاليد البوذية باللغة السنسكريتية يشير إلى النظرة على طبيعة الحقيقة، يعرف الممارس الدائم لفيياسانا باسم «فياسي»، وتعتبر فيياسانا إحدى أقدم تقنيات العالم في التأمل، التي يعود أصلها إلى غوتاما بوذا.

ثم تابع هنري قبل أن أتمكن من الرد: «اسمع، أنا متعب جداً. سنلتقي في المحاضرة غداً، حسناً؟»
قلت: «هنري...»، لكنه أنهى المكالمة.

صعدت إلى الطابق العلوي وأنا في حالة من الضياع. كنت بحاجة ماسة إلى مشروب، ولكن لم يكن لدي شيء، جلست على سريري ونظرت من النافذة، تذكرت أن حبوب النوم قد نفذت، لكنني توجهت إلى مكتبي على أمل أن أجد شيئاً، فلم أجد سوى بعض أقراص فيتامين C التي أحضرتها من المستوصف. كانت حبوباً بيضاء صغيرة، سكبتها على المكتب ورتبتها في نمط معين، ثم تناولت واحدة متأملاً أن يخفف الفعل الآلي للبلع من شعوري بالضيق، لكنني شعرت بخيبة أمل.

جلست ساكناً محاولاً إبعاد الأفكار عن رأسي، شعرت كأني أنتظر شيئاً ما، شيئاً غير محدد يخفف من توتري ويمنحني بعض الراحة، على الرغم من أنني لم أستطع تصور أي حدث -سواء كان من الماضي أم الحاضر أم حتى المستقبل- قد يكون له مثل هذا التأثير.

بدا أن الوقت يمر ببطء شديد، فجأة راودتني فكرة مروعة؛ هل هذه هي حالي من الآن فصاعداً؟ هل سأظل على هذا النحو؟ نظرت إلى الساعة، بالكاد مرت دقيقة واحدة. نهضت من مكاني دون أن أكرث بإغلاق الباب خلفي، وعبرت الردهة إلى غرفة جودي، وبمعجزة ما كانت في غرفتها ثملة ومنهمكة في وضع طلاء الشفاه، قالت من دون أن تبعد عينيها عن المرأة: «مرحباً، هل تريد الذهاب إلى حفلة؟»

لا أذكر تمامًا ما قلته لها، ربما قلت شيئاً عن شعوري بعدم الراحة.

قالت وهي تدير رأسها قليلاً لتفحص جانب وجهها: «هل ترغب في تناول بيغل؟»

قلت: «أفضل تناول حبة منومة، إذا كان لديك».

أدارت إصبع طلاء الشفاه إلى أسفل وأغلقتة، ثم فتحت درجاً في طاولة زينتها، لم تكن في الواقع طاولة زينة بل مكتباً جامعياً عادياً مثل الذي في غرفتي، لكن جودي كغيرها من الجاهلين الذين لم يستطيعوا أن يفهموا الغرض الحقيقي منه حولته بعناية إلى منطقة مخصصة لمستحضرات تجميلها، وأضافت إليه سطحاً زجاجياً و«تنورة مكشكشة» من الساتان حوله، بالإضافة إلى مرآة مضاءة ثلاثية الجوانب.

في أثناء بحثها وسط فوضى علب المساحيق وأقلام التجميل، أخرجت زجاجة دواء، نظرت إليها تحت الضوء، ثم ألقته في سلة المهملات وأخرجت زجاجة أخرى، قالت وهي تمدها لي: «هذه ستفي بالغرض».

فحصت الزجاجة ووجدت فيها قرصين رماديين، كان المصق مكتوب عليه «لعلاج الألم» فقط.

قلت لها بانزعاج: «ما هذا؟ هل هو أناسين⁽¹⁾؟»

أجابت: «جرب واحدة، إنها جيدة. الطقس اليوم عاصف جداً، أليس كذلك؟».

(1) مسكن ألم يحوي مزيجاً من الأسبرين والكافيين يستخدم في علاج الصداع.

قلت: «بلى»، وأنا أبلع حبة الدواء وأعيد الزجاجة إليها.
قالت: «احتفظ بها»، ثم عادت إلى استكمال زينتها. «يا إلهي،
لا شيء يحدث هنا سوى هذا الثلج اللعين، لا أعرف لماذا أتيت
إلى هنا، هل تريد بيرة؟»

كان لديها ثلاثجة صغيرة في غرفتها داخل الخزانة، شققت
طريقي عبر أكوام من الأحزمة والقبعات والقمصان المزركشة
للوصول إليها.

قالت عندما ناولتها زجاجة بيرة: «لا، لا أريد واحدة، تبدو في
حالة سيئة، هل ذهبت إلى الحفلة؟»

أجبت: «لا»، ثم توقفت، وزجاجة البيرة عند شفتي. كان هناك
شيء ما في مذاقها أو رائحتها ذكرني بباني... رائحة البيرة في
أنفاسه، والرغوة التي سكبت على الأرض، وقعقة الزجاجة التي
انزلقت من يده أسفل المنحدر.

قالت جودي: «قرار ذكي منك أنك لم تذهب، كان الجو باردًا
والفرقة الموسيقية مريعة، هل رأيت صديقك؟ ما اسمه...
العقيد».

«ماذا؟».

ضحكت وقالت: «أنت تعرفه، هكذا تسميه لورا ستورا، كان
يعيش في الغرفة المجاورة لها في الماضي، وكانت تشكو دائماً
من تشغيله تسجيلات موسيقى المسيرات العسكرية لجون فيليب
سوزا طيلة الوقت».

فهمت أنها تقصد باني فوضعت الزجاجة جانباً، لكن جودي
لحسن الحظ كانت مشغولة بتحديد حاجبيها، تابعت حديثها

قائلة: «أعتقد أن لورا تعاني اضطراباً في الأكل، ليس فقدان الشهية العادي، ولكن ذلك النوع الذي تسبب في وفاة كارين كاربنتر⁽¹⁾، الذي يجعلك تجبر نفسك على التقيؤ».

ثم تابعت قائلة: «ذهبت معها وتريس إلى الحانة الليلة الماضية، أقسم لك أكلت لورا حتى لم تعد قادرة على التنفس، ثم ذهبت إلى حمام الرجال لتتقيأ، ونظرت أنا وتريس إلى بعضنا بتعجب، ولسان حالنا يقول: هل هذا طبيعي؟ ثم أخبرتني تريس: حسناً، هل تتذكرين عندما دخلت لورا إلى المستشفى بسبب إصابتها بمرض كثرة الوحيدات⁽²⁾؟ القصة في الواقع أنها....».

استمرت جوذي في الحديث فيما كنت أنظر إليها شاردًا في أفكاري المريعة، فجأة أدركت أنها توقفت عن الكلام، كانت تحديق إلى وجهي بترقب، تنتظر ردًا.

فسألتها: «ماذا قلت؟»

«لقد قلت: أليس هذا أكثر شيء متخلف سمعته في حياتك؟».

«همم....».

(1) عازفة جاز ومغنية أمريكية توفيت عام 1983 بمرض فقدان الشهية العصابي. وهو اضطراب في الأكل يتميز بانخفاض الوزن، وتقييد الطعام، واضطراب صورة الجسم، والخوف من زيادة الوزن، والرغبة الطاغية في أن يكون الشخص نحيفًا.

(2) المونو أو مرض كثرة الوحيدات: مرض معدٍ كثيرًا ما يُسببه فيروس إبستين بار، الذي ينتقل عبر اللعاب. وقد تحدث الإصابة به من خلال التقبيل، لا سيما بين المراهقين والشباب لذا يشتهر باسم «داء التقبيل»، لكن من الممكن أيضًا التعرض له من خلال مشاركة الأكواب أو أواني الطعام مع شخص مصاب بالوحيدات. داء الوحيدات ليس مُعديًا مثل بعض أنواع العدوى كالزكام وأعراضه خفيفة لكن قد تصاحبه مضاعفات خطيرة في بعض الأحيان.

تابعت قائلة: «لا بد أن والديها لا يهتمان بها إطلاقاً». ثم أغلقت درج مساحيق التجميل واستدارت لمواجهتي، وقالت: «على أي حال، هل تريد الذهاب إلى الحفلة؟».

«حفلة من؟».

«حفلة جاك تيتلبوم، أيها الفتى الشارد، في قبو منزل دربنستيل. من المفترض أن تعزف فرقة سيد، وسيعود موفات للعزف على الطبول، وقد قال أحدهم شيئاً عن راقصة في قفص، تعال معي».

لسبب ما، لم أتمكن من الرد. كان الرفض التلقائي لدعوات جودي عادة متأصلة فيّ، حتى أنني وجدت صعوبة في إجبار نفسي على القبول، لكنني سرعان ما فكرت في غرفتي... في السرير وخزانة الأدراج والمكتب... وفي الكتب المبعثرة.

قالت بدلال: «تعال، أنت لا تخرج معي أبداً».

قلت أخيراً: «حسناً، دعيني أحضر معطفي».

لم أكتشف إلا بعد مدة طويلة أن جودي كانت قد أعطتني شيئاً أقوى مما توقعت: الديميرول⁽¹⁾.

بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى الحفلة، بدأ مفعوله يسري. كل شيء بدا أكثر نعومة وهدوءاً؛ الزوايا والألوان وفوضى ندف الثلوج وضجيج فرقة الموسيقى، كل شيء أصبح لطيفاً ومتسامحاً

(1) الاسم التجاري لدواء البيثيدين وهو مركب أفيوني مخلوق يشبه المورفين إلى حد كبير، ويستخدم البيثيدين مسكناً للألم المتوسط والشديد بأسبابه كافة، بما في ذلك آلام الولادة والأسنان وآلام فقر الدم المنجلي، ويستخدم أيضاً في التخدير للعمليات الجراحية.

بشكل غريب، رأيت جمالاً غريباً في وجوه الناس الذين كانوا في السابق يثيرون اشمئزازي، ابتسمت للجميع ورد الجميع الابتسامة. جودي -باركها الرب- تركتني مع صديقتها جاك تيتلبوم وزميل له يدعى لارس، وذهبت لإحضار مشروب لنا، بدا كل شيء مشبعاً بنور سماوي.

استمعت إلى جاك ولارس يتحدثان عن لعبة الكرة والدبابيس، والدراجات النارية، والكيك بوكسينج النسائية، وشعرت بامتنان عميق لمحاولاتهما إشراكي في المحادثة. قدم لي لارس غليون ماريجوانا، ووجدت هذه البادرة مؤثرة جداً. فجأة أدركت أنني كنت مخطئاً بشأن هؤلاء الأشخاص، كانوا طيبين وعاديين ومحترمين، وكنت محظوظاً بمعرفتهم. وبينما كنت أفكر في كيفية التعبير عن هذه اللحظة من التجلي، عادت جودي بالمشروبات.

شربت كأسي، وتجولت في المكان للحصول على كأس أخرى، وغرقت في حالة سلسلة ومبهجة من الذهول.

أعطاني أحدهم سيجارة، كان جود وفرانك هناك أيضاً، وكان جود يضع تاجاً من الورق المقوى من برجر كنج على رأسه، وكان هذا التاج يمنحه مظهرًا جذاباً. راح رأسه يرتد إلى الخلف وهو يضحك بصوت عالٍ، فيما يلوح بفنجان ضخّم من البيرة، كان يبدو كأنه أحد أبطال الأساطير الإيرلندية مثل كوخولين⁽¹⁾ أو

(1) شخصية موجودة في الأساطير الأيرلندية وبالذات في حكايات أولستر، كان محارباً قوياً وهو ابن أخت كونخوبار ملك أولستر الذي حكم في بداية عهد المسيحيين على الأرض.

في الغرفة الخلفية، كان كلوك رايبورن يلعب البلياردو، من زاويتي شاهدته يشحذ رأس عصا البلياردو من دون أن يبتسم، وينحني على الطاولة. تساقط شعره على وجهه وهو يضرب الكرة، كانت الكرات الملونة تندفع في كل الاتجاهات مثل بقع من الضوء تسبح أمام عيني.

فكرت في الذرات والجزيئات والأشياء متناهية الصغر التي لا يمكن رؤيتها حتى.

ثم أتذكر أنني شعرت بدوار رهيب، شققت طريقي عبر الحشد بحثًا عن بعض الهواء، رأيت الباب مفتوحًا قليلًا مسنودًا بكتلة من الطوب ليسمح للناس بالدخول، وشعرت بتيار بارد يلفح وجهي، ثم... لا أذكر شيئًا، لا بد أنني فقدت الوعي، لأن الشيء التالي الذي أتذكره أنني كنت متكئًا إلى الحائط في مكان مختلف تمامًا، وفتاة غريبة تتحدث معي.

استوعبت تدريجيًا أنها كانت واقفة هناك معي منذ بعض الوقت، رمشت وحاولت بجهد أن أركز نظري عليها، كانت جميلة جدًا بوجه ودود وأنف أفطس وشعر داكن يتناثر حول وجهها المليء بالنمش، كانت عيناها زرقاوين فاتحتين. شعرت بأنني قد رأيتها من قبل، ربما في الطابور أمام الحانة، لكنني لم أولها اهتمامًا كبيرًا حينها، وها هي ذي الآن مثل شبح، تشرب النبيذ الأحمر من كوب بلاستيكي، وتناديني باسمي.

(1) برايان بورو أو بوروما، ملك أعلى لأيرلندا ولد تقريبًا عام 926 وأمضى شبابه يحارب الفايكنج الدانماركيين الذين خربوا مونستر باستمرار.

لم أستطع فهم ما كانت تقوله، لكن نبرة صوتها كانت واضحة رغم الضجيج المحيط بنا: مرحلة وصاخبة وساحرة بطريقة غريبة. انحنيت نحوها، كانت صغيرة الحجم، بالكاد يصل طولها إلى خمسة أقدام، فوضعت يدي على أذني وسألتها: «ماذا قلت؟» ضحكت، وشبّت على أطراف أصابعها، واقتربت من وجهي. وصلني عبير عطرها، وشعرت بلفحة ساخنة من همسها تلامس خدي. أمسكت بمعصمها، وقلت في أذنها، وشففتاي تلامسان شعرها: «الأجواء هنا صاخبة جدًا، لنذهب إلى الخارج». ضحكت مرة أخرى، وقالت: «لكننا دخلنا للتو، لقد قلت إنك تتجمد من البرد».

فكرت: مم... كانت عيناها شاحبتين وضجرتين، وتنتظران إليّ بنوع من التسلية الحميمية في الضوء الخافت. ثم قلت: «أعني مكانًا أكثر هدوءًا».

رفعت كأسها ونظرت إليّ من خلال قاعه، وقالت: «غرفتك أم غرفتي؟»

قلت دون أي تردد: «غرفتك».

كانت فتاة رائعة ورفقتها ممتعة. أعادت إليّ إحساسًا كدت أنساه بضحكتها الخافتة العذبة في الظلام وتساقط شعرها على وجهي وتلك التقطعات القصيرة في تنفسها التي ذكرتني بفتيات الثانوية والشعور الدافئ بجسدها بين ذراعي، متى كانت آخر مرة قبّلت فيها امرأة بهذه الطريقة؟ منذ شهور وشهور.

غريب كيف يمكن أن تكون الحياة بسيطة؛ حفلة وبضع مشروبات ورفقة فتاة غريبة وجميلة. هكذا كان يعيش معظم

زملائي في الكلية، ثم يتحدثون بخجل في أثناء الإفطار عن مغامراتهم الليلية، كأن تلك المتعة البسيطة غير المؤذية أشد الخطايا انحطاطاً وانحرافاً.

الملصقات المعلقة في غرفتها، والزهور المجففة التي وضعتها في قدح بيرة، والتوهج الخافت لجهاز الستريو في الظلام، كلها كانت تفاصيل مألوفة من شبابي في ضواحي كاليفورنيا، لكنها بدت الآن بعيدة وبريئة بشكل لا يُصدق، ذكرى من حفلة في نهاية الثانوية، تلاشت تفاصيلها من ذاكرتي. كان طعم ملمّع شفاهها مثل العلكة، دفنت وجهي في رقبتها الناعمة ذات الرائحة اللاذعة قليلاً، وهزرتها إلى الأمام والخلف، كانت تهمهم وتئن، فيما كنت أشعر أنني أغرق أكثر فأكثر في حياة مظلمة شبه منسية.

استيقظت فزعاً في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، كما أظهر لي الوميض الشيطاني الأحمر من الساعة الرقمية بجانب السرير. راودني كابوس لكنه لم يكن مخيفاً كثيراً، كنت أنا وتشارلز في قطار نحاول الهروب من راكب آخر غامض. كانت عربات القطار مكتظة بأشخاص من الحفلة؛ جودي وجاك تيتلبوم وجود بتاجه المصنوع من الورق المقوى، كنت وتشارلز نهول عبر الممرات. ومع ذلك شعرت طوال الحلم بأن ما يحدث غير مهم وأن هناك قلقاً أشد وأعمق في الواقع لا يمكنني تحديده، وكنت أحاول تذكره بشدة، وعندما تذكرت ضربتني الحقيقة كالصاعقة وأيقظتني.

كان الأمر أشبه بالاستيقاظ من كابوس إلى آخر أشد سوءاً. جلست في السرير، وقلبي ينبض بعنف، وبحث بيأس عن مفتاح الإضاءة على الجدار، ثم أدركت الحقيقة المروعة؛ أنا لست في غرفتي، كل شيء حولي بدا غريباً وغير مألوف، ظلال غامضة تلتف حولي، لم أستطع أن أتعرف على مكان وجودي، للحظات قليلة راودني شعور بأنني ربما أكون ميتاً، ثم شعرت بجسد غض ناعم نائم بجانبني، تراجعت غريزياً ثم دفعته بمرفقي، لم تتحرك. استلقيت قليلاً محاولاً تجميع شتات أفكاري، ثم نهضت، عثرت على ملابسني وارتديتها بأفضل طريقة ممكنة في الظلام ثم غادرت.

عندما خطوت خارج الغرفة، انزلت فوق درجة مغطاة بالجليد وسقطت على وجهي في الثلج الذي كان يصل ارتفاعه إلى قدم. بقيت ساكناً للحظة، ثم رفعت نفسي ببطء متكئاً على ركبتي، نظرت حولي غير مصدق. لم يكن الثلج بحد ذاته غريباً في هذا الوقت من السنة، لكنني لم أتوقع أن يتغير الطقس بهذه القسوة وبشكل مفاجئ. كانت الزهور والعشب مدفونة تحت طبقات كثيفة من الثلج.

كل شيء اختفى تحت غطاء أبيض نظيف يمتد بريقه المتلألئ بقدر ما يمكن للعين أن ترى.

كانت يداي خشنتين، وشعرت بكدمات في مرفقي، وقفت على قدمي بصعوبة، وعندما استدرت لأرى من أين أتيت، أدركت برعب أنني خرجت لتوي من مبنى مهجع «باني». كانت نافذته في الطابق الأرضي تحرق إليّ سوداء وصامتة، فكرت في نظارته

الإضافية الملقاة على المكتب والسرير الفارغ وصور العائلة المبتسمة في الظلام.

عندما عدت إلى غرفتي عبر طريق دائري مشوش، أقيت نفسي على السرير من دون أن أخلع معطفي أو حذائي. كانت الأضواء منارة، وشعرت بأنني مكشوف وهش بشكل غريب، لكنني لم أرغب في إطفائها. كان السرير يتأرجح قليلاً، مثل طوف في بحر هائج، فوضعت قدميَّ على الأرض لتثبيته.

ثم غفوت غفوة عميقة استمرت ساعتين حتى استيقظت على طرقات على الباب. اجتاحني زعر جديد، حاولت الجلوس وسط تشابك معطفي الذي كان ملتقماً حول ركبتي كأنه يهاجمني بقوة. فتح الباب بصوت صرير، لكن لم يتبع ذلك أي صوت آخر. ثم قال صوت حاد: «ماذا دهاك بحق الجحيم؟».

كان فرانسيس يقف عند الباب، ويده المغطاة بقفاز أسود على المقبض، ينظر إليَّ كأني مجنون. توقفت عن مصارعة المعطف وسقطت على الوسادة، شعرت بامتنان كبير لرؤيته، ورغبة غريبة في الضحك، ربما ضحكت بالفعل.

قلت بنبرة حمقاء: «فرانسوا».

أغلق الباب واقترب من السرير، حيث وقف ينظر إليَّ بإمعان. كان هو بالفعل؛ ثلج يتخلل شعره، وثلج على كتفي معطفه الأسود الطويل.

بعد صمت طويل ارتسم خلاله تعبير ساخر على وجهه، قال: «هل أنت بخير؟»

فركت عيني وحاولت مرة أخرى خلع معطفي، قلت: «مرحبًا، أنا آسف، أنا بخير».

ظل ينظر إليّ بلا تعبير ولم يجب، ثم خلع معطفه ووضعه على ظهر الكرسي، وقال: «هل ترغب في بعض الشاي؟»
«لا».

«حسنًا، سأذهب لأحضره، إذا لم يكن لديك مانع».
بحلول الوقت الذي عاد فيه، كنت قد استعدت بعضًا من توازني، وضع الغلاية على الموقد، وسحب بعض أكياس الشاي من درج مكتبي.

قال: «هاك، شاي جيد لك، لم أجد أي حليب في المطبخ».
كان وجوده مصدر راحة لي، جلست وشربت الشاي، وراقبته يخلع حذاءه وجواربه، ثم يضعها جانب المدفأة لتجف، كانت قدماه طويلتين ونحيفتين أطول بكثير من كاحليه العظميين النحيفين، فرد أصابع قدميه ونظر إليّ، وقال: «إنها ليلة فضيعة، هل كنت في الخارج؟»

أخبرته ببعض ما حدث في ليلتي متجاهلاً ذكر الجزء الخاص بالفتاة.

قال وهو يمد يده ليرخي ياقته: «يا إلهي، لقد كنت جالسًا للتو في شقتي، شعرت بقلق وخوف شديدين».

«هل سمعت عنه من أي شخص؟»

«لا، اتصلت أمني نحو الساعة التاسعة، لم أستطع التحدث معها، أخبرتها أنني كنت أكتب ورقة بحثية». لسبب ما وقعت عيناى على يديه، كانت تتلملم بعصبية فوق سطح مكتبي. لاحظ

نظراتي، فأجبر يديه على التوقف ووضعهما مفرودتين فوق سطح المكتب، وقال: «إنه التوتر».

جلسنا مدة من دون أن نتحدث، وضعت فنجان الشاي على حافة النافذة وانحنيت إلى الخلف، شعرت بدمائي تتدفق عبر شراييني بطريقة غريبة مثل صوت صرير إطارات سيارة مسرعة ثم تهدأ. كنت أهدق عبر الغرفة في دهشة -لا أدري منذ متى- عندما أدركت تدريجياً أن فرانسيس كان يهدق إليّ بتعبير ثابت ومركّز. تمتمت بشيء ما، ثم نهضت وتوجهت نحو المكتب لأخذ حبة أسبرين.

الحركة المفاجئة جعلتني أشعر بالدوار. كنت واقفاً أتساءل أين وضعت زجاجة الدواء، عندما أدركت فجأة وجود فرانسيس خلفي مباشرة، فاستدرت.

كان وجهه قريباً جداً من وجهي، بدا مخموراً. لدهشتي، وضع يديه على كتفي وانحنى نحوي ليقبلني على فمي مباشرة. كانت قبلة حقيقية طويلة وبطيئة ومتعمدة، فقدت توازني وأمسكت بذراعه حتى لا أسقط، استنشقت بشدة ثم أنزل يديه على ظهري، وقبل أن أستوعب ما يحدث، وبسبب رد الفعل أكثر من أي شيء آخر، وجدت نفسي أبادله القبلة. تراجع وهو يتنفس بصعوبة، ونظرت حولي في الغرفة بحيرة، فكرت يا إلهي يا لها من ليلة.

قلت: «فرانسيس، تماسك واجمع شتات نفسك».

كان يحاول فك الزر العلوي من يافتي.

قال وهو يضحك: «أنت أحمق. هل تعلم أن قميصك مقلوب؟»

كنت متعباً جداً وثملاً لدرجة أنني بدأت بالضحك.

قلت: «كف عن مضايقتي، لست في مزاج جيد».

ساءت حالتي أكثر، وبدأت أعصابي المرهقة تتوتر. بدت عينا فرانسيس متسعيتين وماكرتين خلف نظارته، سرعان ما خلعها وأسقطها على مكتبي بصوت خافت، ثم علا طرق على الباب بشكل غير متوقع. انتفضنا مذعورين، كانت عيناها جاحظتين، وتبادلنا النظرات في حيرة. طرق الباب مجدداً ولكن بإصرار أكبر هذه المرة. شتم فرانسيس بصوت خافت وعض على شفته. شعرت بالذعر، عدلت قميصي وزررتة بسرعة بأصابعي المخدرة، وحاولت قول شيء ما لكنه أشار لي بالصمت، همست: «لكن ماذا لو كان...؟»، كنت على وشك أن أقول «ماذا لو كان هنري؟»، لكن ما كنت أفكر فيه حقاً هو «ماذا لو كانت الشرطة؟»، بدا أن فرانسيس كان يفكر في الشيء نفسه.

علا صوت الطرق مجدداً أكثر إلحاحاً هذه المرة.

خفق قلبي بعنف من شدة الخوف، فتوجهت إلى سريري وجلست، مرر فرانسيس يده في شعره وقال: «ادخل». كنت منزعجاً جداً لدرجة أنني لم أتبين فوراً أن الزائر كان تشارلز فحسب، كان يقف متكئاً بمرفقه على إطار الباب، ووشاحه الأحمر يلتف حول عنقه في حلقات واسعة متهدلة. عندما دخل إلى غرفتي، أدركت على الفور أنه ثمل.

قال: «مرحباً، ماذا تفعلان هنا بحق الجحيم؟».

رد فرانسيس: «لقد أرعبتنا».

«ليتك أخبرتني أنك قادم، اتصل بي هنري وأخرجني من سريرى».

نظرنا إليه منتظرين أن يوضح لنا سبب قدومه، خلع معطفه واستدار نحوي بعينين دامعتين وحادتين، وقال: «رأيتك في حلمي».

قلت: «ماذا؟».

رمش في وجهي وقال: «تذكرت للتو، راودني حلم الليلة، ورأيتك فيه».

حدقت إليه، وقبل أن أتمكن من إخباره بأني رأيته في حلمي أيضاً، قاطعه فرانسيس بنفاد صبر قائلاً: «هيا يا تشارلز، ما المسألة؟».

مرر تشارلز يده في شعره المتناثر بسبب الرياح وقال: «لا شيء».

أخرج حزمة من الأوراق من جيب معطفه وسألني: «هل أدبت واجب اليونانية لهذا اليوم؟»

زاغت عيناى، فاليونانية كانت آخر شيء أفكر فيه، وقال: «ظن هنري أنك ربما نسيت، اتصل بي وطلب مني إحضار واجبي إليك حتى تتسخره في حال أنك لم تتجزه».

كان تشارلز ثملاً جداً، لم يكن يتلثم لكن رائحة الويسكي كانت تفوح منه، وكان بالكاد قادراً على الوقوف. كان وجهه متورداً ومتمقداً مثل وجه ملاك.

سألته: «هل تحدثت مع هنري؟ هل سمع شيئاً؟»

أجاب: «إنه منزعج جداً من هذا الطقس، لم يطرأ أي جديد حسب علمه، يا إلهي الجو حار هنا»، ثم خلع معطفه. كان فرانسيس يجلس على كرسيه بجوار النافذة -وقد وضع كاحله على ركبته المقابلة وفنجان شايه متوازن على ركبته الأخرى- وينظر إلى تشارلز بتركيز. استدار تشارلز مترنحاً قليلاً، وقال: «إلامَ تحقق؟» رد فرانسيس: «هل معك زجاجة في جيبك؟» «لا».

«هراء يا تشارلز، أسمع صوتها».
قال تشارلز بحق: «وإن كان معي؟».
«أريد مشروباً».

تتهد تشارلز وقال: «أوه، حسناً». أخرج زجاجة مسطحة سعتها نصف لتر من جيب معطفه الداخلي وقال: «هاك، ولا تكن جشعاً». شرب فرانسيس ما تبقى من شايه، وقال: «شكراً» وهو يصب ما تبقى من الزجاجة في فنجانه. نظرت إليه، كان يرتدي بدلة داكنة ويجلس باستقامة شديدة، وساقاه متقاطعتان عند الركبة، كان مثلاً للاحترام باستثناء قدميه الحافيتين.

وفجأة وجدت نفسي أراه كما يراه الآخرون، وكما رأيته عندما التقيته لأول مرة؛ رائعاً ومهذباً وغنياً من دون أي نقيصة، كان وهماً مقنعاً لدرجة أنني على الرغم من معرفتي بحقيقته شعرت بارتياح غريب في حضرته.

شرب الويسكي دفعة واحدة وقال: «علينا أن نوقظك من سُكرك يا تشارلز، لدينا محاضرة بعد بضع ساعات».

تتهد تشارلز وجلس على طرف سريرى، لم يبدُ مرهقًا بسبب الهالات السوداء أو الشحوب، بل بسبب ذلك الحزن العميق المتجلي في وجهه المتورد.

قال: «أعرف، كنت آمل أن يساعدني المشي».

«أنت بحاجة إلى قهوة».

مسح جبينه الرطب بظهر يده وقال: «أحتاج إلى ما هو أكثر من القهوة».

جمعت أوراقى واتجهت نحو مكتبى لأبدأ بنسخ واجب اليونانية.

جلس فرانسيس بجوار تشارلز على السرير.

سأله: «أين كاميللا؟»

«نائمة».

«ماذا فعلتما الليلة الماضية؟ هل ثملتما؟»

أجاب تشارلز باقتضاب: «لا، نظفنا المنزل».

«حقًا؟»

«أنا لا أمزح».

كنت لا أزال خديرًا لدرجة أننى بالكاد كنت أفهم ما أنسخه، مجرد جملة هنا وهناك: «وإذ تعب الجنود من المسيرة، توقفوا لتقديم القرابين في المعبد... (عدت من ذلك البلد وقلت إننى رأيت الفرغونة⁽¹⁾)، لكنها لم تحوّلنى إلى حجر».

(1) الفرغونة في الأساطير الإغريقية، هي إحدى الأخوات الثلاث المُرعبات، شعورهنّ كانت من الأفاعى ونظراتهنّ تمسحُ الرائي حَجَرًا. الفرغونات هي أسطورة إغريقية قديمة عن ثلاث أخوات أسطوريات، هُنّ: سيثو وأيرلن وميدوسا، لهن شعر من ثعابين، ومظهر مرعب، ومن ينظر إليهن يتحول إلى حجر.

قال تشارلز فجأة: «منزلنا مليء بزهور التوليب، إذا كنت تريد بعضاً منها».

«ماذا تقصد؟»

«قبل أن يتراكم الثلج، خرجنا وقطفناها، وضعناها في كل مكان حتى في كؤوس الماء».

فكرت: زهور التوليب! وأنا أنظر إلى حروف النص أمامي. هل كان يسميها الإغريق باسم مختلف؟ أو ربما لم يعرفوها أصلاً؟ الحرف پسي Ψ في الأبجدية اليونانية يشبه زهر التوليب، وفجأة بدأت زهور التوليب السوداء الصغيرة تتفتح بين غابة الحروف المتزاحمة بنمط عشوائي سريع مثل قطرات مطر متساقطة.

صارت رؤيتي ضبابية، أغمضت عيني وجلست بلا حراك شبه نائم، حتى سمعت تشارلز ينادي اسمي.

استدرت في مقعدي لأجدهم يستعدون للمغادرة، كان فرانسيس يجلس على جانب السرير ويربط حذاءه.

سألت: «إلى أين ستذهبان؟»

«إلى المنزل لتغيير ملابسنا، لقد تأخر الوقت».

لم أكن أرغب في أن أكون وحيداً، ولكن شعرت من دون سبب برغبة قوية في أن يغادرا.

كانت الشمس قد أشرق، مد فرانسيس يده وأطفأ المصباح. بدا ضوء الصباح هادئاً وشاحباً، بدت غرفتي هادئة بشكل رهيب. قال: «سنراك بعد قليل»، ثم سمعت خطواتهما تخبو على الدرج.

كان كل شيء باهتًا وصامتًا مع بزوغ الفجر: فتاجين الشاي المتسخة والسرير غير المرتب وندف الثلج التي تتساقط بهدوء أمام النافذة. شعرت بطنين في أذنيّ، وعندما عدت إلى عملي بيدين مرتعشتين ملطختين بالحبر، كان صوت احتكاك قلّمي بالورقة يتردد بشكل عالٍ في السكون. فكرت في غرفة باني المظلمة، وفي الوادي الذي يبعد أميالًا، وفي تلك الطبقات المتراكمة من الصمت فوق الصمت.

بينما كنا نفتح كتب قواعد اللغة اليوناني سأل جوليان: «أين إدموند هذا الصباح؟»

رد هنري: «أظنه في المنزل».

كان هنري قد وصل متأخرًا، ولم يتسنّ لنا التحدث معه، بدا هادئًا ومرتاحًا بشكل يفوق المتوقع، أما الآخرون فكانوا أيضًا على غير العادة هادئين ومهذمين، حتى فرانسيس وتشارلز كانا يرتديان ملابس أنيقة وقد حلّقا ذقنيهما حديثًا كأنهما عادا إلى حالتهم اللامبالية القديمة. جلست كاميلّا بينهما، ومرفقها مستند إلى الطاولة وذقنها مرتكز على يدها في هدوء يشبه زهرة الأوركيد.

قوّس جوليان حاجبه نحو هنري وسأله: «هل هو مريض؟».

رد هنري: «لا أعلم».

«ربما يكون الطقس أبطأ قليلًا، قد يكون من الأفضل أن ننتظر بضع دقائق».

لكن هنري قال وهو يعود إلى كتابه: «لا أعتقد أنها فكرة سيّدة».

بعد انتهاء المحاضرة، ابتعدنا عن القاعة نحو بستان أشجار البتولا، نظر هنري حولنا ليتأكد من عدم وجود أي شخص قريب، فاقتربنا جميعاً لسماع ما سيقول. ولكن في تلك اللحظة، بينما كنا نقف متحلقين وأنفاسنا تخرج في سحب بيضاء سمعت صوتاً ينادي اسمي. رفعت نظري لأرى الدكتور رولاند يتقدم نحوي من بعيد ببطء، ويتمايل عبر الثلج مثل جثة مترنحة، انفصلت عن المجموعة وتوجهت نحوه، كان يلهث بشدة، أخبرني وهو يسعل ويتلعثم عن شيء يريدني أن أراجع في مكتبه، ولم يكن بوسعي إلا أن أتبعه.

عدلت سرعة حركتي لتتوافق مع إيقاع خطواته البطيئة، وعندما دخلنا المبنى، توقف عدة مرات على الدرج ليتفحص بقايا النفايات التي تركها عامل التنظيفات، وركلها بقدمه الضعيفة. أمضيت معه نصف ساعة، وعندما تمكنت أخيراً من الفرار، كنت أحمل بين يدي مجموعة من الأوراق العريضة والرياح تحاول انتزاعها مني، عدت إلى بستان البتولا لكنه كان خالياً.

لا أعرف ما الذي كنت أتوقعه، ولكن كان من الواضح أن العالم لم يخرج عن مساره بين ليلة وضحاها. كان الناس يهرولون ذهاباً وإياباً في طريقهم إلى قاعات المحاضرات، وكل شيء يسير كالمعتاد.

كانت السماء رمادية، والرياح الجليدية تهب بقوة على جبل كاتاراكت، اشتريت ميلك شيك من المقصف وتوجهت نحو المنزل. صادفت جودي بوفي في الممر المؤدي إلى غرفتي، كانت تبدو مرهقة كأنها تعاني خماراً عنيفاً، وكان هناك دوائر سوداء تحت عينيها.

قلت لها وأنا أميل بجسمي لتجاوزها: «أوه، مرحباً. عذراً».

ردت بجفاء: «مرحباً».

استدرت لأغادر...

لكنها قالت فجأة: «إذن، رافقت منى بيل إلى غرفتها الليلة

الماضية؟»

لم أفهم ما تعنيه فوراً.

«ماذا؟».

قالت باستياء: «كيف كان النوم معها؟ هل كانت جيدة؟»

شعرت بالصدمة مما قالت، فهزرت كتفي وتابعت السير في

الممر، لكنها لحقت بي وأمسكت بذراعي بغضب. «لديها عشيق،

هل تعلم ذلك؟ من الأفضل أن تأمل ألا يخبره أحد».

قلت بلا اكتراث: «لا أهتم».

قالت بنبرة متشفية: «في الفصل الدراسي السابق، ضرب

عشيق منى بيل برام غيرنسي لأنه ظن أنه كان يغازلها».

قلت: «هي من كانت تتقرب منى الليلة الماضية».

رمقتني بنظرة مملوءة بالازدراء وقالت: «إنها عاهرة».

قبل أن أستيقظ مباشرة، راودني كابوس مروع.

رأيت نفسي في حمام ضخم قديم الطراز كأنه مقتبس من

أحد أفلام زازا جابور⁽¹⁾، كل شيء فيه كان فاخراً ومزخرفاً؛

المرايا والتركيبات الذهبية والبلاط الوردي الذي يغطي الجدران

(1) زازا جابور ممثلة مجرية راحلة بدأت مسيرتها الفنية في الثلاثينيات. من أشهر

أفلامها مولان روج ولمسة شر.

والأرضية، في إحدى الزوايا وُضع وعاء زجاجي على قاعدة طويلة يحتوي على سمكة ذهبية. ذهبت لألقي نظرة عليها، وصدى خطواتي يتردد فوق البلاط، لكن صوتًا آخر لفت انتباهي، كان صوت طنين منتظم ينبعث من صنبر المغطس.

كان المغطس ورديًا أيضًا، يفيض بالمياه، وفي قاعه كان باني مستلقيًا بلا حراك مرتديًا ملابس كاملة، كانت عيناه مفتوحتين ونظارته معوجة، وبدت حدقتا عينيه مختلفتين؛ إحداهما ضخمة وسوداء، والأخرى صغيرة جدًا، بالكاد بحجم رأس دبوس، كانت المياه صافية وساكنة إلى درجة مخيفة، بينما كان طرف ربطة عنقه يطفو قريبًا من السطح.

كان صوت تقاطر المياه من الصنبر يملأ المكان؛ بلنك... بلنك... بلنك. كنت عاجزًا عن الحركة، وفجأة سمعت خطوات تقترب وأصواتًا غير واضحة، اجتاحني الرعب، كنت أعلم أنني يجب أن أخفي الجثة، لكن لم أكن أعرف كيف أو أين، مددت يدي في الماء البارد كالجليد، وأمسكت به من تحت ذراعيه وحاولت سحبه لكنه كان ثقيلًا، تدلى رأسه إلى الخلف بلا حول، فيما كان الماء يفيض من فمه المفتوح.

في خضم محاولتي ترنحت إلى الخلف وأسقطت حوض السمكة من على قاعدته، تحطم على الأرض وتناثرت شظاياها، وراحت السمكة الذهبية تتخبط بين قدمي وسط شظايا الزجاج المكسور.

ثم طرق أحدهم الباب، ومن رعبي تركت الجثة وقفزت في المغطس نائمًا المياه في كل اتجاه، في تلك اللحظة استيقظت.

كان الظلام يلف المكان في الخارج، شعرت بقلبي يخفق بجنون
وبغير انتظام كأنه طائر ضخم محبوس داخل صدري ويضرب
نفسه حتى الموت، بقيت عدة لحظات مستلقيًا في سريري قبل
أن أتمكن من الجلوس، كان جسمي يرتجف وغارقًا في العرق،
ملأت الظلال الطويلة والضوء الباهت الغرفة، كان كابوسًا مرعبًا.
من نافذتي رأيت الأطفال يلعبون بالثلج في ساحة لعب مركز
الطفولة المبكرة، كانوا يرتدون ملابس سوداء تتناقض مع السماء
التي بدت بلون السلمون المرعب، كان لصيحاتهم وضحكاتهم
القادمة من بعيد صدى جنوني.

دعكت عيني بقوة بظهر يدي، ورأيت بقعًا حليبية، نقاطًا من
الضوء. فكرت في نفسي: يا إلهي.

لامس وجهي العاري بلاط الحمام البارد، بينما كان هدير
تدفق المياه في المرحاض مدويًا لدرجة أنني اعتقدت أنه
سيبتلعني، استرجعت في تلك اللحظة كل الأوقات التي عانيت
فيها من الغثيان، وكل لحظات التقيؤ بعد السكر في حمامات
محطات الوقود والحانات، كان المشهد مألوفًا؛ تلك المقابض
الصغيرة الغريبة الموجودة في قاعدة المرحاض التي لا تلاحظها
إلا في لحظات كهذه، والخزف الرطب، وطنين الأنابيب، وخرير
الماء الممتد فيما يتدفق إلى أسفل.

وبينما كنت أغسل وجهي شعرت بالدموع تنهمر فجأة، لم
أميز في البداية أنني أبكي، اختلطت دموعي بالماء البارد وتلونت
باللون القرمزي وهي تتقاطر من بين أصابعي المضمومة. كان

بكائي آلياً خالياً من المشاعر كأنه امتداد للقيء الجاف الذي انتهى للتو، بدا بلا سبب كأنه لا يمت لي بصلة، رفعت رأسي ونظرت إلى انعكاسي في المرآة بعينين جافتين كأنني أراقب شخصاً آخر، سألت نفسي بصمت: ماذا يعني هذا؟ بدا منظري بائساً، لا أحد غيري في المجموعة كان ينهار، ومع ذلك وجدت نفسي هنا، جسدي كله يرتجف، والكوابيس تطاردني مثل رأي ميلاند⁽¹⁾ في فيلم «عطلة نهاية الأسبوع المفقودة».

لفحني تيار بارد من نافذة الحمام، شعرت بأنني مهزوز، ولكنني كنت منتعشاً بشكل غريب، ملأت المغطس بالماء الساخن، وأضفت إليه بعض أملاح الاستحمام التي كانت جودي قد أهدتني إياها. وعندما خرجت، بعد أن ارتديت ملابسني، شعرت بشيء من الاستقرار يعود إليّ، كأنني استعدت ذاتي مرة أخرى.

فكرت: لا جديد تحت الشمس⁽²⁾، وأنا أسير من الحمام عبر الممر عائداً إلى غرفتي. أي فعل مهما كان، سيأتي وقت محدد، ويتلاشى إلى العدم، ويكون مصيره الفناء.

عندما وصلت إلى منزل التوأمين مساء ذلك اليوم لتناول العشاء برفقة هنري في سيارته، كان الجميع متحلقين حول

(1) راي ميلاند: ممثل ومخرج ويلزي بدأ مسيرته الفنية العام 1929. فاز بالأوسكار والجولدن جلوب عن فيلم «عطلة نهاية الأسبوع المفقودة» وهو فيلم يتتبع الحياة البائسة لمدمن كحول مزمّن خلال نوبة شرب لمدة أربعة أيام.

(2) باللاتينية في الأصل.

الراديو، يصفون إلى توقعات الطقس كأنهم يستمعون إلى نشرة من الجبهة في زمن الحرب. كان صوت المذيع مفعماً بالحياة: «بالنسبة إلى التوقعات بعيدة المدى، نتوقع طقساً بارداً يوم الخميس مع سماء غائمة وفرصة لهطول زخات من المطر، يليها دفء نسبي في...».

أغلق هنري الراديو ونظر إليّ قائلاً: «إذا كنا محظوظين، قد يذوب الثلج مساء الغد، أين كنت بعد ظهر اليوم يا ريتشارد؟» أجبته: «في المنزل».

قال هنري مبتسماً: «أنا سعيد بوجودك هنا، لديّ طلب صغير منك، إذا كنت لا تمانع».

سألته: «ما هو؟»

«أود أن أقلك إلى وسط المدينة بعد العشاء لتشاهد هذين الفيلمين في قاعة سينما أورفيوم، ثم نخبرنا بما يدور فيهما. هل تمانع؟»

«لا مانع».

أضاف بابتسامة مرحة: «أعلم أن هذا ثقيل خصوصاً في إحدى ليالي منتصف الأسبوع، لكنه أفضل من أن نذهب نحن إلى السينما مجدداً، عرض تشارلز أن ينسخ لك واجب اليونانية إذا أردت، سيستخدم الورق الأصفر الخاص بك وقلم الحبر، ولن يعرف جوليان الفرق أبداً».

قلت: «شكراً».

كان تشارلز معروفاً بموهبته الاستثنائية في التزيير، وهي مهارة بدأت معه منذ الصغر، تقول كاميللا إنه كان يُقلد توقعات

دقيقة على بطاقات التقارير المدرسية منذ الصف الرابع، ويزور مذكرات الأعذار⁽¹⁾ منذ الصف السادس. وكنت أطلب منه دائماً أن يوقع باسم الدكتور رولاند على جداول دوامي.

تابع هنري قائلاً: «أنا أكره أن أطلب منك هذا، لأنني أظن أن الفيلمين مرّوعين ورديّين. الأول فيلم من السبعينيات بعنوان «على الطريق»، عن رجل يهجر زوجته لينطلق في رحلة بسيارته عبر البلاد، وفي النهاية ينحرف إلى كندا ويتورط مع مجموعة من الهاريين من الخدمة العسكرية، يعود في النهاية إلى زوجته ويجددان عهدهما في حفل هيبّي. أسوأ شيء كان الموسيقى التصويرية، كل أغاني الجيتار الصوتي تحتوي كلمة «حرية». الفيلم الثاني كان أحدث بعنوان «حقول العار»، يدور حول حرب فيتنام بميزانية ضخمة وكثير من النجوم، المؤثرات الخاصة كانت واقعية بشكل منفر، أقدام تتفجر وغيرها من المشاهد القاسية». عندما نزلت من السيارة، ركنها هنري في الشارع وأطفأ أنوارها. في الطابق العلوي من منزل تشارلز وكاميللا، كان الجميع يجلسون حول طاولة المطبخ منهمكين في دراسة اليونانية وأكمامهم مشمرة.

عندما دخلنا أنا وهنري بدؤوا يتحركون. بينما فتحت أوراقى ودونت ملاحظات هنري عن الفيلمين نهض تشارلز وأعد إبريقاً من القهوة. كلا الفيلمين كان خالياً من الحكمة تقريباً، وكان من الصعب عليّ استيعاب مغزاهما.

(1) تقارير من طبيب تبرر حاجة الطالب إلى الغياب عن المدرسة.

قال فرانسيس: «فيلمان رديئان، أشعر بالحرَج من أن الناس سوف يعتقدون أننا ذهبنا لمشاهدة مثل هذه الأفلام الرديئة». قال تشارلز: «أنا أيضًا لم أفهم الأمر. لماذا قصف الرقيب القرية التي كان يعيش فيها الناس الطيبون؟» وأضافت كاميللا مستغربة: «صحيح لماذا؟ ومن كان ذلك الطفل مع الجرو الذي كان يتجول وسط الفوضى؟ وكيف عرف تشارلي شين؟»

نسخ تشارلز واجب اليونانية من أجلي بإتقان شديد، وكنت أراجعُه قبل المحاضرة في اليوم التالي عندما دخل جوليان، توقف عند الباب ونظر إلى مقعد بانِي الفارغ وضحك. قال: «يا إلهي، ليس مجددًا».

قال فرانسيس: «يبدو أنه كذلك».

«أتمنى ألا تكون محاضراتي قد أصبحت مملة إلى هذا الحد، من فضلك أخبر إدموند أنه إذا قرر الحضور غدًا، سأبذل جهدًا كبيرًا لجعل المحاضرة مثيرة للاهتمام».

في منتصف النهار بات واضحًا أن توقعات الطقس كانت خاطئة، انخفضت درجات الحرارة عشر درجات، وهطل مزيد من الثلوج بعد الظهر. كان من المقرر أن نخرج نحن الخمسة لتناول العشاء في المساء، وعندما وصلنا أنا والتوأمان إلى شقة هنري، وجدناه متجهما.

قال: «خمنوا من اتصل بي للتو».

«من؟»

«ماريون».

جلس تشارلز. «ماذا تريد؟»

«كانت تسأل إن كنت قد رأيت باني».

«بم أجبتها؟»

قال هنري بغضب: «بالطبع قلت إنني لم أراه، كان من المفترض أن يلتقيا ليلة الأحد، ولم تره منذ يوم السبت».

«هل هي قلقة؟».

«ليس كثيرًا».

«إذا ما المشكلة؟»

تنهد هنري وأجاب: «لا شيء... فقط آمل أن يتحسن الطقس غدًا».

لكن لم يحدث ذلك، بزغ فجر الأربعاء مشرقًا وباردًا، وتراكت الثلوج بارتفاع بوصتين إضافيتين في أثناء الليل.

قال جوليان: «بالطبع لا أمانع إذا تغيب إدموند عن إحدى المحاضرات بين الحين والآخر، ولكن ثلاث محاضرات على التوالي! أنتم تعرفون مدى صعوبة تعويض ما يفوته في اليونانية».

قال هنري في شقة التوأمين تلك الليلة فيما كنا ندخن السجائر أمام أطباق لحم الخنزير المقدد والبيض التي لم تُمس: «لا يمكننا الاستمرار على هذا النحو مدة أطول».

«ماذا يمكننا أن نفعل؟»

«لا أعرف، لكن باني مفقود منذ اثنتين وسبعين ساعة، وإذا لم

نبدِ قلقنا قريبًا سيبدو الأمر غريبًا».

قال تشارلز: «لا أحد يشعر بالقلق».

«لا أحد كان يراه كثيرًا مثلنا»، ثم أضاف وهو ينظر إلى الساعة: «أتساءل إن كانت ماريون في المنزل».

«لماذا؟».

«لأنه ربما يجب أن أتصل بها».

قال فرانسيس: «أرجوك، لا تورطها في هذا الأمر».

«ليس لدي أي نية أن أجرّها إلى أي شيء، فقط أريد أن أوضح لها أننا لم نرَ باني منذ ثلاثة أيام».

«وماذا تتوقع منها أن تفعل حيال ذلك؟».

«أمل أن تتصل بالشرطة».

«هل فقدت عقلك؟»

قال هنري بنفاد صبر: «حسنًا، إذا لم تفعل فسنضطر نحن إلى ذلك. كلما طال غيابه ازداد الوضع سوءًا. لا أريد أن تتحول الأمور إلى ضجة كبيرة، فيبدأ الناس بطرح الأسئلة».

«إذن لماذا استدعاء الشرطة؟».

«لأننا إذا ذهبنا إليهم مبكرًا، فلن تحدث أي ضجة على الإطلاق. ربما سيرسلون بضعة رجال شرطة للبحث عنه في الأرجاء معتقدين أنه إنذار كاذب».

قلت: «إذا لم يعثر عليه أحد بعد، فما الذي يجعلك تعتقد أن ضابطَيْن من شرطة مرور هامبدن سيجدان الجثة؟»

«لم يجده أحد لأنه لا أحد يبحث، ترقد جثته على مسافة لا تتجاوز نصف ميل من هنا».

عندما اتصل هنري بماريون استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى استدعاها عامل الهاتف من غرفتها، بدا هنري متوترًا وهو ينتظر

بصبر وعيناه تحومان في الغرفة، وبعد خمس دقائق تقريباً أصدر تهيدة غاضباً ونظر إلى الأعلى.

«يا إلهي، لماذا يستغرقون كل هذا الوقت لاستدعائها؟ هل يمكنك أن تعطيني سيجارة يا فرانسيس؟»

وضع السيجارة في فمه فأشعلها له فرانسيس، وأخيراً جاء صوت ماريون عبر الهاتف.

قال هنري وهو ينفث سحابة من الدخان ويدير ظهره لنا: «مرحباً، ماريون. هل بانى معك؟»، (وقفة قصيرة) مد يده إلى منفضة السجائر «إذن هل تعرفين أين هو؟»، (وقفة أخرى) «بصراحة كنت سأسألك السؤال نفسه، لم يحضر إلى المحاضرات منذ يومين أو ثلاثة».

صمت هنري وهو يستمع باهتمام ووجهه خالٍ من أي تعبير، ثم فجأة اتسعت عيناه، وقال بنبرة حادة: «ماذا؟» جذبت هذه الكلمة انتباهنا جميعاً، كان هنري ينظر إلى الجدار فوقنا وعيناه الزرقاوان بدوتا مدهوشتين، بعد لحظة قال بهدوء: «أفهم»، واستمر الحديث على الطرف الآخر من الخط.

«حسناً، إذا رأيت بانى اطلبني منه يتصل بي، سأعطيك رقمي». عندما أغلق الخط علت وجهه نظرة غريبة، نظر الجميع إليه بترقب.

سألت كاميللا بقلق: «هنري، ما الأمر؟». «ماريون غاضبة لكنها لا تبدو قلقة، تتوقع عودة بانى في أي لحظة»، قال وهو يحدق إلى الأرض: «لكن الأمر الغريب أن صديقتها ريكا ثالهايم رأت بانى واقفاً خارج بنك فيرمونت الأول بعد ظهر اليوم».

كانت صدمتها كبيرة لدرجة أننا لم نستطع الكلام، ضحك فرانسيس ضحكة مُشكَّكة قصيرة، قال تشارلز: «يا إلهي، هذا مستحيل!»

رد هنري بنبرة جافة: «بالتأكيد هو كذلك، لكن لماذا قد تخلق ريكا هذا الكلام؟ لا أستطيع أن أجد سبباً لذلك، أحياناً يرى الناس أشياء لا وجود لها».

ثم أضاف بنبرة غاضبة موجهاً حديثه إلى تشارلز الذي بدا مضطرباً: «بالطبع لم تره، لكنني لا أعلم ما الذي علينا فعله الآن».

«ماذا تقصد؟»

أجاب هنري بجدية: «لا يمكننا إبلاغ الشرطة بأنه مفقود وهناك من يزعم رؤيته قبل ست ساعات».

تساءل تشارلز بقلق: «إذن، ما الذي علينا فعله؟ هل ننتظر؟»

قال هنري وهو يعرض على شفته السفلية: «لا، يجب أن أفكر في شيء آخر».

قال جولييان صباح الخميس: «أين إدموند بحق السماء؟ لا أعرف إلى متى ينوي أن يستمر غيابه، لكن من غير المعقول أن يغيب من دون أن يتواصل معي». لم يجبه أحد منا، فرفع نظره عن كتابه مستغنياً من صمته.

قال ممازحاً: «ما بالكم؟ ما كل هذه الوجوه الكئيبة؟»، ثم واصل بنبرة أكثر جدية: «ربما يشعر بعضكم بالخجل لعدم استعداده جيداً لمحاضرة الأمس».

تبادل تشارلز وكاميلّا النظرات، فقد كان جوليان قد كلفنا
بواجبات كثيرة هذا الأسبوع على غير عادته.

نجحنا في إحضار المهام الكتابية بطريقة ما، ولكننا لم نلتزم
بدروس القراءة، وشهدت محاضرة أمس لحظات صمت محرّجة
لم يستطع حتى هنري أن يكسرها.

نظر جوليان إلى كتابه، ثم قال: «ربما على أحدكم أن يتصل
بإدموند ويطلب منه الانضمام إلينا، لا بأس إن لم يكن مستعداً،
لكن هذه محاضرة مهمة ولا ينبغي أن يفوتها».

همّ هنري بالنهوض، لكن فجأة قالت كاميلّا بشكل غير متوقع:
«لا أظن أنه في المنزل».

سألها جوليان بتعجب: «إذن أين هو؟ خارج البلدة؟».
ردت كاميلّا مترددة: «لست متأكدة».

أخفض جوليان نظارته وتأمل كاميلّا بإمعان من فوق حافتها،
وقال: «ماذا تقصدين؟»

«لم نره منذ بضعة أيام».

اتسعت عينا جوليان بدهشة طفولية مصطنعة، ليست هذه
هي المرة الأولى التي أفكر فيها في مدى تشابهه مع هنري، ذلك
المزيج الغريب من البرود والدفع.

قال جوليان: «هذا غريب حقاً، هل لديكم فكرة أين يمكن أن
يكون؟».

كانت نبرة صوته مشبعة بنغمة خبيثة غامضة؛ ما جعلني أشعر
بالتوتر. حدقت إلى دوائر الضوء المتموجة التي تلقيها المزهرية
البلورية على سطح الطاولة محاولاً تجاهل ما يحدث.

قال هنري: «لا، نحن في حيرة من أمرنا».

«يمكنني توقع ذلك».

التقت عيناه بعيني هنري في نظرة طويلة غريبة. شعرت بذعر مفاجئ يسري في جسدي، وفكرت: إنه يعرف! يعرف أننا نكذب! لكنه لا يعرف ما الذي نكذب بشأنه.

بعد انتهاء الغداء ومحاضرة اللغة الفرنسية، جلست في الطابق العلوي للمكتبة، كتبي متناثرة على الطاولة أمامي، كان اليوم مشرقاً وصافياً بشكل غريب، كأنه حلم. بدا المرج الثلجي ممتداً كأنه مغطى بطبقة ناعمة من السكر، أشبه ما يكون بكعكة عيد ميلاد، حيث كان الناس يبدوون من الأعلى كالدمى، ركض كلب صغير نابحاً خلف كرة، كان هناك دخان حقيقي ينبعث من مداخن بيت الدمية في ساحة اللعب.

فكرت: قبل عام من الآن، ماذا كنت أفعل؟ كنت أقود سيارة أحد الأصدقاء إلى سان فرانسيسكو، أتوقف في المكتبات لشراء دواوين الشعر مشغول الذهن بطلب الالتحاق بجامعة هامبدن. وها أنا ذا الآن، أجلس في غرفة باردة مرتدياً ملابس غريبة، وأتساءل إن كنت سأذهب إلى السجن.

لا جديد تحت الشمس. بينما كانت الهمسات والخطوات الخفيفة تتسلل إلى أذني، ورائحة الورق القديم تعبق في أنفي، علا صوت مبرة قلم رصاص في مكان ما، فأرحت رأسي على كتبي. تذكرت غضب هنري منذ أسابيع عندما أبدى التوأمين اعتراضات أخلاقية على فكرة قتل باني.

قال هنري بانفعال: «لا تكونا سخيّفين».

قال تشارلز الذي كان على وشك البكاء: «لكن كيف يمكن تبرير القتل بدم بارد؟»

أشعل هنري سيجارة، وقال بهدوء: «أفضل أن أراه كإعادة توزيع للمادة».

استيقظت من النوم على صوت هنري وفرانسيس يقفان إلى جانبي، فركت عيني ونظرت إليهما وسألت: «ما الأمر؟».

قال هنري: «لا شيء، هلا أتيت معنا إلى السيارة؟».

تبعتهما مثقلًا بالنعاس إلى الخارج حيث كانت السيارة متوقفة أمام المكتبة، قلت بعد أن ركبنا السيارة: «ماذا حدث؟»

«هل تعرف أين كاميللا؟»

«أليست في المنزل؟»

«لا، جوليان لم يرها أيضًا».

«ماذا تريدان منها؟»

تهدد هنري، كان الجو باردًا داخل السيارة، فخرجت أنفاسه بيضاء اللون، قال: «طراً شيء ما، رأينا أنا وفرانسيس ماريون في مكتب أمن الكلية مع كلوك رايبورن، كانا يتحدثان مع بعض أفراد الأمن».

«متى؟»

«منذ ساعة تقريباً».

«هل تظن أنهما فعلاً أي شيء؟».

قال هنري: «لا ينبغي لنا القفز إلى الاستنتاجات». كان ينظر إلى سطح مبنى المكتبة المغطى بالجليد المتلألئ تحت الشمس.

ما نريده هو أن تزور كامبلا كلوك، وتحاول معرفة ما يحدث.
كنت لأذهب بنفسني ولكنني بالكاد أعرفه».
قال فرانسيس: «وهو يكرهني».
«أعرفه قليلاً».

«ليس جيداً بما فيه الكفاية، هو وتشارلز على وئام إلى حد ما، لكننا لا نستطيع العثور عليه أيضاً».
أخرجت قرص روليدز⁽¹⁾ من لفافة في جيبني وبدأت بمضغه.
قال فرانسيس: «ما هذا الذي تأكله؟».
«روليدز».

قال هنري: «هلا أعطيتني قرصاً؟» ثم استطرد: «أعتقد أننا يجب أن نمر بمنزل التوأمين مرة أخرى».
هذه المرة عندما طرقتا الباب جاءت كامبلا، لم تفتح سوى شق صغير منه ونظرت إلى الخارج بحذر. كان هنري على وشك أن يقول شيئاً لكنها أعطته نظرة تحذيرية حادة، وقالت: «مرحباً، ادخلوا».

تبعتها بصمت عبر الممر المظلم إلى غرفة المعيشة، حيث كان تشارلز يقف متوتراً ومعه كلوك رايبورن. كان كلوك ينظر إلينا بعينين ناعستين مشوشتين، وجهه محمر بتأثير التعرض الطويل للشمس، وكان بحاجة إلى حلاقة ذقنه.
رفع تشارلز حاجبيه نحونا ووشوش: «إنه تحت تأثير الماريجوانا».

(1) أحد الأسماء التجارية لكربونات الكالسيوم وهي مضاد للحموضة ومهدئ لتهيجات الجهاز الهضمي.

قال هنري بعد هنيهة صمت: «كيف حالك؟».

سعل كلوك بصوت أجش بغيض وعميق، وهزّ علبة المالبورو الموضوعية على الطاولة أمامه حتى يُخرج سيجارة، وقال: «لا بأس، وأنت؟»

أجابه هنري: «بخير».

وضع السيجارة في زاوية فمه وأشعلها، وسعل مرة أخرى، قبل أن يسألني: «كيف تسير الأمور معك؟»
«جيدة جداً».

«هل ذهبت إلى تلك الحفلة في دربنستيل يوم الأحد؟»
«نعم».

سألني بنبرة بليدة: «هل رأيت منى هناك؟»

أجبت بفضاضة: «لا»، أدركت فجأة أن الجميع كانوا ينظرون إليّ.

قال تشارلز بعد صمت محرج: «منى؟»

أجاب كلوك: «إنها طالبة في السنة الثانية، تقيم في مهجع بانى».

استغرب هنري: «مهجع بانى؟»

استرخى كلوك في كرسيه، ورمق هنري بعينين محمرتين وجفنين متثاقلين: «نعم، كنا نتحدث عن بانى للتو. هل رأيته في اليومين الماضيين؟»

«لا، هل رأيته أنت؟»

صمت كلوك قليلاً ثم هز رأسه، وقال بصوت أجش وهو يمد يده إلى منفضة السجائر: «لا، لا أعرف أين هو بحق الجحيم،

آخر مرة رأيته فيها كانت ليلة السبت، على الرغم من أنني لم أفكر في ذلك مطلقاً حتى اليوم».

قال هنري: «تحدثت مع ماريون الليلة الماضية».

رد كلوك: «أعلم، إنها قلقة. رأيته هذا الصباح في القاعة العامة وأخبرتني أن باني لم يكن في غرفته منذ خمسة أيام تقريباً، كانت تظن أنه في منزل عائلته، لكنها اتصلت بأخيه باتريك الذي قال إنه ليس في كونيتيكت، وتحدثت أيضاً مع هيو الذي قال إنه ليس في نيويورك».

سأل هنري: «هل تحدثت ماريون مع والديه؟»

«لا، خشيت أن تورطه في مشكلة ما».

ساد الصمت مدة قبل أن يسأل هنري: «أين تظنه يكون؟».

نظر كلوك بعيداً، وهز كتفيه بعدم ارتياح.

أضاف هنري: «إنك تعرفه قبل أن أعرفه بمدة طويلة، أليس لديه أخ في جامعة ييل؟»

«نعم، برادي. يدرس في كلية إدارة الأعمال، لكن باتريك قال إنه تحدث معه قبل مدة قصيرة».

«باتريك يعيش في كونيتيكت مع والدي باني، صحيح؟».

«نعم، يحاول إطلاق مشروع تجاري، متجر للمنتجات الرياضية أو شيء مشابه».

«وهيو هو المحامي؟».

«نعم، إنه الأكبر سنّاً، يعمل في ميلبانك تويد في نيويورك».

«وماذا عن الأخ الآخر؛ المتزوج؟»

«هيو هو المتزوج».

«ألم يكن لديه أخ آخر متزوج أيضاً؟»
«أوه... أجل، تيدي. لا أعتقد أنه عنده».
«لماذا؟»

«يعيش تيدي مع أصهاره. ولا أعتقد أن باني وتيدي على وفاق».
ساد صمت طويل، ثم سأل هنري: «هل يمكنك التفكير في أي مكان قد يكون فيه؟»

انحنى كلوك إلى الأمام تاركاً شعره الطويل يتساقط على وجهه، ثم أزال الرماد عن سيجارته، وارتسم على وجهه تعبير غامض ومضطرب.

بعد لحظة قصيرة نظر إلى الأعلى وقال: «هل لاحظت أن باني كان بحوزته مال كثير في الأسابيع الأخيرة؟»
قال هنري بحدة طفيفة: «ماذا تقصد؟»

«أنت تعرف باني، إنه مفلس طوال الوقت، لكن في الآونة الأخيرة كان لديه كمية كبيرة من المال. قد تكون أرسلته له جدته أو شخص آخر، لكنني متأكد أنه لم يحصل عليه من والديه».
خيم صمت طويل مرة أخرى، عض هنري على شفته.

ثم سأل: «ما الذي تحاول قوله؟»
قال كلوك: «إذن، لاحظت ذلك أنت أيضاً».
رد هنري: «الآن بعدما ذكرت الأمر، نعم».
تململ كلوك باضطراب في كرسيه، وأضاف بتردد: «ما سأقوله أمر سري».

شعرت بانقباض في صدري.

قال هنري: «ما هو؟»

رد كلوك بتردد: «لا أعرف إن كان يجب أن أخبرك بهذا».

قال هنري باقتضاب: «إذا كنت تعتقد أن الأمر مهم، فيجب أن تخبرني بكل تأكيد».

أخذ كلوك نفساً عميقاً من سيجارته، ثم أطفأها بحركة لولبية متعمدة. قال: «ربما تكون سمعت أنني أتاجر بقليل من الكوكائين بين الحين والآخر»، وأضاف بسرعة: «ليس كثيراً، فقط بضع جرامات هنا وهناك، ولأصدقائي المقربين فقط، إنها تجارة صغيرة تدر لي بعض المال».

تبادلنا النظرات جميعاً. لم يكن هذا سرّاً، فقد كنا نعلم جميعاً أن كلوك كان من أكبر موزعي المخدرات في الحرم الجامعي. قال هنري: «إذن؟»

بدت ملامح الدهشة على كلوك، ثم هز كتفيه وقال: «أعرف هذا الرجل الصيني في شارع مُوت⁽¹⁾ في نيويورك. إنه رجل مخيف إلى حدٍّ ما لكنه يعاملني بلطف، وسيعطيني أي كمية من الكوكائين مقابل المال. عادة ما تكون كمية صغيرة، وأحياناً يعطيني قليلاً من الماريجوانا، لكن بيعها مرهق. عرفته منذ سنوات، حتى أننا أنجزنا بعض الأعمال معاً عندما كنت أنا وباني في سانت جيروم».

ثم توقف قليلاً وقال: «على أي حال، كان باني مفلساً دائماً».

«نعم، أعرف».

(1) شارع موت هو طريق ضيق، ولكنه مزدحم ويمتد في اتجاه الشمال والجنوب في مانهاتن. يعد «الشارع الرئيسي» غير الرسمي في الحي الصيني.

«لطالما كان مهتمًا بالريح السريع، لو كان لديه المال ربما كنت سأشركه في بعض الأعمال، لكنه لم يكن يملك المال قط. أضف إلى ذلك لا أعتقد أن باني هو من نوع الأشخاص الذين يشاركون في مثل هذه الصفقات».

أشعل كلوك سيجارة أخرى، ثم أضاف: «ولهذا السبب أشعر بالقلق».

عبس هنري وقال: «أخشى أنني لا أفهم مقصودك».

رد كلوك: «أعتقد أنني ارتكبت خطأ كبيرًا، سمحت له بالمشاركة معي في بيع المخدرات قبل بضعة أسابيع».

كنا قد سمعنا عن هذه الرحلة إلى نيويورك، وكان باني يتفاخر بها باستمرار.

قال هنري: «وماذا بعد؟»

أجاب كلوك: «لا أدري، أشعر بالقلق فقط، هذا كل شيء. إنه يعرف مكان إقامة الرجل الصيني، ولديه مال كثير، لذلك عندما كنت أتحدث مع ماريون، شعرت بشيء غريب...».

تدخل تشارلز قائلاً: «هل تعتقد أنه ذهب إلى هناك وحده؟»

رد كلوك: «لا أعرف، لكنني آمل ألا يكون قد فعل ذلك، فهو لم يقابل الرجل من قبل».

سألت كاميللا: «هل من الممكن أن يفعل باني شيئاً كهذا؟».

أجاب هنري، وهو يخلع نظارته ويمسحها بمنديلته: «بصراحة هذا يبدو من الأمور المتهورة التي قد يقدم عليها باني».

ساد الصمت بعض الوقت، ثم نظر هنري إلى الأعلى، كانت عيناه دون النظارة غريبتين وثابتتين، سأل: «هل تعلم ماريون بهذا؟».

قال كلوك: «لا، وأفضل ألا تخبروها بذلك، حسناً؟»

سأل هنري: «هل من سبب آخر يجعلك تظن أنه ذهب إلى هناك؟»

«لا، ولكني لم أستطع التفكير في أي مكان آخر قد يذهب إليه، هل أخبرتكم ماريون عن رؤية ريكا ثالهايم باني في البنك يوم الأربعاء؟»
«نعم».

قال كلوك: «أمر غريب إلى حد ما، لكنه منطقي إذا فكرت فيه ملياً. ربما ذهب إلى نيويورك ومعه بضع مئات من الدولارات، وتظاهر بأن لديه مزيداً من المال. هؤلاء الرجال قد يقطعونك إرباً ويضعونك في كيس قمامة من أجل عشرين دولاراً فقط. ربما طلبوا منه العودة إلى البنك وإغلاق حسابه، وإحضار كل ما لديه من أموال».

قال هنري: «لكن باني لا يمتلك حساباً مصرفياً».

قال كلوك: «على حد علمك فقط».

اعترف هنري: «أنت على حق».

سأل تشارلز: «هل يمكنك الاتصال بهؤلاء الرجال؟»

«بمن سأتصل؟ اسم الرجل غير مدرج في دليل الهاتف، ولا يوزع بطاقات عمل، كل شيء يحدث بسرية تامة».

سأله هنري: «إذن، كيف تتواصل معه عادة؟»

«يجب أن أتصل برجل ثالث».

قال هنري بهدوء، وهو يعيد المنديل إلى جيبه ويعلق النظارة على أذنيه: «اتصل به إذن».

«لن يخبروني بأي شيء».

قال هنري: «ظننت أنهم أصدقاؤك».

ضحك كلوك بمرارة: «هل تعتقد أن هؤلاء الناس مثل فرق الكشافة؟ هل أنت تمزح؟ إنهم رجال فظون، ولا يهتمون إلا بأعمالهم القذرة».

للحظة، اعتقدت أن فرانسيس سيضحك بصوت عالٍ، لكنه تمكن من تحويل ضحكته إلى سعال مزيف، وغطى وجهه بيده. صفعه هنري على ظهره بقوة من دون أن ينظر إليه.

سألت كاميللا: «إذن، ما الذي تقترح أن نفعله الآن؟»

رد كلوك: «لا أدري. أود أن أتسلل إلى غرفته وأرى إن كان قد أخذ حقيبة معه أو أي شيء آخر».

قال هنري: «أليست مقفلة؟»

قال كلوك: «نعم، حاولت ماريون إقناع الأمن بفتح الباب، لكنهم رفضوا».

عض هنري على شفته السفلية وقال ببطء: «مع ذلك، لن يكون من الصعب عليك الدخول، أليس كذلك؟».

أطفأ كلوك سيجارته وهدق إلى هنري باهتمام، قال: «لا، الأمر ليس صعباً. توجد نافذة في الطابق الأرضي، ونوافذ العاصفة⁽¹⁾ مغلقة، ويمكنني التعامل مع المصاريع الخشبية. تبادلنا النظرات.

قال كلوك: «ربما ينبغي أن أحاول الآن».

(1) نافذة زجاجية سمكة توضع خارج النافذة العادية لتوفير حماية إضافية من الأجواء القاسية.

قال كلوك: «يا رجل، لا يمكننا أن نذهب جميعاً».

رأيت هنري ينظر إلى تشارلز نظرة ذات مغزى، فهم تشارلز الإشارة، وقال فجأة بصوت عالٍ: «سأرافقك أنا»، ثم شرب بقية شرابه.

قالت كاميللا: «كلوك، كيف بحق السماء تورطت في شيء كهذا؟»

ضحك باستخفاف. قال: «هذا أمر بسيط. عليّ أن أتعامل مع هؤلاء الرجال بأسلوبهم، ولا أسمح لهم باستغلالي أو إهانتني». تسلل هنري خلف كرسي كلوك إلى حيث كان يقف تشارلز من دون إثارة أي جلبة، انحنى وهمس بشيء في أذنه، فأوماً تشارلز رأسه بالإيجاب.

قال كلوك: «ليس الأمر أنهم لا يحاولون خداعي، لكنني أفهم طريقة تفكيرهم جيداً. أما باني فلا يملك أي فكرة عما يجري، يظن أن الأمر مجرد لعبة، كأن هناك ورقة نقدية بقيمة مئة دولار ملقاة على الأرض، تنتظر فتى غيباً ليأتي ويلتقطها».

عندما انتهى كلوك من حديثه، كان هنري وتشارلز قد أنهيا حوارهما، واتجه تشارلز نحو خزانة الملابس لي جلب معطفه. بحلول الوقت الذي توقف فيه عن الحديث، كان تشارلز وهنري قد أكملوا ما كانا يناقشانه، وذهب تشارلز إلى خزانة الملابس ليحضر معطفه.

مد كلوك يده ليمسك بنظارته الشمسية، ثم نهض من مكانه. فاحت منه رائحة الأعشاب الجافة الخافتة، ذكرتني تلك الرائحة

برائحة الماريجوانا التي ظلت عالقة في الممرات المتربة داخل منزل دوريسنتل، حيث تتداخل روائح زيت الباتشولي وسجائر القرنفل⁽¹⁾ والبخور.

لفّ تشارلز وشاحه حول عنقه، وكان وجهه عفوياً ومضطرباً في آن واحد؛ كانت عيناه زائفتين وفمه مطبقاً، لكن أنفه كان يتسع قليلاً مع كل نفس.

قالت كاميلا: «كن حذراً». كانت تتحدث إلى تشارلز، لكن كلوك استدار نحوها بابتسامة وعلق قائلاً: «الأمر بسيط جداً». رافقتهم كاميلا إلى الباب، وما إن أغلقته خلفهما، حتى استدارت. وضع هنري إصبعه على شفتيه، ووقفنا صامتين نستمع إلى خطواتهما وهما ينزلان الدرج، حتى سمعنا صوت سيارة كلوك تبتعد.

ذهب هنري إلى النافذة وأزاح جانباً ستارة الدانتيل المهرثة قليلاً، وقال: «لقد رحلا».

قالت كاميلا: «هنري، هل أنت متأكد من أن هذه الفكرة جيدة؟»

هز كتفيه، وهو لا يزال ينظر إلى الشارع وقال: «لا أعرف، حدث كل شيء بسرعة وكان عليّ أن أنتهز الفرصة».

«أتمنى لو ذهبت معهما، لماذا لم تذهب؟»

رد: «كنت سأفعل، لكن الأفضل أن أبقى هنا».

(1) أو كريتيك: سجائر غير مفلترة من أصل إندونيسي، مصنوعة من مزيج من التبغ والقرنفل والنكهات الأخرى. كلمة «كريتيك» نفسها مصطلح يصف صوت طقطة القرنفل المحترق.

«ماذا قلت لتشارلز؟».

أجاب هنري: «حتى شخص مثل كلوك سيكتشف بسهولة أن باني لم يغادر المدينة. كل أغراضه ما زالت موجودة في غرفته؛ نقوده ونظاراته الاحتياطية ومعطفه الشتوي. ربما يرغب كلوك في المغادرة بهدوء، لكنني طلبت من تشارلز أن يصر على استدعاء ماريون لتلقي نظرة. إذا رأيت شيئاً... حسناً، ماريون لا تعرف شيئاً عن مشكلات كلوك، ولن تكثرث بها. ما لم أكن مخطئاً فإنها ستتصل بالشرطة أو على الأقل بوالدي باني، ولا أظن أن كلوك سيكون قادراً على إيقافها».

قال فرانسيس: «لن يجدوه اليوم، سيحل الظلام في غضون بضع ساعات».

«نعم، لكن إذا كنا محظوظين، فسيبدأ البحث عنه مع بزوغ فجر الغد».

«هل تعتقد أنهم سيتحدثون معنا عن اختفائه؟».

«لا أعلم. لا أدري كيف يتعاملون مع أمور كهذه».

ارتطمت أشعة الشمس الرقيقة بالموشورات الزجاجية المعلقة على الشمعدان فوق رف الموقد، فانعكست شظايا الضوء اللامعة مرتعشة متراقصة بسبب جدران الروشن⁽¹⁾ المائلة، في لحظة غمرتني صور كل أفلام الجرائم التي شاهدها؛ الغرف الخالية من النوافذ، والأضواء الساطعة والممرات الضيقة، لكنها لم تعد تبدو غريبة أو خيالية، بل اكتسبت واقعية عميقة، كأنها جزء من

(1) نافذة ناتئة من سقف مائل.

ذكرى منسية أو تجربة عشتها من قبل.

قلت في نفسي: لا تفكر... لا تفكر، فيما كنت أهدق إلى بقعة باردة من ضوء الشمس تتسلل إلى السجادة عند قدمي. حاولت كاميلا إشعال سيجارة، لكنها لم تفلح في إشعال أعواد الثقاب الواحد تلو الآخر. أخذ هنري علبة الثقاب منها، وأضرم عوداً بنفسه، فاشتعل بلهب قوي. انحنيت كاميلا نحوه، تغطي اللهب بإحدى يديها بينما تستند بالأخرى إلى معصمه. كان الوقت يزحف ببطء شديد، أحضرت كاميلا زجاجة الويسكي من المطبخ، وجلسنا حول الطاولة نلعب الأوكري⁽¹⁾؛ فرانسيس وهنري ضد كاميلا وأنا.

لعبت كاميلا ببراعة، كانت هذه لعبتها المفضلة، لكنني لم أكن شريكاً جيداً، فخسرنا الجولة تلو الأخرى. ساد الصمت في الشقة باستثناء خشخشة أوراق اللعب وقرقعة الكؤوس. كان هنري قد شمر عن أكمامه حتى مرفقيه، وكانت الشمس تلقي بوهج معدني على نظارة فرانسيس. حاولت التركيز على اللعبة، لكن نظري كان ينجذب مراراً نحو الساعة الموضوععة على رف المدفأة في الغرفة المجاورة من خلال الباب المفتوح. كانت تلك الساعة واحدة من تلك التحف الفيكتورية الغريبة التي عشقها التوأمان؛ فيل صيني أبيض يحمل ساعة في هودجه، وسائق أسود صغير يعتمر عمامة ذهبية ويرتدي بنطالاً قصيراً. كانت الساعة تدق عند بداية كل ساعة. كان هناك شيء ما في نظرة

(1) أوكري: لعبة ورق يشارك فيها أربعة لاعبين على فريقين.

السائق يبعث على الريبة، وفي كل مرة كنت أنظر إليه، كان يبتسم لي تلك الابتسامة الخبيثة المرححة، فقدت تركيزي على النتيجة وعدد الجولات، كانت الغرفة تزداد قتامة.

وضع هنري أوراقه قائلاً: «مارش».

قال فرانسيس: «لقد سئمت من هذا. أين هو؟»

دقت الساعة بصوت عالٍ دقات مدوية وغير منتظمة، جلسنا في الضوء الخافت وتركنا لعبة الورق. أخذت كاميلا تفاحة من إناء على الطاولة وجلست بجوار النافذة، تتناول التفاحة بصمت، وتحقق بكآبة إلى الشارع. أضاء الشفق الغامر صورتها الظلية، واتقد بوهج ذهبي محمر في شعرها، وانتشر في طيات التنورة الصوفية التي كانت مسحوبة بعفوية حتى ركبتها.

قال فرانسيس بقلق: «ربما حدث أمر ما غير متوقع».

ردت كاميلا: «لا تكن سخيًّا، ماذا يمكن أن يحدث؟»

«أشياء كثيرة، ربما فقد تشارلز صوابه أو أي شيء آخر».

نظر هنري إليه بنظرة متشككة وقال: «اهدا، من أين تأتي بهذه

الأفكار الدوستوفسكية؟»

كان فرانسيس على وشك الرد عندما قفزت كاميلا فجأة وقالت:

«إنه قادم».

نهض هنري على الفور: «أين؟ هل هو وحده؟»

«نعم»، قالت كاميلا وهي تتوجه نحو الباب. ركضت لاستقباله عند

بسطة الدرج، وبعد لحظات قليلة عادا معًا. كان تشارلز يبدو شارد

الذهن وشعره أشعث. خلع معطفه وألقاه على الكرسي، ثم استلقى

منهكًا على الأريكة. قال: «هل يمكن لأحدكم أن يحضر لي مشروبًا؟»

«هل كل شيء على ما يرام؟»

«نعم».

«ماذا حدث؟»

«أين ذلك المشروب؟»

صب هنري في عجالة بعض الويسكي في كأس متسخ، ودفعه نحوه .

«هل سارت الأمور كما يجب؟ هل جاءت الشرطة؟».

شرب تشارلز رشفة طويلة، جفل ثم أومأ برأسه .

«أين كلوك؟ في البيت؟»

«أعتقد ذلك».

«أخبرنا بكل شيء من البداية».

شرب تشارلز الكأس كلها، ووضعها جانبًا . كان وجهه رطبًا ومحمّرًا ومحمومًا . قال: «لقد كنت محقًا بخصوص تلك الغرفة».

«ماذا تقصد؟»

«كانت الغرفة غريبة، موحشة . السرير غير مرتب، والغبار في كل مكان . قطعة قديمة من حلوى توينكي ملقاة على المكتب، والنمل يزحف فوقها . اعترى كلوك الخوف، وأراد المغادرة، لكنني اتصلت بماريون قبل أن يتمكن من ذلك . حضرت في غضون بضع دقائق . نظرت في أرجاء الغرفة، وبدا عليها الذهول، لكنها لم تتكلم كثيرًا، كان كلوك مضطربًا جدًا».

«هل أخبرها عن تجارة المخدرات؟»

«لا . لقد ألمح إلى ذلك أكثر من مرة، لكنها لم تول الأمر

اهتمامًا كبيرًا».

رفع رأسه وقال فجأة: «كما تعلم يا هنري، أعتقد أننا ارتكبنا خطأً فادحاً بعدم ذهابنا بمفردنا إلى هناك أولاً، كان علينا أن نرى الغرفة بأنفسنا قبل أن يراها أحد».

«لماذا تقول هذا؟»

«انظروا ماذا وجدت».

أخرج قصاصة من الورق من جيبه، أخذها هنري منه بسرعة ونظر فيها.

«كيف حصلت عليها؟»

هز كتفيه، وقال: «ضربة حظ، وجدتھا ملقاة على مكتبه فوضعتها في جيبی خلسة عند أول فرصة».

نظرت من فوق كتف هنري، كانت قصاصة من جريدة «هامبدن إكزامينر»، كان فيها تقرير مكتوب بين مقال نصائح منزلية وإعلان عن مجارف الحقائق، كان ثمة عنوان رئيس صغير ولكنه واضح...

وفاة غامضة في مقاطعة باتنكيل

(تواصل شرطة مقاطعة باتنكيل بالتعاون مع شرطة هامبدن التحقيق في جريمة القتل الوحشية التي وقعت في 12 نوفمبر، والتي راح ضحيتها هاري راي ماكري، مزارع دواجن وعضو سابق في جمعية فيرمونت لمنتجات البيض، عُثر على جثته المشوهة في مزرعته في ميكانيكسفيل. لا يبدو أن السرقة هي الدافع، وعلى الرغم من وجود عدد من الأعداء له، سواء في تجارة الدجاج أم في مقاطعة باتنكيل، لم يُعتبر أي منهم مشتبهاً فيه.)

انحنيت بذعر إلى الأمام مقترباً أكثر من الورقة، صعقتني كلمة «مشوهة»، كانت الكلمة تقفز من الصفحة، لكن هنري قلب الورقة ليفحص الجانب الآخر. قال: «حسناً، على الأقل هذه ليست نسخة مصورة، من المحتمل أنه قصها من جريدة الكلية في المكتبة».

«أمل أن تكون على حق، ولكن هذا لا يعني أنها النسخة الوحيدة».

وضع هنري الورقة في منفضة السجائر وأشعل عود ثقاب، وعندما لامس اللهب حافة الورقة، تسالت شعلة حمراء زاهية على طول الورقة، ثم اجتاحتها بالكامل، توهجت الكلمات لحظة قبل أن تتلاشى وتتقوس وتتحول إلى رماد أسود.

قال: «حسناً، لقد فات الأوان الآن، على الأقل حصلت على هذه النسخة، ماذا حدث بعد ذلك؟»

«غادرت ماريون، ذهبت إلى منزل بوتنام المجاور وعادت مع صديقة».

«من؟»

«لا أعرفها، كان اسمها يوتا أو أورسولا أو شيئاً على نفس القافية. إحدى الفتيات الشقراوات اللواتي يرتدين كنزات صوفية طوال الوقت. على أي حال ألقت نظرة حول المكان. كان كلوك جالساً على السرير يدخل سيجارة ويبدو أن معدته تؤلمه. في النهاية اقترحت تلك الفتاة أن نصعد إلى الطابق العلوي ونخبر مشرفة سكن بانى».

بدأ فرانسيس يضحك، في العادة يلجأ الطلاب إلى مشرفي

السكن في هامبدن لحل مشكلات مثل النوافذ المعطلة أو الإزعاج من صوت ستريو الجيران المرتفع، وليس في حالات اختفاء الأفراد.

قال تشارلز: «على كل حال، ما فعلته ماريون كان خطوة جيدة، وإلا لكنا عالقين عند النقطة نفسها»، ثم أضاف: «مشرفة سكن باني هي تلك الفتاة الصاخبة ذات الشعر الأحمر التي ترتدي أحذية المشي طيلة الوقت. ما اسمها؟ بيريوني ديلارد؟»

أجبت: «نعم، تلك هي، إلى جانب كونها مشرفة سكن وعضواً في مجلس الطلاب، كانت أيضاً زعيمة مجموعة يسارية خارج الحرم الجامعي، وكانت تحاول باستمرار تحفيز شباب هامبدن الذين لم يكونوا مكترئين لها كثيراً».

تابع تشارلز: «حسناً، عندما دخلت الغرفة، تتالت الأحداث كما خططنا. أخذت أسماءنا، وطرحت مجموعة أسئلة. استدعت جيران باني إلى الممر وسألتهم، ثم استدعت أحد موظفي خدمات الطلاب، وأخيراً أخبرت الأمن. قال رجال الأمن إنهم سيرسلون شخصاً لتحري الأمر»، أشعل سيجارة وأكمل: «ولكن اختفاء طالب ليست من اختصاصهم، وعليها أن تتصل بالشرطة». توقف فجأة، ثم التفت إلى كاميللا قائلاً: «هل يمكنك إحضار مشروب آخر؟»

«وهل جاءت الشرطة؟».

مسح تشارلز العرق عن جبينه وسيجارته متوازنة بين السبابة والوسطى وقال: «نعم، حضر شرطيان ومعهما حارسا أمن». «ماذا فعلوا؟».

أجاب: «حراس الأمن لم يفعلوا شيئاً يُذكر، لكن الشرطيين كانوا أكثر كفاءة. بينما بدأ أحدهما بطرح الأسئلة على الجميع في البهو، وفتش الثاني الغرفة».

«ما نوع الأسئلة؟»

«من آخر من رآه وأين، وكم مضى على غيابه، وأين يمكن أن يكون. يبدو كل هذا واضحاً جداً، لكن هذه كانت المرة الأولى التي يطرح فيها أحد أي أسئلة على الإطلاق».

«وماذا قال كلوك؟»

«لم يقل كثيراً، كان الجو مشوشاً والبهو مزدحمًا، والكل يتكلم في نفس الوقت محاولين تقديم ما لديهم من معلومات ضئيلة. لم يعيرني أحد أي اهتمام على الإطلاق، وكان من الواضح أن السيدة من خدمات الطلاب تحاول أن تفرض نفسها، وقالت إن القضية لا تخص الشرطة وإن الكلية ستتولى الأمر. غضب الشرطي، وقال لها: «انظري هنا، ما بالكم أيها الناس؟ لقد مضى أسبوع على اختفاء هذا الفتى، ولم يتحرك أحد. هذه مسألة خطيرة، وإذا كنت تريد أن رأيي، أرى أن الكلية تتحمل المسؤولية».

دفعها كلامه لأن تأخذ الأمر بجدية أكبر وتقرر التعاون مع الشرطة، ثم فجأة خرج الشرطي الذي كان يفتش الغرفة حاملاً محفظة باني، كانت تحتوي على مئتي دولار وبطاقاته الشخصية. عندما رأى الجميع المحفظة، ساد الصمت، بعدها قال الشرطي: أظن أنه من الأفضل الاتصال بأسرته.

بدأ الجميع بالتهامس. شُحِب وجه السيدة من خدمات الطلاب وقالت إنها ستذهب إلى مكتبها وتُحضر ملف باني على الفور،

ذهب الشرطي معها، كان البهو مكتظاً. عاد من كانوا في الخارج وأخذوا يحومون في الأرجاء لمعرفة ما يجري. طلب الشرطي الأول من الحاضرين أن يعودوا إلى غرفهم ويهتموا بشؤونهم الخاصة، انسحب كلوك بعيداً في حالة من الارتباك. لكنه قبل أن يغادر سحبني جانباً وطلب مني مجدداً ألا أذكر أي شيء يتعلق بتجارة المخدرات».

«أتمنى أن تكون قد انتظرت حتى يخبروك أنه يمكنك المغادرة».

أجاب: «نعم، لم يطل الأمر كثيراً. أراد الشرطي التحدث إلى ماريون، وأخبرني وأوتا أنه بإمكاننا العودة إلى منازلنا بعد أن يأخذوا أسماءنا وبياناتنا، كان ذلك قبل ساعة تقريباً».

«إذن لماذا تأخرت؟»

«كنت سأتطرق إلى هذه النقطة لولا أنك قاطعتني. لم أكن أرغب في مقابلة أحد في طريق عودتي، لذا سلكت الطريق وراء الحرم الجامعي خلف مكاتب الكلية، كان ذلك خطأً كبيراً. لم أصل إلى بستان أشجار البتولا حتى رأيتي تلك الحيزبونة من خدمات الطلاب - تلك التي بدأت الشجار - من نافذة مكتب العميد، ونادتني بصوت عالٍ».

«ماذا كانت تفعل في مكتب العميد؟»

«كانت تجري مكالمة هاتفية، تحدثت إلى والد باني، وكان يصرخ على الجميع ويهدد بمقاضاتهم، حاول عميد الكلية تهدئته، لكن السيد كوركوران أصر على التحدث إلى شخص يعرف باني شخصياً، حاولوا الاتصال بك عبر خط آخر يا هنري، لكنك لم تكن في المنزل».

«هل طلب التحدث معي؟»

«على ما يبدو، كانوا على وشك إرسال شخص إلى قاعة المحاضرات لاستدعاء جولييان، لكن في تلك اللحظة لمحتني هذه السيدة من النافذة. كان مكتب العميد مزدحمًا؛ الشرطي والسكرتيرة وأربعة أو خمسة أشخاص ممن كانوا في البهو، وتلك السيدة المجنونة التي تعمل في السجلات. في الغرفة المجاورة، في مكتب القبول، كان هناك شخص يحاول الوصول إلى رئيس الجامعة. وحتى بعض الأساتذة كانوا هناك يراقبون بدافع الفضول. أعتقد أن عميد الكلية كان في منتصف اجتماع عندما دخلت السيدة من خدمات الطلاب مع الشرطي.

كان صديقك هناك يا ريتشارد... الدكتور رولاند، على أي حال تفرق الجمع عندما دخلت، ثم ناولني عميد الكلية الهاتف. هدا السيد كوركوران عندما أدرك من أكون، وتحدث بنبرة خافتة كأنما يشير إلى سرية الموضوع، وسألني إذا كان اختفاء باني مجرد خدعة من عصبتنا».

قال فرانسيس: «يا إلهي».

نظر تشارلز إليه بطرف عينه. «لقد سألت عنك، قال: أين رأس الجزيرة⁽¹⁾؟»

«ماذا قال أيضًا؟»

«كان لطيفًا جدًا. سأل عنكم جميعًا، وأوصاني بإلقاء التحية عليكم».

(1) تعبير أمريكي دارج بمعنى «ذو الشعر الأحمر».

خيم صمت طويل وغير مريح، عض هنري على شفته السفلية وتوجه إلى خزانة المشروبات الكحولية ليصب لنفسه مشروباً، وقال: «هل ذُكر أي شيء بخصوص مشاهدة باني أمام البنك؟» رد تشارلز: «نعم، ماريون أعطت الشرطة اسم الفتاة التي زعمت أنها رأت باني. وعلى فكرة...»، نظر تشارلز فجأة بعينين مشتتتين كأنه تذكر شيئاً مهماً: «ماريون أعطت الشرطة اسمك يا هنري، واسمك أيضاً يا فرانسيس».

تساءل فرانسيس بقلق: «لماذا؟ لأي غرض؟».

أجابه تشارلز بنبرة مهدئة: «كانوا يريدون معرفة من هم أصدقاء باني».

«ولكن لماذا أنا؟».

«اهدأ يا فرانسيس».

خبا الضوء في الغرفة، واكتست السماء بلون أرجواني، كانت الشوارع المغطاة بالثلوج ذات وهج قمري سريالي، أشعل هنري المصباح.

«هل تعتقد أنهم سيبدوون البحث الليلة؟».

«سوف يبحثون عنه بالتأكيد، لكن إن كانوا سيبحثون في المكان الصحيح فهذا أمر آخر».

ساد الصمت مجدداً.

حرك تشارلز الثلج في كأسه وهو شارد الذهن، بعد لحظة قال بصوت متهدج: «أنتم تعلمون أننا ارتكبنا شيئاً فظيئاً».

«كان علينا أن نفعل ذلك يا تشارلز، وقد ناقشنا هذا جميعاً».

«لا أدري... لكنني لا أستطيع التوقف عن التفكير في السيد كوركوران... والعطلات التي قضيناها في منزله، لقد كان لطيفاً جداً في المكالمة الهاتفية».

«نحن جميعاً في وضع أفضل الآن».

«تقصد بعضنا في وضع أفضل».

ابتسم هنري بمرارة: «أوه، لا أعرف». ثم أردف: «ثور أسود في بيللا⁽¹⁾ يكلف أقل في العالم السفلي⁽²⁾».

كان هذا مثلاً مضاده أن الثور العظيم لا يكلف في العالم السفلي سوى فلسٍ واحدٍ، لكنني كنت أعرف ما يعنيه بالضبط، ورغم ذلك ضحكت، فقد كان القدماء يعتقدون أن الأشياء رخيصة جداً في الجحيم.

عندما غادر هنري عرض عليّ أن يقلني بالسيارة إلى الكلية. كان الوقت متأخراً، وعندما توقفنا خلف المبنى الذي أقطنه، سألته إن كان يريد الانضمام إليّ في القاعة العامة لتناول العشاء. توقفنا عند مكتب البريد حتى يتمكن هنري من التحقق من بريده، كان يتفقد صندوق بريده مرة كل ثلاثة أسابيع تقريباً، لذا كانت هناك كومة كبيرة تنتظره، وقف بجانب سلة المهملات، يقلب الرسائل بلا مبالاة، ويرمي نصفها من دون حتى أن يفتحها.

(1) مدينة قديمة في مقدونيا الوسطى باليونان. وكانت عاصمة مملكة مقدونيا في اليونان القديمة.

(2) باليونانية القديمة في الأصل. والمقصود هنا أن الأشياء أرخص في الجحيم/العالم السفلي، وبالتالي لن يحتاج باني إلى كثير من المال للحصول على ما يريد في الجحيم، وهي مزحة سوداء كأنه يقول إنهم أسدوا لباني خدمة بقتله.

ثم توقف فجأة.

سألته: «ما الأمر؟»

ضحك وقال: «ابحث في صندوق بريدك، إنه استبيان من الكلية، جوليان يخضع للتقييم والمراجعة».

كانت قاعة الطعام قد أغلقت عندما وصلنا، وبدأ العمال بمسح الأرضية. كان المطبخ مغلقاً أيضاً، لذا ذهبت لأطلب بعض الخبز وزبدة الفول السوداني، فيما كان هنري يعد لنفسه كوباً من الشاي. كانت غرفة الطعام الرئيسة خالية، فجلسنا في زاوية هادئة. انعكست صورنا على الزجاج الأسود للنوافذ، أخرج هنري قلماً وبدأ ملء تقييم جوليان.

نظرت إلى نسختي وأنا أتناول شطيرة زبدة الفول السوداني، كانت الأسئلة منظمة من واحد (ضعيف) إلى خمسة (ممتاز)؛ هل عضو هيئة التدريس موضع التقييم سريع البديهة؟ حسن الإعداد؟ هل هو على استعداد لتقديم المساعدة خارج قاعة المحاضرة؟ بلا تردد، ظلل هنري بسرعة جميع الإجابات في القائمة بخمسة، ثم رأيت يكتب الرقم 19 في أحد الفراغات.

سألته: «ما هذا؟»

رد دون أن يرفع بصره: «عدد المواد الدراسية التي درستها مع جوليان».

«درست تسع عشرة مادة مع جوليان؟»

«يشمل هذا المواد الإضافية أيضاً».

ساد الصمت لحظة، لم يُسمع خلالها سوى صوت قلم هنري وهو يخدش الورقة وصوت ارتطام بعيد لرفوف الأطباق من

«هل يحصل الجميع على هذا التقييم أم نحن فحسب؟»

أجابني: «نحن فحسب».

«أتساءل لماذا يزعجونك حتى».

«لملء سجلاتهم، على ما أعتقد».

قلب هنري الأوراق وصولاً إلى الصفحة الأخيرة، التي كان معظمها فارغاً.

(يُرجى ذكر أي مديح أو انتقاد إضافي قد يكون لديك لهذا المعلم. يمكنك إرفاق أوراق إضافية إذا لزم الأمر).

كان قلمه يحوم فوق الورقة، ثم طوى حزمة الأوراق ودفعها جانباً.

قلت: «ماذا، ألن تكتب أي شيء؟»

أخذ هنري رشفة من الشاي، ثم قال بتأمل: «كيف يمكنني أن أشرح لعميد الكلية أن هناك إلهاً يسير بيننا؟».

عدت إلى غرفتي، كنت أخشى التفكير في الليلة التي تنتظرني، لكن ليس للأسباب التي قد يتوقعها المرء. لم يكن القلق يساورني بسبب الشرطة أو تأنيب الضمير أو أي شعور معتاد بالذنب، على العكس تماماً فقد كنت طورت في اللاوعي مناعة عقلية ضد جريمة القتل وكل ما يتعلق بها.

كنت أتحدث عنها عندما أكون مع البقية، لكنها نادراً ما تراودني حين أكون وحدي. ما كنت أعانيه في عزلي كان نوعاً من الرعب

العصابي العام، وهو هجمة من التوتر العصبي وكرهية الذات لكنها تتضخم بلا هوادة. كل كلمة قاسية قلتها، وكل فعل سخي ارتكبته، كان يعود إليّ بوضوح مؤلم، على الرغم من محاولاتي لمحوها أو طردها من ذهني، كانت إهاناتي وخطاياي وإحراجاتي القديمة تتدفق في مخيلتي صورة تلو الأخرى في صورة حية واضحة ولاذعة من الطفولة وحتى الحاضر؛ الطفل المُقعد الذي كنت أسخر منه، وفرخ عيد الفصح الذي أزهرته بيدي.

حاولت إشغال نفسي بدراسة اليونانية، ولكن بلا جدوى. كنت أبحث عن الكلمة في المعجم ثم أنساها عندما ألتفت لأكتبها، هجرتني قواعد الأسماء وتصريفات الأفعال تمامًا. في منتصف الليل تقريباً، قررت النزول إلى الطابق السفلي واتصلت بالتوأمين.

أجابت كاميللا، كانت تبدو نعسانة، ثمة بعض الشيء، وتستعد للنوم.

قلت: «أحكي لي قصة مضحكة».

«لا أستطيع التفكير في أي قصص مضحكة».

«أي قصة».

«سندريلا؟ الدببة الثلاثة؟».

«أحكي لي عن شيء حدث معك عندما كنت صغيرة».

روت لي ذكرياتها عن آخر مرة رأت والدها قبل مقتله هو ووالدتها. قالت إن الثلج كان يتساقط، وكان تشارلز نائماً، وكانت واقفة في سريرها تنظر من النافذة. كان والدها في الفناء، يرتدي سترة رمادية قديمة، ويرمي كرات الثلج على جانب السياج.

«لا بد أنني رأيته بعد الظهر، لا أعرف ماذا كان يفعل هناك. كل ما أذكره هو أنني رأيته، وأردت الخروج إليه بشدة، وحاولت التسلق خارج سريري للوصول إليه. ثم جاءت جدتي ورفعت قضبان السرير حتى لا أستطيع الخروج، فبدأت البكاء. دخل عمي هيلاري - كان شقيق جدتي الذي عاش معنا عندما كنا صغاراً - الغرفة ورآني أبكي، قال: الفتاة الصغيرة المسكينة. بحث في جيوبه، وأخيراً أخرج شريط قياس وأعطاني إياه لألعب به.»

«شريط قياس؟»

أجابت: «نعم، كما تعلم، النوع الذي يندفع منه الشريط عند الضغط على الزر، كنا أنا وتشارلز نتشاجر عليه طوال الوقت، ما زال موجوداً في منزلنا إلى الآن.»

في وقت متأخر من صباح اليوم التالي استيقظت فزعاً بطريقة غير مريحة على صوت طرقات على باب غرفتي. فتحت الباب لأجد كاميللا واقفة هناك، بدت كأنها ارتدت ملابسها على عجل. دخلت وأغلقت الباب خلفها، فيما وقفت أنا في حالة من النعاس مرتدياً رداء الحمام.

قالت: «هل خرجت اليوم؟»

شعرت بتوتر يتسلل كعنكبوت إلى مؤخرة عنقي، جلست على حافة سريري وقلت: «لا، لم أخرج. لماذا؟»

«لا أدري ما الذي يحدث، الشرطة تتحدث مع تشارلز وهنري، ولا أعرف حتى أين فرانسيس.»

«في السابعة صباحًا تقريبًا جاء شرطي وسأل عن تشارلز من دون أن يوضح السبب، ارتدى تشارلز ملابسه وذهب معه، ثم في الثامنة تلقيت مكالمة من هنري، سألني إذا كنت أمانع إن تأخر قليلاً هذا الصباح، فاستغربت وسألته عن الأمر لأننا لم نكن قد خططنا للقاء، أجباني: أوه، شكرًا لك، كنت أعلم أنك ستفهمين. الشرطة هنا بشأن باني، كما ترين، ويريدون طرح بعض الأسئلة». حاولت تهدئتها: «أنا متأكد أن كل شيء سيكون على ما يرام». مررت يدها خلال شعرها بحركة عصبية ذكرتي بأخيها، وقالت بتوتر واضح: «لكن الأمر ليس بهذا البساطة. هناك أشخاص في كل مكان؛ مراسلون ورجال شرطة. إنه أشبه بمستشفى للمجانين».

«هل يبحثون عنه؟».

«لا أعرف ماذا يفعلون، يبدو أنهم يتجهون نحو جبل كاتاراكت».

«ربما علينا مغادرة الحرم الجامعي لبعض الوقت».

كانت نظرتها الفضية الشاحبة تتقل بقلق في أنحاء غرفتي،

ثم قالت: «ربما... ارتد ملابسك وسنقرر ما علينا فعله».

كنت في الحمام أحلق ذقتي عندما اندفعت جودي بوفي نحوي

بسرعة؛ ما جعلني أجرح خدي من دون قصد.

وضعت يدها على ذراعي وقالت بلهفة: «ريتشارد، هل سمعت؟».

لمست خدي، وحدثت في نقاط الدم على أطراف أصابعي ثم نظرت إليها منزعجًا.
«سمعت ماذا؟»

قالت بصوت خافت بعينين متسعيتين: «عن باني». نظرت إليها ولم أستطع التكهّن ما الذي ستقوله. «أخبرني جاك تيتلبوم، كان كلوك يتحدث معه عن الأمر الليلة الماضية، لم أسمع قط عن شخص يختفي هكذا، إنه أمر غريب جدًا. وكان جاك يقول... حسنًا، إذا لم يعثروا عليه الآن...»، توقفت قليلاً عندما لاحظت نظرتي إليها. «أعني، أنا متأكدة من أنه بخير، كل شيء سيكون على ما يرام».

لم أستطع التفكير في شيء لأقوله. قالت جودي: «إذا احتجت إلى أي شيء، فساكون في غرفتي».
«بالتأكيد».

«يعني، إن كنت تريد التحدث والتخفيف عن نفسك، فأنا موجودة دائمًا، لا تتردد في القدوم إليّ».
قلت لها بحنق: «شكرًا».

نظرت إليّ بعينيها الواسعتين المليئتين بالشفقة كأنها تفهم حجم الحزن الذي يحيط بالموقف. ضغطت على ذراعي بلطف وقالت: «سيكون كل شيء على ما يرام»، غادرت ببطء متوقفة عند الباب لتلقي نظرة أخيرة حزينة.

على الرغم مما قالته كاميللا، لم أكن مستعدًا لمشهد الفوضى في الخارج. كانت ساحة انتظار الكلية تعج بالسيارات، وأينما نظرت رأيت حشودًا من أهل بلدة هامبدن، معظمهم من عمال المصانع،

يمكن تمييزهم بملابسهم العملية، وبعضهم يحمل صناديق الغداء، وآخرون برفقة أطفال يضربون الأرض بالعصي. كانوا يتجهون في مجموعات واسعة نحو جبل كاتاراكت في صفوف واسعة متناثرة، في حين يتابعهم الطلاب بفضول. وفي وسط الساحة كانت هناك مجموعة من ضباط الشرطة والمأمورين من مركز شرطة هامبدن، وبضعة جنود من قوات الولاية. جانب المرج كانت هناك سيارتان رسميتان، ومحطة إرسال راديو، وعربة طعام، وشاحنة صغيرة من قنّاة أكشن نيوز 12.

قلت: «ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟».

قالت: «انظر، هل هذا فرانسيس؟»

لمحنا وسط الحشد المزدحم وميضاً من الشعر الأحمر ومعطفًا أسود طويلاً. رفعت كاميلاً يدها ونادته.

شق فرانسيس طريقه عبر مجموعة من عمال الكافتيريا الذين خرجوا ليروا ما يجري، وهو يدخل سيجارة ويحمل صحيفة تحت ذراعه. قال: «مرحباً، هل تصدقان ما يحدث هنا؟»

«ماذا يجري؟»

«إنها عملية بحث عن كنز».

«كنز؟»

«أعلنت عائلة كوركوران عن مكافأة كبيرة ليلة أمس، جميع المصانع في هامبدن مغلقة، والعمال يبحثون عن باني. هل تريدان بعض القهوة؟ معي دولار».

توجهنا نحو عربة الطعام عبر تجمع متفرق وكثيب من عمال النظافة وعمال الصيانة.

طلب فرانسيس من المرأة السمينه التي تقف خلف المنضدة:
«ثلاثة فناجين قهوة، اثنان بالحليب، من فضلك».

«لا يوجد حليب، فقط مبيض قهوة».

«إذا، قهوة سوداء بلا إضافات».

ثم التفت إلينا وقال: «هل رأيتما الصحيفة هذا الصباح؟»

أخرج طبعة متأخرة من عدد اليوم من صحيفة هامبدن
إكزامينر، وكان هناك في الصفحة الأولى صورة حديثة غير
واضحة لباني، مع تعليق يقول: «الشرطة والعائلة تبحثان عن
شاب عمره 24 عاماً مفقود في هامبدن».

قلت بدهشة: «أربعة وعشرون؟» كان عمري والتوأمين عشرين
عاماً، أما هنري وفرانسيس فكانا في الحادية والعشرين.

قالت كاميللا: «لقد رسب في المدرسة الابتدائية سنتين أو
ثلاث».

«هذا يفسر الأمر».

كان نص الخبر يقول:

(بعد ظهر يوم الأحد حضر إدموند كوركوران المعروف بين
عائلته وأصدقائه باسم «باني» -وهو طالب في كلية هامبدن-
حفلة في الحرم الجامعي. يبدو أنه غادر الحفلة في وقت ما من
الظهيرة للقاء عشيقته ماريون بارنبريدج من راي في نيويورك،
وهي أيضاً طالبة في هامبدن. تلك كانت آخر مرة شوهد فيها
باني كوركوران، أبلغت بارنبريدج وبعض أصدقاء كوركوران شرطة
الولاية ومركز الشرطة المحلي عن اختفائه أمس، الذين أصدروا

بعد ذلك منشوراً عن شخص مفقود، اليوم يبدأ البحث في منطقة هامبدن. يوصف الشاب المفقود بأنه... انظر ص5).

سألت كاميلا: «هل انتهيت؟»

«نعم، اقلب الصفحة».

(...يبلغ طوله ستة أقدام وثلاث بوصات، وزنه 190 رطلاً، شعره أشقر رملي، وعيناه زرقاوان. كان يرتدي نظارة، وآخر مرة شُهد فيها كان يرتدي سترة رياضية ماركة تويد رمادية وبنطالاً كاكياً، ومعطف مطر من المشمع أصفر اللون...) قال فرانسيس، وهو يلتفت بحذر حاملاً كوباً في كلتا يديه: «هذه قهوتك يا ريتشارد».

(...في مدرسة سانت جيروم الإعدادية في كوليدج فولز في ماساتشوستس، كان كوركوران نشيطاً في المشاركة في الألعاب الرياضية، فقد كان عضواً في فريق الهوكي واللاكروس، وقاد فريق مدرسته لكرة القدم «فريق ولفرينز» إلى الفوز ببطولة الولاية عندما كان قائده خلال السنة الأخيرة. في هامبدن تطوع كوركوران للعمل مراقب حرائق، درس الأدب واللغات مع التركيز على الكلاسيكيات، ووصفه زملاؤه الطلاب بأنه «واسع الاطلاع»). قالت كاميلا: «حقاً؟»

(...قال كلوك رايبورن، وهو صديق كوركوران وأحد الذين أبلغوا الشرطة عن اختفائه، إن كوركوران «شخص مستقيم جداً، وبالتأكيد لم يكن ليتورط في المخدرات أو الأمور الممنوعة». وأضاف أنه بعد ظهر أمس بعد أن زادت شكوكه اقتحم غرفة نوم

كوركوران وأبلغ الشرطة بعد ذلك مباشرة).

قالت كاميللا: «هذا ليس صحيحًا، لم يكن هو من اتصل بهم».

«ولا كلمة واحدة عن تشارلز».

قالت باليونانية: «الحمد لله».

(...من المتوقع أن يصل والدا كوركوران مكدونالد وكاثرين

كوركوران من شادي بروك في كونيتيكت إلى هامبدن اليوم

للمشاركة في البحث عن أصغر أبنائهم الخمسة. انظر «عائلة

تدعو من أجل سلامة ابنها» ص 10)

(...وفي مقابلة هاتفية، قال السيد كوركوران مدير بنك

بينجهام وشركة تراست وعضو مجلس إدارة البنك الوطني الأول

في كونيتيكت: «لا يمكننا فعل الكثير هنا، لكننا نريد القدوم إلى

هامبدن للمساعدة إذا استطعنا». وأشار إلى أنه تحدث مع ابنه

هاتفياً قبل أسبوع من اختفائه ولم يلاحظ أي شيء غير عادي.

وقالت كاثرين كوركوران: «إدموند مرتبط جداً بعائلته. إذا كان

يواجه أي مشكلة، فأنا واثقة بأنه كان سيخبر ماك أو يخبرني».

تعرض العائلة مكافأة قدرها خمسون ألف دولار لمن يدلي

بأي معلومات تقود إلى العثور على إدموند كوركوران، وتغطي

المكافأة مساهمات من عائلة كوركوران وبنك بينجهام وشركة

تراست وهاييلاند هاييتس لودج التابعة لجمعية ولاء موس⁽¹⁾.

كانت الرياح عاصفة، طويت الصحيفة بمعاونة كاميللا وأعادتها

إلى فرانسيس.

(1) منظمة أخوية وخدمية، أسست عام 1888 ومقرها الرئيس في موس هارت

باليوناني.

قلت: «خمسون ألف دولار، هذا مبلغ كبير».

قال فرانسيس وهو يرتشف من قهوته: «وتتعجب لماذا ترى كل هؤلاء الناس من بلدة هامبدن هنا هذا الصباح؟»

أضاف: «يا إلهي، الجو بارد هنا».

استدردنا وعدنا نحو مبنى القاعة العامة.

قالت كاميللا لفرانسيس: «هل تعرف أي شيء عن تشارلز وهنري؟»

«حسنًا، لقد أخبروا تشارلز أنهم قد يرغبون في التحدث إليه».

«وماذا عن هنري؟»

«لن أقلق عليه».

كانت القاعة العامة دافئة على نحو مريح وفارغة بشكل مفاجئ، جلسنا نحن الثلاثة على أريكة مخملية سوداء، واحتسينا قهوتنا. كان الناس يدخلون ويخرجون حاملين معهم نسمات الهواء البارد من الخارج. بعضهم جاء ليسأل إن كانت هناك أخبار جديدة. حتى جود «خنزير الحفلات» ماك-كيننا الذي كان نائب رئيس مجلس الطلاب، حضر ومعه علبة طلاء فارغة، يسأل إن كنا نرغب في التبرع لتمويل حملة بحث عاجلة عن باني. ساهمنا نحن الثلاثة بعملات معدنية تعادل دولارًا.

تحدثنا مع جورج لافورج الذي روى لنا بحماس قصة اختفاء مماثل حدثت في جامعة برانديز حين ظهر هنري خلفه فجأة، استدار لافورج وقال ببرود عندما رأى هوية القادم: «أوه».

مال هنري برأسه قليلاً وقال بتهذيب: «صباح الخير يا سيد لافورج، سعيد برؤيتك».

أخرج لافورج بحركة مفتعلة منديلاً من جيبه، وظل يتمخط لمدة بدت أنها خمس دقائق. ثم طوى المنديل بعناية وأدار ظهره لهنري ليستأنف قصته: «في تلك الحالة، سافر الطالب ببساطة بالحافلة إلى نيويورك من دون إخبار أحد».

أضاف: «أما هذا الفتى، بيردي؟»

«باني».

«نعم، هذا الفتى مختلف منذ مدة أقل بكثير، سيظهر مرة أخرى من تلقاء نفسه، وسيبدو الجميع كالأغبياء». ثم أخفض صوته وقال: «أعتقد أن الكلية خائفة من الدعاوى القضائية، ولهذا تصرفت بهذه الطريقة بشكل لا يتناسب مع الحدث، لا تخبروا أحداً بما قلته».

«بالطبع لا».

«علاقتي مع العميد حساسة كما تعلمون».

قال هنري لاحقاً في السيارة: «أنا مرهق قليلاً، لكن لا داعي للقلق».

«ماذا كانوا يريدون أن يعرفوا؟»

«ليس الكثير... منذ متى أعرفه، وإذا كان يتصرف بغرابة مؤخراً، وإن كنت أعتقد أن هناك سبباً يجعله يترك الكلية، أخبرتهم أنه كان يتصرف بغرابة في الأشهر الأخيرة، لكنني أيضاً لم أراه كثيراً مؤخراً، وهذا صحيح».

هز رأسه قائلاً: «بصراحة، ساعتان من الاستجواب السخيف. لو كنت أعلم الهراء الذي نحن مقبلون عليه لما شرعت في خطتنا».

توقفنا عند شقة التوأمين، حيث وجدنا تشارلز نائماً على الأريكة ممدداً على بطنه، ولا يزال مرتدياً حذاءه ومعطفه. كانت ذراعه تتدلى من حافة الأريكة، وقد انكشف جزء من معصمه من تحت كُمّه.

استيقظ فزعاً، كان وجهه منتفخاً وكان النمط المحرز من وسائل الأريكة مطبوعاً بعمق على خده.

قال هنري: «كيف سارت الأمور؟».

اعتدل تشارلز في مرقده قليلاً وفرك عينيه، وقال: «بخير، أرادوا مني أن أوقع على شيء يوضح ما حدث أمس».

«لقد زاروني أيضاً».

«حقاً؟ ماذا أرادوا؟»

«الأسئلة نفسها».

«هل كانوا لطيفين معك؟»

«ليس كثيراً».

«يا إلهي، لقد كانوا لطيفين معي في مركز الشرطة، حتى أنهم قدموا لي فطوراً لقهوة ودونات الجيلي».

كان اليوم يوم جمعة، لا محاضرات، وجوليان لم يكن في هامبدن بل في منزله الذي لم يكن بعيداً عن المكان الذي كنا فيه؛ في منتصف الطريق إلى ألباني حيث قدنا السيارة لتناول

الفتائر عند موقف حافلات، بعد الغداء اقترح هنري فجأة أن نمر لنرى إن كان جوليان في منزله.

لم أُرْ منزل جوليان من قبل، ولم تُتَح لي رؤيته قط، على الرغم من أنني افترضت أن الآخرين قد زاروه عشرات المرات، في الحقيقة كان هنري هو الاستثناء الوحيد، إذ كان جوليان يرفض استقبال معظم الزوار، لم يكن هذا بالأمر المفاجئ، فقد حافظ دائماً على مسافة محسوبة ودقيقة بينه وبين طلابه. وعلى الرغم من أنه كان أكثر ولعاً بنا من المعلمين التقليديين، فإن العلاقة معه لم تكن يوماً علاقة ندية، حتى مع هنري. كانت محاضراته تجسد نوعاً من «الدكتاتورية الخيرية» أكثر من الديمقراطية إن جاز التعبير.

قال جوليان ذات مرة كأنه يؤكد حقيقة معروفة: «أنا معلمكم لأنني أعرف أكثر منكم». وعلى الرغم من أن أسلوبه على المستوى النفسي كان حميماً جداً، فإن سلوكه العملي كان بارداً وموضوعياً. لم يكن يرى في أي منا سوى خصالنا الأكثر جاذبية فيعززها ويهذبها متجاهلاً الجوانب الأخرى المملة والأقل بريقاً. بالنسبة إليّ كنت أستمع بإعادة تشكيل نفسي لتتوافق مع هذه الصورة المثالية التي رسمها لي، على الرغم من علمي بأنها لم تكن دقيقة تماماً. بمرور الوقت وجدت نفسي أتحوّل تدريجياً إلى تلك الشخصية التي تقمصتها بمهارة مدة طويلة. ومع ذلك كان واضحاً أنه لم يكن يرغب في رؤيتنا بكامل حقيقتنا، بل كان يفضل أن نلتزم الأدوار المثالية التي اخترعها لنا؛ أبناء عائلات مرموقة،

نحيفي القوام، متقنين لكثير من الفنون، وأثرياء بالمال⁽¹⁾، خدودنا
ملساء وبشرتنا ناعمة، مثقفين ومرفهين. ربما كان عماه الغريب
عن مشكلاتنا الشخصية هو ما سمح له بتحويل حتى مشكلات
باني الجوهريّة إلى مجرد معضلات روحية.

لم أكن أعرف حينها، ولا أعرف الآن، أي شيء تقريباً عن
حياة جوليان خارج حدود قاعة المحاضرة، وهو ما أضفى لمسة
من الغموض المحيرة على كل ما قاله أو فعله. لا شك أن حياته
الشخصية كانت مليئة بالعيوب مثل حياة أي شخص آخر، ولكن
الجانب الوحيد من ذاته الذي سمح لنا برؤيته كان مصقولاً إلى
درجة عالية من الكمال البراق لدرجة أنه بدا أنه يعيش حياة
شخصية مثالية جداً يصعب عليّ تخيلها.

كان من الطبيعي أن ينتابني الفضول لمعرفة المكان الذي
يعيش فيه، كان منزله كبيراً مشيداً من الحجر، يقع فوق تلة عالية
على بعد أميال من الطريق الرئيسي محاطاً بالأشجار والثلوج
الممتدة بقدر ما تصل إليه العين. كان المنزل مهيباً بلا شك،
وإن لم يكن يضاهي الطراز القوطي والوحشي لمنزل فرانسيس.
سمعت كثيراً عن حديقته الساحرة، وعن التحف الثمينة التي
يقتنيها داخل المنزل، مثل مزهريات الفخار الأحمر⁽²⁾، وخزف

(1) باللاتينية في الأصل. والجملة التي تليها ترجمة ريتشارد غير الدقيقة لها.

(2) نوع من الفخار اليوناني القديم حيث يُطلّى الفخار بالأسود فيما تترك الأشكال
والتفاصيل بلون الطين الطبيعي أي الأحمر أو البرتقالي. طُور في أثينا قرابة 520 قبل
الميلاد، وظل قيد الاستخدام حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد.

ميسين⁽¹⁾، ولوحات لألما تاديفا وفريث. لكن حين زرنا المكان، كانت الحديقة مغطاة بالثلوج، ولم يكن جوليان في المنزل على ما يبدو، إذ لم يجب أحد على طرقات الباب.

نظر هنري أسفل التل حيث كنا ننتظره في السيارة. أخرج ورقة صغيرة من جيبه، وكتب عليها ملاحظة سريعة طواها بعناية ووضعها في شق باب المنزل.

سأل هنري في طريق العودة إلى هامبدن: «هل هناك طلاب يشاركون فرق البحث؟ لا أريد أن نلفت النظر إذا ذهبنا إلى هناك، ولكننا سنبدو غير مكترئين بصديقنا إذا عدنا إلى المنزل ببساطة، ألا تعتقدون ذلك؟»

صمت قليلاً وهو يفكر، ثم قال: «ربما ينبغي لنا أن نلقي نظرة». ثم استدرك: «تشارلز، لقد فعلت ما يكفي اليوم، من الأفضل أن تعود إلى المنزل».

بعد أن أوصلنا التوأمين إلى شقتهم، توجهنا نحن الثلاثة إلى الحرم الجامعي. كنت أتوقع أن فريق البحث قد انسحب بسبب الإرهاق، لكن المفاجأة كانت في أن النشاط ازداد أكثر من ذي قبل. رأيت الشرطة ومسؤولي الكلية وأفراد الكشافة وعمال الصيانة وحراس الأمن ونحو ثلاثين طالباً من هامبدن، بعضهم من المجلس الطلابي والبقية يشاركون في البحث تطوعاً، إضافة

(1) خزف ميسين كان أول خزف أوروبي صلب العجينة. أجريت التجارب المبكرة العام 1708 على يد إرنفريد والتر فون تسشيرناهوس. بعد وفاته في أكتوبر واصل يوهان فريدريك بوتجر عمل فون تسشيرناهوس وجلب هذا النوع من الخزف إلى السوق، بتمويل من أغسطس القوي ملك بولندا وناخب ساكسونيا.

إلى حشود من أهل البلدة. كان الجمع كبيراً، لكن حين نظرنا إليهم من أعلى التل بدوا صفاراً وباهتين وسط الامتداد الواسع للثلوج.

نزلنا التل بخطى متثاقلة، وفرانسييس يسير خلفنا متجهماً، فهو لم يرغب في الحضور، تخلف عنا بضع خطوات. تجوّلنا بين الحشود، ولم يعرنا أحد أي اهتمام يُذكر.

سمعت خلفي صوتاً غامضاً ومكتوماً لجهاز اتصال لاسلكي فشعرت بالذعر وتراجعت خطوتين فاصطدمت برئيس حرس الأمن.

صرخ: «احترس». كان رجلاً قصيراً وبديناً يشبه كلب البولوغ، تنتشر بقع داكنة على أنفه وذقنه. بادرت بالاعتذار: «آسف، هل يمكنك أن تخبرني ماذا...».

قاطعني بتممة مشوبة بالازدراء: «طلاب الجامعة... تتعثرون، وتعرقلون الطريق، ولا تعرفون ما الذي يجب أن تفعلوه بحق الجحيم».

تدخل هنري بيروود: «حسناً، هذا ما نحاول اكتشافه»، استدار رئيس الأمن بغضب، لكنه لم يواجه هنري، بل صوب نظراته إلى فرانسييس الذي كان واقفاً وشارداً بنظراته في الفراغ.

قال له بلهجة قاسية: «إذن، هذا أنت. السيد الذي يقيم خارج الحرم، ويظن أنه يستطيع ركن سيارته في ساحة انتظار سيارات الكلية وقتما يشاء».

جفل فرانسييس واتسعت عيناه بدهشة.

تابع رئيس الأمن بنبرة تهديدية: «نعم، أنت. هل تعرف كم عدد المخالفات غير المدفوعة التي عليك؟ تسع مخالفات. لقد أحلت تقريرك إلى العميد الأسبوع الماضي. بإمكانهم وضعك تحت المراقبة وحجب سجل درجاتك الدراسية وحتى تعليق امتيازاتك المكتبية، ولو كان الأمر بيدي لألقيت بك في السجن». ففر فرانسيس فاه مدهوشاً، لكن هنري أمسكه من ذراعه وسحبه بعيداً.

أمامنا كان طابور طويل من سكان البلدة يشق طريقه عبر الثلوج، وكان بعضهم يضرب الأرض بعصيتهم بلا مبالاة، انضمنا إلى نهاية الطابور ومضينا معهم.

بسبب معرفتي أن جثة باني تقع على بعد نحو ميلين جنوب غرب المكان، لم أكن أشعر بقدر كبير من الإلحاح أو الاهتمام، بل واصلت المشي في حالة ذهول وعياني مثبتة على الأرض. في مقدمة الصف سارت مجموعة رسمية من رجال الشرطة وقوات الولاية، ورؤوسهم منحنية، يتحدثون بأصوات منخفضة، فيما كان كلب بوليسي من فصيلة الراعي الألماني ينبح ويدور مهرولاً حولهم.

كان الهواء ثقيلاً والسمااء فوق الجبال ملبدة بالغيوم وعاصفة، انتشر معطف فرانسيس خلفه متموجاً بشكل درامي، ظل يتلفت بقلق بين الحين والآخر ليتأكد من أن رئيس الأمن ليس قريباً، وكان يسعل بين الحين والآخر سعالاً خافتاً مثيراً للشفقة.

همس هنري له: «لماذا بحق الجحيم لم تدفع تذاكر التوقف في ساحة انتظار السيارات تلك؟»

«أتركني وشأني».

زحفنا عبر الثلج لساعات بدت طويلة، حتى خارت قواي من وطأة البرودة، وغدت قدماي مخدرتين تحت تأثير الوخز المستمر. كانت آثار أحذية رجال الشرطة الثقيلة تغوص في الثلج تاركة وراءها مسارات سوداء، فيما تأرجحت الهراوات الثقيلة المتدلية من أحزماتهم مع كل خطوة. انخفضت طائرة مروحية من فوق الأشجار، وملأت السماء بهديرها، حلقت لدقائق فوقنا، ثم غادرت بسرعة في الاتجاه الذي جاءت منه. ومع اقتراب المساء وتضاؤل الضوء صعد الناس أعلى التل الذي داسه المئات بأقدامهم متجهين نحو منازلهم.

قال فرانسيس للمرة الرابعة أو الخامسة: «دعونا نرحل».

كنا قد انطلقنا في طريق العودة عندما اعترض طريقنا شرطي كان يتجول بالقرب منا، وقال بابتسامة ودية: «هل اكتفيتم؟»
كان رجلاً عريض الوجه متورد البشرة بشارب أحمر.
قال هنري: «أعتقد ذلك».

«يا شباب، هل تعرفون هذا الفتى؟»

«في واقع الأمر، نعم نعرفه».

«هل لديكم أي فكرة عن المكان الذي قد يذهب إليه؟»

فكرت وأنا أراقب الوجه الودود والسمين للشرطي؛ لو كنا في فيلم، فسنكون جميعاً نتصرف بطريقة مريبة جداً تثير الشكوك فينا.

في طريقنا إلى المنزل، سأل هنري: «كم يكلف شراء تلفاز؟»

«لماذا؟».

«أريد مشاهدة نشرة الأخبار الليلة».

أجاب فرانسيس: «أظن أنه غالي الثمن».

قلت: «يوجد تلفاز في عليّة منزل مونماوث».

سأل هنري: «هل يملكه أحد؟»

«أعتقد ذلك».

قال هنري: «حسنًا، سوف نعيده عندما ننتهي».

بينما صعدت أنا وهنري إلى العليّة، بقي فرانسيس يراقب

المكان. بحثنا بين المصاييح المكسورة وصناديق الكرتون ولوحات

زيتية قبيحة، وأخيرًا وجدنا التلفاز خلف قفص أرنب قديم،

حملناه إلى أسفل الدرج ووضعناه في سيارة هنري.

في طريقنا إلى منزل فرانسيس، مررنا بمنزل التوأمين

لنأخذهما معنا.

قالت كاميللا لهنري: «حاول آل كوركوران الاتصال بك عدة

مرات اليوم، اتصل السيد كوركوران ست مرات، واتصل جولييان

أيضًا، إنه مستاء جدًا».

قال تشارلز: «وكلوك».

توقف هنري وسأل: «ماذا أراد؟»

«أراد التأكد من أننا لم نذكر شيئًا عن المخدرات للشرطة

هذا الصباح».

«بماذا أخبرته؟»

«أخبرته أنني لم أقل شيئًا، لكنني لا أعرف ما قلته أنت».

قال فرانسيس وهو ينظر إلى ساعته: «هيا، سنفوت نشرة

الأخبار إن لم تسرع».

وصلنا إلى منزل فرانسيس ووضعنا التلفاز فوق مائدة الطعام، عبثاً قليلاً بمؤشر ضبط القنوات حتى حصلنا على صورة مقبولة. كان على الشاشة الشارة الختامية لمسلسل «تقاطع بيتيكوت»⁽¹⁾ وأسماء الممثلين تظهر فوق لقطات من برج ماء بلدة هوترو والقطار البخاري السريع، تلاه مباشرة نشرة الأخبار.

عندما تلاشت موسيقى بداية النشرة، ظهرت دائرة صغيرة في الزاوية اليسرى من طاولة مذيعة الأخبار، كان داخلها صورة منمقة لشرطي يحمل مصباحاً يدوياً ويشد كلباً متعباً من حزامه، وتحتة جملة «عملية تمشيظ منظمة».

نظرت مذيعة الأخبار إلى الكاميرا وقالت: «المئات يبحثون، والآلاف يصلّون مع بدء عملية البحث عن طالب كلية هامبدن إدموند كوركوران المفقود منذ ظهر يوم الأحد».

انتقلت الصورة إلى مشهد غابة كثيفة، حيث صورت الكاميرا من الخلف مجموعة من الناس يبحثون عنه ويضربون الشجيرات بعصيهم لإزاحتها، فيما كان كلب الراعي الألماني -الذي رأيناه سابقاً يضحك- ينبح علينا من الشاشة.

قالت كاميللا: «أين أنتم يا شباب؟ هل أنتم في الصورة في مكان ما؟»

قال فرانسيس: «انظروا هناك، ذاك الرجل المريع».

(1) Petticoat Junction بالإنجليزية: مسلسل أمريكي عُرض على قناة CBS ما بين 1963 و 1970، تدور أحداثه في فندق شادي ريسيت الذي تديره كيت برادلي وبناتها الثلاثة وعمها جو كارسون.

قال المعلق الصوتي: «وصل مئة متطوع هذا الصباح لمساعدة طلاب كلية هامبدن في البحث عن زميلهم المفقود منذ ظهيرة يوم الأحد.

حتى الآن، لا توجد أي خيوط أو أدلة تقود إلى إدموند كوركوران الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً من شادي بروك في كونيتيكت، ولكن قناة أكشن نيوز 12 تلقت لتوها معلومة هامة عبر مكالمة هاتفية تعتقد السلطات أنها قد تشكل كشفًا جديدًا في القضية.

«ماذا؟»، قال تشارلز موجهًا حديثه إلى التلفزيون.

تابع المعلق: «ننتقل الآن مباشرة إلى ريك دويسون من موقع الحدث».

تحولت الصورة إلى رجل يرتدي معطفًا ثقيلًا ويحمل ميكروفونًا، ويقف أمام ما يبدو أنها محطة وقود.

قال فرانسيس وهو ينحني إلى الأمام: «أعرف هذا المكان! إنها ورشة إصلاح السيارات المستعملة على الطريق السريع رقم 6».

قال أحدهم: «صه!»

كانت الرياح تهب بقوة، عوى الميكروفون ثم هدأ صوته محدثًا صوتًا متقطعًا.

قال المراسل بصوت منخفض: «بعد ظهر هذا اليوم في الساعة الواحدة والسادسة والخمسين مساءً، تلقت قناة أكشن نيوز 12 معلومة مهمة قد توفر دليلاً للشرطة في قضية الشخص المفقود حديثًا في هامبدن».

تراجعت الكاميرا لتكشف عن رجل عجوز يرتدي زيّ ميكانيكيّ وقبعة صوفية وسترة واقية داكنة اللون، كان يحدّق إلى جانب الكاميرا بطريقة ثابتة كأنما ينظر إلى الكاميرا الخاطئة، كان رأسه مستديرًا ووجهه ناعم الملامح ووديعًا مثل وجه طفل.

قال المراسل: «أنا الآن مع السيد ويليام هوندي المالك المشارك لشركة إصلاح واستبدال قطع غيار السيارات في هامبدن، وهو عضو في فرقة إنقاذ مقاطعة هامبدن، الذي قدم هذه المعلومات الهامة».

قال فرانسيس بقلق: «هنري!»، أذهلني أن أرى أن وجهه أصبح فجأة شديد الشحوب.

أخرج هنري سيجارة من جيبه وقال باقتضاب: «نعم، أرى ما تقصده».

قلت: «ماذا يحدث؟»

أخذ هنري ينقر بالسيجارة على جانب العلبة، وقال من دون أن يرفع عينيه عن الشاشة: «هذا الرجل يصلح سيارتي».

تابع المراسل: «السيد هوندي، هل تود أن نخبرنا بما رأيته بعد ظهر يوم الأحد؟».

قال تشارلز بانفعال: «يا إلهي».

قال هنري: «صه».

نظر الميكانيكي بحرج إلى الكاميرا، ثم حول عينيه بعيداً عنها، قال بصوت أنفي يميز ساكني ولاية فيرمونت: «بعد ظهر الأحد، توقفت سيارة ليمان قشدية اللون، عمرها بضع سنوات، أمام تلك المضخة هناك»، وأشار بيده إلى جهة خارج إطار

الكاميرا، وأكمل متلعثمًا كأنه يحاول استرجاع تفاصيل المشهد: «كان بداخلها ثلاثة رجال، اثنان في المقدمة وواحد في الخلف. غرباء من خارج البلدة، وبدوا في عجلة من أمرهم، ولولا أنني رأيت صورة ذلك الفتى في الصحيفة لما فكرت في الأمر، لكنه كان معهم».

كاد قلبي أن يتوقف -ثلاثة رجال، وسيارة بيضاء- لكنني استوعبت التفاصيل سريعًا.

كنا أربعة، وكاميلًا كانت معنا، وباني لم يقترب من السيارة قط يوم الأحد، بالإضافة إلى أن هنري كان يقود سيارته البي إم دبليو التي لا تمت بصلة إلى سيارة البونتياك التي وصفها الرجل. توقف هنري عن نقر السيارة غير المشتعلة على جانب العلبة، كانت تتدلى من بين أصابعه بطريقة توحى بأنها ستسقط قريبًا.

أكمل المراسل: «على الرغم من أن عائلة كوركوران لم تتلقَ أي طلب فدية، فإن الشرطة لم تستبعد بعد فرضية الخطف، كان معكم ريك دوبسون على الهواء مباشرة من أكشن نيوز 12».

«شكرًا لك، يا ريك. نذكر مشاهدتنا أنه إذا كان لدى أي شخص معلومات إضافية عن هذه القضية، أو أي قضية أخرى، يمكنهم الاتصال بخط الإذلاء بالمعلومات التابع لنا على الرقم 363TIPS، بين الساعة التاسعة والخامسة...».

ثم تابعت: «أجرى اليوم مجلس مدرسة مقاطعة هامبدن تصويًا حول موضوع يُعد الأكثر إثارة للجدل...».

حدقنا إلى شاشة التلفاز في ذهول عدة دقائق، فجأة تبادل التوأمان النظرات وأخذا يضحكان، هز هنري رأسه وهو لا يزال يرمق الشاشة بنظرة غير مصدقة.

قال: «آه، أهل فيرمونت!»

قال تشارلز: «هل تعرف هذا الرجل؟»

«نعم، كنت أصلح سيارتي لديه بين الحين والآخر خلال العامين الماضيين».

«هل هو مجنون؟»

هز هنري رأسه مجدداً، وقال: «ربما مجنون، لكنه بلا شك يكذب من أجل المكافأة، لا أدري ماذا أقول، كان يبدو دائماً شخصاً عاقلاً بما يكفي، على الرغم من أنه جذبني ذات مرة إلى الزاوية وبدأ يتحدث عن ملكوت المسيح على الأرض».

علّق فرانسيس: «حسناً، مهما كان السبب، فقد أسدى لنا خدمة كبيرة».

رد هنري بتفكير: «لا أعلم، الخطف جريمة خطيرة، إذا تحول الأمر إلى تحقيق جنائي، فقد يكتشفون شيئاً قد نفضل ألا يعرفوه».

«وكيف يكون ذلك؟ ما علاقة أي من هذا بنا؟»

أوضح هنري: «لا أتحدث عن شيء كبير، لكن هناك تفاصيل صغيرة عديدة قد تكون مدمرة لو ربطوا بينها. مثلاً، كنت أحرق عندما وضعت تكلفة تذاكر الطيران على بطاقتي الائتمانية، سيكون من الصعب تبرير ذلك، وصندوقك الائتماني يا فرانسيس؟ وحساباتك البنكية؟ هناك عمليات سحب ضخمة خلال الأشهر

الستة الماضية بلا أي مبرر واضح، في المقابل لدى باني خزانة مليئة بالملابس الجديدة التي لا يمكن أن يكون قد دفع ثمنها بنفسه».

«يجب أن يبحث أحدهم بعمق لاكتشاف ذلك».

«لا يحتاج الأمر إلى سوى بضع مكالمات هاتفية مع الجهات المناسبة».

في تلك اللحظة، رن الهاتف. صاح فرانسيس: «يا إلهي».

قال هنري: «لا ترد عليه».

لكن فرانسيس التقط السماعة كما توقعت تمامًا، قال بهدوء: «أجل»، ثم توقف.

قال: «مرحبًا بك أيضًا يا سيد كوركوران»، جلس على الأريكة ويعطينا إشارة «تمام» بإبهامه وسبّابته.

«هل سمعت أي شيء؟».

تبع ذلك صمت طويل جدًا. كان فرانسيس يستمع بانتباه بضع دقائق، وهو ينظر إلى الأرض ويهز رأسه ببطء، بعد دقائق بدأ يضرب الأرض بقدمه بنفاد صبر.

همس تشارلز: «ماذا يحدث هنا؟».

أبعد فرانسيس الهاتف عن أذنه وأشار بيده بما يعني «ثرثرة فارغة».

قال تشارلز بصوت كئيب: «أعرف ما يريد، إنه يريد منا أن نذهب إلى الفندق الذي يقيم فيه ونتناول العشاء معه».

كان فرانسيس يقول: «في الواقع يا سيدي، لقد تناولنا العشاء بالفعل... لا، بالطبع لا... نعم. أوه، نعم يا سيدي، كنت أحاول الاتصال بك، لكنك تعلم مدى ارتباك الأمور... بالتأكيد...».

وأخيراً أنهى المكالمة، نظرنا إليه بترقب.

هز كتفيه، وقال: «حسناً، لقد حاولت. إنه ينتظر وصولنا إلى الفندق خلال عشرين دقيقة».

«نحن؟»

«لن أذهب بمفردي».

«هل هو بمفرده؟»

«لا».

توجه فرانسيس نحو المطبخ، وسمعنا صوت الخزانات تُفتح وتُغلق.

قال بصوت مرتفع: «العائلة كلها موجودة، باستثناء تيدي وهم ينتظرون وصوله في أي لحظة». توقف لثانية.

قال هنري: «ماذا تفعل عندك؟»

«أعد لنفسي مشروباً».

قال تشارلز: «أعد لي واحداً أيضاً».

«مشروب سكوتش، تمام؟»

«أفضل البوريون إذا كان لديك».

قالت كاميللا: «اجعلهما كأسين من البوريون».

قال هنري: «أرح نفسك وأحضر الزجاجاة كلها، هلا فعلت؟»

بعد مغادرتهم، استلقيت على أريكة فرانسيس، أدخن من سجائره وأرتشف السكوتش، فيما أشاهد برنامج المسابقات «المحك». كان أحد المتسابقين من ضاحية سان جيلبرتو، وهي قريبة جداً من المكان الذي نشأت فيه، لا تبعد أكثر من خمسة

أو ستة أميال. تلك الضواحي تتداخل حدودها بشكل غريب، فلا يمكنك دائماً تحديد أين تنتهي إحداها وأين تبدأ الأخرى.

بعد البرنامج، عُرض فيلم مخصص للتلفزيون يدور حول خطر اصطدام وشيك بين الأرض وكوكب آخر، وكيف اتحد علماء العالم لتجنب الكارثة. ظهر في الفيلم عالم فلك فاشل معروف يظهر باستمرار في البرامج الحوارية، وربما ستعرفه إن ذكرت اسمه.

لسبب ما شعرت بعدم الارتياح لمشاهدة الأخبار بمفردي عندما حانت الساعة الحادية عشرة، لذا انتقلت إلى قناة PBS حيث عرض برنامج «تاريخ علم المعادن». كان مثيراً للاهتمام، لكن التعب والسُّكر غلباني، فغفوت قبل أن ينتهي.

عندما استيقظت، وجدت أن هناك بطانية تغطيني، وكانت الغرفة تتلون بظلال زرقاء من ضوء الفجر البارد. كان فرانسيس جالساً على حافة النافذة مرتدياً ملابسه من الليلة الماضية، ويتناول كرز الماراشينو⁽¹⁾ من جرة يوازنها على ركبته.

جلست وسألته: «كم الساعة؟»

قال من دون أن يلتفت وفمه ممتلئ: «السادسة».

«لماذا لم توقظني؟»

قال: «لم أعد حتى الرابعة والنصف، وكنت ثملاً جداً لأقلك إلى المنزل، هل تريد الكرز؟» كانت ياقته مفتوحة وملابسه مبعثرة، لا يزال السكر واضحاً عليه، وكان صوته جامداً خالياً من أي نبرة.

(1) حبات كرز مُحلّى ومحفوظ في عصير كرز، يعد عادة من أنواع من الكرز الحلو فاتح اللون.

سألته: «أين كنتم طوال الليل؟»

«مع عائلة كوركوران».

«هل كنتم تشربون؟»

«بالطبع، كنا نشرب».

«حتى الرابعة؟»

«كانوا لا يزالون يشربون عندما غدرنا، كانت هناك خمسة أو

سنة صناديق من البيرة في المغطس».

«لم أعرف أنها ستكون مناسبة عابثة».

قال فرانسيس: «تبرع متجر فوود كينج بالبيرة لفرق البحث، حصل السيد كوركوران وبرادي على بعض منها وأحضراها إلى الفندق».

«أين يقيمون؟»

أجاب بنبرة هادئة: «لا أعرف، لكن المكان كان مروعاً. أحد تلك الفنادق الكبيرة والرخيصة ذات لافتات النيون، ولا توجد فيه خدمة غرف. كل الغرف متصلة، وكان أطفال هيو يصرخون ويرمون رقائق البطاطس في كل مكان، وثمة تليفزيون يعمل في كل غرفة. كان الأمر جحيماً حقاً».

تابع بنبرة تخلو من أي روح دعابة فيما كنت أضحك: «بعد الليلة الماضية، أعتقد أنني قادر على تجاوز أي شيء... النجاة من حرب نووية أو قيادة طائرة. أظن أن أحد الأطفال الصغار الملعونين سرق وشاحي المفضل ولف ساق دجاجة فيه، تلك القطعة الحريرية الجميلة المطبوع عليها ساعات، تدمرت كلياً».

«هل كانوا مستائين؟»

«من؟ عائلة كوركوران؟ بالطبع لا، لا أعتقد أنهم لاحظوا ذلك حتى».

«لا أقصد بشأن الوشاح».

«أوه». تناول كرزة أخرى من الجرة قبل أن يقول: «كانوا مستائين جميعاً على ما أعتقد، كان الحديث كله عن اختفاء باني، ولكن لا يبدو أنهم فقدوا صوابهم. كان السيد كوركوران حزيناً وقلقاً بعض الوقت، ثم راح يلهو مع الأطفال ويوزع البيرة».

«هل كانت ماريون هناك؟»

«نعم، وكذلك كلوك. خرج في رحلة بالسيارة برفقة برادي وباتريك، وعاد تفوح منه رائحة الماريجوانا. جلسنا أنا وهنري أمام المدفأة طوال الليل نتحدث مع السيد كوركوران. أعتقد أن كاميللا ذهبت لإلقاء التحية على هيو وزوجته وعلقت هناك، ولم أعد أعلم ماذا حدث لتشارلز». صمت قليلاً، ثم هز رأسه وأضاف: «لا أعلم».

سألته: «ألا يبدو لك هذا غريباً بطريقة مروعة؟»

أشعل سيجارة بيدين مرتعشتين وقال: «ليس غريباً حقاً، لا أعتقد ذلك. قال السيد كوركوران إن الحرس الوطني سيأتي اليوم أيضاً، يا لها من فوضى».

رحت أحرق إلى جرة الكرز بعض الوقت من دون أن أدرك ماهيتها بالضبط، وقلت: «لماذا تأكل هذه؟».

قال وهو ينظر إليها: «لا أعرف، طعمها سيئ حقاً».

«إذن، ارمها بعيداً».

بذل جهداً كبيراً ليرفع مصراع النافذة، ثم انفتح مصدراً ضجيجاً صاخباً، تسالت نسمات هواء جليدية ولفحت وجهي. قلت: «مهلاً، لم أقصد هذا حرفياً!»

ألقي جرة الكرّز من النافذة، ثم اتكأ بكل ثقله لإعادة المصراع إلى مكانه، فاقتربت لمساعدته. أخيراً نزل المصراع محدثاً صوتاً قوياً، وتهادت الستائر لتستقر بهدوء بجانب النافذة. كانت قطرات عصير الكرّز قد تركت أثراً أحمر متناثراً فوق الثلج في الخارج. «تشبه إحدى لوحات جان كوكتو، أليس كذلك؟»

قال فرانسيس: «أنا مرهق. إذا كنت لا تمانع، سأستحم الآن». علا صوت جريان المياه، كنت على وشك المغادرة عندما رن الهاتف، كان المتصل هنري.

قال: «آسف، اعتقدت أنني اتصلت بفرانسيس». أجبته: «بالفعل، إنه هنا. انتظر لحظة».

تركت الهاتف وناديته، فخرج من الحمام مرتدياً بنطاله وقميصه الداخلي، وأثار رغوة الحلاقة على ذقنه، وفي يده ماكينة حلاقة.

«من؟»

«هنري».

«أخبره أنني في الحمام».

قلت: «إنه في الحمام».

قال هنري: «إنه ليس في الحمام، إنه يقف معك في الغرفة، أستطيع سماعه».

ناولت فرانسيس الهاتف، فباعد بين السماعه وبين وجهه حتى لا يصل الصابون إليها، سمعت هنري يتحدث بعبارات غير

واضحة، بعد لحظة اتسعت عينا فرانسيس الناعستين وقال: «لا، ليس أنا».

ثم سمعت صوت هنري مرة أخرى، كان مقتضباً وعملياً.
«لا، أعني ذلك يا هنري. أنا منهك وسأنام ولن أتمكن من...»،
لكنه فجأة تغيّر، وشتم بصوت عالٍ، ثم وضع السماعة بعنف
لدرجة أنها اهتزت.

«ماذا دهالك؟»

نظر إلى الهاتف بحدة وقال: «لعنه الله، أغلق الخط في وجهي».
«ماذا حدث؟»

«يريدنا أن نخرج مع فريق البحث اللعين مرة أخرى، الآن. أنا
لست مثله، لا أستطيع البقاء مستيقظاً خمسة أو ستة أيام».
«الآن؟ ولكن الوقت مبكر جداً».

«استأنفوا عملية التمشيط منذ ساعة، هكذا يقول، اللعنة
عليه، ألا ينام أبداً؟»

لم نكن قد تحدثنا عن الحادث الذي وقع في غرفتي قبل عدة
ليالٍ، وفي صمت السيارة المشوب بالنعاس، شعرت بالحاجة إلى
توضيح الأمور.

قلت: «أنت تعلم يا فرانسيس».

«ماذا؟»

ترددت لحظة، ثم قررت الحديث بوضوح: «أنت تعلم، أنا لست
منجذباً إليك بهذا الشكل. أعني، ليس بهذه الطريقة...».
أجاب ببرود: «أليس هذا مثيراً للاهتمام، أنا أيضاً لست
منجذباً إليك».

«لكن...».

«لكنك كنت هناك وأنا كنت ثملاً، لم أكن في رشدي، أعتذر إليك».

قدنا بقية الطريق إلى الكلية في صمت متوتر.

تصاعدت الأحداث على نحو لا يصدق أثناء الليل. باتت المنطقة تعج بمئات الأشخاص؛ بعضهم يرتدي الزي الرسمي، وآخرون يقودون كلاباً ويحملون مكبرات صوت وكاميرات. كان هناك من يشترون لفائف الحلوى من عربة الطعام، وآخرون يحدقون بنظرات فضولية عبر النوافذ المظلمة لشاحنات المحطات الإخبارية - ثلاث شاحنات إحداها من بوسطن- المصطفة على العشب أمام القاعة العامة، إلى جانب سيل من السيارات التي لم تجد مكاناً في ساحة انتظار السيارات المزدحمة بالكامل.

وجدنا هنري على الشرفة الأمامية لمبنى القاعة العامة منهمكاً في قراءة كتيب صغير مجلد بالرق مكتوب بإحدى لغات الشرق الأدنى. أما التوأمان الناعسان بأنفيهما الحمرأوين وملابسهما المجمدة فقد كانا مستلقيين على مقعد مثل مراقبين، تبدو عليهما آثار الإرهاق، يتبادلان فنجان قهوة بينهما. ركل فرانسيس حذاء هنري بخفة ليوقظه من تركيزه، جفل هنري قليلاً، ثم قال: «أوه، صباح الخير».

رد فرانسيس متذمراً: «كيف يمكنك أن تقول ذلك؟ لم أنم لحظة واحدة، ولم أتناول شيئاً منذ ثلاثة أيام تقريباً».

أغلق هنري الكتيب بعد أن حدد الصفحة بشريط، ووضعه في جيب سترته بهدوء وقال: «إذن، اذهب وأحضر دونات».

«ليس لديّ أي مال».

«سأعطيك المال إذن».

«لا أريد دونات لعين».

ذهبت وجلست بجوار التوأمين. قال لي تشارلز بنبرة ساخرة:
«قد فاتتك سهرة ممتعة ليلة أمس».

«هكذا سمعت».

«عرضت علينا زوجة هيو صور طفلها مدة ساعة ونصف».

قالت كاميللا: «نعم، ساعة ونصف على الأقل، حتى أن هنري
شرب بيرة من علبة، وهو أمر ينفر منه بشدة».

ساد صمت قصير.

قال تشارلز: «إذن ماذا فعلت أنت؟».

«لا شيء، شاهدت فيلماً على التلفاز».

مال كلاهما نحوي باهتمام. قالت كاميللا: «أوه حقاً؟ الفيلم
الذي يتحدث عن تصادم الكواكب؟ كان السيد كوركوران يشغله،
لكن أحدهم غيّر القناة قبل النهاية. كيف انتهى؟»
سألت: «ما آخر جزء شاهدتماه؟»

«كانوا في المختبر الجبلي، حيث تحالف العلماء الشباب
المتحمسون جميعاً ضد ذلك العالم العجوز المتشائم الذي لم
يرغب في المساعدة».

بينما كنت أشرح نهاية الفيلم، اندفع كلوك رايبورن فجأة من
وسط الحشد. توقفت عن الكلام معتقداً أنه قادم نحونا، لكنه
مرّ بجانبنا وأوماً برأسه إلينا، ثم توجه إلى هنري الذي كان يقف
على حافة الشرفة.

سمعته يقول: «اسمع، لم تُتَح لي الفرصة للتحدث معك الليلة الماضية. تمكنت من الوصول إلى هؤلاء الأشخاص في نيويورك، وباني لم يذهب إلى هناك».

صمت هنري لحظة ثم قال: «ألم تقل إنك لا تستطيع الوصول إليهم؟»

رد كلوك: «حسنًا، استطعت ذلك بعد جهد كبير، عانيت الأمرين حتى أصل إليهم. لكنهم لم يروه على أي حال».

سأله هنري بهدوء: «كيف تعرف؟»

«ماذا تعني؟»

«ألم تقل إنك لا تستطيع أن تصدق أي شيء مما يقولونه؟».

ظهرت الدهشة على وجه كلوك. قال مترددًا: «هل قلت ذلك؟».

رد هنري بهدوء: «نعم، قلت ذلك».

قال كلوك وهو يخلع نظارته الشمسية: «انتظر لحظة، استمع إليّ»، كانت عيناه محمرتين ومنتفختين. «هؤلاء الرجال يقولون الحقيقة، لم أفكر في الأمر سابقًا -حسنًا، ربما لأنه لم يمر وقت طويل- لكن على أي حال، القصة منتشرة في كل صحف نيويورك. لو كانوا قد فعلوا شيئًا له بالفعل، لما بقوا في شقتهم يتلقون مكالمات هاتفية مني... ما بالك يا رجل؟»، سأل بعصبية عندما لم يتلقَ ردًا من هنري: «أنت لم تقل أي شيء لأي شخص، أليس كذلك؟»

أصدر هنري صوتًا غامضًا من حلقه، يمكن تفسيره بأي شكل.

«ماذا؟»

قال هنري بوجه خالٍ من أي تعبير: «لم يسألني أحد».

انتظر كلوك الذي كان الانزعاج واضحاً على ملامحه أن يتابع هنري الحديث. وعندما لم يحدث ذلك، ارتدى نظارته الشمسية مجدداً بطريقة تدل على الحيرة.

ثم قال متردداً: «حسناً... حسناً، أراك لاحقاً».

بعد أن رحل، التفت فرانسيس إلى هنري، وقد بدت على وجهه نظرة حيرة، وقال: «ما الذي تفعله بحق السماء؟» لكن هنري لم يرد.

مر اليوم كأنه حلم؛ استمر حديث وصياح الناس، ونباح الكلاب، وهدير طائفة مروحية تحلق فوقنا. كانت الرياح تعصف بين الأشجار بزئير يشبه هدير المحيط. أرسلت المروحية من مقر شرطة ولاية نيويورك في ألباني، وقد أخبرنا أنها مجهزة بجهاز استشعار للحرارة بالأشعة تحت الحمراء. بالإضافة إلى ذلك وُضعت طائفة شرعية فائقة الخفة في خدمة عملية التمشيط، وكانت تحلق على ارتفاع منخفض تكاد تلامس قمم الأشجار. تدخلت الرتب العليا في عملية البحث، كان قادة الكتائب يحملون مكبرات الصوت، ونحن نسير عبر التلال المغطاة بالثلوج مجموعة تلو الأخرى.

كانت الحقول الممتدة أمامنا مغطاة بالذرة والمراعي والهضاب مثقلة بالشجيرات. ومع اقترابنا من قاعدة الجبل، بدأت الأرض تميل نحو الانحدار. غلّف الوادي ضباب كثيف أشبه ببخار أبيض يغلي في مرجل، لا تظهر منه سوى رؤوس الأشجار التي بدت صارخة ودانتية الطابع. هبطنا ببطء، حتى توارى العالم تدريجياً

خلف غشاء الضباب. كان تشارلز بجانبى يبدو واضحاً وحقيقياً بوجهه المتورد وأنفاسه المجهدة، لكن هنري الذي كان يمشى أمامنا في الأسفل تحول إلى شبه طيف، كان ضبابياً وبالكاد مرئياً وسط الضباب الكثيف.

عندما بدأت الأرض ترتفع بعد ساعات من المشي، وجدنا أنفسنا نصعد خلف مجموعة أصغر. دهشت حين رأيت بعض الأشخاص في هذه المجموعة: مارتن هوفر الملحن المرموق من كلية الموسيقى، والسيدة التي تتحقق من بطاقات الهوية في طابور الغداء والتي بدت مأساوية بشكل غير مفهوم في معطفها البسيط، والدكتور رولاند الذي كان صوت تمخطه مسموعاً حتى من بعيد.

قال تشارلز: «انظروا. هذا جوليان، أليس كذلك؟»
«أين؟»

قال هنري: «بالتأكيد لا».

لكنه كان هو بالفعل، ومن اللافت أنه تظاهر بعدم رؤيتنا حتى اقتربنا منه جداً، فلم يعد بإمكانه تجاهلنا بعد ذلك. كان يستمع إلى سيدة صغيرة ذات وجه يشبه الثعلب، كنت أعرف أنها من المشرفات على المهاجع.

قال بعد أن انتهت من حديثها، وهو يتراجع متصنعاً المفاجأة: «من أين أتيتم؟ هل تعرفون السيدة أورورك؟».

ابتسمت السيدة أورورك بخجل، وقالت: «لقد رأيتمكم جميعاً من قبل، يعتقد الشباب أن الموظفين لا يلاحظونهم، لكنني أعرف على الجميع من النظرة الأولى».

قال تشارلز: «حسنًا، أتمنى ذلك. لا يمكن أن تكوني قد نسيت، أليس كذلك؟ منزل بيشوب، رقم عشرة؟»، قال هذا بدفء لدرجة أن وجهها تورد من السرور.

أجابت: «بالطبع، أذكرك جيدًا، أنت ذلك الفتى الذي يأخذ دائمًا مكنستي بلا استئذان».

خلال هذا الحديث، كان هنري وجوليان يتهاامسان. سمعت جوليان يقول بنبرة مستاءة: «كان ينبغي أن تخبروني سابقًا».

«لقد أخبرناك».

قال جوليان وقد بدا عليه الضيق: «حسنًا، ربما أخبرتموني، لكن ذلك لم يكن كافيًا، لقد تغيب إدموند عن الصف في مناسبات سابقة، اعتقدت أنه كان يتظاهر بالمرض، الآن يقولون إنه مخطوف، أليس هذا سخيفًا إلى حد ما؟»

قاطعتهم السيدة أورورك قائلة: «أفضل أن يتعرض أحد أفراد عائلتي للخطف بدلًا من البقاء في الخارج في هذا الثلج ستة أيام».

رد جوليان: «آمل بالطبع ألا يحدث له أي مكروه. هل تعلمون أن عائلته هنا؟ هل رأيتموهم؟»

أجاب هنري: «ليس اليوم».

تابع جوليان في عجالة: «نعم، نعم بالطبع»، كان واضحًا نفوره من عائلة كوركوران. «لم أتمكن من رؤيتهم أيضًا. هذا ليس الوقت المناسب للتطفل... لكن هذا الصباح صادفت والده وأحد إخوته. وكان معهما طفل صغير يحمله على كتفيه كأنهم في نزهة».

قالت السيدة أورورك: «لا أرى أي مبرر لإخراج طفل صغير في مثل هذا الطقس، بالكاد يبلغ من العمر ثلاث سنوات». «نعم، إنني أتفق معك، من الغريب أن يحضر أي شخص طفلاً في هذه الظروف».

«بالتأكيد لم أكن لأسمح لأحد من أولادي بالصراخ بلا انقطاع في مثل هذا الوضع».

تمتم جوليان: «ربما كان الجو بارداً». كانت النبرة التي استعملها بمثابة إشارة مهذبة إلى أنه سئم من الموضوع وأراد التوقف عن الحديث عنه.

تتحنح هنري: «هل تحدثت إلى والد باني؟» «قليلاً فقط... حسناً، أعتقد أن كلاً منا لديه طريقة مختلفة للتعامل مع مثل هذه الأمور... إدموند يشبه أباه كثيراً، أليس كذلك؟».

قالت كاميللا: «وأيضاً جميع إخوته». ابتسم جوليان، وقال: «نعم! وهناك كثير منهم! مثل شيء خرج من قصة خرافية...»، ألقى نظرة خاطفة على ساعته، وقال: «يا إلهي، لقد تأخر الوقت».

أفاق فرانسيس من صمته الكئيب، وسأل جوليان بلهفة: «هل سترحل الآن؟ هل تريد مني أن أوصلك بالسيارة؟»، كانت هذه محاولة صارخة للهروب.

تورد أنف هنري، غضب بعض الشيء ولكنه وجد محاولة فرانسيس مضحكة. رمق فرانسيس بنظرة قذرة، ولكن جوليان الذي كان يحدق إلى الأفق البعيد وغير مدرك تماماً للدراما التي

تتوقف على إجابته، هز رأسه وقال: «لا، شكرًا لك... أنا حقًا قلق جدًا على إدموند المسكين».

قالت السيدة أورورك: «فكر فحسب فيما يشعر به والداه».

قال جوليان بنبرة نجحت في نقل تعاطفه مع عائلة كوركوران والنفور منهم في الآن نفسه: «نعم، سيستبد بي القلق لو كنت مكانهم».

تجهم جوليان فجأة ورفع ياقة معطفه، وتابع قائلاً: «الليلة الماضية كنت مستاءً جدًا ولم أستطع النوم. إدموند فتى رائع، صحيح أنه متهور أحيانًا لكنني أحببته حقًا، لا أعلم كيف سأتحمل الأمر إذا أصابه مكروه».

كان جوليان ينظر من فوق التلال إلى ذلك المشهد السينمائي المهيب، حيث امتدت الثلوج والرجال في البرية أسفلنا. وعلى الرغم من التوتر في صوته، فقد علت نظرة حاملة غريبة وجهه. كنت أعلم أن اختفاء باني قد أزعجه، لكنني أدركت أيضًا أنه وجد جمال المشهد الأوبرالي لعملية البحث شيئًا جذابًا، وأنه على نحو مبهم يستمتع بجماليات هذا العرض. لاحظ هنري ذلك أيضًا، وعلّق قائلاً: «يبدو كأنه مشهد من رواية لتولستوي».

التفت جوليان نحوه، وكم أدهشني أن أرى على وجهه بهجة حقيقية، قال: «نعم».

نحو الساعة الثانية بعد الظهر، تقدم نحونا رجلان يرتديان معطفين داكنين كأنهما خرجا من العدم، قال الأقصر بينهما: «تشارلز ماكولاي؟»

كان رجلاً عريض الصدر ذا نظرة جامدة ولكن في عينيه شيء من اللين. توقف تشارلز بجانبه، ونظر إليه بهدوء، ثم أخرج الرجل شارة من جيب صدره قائلاً: «العميل هارفي دافنبورت، من القسم الإقليمي الشمالي الشرقي في مكتب التحقيقات الفيدرالي».

للحظة اعتقدت أن تشارلز قد يفقد رباطة جأشه، لكنه اكتفى بالرمش قائلاً ببرود: «ماذا تريد؟»

قال الرجل الأطول: «نود التحدث إليك إذا كنت لا تمانع، لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً». كان إيطالياً بكتفين محنيتين وأنف أفطس كئيب، وكان صوته لطيفاً ومريحاً.

توقف هنري وفرانسيس وكاميلاً جميعاً وراحوا يحدقون إلى الغربيين بدرجات متفاوتة من الاهتمام والقلق.

قال دافنبورت بنبرة مازحة: «إلى جانب ذلك، من الجيد أن تخرج من هذا البرد لدقيقتين، أراهن أن البرد قد تسلل إلى عظامك!»

وبعد مغادرتهما، غمرنا جو من التوتر الصامت، لم يكن بوسعنا التحدث، فواصلنا السير بصمت، نحدق إلى الأرض خائفين أن نرفع أعيننا.

سرعان ما أصبحت الساعة الثالثة ثم الرابعة، لم يكن البحث قد انتهى تماماً بعد، لكننا توجهنا بسرعة وصمت نحو السيارة بمجرد ظهور أولى العلامات على انتهاء البحث اليوم.

قالت كاميلاً للمرة العاشرة تقريباً: «ماذا تظن أنهما يريدان منه؟».

قال هنري: «لا أعرف».

«لقد أعطاهم إفادته بالفعل».

أعطاهما للشرطة، وليس لمكتب التحقيقات الفيدرالي».

«ما الفرق؟ لماذا يريدون التحدث إليه؟»

«لا أعلم يا كاميللا».

عندما وصلنا إلى شقة التوأمين، شعرنا بالارتياح عندما وجدنا تشارلز هناك مستلقيًا على الأريكة، ويشرب مشروبًا من كأس وضعه فوق المنضدة بجانبه، ويتحدث مع جدته عبر الهاتف، وقد بدا عليه بعض آثار السكر.

عندما أنهى المكالمة قال لكاميللا: «نانا ترسل تحياتها. إنها قلقة بسبب بعوضة أو شيء مشابه تسلفت إلى أزهار الأزاليا في حديقتها».

قالت كاميللا بحدة: «ما هذا الذي في يديك؟»

مد تشارلز يديه نحوها، وكانت ترتعشان قليلًا، وبدأت أطراف أصابعه ملوثة بالسواد.

قال: «لقد أخذوا بصمات أصابعي، كانت تجرية مثيرة، لم أخضها من قبل».

شعرنا جميعًا بالصدمة لدرجة أننا لم نتمكن من قول أي شيء، تقدم هنري ليفحص إحدى يديه تحت الضوء، وقال: «هل تعرف لماذا فعلوا ذلك؟»

مسح تشارلز جبينه بالجزء الخلفي من معصمه الحر وقال: «لقد أغلقوا غرفة بانني، هناك من يفتش الأوراق ويضع الأشياء في أكياس بلاستيكية».

أسقط هنري يده وقال: «لكن لماذا؟»

«لا أعلم، أرادوا أخذ بصمات كل من كان في الغرفة يوم الخميس ولمس الأشياء».

«وما الفائدة من ذلك؟ ليس لديهم بصمات باني».

«يبدو أنها لديهم بالفعل. كان باني في الكشافة وأخذوا بصماته عندما أصدر شارة فرقة إنفاذ القانون منذ سنوات، وما زالت مسجلة لديهم».

جلس هنري، ثم سأل: «ولماذا أرادا التحدث إليك؟»

«كان هذا أول شيء سألاني عنه».

«ماذا؟»

«لماذا تعتقد أننا نريد التحدث إليك؟» مرر كعب يده فوق جانب وجهه، وأكمل: «هؤلاء الناس أذكىاء، أذكى بكثير من الشرطة».

«كيف عاملاك؟»

هز تشارلز كتفيه قائلاً: «كان دافنبورت فظاً بعض الشيء، أما الآخر الإيطالي فقد كان ألطف منه ولكنه أخافني، لم يتكلم كثيراً بل اكتفى بالاستماع، إنه أذكى من الآخر....».

قال هنري بنفاد صبر: «حسناً؟ ماذا حدث؟»

«لا شيء.. نحن... لا أعرف. علينا أن نكون حذرين حقاً، هذا كل شيء، حاولا إيقاعي في الكلام أكثر من مرة».

«ماذا تقصد؟»

«حسناً، على سبيل المثال عندما أخبرتهما أنني وكلوك ذهبنا إلى غرفة باني في الساعة الرابعة يوم الخميس».

قال فرانسيس: «هذا هو الوقت الذي ذهبت فيه».

«أعرف ذلك، لكن الإيطالي -على الرغم من لطفه- بدا قلقاً، وقال: هل أنت متأكد يا بني؟ فكر جيداً. أربكني الأمر لأنني كنت واثقاً من أننا ذهبنا في الرابعة، ثم قال دافنبورت: من الأفضل أن تفكر ملياً في الأمر، لأن صديقك كلوك أخبرنا أنكما كنتما في تلك الغرفة مدة ساعة كاملة قبل أن تستدعيا أي أحد».

قال هنري: «لقد أرادا معرفة إن كان لديك أنت وكلوك ما تخفيانه».

«ربما. وربما أرادا فحسب معرفة إن كنت سأكذب بشأن ذلك».

«هل فعلت؟».

«لا، لكن إذا سألاك عن شيء أكثر حساسية، وكنت تشعر بالخوف قليلاً... فأنت لا تدرك كيف سيكون الأمر. أنت واحد وهما اثنان، وليس لديك وقت كافٍ للتفكير...».

تابع بسرعة عندما حاول هنري مقاطعته: «أعلم، أعلم، لكنهما ليسا مثل رجال الشرطة العاديين. لا يتوقع رجال شرطة البلدة الصغيرة هؤلاء العثور على شيء مهم. سيُصدمون إذا اكتشفوا الحقيقة، وربما لن يصدقوها حتى لو أخبرتهم بها. أما هؤلاء...».

ارتجف وقال: «لم أدرك قط مدى اعتمادنا على المظاهر. ليس لأننا أذكياء جداً، ولكن لأننا لا نبدو كمن ارتكب جريمة قتل. يمكن أن نزعم أننا مجموعة من معلمي مدارس الأحد وسيصدقنا الآخرون، لكن هذين الرجلين، لن ينخدعا بهذه البساطة».

التقط كأسه وأخذ رشفة.

ثم قال: «بالمناسبة، طرحا مليون سؤال عن رحلتكما إلى إيطاليا».

نظر هنري إلى الأعلى مذهولاً: «هل سألا عن أي شيء يتعلق بمصاريف الرحلة؟ أو من الذي دفع ثمنها؟»

«لا»، أنهى تشارلز كأسه وحرّك الثلج في قاعه للحظة، وأكمل: «كنت خائفاً أن يسألا عن ذلك، لكن يبدو أنهما مفتونان جداً بعائلة كوركوران. أعتقد أنه إذا أخبرتهما أن باني لم يرتد نفس السراويل الداخلية مرتين، فمن المحتمل أن يصدقاني».

«لا أعرف، بدا لي أنهما كانا مهتمين بكلوك أكثر من أي شيء آخر. ربما أرادا فقط التأكد من تطابق قصته مع قصتي، لكنهما طرحا بعض الأسئلة الغريبة حقاً، لا أعرف... لن أفاجأ إن كان كلوك يخبر الناس بنظريته المجنونة بأن تجار المخدرات هم من اختطفوا باني».

قال فرانسيس: «بالتأكيد لا».

«حسناً، لقد أخبرنا بذلك ونحن لسنا حتى من أصدقائه، على الرغم من أن رجلي مكتب التحقيقات الفيدرالي يبدو أنهما يعتقدان أننا مقربان».

قال هنري وهو يشعل سيجارة: «آمل أن تكون قد بذلت جهداً حثيثاً لتصحيح المعلومة لهما».

«أنا متأكد من أن كلوك كان سينفي لهما تلك الفرضية».

قال هنري: «ليس بالضرورة»، هز عود الثقاب لإطفائه وألقاه في منفضة السجائر، ثم استنشق سيجارته بعمق، وأكمل: «هل تعلم، في البداية اعتقدت أن علاقتنا بكلوك ستكون مصيبة كبيرة،

ولكني الآن أرى أنها واحدة من أفضل الأشياء التي حدثت معنا». وقبل أن يسأله أحد عن قصده، نظر إلى ساعته، وقال: «يا إلهي. يجب أن نذهب إلى منزل فرانسيس، فالساعة تقارب السادسة، ويجب أن نتابع الأخبار».

في طريقنا إلى منزل فرانسيس، عبرت كلبة حامل الطريق أمامنا.

قال هنري: «هذا نذير شؤم». لكنه لم يحدد نذير شؤم على ماذا، هذا ما لم يقله.

كانت نشرة الأخبار قد بدأت للتو، رفع المذيع نظره عن أوراقه، بدا جدياً ولكنه في الوقت نفسه مسرور جداً.

«يستمر البحث المكثف الذي لم يسفر حتى الآن عن أي نتائج عن الطالب المفقود من كلية هامبدن، إدوارد كوركوران».

قالت كاميللا وهي تمد يدها إلى جيب معطف شقيقها بحثاً عن سيجارة: «يا إلهي، كنت أعتقد أنهم على الأقل سينطقون اسمه بالشكل الصحيح».

انتقل المشهد إلى لقطة جوية للتلال المكسوة بالثلوج، التي تنتشر عليها أشكال صغيرة مثل خريطة الحرب، وجبل كاتاراكت يظهر في المقدمة ضخماً ومائلاً بشدة.

قال التعليق الصوتي: «شارك نحو ثلاثمئة شخص في عملية التمشيط، بينهم أفراد من الحرس الوطني والشرطة ورجال الإطفاء في هامبدن وموظفي الخدمة العامة في وسط فيرمونت، إذ مشطوا تلك المنطقة الوعرة في اليوم الثاني من البحث،

بالإضافة إلى ذلك أطلق مكتب التحقيقات الفيدرالي تحقيقًا مستقلًا في هامبدن اليوم».

تمايلت الصورة، ثم تحولت فجأة إلى رجل نحيل أبيض الشعر يرتدي قبعة رعاة البقر، أبلغنا التعليق أنه ديك بوستونكيل عمدة مقاطعة هامبدن، كان يتكلم ولكن لم يخرج صوت من فمه، كان الباحثون يحومون بفضول في الخلفية الثلجية، ويشبون على أطراف أقدامهم ليظهروا في الكاميرا.

بعد لحظات، ظهر صوت مشوش ومتقطع للمسؤول وهو في منتصف حديثه: «نذكر الأشخاص الذين يضطرون إلى السير على الأقدام مسافة طويلة بضرورة التنقل في مجموعات، والبقاء على الطرق المرصوفة، وتحديد خط سير مسبق، وارتداء ملابس مُدْفئة كثيرة تحسبًا لأي انخفاض مفاجئ في درجات الحرارة».

عقب ذلك قال المذيع بنبرة مفعمة بالحيوية: «كان هذا عمدة مقاطعة هامبدن ديك بوستونكيل، يقدم نصائح لمشاهديننا حول الطريقة الآمنة للتنقل سيرًا على الأقدام خلال فصل الشتاء».

ثم استدار واقتربت الكاميرا منه بزاوية مختلفة، وقال: «وفي تطورات قضية اختفاء الشاب كوركوران، فبعد أن اتصل السيد ويليام هوندي وهو حرفي محلي ومتابع وفي لقناة أكشن نيوز 12 بخطنا الساخن وقدم معلومات تتعلق بالشاب المفقود تعد حتى الآن أحد الخيوط القليلة في القضية، فإنه يتعاون الآن مع سلطات البلدة والولاية لتقديم وصف لمختطف الشاب المزعومين».

قال هنري: «سلطات البلدة والولاية».

«ماذا؟»

«مكتب التحقيقات الفيدرالي غير مشارك في ذلك».

قال تشارلز: «بالطبع لا، هل تظن أن مكتب التحقيقات الفيدرالي سيصدق هذه القصة السخيفة التي يخلقها هذا الرجل من فيرمونت؟»

رد هنري: «لكن إذا لم يصدقوها، فلماذا هم هنا إذن؟»، كانت تلك الفكرة مزعجة.

في شمس الظهيرة المتأخرة هرول مجموعة من الرجال على درجات قاعة المحكمة، وكان بينهم السيد هوندي، كان ينظر إلى الأرض وشعره مصفف بعناية، وقد ارتدى بدلة غير رسمية زرقاء بدلاً من زي محطة الوقود المعتاد، اقتربت منه ليز أوكافيلو وهي مراسلة مشهورة محلياً تقدم برنامجاً عن القضايا الجارية وفقرة بعنوان «إيقاع سينمائي» في نشرة الأخبار المحلية، رفعت ميكروفونها وسألته: «السيد هوندي».

توقف متحيراً فيما واصل رفاقه السير، وتركوه وحيداً على درجات السلم. وعندما أدركوا ما يحدث، عادوا أدراجهم وأحاطوا به في وقفة رسمية. أمسكوا بذراعيه كأنهم يحاولون إبعاده، لكنه ظل واقفاً في مكانه متردداً.

شقت ليز أوكافيلو طريقها نحوه وقالت: «سيد هوندي، سمعت أنك قد تعاونت اليوم مع رسامي الشرطة لرسم صورة دقيقة للشخصين اللذين رأيتهما مع الشاب المفقود يوم الأحد».

أوما السيد هاندي برأسه بشكل سريع، كان سلوكه الخجول في اليوم السابق قد اتسم بالثقة الآن.

«هل يمكن أن نخبرنا كيف يبدو؟»

اندفع الرجال حول السيد هوندي مرة أخرى، لكنه بدا مفتوناً بالكاميرا.

قال: «حسنًا، لم يكونا من هنا. كانا... داكني البشرة».

«داكني البشرة؟»

كانوا يسIRON الآن على الدرج، لكنه ألقى نظرة خلفه كأنه يشارك سرًا، وقال: «كانوا عريًا».

بدت ليز أوكافيلو غير مبالية بهذا التصريح لدرجة أنني شككت أنني سمعت كلامه بشكل صحيح، ثم استدارت بوقار بنظارتها الأنيقة وتصفيفة شعرها الضخمة التي اشتهرت بها كمذيعة أخبار، وقالت: «شكرًا لك يا سيد هوندي». فيما كان السيد هوندي وأصدقاؤه يتوارون عن الأنظار نزولاً على الدرج. ثم أردفت: «كانت معكم ليز أوكافيلو من أمام محكمة مقاطعة هامبدن».

قال المذيع بمرح وهو يدور في كرسيه: «شكرًا، ليز».

قالت كاميللا: «مهلاً، هل قال فعلاً ما سمعته؟»

«ماذا؟»

«العرب؟ قال إن باني كان يركب سيارة مع بعض العرب؟»

تابع المذيع: «وفي تطور ذي صلة، انضمت كنائس المنطقة إلى صلاة جماعية من أجل الفتى المفقود. ووفقًا للقس أ. ك. بوولي من الكنيسة اللوثرية الأولى، فقد قدّمت كنائس عديدة في منطقة تراي-ستيت، بما في ذلك الكنيسة المعمدانية الأولى، والكنيسة الميثودية الأولى، وكنيسة السر المبارك، وجماعة الرب وغيرها من التجمعات الدينية، دعمها وصلواتها....».

قال فرانسيس: «أتساءل ما الذي يصبو إليه ميكانيكي سيارتك يا هنري».

أشعل هنري سيجارة، وبعد أن دخن نصفها قال: «هل سألاك أي أسئلة تتعلق بالعرب، يا تشارلز؟»
«لا».

قالت كاميللا: «لكنهم قالوا للتو على شاشة التلفزيون إن هوندي لا يتعامل مع مكتب التحقيقات الفيدرالي».
«لا نعرف ذلك».

«هل تعتقد أن كل هذا تمثيلية من نوع ما؟»
«لا أعرف».

تغيرت الصورة على الشاشة، ظهرت امرأة نحيلة أنيقة في الخمسينيات من عمرها، ترتدي معطف شانيل وعقدًا من اللؤلؤ، وشعرها الطويل المسترسل يصل إلى كتفها، بدا صوتها الأنفي مألوفًا لي بطريقة غريبة، لكنني لم أستطع تحديد أين سمعته من قبل.

قالت: «أهل هامبدن طيبون جدًا. عندما وصلنا إلى فندقنا في وقت متأخر من بعد ظهر أمس، كان الناطور بانتظارنا...».
قال فرانسيس باستهجان: «ناطور؟ ليس لديهم ناطور في فندق كوتشليت».

أمعنت النظر إلى هذه المرأة بفضول جديد: «هل هذه والدة باني؟».

قال هنري: «نعم، صحيح. أنسى دومًا أنك لم تقابلها».
كانت امرأة نحيلة ذات جلد مشدود حول رقبتها المغطاة

بالنمش كما هو معتاد لدى النساء في مثل سننها وطباعها، كانت تشبه بانى بعض الشيء، لكن شعرها وعينيها لهما نفس اللون. بدا أنفها الصغير الحاد والفضولي منسجماً مع ملامح وجهها، لكن لطالما كان ذلك الأنف غير متناسب مع وجه بانى، كأنه أضيف كفكرة لاحقة متأخرة في منتصف وجهه العريض والمسطح.

بدت متغطرة ومشتتة، وهي تدير خاتماً في إصبعها وتقول: «تلقينا سيلاً من التعاطف من جميع أنحاء البلاد... بطاقات بريدية ومكالمات هاتفية وزهوراً رائعة».

سألت: «هل أعطوها مهدئات؟»

«ماذا تقصد؟»

«لا تبدو متأثرة كثيراً».

قالت السيدة كوركوران بتأمل: «بالطبع، نحن نعيش في قلق دائم. وآمل ألا تضطر أي أم إلى تحمل ما مررت به في الأيام القليلة الماضية، لكن الطقس يبدو أنه يتحسن. التقينا كثيراً من الناس الطيبين، وقد قدم جميع التجار مساهمات سخية في كثير من التفاصيل اليومية الصغيرة...».

قال هنري عندما انتقلت المحطة إلى إعلان تجاري: «إنها تتمتع بحضور بصري رائع، أليس كذلك؟»
«تبدو كأنها امرأة صعبة المراس».

قال تشارلز ثملاً: «إنها قطعة من الجحيم».

قال فرانسيس: «أوه، إنها ليست بهذا السوء».

قال تشارلز: «أنت تقول ذلك فقط لأنها تتملكك دائماً بسبب والدتك».

«تتملقني؟ عن ماذا تتحدث؟ السيدة كوركوران لا تتملقني».

قال تشارلز: «إنها فظيعة، إنه لأمر مريع أن تُعلّم أبناءها أن المال أهم شيء في الحياة، ولكنه من العار أن يكدحوا من أجل الحصول عليه. وبعد ذلك تبذره من دون أن تدخر قرشاً واحداً، لم تكن تعطي بانى أي مال...».

تدخلت كاميللا: «لكن والد بانى أيضاً يتحمل جزءاً من المسؤولية».

«نعم، ربما. لا أعرف. لكنني لم أقابل في حياتي أشخاصاً جشعين وسطحيين إلى هذا الحد. تراهم وتظن أنهم عائلة رائعة وجذابة، لكنهم في الحقيقة فارغين مثل الإعلانات التجارية». أضاف تشارلز وهو يستدير ناحيتي: «لديهم غرفة في منزلهم يطلقون عليها اسم «غرفة جوتشي»⁽¹⁾».

«ماذا؟».

«نعم، طلوا الجزء السفلي من جدرانها بشرائط جوتشي المقلّمة الفظيعة تلك. نُشرت صور الغرفة في مجلات كثيرة، وكتبت مجلة «بيت جميل» مقالاً سخيماً عنها ضمن أفكار الديكور الغريبة التي يروجون لها. هل تعلمون، إنهم يروجون لرسم جراد البحر العملاق على سقف غرفة النوم ويصفونه بأنه أمر جذاب وجميل».

ثم أشعل سيجارة وأكمل: «عائلة بانى مثال حي على هذه النوعية من الناس، سطحيون ولا يهتمهم سوى المظاهر، كان بانى

(1) علامة تجارية إيطالية فاخرة في الأثاث والأزياء والمنتجات الجلدية أسسها جوتشيو جوتشي في فلورنسا 1921.

أفضلهم، لكن حتى هو لم يخلُ من هذه الصفات».

قال فرانسيس: «أمقت جوتشي».

قال هنري، وهو يرفع رأسه مستفيقاً من شروده: «حقاً؟ أعتقد أنه عظيم إلى حد ما».

«أرجوك، هنري!»

«حسنًا، أثاث جوتشي باهظ الثمن لكنه قبيح جدًا، أعتقد أنهم يجعلونه قبيحاً عن قصد، ومع ذلك فإن الناس يشترونه لأنهم يرونه خارجاً عن المألوف».

«لا أرى ما العظيم في ذلك».

فأجاب هنري: «أي شيء يمكن أن يكون عظيماً إذا انتشر على نطاق واسع، لكن العظمة والجمال لا يتلازمان دائماً».

في تلك الليلة، كنت أسير نحو المنزل شارد الذهن غير منته إلى طريقي، عندما اقترب مني شاب ضخيم متجهم الوجه قرب أشجار التفاح أمام منزل بونتام.

قال: «هل أنت ريتشارد بيبين؟».

توقفت، ونظرت إليه، وأجبت إنني هو.

لدهشتي باغتني بلكمة في وجهي، فسقطت على الثلج وارتطمت به بقوة جعلتني غير قادر على التنفس.

صرخ في وجهي: «ابتعد عن مني! إذا اقتربت منها مرة أخرى فسوف أقتلك. هل تفهم؟»

كنت مصدوماً لدرجة أنني لم أستطع الرد، حدقت إلى وجهه، ركلني بقوة بين أضلاعي، ثم انصرف بتثاقل، خطواته تسحق

الثلج، ثم سمعت صوت الباب يفلق خلفه. نظرت إلى السماء، بدت النجوم بعيدة جدًا. بعد لحظات من الألم، نهضت بصعوبة أشعر بالألم في ضلوعي، لكن لم يكن أي شيء مكسورًا، وسرت أعرج إلى المنزل في الظلام.

استيقظت متأخرًا في صباح اليوم التالي، شعرت بالألم في عيني عندما حركت خدي على الوسادة. بقيت مستلقيًا بعض الوقت، أرمش في مواجهة أشعة الشمس الساطعة، فيما بدأت تفاصيل الليلة الماضية تعود إليّ مشوشة كأنها حلم. مددت يدي إلى ساعتني على الطاولة جانب السرير، ورأيت أن الوقت قد تأخر، فقد أوشك النهار أن ينتصف، تساءلت: لماذا لم يأت أحد ليأخذني؟

نهضت، وعندما رفعت رأسي رأيت انعكاسي في المرآة، تسمرت في مكاني وحدثت بذهول، كان شعري أشعث وفمي مفتوحًا كأنني شخصية من كتاب مصور تعرضت لضربة قوية على الرأس بمطرقة، تطوف حول رأسي هالة من النجوم والطيور المفردة. والأغرب من ذلك كانت هناك حلقة مرسومة بشكل كاريكاتوري حول عيني، وقد تدرجت ألوانها الزاهية بين الأخضر المصفر والأرجواني والخوخي.

فرشت أسناني، وارتديت ملابسني، وهرولت خارجًا، كان أول من قابلته جوليان في طريقه إلى قاعة المحاضرة، عندما رأني تراجع في مفاجأة تشابلية بريئة.

قال: «يا إلهي، ماذا حدث لك؟»

«هل سمعت أي شيء هذا الصباح؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال وهو ينظر إليّ بفضول: «لا. لماذا؟ عينك تبدو كأنك خضت شجاراً في الحانة».

في أي وقت آخر كنت سأشعر بالحرج الشديد من الاعتراف بما حدث، لكنني سئمت من الكذب وشعرت برغبة مفاجئة في قول الحقيقة في هذه المسألة التافهة على الأقل، لذلك أخبرته بما جرى، وفوجئت بردة فعله.

قال بمرح طفولي: «إذن كان شجاراً لا كم ذلك مثيراً هل أنت معجب بها؟».

«أخشى أنني لا أعرفها جيداً».

انفجر ضاحكاً وقال: «يا عزيزي، يبدو أنك صادق اليوم. أصبحت الحياة فجأة مليئة بالأحداث الدرامية، أليس كذلك؟ كأنها قصة خيالية».

ثم أضاف: «بالمناسبة، هل أخبرتك أن بعض الرجال جاؤوا لرؤيتي بعد ظهر أمس؟»
«من كانوا؟»

«رجلان! في البداية شعرت بالقلق، ظننت أنهما من وزارة الخارجية أو ما هو أسوأ. هل سمعت عن مشكلاتي مع الحكومة الإسرائيلية⁽¹⁾؟»

لا أستطيع الجزم بما كان يعتقد جوليان حول ما تريده منه الحكومة الإسرائيلية، على الرغم من كونها دولة إرهابية، ولكن

(1) إسرائام Isram: وردت هكذا في الأصل وهو اسم بلد من خيال الكاتبة، وإن كان من سياق الفقرة يمكن ملاحظة التشابه بين ذلك البلد المتخيل وإيران.

مخاوفه كانت نابعة من أنه درّس الأميرة وريثة العرش المنفية قبل ما يقرب من عشر سنوات. بعد الثورة اضطرت الأميرة إلى الاختباء، وبطريقة ما درست في كلية هامبدن. أعطاهما جوليان دروسًا خاصة مدة أربع سنوات بإشراف وزير التعليم الإسرامي السابق، الذي كان يسافر أحيانًا من سويسرا مصطحبًا معه هدايا من الكافيار والشوكولاتة، للتأكد من أن المنهج الدراسي مناسب لوريثة عرش بلاده.

كانت الأميرة فاحشة الثراء. (لمحها هنري ذات مرة، مرتدية نظارة سوداء ومعطفًا فاخرًا من فرو السمور، تصعد بسرعة على درجات الكلية يتبعها حراسها الشخصيون). تتحدر سلالتها الملكية من برج بابل، وقد جمعت عائلتها ثروة هائلة منذ ذلك الحين، وتمكن أقاربها الناجون من تهريب جزء كبير منها خارج البلاد.

مع ذلك كان رأس الأميرة مطلوبًا، لذلك عاشت في عزلة، كانت تخضع لحراسة مشددة، وليس لديها أصدقاء حتى في سنوات مراهقتها في هامبدن. دفعتها السنوات اللاحقة لأن تعيش في عزلة كاملة، متقلة في خوف دائم من القتل الذين طاردوا أفراد عائلتها واحدًا تلو الآخر، ولم ينجُ منهم سوى ابن عم أو اثنين وأخ أصغر يعاني تخلفًا عقليًا كان في إحدى المصححات.

تعرضت عائلة الأميرة لموجة من الاغتيالات، وحتى وزير التعليم السابق الذي كان يشرف على تعليمها لقي حتفه برصاص قناص بعد ستة أشهر من تخرجها، عندما كان جالسًا في حديقة منزله الصغير ذي السقف الأحمر في مدينة مونثرو.

لم يكن جوليان منخرطاً في السياسة الإسرامية على الرغم من ولعه بالأميرة وتعاطفه -من حيث المبدأ- مع الملكيين على حساب الثوريين. لكنه رفض السفر بالطائرة أو قبول استلام أي طرد عليه عبارة «الدفع عند الاستلام»، وعاش في خوف من الزوار غير المتوقعين، ولم يسافر إلى الخارج منذ ثماني أو تسع سنوات. ولا أدري إن كانت تلك الاحتياطات معقولة أم مبالغاً فيها، لكن علاقته بالأميرة لم تكن تبدو عميقة إلى هذا الحد، وكنت شخصياً أشك في أن الجهاد الإسرامي لديه أشياء أولى ليفعلها بدلاً من مطاردة أساتذة الكلاسيكيات في نيو إنجلاند.

وأضاف: «بالطبع، لم يكونا من وزارة الخارجية كما ظننت في البداية، لكن يبدو أنهما مرتبطان بالحكومة بطريقة أو بأخرى، لديّ حاسة سادسة في مثل هذه الأمور، أليس هذا غريباً؟ كان أحدهما إيطالياً ساحراً جداً، لبقاً بطريقة لا تخلو من الغرابة، كنت مرتبكاً من الأمر كله، أخبراني أن إدموند كان يتعاطى المخدرات».

«ماذا؟»

«هل تعتقد أن هذا غريب؟ أعتقد أنه غريب جداً».

«وماذا قلت لهما؟»

«أجبت: بالتأكيد لا. قد أكون مخطئاً، لكنني أظن أنني أعرف إدموند جيداً. إنه خجول جداً ومحافظ إلى حد كبير، لا أستطيع تصويره يتعاطى المخدرات، بالإضافة إلى ذلك فإن الأشخاص الذين يتعاطون المخدرات عادة ما يكونون بليدين وسخفاء. ولكن، هل تعلم ماذا قال لي الرجل الإيطالي؟ قال إنه عندما يتعلق

الأمر بالشباب لا يمكنك التيقن أبدًا. لا أعتقد أن هذا صحيح،
أليس كذلك؟ هل تعتقد أنه صحيح؟»

فيما كنا نسير عبر القاعة العامة، كنت أسمع أصوات اصطدام
الأطباق فوق رؤوسنا قادمة من قاعة الطعام. رافقت جوليان إلى
قاعة المحاضرات بحجة وجود مهمة عليّ إنجازها في الجانب
الآخر من الحرم الجامعي. كان ذلك الجزء من الكلية في نورث
هامبدن عادةً هادئًا ومهجورًا، حيث يبدو أن الثلج يمتد بلا نهاية
تحت أشجار الصنوبر، ولكن الآن كانت الأرض مشوشة بالأقدام
مليئة بالفوضى والقمامة كأنها ساحة معرض في أيامه الأخيرة،
كان هناك حادث؛ أحدهم صدم شجرة دردار بسيارة جيب تاركًا
وراءه زجاجًا مهشمًا وسيارًا مشوهًا، بالإضافة إلى جرح غائر
وواسع لونه أصفر في جذع الشجرة، عندما كانت مجموعة من
أطفال البلدة المشاغبيين يتزلجون إلى أسفل التل على قطعة من
الورق المقوى وهم يصرخون بفرح.

قال جوليان: «يا إلهي، هؤلاء الأطفال المساكين».

تركته عند الباب الخلفي لقاعة المحاضرات وتوجهت إلى
مكتب الدكتور رولاند. كان يوم الأحد ولم يكن الدكتور رولاند
موجودًا. دخلت المكتب وأغلقت الباب خلفي، أمضيت فترة ما
بعد الظهر في عزلة هادئة، أرتب الأوراق، وأحتسي قهوة رديئة
من كوب ورقي يحمل شعار «قهوة روندا»، وأنصت بلا تركيز إلى
الأصوات القادمة عبر الممر.

خطرت على بالي فكرة غريبة؛ بإمكانني فهم تلك الأصوات
إذا أوليت لها بعض الانتباه، لكنني لم أفعل، ولم أعرف هوية

المتحدثين إلا لاحقاً، بعد أن غادرت المكتب ونسيت كل شيء عنهم. وربما لم أكن في مأمن تماماً من الخطر كما كنت أتصور في ذلك اليوم.

أخبرني هنري أن رجلي مكتب التحقيقات الفيدرالي نصباً مقرراً مؤقتاً في قاعة محاضرة فارغة في الممر قبالة مكتب الدكتور رولاند، وكان هذا هو المكان الذي تحدث إليه فيه. لم يكونا على بعد عشرين قدماً من المكان الذي كنت أجلس فيه فحسب، بل كانا يشربان القهوة الرديئة نفسها من الغلاية التي أعدتها في صالون المعلمين.

قال هنري: «هذا غريب، أول شيء خطر ببالي عندما تذوقت تلك القهوة هو أنت».

«ماذا تقصد؟»

«طعمها غريب، محروقة مثل قهوتك».

كانت قاعة المحاضرة تلك (كما وصفها هنري) تحتوي على سبورة مكتظة بالمعادلات الترييعية، ومنفضتي سجائر ممثنتين، وطاولة اجتماعات طويلة جلس إليها هنري والمحققين. كان هناك أيضاً جهاز كومبيوتر محمول، وحقيبة قضائية عليها شارة مكتب التحقيقات الفيدرالي المميزة باللون الأصفر، وعلبة من حلوى سكر القيقب على شكل ثمرة البلوط وعرائس مصفرة موضوعة في أكواب ورقية. كانت تخص المحقق الإيطالي الذي قال: «من أجل أطفال».

أبلى هنري -كما هو متوقع- بلاءً حسناً في التحقيق، لم يخبرني بذلك لكنه في النهاية لم يكن بحاجة إلى إخباري،

فتصرفاته أظهرت ذلك. كان هنري من بعض النواحي مؤلف هذه الدراما، وكان ينتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل ليقف على خشبة المسرح ويؤدي الدور الذي كتبه لنفسه؛ رابط الجأش، وبارد الأعصاب لكنه ودود، متحفظ في تفاصيله لكنه بشوش بما يكفي ليحافظ على نبرته الإيجابية، أخبرني أنه استمتع بالحديث إلى المحققين.

كان دافنبورت فظًا ولا يستحق الذكر، أما الإيطالي فكان رزينًا ومهذبًا وساحرًا إلى حد كبير، (مثل أحد النبلاء الفلورنسيين القدماء الذين قابلهم دانتى في المطهر) اسمه سيولا، وكان مهتمًا جدًا برحلة هنري وباني إلى روما، وطرح أسئلة كثيرة عنها، بدا كأنه سائح شغوف أكثر من كونه محققًا. قال مازحًا: «هل خرجتما إلى... سان براسيدي⁽¹⁾، بجوار محطة القطار؟ تلك الكنيسة الصغيرة هناك؟»، تحدث بالإيطالية مع هنري محادثة قصيرة وجميلة، قاطعها دافنبورت الغاضب الذي لم يفهم أي كلمة وأراد التطرق مباشرة إلى صلب الموضوع.

لم يكن هنري واضحًا تمامًا معي بشأن تفاصيل التحقيق، لكنه قال إنه مهما كان المسار الذي يتبعه المحققان فهو متأكد تمامًا أنه ليس المسار الصحيح، وأضاف بثقة: «وأكثر من ذلك، أعتقد أنني اكتشفت كنه هذا المسار».

«ماذا؟».

«هما وراء كلوك».

(1) كنيسة القديس براسيديس، المعروفة باللغة الإيطالية باسم سانتا براسيدي، وهي كنيسة قديمة وبازيليكا صغيرة في روما، بُنيت بشكلها الحالي بأمر من البابا هادريان الأول نحو عام 780.

«يعتقدان أن كلوك قتله؟»

«يعتقدان أن كلوك يعرف أكثر مما يقول، ويعتقدان أن سلوكه مريب، وهو في واقع الأمر كذلك، يعرفان معلومات كثيرة لم يخبرهما بها».

«مثل ماذا؟».

«مثل تفاصيل عن تجارته السرية في المخدرات؛ التواريخ والأسماء والأماكن، أشياء حدثت حتى قبل مجيئه إلى هامبدن، كانا يحاولان ربط بعض تلك الأمور بي، وهو ما لم يتمكننا من إثباته بطريقة مرضية، يا إلهي! حتى أنهما سألاني عن وصفاتي الطبية ومسكنات الألم التي حصلت عليها من مستوصف الكلية في سنتي الأولى».

كانت أكوام الملفات والوثائق تنتشر في كل مكان أمامهما مملوءة بالبيانات الخاصة بالكلية التي لا يمكن الوصول إليها إلا بشكل خاص؛ السجل الطبي، والتقييمات النفسية، وتعليقات أعضاء هيئة التدريس، وعينات من واجباته ودرجاته، بالطبع تأكدا من أنني رأيت كل هذه الوثائق بهدف ترهيبني على ما أعتقد. أعرف تماماً ما تقوله سجلاتي، لكن فيما يخص كلوك، درجاته السيئة، والمخدرات، وإيقاف قيده في الكلية أكثر من مرة... أنا على استعداد للمراهنة بأن أثراً كبيراً من مشكلاته بقي في تلك الأوراق. لا أعرف إن كانت السجلات نفسها هي ما أثارت فضولهما، أو إن كان كلوك قد قال شيئاً خلال حديثه معهما، لكن ما كانا يسعيان للحصول عليه مني -ومن جولييان، وكذلك من

برادي وباتريك كوركوران اللذين تحدثا إليهما الليلة الماضية- هو تفاصيل حول علاقة باني بكلوك.

لم يكن جوليان بطبيعة الحال يعرف شيئاً عن ذلك، ولكن يبدو أن برادي وباتريك أخبراهما بالكثير، وكذلك فعلتُ أيضاً». «عمّ تتحدث؟»

«أعني أن برادي وباتريك كانا مع كلوك في ساحة انتظار السيارات بفندق كوتشليت يدخان الماريجوانا الليلة قبل الماضية».

«وماذا قلت أنت لهما؟»

«ما أخبرنا به كلوك عن تجارة المخدرات في نيويورك».

تراجعت إلى الخلف في مقعدي من شدة المفاجأة، وقلت: «يا إلهي! هل أنت متأكد من أنك تعرف ما تفعله هنا؟»

أجاب هنري ببرود: «بالطبع، كان هذا ما أرادا سماعه. كانا يلفان ويدوران حول الموضوع طوال فترة ما بعد الظهر، وعندما قررت أخيراً الإفصاح انقضاً... أتوقع أن كلوك سيواجه يومين غير مريحين، لكن في الواقع أعتقد أن هذا لصالحنا، لم يكن بإمكاننا طلب شيء أفضل لإشغالهما حتى يذوب الثلج، هل لاحظت كيف كان الطقس مشرقاً في اليومين الماضيين؟ أظن أن الطرق بدأت تتخلص من الجليد».

أثارت الكدمة السوداء حول عيني كثيراً من الفضول والتكهنات والنقاشات، مازحت فرانسيس بأن رجلي مكتب التحقيقات

الفيدرالي هما من فعلاً ذلك بي حتى أشاهد عينيه تجحطان، لكن ردة فعله كانت أكبر على مقال نُشر في صحيفة «بوسطن هيرالد»، جاء مراسل الصحيفة إلى الكلية في اليوم السابق، وكذلك فعلت صحيفتا «نيويورك بوست» و«نيويورك ديلي نيوز»، ولكن مراسل «هيرالد» كان أسبقهم في النشر.

قد يكون للمخدرات دور في اختفاء طالب في فيرمونت

«اكتشف العميلان الفيدراليان اللذان يحققان في اختفاء إدموند كوركوران في 24 أبريل، الطالب الذي يبلغ من العمر 24 عامًا في كلية هامبدن، والذي كان محور عملية بحث مكثفة في فيرمونت خلال الأيام الثلاثة الماضية، أن اختفاءه قد يكون مرتبطًا بالمخدرات، تشير التقارير إلى احتمال تورط الطالب المفقود في مسألة تتعلق بالمخدرات.

وقد عثرت السلطات الفيدرالية في أثناء تفتيش غرفة كوركوران على أدوات لتعاطي المخدرات وبقايا من الكوكائين المركز، وعلى الرغم من أنه لم يكن لدى كوركوران تاريخ معروف في تعاطي المخدرات، فإن مصادر مقربة منه أفادت بأن سلوكه قد تغير في الأشهر التي سبقت اختفاءه، إذ أصبح متقلب المزاج ومنعزلاً». (انظر «ما لن يخبرك به طفلك» ص 6).

تحيّرنا إزاء هذه الرواية، على الرغم من أن الجميع في الحرم الجامعي بدا كأنهم يعرفون كل شيء عنها. حصلت على التفاصيل من جودي بوفي.

«هل تعرف ماذا وجدوا في غرفته؟ تلك الأداة التي تشبه المرأة الصغيرة التي كانت تملكها لورا ستورا وضاعت منها، أراهن أن الجميع في دربنستيل استخدموا تلك المرأة لاستشاق الكوكائين. إنها قديمة جدًا، وفيها أخاديد صغيرة محفورة على الجوانب. كان جاك تيتلبوم يسميها «ملكة الثلج» لأنه يمكنك دائمًا أن تجد سطرًا أو اثنين من الكوكائين على سطحها إذا كنت متلهفًا، بالطبع أعتقد أن المرأة تعود ملكيتها للورا، لكنها تحولت إلى نوع من الملكية العامة، قالت إنها لم ترها منذ مدة طويلة بعد أن اختفت من غرفة المعيشة في أحد المنازل الجديدة في مارس ولم تُعدَّ إليها».

قالت برام جيرنسي إن كلوك أخبرها أن الأداة لم تكن موجودة في غرفة باني عندما دخل إلى هناك من قبل، وادعى أن العميلين الفيدراليين هما من وضعها هناك عمدًا، ثم أضافت برام أن كلوك يعتقد أن الأمر برمته مؤامرة محبوكة بعناية مثل تلك التي تظهر في أفلام «المهمة: مستحيلة» أو في روايات البارانونيا التي كتبها فيليب ك. ديك⁽¹⁾. كان كلوك مقتنعًا بأن العملاء الفيدراليين قد زرعوا كاميرا سرية في منزل دربنستيل، بالإضافة إلى سلسلة من المزاعم الغريبة التي يصعب تصديقها.

علقت برام قائلة إن كلوك يخشى النوم، وقد بقي مستيقظًا طيلة

(1) روائي أمريكي وكاتب قصة قصيرة أغلب أعماله تدور في فلك الخيال العلمي، استكشف في كتاباته مواضيع مثل السوسولوجية والسياسة والميتافيزيقية، وركز على هيمنة الشركات الاحتكارية والحكومات الاستبدادية وتغيير حالة وعي الإنسان، وفي أعماله الأخيرة على الماورائيات واللاهوت، من أهم أعماله «هل تحلم الروبوتات بخرفان آلية؟» و«الرجل في القلعة العالية».

الثمانية والأربعين ساعة الأخيرة من خلال تعاظمي الميثامفيتامين الكريستالي. كان يجلس في غرفته، ويقفل بابها، ويتعاطى المخدر وهو يستمع إلى أغنية لفرقة بافالو سبرينجفيلد مرارًا وتكرارًا: «هل تعرف تلك الأغنية؟ (هناك شيء يحدث هنا... ما هو بالضبط؟ ليس واضحًا تمامًا...)»⁽¹⁾.

تابعت برام: «إنه أمر غريب كيف يفقد الناس عقولهم فجأة، ويبدوون الاستماع إلى زبالة الهيببيين القديمة التي لا يستمعون إليها أبدًا وهم في وعيهم الكامل، على أي حال، عندما ماتت قطتي، اضطررت إلى استعارة كل أسطوانات سايمون وغارفنكل»⁽²⁾. أشعلت سيجارة وتابعت: «عن ماذا كنت أتحدث؟ آه، نعم، لورا مذعورة الآن لأنهم تتبعوا المرأة وصولاً إليها. وهي بالأساس تحت المراقبة كما تعلم، حُكم عليها بعقوبة خدمة مجتمع في الخريف الماضي بعد أن أوقعها فليبير ليتش في مشكلة، ووشت بها وبجارك تيتلبوم. أوه، هل تتذكر تلك القصة؟»

«لم أسمع قط عن فليبير ليتش».

«أوه، بالتأكيد تعرفها، إنها عاهرة. الجميع يطلقون عليها اسم «فليبير»⁽³⁾ لأنها انقلبت بسيارة أبيها الفولفو أربع مرات في سنتها الأولى هنا».

«لكن ما علاقة فليبير بالأمر؟».

(1) الكلمات من أغنية في مقابل ما يستحق For What It's Worth لفرقة بافالو سبرينجفيلد.

(2) سايمون وغارفنكل هو ثنائي روك شعبي أمريكي تكون من المغني وكاتب الأغاني بول سايمون والمغني أرت غارفنكل. كان الفريق من أنجح الفرق الموسيقية مبيعًا في الستينيات، وأصبح رمزًا للثورة الاجتماعية المضادة في ذلك العقد.

(3) Flipper (فليبير (منقلبة) من الفعل flip ينقلب، ومن هنا جاءت التسمية.

«في الواقع، لا علاقة لها بالموضوع يا ريتشارد، أنت تمامًا مثل ذلك الرجل في مسلسل «الكمين»⁽¹⁾ الذي يريد الحقائق دائماً ولا شيء سواها. كل ما في الأمر أن لورا مذعورة، وأن إدارة شؤون الطلاب تهددها بالاتصال بوالديها ما لم تشرح لهم كيف وصلت تلك المرأة إلى غرفة باني، وهي ليس لديها أدنى فكرة عن ذلك. والأسوأ أن رجلي مكتب التحقيقات الفيدرالي اكتشف أمر حيازتها حبوب الأكستاسي في حفل قدوم الربيع الأسبوع الماضي، ويريدان منها أن تخبرهم بأسماء من كانوا هناك. قلت لها: لورا، لا تفعلي ذلك، سيتكرر معكِ ما حدث مع فليبر، وسينتهي بك الأمر مكروهة من الجميع، وستضطرين إلى الانتقال إلى كلية أخرى. سأذكرك بكلامي هذا عندما تصدق توقعاتي».

«أين كلوك الآن؟»

«هذا ما كنت سأخبرك به لو أنك صمت دقيقة، لا أحد يعرف أين هو، كان مضطرباً جداً ليلة أمس، وطلب استعارة سيارة برام ليفادر الكلية، لكن صباح اليوم وجدت السيارة في ساحة الانتظار، والمفاتيح في داخلها، ولم يره أحد منذ ذلك الحين، ليس في غرفته، هناك شيء غريب يجري، لكنني لا أعرف ماهيته، لكنني قررت ألا أتعاطى الميثامفيتامين مجدداً، فهو يجعلني متوترة جداً. بالمناسبة كنت أود سؤالك ما الذي أصاب عينيك؟»

عندما توجهت إلى منزل فرانسيس مع التوأمين أخبرتهم بما

(1) مسلسل جريمة أمريكي بطولة جاك ويب وهاري مورغان استمر أربعة مواسم، ابتداءً من 1967.

قالت له لي جودي، كان هنري يتناول الغداء مع عائلة كوركوران.

قالت كاميللا: «لكنني أعرف تلك المرأة».

قال فرانسيس: «وأنا أيضاً. إنها امرأة قديمة مرقطة، كان باني

يحتفظ بها في غرفته لبعض الوقت».

تساءلت: «ظننت أنها تخصه».

«أتساءل كيف حصل عليها».

قال تشارلز: «إذا تركتها الفتاة في إحدى غرف الجلوس، فمن

المحتمل أنه وجدها وأخذها ببساطة».

كان هذا الأمر مرجحاً جداً، فقد كان لدى باني ميل طفيف

نحو هوس السرقة، إذ كان يلتقط الأشياء الصغيرة التي لا قيمة

لها مثل مقلّمات الأظافر والأزرار وبكرات الشريط اللاصق

ويضعها في جيوبه، ثم يُخبئها في غرفته في مخابئ عشوائية

تشبه الأعشاش. كانت هذه العادة تمارس في السر، لكنه لم

يشعر بأي ذنب عندما يتعلق الأمر باختلاس أشياء ذات قيمة

أكبر. كان يفعل ذلك بكل ثقة وسلطة، إذ كان يأخذ زجاجات

الكحول أو الصناديق غير المحروسة من متجر الزهور ويبتعد من

دون أن يلقي نظرة خلفه، أحياناً كنت أتساءل إن كان يدرك أصلاً

أنها سرقة. ذات مرة سمعته يُوبّخ ماريون بشدة وبكل جرأة حول

ما يجب أن يحدث لمن يسرقون الطعام من ثلاجات المنازل.

على الرغم من أن الأمور كانت سيئة بالنسبة إلى لورا

ستورا، فإنها كانت أسوأ بكثير بالنسبة إلى كلوك سيئ الحظ،

فقد اكتشفنا لاحقاً أنه لم يُعدّ سيارة برام جيرنسي بإرادته بل

أجبره على ذلك عميلان من مكتب التحقيقات الفيدرالي، اللذان

أوقفاه قبل أن يبتعد عشرة أميال عن هامبدن، أعاده إلى قاعة المحاضرات التي استخدمها مقرأً لهما، وأبقياه هناك طوال ليلة الأحد تقريباً. لا أعرف ما قيل له بالتحديد، لكنني أعلم أنه بحلول صباح الاثنين كان قد طلب وجود محام معه في أثناء التحقيق. استشاطت السيدة كوركوران غضباً - كما قال هنري - عندما تجرأ أحدهم على الإشارة إلى أن باني كان يتعاطى المخدرات. وخلال تناولهم الغداء في الحانة، اقترب أحد المراسلين من مائدة عائلة كوركوران وسألهم إن كانوا يودون التعليق على «أدوات تعاطي المخدرات» التي عُثر عليها في غرفة باني.

رفع السيد كوركوران حاجبيه بدهشة كبيرة وقال: «حسناً، بالطبع، أمم...»، لكن السيدة كوركوران أطلقت هجوماً لاذعاً دون ترفع رأسها وهي تستمر في تقطيع شريحة لحمها بعنف، قالت: إن «أدوات المخدرات» - كما اختاروا تسميتها - ليست دليلاً على وجود مخدرات، وأنه من المؤسف أن الصحافة اختارت توجيه اتهامات لأشخاص لا يمكنهم الدفاع عن أنفسهم، وأضافت أنها تواجه بالفعل وقتاً عصيباً بما يكفي دون أن يلمح غريباء إلى أن ابنها كان متورطاً في تجارة المخدرات.

كان هذا التصريح منطقيًا إلى حد كبير، ونقلته صحيفة «واشنطن بوست» في اليوم التالي بحذافيره إلى جانب صورة غير جذابة للسيدة كوركوران وفمها مفتوح، تحت عنوان رئيس «الأم تقول: ليس ابني!»

في ليلة الاثنين في الساعة الثانية صباحاً، طلبت مني كاميلا

أن أرافقها إلى منزلها من بيت فرانسيس، كان هنري قد غادر عند منتصف الليل، أما فرانسيس وتشارلز اللذان كانا يشربان بلا توقف منذ الساعة الرابعة عصرًا فلم يظهرأ أي نية للتوقف، تحصنا في مطبخ فرانسيس، أطفأ الأضواء، وشرعنا في إعداد ما بدا لي أنه مزيج خطر من الكوكتيلات تُسمى «بلو بليزر» التي تتضمن صبّ الويسكي المشتعل ذهابًا وإيابًا بين فنجانين من البيوتر في قوس من اللهب.

عندما وصلنا إلى شقتها، عرضت عليّ كاميلّا -التي كانت ترتعش قليلًا ووجهها متورد من البرد- أن نشرب فنجانًا من الشاي.

أشعلت المصباح وقالت بقلق: «أتساءل إن كان من الصواب أن نتركهما هناك. أخشى أن يضرهما النار في نفسيهما».

أجبتها: «سيكونان على ما يرام»، على الرغم من أن الفكرة ذاتها خطرت لي أيضًا.

شربنا الشاي، كان ضوء المصباح دافئًا والشقة ساكنة ومريحة. في غرفتي وفوق سريري، في هاوية أشواقى السرية، كنت أتخيل دائمًا لحظات كتلك؛ ساعة سكر ناعسة، وأنا وكاميلّا وحدنا، في سيناريوهات تتلامس فيها أجسادنا عن غير قصد، أو تقترب مني بخفة وخدها يلامس خدي لتشير إلى مقطع في كتاب، تلك اللحظات التي كنت سأغتمها، بلطف ولكن بذكورية، كمقدمة إلى ملذات أكثر جموحًا.

كان فنجان الشاي ساخنًا جدًا، أحرقت أطراف أصابعي،

فتركته جانباً ونظرت إليها . كانت تجلس بالقرب مني بالكاد على بُعد قدمين، تدخن سيجارة بهدوء، كنت أستطيع أن أتوه إلى الأبد في وجهها الفريد، في تلك النظرة المليئة بالشك وفي شفيتها اللتين تحملان في تشاؤمهما جمالاً لا يوصف، تخيلت صوتها يقول: «اقترب من هنا . هل نطفئ الضوء؟» تلك العبارات التي تخيلتها بصوتها عذبة بشكل لا يقاوم، أما الآن وأنا بجانبها، لم أجرؤ على النطق بها .

ومع ذلك، لماذا هذا؟ كانت كاميللا شريكة في قتل رجلين، وقفت هادئة مثل تمثال مادونا، وشاهدت بانى يموت . تذكرت صوت هنري الهادئ قبل ستة أسابيع، كان هناك جانب شهواني غريب في ذاك الطقس الذي مارسوه .

قلت: «كاميللا؟»، نظرت إليّ مشتتة .

«ماذا حدث بالفعل تلك الليلة في الغابة؟»، كنت أتوقع أن أرى الدهشة على وجهها أو على الأقل بعض التظاهر بها، لكنها لم ترمش حتى .

أجابت ببطء: «حسنًا، لا أتذكر كثيرًا، وما أتذكره يستحيل وصفه، الأمر كله صار أقل وضوحًا الآن عما كان عليه قبل بضعة أشهر، ربما كان عليّ أن أكتب ما حدث» .
«ولكن ماذا تتذكرين؟» .

مرت لحظة طويلة قبل أن تجيب . قالت: «أعتقد أنك سمعت كل شيء من هنري، يبدو غريبًا بعض الشيء عندما أنطقه بصوت عالٍ، أتذكر مجموعة من الكلاب، وأفاعي تلتف حول ذراعي، وأشجارًا مشتعلة، وألسنة النار تلتهم أشجار الصنوبر مثل مشاعل

هائلة، وكان معنا شخص خامس لبعض الوقت».

«شخص خامس؟»

«لم يكن دائماً إنساناً».

«لا أفهم ماذا تقصدين».

«أنت تعرف ماذا أطلق اليونانيون على باخوس: المتحول⁽¹⁾،

الشخص متعدد الأشكال. في بعض الأحيان كان رجلاً، وأحياناً امرأة، وأحياناً شيئاً آخر».

سكتت قليلاً ثم تابعت فجأة: «سأخبرك بأمر أتذكره».

قلت: «ماذا؟»، متفائلاً أخيراً بسماع بعض التفاصيل الجديدة

المؤثرة.

«كان ذلك الرجل الميت مستلقياً على الأرض، ومعدته ممزقة،

والبخار يتصاعد منها».

«معدته؟»

«كانت ليلة باردة، لن أنسى رائحتها أبداً، تماماً مثلما كان

عمي يقطع أحشاء الغزال، اسأل فرانسيس، إنه يتذكر أيضاً».

كنت مرعوباً جداً فلم أستطع الرد، مددت يدي إلى إبريق

الشاي وصببت مزيداً منه في فئجائها.

قالت: «هل تعرف لماذا أعتقد أن حظنا عاثر هذه المرة؟»

«ماذا؟»

«لأنه من سوء الطالع أن تترك جثة دون دفنها، جثة

ذلك المزارع وجدوها على الفور، كما تعلم. لكن هل تتذكر

(1) باليونانية في الأصل.

بالينوروس⁽¹⁾ المسكين في الإنيادة؟ ظلت روحه تائهة تحوم في الأرجاء وطاردتهم طويلاً، أخشى ألا يتمكن أي منا من النوم بهناء حتى يُدفن باني».

«هذا هراء».

ضحكت وقالت: «في القرن الرابع الميلادي، تأخر إبحار أسطول أتيكا برمته بسبب عطسة جندي».

«يبدو أنك تتكلمين كثيراً مع هنري هذه الأيام».

لزمت الصمت لحظة، ثم قالت: «هل تعرف ما الذي جعلنا هنري نفعله بعد يومين مما حدث في الغابة؟».

«ماذا؟»

«جعلنا نذبح خنزيراً صغيراً».

لم يفاجئني مضمون كلامها بقدر ما أثارت دهشتي الطريقة الهادئة التي نطقته بها.

قلت: «يا إلهي».

«قطعنا حلقه، ثم تناوبنا على حمله فوق رؤوسنا، لينزف دمه على رؤوسنا وأيدينا. كان أمراً مروّعاً، كدت أن أصاب بالغثيان». بدت لي فكرة تغطية الجسد بالدماء -حتى إن كان بدماء خنزير- بعد ارتكاب جريمة قتل فكرة غير منطقية وعديمة الجدوى.

ومع ذلك قلت بهدوء: «لماذا أراد أن يفعل ذلك؟»

«القتل نجاسة، والقاتل يُدنس كل من يتواصل معه، والطريقة الوحيدة للتطهر من ذلك تكون بالدم، تركنا دم الخنزير يسيل

(1) اسم إحدى الشخصيات الطروادية في ملحمة الإلياذة لهوميروس.

علينا، ثم ذهبنا إلى المنزل وغسلنا دماء عن أجسادنا. بعد ذلك شعرنا بالراحة».

«هل تحاولين أن تخبريني أنه...».

قاطعتني بسرعة: «أوه، لا تقلق. لا أعتقد أن هنري يخطط لشيء مماثل هذه المرة».

«لماذا؟ ألم ينجح ذلك في المرة الأولى؟».

فشلت في التقاط نبذة السخرية في سؤالي.

قالت: «بلى، أعتقد أن الأمر نجح تمامًا».

«إذن لماذا لا تكرروه ثانية؟»

«لأنني أعتقد أن هنري لديه تصور أن هذا قد يزعجك أنت بالتحديد».

علا صوت دوران مفتاح في القفل، وبعد لحظات قليلة اندفع تشارلز عبر الباب، خلع معطفه وتركه يسقط متكومًا على السجادة بلا اكتراث.

«مرحبًا، مرحبًا» غنى وهو يترنح داخلًا ويخلع سترته بالطريقة نفسها.

لم يتجه إلى غرفة المعيشة، بل انعطف بسرعة نحو الردهة المؤدية إلى غرف النوم والحمام. فتح بابًا ثم آخر.

سمعته ينادي كاميلا: «ميلي، يا فتاتي. أين أنت يا عزيزتي؟»

ردت كاميلا بصوت مرتفع: «يا عزيزي نحن هنا، يا تشارلز».

عاود تشارلز الظهور، كانت ربطة عنقه متراخية الآن وقد أصبح شعره متموجًا.

قال متكئاً على إطار الباب: «كاميلا»، ثم لاحظ وجودي فجأة، فقال بنبرة فضة: «أنت، ما الذي تفعله هنا؟»
قالت كاميلا: «نحن نتناول الشاي فحسب، هل تريد بعضاً منه؟»

«لا» استدار واختفى في الردهة مرة أخرى.
«الوقت تأخر، سأخلد إلى النوم». ثم سمعنا صوت باب يُغلق بقوة.

نظرت أنا وكاميلا إلى بعضنا، وقفت وقلت: «حسناً، من الأفضل أن أعود إلى المنزل».

استمرت فرق البحث في عملها، لكن عدد المشاركين من سكان البلدة تقلص بشكل ملحوظ، ولم يعد أي من الطلاب يشارك فيها تقريباً أصبحت العملية أكثر محدودة وسرية، وتولت إدارتها فرق محترفة.

سمعت أن الشرطة استعانت بوسيطه روحية، وخبير في بصمات الأصابع، وفريق من كلاب البلودهاوند المدربة في دانيمورا.
شعرت أنني ملطخ بتلوث خفي لا يراه الناس، لكن قد يتمكن أنف كلب من تمييزه (ففي الأفلام، يكون الكلب دائماً أول من يكتشف حقيقة مصاص الدماء المتخفي)، لذلك أقلقني وجود كلاب البلودهاوند، تجنبت الاقتراب من أي كلب، حتى كلاب اللابرادور البريئة التي اقتناها أستاذ الخزف، والتي كانت دائماً تركز بسعادة خلف الطبق الطائر وألسنتها متدلّية.

أما هنري، فقد كان أكثر اهتماماً بالوسيطه الروحية، متخيلاً

امرأة تشبه كاساندرنا تتحدث مرتعشة بتنبؤات غامضة أمام صف من رجال الشرطة.

قال بلهجة مفعمة باليقين الكئيب: «إذا اكتشفوا أمرنا، فهذه هي الطريقة التي سيعرفون بها». «بالتأكيد أنت لا تؤمن بهذه الأمور».

رمقني بنظرة استهجان لا يمكن وصفها، وقال: «أنت تدهشني، هل تعتقد أن ما لا تراه لا يمكن أن يكون موجوداً».

كانت الوسيطة الروحية أمّا شابة من شمال نيويورك، قد دخلت في غيبوبة إثر صدمة كهربائية ناجمة عن بعض كابلات التوصيل، وبعد ثلاثة أسابيع خرجت منها وقد اكتسبت القدرة على «رؤية» الأشياء بمجرد لمس يد شخص غريب أو التعامل مع أحد مقتنياته. وقد استخدمتها الشرطة بنجاح في عدد من قضايا الأشخاص المفقودين، فقد استطاعت ذات مرة تحديد موقع جثة طفل مخنوق بالإشارة إلى منطقة معينة على خريطة البحث.

كان هنري مزمناً بالخرافات لدرجة أنه كان يترك أحياناً صحناً من الحليب خارج باب منزله لإرضاء أي أرواح شريرة قد تحوم بالقرب منه، لذا راح يراقب الوسيطة الروحية مبهوراً، وهي تمشي بمفردها على أطراف الحرم الجامعي بنظارتها السمكة ومعطفها الطويل من الصوف، وشعرها الأحمر المربوط بوشاح مرقط.

قال «إنه أمر مؤسف. لا أجرؤ على المخاطرة بلقائها. لكن كم أود الحديث إليها».

في الوقت نفسه، كانت الأجواء في الكلية تعج بالإشاعات حول وصول عملاء من وكالة مكافحة المخدرات إلى هامبدن لإجراء تحقيق سري. لم أكن أعرف إن كانت هذه المعلومات دقيقة أم لا، ولكن تأثيرها كان واضحاً. كتب تيوفيل غوتيه⁽¹⁾ عن تأثير شاترتون⁽²⁾ لفيني في شباب باريس قائلاً إنه في بداية القرن التاسع عشر كان يمكن سماع أصوات مسدسات منفردة تطلق في الليل. هنا في هامبدن كانت الليالي تمتلئ بصوت تدفق المياه في المراحيض فيما يتخلص الطلاب من المخدرات. ترنح متعاطو الأقراص المخدرة والكوكائين هائمين في الأرجاء في حالة من الذهول بسبب خسائرهم الفادحة المفاجئة. ففي أستوديو النحت ألقى أحدهم كمية كبيرة من المخدرات في المرحاض؛ ما استدعى تدخل سباك من إدارة المياه لتسليك خزان الصرف الصحي المسدود.

في الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر يوم الاثنين، ظهر تشارلز في غرفتي.

قال: «مرحباً، هل تريد الخروج وتناول شيء معي؟»

(1) تيوفيل غوتيه: شاعر وروائي فرنسي وكاتب مسرحي رومانسي وصحفي وناقد أدبي، كان صديقاً لنيرفال وبودليير وهو من أنصار المذهب البرناسي وهو صاحب مقولة: على الشاعر أن يرى الأشياء الإنسانية، وأن يفكر فيها من خلال نظريته الخاصة دون أي مصلحة اجتماعية أو مذهبية.

(2) دراما مسرحية للكاتب ألفريد دي فيني من ثلاثة فصول، تدور حول شاعر مغمور يلجأ للانتحار هرباً من الحزن والفقر وانتقاماً من جحود البشر.

«أين كاميللا؟»

أجاب، ونظرته الشاحبة تنتقل في أنحاء الغرفة: «في مكان ما، لا أعرف. هل تأتي معي؟»
قلت: «حسنًا، بالتأكيد».

أشرق وجهه، وقال: «جيد. تنتظرني سيارة أجرة».
ركبنا السيارة. كان السائق جونيور رجلاً وردي البشرة سبق أن أقلني وباني إلى البلدة في بداية الخريف، وسيتولى في غضون ثلاثة أيام مهمة نقل جثة باني إلى كونيتيكت للمرة الأخيرة.
نظر إلينا من خلال مرآة الرؤية الخلفية عندما انعطفنا إلى شارع كولج درايف.

«هل ستذهبان يا رفاق إلى البرازير (حمالة صدر)؟» كان يقصد البراسيري (الحانة الفرنسية)⁽¹⁾. كانت النكتة القصيرة التي يلقيها علينا دائماً.
قلت: «نعم».

لكن فجأة قال تشارلز: «لا». كان جالساً بانحناء طفولي مقابل الباب، ينقر بأصابعه على مسند الذراع ويحدق إلى الأمام مباشرة.

«نريد الذهاب إلى 1910 شارع كاتامونت».

قلت له: «أين ذلك؟»

قال وهو ينظر إلي بطرف عينه: «أوه، أتمنى ألا تمانع، لكنني أشعر أن التغيير سيكون لطيفاً. ليس بعيداً، كما أنني مللت من

(1) Brassiere حمالة صدر، حانة فرنسية (مطعم صغير يقدم المشروبات لا سيما النبيذ وبعض الوجبات البسيطة). ومصدر الدعابة تشابه الكلمتين لفظياً.

الطعام في الحانة الفرنسية، ألا توافقني؟»

ذهبنا إلى حانة تُدعى «فارمرز إن»، لم تكن مميزة لا في طعامها ولا في ديكورها البسيط المكون من كراسي قابلة للطي وطاولات فورميكا، كان معظم رواد الحانة من كبار السن في الريف الذين تجاوزوا الخامسة والستين يجلسون حول البار ويحتسون الخمر. كانت الحانة متواضعة مقارنة بالحانة الفرنسية، ولكن سعر المشروبات فيها رخيص، إذ يمكنك الحصول على كؤوس كبيرة من الويسكي المحلي غير المشهور مقابل خمسين سنتاً فقط، جلسنا في آخر البار بالقرب من جهاز تليفزيون كان يعرض مباراة كرة السلة.

أمعنت النادلة في النظر إلى بدلاتنا وربطات عنقنا، كانت سيدة في الخمسينيات من عمرها، تضع مكياجاً فيروزياً حول عينيها، وترتدي خواتم فيروزية أيضاً في أصابعها، بدت مذهولة عندما طلب تشارلز كأسين من الويسكي المزوج وكلوب سندويتش. قالت بصوت يشبه نبرة الببغاء: «يا للهول، يبدو أنهم يسمحون لكم بالترويح عن أنفسكم بين الحين والآخر».

لم أفهم بالضبط ما كانت تعنيه، هل كانت تسخر من ملابسنا؟ أم من دراستنا في كلية هامبدن؟ أم ربما أرادت التحقق من أعمارنا؟ ولكن تشارلز الذي كان يبدو غارقاً في كآبة عميقة قبل لحظات، رفع رأسه فجأة وابتسم لها ابتسامة دافئة ساحرة، كان يعرف جيداً كيف يتعامل مع النادلات، وكثيراً ما كن يتفانين في خدمته في المطاعم.

بدت هذه النادلة مسرورة ومرتبكة في آنٍ واحد، انفجرت

ضاحكة وقالت بصوت أجش: «حسنًا، هل تحتوي هذه السيجارة على شيء غير فانوني؟» ثم التقطت سيجارتها السيلفا الرفيعة المحترقة من منفضة السجائر بجانبها. «وأنا الساذجة ظننت أنكم أيها المورمون⁽¹⁾ لا تشربون حتى الكوكاكولا».

ما إن عادت إلى المطبخ لتسليم طلبنا، (سمعناها تقول من خلف الأبواب المتأرجحة: «بييل! بييل! استمع إلى هذا!») تلاشت الابتسامة من على وجه تشارلز. مد يده ليتناول مشروبه، وهز كتفيه بلا مبالاة عندما حاولت لفت انتباهه، ثم قال: «آسف. آمل ألا تكون منزعجًا من قدومنا إلى هنا. إنه أرخص من الحانة الفرنسية، ولن نرى أحدًا يعرفنا».

لم يكن في مزاج للحديث، فعلى الرغم من حماسه المعتاد فإنه أحيانًا يصبح صامتًا ومتجهمًا مثل طفل غاضب. كان يشرب باستمرار، ومرفقاه مستندان إلى البار، وشعره على وجهه.

عندما وصل السندويتش، أزال طبقة الخبز العلوية وانتقى منه قطع لحم الخنزير المقدد، وترك باقي محتوياته. أما أنا فكنت أرتشف مشروبي وأشاهد مباراة السلة لفريق الليكرز على التلفزيون. كان غريبًا أن أكون في تلك الحانة المظلمة في فيرمونت أشاهد مباراة كرة سلة. عادت بي الذكريات إلى كليتي القديمة في كاليفورنيا، حيث كنت أذهب مع صديقي الأحق

(1) المورمون: مجموعة دينية وثقافية متعلقة بالمورمونية، وهي ديانة بدأها جوزيف سميث خلال أواسط القرن التاسع عشر. يعتبر المورمون أنفسهم جزءًا من الديانة المسيحية. التأثير الثقافي للمورمون متركز في ولاية يوتا، في الولايات المتحدة، على الرغم من أن أغلبية المورمون يعيشون خارج الولايات المتحدة.

كارل إلى حانة تُسمى «فالستاف» لشرب الجعة ومشاهدة مباريات السلة على شاشة تلفاز كبيرة. تساءلت إن كان كارل هناك الآن، يجلس على مقعد خشبي أحمر، يشاهد نفس المباراة.

وسط هذه الأفكار الكئيبة، كان تشارلز قد وصل إلى كأسه الرابعة أو الخامسة، عندما بدأ أحدهم بتغيير قنوات التلفزيون باستخدام جهاز التحكم عن بعد:

«برنامج المحك».

«عجلة الحظ».

«ساعة إخبارية مع ماك-نيل/ ليرر».

وأخيراً توقف عند برنامج حوارى محلي يُدعى «الليلة في فيرمونت». صُمم استوديو البرنامج على غرار مزرعة نيو إنجلاند تقليدية مع أثاث على طراز شيكر⁽¹⁾ مقلد ومعدات زراعية قديمة؛ مذراة وأدوات أخرى تتدلى فوق خلفية من الألواح الخشبية.

على غرار أوبرا وينفري ود. فيل، كانت ليز أوكافيلو مقدمة البرنامج قد خصصت فقرة أسئلة وأجوبة في نهاية كل حلقة، التي كانت خالية من التشويق لأن ضيوفها كانوا عادةً شخصيات هادئة ومسالمة، مثل مفوض الدولة لشؤون المحاربين القدامى أو أحد أعضاء جمعية شرينرز الخيرية يعلن عن حملة للتبرع بالدم. («مرة أخرى، ما العنوان الذي يجب أن يتوجه إليه الراغبون في

(1) أثاث شيكر هو نمط مميز من الأثاث طورته جمعية المؤمنين المتحدة في ظهور المسيح الثاني، والمعروف عمومًا باسم شيكرز، وهي طائفة دينية لديها مبادئ توجيهية للبساطة والفائدة والأمانة. وقد انعكست معتقداتهم في الأثاث المصنوع جيدًا بتصميمات بسيطة.

التبرع، يا جو؟»).

ولكن ضيفها في ذلك المساء كان وليم هوندي، استغرقت بضع لحظات لأدرك هويته، ارتدى بدلة تقليدية، ليست تلك الزرقاء غير الرسمية، بل بدلة قديمة تشبه ما يرتديه واعظ ريفي، وكان يتحدث بثقة مفرطة حول العرب ومنظمة الأوبك⁽¹⁾ لسبب لم أستطع إدراكه في البداية. قال: «أوبك هي السبب في اختفاء محطات تعبئة تكساكو⁽²⁾. عندما كنت صغيراً، كانت محطات تكساكو منتشرة في كل مكان، لكن هؤلاء العرب... إنه نوع من الاستحواذ بواسطة الرافعة المالية⁽³⁾».

نبهت تشارلز: «انظر»، لكن بحلول الوقت الذي رفع فيه رأسه كانوا قد غيروا القناة مجدداً إلى برنامج «المحك». قال: «ماذا؟».

«لا شيء».

بعد دقائق من مشاهدة «المحك»، بدأ أحدهم بتغيير القناة مجدداً، «عجلة الحظ» ثم عاد ثانية إلى «ساعة إخبارية مع ماك-نيل/ليزر» لمدة طويلة إلى حد ما، حتى صاح أحدهم: «أطفئي هذا القرف يا دوتي».

«حسناً، ما الذي تريدون مشاهدته إذن؟».

صرخت جوقة خشنة النبرة: «عجلة الحظ».

(1) منظمة البلدان المصدرة للنفط، أسست في بغداد 1960، وتضم في عضويتها اثني عشر بلداً منتجة للنفط عربية وأجنبية.

(2) علامة تجارية أمريكية لمحطات الوقود تملكها وتديرها شركة شيفرون.

(3) الاستحواذ بوساطة الرافعة المالية: مصطلح اقتصادي يعني شراء الشركة بمبلغ كبير من الديون، وعادة ما تكون أصول الشركة المستحوذ عليها بمثابة ضمان.

لكن برنامج «عجلة الحظ» كان على وشك الانتهاء (فانا ترسل قبلة إلى الجمهور). وبسرعة عدنا إلى مشهد المزرعة المقلدة مع ويليام هوندي الذي كان الآن يتحدث عن ظهوره صباح اليوم السابق في برنامج «فيرمونت اليوم».

قال أحدهم: «انظروا، هذا هو الرجل الذي يدير ورشة إصلاح وقطع غيار السيارات».

ردّ الآخر: «لا، إنه لا يديرها».

«من يديرها إذن؟»

«هو وبود ألكورن يديرانها معاً».

صاح الآخر: «أوه، اصمت، يا بوبي».

تابع السيد هوندي حديثه: «لا، لم أقابل ويلارد سكوت⁽¹⁾. ولو قابلته، لا أعتقد أنني كنت سأعرف ما أقول. إنهم يقومون بعمل كبير وراء الكواليس مع أن ذلك قد لا يظهر جلياً على شاشة التلفزيون».

ركلت قدم تشارلز.

فقال بلا اهتمام: «نعم»، وهو يرفع كأسه بيد مرتجفة.

فوجئت برؤية كم صار السيد هوندي فصيحاً في الكلام في غضون أربعة أيام فحسب، والأغرب أن جمهور الأستوديو كان يتفاعل معه بحماس، ويطرح عليه أسئلة تتعلق بموضوعات مثل نظام العدالة الجنائية ودور أصحاب الأعمال الصغيرة في المجتمع، ويضحك على نكاته السطحية. شعرت أن هذه الشعبية

(1) ويلارد سكوت شخصية تلفزيونية أمريكية معروفة، اشتهر بدوره مُقدِّمًا للنبذة الجوية في برنامج «توداي».

كانت سطحية، مرتبطة فقط بما ادعى أنه شاهده، تلاشى تماماً التلثم وتلك الهالة المتوترة التي أحاطت به في السابق، وها هو ذا يجلس الآن ويداه متشابكتان على بطنه، كان يجيب عن الأسئلة بابتسامة هادئة، تذكرني بابتسامة البابا وهو يمنح الغفران لرعايا الكنيسة، بدا مرتاحاً إلى درجة أثارت لديّ شعوراً بالنفاق الواضح، وتعجبت كيف لم يلحظ أحدٌ غيري ذلك.

أخيراً أشارت ليز إلى رجل ضئيل الحجم داكن البشرة يرتدي قميصاً بسيطاً، وكان يلوح بيده لبعض الوقت. نهض بسرعة وقال: «اسمي عدنان نصار، وأنا أمريكي من أصل فلسطيني. جئت إلى هنا من سوريا قبل تسع سنوات، ومنذ ذلك الحين حصلت على الجنسية الأمريكية، أعمل مساعد مدير في مطعم بيتزا باد على الطريق السريع رقم 6».

أمال السيد هوندي رأسه قليلاً وقال بلطف: «حسناً يا عدنان، أتوقع أن تكون هذه القصة غريبة بعض الشيء في بلدك، لكن هنا هذه هي الطريقة التي يعمل بها النظام، من أجل الجميع بغض النظر عن العرق أو لون البشرة». انطلقت موجة من التصفيق.

شقت ليز -وهي تحمل الميكروفون في يدها- طريقها عبر الممر بين مقاعد الجمهور متوجهة نحو سيدة بتسريحة شعر منفوشة، لكن الفلسطيني رفع يديه بغضب، فعادت الكاميرا إليه مرة أخرى، صرخ قائلاً: «ليست هذه هي النقطة هنا، أنا عربي، وأنا غاضب من الإهانات العنصرية التي توجهونها لشعبي».

عادت ليز إليه ووضعت يدها على ذراعه محاولة تهدئته بأسلوب أوبرا الشهير، وفي تلك اللحظة انحنى ويليام هوندي إلى الأمام على كرسيه، وسأله: «هل يعجبك العيش هنا؟»
«نعم».

تابع هوندي: «هل ترغب في العودة؟».

تدخلت ليز بصوت عالٍ: «لا أحد يحاول أن يقول...».

لكن هوندي قاطعها بصوت أعلى: «لأن القوارب تبخر في كلا الاتجاهين».

ضحكت دوتي، النادلة، وأخذت نفساً عميقاً من سيجارتها، قائلة بإعجاب: «لقد أفحمه».

رد العربي بسخرية: «ومن أين عائلتك أنت؟ هل أنت هندي أمريكي أم ماذا؟».

تجاهل هوندي تعليقه، وقال: «سأدفع لك مقابل العودة، كم يكلف ثمن تذكرة ذهاب فقط إلى بغداد؟ إذا كنت تريد مني ذلك، فسوف...».

حاولت ليز التدخل مجدداً، قائلة: «أعتقد أن هناك سوء فهم لما يحاول السيد قوله، إنه فقط يحاول توضيح...»، وضعت ذراعها حول كتفي الفلسطيني فأبعدتها بغضب، وصرخ قائلاً: «أنتم توجهون إهانات مسيئة للعرب طوال هذه الليلة. لكنكم لا تعرفون من هو العربي حقاً!» وضرب على صدره بقبضته قائلاً: «أنا أعرف في قلبي».

«أنت وصديقك صدام حسين».

«كيف تجرؤ على القول إننا جميعاً جشعون ونقود سيارات فارهة؟ هذا كلام مسيء وعنصري. أنا عربي وأحرص على الموارد الطبيعية...».

«بإشعال النار في آبار النفط، أليس كذلك؟»

«أنا أقود تويوتا كورولا».

«أنا لم أتحدث عنك، كنت أشير إلى أولئك الأشخاص البغيضين الذين اختطفوا الفتى، هل تعتقد أنهم يقودون تويوتا كورولا؟ هل تعتقد أننا نتسامح مع الإرهاب هنا؟ هل هذا ما يفعلونه في بلدك؟»

صاح العربي: «أنت تكذب». في تلك اللحظة وفي ظل ارتباك واضح توجهت الكاميرا نحو ليز أوكافيلو، كانت تحقق بلا هدف خارج الشاشة، عرفت حينها أنها كانت تفكر في نفس ما كنت أفكر فيه بالضبط: «يا إلهي، لقد حدث ما كنت أخشاه».

قال هوندي بغضب: «ليست كذبة، أنا أعرف. عملت في محطات الوقود ثلاثين عاماً، هل تعتقد أنني لا أتذكر الأزمة التي تسببت فيها العام 1975 عندما كان كارتر رئيساً⁽¹⁾؟ والآن تأتون إلى هنا، وتتصرفون كأنكم تمتلكون المكان، مع كل ما أحضرتموه من حمص وخبز الجيب⁽²⁾ الصغير القدر؟»

كانت ليز تنظر بعيداً، وتحاول تحريك شفيتها بالتعليمات لمن هم خلف الكاميرا.

(1) الإشارة هنا إلى حظر النفط 1973 وارتفاع أسعاره بعد قرار الدول العربية الأعضاء في منظمة الأوبك حظر تصدير البترول للدول الداعمة لإسرائيل في حرب السادس من أكتوبر ومنها أمريكا وهولندا. واستمرت الأزمة حتى بداية 1975.

(2) Pocket Bread: اسم أطلقه الأمريكيون على الخبز العربي أو الخبز البلدي.

صرخ العربي بألفاظ بذئية.

صاحت ليز أو كافيلو في يأس: «تمالك نفسك! توقف!»

نهض السيد هوندي واقفًا على قدميه، وعيناه مشتعلتان، وأشار بإصبعه المرتعشة إلى الجمهور وصرخ بمرارة: «زواج الرمال! زواج الرمال!»

في تلك اللحظة اهتزت الكاميرا وانتقلت فجأة إلى زاوية غير واضحة من الاستوديو حيث كان هناك مجموعة متشابكة من الكابلات والمعدات، وبعد ذلك ظهر إعلان لماكدونالدز على الشاشة.

صاح أحدهم في الحانة بتقدير: «مرحى! يا له من نقاش محتدم».

كان هناك تصفيق متفرق في أرجاء المكان.

قال تشارلز بعد لحظة من الصمت: «هل سمعت هذا؟»

كنت قد نسيت أمر تشارلز تمامًا. كان صوته متلعثمًا وشعره يتصبب عرقًا فوق جبهته.

قلت له باليونانية: «كن حذرًا». وأشرت برأسي نحو النادلة قائلاً: «إنها تستطيع سماعك». تمتم ببعض الكلمات وهو يتمايل على كرسيه المبطن بالكروم والفينيل اللامع.

قلت: «دعنا نذهب، لقد تأخر الوقت». وبدأت أبحث في جيبتي عن المال.

تلاقت نظراتنا، انحنى وأمسك بمعصمي، سقط الضوء المنبعث من صندوق الموسيقى على عينيه فتوهجتا؛ ما جعلهما

تبدوان غريبتين ومجنونتين، كأنها نظرات تهديد تظهر أحياناً في لحظة خاطفة بشكل غير متوقع على وجه صديق.
قال: «اصمت يا رجل. أنصت».

سحبت يدي بعيداً عنه واستدرت على الكرسي، وفي تلك اللحظة سمعت صوت قعقة بعيدة أشبه بالرعد.
تبادلنا النظرات...

همس قائلاً: «إنها تمطر».

هطل مطر دافئ طوال تلك الليلة، راح يتقاطر من إفريز البيت ويرتطم بنافذتي، فيما كنت أستمع مستلقياً على ظهري وعيناى مفتوحتان على اتساعهما. ما انفكت السماء تمطر طوال تلك الليلة وفي الصباح التالي أيضاً استمر بنفس الهدوء؛ مطر رمادي وناعم ومستمر أشبه بحلم غارق في سكون الليل.

عندما استيقظت شعرت في أعماقي أنهم سيعثرون عليه في ذلك اليوم، عندما ألقى نظرة من نافذتي، رأيت الثلج قد بدأ بالذوبان وقد ظهرت بقع العشب الرطبة تتناثر في كل مكان، فيما استمر المطر بالهطول دون توقف.

كان أحد تلك الأيام الغامضة والثقيلة التي عشناها في هامبدن، حيث يبتلع الضباب الجبال التي تتوارى في الأفق، ويبدو العالم هشاً وفارغاً كأن هناك خطراً خفياً. حين تتجول في الحرم الجامعي وتدهس العشب المبلل تحت قدميك، تشعر كأنك في أرض أسطورية مهجورة فوق السحاب، كأنك في أوليمبوس أو في

فالهالا⁽¹⁾، وترى الأبنية التي تعرفها جيداً - برج الساعة، وبيوت الطلاب - تطفو كأنها ذكريات من حياة أخرى منفصلة ومعلقة في الضباب.

ذكرني رذاذ المطر والرطوبة ورائحة القاعة العامة بالملابس المبللة، كان الجو مظلماً وخافتاً. وجدت هنري وكاميل في الطابق العلوي يجلسان إلى طاولة بجانب النافذة، وبينهما منفضة سجائر ممتلئة، كانت كاميل تستند بذقنها إلى يدها، والسيجارة المشتعلة في أصابعها الملطخة بالحبر قد احترق معظمها.

كانت غرفة الطعام الرئيسة في الطابق الثاني المضافة حديثاً تشرف على رصيف تحميل في الخلف. كانت الألواح الزجاجية الضخمة للنوافذ تحيط بنا من ثلاث جهات، وقد تناثرت عليها قطرات المطر مبقعة بالرمادي؛ ما جعل اليوم يبدو أكثر كآبة مما كان، حظينا بإطلالة رائعة على رصيف التحميل نفسه حيث توقفت شاحنات الزبدة والبيض في الصباح الباكر، وتمتعنا بمنظر الطريق الأسود الأملس الذي يخترق الأشجار ويختفي وسط الضباب متجهاً نحو نورث هامبدن.

كان الغداء بسيطاً؛ حساء الطماطم وقهوة مع حليب خالٍ من الدسم بسبب نفاد الحليب كامل الدسم. كان المطر يتساقط على النوافذ، وهنري كان يبدو شاردًا، زاره عميلًا مكتب التحقيقات

(1) في الأساطير الإسكندنافية، فالهالا هي قاعة ضخمة مهيبة تقع في أسكارد الموجودة في العالم الآخر، يذهب إليها من مات في المعارك ويعيشون فيها بسعادة بضيافة أودين، فالهالا في الميثولوجية النوردية تعادل الجنة في الديانات الإبراهيمية.

الفيدرالي الليلة الماضية، ويبدو أنه لم يقدم لهما ما كانا يسعيان له، كان يتحدث بهدوء عن إيثاكا⁽¹⁾ لشليمان⁽²⁾، ويدها الكبيرتان مربعتا الأطراف مستندتان إلى حافة الطاولة كأنها تستند إلى لوحة ويجا⁽³⁾. أحياناً عندما كنت أعيش معه في شقته خلال الشتاء، كان يتحدث لساعات بهذه الطريقة، يلقي سلسلة من المعلومات الدقيقة والمتحذقة بنبرة هادئة كأنه تحت تأثير التنويم المغناطيسي، كان يتحدث الآن عن التنقيب في هيسارليك⁽⁴⁾ قائلاً بنبرة حاملة: «مكان ملعون، مدن مدفونة تحت بعضها، مدن احترقت حتى ذابت أحجارها وتحولت إلى زجاج... مكان رهيب». وأضاف بشرود: «أعشاش أفاع بنية صغيرة يسميها اليونانيون أنتليون، وآلاف من آلهة الموتى ذات رؤوس البوم (إلهات أنثوية، في الواقع بعض النماذج الأولية البشعة لأثينا⁽⁵⁾)، رسومات محفورة تنظر إلينا بجمود وتعصب».

(1) الإشارة إلى كتاب «إيثاكا، بيلوبونيس وطرودة»، صدر العام 1881.

(2) كان هاينريش شليمان عالم آثار وُلد في ألمانيا، وهو أول من ابتدأ دراسة تاريخ اليونان القديم والحضارات المجاورة على بحر إيجه، اكتشف وزوجته صوفيا أنجاسترومينوس شليمان مدينة طروادة المدفونة فيما يسمى تركيا الآن، اشتهرت طروادة بفضل الملحمة اليونانية الإلياذة.

(3) لوح مسطح مرسوم عليه كل الأحرف الأبجدية والأرقام من 0-9 وعبارتي «نعم» و«لا» وكلمتي «مرحباً» و«وداعاً» مع رموز أخرى، ويحتوي على مؤشر متحرك على شكل قلب صغير من الخشب مثقوب من المنتصف يستخدم لنقل رسالة إلى الأرواح عبر هجاء الكلمات على اللوح، حيث يضع المشاركان أصبعيهما على المؤشر ويحركانه حسب الإجابات.

(4) الاسم الحديث لطرودة.

(5) إلهة الحكمة والقوة وإلهة الحرب وحامية المدينة، تبرز أثينا في الأساطير الإغريقية.

لم أكن أعرف أين كان فرانسيس، ولكني لم أكن بحاجة إلى السؤال عن تشارلز. في الليلة الماضية، اضطررت إلى إعادته إلى المنزل بسيارة أجرة، ساعدته على الصعود إلى شقته ووضعتة في سريرته، وكنت على يقين من أنه ما زال في نفس الحالة التي تركته فيها. رأيت بجوار طبق كاميلا شطيرتين من الجبن القشدي والمربى ملفوفتين في مناديل. لم تكن كاميلا موجودة حين أحضرت تشارلز، وبدأت كأنها قد استيقظت لتوها، شعرها أشعث، من دون أثر لأحمر الشفاه، كانت ترتدي كنزة صوفية رمادية بأكمام تغطي معصمها، كان الدخان يتصاعد من سيجارتها في خيوط رقيقة تشبه لون السماء بالخارج. لمحت من بعيد بقعة بيضاء صغيرة لسيارة تنطلق على الطريق المبتل قادمة من البلدة، تتلوى مع المنحنيات السوداء وتزداد حجمًا مع كل لحظة.

كان الوقت قد تأخر، والغداء قد انتهى، والناس يغادرون. دخل عامل تنظيف عجوز بوجه مشوه، يحمل ممسحة ودلوًا، وبدأ بتنظيف الأرضية بجانب ركن المشروبات مصدرًا صوتًا متعبًا يشبه الشخير.

كانت كاميلا تنظر عبر النافذة، وفجأة اتسعت عيناها، رفعت رأسها ببطء وقد ارتسمت على محياها أمارات عدم التصديق. ثم قفزت عن كرسيها، ومالت بعنقها لترى ما يجري في الخارج. رأيتُ ما رأيته، فاندفعتُ نحو النافذة.

كانت سيارة إسعاف متوقفة أسفلنا مباشرة، ورأيت مسعفين يهرعان تحت المطر، يتبعهما مجموعة من المصورين ورؤوسهم

محنية لمواجهة زخات المطر، كان المسعفان يدفعان بينهما نقالة عليها جسد مدثر بغطاء. قبل أن يدفعا النقالة داخل سيارة الإسعاف من خلال الأبواب المزدوجة (في حركة سلسلة وطويلة أشبه بإدخال رغيف خبز في فرن) ويغلقا الأبواب بعنف، لاحظ لي بضع بوصات من معطف المطر الأصفر المشمع يتدلى من حافة النقالة، كان نفس المعطف الذي ارتداه باني يوم مقتله. علت صيحات بعيدة قادمة من القاعة العامة في الأسفل، سُمعت أبواب تغلق، وازدادت الضوضاء في ارتباك متزايد، ثم صرخ أحدهم مطالبًا الهدوء.

ارتفع صوت أجش فوق الأصوات الأخرى كلها: «هل هو حي؟» أخذ هنري نفسًا عميقًا، وأغمض عينيه، ثم زفر بقوة، ووضع يده على صدره، وسقط إلى الورااء فوق كرسيه كأنه أصيب برصاصة.

هذا ما حدث:

في الساعة الواحدة والنصف تقريبًا من ظهر يوم الثلاثاء، قررت هولي جولدسميث وهي طالبة في السنة الأولى من تاوس بنيو مكسيكو تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا أن تأخذ كلبها الجولدن ريتريفر الذي تسميه ميلو في نزهة، علمت هولي التي تدرس الرقص الحديث بحملة البحث عن باني، لكنها لم تشارك فيها مثل معظم الطلاب في سنتها الذين استغلوا العطلة غير المتوقعة للنوم أو لتعويض ما فاتهم من الدراسة استعدادًا لامتحانات منتصف الفصل الدراسي.

لم ترغب هولي في مصادفة فرقة بحث في أثناء نزهتها مع كلبها، لذلك قررت أن تأخذه إلى الوادي خلف ملاعب التنس، فهو مكان محبوب جدًا لكلبها وقد خضع للتفتيش قبل أيام.

هذا ما قالته هولي: «عندما لم يعد الحرم الجامعي في مرمى بصرنا، فككت مقود ميلو حتى يتمكن من الركض بمفرده بحرية. إنه يحب أن يفعل ذلك...»

وقفت على حافة الوادي أنتظره. شاهدته يندفع فوق الجسر، يركض وينبح كعادته، لكنني نسيت كرة التنس التي ألقيتها له عادة. ظننت أنها في جيبتي لكنها لم تكن، فذهبت لأبحث عن بعض العصي لأرميها له، عندما عدت إلى حافة الجسر، رأيت شيئاً في فمه يهزه من جانب إلى آخر، ولم يستجب عندما ناديته. ظننت أنه ربما اصطاد أرنباً أو حيواناً آخر.

ظننت أن ميلو قد نبش ذلك الشيء من التراب، رأسه... صدره... لم أستطع رؤية التفاصيل جيداً، لكنني لاحظت نظارة تتدلى من أذن واحدة وتتأرجح ذهاباً وإياباً كأنها... نعم، تعلق وجهه. لوهلة، فكرت أن...

ثم أخذت تهذي بكلام غير مفهوم.

هبطنا ثلاثتنا بسرعة إلى الطابق السفلي، كان الفراش مذهولاً، والطهاة يختلسون النظر من المطبخ، وعاملات الكافيتريا متكئات على الدرابزين في ستراتهن الصوفية يراقبن المشهد، مررنا بمقصف الوجبات الخفيفة وبمكتب البريد، حيث كانت السيدة ذات الشعر المستعار الأحمر تراقبنا من خلف لوحة مفاتيح تحويل المكالمات، وقد وضعت جانباً القماش الأفغاني وكيس

الخيوط المتنوعة الذي كانت تحيكه، ووقفت في المدخل تحمل منديلاً ورقياً مجعداً تتبعنا بعينيهما، فيما كنا نهرول عبر الممر إلى الغرفة الرئيسة في القاعة العامة، حيث وقف مجموعة من رجال الشرطة ذوي المظهر المتجهم والمأمور وحارس الملاعب وحراس الأمن والفتاة الغريبة التي كانت تبكي، وشخص يلتقط الصور، والجميع يتحدثون في وقت واحد حتى صرخ أحدهم عندما رأنا: «أنتم! ألا تعرفون الفتى؟»

انفجر وميض الكاميرات حولنا من كل اتجاه، واندفعت الميكروفونات وكاميرات الفيديو في وجوهنا.

«منذ متى تعرفونه؟»

«...حادث متعلق بالمخدرات؟»

«...سافرت مع باني إلى أوروبا، هل هذا صحيح؟».

مرر هنري يده على وجهه، لن أنسى أبداً مظهره الشاحب مثل بودرة التلك وقطرات العرق على شفته العليا والضوء المنعكس من نظارته.

تمتم: «أتركوني وشأني»، وهو يمسك كاميلا من معصمها ويحاول دفعها عبر الباب، لكن الحشد تزاحم أمامه معترضاً طريقه.

«ألا تود التعليق على...؟»

«...أعز أصدقائك؟».

دفع أحد المصورين كاميرا الفيديو السوداء في وجه هنري، لكنه أطاح بالكاميرا بحركة سريعة من ذراعه، فسقطت على الأرض محدثة دويًا قويًا، وتدحرجت البطاريات في جميع

الاتجاهات. صرخ مالك الكاميرا وهو رجل بدين يرتدي قبعة فريق «ميتس» وانحنى على الأرض في زعر، ثم قفز وهو يشتم وكان على وشك الإمساك بهنري من ياقته، لمست أصابعه ظهر سترة هنري الذي تراجع إلى الخلف واستدار بسرعة مدهشة. تراجع الرجل! كان المشهد مضحكاً، ولكن يبدو أن الناس لا يلاحظون عادة مدى ضخامة هنري من النظرة الأولى، ربما بسبب ملابسه الفضفاضة التي كانت تشبه أحد الأزياء التكرية البسيطة والغامضة في القصص المصورة، تماماً مثلما لم يدرك أحد أن «كلارك كينت» الشغوف بالكتب هو «سوبرمان» لمجرد أنه يرتدي نظارة!

أو ربما يتعلق الأمر بقدرته على جعل الناس يرون ما يريده، كان يمتلك موهبة فريدة في جعل نفسه غير مرئي كأنه يتجرد من كيانه المادي حسب رغبته. وربما في تلك اللحظة كان يفعل النقيض تماماً، مكثفاً حضوره دفعة واحدة ليصبح صلباً ومرئياً بشكل مفاجئ.

كانت سيارة الإسعاف قد رحلت، وامتدت الطرق تحت المطر ملساء وخالية. صعد العميل دافنبورت الدرج المؤدي إلى القاعة العامة بخطوات مسرعة، وصوت ارتطام حذائه الأسود بالرخام المبلل يتردد في المكان. عندما رآنا توقف، تبعه سيولا وهو يصعد آخر الدرجات بشق الأنفس مسنداً ركبته بكفه، وقف خلف دافنبورت ونظر إلينا للحظة وهو يتنفس بصعوبة، ثم قال: «حزين لخسارتكم».

مرت طائرة فوق رؤوسنا غير مرئية فوق السحاب.

قال هنري: «لقد مات إذن».

«للأسف الشديد».

انحسر صوت الطائرة في الأفق الرطب والعاصف.

قال هنري أخيراً: «أين عثرتم عليه؟» كان شديد الشحوب
وصدغاه متعرقان، لكنه ظلّ رابط الجأش، وقد اكتفت نبرة
جافة صوته.

أجاب دافنبورت: «في الغابة».

وأضاف سيولا وهو يفرك عينه المتورمة: «ليس بعيداً، نصف
ميل من هنا».

سأل هنري: «هل كنت هناك؟»

توقف سيولا عن فرك عينه: «ماذا؟».

«هل كنت هناك عندما عثروا عليه؟».

قال دافنبورت بخفة: «كنا في مطعم بلو بن نتناول غداءنا».

كان يتنفس من أنفه بصعوبة، وشعره القصير زنجبيلي اللون
مبلل بقطرات من الضباب الكثيف.

أكمل: «لقد ذهبنا إلى هناك لإلقاء نظرة، نحن الآن في طريقنا
لرؤية العائلة».

سألت كاميلا بعد صمت مشوب بالذهول: «ألم تعلموا بعد؟»

قال سيولا: «بلى لقد علموا». كان يربت على صدره، ويتحسس
بلطف بأصابعه الصفراء الطويلة جيب معطفه.

أكمل: «سنطلب منهم التوقيع على استمارة لتشريح الجثة، نود
إرسالها إلى مختبر نيوارك الجنائي لإجراء بعض الفحوصات.
في حالات كهذه...»، أغلق يده على شيء ما، وأخرج ببطء شديد

علبة مجمّدة من سجائر با-مول، «من الصعب إقناع العائلة بهذا الإجراء خصوصاً بعد انتظارهم أسبوعاً كاملاً، لا أستطيع أن أقول إنني ألومهم، العائلة تريد الدفن والانتهاء من الأمر...».

قال هنري: «كيف حدث ذلك؟ هل تعرف؟»

بحث سيولا عن علبة ثقابه في جيوبه، وأشعل سيجارته بعد محاولات عدة، قال وهو يترك عود الثقاب يسقط من بين أصابعه: «من الصعب التكهن بما حدث، كان في أسفل المنحدر برقبة مكسورة».

«هل تظن أنه انتحر؟»

لم تتغير تعابير سيولا، لكن نفحة دقيقة من الدخان تصاعدت من أنفه وشت بالمفاجأة: «لماذا تقول هذا؟».

«لأن أحدهم قال ذلك للتو»، وجه هنري نظره نحو دافنبورت.

قال سيولا: «لا أهتم بكلام هؤلاء الناس يا بني، لا أعرف ما الذي ستجده الشرطة، والقرار في النهاية قرارهم، كما تعرف، لكنني لا أعتقد أنهم سيحكمون على الأمر بأنه انتحار».

«لماذا؟»

رمش في وجوهنا بهدوء، وعيناه منتفختان وجفناهما ثقيلان مثل عيني سلحفاة، وقال: «ليس هناك ما يشير إلى ذلك. لكن الأمور يعتقد أن باني ربما كان يسير هناك، ولم يكن يرتدي ملابس دافئة كافية، والطقس كان سيئاً، ربما كان في عجلة للعودة إلى المنزل».

أضاف دافنبورت: «يبدو أنه كان يشرب، ربما كان ثملاً».

قال سيولا باستسلام: «حتى لو لم يكن ثملاً، كانت الأرض موحلة، وكان الظلام حالكاً».

ساد الصمت لحظات طويلة.

قال سيولا بنبرة تحمل شيئاً من الطيبة: «انظر يا بني، إنه مجرد رأي، ولكن إذا سألتني فإن صديقك لم يقتل نفسه، رأيت المكان الذي ذهب إليه، كانت أجمة الشجر الموجودة على حافة الوادي». أصدر فرقة ضعيفة بإصبعيه.

قال دافنبورت بفضاضة: «...متكسرة وثمة تراب تحت أظافره. عندما سقط هذا الفتى، كان يحاول التشبث بأي شيء يمكن أن تصل إليه يده».

وأضاف سيولا: «لا أحد يعرف حقيقة كيف حدث ذلك، فقط لا تصدق كل ما تسمعه، ذلك الوادي مكان خطر، ينبغي أن يسيجوه».

ثم وجه كلامه إلى كاميلا التي امتقع وجهها: «ربما من الأفضل أن تجلسي قليلاً، ما رأيك يا عزيزتي؟»

قال دافنبورت: «بغض النظر عما يحدث، ستتورط الكلية في كلتا الحالتين. من طريقة حديث تلك السيدة في قسم خدمات الطلاب بدا واضحاً أنهم يحاولون بالفعل التهرب من المسؤولية. إذا كان قد شرب في تلك الحفلة التي أقيمت في الكلية... أذكر حادثة مشابهة وقعت في ناشوا مسقط رأسي منذ عامين. كان هناك شاب ثمل في حفلة إحدى الأخويات، فقد وعيه وسقط في كومة ثلج، ولم يعثروا عليه إلا عندما جاءت جرافات الثلج. الأمر يعتمد على مدى سكرهم والمكان الذي تناولوا فيه مشروبهم

الأخير، لكن بغض النظر عن ذلك، يبدو الأمر سيئاً جداً للكلية،
فتى جامعي يتعرض لحادث كهذا بالقرب من الحرم الجامعي؟
مع كامل احترامي للوالدين، لقد التقيتهما وأظن أنهما سيقاضيان
الكلية».

سأل هنري سيولا: «كيف تعتقد أن الحادث وقع؟»

لم يكن هذا السؤال حكيماً لا سيما في هذا التوقيت أو المكان،
لكن سيولا ابتسم ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه المتفرقة التي
بدت مشوهة وملطخة مثل كلب عجوز أو حيوان أبسوم⁽¹⁾. أجاب:
«أنا؟»

«نعم».

لم يرد، واكتفى بسحب نفس من سيجارته، ثم أوماً برأسه
وقال بعد هنيهة من الصمت: «رأيت ليس ذا أهمية يا بني، هذه
ليست قضية فيدرالية».

سأل هنري: «ماذا تعني؟»

تدخل دافنبورت بحدة: «إنه يقصد أنها ليست قضية فيدرالية،
لا توجد جريمة فيدرالية هنا، القرار متروك للشرطة المحلية،
السبب الذي استدعونا من أجله في المقام الأول كان بسبب ذلك
المجنون من محطة الوقود، الذي تبين أنه ليس له علاقة بالأمر
على الإطلاق. تلقينا معلومات كثيرة من النائب المفوض عبر
الفاكس قبل وصولنا، هل تريد أن تعرف أي نوع من المجانين
العنصريين هو ذلك المدعو هوندي؟ كان يرسل رسائل عدائية

(1) أو الفأر الجرابي: وهو حيوان ثديي يشبه الفأر، يتميز بوجود جراب أو جيب
ملتصق بالطبقة الخارجية لبطنه يحمل بداخله صفاره.

إلى أنور السادات في السبعينيات، مليئة بأقراص الإكس-لاكس الملمنة وبراز الكلاب، بالإضافة إلى كتالوجات طلبات البريد التي تحوي صوراً لنساء شرقيات عاريات. لم يأخذ أحد هذا الرجل على محمل الجد، ولكن بعد اغتيال السادات، متى كان ذلك؟ العام 1982؟ تحرت وكالة المخابرات المركزية عن هوندي، وهي من أطلعنا على ملفاته. لم يُقبض عليه قط، ولكن يا له من مجنون، كان يدفع آلاف الدولارات على فواتير الهاتف لإجراء مكالمات مزعجة إلى الشرق الأوسط، رأيت إحدى رسائله إلى غولدا مائير، وصفها فيها بأنها قريبته المقرّبة، عليك أن تكون حذراً عندما يظهر شخص مثله ويدّعي أي شيء».

تابع دافنبورت: «بدا غير مؤذٍ، ولم يكن يسعى وراء المكافأة، أرسلنا مخبراً يتواصل معه ويعرض عليه شيكاً زائفاً، لم يلمسه حتى، لكن الأشخاص من أمثاله هم الذين يجب أن تراقبهم، أتذكر موريس لي هاردن⁽¹⁾ العام 1978، الذي بدا كأنه شخص لطيف حينها، كان يصلح الساعات ويهديها للأطفال الفقراء، لكن لن أنسى اليوم الذي داهموا فيه متجره...».

قاطعه سيولا، وهو يسقط سيجارته من بين أصابعه: «هؤلاء الشبان لا يتذكرون موريس، يا هارف. كان ذلك قبل زمنهم». وقفنا هناك بضع لحظات في شكل نصف دائرة مرتبكة فوق أحجار البلاط كأن الجميع على وشك تقديم عذر للمغادرة. وفي تلك اللحظة سمعت صوتاً غريباً ومختقاً يصدر عن كاميلا، نظرت إليها، فإذا بها تجهش بالبكاء.

(1) قاتل متسلسل في السبعينيات.

للحظة بدا أن لا أحد يعرف كيف يتصرف. نظر دافنبورت إلى هنري وإلى نظرة امتعاض، واستدار بجذعه مبتعداً عنا كأنه يقول: «هذا كله خطأكما».

أما سيولا فقد أخذ يرمش في دهشة حائرة، ومد يده مرتين نحو ذراعها، وفي المحاولة الثالثة لامست أطراف أصابعه مرفقها بلطف، قال لها بصوت هادئ: «عزيزتي، عزيزتي، هل ترغبين في أن نوصلك إلى المنزل؟».

كانت سيارتهما -سيارة فورد سيدان سوداء كما يمكنك أن تتوقع- متوقفة أسفل التل في ساحة مفروشة بالحصى خلف مبنى العلوم، سارت كاميلا إلى الأمام بينهما، كان سيولا يتحدث معها بلطف كأنما يتحدث مع طفلة، كان صوت حديثه مسموعاً رغم وقع خطواتنا على الحصى وقطرات المطر التي تتساقط برفق، إلى جانب صوت الرياح وهي تعانق الأشجار من فوقنا. قال: «هل أخوك في المنزل؟».

«نعم».

أوماً سيولا برأسه ببطء، وقال: «كما تعلمين، أنا معجب بأخيك، إنه شاب جيد، من المدهش أنني لم أكن أعلم من قبل أن صبيّاً وفتاةً يمكن أن يكونا توأمين»، ثم نظر خلف كتفها وسأل هارف: «هل كنت تعلم ذلك يا هارف؟».

رد هارف: «لا، لم أكن أعرف. هل كنتما تشبهان بعضكما أكثر عندما كنتما صغيرين؟ أعني أن هناك بعض التشابه العائلي بينكما، لكن لون شعركما مختلف بعض الشيء. زوجتي لديها ابنا

عم توأمان، بيدوان متطابقين ويعملان كلاهما في وزارة الرعاية الاجتماعية».

سكت هارف وعلا وجهه تعبير مسالم قبل أن يضيف: «أنت وأخوك على وفاق، أليس كذلك؟».

ردت كاميلا بإجابة خافتة.

«هذا رائع، أراهن أن لديكما قصصًا مثيرة كثيرة عن التخطاير الذهني وتلك الأشياء التي تحدث بين التوأمين. ابنا عم زوجتي يحضران تجمعات التوائم⁽¹⁾ التي تُعقد أحيانًا، ولن تصدقي ما يرويان لنا من قصص عند عودتهما».

كانت السماء بيضاء شاحبة، والأشجار تتوارى في الأفق كأنها أشباح، فيما اختفت الجبال تمامًا.

تدلت يداي من أكمام سترتي كأنها ليست لي، غريبة وبعيدة. لم أستطع يومًا الاعتياد على ذلك الشعور العجيب، كيف يمكن للأفق هناك أن يذوب ويمحو نفسه ليترك محاصرًا وتائهاً في مشهد أقرب إلى حلم ناقص. كان كل شيء حولي أشبه برسم مبدئي للعالم الذي أعرفه، تلك الخطوط الباهتة لشجرة وحيدة في بستان، وأعمدة الإنارة المتفرقة، ومداخن متناثرة في غير سياقها الطبيعي تطفو في فضاء غريب، محاطة بفراغ مخيف ينتظر أن يمتلئ بالتفاصيل المفقودة.

(1) يقام تجمُّع التوائم سنويًا في أول عطلة نهاية أسبوع من شهر أغسطس في توينزبرج بأوهايو في الولايات المتحدة للاحتفال بالتوائم البيولوجية.

كانت الأرض حولي تبدو كأرض منسية، أشبه بجنة مشوّهة حيث تبدو المعالم القديمة مألوفة ولكنها بعيدة ومشوّشة ومخيفة بسبب الفراغ الواسع الذي يفصل بينها.

وقعت عيناى على حذاء قديم ملقى على الأسفلت أمام رصيف التحميل، حيث كانت سيارة الإسعاف موجودة قبل دقائق قليلة. لم يكن حذاء بانى، لا أعرف لمن يعود، أو كيف وصل إلى هناك. كان مجرد حذاء تنس قديم ملقى على جانبه، لا أعرف لماذا أتذكر ذلك الآن، أو لماذا ترك هذا الانطباع العميق في نفسي.

الفصل السابع

على الرغم من أن باني لم يكن يعرف طلابًا كثيرين في هامبدن، فإن صغر حجم الكلية جعل جميع الطلاب تقريبًا على دراية به بشكل أو بآخر. كانوا يعرفون اسمه، ويتذكرون ملامح وجهه، وصوته المميز الذي كان يبقى عالقًا في الأذهان، إنه أمر غريب، فعلى الرغم من امتلاكه بعض الصور الفوتوغرافية له، فإن صوته هو ما ظل يلاحقني عبر السنين، ذاك الصوت الذي كان حادًا وثرثارًا ورنانًا بشكل استثنائي، كان من الصعب نسيانه بمجرد سماعه، وفي الأيام الأولى بعد وفاته خيم صمت غريب على قاعات الطعام التي كانت معتادة على صوته الجمهوري الصاخب الذي يشبه النهيق، يتردد صده في مكانه المعتاد بجوار ماكينة الحليب.

كان من الطبيعي أن يشعر الجميع بفقدانه أو حتى بالحزن على رحيله، خاصة في كلية مثل هامبدن، حيث كنا جميعًا معزولين عن العالم الخارجي ونحتك كثيرًا ببعضنا. لكن ما أدهشني حقًا هو الاستعراض الجارف للأسى الذي اجتاح الجميع بمجرد الإعلان رسميًا عن وفاته، لم يكن هذا الحزن مبالغًا فيه فقط بل مخزيًا أيضًا في ظل تلك الظروف.

لم يبدو أن أحدًا تأثر بشدة باختفائه، حتى في تلك الأيام الأخيرة القاتمة التي كان الجميع يتوقع فيها أخبارًا سيئة حتمًا. لم يكن البحث عنه بالنسبة إلى معظم الناس سوى مصدر إزعاج كبير، ولكن الآن بعد نبأ وفاته بدا أن الجميع أصيبوا بحالة من

الجنون، فجأة أصبح باني معروفًا لدى الجميع، وأصبحوا جميعًا غارقين في الحزن متظاهرين بمحاولة التأقلم مع الحياة من دونه.

«لقد أراد أن تكون نهايته بهذه الطريقة دون تغيير أي شيء». كانت هذه عبارة سمعتها عدة مرات ذلك الأسبوع على السنة أشخاص لم يكن لديهم أدنى فكرة عما أراده باني.

احتشد الناس خارج قاعات الطعام؛ موظفو الكلية والطلاب وأشخاص غرباء، وأخذوا ييكون ويولولون، حتى مجلس أمناء الكلية أصدر بيانًا رسميًا دفاعيًا صاغه بعناية جاء فيه: «تبرع كلية هامبدن وفقًا لقيمها الإنسانية التقدمية ومن أجل راحة روح باني كوركوران الفريدة، بهدية قيمة باسمه إلى اتحاد الحريات المدنية الأمريكي». وهي منظمة كان باني يمقتها أشد المقت على الأرجح، هذا إن كان يعلم بوجودها أصلاً.

يمكنني أن أكتب صفحات وصفحات عن هذه التمثيليات العامة التي صاحبت الأيام التي تلت وفاته، نُكِّس العلم على سارية الكلية، وظل المستشارون النفسيون في حالة استعداد على مدار الساعة لتقديم الدعم، بل إن بعض الأشخاص غربيي الأطوار في قسم العلوم السياسية ارتدوا شارات سوداء على أذرعهم، وفي كل مكان كان هناك زراعة للأشجار وحفلات تأبين وجمع تبرعات وحفلات موسيقية، حتى أن فتاة في السنة الأولى حاولت الانتحار -لأسباب لا علاقة لها بالموضوع- عن طريق تناول التوت السام من شجيرة أمام مبنى الموسيقى.

كان كل ذلك بطريقة ما هستيريا جماعية، ارتدى الجميع النظارات الشمسية عدة أيام، وفي وسط ذلك كان فرانك وجود يتجولان كما اعتادا دائماً حاملين علبة الطلاء القصديرية لجمع الأموال من أجل حفل البيرة الذي سيقام في ذكرى باني، وقد رفعاً شعار «الحياة يجب أن تستمر».

اعتقد بعض مسؤولي الكلية أن إقامة حفل البيرة كان تصرفاً غير لائق، لا سيما أن وفاة باني لفتت الانتباه إلى عدد كبير من الأنشطة المرتبطة بالكحول في هامبدن، لكن فرانك وجود لم يهتمًا لهذه الانتقادات.

قالا بوجهيهما العابسَيْن: «كان باني ليريدنا أن نحتفل»، على الرغم من أن هذا كان بعيداً كل البعد عن الحقيقة، ومع ذلك كان مكتب شؤون الطلاب يخشى دائماً فرانك وجود، ولم يكن ليجرؤ على إلغاء الحفل، فقد كان والداهما عضوين في مجلس إدارة الكلية مدى الحياة، وقد تبرع والد فرانك بمبلغ لبناء مكتبة جديدة، أما والد جود فشيّد مبنى العلوم، وظهرت نظرية مفادها أنهما كانا بمنأى عن العقاب، وأن حتى التوبيخ من عميد الكلية لن يمنعهما من فعل ما يريدانه. وهكذا أقيم حفل البيرة، وكان بالضبط كما توقعت؛ فوضوي وغير لائق، لكنني أستبق هنا الأحداث.

كانت كلية هامبدن عرضة للهستيريا بشكل غريب سواء كان السبب في ذلك عزلتها الجغرافية أم الأحقاد القديمة أم الملل. كان الناس في هامبدن أكثر سذاجة وسرعة استثارة مما يمكن توقعه من المثقفين. خلق هذا الجو المغلق والمشحون تربة خصبة

للدراما والمبالغات، أذكر جيداً حادثة أثارت ذعراً هائلاً عندما شغل أحد سكان البلدة صفارات إنذار الدفاع المدني على سبيل المزاح، فاعتقد البعض أنه هجوم نووي.

كان استقبال التلفزيون والراديو في تلك الليلة خصوصاً سيئاً بسبب تضاريس الجبال، ما زاد من حالة الهلع؛ تعطلت لوحة تحويل المكالمات نتيجة التدافع على إجراء المكالمات الهاتفية، ففرق المجتمع في ذعر عنيف لا يصدق. اصطدمت السيارات في ساحات الانتظار، صرخ الناس، وبكوا، وراحوا يتخلصون من ممتلكاتهم. تكدسوا في مجموعات صغيرة بحثاً عن الراحة، حتى أن بعض الهيببيين تحصنوا داخل مبنى العلوم، وهو الملجأ الوحيد من القنابل، ورفضوا السماح لأي شخص بالدخول إلا إذا كان يعرف كلمة السر الغامضة «شوجر ماجنوليا». من رحم الفوضى ظهرت قيادات، وتكونت كتائب، وعلى الرغم من أن العالم الخارجي لم يشهد أي دمار فعلي، فإن الناس قضوا وقتاً ممتعاً، وتحدثوا عن هذه الواقعة باعتزاز لسنوات تالية.

وعلى الرغم من أن الحزن على باني لم يكن بهذا القدر من الدراما، فإنه ظاهرة مماثلة من نواح عديدة كتعبير عن الروح الجماعية والولاء العاطفي، فقد كان شعار الكلية في هامبدن «التعلم بالممارسة». كان الجميع يشعرون بنوع من الاستقرار النفسي والراحة الداخلية من خلال حضور الجلسات الاجتماعية وحفلات الناي في الهواء الطلق، كانت هذه التجمعات تمنحهم ذريعةً لتبادل الكوابيس أو للانهيال في الأماكن العامة. من زاوية معينة كان الأمر مجرد تمثيل مسرحي، ولكن في هامبدن حيث

كان التعبير الفني مقدساً كان التمثيل المسرحي بحد ذاته فعلاً، وكان الناس يأخذون أدوارهم في الحداد بجدية مفرطة، كما يتقمص الأطفال من دون متعة أدوارهم في ألعابهم.

كانت طقوس الهيبين الخاصة لرتاء باني خصوصاً ذات طابع أنثروبولوجي لافت، فقد كان باني في حياته في حالة عداء دائم معهم، لأنهم لوثوا مغطسه الخاص بالصبغات التي استخدموها في صباغة أقمشة ثيابهم، وشغلوا أجهزة الستريو بصوت عالٍ لإزعاجه. وكان باني يرد عليهم برميهم بعلب الصودا الفارغة والاتصال بالأمن عندما يشك في تدخينهم الماريجوانا، ولكنهم بعد وفاته تخلصوا من عدائهم القديم، ورفعوه إلى مرتبة أخرى بطريقة قَبْلِيَّة وغير شخصية، راحوا يهتفون ويرسمون المندالة⁽¹⁾، ويقرعون الطبول، ويؤدون طقوسهم الغامضة كأنهم يحولون موته إلى حدث يتجاوز الفقد الفردي إلى طقوس جماعية.

توقف هنري ليشاهدهم من بعيد مستنداً بحلقة مظلمة على طرف حذائه الكاكي.

سألته: «هل «المندالة» كلمة بالية⁽²⁾؟»

هز رأسه وقال: «لا، إنها كلمة سنسكريتية تعني الدائرة».

«إذن هذا نوع من الطقوس الهندوسية؟».

(1) المَندَالة: أحد الفنون التي تتميز بها منطقة التبت، كما يعد من أكثر الفنون تفرداً وروعة في تلك المنطقة. والمندالة تمثل الدائرة والاحتواء وتصميم نمط ونقوش متوازنة بصرياً تتكشف في المركز.

(2) لغة من اللغات الهندية الآرية الوسطى (من مجموعة براكريت) التابعة لشبه قارة الهند. ومن المعروف أيضاً أنها لغة كثير من الكتب المقدسة البوذية، ولغة طقوس الثيرافادا البوذية.

قال: «ليس بالضرورة»، وهو ينظر إلى الهيببيين من أعلى إلى أسفل كما لو كانوا مخلوقات غريبة في حديقة حيوانات. ثم أضاف: «لقد ارتبطت المندالة بالتانترا⁽¹⁾، التي كانت لها تأثيرات مفسدة على البانثيون البوذي الهندي، على الرغم من أن البوذيين استوعبوا بعض عناصرها وأعادوا هيكلتها ضمن تقاليدهم. يمكن القول إنه بحلول العام 800 ميلادية، كان للتانترا تقليد أكاديمي خاص بها، مع أنه منحرف من وجهة نظري».

سكت هنيهة، وهو يراقب فتاة تحمل دُفًا، تدور متخبطة فوق المرج، ثم قال: «لكن للإجابة عن سؤالك، نعم أعتقد أن للمندالة مكانة محترمة في تاريخ الثيرافادا والبوذية عمومًا، نجد تجلياتها في تلال الذخائر المقدسة في سهل نهر الجانج وفي أماكن أخرى منذ القرن الأول الميلادي».

عند التأمل في ذلك الآن، أشعر أنني قد ظلمت بانتي في بعض النواحي، فقد كان الناس يحبونه حقًا، لم يكن أحد يعرفه جيدًا، ولكن كانت إحدى السمات الغريبة لشخصيته هي أنه كلما قل عدد الأشخاص الذين يعرفونه عن قرب، زاد توهم الناس بأنهم يعرفونه جيدًا.

عكست شخصية بانتي من بعيد انطباعًا بالصلابة والكمال، لكن هذا الانطباع كان هشًا وغير جوهري مثل صورة ثلاثية

(1) فلسفة دينية يعتقد معتقوها أن شاكتي هو الإله الرئيس الذي يعدونه، ويعدون الكون لعبة إلهية يمارسها شاكتي وشيفا. وممارسة طقوس التانترا هدفها الرقي بالكائنات الإنسانية من خلال عملية توسع عقولهم، وتقودهم من النقص إلى الكمال، ومن التقيد إلى التحرر.

الأبعاد، فعند الاقتراب منه كان باني مجرد ذرات وضوء، يمكنك تمرير يدك من خلالها. ولكن إذا تراجعت إلى الخلف بما فيه الكفاية، فالوهه يعود من جديد، ويتجلى باني أمامك مرة أخرى، أكبر من الحياة نفسها، يحدق عبر نظاراته الصغيرة ويزيح إلى الوراء خصلة شعر مبللة عن جبينه.

شخصية مثل باني تتلاشى عندما تخضع للتحليل. لا يمكن تعريفها إلا من خلال حكايات أو مواقف عابرة أو جملة سريعة سمعها أحدهم. فجأة يتذكر الأشخاص الذين لم يتحدثوا معه قط بغصة مشوبة بالمودة مشهداً عابراً له وهو يرمي العصي لكلبه أو يسرق زهور التوليب من حديقة أحد الأساتذة.

قال رئيس الكلية وهو يمسك المنصة بكلتا يديه: «لقد أثر باني في حياة الناس»، ومع أنه كرر العبارة نفسها بالطريقة نفسها بعد شهرين خلال حفل تأبين الطالبة المنتحرة (التي أثبتت أن الانتحار باستخدام شيفرة حلاقة ذات حد واحد أكثر نجاعة من التوت السام)، فإن هذه الكلمات كانت صحيحة بشكل غريب في حالة باني. لقد لمس حياة الناس بطرق غير متوقعة تماماً، حتى حياة الغرباء. هؤلاء الغرباء هم من رثوه بأسى عميق، مع أنهم لم يعرفوه معرفة حقيقية بل رثوا صورة غير واضحة عنه.

كان سر جاذبية باني يكمن في طبيعته غير الواقعية، أشبه بشخصية كاريكاتيرية أحادية البعد إذا صح التعبير. كانت وفاته محزنة جداً لأنه، مثل أي ممثل كوميدي عظيم، كان يضيف لونا على محيطه أينما ذهب. لتقدير شخصيته الثابتة، كان عليك أن ترغب في رؤيته في مواقف غريبة، مثل باني يركب جملاً

أو يعتني بطفل أو حتى باني في الفضاء، الآن بعد موته تبلور هذا الثبات وأصبح شيئاً مغايراً تماماً، كان مهرجاً قديماً مألوفاً، اختير -بهدف إحداث صدمة- لتجسيد دور تراجيدي.

عندما بدأ الثلج أخيراً بالذوبان، تلاشى بالسرعة نفسها التي ظهر بها.

وفي غضون أربع وعشرين ساعة اختفى تماماً، فيما بقيت أكوام رمادية صغيرة على جوانب الطرق، وفي بعض البقع الظليلة الرائعة في الغابة، حيث كانت الأغصان المغطاة بطبقة رقيقة من البياض تتساقط منها قطرات كأنها ثقوب سوداء تنهمر على الأرض الرطبة، بدت الحديقة التي تحيط بالقاعة العامة واسعة ومهجورة كأنها ساحة معركة نابليونية مملوءة بالطين وآثار الأقدام التي شوهدت أرضها.

كان وقتاً عصيباً وغريباً، في الأيام التي سبقت الجنازة التقى أحدنا الآخر بالكاد، اصطحب آل كوركوران هنري إلى كونيكتيكت، أما كلوك -الذي بدا على وشك الانهيار العصبي- فقد ذهب بلا دعوة إلى منزل تشارلز وكاميللا، حيث كان يجلس وحيداً يحتسي عبوة من بيرة جرولزتش المكونة من ست علب، ثم ينام على الأريكة وسيجارة مشتعلة بين أصابعه.

أما أنا فكنيت مثقلاً بصحبة جوذي بوفي وصديقتها تريسي وبيث، كن يأتين بانتظام ليصطحبني في أوقات الوجبات (تمسك جوذي يدي من فوق الطاولة قائلة: «ريتشارد، يجب أن تأكل»)، وفي بقية الأوقات كن يخططن لنشاطات بسيطة من أجلي: رحلة

إلى السينما، وتناول الطعام المكسيكي، أو زيارة شقة تريسي لاحتساء المارجريتا ومشاهدة قناة MTV. ومع أنني لم أمانع في قيادة السيارة، فإنني لم أكن شغوفاً بعرضهن المستمر لتناول الناتشوز والمشروبات التي تحتوي على التيكيتا، كن مولعات بمشروب يُسمى «كاميكازي»، ويحببن صبغ المارجريتا بلون أزرق كهربائي غريب.

في الحقيقة، كنت في كثير من الأحيان سعيداً بصحبتهم. على الرغم من عيوبها، كانت جودي طيبة القلب ومتسلطة وثرثرة جداً لدرجة أنني كنت أشعر براحة غريبة معها، لكن بيث لم تعجبني، كانت راقصة من سانتا في، ذات وجه مطاطي وضحكة ساذجة، تبرز فيها غمازات عميقة عند كل ابتسامة، مع أن الكثيرين في هامبدن اعتبروها جميلة إلى حد ما، فإن مشيتها المتراخية التي تذكّرني بكلب سبينلي وصوتها الطفولي المليء بالعاطفة الذي كان يتحول أحياناً إلى أنين كانا يثيران نفوري. كانت بيث قد تعرضت لعدة انهيارات عصبية من قبل، وفي بعض الأحيان بعد أن تهدأ من نوباتها كانت تبدو حولاء العينين؛ ما كان يزيد من توتري.

من ناحية أخرى كانت تريسي رائعة. كانت جميلة ويهودية تملك ابتسامة ساحرة، وكان يعجبني تقليدها سلوكيات ماري تايلر مور، مثل احتضان نفسها أو الدوران بذراعيها الممدودتين.

كن ثلاثتهن يدخنن بشراهة، ويحكين قصصاً مملة وطويلة (مثل تلك المرة التي انتظرنا فيها على المدرج خمس ساعات) أو يتحدثن عن أشخاص لا أعرفهم، أنا التائه والمثقل بالحزن كنت أكتفي بالتحديق من النافذة متظاهراً بالاستماع، ومع ذلك كنت

أحياناً أشعر بالملل الشديد، وإذا اشتكيت من صداع أو زعمت أنني بحاجة إلى النوم، كانت تريسي وبيث تختفيان بسرعة، وتتركانني وحدي مع جودي. وعلى الرغم من نياتها الطيبة فإن نوع العزاء الذي كانت تحاول تقديمه لم يكن يناسبني، وبعد عشر أو عشرين دقيقة معها، كنت مستعداً لتقبل أي كمية من مشروبات المارجريتا ومشاهدة MTV في شقة تريسي.

كان فرانسيس الوحيد بيننا الذي لم يكن مثقلاً بالأعباء، كان يزورني من حين إلى آخر. أحياناً كان يجدني وحدي، وعندما لم أكن كذلك كان يجلس متصلاً على كرسي مكتبي، ويتظاهر مثل هنري بتفحص الكتب اليونانية على رفوفي حتى تفهم تريسي الحمقاء التلميح وتغادر، وما إن يُغلق الباب وتخفت خطواتها على الدرج، كان يغلق الكتاب على إصبعه ويميل إلى الأمام قلقاً، ويرمش بعينه مضطرباً.

كان قلقنا الأكبر في ذلك الوقت هو تشريح الجثة الذي طلبته عائلة باني، لقد أصابتنا الصدمة عندما أخبرنا هنري من كونيتيكت أن تشريح جثة باني جارٍ بالفعل. تمكن هنري من الهروب من منزل آل كوركوران في ظهر أحد الأيام، واتصل بفرانسيس من هاتف عمومي بجانبه لافتات مرفرفة ومظلات مخططة في ساحة بيع سيارات مستعملة. بينما ظهرت أصوات الطريق السريع صاخبة في الخلفية، سمع هنري السيدة كوركوران تخبر زوجها بأن هذا القرار كان حكيماً، وإلا (وهنا أقسم هنري إنه سمع بوضوح) لن يتمكنوا من معرفة الحقيقة كاملة.

أيًا كان ما قد يُقال عن الذنب، فإنه بالتأكيد يمنح الإنسان قدرة شيطانية على المبالغة في التخيلات واختلاق الأحداث. قضيت عدة ليالٍ كانت من أسوأ ما مر بي في حياتي على الإطلاق، أمضيتها مستلقيًا ومسلوب النوم وثنلاً وطعم التيكىلا البشع يملأ فمي، منشغلاً بالتفكير في تفاصيل تافهة كخيوط الملابس وبصمات الأصابع وخصلات الشعر، كل معرفتي بالتشريح جاءت من إعادة عرض «كوينسي»⁽¹⁾، ولم يخطر ببالي قط أن معلوماتي قد تكون غير دقيقة لأنها مستقاة من مسلسل تليفزيوني، ألم يستعينوا بخبراء؟ ألم يكن لديهم طبيب استشاري في موقع تصوير المسلسل؟

جلست وأشعلت الأضواء، لأجد فمي ملطخًا بلون أزرق غريب. وعندما تقيأت المشروب في الحمام، كان اللون نقيًا وصافيًا، دفعة من الفيروزي الحمضي اللامع، كأنني سكبت زجاجة من منظف المراحيض تاي دي بول.

لكن هنري الذي أتيح له مراقبة عائلة كوركوران في منزلهم عرف ما يحدث بسرعة، لم يستطع فرانسيس الانتظار لزف الخبر السعيد إليّ، فألقى الخبر بلغة يونانية ركيكة فوراً، ولم ينتظر حتى تخرج تريسي وجودي من الغرفة. تساءلت تريسي الحمقاء بصوت عالٍ عن مدى رغبتنا في الالتزام بواجباتنا المدرسية في مثل هذه الأوقات.

(1) كوينسي إم إي ويسمى أيضًا كوينسي: سلسلة تليفزيونية أمريكية من إنتاج يونيفرسال ستوديوز، بثت من 3 أكتوبر 1976، إلى 5 سبتمبر 1983، على إن بي سي. ولعب فيها جاك كلوغمان دور طبيب شرعي في مقاطعة لوس أنجلوس.

قال لي: «لا تقلق. تشعر الأم بالقلق من العار الذي قد يلحق بابنها بسبب إدمانه الكحول».

لم أفهم قصده في البداية، إذ استخدم كلمة «العار» (أتيμία) التي تعني أيضاً في اللغة اليونانية القديمة «خسارة الحقوق المدنية».

كررت: «أتيμία؟»

«نعم».

«لكن الحقوق للأحياء وليس للأموات».

هز رأسه وقال: «يا إلهي. لا، ليس هكذا». راح يتحرك في الغرفة ويفرقع بأصابعه، فيما كانت جودي وتريسي تراقبانه باهتمام، التحدث بلغة ميتة أصعب بكثير مما تتخيل.

أخيراً قال باليونانية: «انتشرت شائعات كثيرة، والأم تتحسر ولكن ليس على ابنها»، ثم أضاف بسرعة وهو يلاحظ أنني على وشك الكلام: «لأنها امرأة شريرة فإنها تتحسر على العار الذي ألحقه بسمعة عائلتها».

«أي عار؟»

قال بتعجل: «Φάρμακου (المخدرات)، تسعى إلى إظهار أن جثته لا تحوي أي نبيذ»، (وهنا استخدم استعارة أنيقة جداً وغير قابلة للترجمة؛ بقايا الكحول في قرية⁽¹⁾ جسده الفارغة).

«ولماذا؟ أرجوك أخبرني، هل تهتم بذلك حقاً؟»

«نعم، لأن هناك أحاديث كثيرة بين الناس، من المخجل أن يموت شاب وهو ثمل».

(1) Wineskin في الأصل: حاوية مصنوعة من جلد الحيوانات (الماعز والأغنام عادة) كانت تستخدم قديماً في حفظ أو نقل النبيذ.

هذا كان صحيحًا على الأقل فيما يخص الإشاعات المتداولة عن باني، باتت السيدة كوركوران -التي كانت في البداية تتحدث إلى أي شخص يستمع- الآن غاضبة من الموقف المذل الذي وجدت نفسها فيه. اختفت تدريجيًا المقالات الأولى التي وصفتها بأنها «أنيقة» و«جميلة» وأشادت بالعائلة على أنها «مثالية»، لتحل محلها مقالات وقحة ومليئة بالإشارات الغامضة والالتهامات المبهمة، مثل ذلك المقال الذي حمل عنوانًا لاذعًا: «الأم تنفي شائعات إدمان ابنها الكحول: ليس ابني!».

على الرغم من أنه لم يُعثر على زجاجة بيرة واحدة بجوار جثة باني، ولم تكن هناك أي أدلة واضحة على تعاطي المخدرات، فإن المحللين النفسيين في نشرات الأخبار المسائية تطرقوا إلى الحديث عن «العائلات المفككة» وظاهرة «الإنكار»، مشيرين إلى أن ميول الإدمان تنتقل عادة من الآباء إلى الأبناء، كانت هذه ضربة موجعة للسيدة كوركوران، غادرت هامبدن وسط حشد من الصحفيين الذين عرفتهم منذ زمن، كانت عيناها تتجنبهم وأسنانها مطبقة في ابتسامة متوترة تُظهر تحتها حقدًا دفينًا. كان ذلك كله مجحفًا وغير منصف. وفقًا لسرديات الأخبار قد يتصور المرء أن باني كان مجرد صورة نمطية لشاب «يدمن المخدرات» أو «مراهق مضطرب». لم يكن مهمًا أن كل من عرفه -بمن فيهم نحن- نفى ذلك تمامًا، فباني لم يكن شابًا جانحًا، وتشريح الجثة لم يظهر سوى نسبة ضئيلة جدًا من الكحول في دمه، ولم يُعثر على أي أثر للمخدرات، كما أنه لم يكن حتى مراهقًا، لكن الشائعات مثل نسر يحوم فوق جثته غرست مخالبتها فيه إلى الأبد.

ظهرت فقرة صغيرة في الصفحة الخلفية لجريدة «هامبدن إكزامينر» أشارت بفتور إلى نتائج تشريح الجثة. ومع ذلك ظل باني في الذاكرة الشعبية للكلية يُذكر بأنه مراهق مضطرب وثل، لا يزال شبحه الملطخ بالبيرة يُستحضر في الغرف المظلمة، ليروي قصته للطلاب الجدد جنباً إلى جنب مع حكايات الرؤوس المقطوعة في حوادث السيارات، والفتاة المراهقة التي شنقت نفسها في عليّة منزل بوتنام، وغيرهم من صنوف الموتى في هامبدن.

حُدّد موعد الجنازة يوم الأربعاء، وفي صباح الاثنين وجدت مظروفين في صندوق بريدي؛ أحدهما من هنري والآخر من جوليان، فتحت رسالة جوليان أولاً، كانت مختومة بختم بريدي نيويورك، ومكتوبة على عجل بقلم أحمر، وهو نفس القلم الذي يستخدمه لتصحيح واجباتنا في اللغة اليونانية.

عزيزي ريتشارد،

كم أنا حزين هذا الصباح، وأعلم أن هذا الحزن سيرافقني لأيام عديدة قادمة، أفجعني خبر وفاة صديقنا. لا أعرف إذا كنت قد حاولت الاتصال بي فقد كنت بعيداً، ولم أكن على ما يرام، وأشك في أنني سأعود إلى هامبدن حتى بعد الجنازة، وهو ما يملؤني بالحزن العميق عند التفكير أن يوم الأربعاء سيكون آخر يوم نلتقي فيه جميعاً. آمل أن تصلك هذه الرسالة وأنت بخير، وأن تجلب لك قليلاً من السلوى والحب.

في نهاية الرسالة كانت الأحرف الأولى من اسمه.

أما رسالة هنري المرسله من كونيتيكت فكانت مليئة بالتكلف وغموض المعاني أشبه برسالة مشفرة من إحدى ساحات الحرب في الجبهة الغربية⁽¹⁾.

عزيزي ريتشارد،

أتمنى أن تكون بخير، أنا أقيم في منزل عائلة كوركوران منذ بضعة أيام، على الرغم من أنني أشعر أنني عاجز عن مواساتهم كما يتوقعون مني في هذا المصاب الجلل، فقد سمحوا لي بأن أساعدهم في بعض المهام المنزلية البسيطة.

طلب مني السيد كوركوران أن أكتب إلى أصدقاء باني في الكلية، وأوجه لهم دعوة لقضاء عشية الجنازة في منزله، سيخصصون لك مكاناً للمبيت في الطابق السفلي. إذا كنت لا تستطيع الحضور فالرجاء الاتصال بالسيدة كوركوران وإبلاغها بذلك، أطلع إلى رؤيتك في الجنازة إن لم يكن قبل ذلك، كما آمل.

لم تُختتم الرسالة بتوقيع، بل اقتبس في نهايتها شعار من «الإلياذة» باليونانية، من الكتاب الحادي عشر تحديداً، عندما يجد أوديسيوس نفسه وحيداً في أرض العدو، بعيداً عن أصدقائه «يقول قلبي لي: كن قوياً، أنا جندي، وقد رأيت مشاهد أسوأ من هذا».

(1) مسرح العمليات الأوروبي خلال الحرب العالمية الثانية والذي شمل الدنمارك والنرويج ولوكسمبورغ وبلجيكا وهولندا وفرنسا وألمانيا الغربية.

سافرتُ إلى كونيتيكت برفقة فرانسيس، وعلى الرغم من توقعي أن ينضم إلينا التوأمان، فإنهما سبقانا في اليوم السابق برفقة كلوك الذي -لدهشة الجميع- تلقى دعوة شخصية من السيدة كوركوران نفسها. كان ذلك مفاجئًا إذ كنا نظن أنه لن يُدعى إطلاقًا، فبعد أن قبض عليه المحققان سيولا ودافنبورت وهو يحاول مغادرة البلدة، رفضت السيدة كوركوران حتى التحدث إليه. قال فرانسيس معلقًا: «إنها تحفظ ماء وجهها»، ومع ذلك فقد تلقى دعوة شخصية، وتكفّل هنري أيضًا بتوصيل دعوات أخرى لصديقيه روني ووين وبرام غيرنسي.

في الواقع دعت عائلة كوركوران عددًا من الأشخاص من هامبدن، من بينهم معارف من السكن الجامعي لم أكن أعلم أن باني يعرفهم، ركبت معنا في السيارة في الرحلة إلى كونيتيكت فتاة تدعى صوفي ديربولد، كنت أعرفها معرفة سطحية من صف اللغة الفرنسية.

سألت فرانسيس في الطريق إلى مسكنها: «كيف تعرف باني إلى صوفي؟»

فأجاب: «لا أعتقد أنه كان يعرفها معرفة وثيقة، لكنه كان معجبًا بها في السنة الجامعية الأولى. وأكاد أجزم أن ماريون لن تكون سعيدة بدعوتهم لها».

على الرغم من أنني خشيت أن تكون الرحلة محرجة، فإن وجود شخص غريب مثل صوفي جعل الأمور أسهل مما توقعت. كان الجو مريحًا جدًا، وقضينا وقتًا ممتعًا. شغلنا الراديو، وجلست صوفي (ذات العينين البنيتين، والصوت الخشن) في

المقعد الأمامي، تميل إلينا بذراعيها المطويتين فيما تتحدث، كان فرانسيس في حالة معنوية مرتفعة لم أره فيها منذ زمن طويل. قال لها مازحًا: «أنت تشبهين أودري هيبورن، هل تعلمين ذلك؟».

أعطتنا سجائر وعلكة بنكهة القرفة، وحكت لنا بعض القصص الطريفة. كنت أضحك، ثم أعود إلى التحديق خارج النافذة داعيًا في سري أن تمر الزيارة بسلام، لم أزر كونيتيكت من قبل، ولم أحضر جنازة في حياتي.

وصلنا إلى بلدة شادي بروك التي كانت تقع على طريق ضيق يلتوي بعيدًا عن الطريق السريع ويتعرج لعدة أميال فوق الجسور مرورًا بالأراضي الزراعية ومراعي الخيول والحقول. بعد قليل اختفت المروج الخضراء وظهرت أمامنا لافتة خشبية محترقة تتأرجح أمام مبنى قديم على طراز تيودوري⁽¹⁾، مكتوب عليها: «نادي شادي بروك الريفي»، بدأت المنازل الكبيرة الفاخرة بالظهور بعدها، كل منها يقع على مساحة شاسعة من الأرض تمتد على ستة أو سبعة فدادين.

كان المكان أشبه بالمتاهة، تابع فرانسيس الأرقام على صناديق البريد، لكننا مررنا بعدة طرق خاطئة؛ ما اضطره إلى الرجوع بالسيارة مرارًا، وهو يشتم ويضغط على دواسرة الوقود بحنق، لم تكن هناك علامات واضحة أو تسلسل منطقي لأرقام المنازل،

(1) يعد أسلوب العمارة التيودورية التطور النهائي لعمارة العصور الوسطى في إنجلترا وويلز، خلال عصر تيودور بين عامي 1485 و1603، بل إنه يرجع إلى أقدم من ذلك، وبداية عمارة عصر النهضة في بريطانيا.

وبعد نحو نصف ساعة من البحث العشوائي، بدأت أمل ألا تتمكن من العثور على المنزل أبداً، وأن تتمكن من الاستدارة والاستمتاع برحلة عودة مبهجة إلى هامبدن.

ولكن بالطبع وجدناه في نهاية شارع مسدود، كان المنزل ضخماً وحديثاً ومبنيًا بأسلوب معماري متقن من خشب الأرز المبيض، تخلو طوابقه المقسمة وشرفاته غير المتناسقة من الزخارف تمامًا. أما الفناء فكان مرصوفًا بالطوب الأسود خاليًا تقريبًا من المساحات الخضراء باستثناء عدد قليل من أشجار الجنكة مزروعة في أحواض وموزعة بطريقة مدروسة تبرز الدراما.

قالت صوفي -فتاة هامبدينية أصيلة، تحب إظهار إعجابها بكل ما هو جديد- بدهشة: «واو».

نظرت إلى فرانسيس الذي هز كتفيه قائلاً: «والدته مولعة بالهندسة المعمارية الحديثة».

لم يسبق لي أن رأيت الرجل الذي فتح الباب، لكنني عرفتته فوراً بحاسة سادسة غريبة تشبه الحلم. كان رجلاً ضخماً وأحمر الوجه، فكه عريض وشعره أشيب. حلق إلينا لحظة، وفمه مفتوح بشكل دائري غريب، ثم اندفع فجأة إلى الأمام وأمسك بيد فرانسيس قائلاً بطريقة صبيانية سريعة على نحو مدهش: «حسنًا... حسنًا... حسنًا».

كان صوته أنفيًا وصاخبًا، يشبه صوت باني: «وصل رأس الجزيرة إذن! كيف حالك يا فتى؟»

أجاب فرانسيس بابتسامة دافئة: «بخير».

شعرت بالدهشة من عمق مشاعر فرانسيس ودفء مصافحته له، بعدها رمى السيد كوركوران ذراعه الثقيلة حول رقبة فرانسيس وسحبه نحوه بحنان مبالغ فيه، وقال لنا ولصوفي وهو يمد يده ليمشط شعر فرانسيس: «هذا هو ابني، جميع إخوتي كانوا ذوي شعر أحمر، لكن لا أحد من أولادي ورث ذلك، غريب حقاً»

ثم قال لصوفي وهو يبعد ذراعه عن رقبة فرانسيس ويمسك بيدها: «من أنتِ يا عزيزتي؟»
«أهلاً. أنا صوفي ديربولد».

«حسنًا، أنتِ جميلة جدًا. أليست جميلة يا أولاد؟ أنت تشبهين عمك جين تمامًا، يا عزيزتي».

قالت صوفي بعد صمت مرتبك: «عفوًا؟»

«عمك يا عزيزتي، أخت والدك... تلك الجميلة جين ليكفولد التي فازت ببطولة الجولف للسيدات في النادي العام الماضي».
«لا يا سيدي. ديربولد».

«ديرفولد. حسنًا، أليس هذا غريبًا، لا أعرف أي ديرفولد هنا، عرفت زميلًا لي اسمه بريدلو، ولكن لا بد أن ذلك كان قبل عشرين عامًا، كان يعمل في مجال التجارة، يقولون إنه اختلس مبلغًا يربو على خمسة ملايين دولار من شريكه».
«أنا لستُ من هنا».

نظر إليها وقد رفع حاجبه بأسلوب ذكّرني بياني، وقال: «لستُ من هنا؟»
«لا».

قال كأنه لا يستطيع أن يصدق ذلك: «لستُ من شادي بروك؟»

«لا».

«إذن، من أين أنت يا عزيزتي؟ غرينتش؟»

«ديترويت».

«بارك الرب قلبك إذن على قطعك كل هذه المسافة إلى هنا».

ابتسمت صوفي وهزت رأسها، محاولة توضيح أنها لم تأت من ديترويت بل من هامبدن، عندما أحاطها السيد كوركوران بذراعيه وانفجر في بكاء مباغت من دون سابق إنذار. تجمدنا جميعاً من الرعب، كانت عينا صوفي تطلان فوق كتفه العريضة مستديرتين ومذعورتين كأنه يطعنهما بسكين. صرخ بصوت مختنق، ووجهه مدفون في رقبتها: «أوه، يا عزيزتي، كيف سنعيش من دونه؟»

قال فرانسيس وهو يشده من كمه: «تماسك يا سيد كوركوران».

قال السيد كوركوران وهو ينتحب: «لقد أحببناه كثيراً، يا عزيزتي. وكان يحبك أيضاً. أراذك أن تعرفي ذلك».

قال فرانسيس وهو يمسكه من كتفيه ويهزه بقوة: «سيد كوركوران».

استدار وسقط على فرانسيس وهو يصدر خواراً، ركضت إلى الجانب الآخر وتمكنت من وضع ذراعه حول رقبتني، خارت ركبتاه، وكاد يسحبني إلى الأسفل، لكن بطريقة ما تمكنا أنا وفرانسيس من مساعدته في الوقوف على قدميه ونحن نترنح تحت ثقله، ودفعناه معاً إلى الداخل وسرنا في خطوات مترنحة وثقيلة عبر الردهة (سمعت صوفي تتمتم: «يا إلهي، يا إلهي») ثم أجلسناه على مقعد.

كان لا يزال يبكي، أصبح وجهه أرجوانياً من شدة الانفعال، مددت يدي لأفك ياقة قميصه، لكنه أمسك بمعصمي فجأة، ورفع عينيه نحو وجهي وهو يبكي ويقول في يأس: «لقد رحل... ولدي»، تلك النظرة العاجزة المليئة بالألم ضربتني ضربة قاضية كأنها ورقة رابحة في لعبة بلاك جاك.

فجأة لأول مرة اجتاحتني الحقيقة المرة والمرعبة لما اقتربنا من شر كأني اصطدمت بجدار صلب، تركت يافته وشعرت بضعف غير مسبوق، رغبت بشدة في الموت في تلك اللحظة. تمتمت: «يا إلهي. ساعدني يا الله، أنا آسف...».

ثم شعرت فجأة بركلة قوية على عظمة كاحلي، كان ذلك فرانسيس الذي بدا شاحباً كالطباشير، تشظى عمود من الضوء بشكل مؤلم في مجال رؤيتي، وأعماني لحظة. تمسكت بمسند المقعد، أغمضت عيني، ورأيت وميضاً أحمر خلف جفني المغلقين، فيما تردد صوت تهديدات السيد كوركوران الثقيلة في الغرفة مثل ضربات هراوة.

ثم فجأة توقفت التهديدات، وساد السكون التام. فتحت عيني لأجد السيد كوركوران الذي ما زالت الدموع تلمع في عينيه ولكن وجهه كان متماسكاً، ينظر باهتمام إلى جروة صغيرة من فصيلة «سبيلي»، كانت تقضم مقدمة حذائه خلسة. صرخ بحدة بصوت طفولي متراخ: «جيني، أيتها الفتاة السيئة، ألم تطردك أمك؟»، مد يده والتقط الجروة الصغيرة، التي بدأت تضرب بأقدامها الصغيرة الهواء، ثم حملها خارج الغرفة، وسمعناه يقول بلطف: «هيا، إلى الخارج»، تبع ذلك صرير باب مزدوج.

عاد بعدها هادئاً بوجه بشوش كأب من إعلان تليفزيوني، وقال مبتسماً: «هل يرغب أحدكم يا أولاد في شرب البيرة معي؟» كنا جميعاً منفعلين، فلم يجبه أحد، نظرت إليه مرتجفاً شاحب الوجه.

قال وهو يغمز: «هيا يا شباب، ألا يريد أحد الانضمام إليَّ؟» وأخيراً، تنحنح فرانسيس بصوت أجش وقال: «أهه، أعتقد أنني سأشرب كأساً، نعم».

ساد الصمت.

قالت صوفي: «وأنا أيضاً».

رفع السيد كوركوران ثلاث أصابع باتجاهي قائلاً بمرح: «ثلاثة؟»، حركت فمي لكن لم يخرج منه أي صوت. أمال رأسه كأنه يتفحصني، وقال: «أعتقد أننا لم نلتق من قبل، أليس كذلك يا بني؟»

هزرت رأسي بالنفي.

«ماكدونالد كوركوران»، قال وهو ينحني إلى الأمام ليمد يده إليَّ: «نادني ماك».

تمتت باسمي.

قال بوجه مشرق، وقد قرَّب يده من أذنه دلالة على أنه لا يسمعني: «ماذا؟».

كررت اسمي بصوت أعلى قليلاً هذه المرة.

«آه! إذن أنت من كاليفورنيا! أين اختفت سُمرك يا بني؟»، ضحك بصوت عالٍ على نكتته، ثم توجه لإحضار البيرة.

جلست متوتراً ومرهقاً يستبد بي الإعياء، كنا في غرفة واسعة بشكل مبالغ فيه، أشبه بتلك التي اعتدت رؤيتها في مجلة «موجز التصميم المعماري»: فسيحة وذات سقف عالٍ مع نوافذ في السقف، ومدفأة حجرية ضخمة، ومقاعد منجدة بالجلد الأبيض الفاخر.

في منتصف الغرفة وضعت طاولة قهوة ذات تصميم عصري على شكل كلية، تعكس طابع الأثاث الإيطالي الباهظ الثمن، على طول الجدار الخلفي كان يمتد دولاب زجاجي مليء بالكؤوس التذكارية والميداليات والتذكارات المدرسية والرياضية وجوائز متفرقة، فيما تراصت بجوارنا في ركن مشؤوم من الغرفة أكاليل الزهور الجنائزية الكبيرة إلى جانب الجوائز؛ ما أعطى تلك الزاوية من الغرفة مظهرًا يشبه حلبة سباق ديربي كنتاكي⁽¹⁾.
قالت صوفي بصوت ناعم: «هذه مساحة جميلة».

تردد صدى صوتها بين الأسطح اللامعة والأرضية المصقولة.
رد السيد كوركوران من المطبخ: «شكرًا لك يا عزيزتي، كنا في مجلة «منزل جميل» العام الماضي، وفي قسم البيوت في جريدة التايمز في العام الذي قبله. ليس هذا تمامًا ما كنت سأختاره، لكن كاثي هي مصممة الديكور في العائلة، كما تعلمين».
رن جرس الباب فجأة، تبادلنا النظرات، ثم رن مرة أخرى بنغمتين موسيقيتين، سمعت وقع أقدام السيدة كوركوران قادمة من الجزء الخلفي من المنزل، مرت بنا دون أن تلقي كلمة أو نظرة، وهي تنادي: «هنري، ضيوفك هنا».

(1) أهم مهرجان لسباقات الخيل في الولايات المتحدة الأمريكية.

ثم مضت وفتحت الباب الأمامي.

قالت لعامل التوصيل الذي كان يقف في الخارج: «مرحبًا، من أي متجر أنت؟ هل أنت من متجر زهور الغروب؟»

«نعم، يا سيدتي. الرجاء التوقيع بالاستلام».

«مهلاً، انتظر دقيقة واحدة، لقد اتصلت بكم سابقًا، أريد أن أفهم لماذا سلّمت هذه الأكاليل هنا فيما كنت خارج المنزل هذا الصباح».

رد العامل بتوتر: «لم أكن أنا من سلمهم، بدأت مناوبتي للتو».

«أنت من متجر زهور الغروب، صحيح؟».

«نعم، يا سيدتي».

شعرت بالأسف من أجله. كان مراهقًا، وتغطي ووجهه بقع وردية من مرهم كليراسل لمعالجة حب الشباب.

قالت السيدة كوركوران بحزم: «طلبت تحديدًا أن يرسل إلي هنا الزهور والنباتات المنزلية فقط. هذه الأكاليل كان ينبغي أن تكون في دار الجنازة وليس هنا».

حاول العامل الاعتذار: «آسف يا سيدتي. إذا كنت تريدين الاتصال بالمدير...».

قاطعته بحزم أكبر: «أخشى أنك لم تفهمني، لا أريد هذه الأكاليل في منزلي، أريدك أن تعيدها إلي شاحنتك وتأخذها فورًا إلى دار الجنازة».

ثم أضافت وهي تحمل إكليلاً مزخرفًا بالقرنفل الأحمر والأصفر: «ولا تحاول ترك هذا هنا أيضًا، فقط أخبرني من الذي أرسله».

ضيق الصبي عينيه وهو يحدق إلى البطاقة المرفقة: «مع تعاطفنا، السيد والسيدة روبرت بارتل».

«آه!» قال السيد كوركوران الذي عاد وهو يحمل علب البيرة بطريقة خرقاء وقد ضمها بين ذراعيه بلا صينية: «هذا من بيتي وبوب؟»

تجاهلته السيدة كوركوران، وقالت لعامل التوصيل وهي تنظر باشمئزاز إلى الأصص المغلفة بورق الألمنيوم: «أعتقد أنه يمكنك إدخال السراخس إلى الداخل».

وبعد مغادرة عامل التوصيل، بدأت تفحص السراخس بعناية، ترفع سعفها لتتفقد وجود أوراق ميتة، ثم تدون ملاحظاتها بقلم رصاص فضي دقيق على ظهر المظروف.

قالت لزوجها: «هل رأيت الإكليل الذي أرسلته عائلة بارتل؟».

«أليس هذا لطفاً منهما؟»

ردت ببرود: «لا، في الحقيقة لا أرى أن من اللائق أن يرسل موظف يعمل لديك شيئاً كهذا، ربما يفكر بوب في طلب علاوة؟»، وأردفت وهي تغرس أصابعها في التربة: «كما أن هذه النباتات لا تبدو جيدة، البنفسج الإفريقي هنا يبدو أنه يحتضر، ستكون لويز مستاءة إذا علمت بذلك».

«ما يهمنا هو أنهم فكروا في إرسالها».

«لا أعرف، لكنني تعلمت شيئاً واحداً من هذه التجربة؛ لن أطلب زهوراً من متجر زهور الغروب مرة أخرى أبداً، زهور متجر فلاور لاند أفضل بكثير».

ثم قالت بملل دون أن ترفع نظرها: «فرانسييس، لم تُزُرنا منذ عيد الفصح الماضي».

أخذ فرانسييس رشفة من البيرة، ثم قال بهدوء: «أوه، كانت أموري بخير. كيف حالك أنت؟».

تتهددت وهزت رأسها قائلة: «كان الأمر صعباً جداً، نحن نحاول جميعاً أن نأخذ الأمور يوماً بيوم، لم أدرك من قبل كم هو صعب على الأهل أن يتخلوا عن... هنري، هل هذا أنت؟»، نادى بصوت حاد عندما سمعت خطوات ثقيلة على الدرج، لكن بعد لحظة صمت، جاء الرد: «لا يا ماما، هذا أنا».

قالت: «اذهب وابحث عن هنري واطلب منه النزول».

ثم استدارت إلى فرانسييس مرة أخرى وقالت بلطف: «وصلتينا بخاخة جميلة تحوي خلاصة زنايق عيد الفصح من والدتك هذا الصباح، كيف حالها؟»

رد فرانسييس بتوتر: «أوه، هي بخير. إنها في المدينة الآن».

وأضاف بعدم ارتياح: «لقد كانت مستاءة جداً عندما سمعت عن باني»، (أخبرني فرانسييس أنها كانت في حالة هستيرية على الهاتف، واضطرت إلى تناول حبوب مهدئة).

قالت السيدة كوركوران بلطف: «إنها امرأة طيبة، حزنتم كثيراً عندما سمعت أنها احتُجزت في مركز بيتي فورد».

قال فرانسييس: «بقيت هناك بضعة أيام فحسب».

رفعت حاجبها باستغراب: «أوه؟ لقد أحرزت تقدماً جيداً في تعافيتها، أليس كذلك؟ لطالما سمعت أنه مكان ممتاز».

تتحنح فرانسيس وقال: «حسنًا، ذهبت هناك في الأساس لتأخذ قسطًا من الراحة، كثير من الناس يفعلون ذلك».

بدا على السيدة كوركوران الدهشة وقالت: «أوه، إنك لا تمنع في الحديث عن ذلك، أليس كذلك؟ أعتقد أنه تفكير راق جدًا من والدتك أن تعترف بأنها بحاجة إلى المساعدة، منذ زمن ليس ببعيد لم يكن الناس يعترفون بمشكلات من هذا النوع. عندما كنت صغيرة...».

صاح السيد كوركوران وهو يلتفت إلى الدرج: «حسنًا، حسنًا، ها هو ذا هنري!».

نزل هنري ببطء على الدرج بخطوات ثقيلة ومترنة مرتديًا بدلة داكنة.

نهض فرانسيس وأنا معه، لكن هنري تجاهلنا تمامًا. قال السيد كوركوران: «تعال يا بني، أحضر لنفسك مشروب بيرسكي».

قال هنري: «شكرًا، لا أريد شيئًا». من قرب، أدهشني شحوب بشرته. كان وجهه رصاصيًا، وقد تصببت حبات العرق من جبينه.

قال السيد كوركوران وهو يمضغ بعض الثلج: «ما الذي كنتم تفعلونه يا أولاد في الأعلى طوال فترة ما بعد الظهر؟ رمش هنري في وجهه ولم يرد.

قال السيد كوركوران بنبرة مرحة: «أهه؟ أعتقد أنني أعرف. هل كنت تتصفح المجلات الإباحية؟ أم تصنع جهاز راديو؟» مسح هنري جبهته بيد مرتجفة قليلًا.

قال: «كنت أقرأ».

قال السيد كوركوران كأنه لم يسمع عن شيء كهذا من قبل:
«تقرأ؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«نعم يا سيدي».
«ماذا تقرأ؟ أهو شيء جيد؟»
«الأوبانيشاد⁽¹⁾».

«يا للدهشة! يا لك من ذكي؟ كما تعلم، لدي رف كامل من الكتب في الطابق السفلي إذا أردت إلقاء نظرة، يمكنك حتى قراءة بعض أعداد بيرى ماسون القديمة، إنها ممتعة جداً مثل المسلسل التليفزيوني، باستثناء أن بيرى يصبح حميمياً بعض الشيء مع ديلا، ويقول كلمات غير مهذبة، إن كنت تفهم ما أعنيه».
تتحننت السيدة كوركوران وقالت بهدوء وهي تمد يدها لتناول مشروبها: «هنري، أعتقد أن الضيوف يرغبون في رؤية مكان إقامتهم، ربما لديهم بعض الأمتعة في السيارة».
«حسناً».

«تحقق من الحمام في الطابق السفلي للتأكد من وجود مناشف كافية، إن كان هناك نقص فيها، يمكنك الحصول على بعضها من خزانة الأقمشة في الممر».

أوماً هنري برأسه، ولكن قبل أن يتمكن من الإجابة، جاء السيد كوركوران فجأة من خلفه. قال وهو يصفعه على ظهره:

(1) الجزء الأخير في مجموعة من الكتابات الهندوسية التي تُسمى الفيدات (جمع فيدا). وتكوّن الأوبانيشاد جزءاً أساسياً من مصادر الديانة الهندوسية، كما أثرت في معظم الفلسفات الهندية.

«هذا الصبي جوهرة»، رأيت رقبة هنري تتقبض وأسنانه تغوص في شفته السفلى. «أليس كذلك يا كاثي؟».

ردت السيدة كوركوران ببرود: «لقد كان عونًا كبيرًا حقًا».

«يمكنك المراهنة على ذلك، لا أعرف كيف كنا سنتجاوز هذا الأسبوع من دونه». ثم أضاف وهو يضع يده على كتف هنري: «يا شباب، تأكدوا من أن يكون لديكم أصدقاء مثله، لا يأتي أمثاله إلى حياتكم كل يوم، لن أنسى أبدًا الليلة الأولى لباني في هامبدن، هاتفني وقال: «أبي، يجب أن ترى هذا الأحمق الذي جعلوه شريك غرفتي». فقلت له: «تحمل يا بني، امنحه فرصة»، وفي غضون مدة قصيرة، بات يذكر هنري باستمرار، حتى أنه غيّر تخصصه إلى اليونانية القديمة، ثم الرحلة التي قاما بها معًا إلى إيطاليا، كان سعيدًا للغاية».

اغرورقت عيناه بالدموع، وهزّ كتف هنري بشيء من المودة الخشنة: «هذا يثبت ما أقوله، لا تحكم على الكتاب من غلافه، قد يبدو هنري أمامكم جادًا ومنضبطًا لكنه من أفضل الرجال الذين عرفتهم في حياتي. آخر مرة تحدثت فيها مع باني كان متحمسًا جدًا للسفر إلى فرنسا مع هذا الفتى في الصيف...». قاطعته السيدة كوركوران: «فات الأوان يا ماك». أخذ ينتحب مرة أخرى، وإن كان أقل حدة من المرة الأولى، ألقي ذراعيه حول هنري وبكى في صدر سترته، بينما وقف هنري هناك هادئًا، ينظر بعيدًا بهدوء رواقى منهك.

كان الجميع محرجين، بدأت السيدة كوركوران في تأمل النباتات المنزلية بانتقاد، وأنا أحنيت رأسي فيما كانت أذناي

متوردتين. وفجأة، فتح الباب ودخل شابان بخطوات هادئة إلى الردهة الواسعة ذات العوارض الخشبية، لم يكن لديّ أي شك في هويتهما، مع أن الضوء كان خلفهما فلم أتمكن من رؤية ملامحهما بوضوح، كانا يضحكان ويتحدثان، طعن صوت ضحكهما قلبي طعنة مباغته، إذ تردد صدى ضحك باني المألوف والقاسي في مسامعي.

تجاهلا دموع والدهما وسارا نحوه مباشرة.

قال أكبرهما سنًا: «مرحبًا يا بابا». كان مجعد الشعر في الثلاثين من عمره، وكان وجهه يشبه إلى حد كبير وجه باني، وكان يحمل طفلًا يعتمر قبعة صغيرة مكتوب عليها ريد سوكس. أما الأخ الآخر فكان أنحف ومنمش الوجه، وبشرته سمراء داكنة جدًا، وهناك دوائر سوداء تحت عينيه الزرقاوين. رفع الطفل عاليًا، وقال: «هيا، اذهب لرؤية جدك».

توقف السيد كوركوران عن البكاء على الفور، وهو في منتصف بكائه. حمل الطفل عاليًا في الهواء ونظر إليه بإعجاب، وصرخ: «بطلي! هل ذهبت في رحلة مع أبيك وعمك برادي؟».

قال برادي: «لقد أخذناه إلى ماكدونالدز، وتناول وجبة هابي ميل».

سأل السيد كوركوران الطفل بدهشة مصطنعة: «هل أكلت كل شيء؟ وجبة الهابي ميل كلها؟».

قال والد الطفل: «قل: نعم».

أجاب الطفل بتأتأة: «نعم يا جدي».

قال برادي وهو يضحك: «هذا هراء يا تيد، لم يأكل لقمة واحدة، لكنه وجد جائزة في صندوق الطعام، أليس كذلك؟».

قال السيد كوركوران وهو يحاول إزاحة أصابع الطفل عن الجائزة: «دعونا نراها».

قالت السيدة كوركوران: «هنري، يمكنك مساعدة السيدة الشابة في حمل حقائبها واصطحابها إلى غرفتها. برادي يمكنك أن تأخذ الولدين إلى الطابق السفلي».

كان السيد كوركوران قد انتزع الجائزة -وهي طائرة بلاستيكية- من يد الطفل وجعلها تطير ذهاباً وإياباً، ثم قال بدهشة خفيفة: «انظروا!».

قالت لنا السيدة كوركوران: «بما أنها ليلة واحدة فقط، فأنا متأكدة من أنكما لن تمانعا مشاركة الغرفة».

فيما كنا نغادر مع برادي، وضع السيد كوركوران الطفل على السجادة أمام المدفأة، وبدأ يتدحرج بجانبه ويدغدغه، فتعلو ضحكات الطفل بصخب ممزوج بالبهجة والخوف، كانت صرخاته تلاحقنا في أثناء نزولنا السلالم.

كان علينا أن نمكث في القبو، حيث نُصبت أسرة عسكرية ضيقة على طول الجدار الخلفي، بالقرب من طاولات البينج بونج والبلياردو، وفي إحدى الزوايا تراكمت حقائب النوم.

قال فرانسيس عندما أصبحنا وحدنا: «أليس هذا بائساً؟»

«إنها ليلة واحدة فحسب».

«لا أستطيع النوم في غرفة مليئة بالناس، سأظل مستيقظاً طوال الليل».

جلست على أحد الأسرّة، كان الجو مشبعًا برائحة رطوبة قديمة، والضوء الأخضر الباهت المنبعث من المصباح فوق طاولة البلياردو يوحى بالكآبة.

قال فرانسيس بنبرة ممتعة: «المكان مغبر أيضًا، أعتقد أنه يجب أن نحجز غرفة في فندق».

كان يشهق بصوت مرتفع، ويشكو من الغبار وهو يبحث عن منفضة سجائر، لكن حتى لو كان غاز الرادون⁽¹⁾ القاتل يتسرب إلى داخل الغرفة، لم يكن ذلك ليهمني. كان شاغلي الوحيد -بسم الرب الرحيم- كيف سأتجاوز الساعات القادمة، لم نمكث سوى عشرين دقيقة، لكنني شعرت برغبة قوية في إطلاق النار على نفسي.

كان فرانسيس لا يزال يتذمر، وكنت لا أزال غارقًا في قنوطي عندما نزلت كاميلًا إلينا. ارتدت قرطين من الكهرمان الأسود وحذاءين جلديين لامعين وبدلة مخملية سوداء أنيقة محبوكة بعناية.

قال فرانسيس وهو يناولها سيجارة: «دعونا نذهب لحجز غرفة في فندق رمادا».

عندما وضعت السيجارة بين شففتيها الجافتين أدركت كم افتقدتها في الأيام القليلة الماضية.

(1) عنصر كيميائي له الرمز Rn والعدد الذري 86 في الجدول الدوري، وهو غاز خامل عديم اللون والطعم والرائحة، كما أنه من العناصر المشعة. الرادون خامل كيميائيًا وغير قابل للاشتعال وسام جدًا وهو ثاني أكثر أسباب سرطان الرئة بعد التدخين.

قالت: «أوه، الوضع ليس سيئاً جداً، في الليلة الماضية اضطررت إلى النوم برفقة ماريون».

«في الغرفة نفسها؟»

«في السرير نفسه».

اتسعت عينا فرانسيس بخليط من الإعجاب والرعب، وقال بصوت هامس يشي بالاحترام: «أوه حقاً؟ يا إلهي، هذا فظيع».

«تشارلز معها الآن في الطابق العلوي، إنها في حالة هستيرية لأن أحدهم دعا تلك الفتاة المسكينة التي جاءت معكما».

«أين هنري؟»

«ألم تره بعد؟».

«رأيت، لكن لم أتحدث معه».

سكتت لحظة لتتفت سحابة من الدخان: «كيف يبدو لكما؟».

«لا يبدو في أفضل حالاته. ما السبب؟»

«إنه مريض. يعاني نوبات الصداق المعتادة».

«إحدى نوبات الصداق المريعة تلك».

«هذا ما يقوله».

نظر إليها فرانسيس بعدم تصديق: «كيف إذن يستطيع الوقوف والتجول في الأنحاء؟»

«لا أعرف، إنه خدر تماماً، يتناول أدويته منذ أيام».

«حسنًا أين هو الآن؟ لماذا ليس في السرير؟»

لقد أرسلته السيدة كوركوران إلى مزارع كمبرلاند ليحضر ربع لتر من الحليب لهذا الطفل الشقي».

«هل يستطيع القيادة؟».

«ليس لديّ أي فكرة».

قلت: «فرانسيس، سيجارتك». قفز وأمسك بها بسرعة كبيرة فأحرق أصابعه، وضعها على حافة طاولة البلياردو فانتشرت النار حتى وصلت إلى الخشب، انتشرت بقعة متفحمة على غطاء الطاولة.

نادت السيدة كوركوران من أعلى الدرج: «يا أولاد؟ يا أولاد؟ هل تمانعون إذا نزلت عندكم لأتفقد منظم الحرارة؟». همست كاميلاً بسرعة وهي تطفئ سيجارتها في المنفضة: «بسرعة، لا يفترض أن ندخن هنا».

قالت السيدة كوركوران بحدة: «من هناك؟ هل يحترق شيء؟» أجاب فرانسيس «لا يا سيدتي»، وهو يمسح البقعة المحروقة ويحاول إخفاء عقب السيجارة فيما تهبط الدرج.

كانت إحدى أسوأ الليالي في حياتي، عج المنزل بالناس، مرت الساعات في فوضى عارمة من الأقارب والجيران والأطفال الباكين والأطباق المغطاة والطرقات المسدودة والهواتف الرنانة والأضواء الساطعة والوجوه الغريبة والأحاديث المخرجة. حاصرني رجل غليظ الملامح قاسي الوجه في إحدى الزوايا لساعات، وأخذ يتفاخر ببطولات صيد سمك القاروص وأعماله التجارية في شيكاغو وناشفيل وكانساس سيتي حتى استأذنت للمغادرة أخيراً وحسبْتُ نفسي في حمام الطابق العلوي متجاهلاً الطرقات والصرخات المؤسفة لطفل صغير مجهول يتوسل باكياً للدخول. أقيم العشاء في الساعة السابعة، وكان مزيجاً غير شهى من

الوجبات الجاهزة؛ سلطة الأورزو، ويط منقوع في كامباري⁽¹⁾، وفطائر كبد الإوز الصغيرة، والطعام الذي أعده الجيران؛ طاجن سمك تونه، وقوالب جيلاتين في الفرن، وحلوى مخيفة المنظر تسمى «كعكة الواكي» لا أستطيع حتى أن أصفها، تجول الناس بأطباقهم الورقية، فيما كان الليل في الخارج مظلمًا وماطرًا. كان هيو كوركوران يتنقل بين الحشد بهدوء مرتديًا قميصًا طويل الكمين، وزجاجة مشروب بيده، يشق طريقه عبر الجمع الداكن والمزدحم.

حين مر بجواري لامست كتفه كتفي من دون أن يلتفت أو يكثرث كأنه لم يعرفني مع أنني عرفته على الفور. كان هيو الأكثر شبهًا بباني بين جميع إخوته، بدا موت باني بالنسبة إليّ نوعًا من التناسخ المروع، إذ كنت أرى نسخًا منه في كل مكان كأنه ينبعث من جديد في كل زاوية من صناديق خشبية أو وجوه مألوفة. كان هيو بالنسبة إليّ نافذة على المستقبل، صورة لما كان يمكن أن يكون عليه باني في الخامسة والثلاثين، تمامًا كما كان النظر إلى والده صورة لما كان سيصبح عليه في الستين.

ساورتني رغبة قوية لا تقاوم في الإمساك بذراعه لأقول له شيئًا لم أكن أعلم ما هو بالتحديد؛ فقط لأرى حاجبيه يتدليان فجأة بالطريقة التي أعرفها جيدًا، لأرى التعبير الذاهل في العينين الموحلتين الساذجتين، شيئًا على غرار أنني قتلت المرابية العجوز وشقيقتها ليزافيتا بفأس وسرقتهما.

(1) مشروب كحولي إيطالي يعد فاتحًا للشهية.

وسط هذه الأفكار كان الضحك يعلو، والغرباء يحومون حولي كالأشباح، يتحدثون إليّ من دون أن أفهمهم. هربت من أحد أبناء عمومة باني المراهقين الذي عندما سمع أنني من كاليفورنيا، انهال عليّ بأسئلة متعلقة بركوب الأمواج. وبينما أشق طريقي عبر الحشد وجدت هنري، كان يقف بمفرده أمام أحد الأبواب الزجاجية، يدخل سيجارة وظهره للغرفة.

وقفت بجانبه، لكنه لم يلتفت أو يتحدث. كانت الأبواب تطل على شرفة باردة قاحلة، مضاءة بكشافات تسقط ظلالاً طويلة على الحجر الأسود، وأحواض الشجيرات الخرسانية، وتمثال مكسور قطعه البيضاء متناثر على الأرض.

انكسرت قطرات المطر في ضوء الكشافات مشكلة ظلالاً درامية، كأننا في مشهد ما بعد كارثة نووية، لكن في الوقت ذاته بدا الأمر كأنه بقايا من زمن قديم كالأفنية المغطاة بأحجار الخفاف في بومبي.

قلت: «هذه أبشع حديقة رأيتها في حياتي».

أجاب هنري بصوت خافت، «نعم... أنقاض ورماد». كان شاحباً جداً.

واصل الناس ضحكهم وحديثهم من خلفنا. ألقى الأضواء عبر النافذة التي تناثر فوقها المطر ظلالاً تشبه القطرات المنسكبة على وجه هنري.

قلت بعد مدة: «ربما من الأفضل أن تستلقي».

عض على شفته، كان طول رماد سيجارته نحو بوصة.

قال: «نفد مني الدواء».

نظرت إلى جانب وجهه.

«هل يمكنك تحمل الصداع؟»

قال من دون أن يتحرك: «أعتقد أنني مجبر على هذا، أليس كذلك؟».

أغلقت كاميلا باب الحمام خلفنا، وبدأنا نفتش بين فوضى زجاجات الأدوية تحت المغسلة ونحن راكعين على أيدينا وركبنا. قرأت كاميلا: «لعلاج ارتفاع ضغط الدم».

«لا».

«من أجل الربو».

علا طرق على الباب.

صرخت: «الحمام مشغول!»

كان رأس كاميلا محشورًا تمامًا داخل الخزانة بين الأنابيب والمواسير، فيما كانت مؤخرتها بارزة، وكنت أسمع قرقرة زجاجات الأدوية.

قالت بصوت مكتوم: «دواء لآلام الأذن الداخلية؟ ملعقتان يوميًا؟»

«دعينا نرى».

ناولتني علبة مضادات حيوية قديمة عمرها لا يقل عن عشر سنوات، قلت وأنا أقربها من وجهي: «هذا لا ينفع».

هل ترين أي شيء مكتوب عليها (غير قابل لإعادة التعبئة)؟ أو ربما دواء من طبيب أسنان؟

«لا».

«(قد يسبب النعاس) أو (تجنب القيادة أو تشغيل المعدات الثقيلة)»⁵

طرق أحدهم الباب مرة أخرى وأدار المقبض، تراجعت ثم مددت يدي وفتحت الصنبورين عن آخرهما.

ما عثرنا عليه لم يكن مفيداً، لو كان هنري يعاني تسمم اللبلاب أو حمى القش أو الروماتيزم أو عيناً متورمة لكننا محظوظين، ولكن المُسكن الوحيد الذي كان عندهم هو الإكسدرين.

بدافع اليأس المطلق، التقطت عبوتين غامضتين مكتوب عليهما «يسبب النعاس»، ولكنني كنت أشك في أنهما مجرد مضادات هستامين.

اعتقدت أن الشخص الذي كان يطرق الباب قد رحل، لكنني عندما خرجت بحذر، انزعجت عندما وجدت كلوك متريصاً في الخارج. رمقني بنظرة ازدراء سرعان ما تحولت إلى دهشة عندما خرجت كاميلاً خلفي، شعرها أشعث وهي ترفع تنورتها إلى الأعلى لتعديلها، لكنها لم تبدُ متفاجئة برؤيته.

قالت له وهي تمد يدها إلى أسفل لتففض الغبار عن ركبتها: «أوه، مرحباً».

ردّ كلوك ببرود: «أهلاً»، ثم صرف نظره بطريقة مقصودة. كنا جميعاً نعلم أن كلوك مهتم بكاميلاً إلى حد ما، لكن حتى لو لم يكن كذلك، لم تكن كاميلاً من النوع الذي يتوقع المرء أن يجدها في مثل هذا الموقف، خارجة من حمام مغلق بعد قضاء وقت طويل فيه مع شخص آخر.

تجاوزتنا متجهة إلى الطابق السفلي.

بدأت أهبط الدرج أيضًا، لكن كلوك سعل بطريقة ملحوظة فاستدردت.

استند إلى الحائط، ونظر إليّ كأنه يسبر أغوار شخصيتي منذ يوم ولادتي، وقال: «إذن».

كان قميصه غير مكوي ومرخي فوق بنطاله، وعلى الرغم من أن عينيه كانتا محمرتين، فإنني لم أعرف إن كان تحت تأثير المخدرات أم أنه مجرد إرهاق.

سألني: «كيف تجري الأمور معك؟»

توقفت أمام بسطة الدرج، كانت كاميلا عند أسفل الدرج ولا تستطيع أن تسمعنا.

قلت: «جيدة».

«ما القصة؟»

«أي قصة؟»

«من الأفضل ألا تدع كاثي تمسك بكما وأنتما تعبثان في حمامها، ستجعلكما تمشيان إلى محطة الحافلات».

كانت لهجته محايدة، ومع ذلك ذكّرني ذلك بشجاري مع عشيق منى الأسبوع السابق. ولكن كلوك لم يُظهر تهديدًا جسديًا، بالإضافة إلى أنه كان لديه ما يكفي من المشكلات الشخصية.

قلت: «انظر، لقد أسأت الفهم».

«لا أهتم، أنا أنبهك فحسب».

«حسنًا، وأنا أخبرك بالحقيقة، صدق أو لا تصدق، لا يهمني

الأمر».

دس كلوك يده في جيبه، وأخرج علبة سجائر مارلبورو مجمدة ومسطحة لدرجة أنه لم يكن من الممكن أن تكون ثمة أي سيجارة داخلها، وقال: «ظننت أنها تواعد شخصاً آخر».

«أوه، حقاً؟»

هز كتفيه، ثم أخرج سيجارة ملتوية قبل أن يسحق العلبة الفارغة بيده. قال: «هذا ليس من شأني. كنت في ضيافتها هي وتشارلز في الكلية لأيام قليلة قبل أن نأتي إلى هنا لأن الناس في الكلية كانوا يضايقونني، وسمعتها تتحدث على الهاتف».

«وماذا كانت تقول؟»

«أوه، لا شيء محدد، لكنها كانت الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً، وكانت تهمس بطريقة مريبة. أي أحد في مكاني كان سيتساءل».

ابتسم بمرارة، وأكمل: «أظن أنها كانت تعتقد أنني نائم، لكن في الحقيقة، لم أنم جيداً طوال تلك الأيام». توقف لحظة، ثم قال عندما لم أعلق: «بالطبع، أنت لا تعلم شيئاً عن ذلك».

«لا، لا أعلم».

«متأكد؟»

«لا أعلم حقاً».

«إذن ماذا كنتما تفعلان في الداخل؟»

نظرت إليه لحظة ثم أخرجت حفنة من الأقراص من جيبي، ووضعتها على راحة يدي المفتوحة.

انحنى إلى الأمام قليلاً، وحاجباه معقودان، وفجأة أصبحت عيناه الغائمتان أكثر تركيزاً ويقظة، التقط كبسولة من بين الأقراص، ورفعها نحو الضوء بتأنٍ.

قال: «ما هذا؟ هل تعرف؟»

قلت: «سودافيد . لا تشغل نفسك . لا يوجد أي شيء في الداخل هناك» .

ضحك بخفوت وقال: «هل تعرف لماذا؟» ثم نظر إليّ للمرة الأولى نظرة ودودة حقًا، وأكمل: «لأنك كنت تبحث في المكان الخطأ» .

«ماذا؟»

ابتسم وهو يشير بعينه نحو الممر: «خزانة الدواء موجودة في الممر خارج غرفة النوم الرئيسة مباشرة، كنت سأخبرك لو سألتني» .

صُدمت: «كيف عرفت هذا؟»

أدخل الكبسولة في جيبه ورفع حاجبه قائلاً: «لقد تربيت تقريباً في هذا المنزل، تتعاطى كاثي العجوز نحو ستة عشر نوعاً مختلفاً من الأدوية المخدرة» .

التفتُ نحو باب غرفة النوم المغلق. قال: «لا، ليس الآن» .

«ولم لا؟»

«جدة باني... تستلقي بعد تناول الطعام، سوف نعود لاحقاً» .

أزيل بعض الأثاث وخفّت الحركة قليلاً في الطابق السفلي، لكن الجو ظل مزدحمًا . لم أرَ كاميليا في أي مكان، في حين كان تشارلز الذي بدا عليه الإرهاق والسكر يستند إلى الجدار في زاوية الغرفة ممسكاً بكأس قرب رأسه، في حين كانت ماريون تبكي وتثرثر بجانبه، كان شعرها مسحوباً إلى الوراء في تسريحة

ضخمة أشبه بتلك التي تفضلها طالبات المدارس الإعدادية كأنها مستوحاة من كتالوج أزياء تالبوتس⁽¹⁾ قديم. لم أتمكن من التحدث معه لأنها كانت تلازمه طوال الوقت منذ وصلنا، لا أعلم لماذا كانت تتشبث به بهذا الشكل، لكن ربما كان السبب هو خصامها مع كلوك إضافة إلى أن جميع إخوة باني كانوا إما متزوجين وإما مخطوبين، أما بالنسبة إلى بقية الذكور في سنها -مثل أبناء عمومة باني، أو هنري، أو أنا، أو برام غيرنسي، أو روني وين- فكان تشارلز هو الأكثر وسامة بينهم.

نظر إليّ من فوق كتفها، لم تكن لديّ الجرأة للذهاب وإنقاذه منها فأشحت بعيني بعيداً، وفجأة اصطدم بي طفل صغير كان يهرب من شقيقه المبتسم ذي الأذنين البارزتين، وكاد يوقعني أرضاً. راح الطفلان يراوغان بعضهما حولي في دوائر، كان الأصغر بينهما يصرخ بخوف، انهار على الأرض ممسكاً بركبتي وهو يبكي قائلاً: «أيها الوغد!»

توقف الطفل الآخر وتراجع خطوة إلى الوراء، وظهرت على وجهه نظرة مأكرة وخبيثة، راح يغني بصوت أشبه بصوت شراب مسكوب: «أوه، يا بابا... أوه، يا بابا».

استدار هيو كوركوران في الجهة المقابلة من الغرفة، وهو يحمل كأساً في يده، وقال: «براندون، لا تجعلني آتي إليك».

«لكن كوري وصفك بالوغد يا بابا».

بكى الصغير قائلاً: «أنت الوغد... أنت... أنت... أنت».

(1) متجر ثياب نسائية شهير في باسادينا بكاليفورنيا.

نزعته يده من على ساقى وذهبت للبحث عن هنري، وجدته في المطبخ برفقة السيد كوركوران محاطين بمجموعة من الناس. كان السيد كوركوران -وقد بدت عليه علامات الإفراط في الشرب- يحيط هنري بذراعه ويخاطب الجمع بصوت مرتفع ومليء بالوعظ: «أنا وكاثي دائماً نفتح بيتنا للشباب، ودائماً نوفر مكاناً لهم على مائدتنا، لكن ما إن نفعل ذلك حتى يبدؤون بإحضار مشكلاتهم إلينا».

ثم مال بجسده بخشونة نحو هنري وأضاف: «مثل هذا الرجل هنا، لن أنسى أبداً تلك الليلة التي جاء فيها إليّ بعد العشاء، وقال لي: «ماك، أريد نصيحتك في أمرٍ ما، رجلاً لرجل». كل الفتيان ينادونني ماك، كما تعلمون.

فقلت له: حسناً، قبل أن تبدأ يا بني، دعني أخبرك بشيء. أنا أعرف الأولاد جيداً، لقد ربيت خمسة منهم، وكان لي أربعة إخوة، لذا يمكنك القول إن لدي خبرة واسعة في هذا المجال».

واصل السيد كوركوران سرد قصته الملفقة، فيما بدا هنري شاحباً ومريضاً، يتحمل لكزات السيد كوركوران وصفعاته على ظهره كما لو كان كلباً مدرباً جيداً يتلقى لكلمات طفل عنيف. كانت القصة سخيفة، إذ صورت هنري أنه شاب متهور وسريع الانفعال وغريب الأطوار لدرجة أنه يرغب في شراء طائرة مستعملة ذات محرك واحد ضد نصيحة والديه.

قال السيد كوركوران: «لكن هذا الشاب كان عازماً على الأمر، إما يحصل على تلك الطائرة أو ينفجر غضباً. جلست معه بعد أن انتهى من حديثه ثم أخذت نفساً عميقاً وقلت: هنري، تبدو

الطائرة جميلة، لكن يجب أن أكون صادقاً معك أنا أتفق مع أهلك. دعني أخبرك السبب».

تدخل باتريك كوركوران الذي كان قد جاء ليأخذ مشروباً آخر قائلاً: «مهلاً يا بابا»، كان أصغر حجماً من باني، على وجهه نمش كثير، وله شعر باني الرملي وأنفه الدقيق الحاد، «لقد اختلط عليك الأمر، لم يكن ذلك هنري بل صديق هيو القديم والتر بالانتين».

قال السيد كوركوران: «هراء، بالتأكيد كان هنري... ثم انتهى به الأمر بشراء الطائرة على أي حال».

نادى باتريك باتجاه الغرفة المجاورة: «هيو؟ هيو، هل تتذكر والتر بالانتين؟»

أجاب هيو وهو يظهر في المدخل ممسكاً بمعصم الطفل براندون الذي كان يتلوى محاولاً الإفلات: «بالطبع، ما شأنه؟» «ألم يشتر والتر تلك البونانزا⁽¹⁾ الصغيرة؟».

أجاب هيو بهدوء رغم ركلات براندون وصراخه المتزايد: «لم تكن بونانزا، كانت طائرة من طراز بيتشكرافت».

أضاف فيما حاول باتريك ووالده الاعتراض: «أعرف ما تفكران فيه، ذهبنا إلى دانبري مع والتر لرؤية طائرة بونانزا صغيرة، لكن صاحبها طلب مبلغاً كبيراً، كانت صيانتها مكلفة جداً وتتعطل كثيراً، ولهذا كان يحاول بيعها».

(1) بيتشكرافت بونانزا: طائرة استخدامات عامة أنتجت وأدخلت في الخدمة العام 1947 في الولايات المتحدة. من صناعة بيتشكرافت في ويتشيتا بولاية كنساس. كان أول طيران لها في 22 ديسمبر 1945. وما زالت في الخدمة حتى الآن. وسعر الطائرة الواحدة منها قرابة 700,000 دولار.

سأل السيد كوركوران: «ماذا عن البيتشكرافت إذن؟» أزاح يده عن كتف هنري، وأضاف: «سمعت أن هذا الطراز الصغير ممتاز». أجاب هيو: «واجه والتر بعض المشكلات معها، اشتراها من خلال إعلان في صحيفة «پينيسيفر»، من عضو سابق في الكونغرس من نيوجيرسي، استخدمها في حملاته الانتخابية، و...».

قبل أن يكمل ترنج هيو إلى الإمام وأطلق تأوهاً مفاجئاً وهو يلهث عندما تمكن الطفل من الإفلات، واندفع عبر الغرفة مثل قذيفة مدفع. مكتبة سُر من قراء

تفادى عرقلة والده، وتجاوز باتريك أيضاً، وفيما يلقي نظرة خاطفة على مطارديه، اصطدم ببطن هنري مباشرة.

كان الاصطدام عنيفاً فبدأ الطفل بالبكاء، تدلى فك هنري وامتنع وجهه. للحظة كنت متأكداً من أنه سيسقط، لكنه بطريقة ما شد ظهره منتصباً، بجهد هائل ومهيب مثل فيل جريح، وفي تلك اللحظة ألقى السيد كوركوران رأسه إلى الخلف وانفجر في ضحكة عالية مستمتعاً بالمشهد.

لم أكن متأكداً تماماً مما قاله كلوك بخصوص الأدوية الموجودة في الطابق العلوي، لكن عندما صعدت معه مجدداً اتضح لي أنه كان صادقاً، كان هناك غرفة تبديل ملابس صغيرة بجوار غرفة النوم الرئيسة، وفيها طاولة زينة مطلية بالورنيش الأسود تحتوي على كثير من الأدراج الصغيرة ومفتاح صغير. داخل أحد الأدراج وجدنا صندوقاً فاخراً من شوكولاتة جورديفا، ومجموعة منظمة

من الحبوب الملونة، يبدو أن الطبيب الذي وصفها «إي. جي. هارت» حاصل على الدكتوراه، ويبدو أنه شخصية أكثر تهوُّراً مما توحي به درجته العلمية، كان كريماً بشكل مفرط في وصف الأُمفيتامينات. كان من المعتاد أن تتناول السيدات في سن السيدة كوركوران الفاليوم⁽¹⁾، لكن ما وجدته من كميات كافٍ لتحويل عصبية من ملائكة الجحيم إلى متمردين غاضبين.

شعرت بالتوتر. امتلأت الغرفة برائحة الملابس والعطور الجديدة، فيما كرات الديسكو الزجاجية تعكس على الجدار تحركاتنا في صور متعددة؛ ما خلق جوًّا من الريبة، لم يكن هناك مخرج واضح، ولا عذر لوجودنا في حال دخل أحدهم الغرفة. بينما كان كلوك يتفحص الزجاجات بسرعة وكفاءة، ظللت أراقب الباب.

«دالمان» حبوب صفراء وبرتقالية.

«دارفون» حبوب حمراء ورمادية.

«فيورينال».

«نيمبوتال».

«ميلتاون».

أخذت قرصين من كل زجاجة ناولني إياها.

قال كلوك: «ماذا؟ ألا تريد أكثر؟»

أجبت: «لا أريدها أن تلاحظ اختفاء شيء».

(1) أو الديازيبام: من سلسلة البنزوديازيبين. يستخدم غالباً لعلاج القلق والأرق وآلام العضلات والأعراض الانسحابية للكحول، وحالات أخرى كثيرة.

قال وهو يفتح زجاجة أخرى ويسكب نصف محتوياتها في جيبه: «خذ ما تريد، سوف تعتقد أن إحدى زوجات أبنائها سرقتة».

قال وهو يفرغ معظم ما تبقى من الزجاجة في راحة يدي: «هاك، احصل على بعض من هذه. إنها قوية المفعول دوائياً، يمكنك بيع الحبة بسهولة بعشرة أو خمسة عشر دولاراً أثناء الامتحانات».

نزلت إلى الطابق السفلي وجيوب سترتي ممتلئة تماماً، عند سفح الدرج وجدت فرانسيس واقفاً.

سألته: «هل تعرف أين هنري؟»

«لا، هل رأيت تشارلز؟»

كان في حالة شبه هستيرية، فسألته: «ما الأمر؟».

«لقد سرق مفاتيح سيارتي».

«ماذا؟».

«أخذها من جيب معطفي وغادر، رأتة كاميلا وهو يقود بعيداً بالسيارة وقد فتح سقفها».

وأضاف وهو يمرر يده في شعره: «ستتعطل السيارة في المطر، ولكن إذا... تباً. أنت لا تعرف شيئاً عن هذا، أليس كذلك؟».

«لقد رأيته منذ ساعة برفقة ماريون».

«نعم، لقد تحدثتُ معها أيضاً، قال لها إنه سيخرج لشراء السجائر لكن ذلك كان قبل ساعة، هل رأيته؟ ألم تتحدث معه؟».

«لا».

«هل كان ثملًا؟ قالت ماريون أنه كان كذلك. هل بدا لك ثملًا؟»
ترأى لي فرانسيس بدوره مخمورًا بشدة، قلت: «ليس كثيرًا.
هيا، ساعدني في العثور على هنري».
«لقد أخبرتك، لا أعرف أين هو، ماذا تريد منه؟»
«لدي شيء يجب أن أعطيه إياه».
قال باليونانية: «ما هو؟ حبوب مخدرة؟»
«نعم».

قال وهو يتمايل إلى الأمام بعينين منتفختين: «حسنًا، أستحلفك
أن تعطيني شيئًا».
كان ثملًا لدرجة لا يمكنه معها تناول الحبوب المنومة، فأعطيته
حبّة إكسدرين.
ابتلعها بجرعة كبيرة من الويسكي وقال: «شكرًا، أتمنى أن
أموت خلال الليل، أين تظن أنه ذهب على أي حال؟ في أي ساعة
نحن الآن؟»
«العاشرة تقريبًا».

«هل تظن أنه قرر العودة إلى المنزل؟ ربما أخذ السيارة وعاد
إلى هامبدن، قالت كاميللا: «مستحيل، ليس والجنائز غدًا». لكنني
لا أعلم، لقد اختفى ببساطة. إذا كان قد ذهب لشراء السجائر،
ألا تظن أنه كان سيعود الآن؟ لا أستطيع تخيل مكان آخر قد يكون
فيه، ما رأيك؟»

قلت: «سوف يظهر قريبًا. انظر، أنا آسف، يجب أن أذهب.
سوف أراك لاحقًا».

بحثت في جميع أنحاء المنزل عن هنري حتى وجدته جالساً بمفرده وسط الظلام فوق أحد الأسرّة العسكرية الضيقة في الطابق السفلي. نظر إليّ بطرف عينه من دون أن يحرك رأسه. قال عندما عرضت عليه كبسولتين: «ما هذا؟»

«نيمبوتال، هاك».

أخذهما مني وابتلعهما بلا ماء.

«هل معك المزيد؟».

«نعم».

«أعطني إياها».

«لا يمكنك أن تأخذ أكثر من اثنتين».

«أعطني إياها!».

ناولته إياها، وقلت: «أنا لا أمزح يا هنري، من الأفضل أن تكون حذراً».

نظر إليها، ثم وضعها بعناية في علبة الأقراص الزرقاء التي أخرجها من جيبه. ثم قال بهدوء: «هل يمكنك أن تصعد وتحضر لي مشروباً؟»

«لا ينبغي لك أن تشرب بعد تناول تلك الحبوب».

«لقد كنت أشرب بالفعل».

«أعرف ذلك».

ساد صمت قصير، ثم قال وهو يرفع نظارته فوق جسر أنفه: «انظر. أريد سكوتش وصودا في كأس طويل. كثيراً من السكوتش، وقليلًا من الصودا، وكثيرًا من الثلج. بالإضافة إلى كأس أخرى من الماء العادي بلا ثلج، هذا ما أريد».

«لن أحضره لك، سيضرك».

«إذا لم تصعد وتحضره لي، فسأضطر إلى الصعود وإحضاره بنفسى».

صعدت إلى المطبخ وجلبته له، ولكنى رفعت نسبة الصودا أعلى بكثير مما طلب.

دخلت كاميلا المطبخ في اللحظة التي أنهيت فيها إعداد الكأس الأولى، ورحت أملأ الكأس الثانية من ماء الصنبور.

سألت: «هل هذا المشروب لهنرى؟».

أجبتها: «نعم، إنه في الأسفل».

«كيف حاله؟».

كنا وحدنا في المطبخ. وعيني على المدخل الفارغ، ثم أخبرتها عن منضدة الزينة المطلية بالورنيش الأسود.

ضحكت وقالت: «هذا هو كلوك! إنه شخص محترم جداً، أليس كذلك؟ كان باني يقول دائماً إنه يذكره بك».

شعرت بالحيرة والإهانة قليلاً من هذا التعليق الأخير، وكنت على وشك الرد، لكن بدلاً من ذلك نحيت الكأس جانباً وقلت:

«مع من كنت تتحدثين على الهاتف في الساعة الثالثة صباحاً؟»

ردت بدهشة: «ماذا؟» بدت ردة فعلها طبيعية تماماً، لكنها كانت

ممثلة بارعة، فكان من الصعب معرفة إن كانت دهشتها صادقة أم لا.

نظرت مباشرة إلى عينيها، تلقت كلامي من دون أن ترمش وحاجباها مقطبان، وعندما طال صمتها قليلاً هزت رأسها

وضحكت مرة أخرى وقالت: «ما مشكلتك؟»

ضحكتُ أيضًا: «عن ماذا تتحدثين؟»

كان من المستحيل التغلب عليها في هذه اللعبة.

قلت: «لا أحاول استجوابك، لكن عليك أن تكوني حذرة مما تقولينه على الهاتف عندما يكون كلوك في منزلك».

بدا تعبير وجهها جامدًا وهي تقول: «أنا حذرة».

«أمل أن تكوني كذلك، لأنه كان يتتصت عليك».

«لم يكن بإمكانه سماع أي شيء».

«حسنًا، إن لم يسمعك فهذا لم يكن لعدم رغبته في ذلك».

وقفنا نتبادل النظرات، لاحظت وجود شامة حمراء ياقوتية أسفل عينيها بحجم دبوس تأسر القلب، انحنيت إلى أسفل وقبلتها برغبة ملحة لا تُقاوم.

ضحكت: «من أجل ماذا كانت تلك القبلّة؟».

بدأ قلبي -الذي حبس أنفاسه عدة لحظات مبهورًا بجراتي- ينبض بعنف شديد فجأة. قلت وأنا أنشغل بنظاراتي: «لا شيء»، لقد بدوت جميلة فحسب».

كان يمكن أن أقول شيئًا آخر لو لم يندفع تشارلز عبر باب المطبخ يلاحقه فرانسيس بإصرار.

قال فرانسيس بنبرة غاضبة: «لماذا لم تخبرني؟»، كان يرتجف ووجهه محمرًا. «بالإضافة إلى أن المقاعد مبللة، وقد تتعفن، ويجب أن أعود السيارة إلى هامبدن غدًا، لكن هذا ليس مهمًا. ما لا أستطيع تصديقه هو أنك صعدت إلى الأعلى متعمدًا وأخذت مفاتيح السيارة من معطفي!».

قال تشارلز باقتضاب: «لقد رأيتك تفتح سقف السيارة تحت المطر سابقاً».

كان يقف أمام منضدة المطبخ يصب لنفسه مشروباً، وظهره لفرانسييس، كان شعره المبلل ملتصقاً برأسه وقد تشكلت بركة صغيرة من المياه حوله فوق المشمع.

قال فرانسييس من بين أسنانه: «ماذا؟ لم أفعل ذلك قط».

قال تشارلز دون أن يلتفت: «بلى، فعلت».

«اذكر لي تلك المرة».

«حسناً، ماذا عن اليوم الذي كنا فيه في مانشستر قبل أسبوعين من بدء الدراسة، عندما قررنا الذهاب إلى إكوينوكس هاوس...».

«كان ذلك عصر يوم صيفي، وكان المطر رذاذاً خفيفاً».

«لم يكن كذلك، هطل المطر بغزارة. إنك لا تريد التحدث عن ذلك الآن فحسب لأنك في ذلك اليوم كنت تحاول أن تجعلني...».

قال فرانسييس: «أنت مجنون، لا وجه مقارنة بين الأمرين. الظلام حالك في الخارج، والمطر ينهمر بغزارة، وأنت ثمل حتى النخاع، إنها لمعجزة أنك لم تقتل أحداً. أين ذهبت بحق الجحيم على أي حال؟ لا يوجد متجر قريب يبيع...».

«لست ثملاً».

«ها ها، أخبرني إذن، من أين حصلت على هذه السجائر؟ أود

أن أعرف. أراهن أنك...».

«قلت إنني لست ثملاً».

«آه، بالتأكيد. أراهن أنك لم تشتري أي سجائر على الإطلاق، ولو فعلت فلا بد أنها ابتلت. أين هي على أي حال؟»
«اتركني وشأني».

«لا، حقًا. أرني إياها. أريد أن أرى هذه السجائر...»
في تلك اللحظة، وضع تشارلز كأسه بقوة على المنضدة، واستدار، وصاح بصوت حاد: «اتركني وشأني!»

لم تكن نبرة صوته هي المخيفة، بقدر ما كانت النظرة التي تعلق وجهه. صمت فرانسيس وهو يحدق إليه، وفمه مفتوح قليلاً في ذهول. لمدة عشر ثوانٍ كان الصوت الوحيد المسموع هو خشخشة المياه المتساقطة من ملابس تشارلز المبللة.

أخذت كأس السكوتش والصودا المليء بالثلج، وكأس المياه دون ثلج، وسرت متجاوزاً فرانسيس، وخرجت من الباب المتمايل ونزلت إلى القبو.

أمطرت بشدة طوال الليل، أحسست بحكة في أنفي من الغبار المتراكم في حقيبة النوم، وأرضية القبو التي لم تكن سوى خرسانة مغطاة بطبقة رقيقة غير مريحة من السجاد آلمت عظامي كيفما تقلبت.

هطل المطر بطنين على النوافذ العالية، وألقت الأضواء الكاشفة التي تسطع من خلال الزجاج ظللاً على الجدران كأنها أنهار داكنة تتدفق من السقف إلى الأرض، شجر تشارلز على سريريه وفمه مفتوح، وتذمر فرانسيس في نومه، ومن حين إلى آخر كانت سيارة تمر تحت المطر وتلقي كشافاتها أشعة الضوء

داخل الغرفة لحظات؛ على طاولة البلياردو، وأحذية الثلج المعلقة على الحائط، وآلة التجديف، والكرسي الذي جلس عليه هنري بلا حراك، وكأس في يده وسيجارة مشتعلة بين أصابعه.

كان وجهه شاحباً ويقظاً مثل وجه شبّح، يبرز في ضوء الكشافات الأمامية، ثم يتلاشى تدريجياً مرة أخرى في الظلام.

استيقظت في الصباح وأنا أشعر بوهنٍ وارتباك على صوت نافذة غير مغلقة جيداً تتأرجح مع الرياح في مكان ما في المنزل، كان المطر يهطل بغزارة أكثر من أي وقت مضى، وقطراته تضرب نوافذ المطبخ البيضاء بإيقاع منتظم. جلسنا نحن الضيوف حول المائدة نتناول فطوراً صامتاً وكئيماً، مكتفين بفناجين القهوة وبضع فطائر البوب تارت.

كان أفراد عائلة كوركوران في الطابق العلوي يرتدون ملابسهم، شرب كلوك وبرام وروني القهوة واقفين، ومرافقهم مستتدة إلى المائدة، وتحدثوا بأصوات هامسة، كانوا قد اغتسلوا وحلقوا ذقونهم وارتدوا ملابسهم الرسمية، ولكنهم كانوا متوترين كأنهم في طريقهم إلى جلسة محكمة.

أما فرانسيس فقد استيقظ متأخراً، كانت عيناه منتفختين وشعره الأحمر المجعد فوضوي بطريقة غريبة، كان لا يزال مرتدياً روب حمامه، ويحاول أن يخفي استياءه بسبب نفاد الماء الساخن من خزان القبو. جلس هو وتشارلز متقابلين حول المائدة، يحاولان تجنب النظر إلى بعضهما.

أما ماريون فكانت متجهمة وصامتة، عيناها متورمتان وشعرها معقوص في لفائف تجعيد الشعر الساخنة، لكنها كانت أنيقة في بدلتها الزرقاء الداكنة، بغض النظر عن أنها ارتدت نعالاً بدت غريبة فوق جواربها النايلون، كانت تمتد يدها من حين إلى آخر وتلمس اللفائف على رأسها لتري إن كانت قد بردت أم لا.

كان هنري هو الوحيد بيننا الذي سيشارك في حمل النعش، أما بقية حاملي النعش الخمسة فكانوا من أصدقاء عائلة السيد كوركوران أو شركائه في العمل. تساءلت في نفسي عن ثقل التابوت، وكيف سيتحمل هنري ذلك الواجب الجلل! وعلى الرغم من رائحة العرق الخافتة التي امتزجت برائحة السكوتش والأمونيا التي كانت تتبعث منه بشكل خافت، فإنه لم يبد مخموراً على الإطلاق، بدا أن الحبوب التي تناولها قد غمرته بسكون عميق وهدوء مخدر، تصاعدت خيوط دخان رفيعة من سيجارته بلا فلتر، واقترب طرفها المشتعل بخطر من أطراف أصابعه، ربما بدا هنري في تلك اللحظة في حالة غريبة كأنه تحت تأثير مخدر، لكن في الحقيقة لم يكن ذلك سوى أسلوبه المعتاد.

أشارت عقارب ساعة المطبخ إلى التاسعة والنصف، وكان موعد الجنازة في الساعة الحادية عشرة. انصرف فرانسيس ليغير ملابسه، وانشغلت ماريون بإزالة اللفائف الساخنة من شعرها، أما بقيتنا فجلسنا حول مائدة المطبخ محاطين بالخرج والخمول نحاول عبثاً أن نخفي توترنا بشرب مزيد من فناجين القهوة. وفجأة، دخلت زوجة تيد، كانت محامية ذات ملامح صارمة على الرغم من جمالها، تدخن بلا توقف، وشعرها الأشقر معقوص في

كعكة صينية. كانت ترافقها زوجة هيو، تلك المرأة النحيلة وديعة الوجه التي تبدو كأنها أضعف من أن تتحمل إنجاب هذا العدد الكبير من الأطفال. وبالمصادفة المؤسفة، كانتا كلتاهما تحمل اسم ليزا؛ ما زاد من الفوضى والارتباك في المنزل.

قالت ليزا الأولى: «هنري»، وهي تميل إلى الأمام، وفي يدها سيجارة فانتاج دخنت نصفها، وتضعها مثنية بزاوية حادة في منفضة السجائر، كانت تتعطر بكمية مبالغ فيها من عطر جورجيو، وأكملت: «سنذهب بالسيارة الآن إلى الكنيسة لترتيب الزهور عند المذبح وجمع البطاقات قبل بدء القداس، وقد قالت والدتي (كلتا الزوجتين ليزا كانتا تمقتان السيدة كوركوران، وهي بدورها لا تبدي أي ود تجاههما): «عليك أن ترافقنا للقاء حاملي النعش الآخرين، حسناً؟»

لم يبدِ هنري الذي انعكس الضوء من حواف نظارته الفولاذية أي علامة على أنه سمعها، كنت على وشك أن أركله من تحت المائدة حين رفع رأسه ببطء شديد وقال: «لماذا؟». «من المفترض أن يجتمع حاملو النعش في ردهة الكنيسة الساعة العاشرة والرابع».

كرر هنري بهدوء بوزي: «لماذا؟». «لا أعلم لماذا، أخبرك فقط بما قالت، كل شيء يُخطط له بالتفصيل مثل السباحة المتزامنة، هل أنت مستعد للذهاب، أم تحتاج إلى بعض الوقت؟»

قالت زوجة هيو بصوت واهن لابنها الصغير الذي ركض إلى المطبخ وأخذ يتأرجح من ذراعي والدته مثل قرد: «براندون... لو سمحت يا براندون، ستؤذي ماما... براندون».

علقت ليزا الأولى وهي تنتظر إلى ساعتها: «ليزا، لا ينبغي أن تتركه يفعل ذلك».

«من فضلك يا براندون. على ماما أن تذهب الآن».

«لقد أصبح كبيرًا جدًا ليظل يتصرف بهذه الطريقة، أنت تعلمين ذلك جيدًا، لو كنت مكانك لكنت قد أخذته إلى الحمام لتأديبه».

بعد نحو عشرين دقيقة نزلت السيدة كوركوران وهي ترتدي ثيابًا سوداء من قماش الكريب دي شين، وهي تعبث بمحتويات حقيبة جلدية مبطنة في يدها، سألت عندما رأتني وكاميلًا وصوفي ديربولد واقفين بجانب دولا ب الجوائز: «أين الجميع؟». وعندما لم يرد أحد منا، توقفت على الدرج بنبرة منزعجة، وقالت: «حسنًا؟ هل غادر الجميع؟ أين فرانسييس؟» قلت: «أظن أنه يرتدي ملابس»، وأنا سعيد لأنها سألتني شيئًا يمكنني الإجابة عنه من دون الحاجة إلى الكذب.

لم تكن السيدة كوركوران من موقعها على الدرج ترى ما كنا نحن نراه بوضوح عبر الأبواب الزجاجية لغرفة المعيشة؛ كان كلوك وبرام وروني، وتشارلز معهم، جميعهم يدخلون الماريجوانا تحت الجزء المسقوف من الشرفة. كان من الغريب رؤية تشارلز يدخل الماريجوانا، ربما اعتقد أن ذلك سيمنحه القوة لتحمل اليوم كما يفعل المشروب القوي، إن كان هذا ظنه فأنا على يقين أن مفاجأة غير سارة في انتظاره. عندما كنت في الثانية عشرة كنت أتعاطى المخدرات يوميًا في المدرسة -ليس لأنني أحببت ذلك، إذ كانت تجعلني أتعرق وأدخل في نوبات زعر- بل لأنه في الصفوف

الأدنى كان من الرائع أن يُنظر إليك على أنك مدمن، وأيضًا لأنني كنت جيدًا في إخفاء أعراض البارانونيا الأشبه بالأنفلونزا التي كانت تصيبني بها.

«يرتدي ملابسه؟»

«أظن ذلك».

«ألم ينته بعد؟ ماذا كانوا يفعلون طوال الصباح؟»

وقفت عاجزًا عن الرد، كانت تنزل على الدرج خطوة بعد خطوة. والآن وقد تجاوز رأسها الأعمدة، بات بإمكانها رؤية كل شيء من خلال الأبواب الزجاجية -زجاج مبلى بالمطر ومدخنين يقفون خلفه غير منتبهين إلى الخطر القادم- إن نظرت في ذلك الاتجاه، كنا جميعًا متوترين ومتجمدين من أماكننا، أحيانًا لم تكن الأمهات يعرفن الماريجوانا عند رؤيتها، لكن السيدة كوركوران بدت كأنها ستعرف.

أغلقت حقيبتها بقوة ونظرت حولها نظرة فاحصة صارمة ذكرتني بوالدي، في لحظة بدا لي وجهها أشبه بنظرة طائر جارح. قالت: «حسنًا؟ هل سيطلب أحدكم من فرانسيس أن يسرع؟».

قفزت كاميلًا واقفة وقالت: «سأحضره يا سيدة كوركوران»، ولكن ما إن بلغت الزاوية انطلقت بسرعة نحو باب الشرفة.

قالت السيدة كوركوران: «شكرًا لك يا عزيزتي». وجدت أخيرًا نظارتها الشمسية في حقيبتها فأخرجتها وارتدتها. ثم نظرت إليّ وقالت: «لا أعلم ما خطبكم أيها الشباب، لا أعنيك شخصيًا، لكن هذه وقت صعب جدًا ونحن جميعًا تحت ضغط شديد، علينا أن نبذل جهدًا لنجعل الأمور تسير بسلاسة قدر الإمكان».

رفع كلوك رأسه بعينين محمرتين، وقد بدا غير مستوعب لما يحدث، ونظر إلى كاميلا وهي تتقر بلطف على زجاج الشرفة، ثم نظر خلفها إلى غرفة المعيشة، وفجأة تغيّر وجهه. رأيت شفّتيه تتحركان كأنه يشتم بصمت، فيما خرجت سحابة من الدخان من فمه .

رأى تشارلز ما يجري أيضاً، وكاد يختنق وهو يحاول السيطرة على نفسه، انتزع كلوك بسرعة سيجارة الماريجوانا من يد برام وقذفها بعيداً بإبهامه وسبابته، ولحسن الحظ بقيت السيدة كوركوران التي كانت ترتدي نظارة شمسية سوداء كبيرة غافلة تماماً عن هذه المشهد الدرامي خلفها .

قالت، وهي ترى كاميلا تدور خلفها متجهة لإحضار فرانسيس: «الكنيسة تبعد قليلاً، كما تعلمون. سأسبقكم أنا وماك بالسيارة الستيشن واغن، ويمكنكم أن تتبعونا أو تتبعوا الأولاد، أعتقد أنكم ستحتاجون إلى ثلاث سيارات، لكن ربما يمكنكم التكدس في سيارتين».

ثم صاحت فجأة على براندون وابن عمه نيل اللذين اندفعا بجانبها على الدرج واقتحما غرفة المعيشة بصخب: «لا تركضا في منزل جدتكما!»، كانا يرتديان بدلات زرقاء صغيرة وربطات عنق سهلة الارتداء، ويصدران ضجة مرتفعة على الأرضية بحذاءيهما الرسميين.

لهث براندون وهو يختبئ خلف الأريكة: «لقد ضربني يا جدتي».

رد عليه نيل: «لأنه ناداني بالأحمق».

«لم أفعل».

«بلى، فعلت».

نهرتها السيدة كوركوران بغضب: «يا أولاد، يجب أن تخجلا من أنفسكما».

سكنت هنية على نحو درامي لتراقب وجهيهما الصامتين المصدومين، وأكملت: «مات عمكما باني. هل تعرفان ما يعنيه ذلك؟ يعني أنه قد رحل إلى الأبد، ولن ترياه مرة أخرى أبداً». حدقت إليهما طويلاً، ثم أضافت: «اليوم يوم خاص جداً، إنه يوم من أجل أن نتذكره. يجب أن تجلسا بهدوء وتفكرا في كل الأشياء اللطيفة التي فعلها لأجلكما بدلاً من الركض وتدمير هذه الأرضية الجديدة الجميلة التي أعادت جدتكما صقلها مؤخراً». ساد صمت مشوب بالانزعاج. ركل نيل براندون بغضب وقال بتجهم: «ذات مرة، نعتي العم باني بالوغد».

لم أكن متأكداً إن كانت السيدة كوركوران لم تسمعه حقاً، أم أنها تجاهلت كلامه عمداً، ولكن تعبير وجهها الثابت جعلني أرجح الخيار الثاني.

وفي تلك اللحظة فتحت أبواب الشرفة ودخل كلوك برفقة تشارلز وبرام وروني.

نظرت إليهم السيدة كوركوران بريية وقالت: «أوه، أنتم هنا. ماذا كنتم تفعلون في الخارج تحت المطر؟» قال كلوك: «كنا نستشق بعض الهواء المنعش».

بدا ثملاً بشكل واضح، وقد برز طرف قنينة مشروب فيسين يبرز من جيب سترته. أما تشارلز المسكين، فكان شاحب الوجه

جاحظ العينين يتصبب عرقاً، بدا أن كل شيء كان يفوق قدرته على التحمل؛ الأضواء الساطعة، والسكر المفرط، وحقيقة اضطراره إلى التعامل مع شخص بالغ عدائي. نظرت السيدة كوكوران إليهم.

تساءلت إن كانت تعرف! للحظة ظننت أنها ستقول شيئاً، لكنها اكتفت بمد يدها وأمسكت بذراع براندون بلطف، وقالت بلهجة مقتضبة: «حسناً، عليكم جميعاً التحرك الآن» ثم انحنت لتربت على شعر براندون الأشعث. «لقد تأخر الوقت، وأتوقع أن هذا سيتسبب في مشكلة صغيرة في أماكن الجلوس».

بُنيت الكنيسة عام ألف وسبعمئة ونيف وفقاً لما ورد في السجل الوطني للأماكن التاريخية، كان مبنى قاتمًا يشبه الزنزانة، يلاصق مقبرة قديمة متهالكة تقع خلفه على طريق ريفي متعرج. حين وصلنا مبتلين وغاضبين بسبب المقاعد المبللة في سيارة فرانسيس، كانت السيارات مصطفة على جانبي الطريق المنحدر تدريجياً إلى خندق عشبي، كما لو كنا في حفلة ريفية أو ليلة بينغو. كان رذاذ المطر الرمادي يتساقط بهدوء، توقفنا قرب النادي الريفي، حيث كانت الأضواء الداخلية خافتة، وقطعنا مسافة ربع ميل بصمت عبر الوحل.

كان حرم الكنيسة مظلمًا، وعندما خطوت داخله أعمانى ضوء الشموع. وحين اتضحت رؤيتي شاهدت فوانيس حديدية متدلّية وأرضيات حجرية ندية وزهورًا منتشرة في كل زاوية، دهشت عندما لاحظت أن أحد باقات الزهور قرب المذبح منسقة على شكل الرقم 27.

همست لكاميلًا: «ظننت أن باني كان في الرابعة والعشرين».

أجابت: «صحيح، ولكن هذا رقمه القديم في فريق كرة القدم».

كانت الكنيسة مكتظة بالحضور، بحثت بعيني عن هنري، ولكني لم أستطع العثور عليه، لمحت شخصًا ظننته جوليآن لكن سرعان ما أدركت أنه ليس هو عندما استدار، كان هناك كراسي معدنية قابلة للطي على طول الجدار الخلفي مخصصة للجلوس، وقفنا في دائرة حائرين عدة لحظات حتى رأى أحدنا دكة طويلة شبه فارغة وتوجهنا إليها؛ فرانسيس وصوفي، التوأمان وأنا. كان تشارلز الذي ظل قريبًا من كاميلًا يبدو مذعورًا، فجو الكنيسة الكئيب المرعب لم يساعده على الإطلاق، وكان يحدق حوله بخوف واضح، فيما كانت كاميلًا تمسك بذراعه وتحاول دفعه إلى الجلوس.

تركنا ماريون لتجلس مع بعض القادمين من هامبدن، أما كلوك وبرام وروني فقد تبخروا في الهواء في مرحلة ما بين ترجلنا من السيارة ودخولنا الكنيسة.

كان القداس طويلًا. ألقى القس عظة مسكونية مطولة عن الحب مقتبسة من القديس پول من الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس. ومع أنها كانت مؤثرة، فإن البعض شعر أنه كان يتحدث بشكل عام ولم يتطرق إلى مناسبة الاجتماع، تحدث لمدة نصف ساعة تقريبًا. (علق جوليآن لاحقًا، وهو معروف بنظرته المظلمة عن الموت: «ألم تشعر أن هذا النص لم يكن مناسبًا إطلاقًا؟»).

بعد القس تحدث هيو كوركوران قائلاً: «كان باني أفضل أخ صغير يمكن للمرء أن يحظى به».

ثم تبعه مدرب كرة القدم القديم لباني، وهو رجل مليء بالحيوية، تحدث بحماس عن روح الفريق التي تمتع بها باني، وروى قصة عن مباراة مشوقة ضد فريق قوي من كونيتيكت. أنهى المدرب قصته بصمت مؤثر، ثم نظر إلى المنصة بعمق وقال: «لا أعرف كثيرًا عن الجنة، وظيفتي هي تعليم الأولاد كيف يلعبون ببراعة، نحن هنا اليوم لتكريم شاب ترك الملاعب مبكرًا، لكن هذا لا يعني أنه لم يقدم كل ما لديه عندما كان هناك. هذا لا يعني أنه لم يكن ناجحًا»، صمت قليلًا بشكل مؤثر ثم قال: «باني كوركوران كان ناجحًا!»

وفي تلك اللحظة، علا نحيب طويل ومنفرد من أحد الحضور. لا أعتقد أنني شهدت مثل هذا الأداء الاستعراضي المؤثر إلا في الأفلام (كنوت روكني في جميع الأمريكيين⁽¹⁾ بالتحديد). وعندما جلس، كان نصف الحضور سيكون بمن فيهم المدرب نفسه. لم يحظ «هنري» الذي كان المتحدث الأخير بأي اهتمام، فقد صعد بهدوء إلى المنصة وقرأ بصوت خافت قصيدة قصيرة من تأليف آيه. إي. هاوسمان من دون تعليق أو تفسير.

كانت القصيدة بعنوان «قلبي مثقل بالأسى»، ولا أفهم تمامًا لماذا اختار هنري هذه القصيدة بالتحديد. كنّا نعلم أن عائلة كوركوران طلبت منه إلقاء شيء ما، وافترضنا أنهم وثقوا به ليختار نصًا ملائمًا للمناسبة. لكنه كان بإمكانه بكل سهولة اختيار شيء آخر، ربما شيئًا تقليديًا كما كان متوقعًا، مثل مقطع من

(1) فيلم سيرة أمريكي صدر في 1940 يروي قصة كنوت روكني، مدرب كرة القدم الأسطوري في نوتردام.

الليسيداس⁽¹⁾ أو من الأوبنشاد أو أي عمل أدبي آخر، بالتأكيد لم يكن متوقعًا أن يختار تلك القصيدة التي كان باني يحفظها عن ظهر قلب، كان باني مولعًا بالقصائد القديمة التي تعلمها في المدرسة الابتدائية، تلك القصائد التي كنا نعتبرها سطحية ومبتذلة: «هجوم اللواء الخفيف»، «في حقول فلاندرز»، وغيرها من القصائد العاطفية القديمة التي لم أكن أعرف حتى عناوينها أو كتابها.

أما نحن الذين كنا ننظر إلى هذه الأمور نظرة متعالية، فقد اعتبرنا ذوقه هذا مُخْجَلًا مثل ولعه بحلوى كينغ دونز أو بحلوى توينكيز. كثيرًا ما سمعت باني يتلو قصيدة هاوسمان تلك بصوت عالٍ؛ جادًا إذا كان ثملًا، وساخرًا إذا كان رصينًا. كانت كلمات القصيدة مغروسة في ذاكرتي بإيقاع صوته، ولعل هذا هو السبب الذي جعل سماعها في ذلك اليوم، بصوت هنري الأكاديمي الرتيب (الذي كان مُلقبًا ضعيفًا) داخل كنيسة غارقة بالشموع المتوهجة والزهور التي تتمايل مع النسيم الخفيف وسط حشدٍ من الباكين، يشعل في داخلي موجة عارمة من الحزن لكنها لم تدم طويلًا. كان حزنًا كالألم الحاد، مختصرًا وشديدًا، يشبه في تأثيره أساليب التعذيب اليابانية الدقيقة التي تستخلص أقصى درجات الألم في أقصر وقت.

كانت قصيدة قصيرة جدًا:

قلبي مثقل بالأسى

(1) قصيدة كتبها جون ميلتون العام 1637، تعد مرجعًا للأعمال الأدبية التي تتناول موضوعات الحزن والرتاء.

على أصدقائي الذهبيين،
على الفتيات ذوات الشفاه الوردية،
والفتيان الرشيقين.

بقرب جداول عريضة جدًا
لا يمكن القفز عبرها،
يرقد الفتیان الرشيقون،
والفتيات ذوات الشفاه الوردية.
يغضون في الحقول حيث تذبل الورود.

خلال الصلاة الختامية الطويلة بشكل مفرط، شعرت بنفسي
أترنح من التعب، حتى أن حواف حذائي الجديد حفرت في
المنطقة الرقيقة أسفل عظام كاحلي. كان الهواء خانقًا والناس
ينوحون، وعلا طنين مستمر أخذ يقترب من أذني ثم انحسر.
خفت أن أفقد الوعي، ثم اكتشفت أن ذلك الصوت لم يكن سوى
طنين دبور ضخمة يحلق فوق رؤوسنا في مسار مضطرب وغير
منتظم، حاول فرانسيس بعثية ضربه بمنشور حفل التأيين؛ ما
زاد من غضبه، فاتجه نحو رأس صوفي التي كانت تبكي من دون
أن تعير له انتباهًا، وحين لم يجد استجابة منها، هبط على ظهر
الدكة ليلتقط أنفاسه، انحنت كاميللا بهدوء وحاولت خلع حذاءها،
لكن قبل أن تفعل، قتله تشارلز بضربة مدوية من كتاب الصلاة
المشتركة!

فوجئ القس عند لحظة مؤثرة في صلاته، فتح عينيه ونظر إلى تشارلز الذي كان لا يزال ممسكاً بأداة الجريمة كتاب الصلاة. وبصوت مضخم قليلاً تابع: «حتى لا يعانوا حزنًا لا طائل منه، ولا ييأسوا مثل الذين بلا أمل، بل ينظرون إليك من خلال دموعهم...».

أنزلت رأسي بسرعة. كان الدبور المحتضر متشبثاً بحافة الدكة بمجسه الأسود، نظرت إليه متفكرًا في باني، باني المسكين، الذي كان خبيرًا في قتل الحشرات الطائرة، دائماً ما يطارد الذباب بنسخة مطوية من صحيفة «هامبدن إكزامينر». تمكن تشارلز وفرانسيس اللذان لم يتحدثا قبل القداس من التصالح بطريقة ما خلال القداس. وبعد نهاية الصلاة، اتجها بتعاطف صامت نحو ممر جانبي فارغ، لمحتهما يسرعان عبر الممر من دون تبادل كلمة قبل أن يختفيا داخل حمام الرجال، توقف فرانسيس ليلقي نظرة قلقة أخيرة خلفه، ثم مد يده إلى جيب معطفه حيث كان يحتفظ بزجاجة نصف لتر من مشروب ما، رأيته وهو يأخذها من صندوق القفازات في السيارة.

في الخارج، كانت باحة الكنيسة مظلمة وموحلة، والسماء مكفهرة والرياح تعصف بشدة رغم توقف المطر، كان أحدهم يقرع جرس الكنيسة على نحو أخرق؛ كان يرن بشكل غير منتظم ذهابًا وإيابًا مثل جرس في جلسة تحضير أرواح.

تفرق الناس متجهين إلى سياراتهم وملابسهم تتمايل في الرياح وهم يثبتون قبعاتهم على رؤوسهم.

كانت كاميلا التي كانت تسير أمامي بخطوات قليلة تكافح

لفتح مظلتها متعثرة في خطواتها الصغيرة كما لو كانت ماري بوبينز في ثوبها الأسود الجنائزي. تقدمت نحوها للمساعدة، ولكن قبل أن أصل إليها، انفتحت المظلة فجأة، وأخذت تصفق بقوة كأنها ديناصور مجنح. أطلقت كاميلا صرخة مفاجئة وأفلتت المظلة التي طارت بعيداً في الهواء، تدور وتقلب قبل أن تستقر أخيراً بين أغصان شجرة رماد عالية.

قالت: «اللعة»، وهي تنظر إليه ثم إلى إصبعها الذي بدأ ينزف خيطاً رقيقاً من الدم. كررت بغضب: «اللعة... اللعة... اللعة». «هل أنت بخير؟»

وضعت إصبعها المجروحة في فمها، وقالت بغضب وهي تنظر إلى الأغصان: «إنها مظلتي المفضلة».

بحثت في جيبتي وأعطيتهما منديلي، فتحته ولفته حول إصبعها المجروحة. وبينما كنت أراقبها، بدا كأن الزمن قد تجمد للحظة، وأيقظت في الذكرى طعنة من الحنين؛ كانت السماء الآن رمادية وراعدة مثل تلك التي أتذكرها، وأوراق الأشجار خضراء نابضة حديثاً، وشعرها يتطاير على وجهها تماماً كما في تلك اللحظة القديمة. (رفرفة بيضاء...)

(...عندما نزلت مع هنري عند الوادي، عادت إلى القمة قبله، انتظر بقيتنا عند الحافة. هبت ريح باردة وعنيفة أجبرتها على الوقوف بثبات، «هل مات؟ أهو...؟» أخرجت منديلاً من جيبها، ومسحت يديها الموحلتين من دون أن تلقي علينا ولو نظرة، وشعرها كان يتطاير في السماء خلفها، ووجهها خالٍ من أي تعبير قد يتوقع المرء رؤيته...)

سمعنا خلفنا صوتاً مرتفعاً يصيح: «أبي؟» جفلت مستيقظاً من الذكرى وقد غمرني شعور مفاجئ بالذنب، كان المتحدث هيو، يسير بسرعة، يكاد يركض، وتمكن في لحظة من اللحاق بوالده. ناداه مرة أخرى: «أبي؟»، وهو يضع يده على كتف والده المنهك من دون أن يتلقى أي رد، هزّه برفق. في الأمام كان حاملو النعش (هنري غير واضح، في مكان ما بينهم) يُدخلون النعش عبر أبواب عربية الموتى المفتوحة.

قال هيو بصوت مضطرب: «أبي، عليك أن تستمع إليّ لحظة». أغلقت أبواب العربية، استدار السيد كوركوران ببطء شديد، كان يحمل الطفل الذي نعته بالبطل البارحة، لكنه لا يبدو اليوم أنه يواسيه بأي شكل. كان وجهه الكبير المترهل يحمل نظرة شاردة كأن روحه تاهت في مكان بعيد، نظر إلى ابنه كأنه يراه أول مرة.

قال هيو: «أبي، خمن من رأيت للتو. خمن من جاء»، أضاف بإلحاح وهو يضغط على ذراع أبيه: «سيد فاندرفيلر». كان لهذا الاسم البارز الذي لطالما نطقته عائلة كوركوران بكل إجلال كأنه اسم إلهي تأثيرٌ فوري في تعافي السيد كوركوران. تغيرت ملامحه على الفور كأن معجزة قد حدثت، وقال وهو ينظر حوله: «فاندرفيلر هنا؟ أين هو؟»

كان هذا الرجل المهيب الذي يحتل مكانة شبه مقدسة في اللاوعي الجماعي لعائلة كوركوران رئيس مؤسسة خيرية ورثها عن جده الأكبر، ويمتلك أيضاً حصة مهيمنة في أسهم بنك السيد كوركوران، لذلك كان يحضر اجتماعات مجلس الإدارة، والمناسبات الاجتماعية الأخرى من حين إلى آخر.

لطالما حُكِيت في عائلة كوركوران قصص لا تنتهي من النوادر «المبهجة» عن بول فاندرفيلر، وعن أنه يمثل الشخص الأوروبي الحقيقي، وعن «دهائه» الشهير الذي كانوا لا يفوتون مناسبة للتباهي به. ومع أنني وجدت هذه الحكايات عن دهائه مملة ومريعة (كان الحراس في مقصورة الأمن في هامبدن أذكى منه)، فإن عائلة كوركوران كانت تهتز ضحكاً بصوت خافت ومهذب. كانت إحدى الطرق المفضلة لدى باني لبدء حديثه أن يذكر بطريقة عفوية: «عندما تناول أبي الغداء مع بول فاندرفيلر في ذلك اليوم...».

وها هو ذا الرجل العظيم بشحمه ولحمه يحرقنا جميعاً بأشعة مجده!

ألقيت نظرة سريعة إلى الجهة التي أشار إليها هيو، ورأيت فاندرفيلر أخيراً. كان رجلاً عادي المظهر ذا ملامح حسنة متوقعة من شخص اعتاد تلقي الرعاية باستمرار، في أواخر الأربعينات من عمره، أنيق الملبس، لكن لا شيء «أوروبي» فيه سوى نظارته القبيحة وقصر قامته الملحوظ. مع ذلك رأيت كيف انتشر على وجه السيد كوركوران تعبير يشبه الحنان، ومن دون أن ينبس بكلمة دفع الطفل نحو هيو، وانطلق عبر العشب باتجاه فاندرفيلر.

ربما لأن عائلة كوركوران كانت إيرلندية الأصل، أو لأن السيد كوركوران وُلد في بوسطن، فقد كانوا يشعرون دائماً بأن لديهم صلة ما بعائلة كينيدي. كانت هذه الرابطة التي حاولوا تعزيزها واضحة في تصرفاتهم، لا سيما لدى السيدة كوركوران التي سرحت شعرها وارتدت نظارة على غرار جاكى كينيدي. كان هناك

حتى تشابه جسدي بسيط، حيث كان برادي وباتريك بنحافتها
الشديدة وسمرتهما يشبهان بوبي كينيدي في شبابه، في حين
بدا باني وإخوته الآخرين أشبه بتيدي كينيدي بمظهرهم الأثقل
ووجوههم الممتلئة.

لذلك كان شيئاً طبيعياً أن يظنهم الناس أقرباءهم أو حتى
أولاد عمومة. أخبرني فرانسيس ذات مرة أنه عندما دخل مطعماً
عصرياً مزدحماً في بوسطن برفقة باني، وكان هناك طابور انتظار
طويل، طلب النادل اسميهما، فقال باني بخفة وهو يتأرجح على
كعبيه: «كينيدي»، وفي اللحظة التالية كان نصف عاملي المطعم
يتدافعون لإخلاء مائدة لهما.

ربما كانت تلك الارتباطات القديمة هي التي تسيطر على
تفكيري، أو ربما لأن الجنازات الوحيدة التي شاهدها كانت عبر
شاشة التلفاز في أحداث رسمية وعامة. على أي حال، كان موكب
الجنازة هذا بسياراته السوداء الطويلة التي يغمرها المطر ومن
بينها سيارة السيد فاندرفيلر الفاخرة من طراز بنتلي مرتبطاً في
ذهني بطريقة تشبه الحلم بموكب آخر أكثر شهرة.

تحركنا ببطء، وتبعنا عربة الموتى سيارات مكشوفة مليئة
بالزهور أشبه بموكب ورود⁽¹⁾ كابوسي، زينت السيارات أزهار
الجلاديولا والأقحوان المصبوغ ورذاذ زهور النخيل، كانت الرياح
تهب بقوة واهتزت البتلات الملونة ورفرفت بين السيارات لتلتصق
بزجاجها الأمامي المبتل كأنها قطع من قصاصات الورق.

(1) موكب سنوي يُقام عادة على طول شارع كولورادو في باسادينا في كاليفورنيا في
الولايات المتحدة في يوم رأس السنة الجديدة.

تقع المقبرة بجوار الطريق السريع، توقفنا وترجلنا من
الموستانج (وسط الطقطقة الجافة لفتح أبواب سيارات الموكب
وإغلاقها) وقفنا على قارعة الطريق محاطين بالنفايات المتراكمة،
مرت السيارات على الإسفلت بمحاذاتنا على بعد أقدام قليلة منا.
البقرة ضخمة وعاصفة ومستوية ومجهولة. كانت صفوف من
شواهد القبور متراصة مثل بيوت متشابهة، رأيت سائق السيارة
اللينكولن بزيه الرسمي وهو يفتح الباب للسيدة كوركوران التي
كانت تحمل باقة صغيرة من براعم الورد، لا أعلم لماذا. قدم لها
باتريك ذراعه فوضعت يدها المغطاة بالقفازات في ثنية مرفقه.
بدت كأنها عروس هادئة غامضة خلف نظارتها السوداء.

فُتحت الأبواب الخلفية لعربة النعش وأخرج التابوت، تبعته
المجموعة بصمت يحملونه مثل مركب صغير يتأرجح فوق بحر
من العشب. كانت السماء شاسعة وعدوانية، والشرائط الصفراء
على غطاء التابوت ترفرف بخفة. مررنا بقبر طفل حيث كان
هناك فانوس بلاستيكي باهت يبتسم ابتسامة عريضة ومظلة
خضراء مخططة منصوبة فوق القبر أشبه بتلك المستخدمة في
حفلات الهواء الطلق، شعرت بشيء أجوف وسخيف في هذا
المشهد، كأنه مهزلة فارغة مبتذلة ووحشية.

توقفنا هناك، وتجمعنا في مجموعات صغيرة مرتبكة. بطريقة
ما تبعت أن يكون الحدث أكثر من ذلك، لكن ما رأيته كان
أكوأمًا من العشب المقطوع بآلات الجز، وأعقاب سجاجير، وغلاف
شيكولاته تويكس.

شعرت بذعر مفاجئ يكتسحني، وفكرت: ما هذا الهراء؟ كيف وصلنا إلى هنا؟

تواصلت حركة المرور في الأعلى فوق الطريق السريع. كان القبر مروّعًا بشكل من الصعب وصفه، لم أرَ قبرًا من قبل، كان مشهدًا همجيًا؛ حفرة طينية غير مرتبة، وحولها كراسي قابلة للطي من أجل العائلة، والتراب الخام مقدس على الجانب الآخر.

فكرت: يا إلهي! بدأت أرى كل شيء بوضوح شديد دفعة واحدة، لماذا الاهتمام بالتابوت أو المظلة أو أي شيء آخر إذا كانوا يريدون إلقاء في الحفرة وإهالة التراب عليه ثم العودة إلى المنزل فحسب؟ أهذا كل شيء؟ كأنهم يتخلصون من قمامة؟ شعرت بأسف عميق على باني؛ يا حسرتي عليك يا باني، أنا أسف.

أنهى القس تلاوة القداس الأخير بسرعة، وكان وجهه لطيف المحيا مخضبًا بالأخضر تحت المظلة. رأيت جوليان هناك ينظر نحونا نحن الأربعة، تحرك فرانسيس أولاً وتبعه تشارلز وكاميللا للوقوف بجانبه، لكنني لم أهتم، فقد كنت في حالة ذهول، جلست عائلة كوركوران بهدوء وأيديهم في أحضانهم دون أن يفعلوا شيئًا. فكرت: كيف يمكنهم الجلوس هناك بجوار تلك الحفرة المروعة من دون أن يفعلوا أي شيء؟ كان يوم الأربعاء، وفي أيام الأربعاء في الساعة العاشرة كان ينبغي أن نكون في محاضرة «تأليف النثر اليوناني»، كان ذلك هو المكان الذي ينبغي أن نكون فيه جميعًا الآن.

رقد التابوت بجوار القبر بغباء. كنت أعلم أنهم لن يفتحوه، لكن تمنيت أن يفعلوا ذلك، وبدأت حقيقة مريرة تتسرب إلى وعيي؛ لن أرى باني مرة أخرى أبداً.

وقف حاملو النعش في صف معتم خلف التابوت، مثل جوقه من كبار السن في مسرحية تراجيدية. كان هنري أصغرهم، كان يقف في سكينة تامة، ويداه الكبيرتان الأكاديميتان البيضاءوان متشابكتان أمامه ثابتتان وهادئتان. ذات اليدين اللتين حفرتا في رقبة باني لتتفقدا إن كان ما زال فيه نبض، وذات اليدين اللتين أمالتا رأسه المهشم ذهاباً وإياباً، فيما وقفنا نحن على حافة الوادي نراقب من بعيد لاهئين. حتى من تلك المسافة، كانت رقبة باني المائلة بشكل مربع، وحذاؤه المتجه في الاتجاه الخاطئ، والدم الذي سال من أنفه وفمه، كل هذا كان واضحاً كالكابوس. اقترب هنري منه، وسحب جفنيه للخلف بإبهامه، بحذر كي لا يلمس نظارته المعوجة على رأسه، اهتزت إحدى ساقيه في تشنج أخير، ثم هدأت تدريجياً حتى همد تماماً. كانت ساعة يد كاميللا تحتوي على عقرب ثوانٍ، وراقبنا بصمت كيف يتوقف الزمن بينهما.

تسلق التل خلفها، وأسند ركبته بكفه، ومسح يديه بينطاله، وردّ على همساتنا الصاخبة: «مات؟ هل هو...؟» بإيماء قصيرة كإيماء طبيب.

«يا إلهنا الرحيم، ونحن نودع أخانا إدموند جرايدن كوركوران خادمك من هذه الحياة ندرك أننا جميعاً سنتبعه، ولنتمس منك

أن تمنحنا القوة والاستعداد لتلك الساعة الأخيرة، وتحمينا من الموت المفاجئ والمباغت».

لم يكن باني يتوقع النهاية قط، لم يفهم حتى، لم يكن ثمة وقت لذلك. ترنح إلى الخلف على حافة الوادي كأنه على وشك السقوط في بركة سباحة، صرخ صرخة هزلية، وذراعاه تهتزان في الهواء مثل أذرع طاحونة هوائية، ثم سقط سقوطاً مريعاً. لم يعلم أن هناك شيئاً اسمه الموت في هذا العالم، ولم يصدق ذلك حتى عندما رآه، لم يحلم قط أنه سيأتي إليه بهذه السرعة. ثم رفرفت الغريبان، وزحفت خنافس لامعة في الشجيرات، وانعكست قطعة من السماء فوق بركة الماء كأنها صورة غائمة بين الوجود والعدم.

«أنا القيامة والحياة؛ من يؤمن بي، وإن مات فسيحيا. ومن كان حياً وآمن بي، فلن يموت أبداً».

أنزل حاملو النعش التابوت إلى القبر باستخدام أشرطة طويلة أصدرت صريراً حاداً في هدوء الجنازة. ارتجفت عضلات هنري بسبب الجهد الذي يبذله، كان فكّه مشدوداً بإحكام، وقد بلل العرق الجزء الخلفي من سترته.

تحسست جيب سترتي لأتأكد أن المسكنات لا تزال موجودة معي، سوف تكون رحلة طويلة إلى هامبدن.

ثم سُحبت الأشرطة، وبارك القس القبر ورشّه بالماء المقدس، كل ما تبقى لباني تراب وظلام! بكى السيد كوركوران بصوت مكتوم رتيب، وقد دفن وجهه بين يديه، فيما اهتزت المظلة التي كانت تظللنا بفعل الرياح. أصدرت أول مجرفة من التراب سقطت

فوق الغطاء المجوف للتابوت صوتاً أجوف، أصابني بشعور مريع وثقيل وكئيب.

تقدمت السيدة كوركوران إلى الأمام ببطء، وإلى جانبيها باتريك وتيد الرصين، وألقت بيدها المغطاة بالقفاز باقة الورد الصغيرة داخل القبر.

ثم، ببطءٍ مهيبٍ وهدوءٍ خديرٍ لا يمكن سبر غوره، انحنى هنري والتقط حفنة من التراب ونثرها فوق التابوت. تراجع بخطوات ثابتة وبرباطة جأش رهيبة، واضعاً يده على صدره، تاركاً أثر الطين يلطخ طية صدر سترته وربطة عنقه وقميصه الأبيض الناصع.

حدقتُ إليه بدهشة، وكذلك فعل جوليان وفرانسيس والتوأمان، إذ اختلطت في أعيننا مشاعر الرعب والصدمة. كان واقفاً هناك، غير واع لما قام به كأنه لم يرتكب شيئاً خارجاً عن المألوف. ظل ساكناً تماماً، والريح تداعب خصلات شعره، وضوء النهار الباهت ينعكس على إطار نظارته.

الفصل الثامن

ذكرياتي عن اجتماع عائلة كوركوران بعد الجنازة مشوشة وغير واضحة، ربما بسبب خليط المسكنات الذي تناولته في الطريق، ولكن حتى المورفين لم يكن قادراً على محو رهبة الحدث بالكامل. كان جوليان هناك، وكان وجوده نعمة، تجول بين الحاضرين مثل ملاك طيب يلقي أحاديث قصيرة لطيفة، منتقياً كلماته بعناية لتلائم كل شخص، أسرت شخصيته اللطيفة وسحره السماوي قلوب الجميع حتى عائلة كوركوران التي لم تكن على وفاق معه، وهذا توتر السيدة كوركوران بمهارته الدبلوماسية، وزاد إعجابهم حين اكتشفوا أن جوليان كان يعرف بول فاندرفيلر منذ زمن طويل. قال فرانسيس الذي تصادف وجوده في مكان قريب أنه لن ينسى تعبير الدهشة الذي ارتسم على وجه السيد كوركوران عندما رأى فاندرفيلر يحتضن جوليان ويقبله على خده. (على الطريقة الأوروبية، كما سمع فرانسيس السيدة كوركوران تشرح لأحد الجيران).

أما أفراد عائلة كوركوران الصغار فقد ملؤوا المكان صخباً ومرحاً، إذ بدوا مبتهجين على نحو غريب بأحداث الصباح الحزينة. كانوا يقذفون الكرواسون، ويصرخون ضاحكين، ويطاردون بعضهم عبر الحشد من أجل لعبة أطفال مروعة أحدثت صوتاً مزعجاً أشبه بانفجار.

أخطأ متعهدو الطعام حين جلبوا كميات وفيرة من المشروبات الكحولية مقارنة بالطعام، فاشتعل فتيل الفوضى، لم يتوقف

الشجار بين تيد وزوجته، وكان برام مستلقياً على أريكة من الكتان يعاني الغثيان، في حين غرق السيد كوركوران في حالة تأرجحت بين النشوة المطلقة والحزن العميق.

بعد ذلك بمدة قصيرة، صعدت السيدة كوركوران إلى غرفة النوم، ثم نزلت مرة أخرى بملامح متجهمه. أخبرت زوجها بصوت خافت أن المنزل تعرض للسرقة، سرعان ما انتشرت تلك الجملة التي سمعها أحد الفضوليين بين الجميع وأثارت قلقاً غير مرغوب فيه.

متى حدثت السرقة؟ ما الذي سُرق؟ هل استدعوا الشرطة؟ تجمع الناس حول السيدة كوركوران مستفسرين، تهربت من أسئلتهم ببراعة، وقالت متظاهرة بالتحلي بالصبر: «لا فائدة من الشرطة، فالمفقودات ذات قيمة عاطفية، ولا تهم أحداً سوانا». استغل كلوك الفرصة للمغادرة بعد مدة وجيزة من ذلك. غادر هنري أيضاً من دون أن يثير أي ضجة بعد الجنازة مباشرة، حزم حقائبه وغادر بعد وداع روتيني فاتر لعائلة كوركوران دون أن ينطق بكلمة واحدة لجوليان الذي كان يتلهف للحديث معه.

قال جوليان لي ولكاميل: «يبدو بائساً»، (لم أرد، فقد كنت غارقاً في حالة من الذهول تحت تأثير المهدئات). وأردف: «أعتقد أنه يجب أن يرى طبيباً».

قالت كاميل: «لقد مر بأسبوع عصيب».

أضاف جوليان: «هنري أكثر رقة مما نتخيل، لا أعلم إن كان سيتمكن من تجاوز هذا، كان هو وإدموند مقربين جداً».

ثم قال متنهّداً: «تلك القصيدة التي ألقاها في الكنيسة كانت غريبة، ربما كان من الأفضل أن يلقي شيئاً من فايدو⁽¹⁾».

عند الساعة الثانية بعد الظهر بدأ الحاضرون يتفرقون، كان بإمكاننا البقاء لتناول العشاء، أو حتى الاستمرار في العيش معهم إلى الوقت الذي نرغب فيه، إذا كانت دعوات السيد كوركوران المخمور صادقة، لكن نظرات السيدة كوركوران الهادئة خلفه كانت تلمح لنا بعكس ذلك.

كان مرحباً بنا للانضمام إلى حياتهم اليومية لأننا أصدقاء العائلة، ننام في قبوهم ونشاركهم أفراحهم وأحزانهم والعطلات العائلية ورعاية الأطفال وحتى المساهمة في الأعمال المنزلية والعمل بروح الفريق، كما شدد السيد كوركوران. لم تكن تلك الحياة سهلة - لم يكن لطيفاً حتى مع أبنائه - لكنها بلا شك ستكون حياة غنية من ناحية تنمية الشخصية والتمسك بالمبادئ الأخلاقية الرفيعة التي لم يعلمنا إياها آباؤنا كما ينبغي.

أخيراً، عند الساعة الرابعة تمكنا من الفرار، تخاصم تشارلز وكاميلاً لسبب ما ولم يتحدثا طوال الطريق. رأيتهما يتجادلان في الفناء، ثم جلسا معاً في المقعد الخلفي للسيارة عابسين ينظران إلى الأمام مباشرة وأذرعهما مطوية على صدريهما بطريقة متطابقة لدرجة أنها كانت مضحكة.

(1) فايدو أو فيدو المعروف أيضاً باسم «عن النفس»، هو أحد حوارات أفلاطون الكبيرة من فترته الوسطى، إلى جانب الجمهورية والندوة. ويصور حوار فيدو وفاة سقراط.

شعرت أنني كنت غائباً مدة أطول مما هي عليه في الواقع. بدت غرفتي مهجورة وضيقة كأنها بقيت خالية لأسابيع. فتحت النافذة واستلقيت على سريري غير المرتب. كانت رائحة الملاءات عفنة. وقد بدأ الشفق يتسلل ببطء.

أخيراً انتهى كل شيء، ومع ذلك شعرت بخيبة أمل غريبة. كان لديّ محاضرات يوم الاثنين؛ اليونانية والفرنسية. لم أحضر محاضرة الفرنسية منذ قرابة ثلاثة أسابيع، وقد أصابني التفكير في ذلك بالتوتر والقلق.

تذكرت تسليم الأبحاث النهائية، تدرجت على بطني، ثم تذكرت الامتحانات، والإجازة الصيفية التي لم يتبقَّ عليها سوى شهر ونصف. أين سأقضيها بحق السماء؟

هل سأعمل مع الدكتور رولاند؟ أم سأصبح عاملاً يضخ الوقود في إحدى محطات الوقود في بيانو؟

نهضت وتناولت حبة دالمان أخرى، ثم استلقيت من جديد. كان الجو في الخارج شبه مظلم، وكنت أسمع من خلال الجدران صوت جهاز الستريو في الغرفة المجاورة: ديفيد بوي يغني: «مركز القيادة إلى الرائد توم»⁽¹⁾.

تأملت الظلال فوق السقف.

بين الحلم واليقظة وجدت نفسي في مقبرة غريبة في بلد غريب، لم تكن تلك التي دُفن فيها باني بل مقبرة أخرى، أقدم بكثير ومشهورة جداً، محاطة بالنباتات والأشجار دائمة الخضرة، وتختق مقابرها الرخامية المتشققة بالكروم المتسلقة.

(1) من كلمات أغنية «غرابة فضائية» لديفيد بوي.

كنت أسير على طريق حجري ضيق، وعند المنعطف لامست خدي أزهار الكوبية البيضاء كأنها غيوم مضيئة تطفو وسط الظلال الداكنة.

كنت أبحث عن قبر كاتب مشهور؛ مارسيل بروس، على ما أعتقد، أو ربما جورج ساند⁽¹⁾. لا أذكر بدقة لكنني كنت واثقاً بأنهما مدفونان هنا. ومع ذلك كان العشب قد نما بكثافة كبيرة لدرجة أنني بالكاد تمكنت من قراءة الأسماء المحفورة على شواهد القبور. ومع حلول الظلام أصبحت الرؤية أكثر صعوبة. وصلت إلى قمة تل وسط بستان داكن من أشجار الصنوبر الكثيفة، وفي الأسفل كان الوادي مغطى بالدخان ومنتشخاً بالسواد. استدرت ونظرت إلى الدرب الذي جئت منه؛ كانت الشواهد الرخامية كالأشواك الحادة، بدت الأضرحة الخافتة شاحبة تحت وطأة الظلام الذي كان يتسلل ببطء. بعيداً في الأسفل كان هناك شعاع ضوء رفيع -ربما من فانوس أو مصباح يدوي- يشق طريقه بين شواهد القبور، انحنيت إلى الأمام لأرى بشكل أوضح، وفجأة اهتزت الشجيرات خلفي بصوت تصادم أربعيني.

كان هناك طفل، ذلك الذي أطلق عليه السيد كوركوران لقب البطل، تعثر وسقط أرضاً، حاول الوقوف على قدميه، لكنه استسلم أخيراً، وظل ساكناً حافي القدمين، جسده العاري يرتجف، وبطنه يتحرك إلى الداخل والخارج مع أنفاسه السريعة.

(1) جورج ساند هو الاسم المستعار لأمانتين أورو لوسيل دوبين، روائية فرنسية من أسرة أرستقراطية، ولدت في باريس في أول أيام يوليو عام 1804 وتوفيت في الثامن من يونيو عام 1876.

لم يكن يرتدي سوى حفاضة بلاستيكية، وعلى ذراعيه وساقيه امتدت خدوش طويلة وقبيحة. حدقت إليه مذعوراً، وفكرت: كيف لهؤلاء الوحوش هؤلاء المعاتيه أن يتركوا طفلاً في هذا المكان بمفرده؟ آل كوركوران طائشين، لكن هذا الفعل يفوق كل تصور. كان الطفل يئن بصوت خافت، وساقاه مرقطتان باللون الأزرق من شدة البرد.

كانت يده الصغيرة المكتنزة كشكل نجمة البحر تتشبث بالطائرة البلاستيكية التي جاءت مع وجبته «الهابي ميل». اقتربت منه لأطمئن عليه. ولكن، وبينما كنت أنحني، سمعت صوتاً قريباً، صوتاً ساخراً متباهياً يتحنج.

ما حدث بعد ذلك وقع في ومضة خاطفة، التفتُ برأسي بسرعة، ولمحت بشكل غامض جسماً يتربص خلفي، كانت تلك النظرة السريعة كافية لتضعفني، فتعثرت إلى الوراء، صرخت وأنا أسقط... حتى اصطدمت أخيراً بسريري الذي ارتفع من الظلام ليحتويني، أيقظتني الهزة العنيفة، استلقيت على ظهري عدة لحظات مرتجفاً، ثم حرّكت يدي بحثاً عن زر الضوء.

في الظلام لمست المكتب ثم الباب ثم الكرسي، استلقيت على ظهري وأنا لا أزال أرتجف، على الرغم من أن ملامح ذلك الكائن كانت غامضة ومشوهة، قبيحة ومخيفة، لم أرغب في تذكرها حتى بعد إشعال الضوء، لكنني كنت أعلم جيداً من هو، وفي ذلك الحلم عرف هو أيضاً أنني أعرف.

بعد الأسابيع العصبية التي مررنا بها، لم يكن مستغرباً أننا جميعاً سئمنا من بعضنا. في الأيام القليلة الأولى، كنا منطوين على أنفسنا إلى حد كبير باستثناء الوقت الذي نقضيه في قاعات الدراسة والطعام. بعد وفاة باني ودفنه، بدا أن لا شيء يستحق الحديث عنه، ولم يكن هناك ما يستدعي السهر حتى الرابعة أو الخامسة صباحاً.

شعرت بحرية غريبة، بدأت بالتجول وحيداً، شاهدت بعض الأفلام بمفردي، وذهبت إلى حفلة خارج الحرم الجامعي ليلة الجمعة، حيث وقفت على الشرفة الخلفية لمنزل أحد الأساتذة، شربت البيرة، وسمعت فتاة تهمس عني لفتاة أخرى: «هل ترين كم يبدو حزيناً؟» كانت الليلة صافية، يملؤها صرير الصراصير وتلألؤ النجوم في السماء.

كانت الفتاة ذات جمال أخاذ ومفعمة بالحيوية ولها عيناں لامعتان من النوع الذي أفضّله، بدأنا محادثة شائقة، كان بإمكاننا مرافقتها إلى المنزل، لكنني اكتفيت بمغازلتها. كانت المغازلة ناعمة مليئة بالغموض كما يفعل أبطال الأفلام الدرامية (الرجل المخضرم المصدوم أو الأرمل الشاب المكتئب المنجذب إلى شابة غريبة يطاردها ماضٍ مظلم، ولا تستطيع مشاركة أسرارها معه بسبب براءتها). شعرت بلذة غريبة وأنا أرى في عينيها الطيبيتين رغبة عذبة لإنقاذني من نفسي. فكرت في داخلي: «يا عزيزتي، لو كنت تعلمين ما الذي قد تورطت فيه»، كنت أعلم أنني لو أردت الذهاب معها لكان ذلك سهل المنال.

لكنني لم أفعل، لأنني -مهما اعتقدت تلك الفتاة الطيبة- لم أكن بحاجة إلى الرفقة أو السلوى.

كل ما كنت أرغب فيه هو البقاء وحيداً، بعد انتهاء الحفل لم أعد إلى غرفتي بل ذهبت إلى مكتب الدكتور رولاند، حيث كنت واثقاً بأن أحداً لن يفكر في البحث عني هناك. في الليل كان المكتب هادئاً على نحو ساحر، ومنذ عودتنا من كونيتيكت أصبحت أقضي معظم الوقت فيه؛ أقرأ، وأغفو على الأريكة، وأنجز أعمالي وأعمال الدكتور رولاند.

في ذلك الوقت من الليل يكون المبنى خالياً تماماً حتى من عمال النظافة، يلف الظلام المكان، كنت أغلق باب المكتب خلفي، وأشعل الأباجورة التي كانت تلقي ضوءاً دافئاً على مكتب الدكتور رولاند، ثم أشغل الراديو بصوت خافت على المحطة الكلاسيكية في بوسطن، وأجلس على الأريكة مع كتاب قواعد اللغة الفرنسية. وعندما أشعر بالنعاس كنت أقرأ رواية غموض، وأحياناً أحضر نفسي فنجاناً من الشاي. كانت أرفف الكتب المتوهجة في الضوء الخافت تبعث دفئاً غامضاً في المكان. وعلى الرغم من أنني لم أرتكب أي خطأ، شعرت أنني أعيش حياة سرية، حياة مليئة بالمتعة الغامضة، لكنها لا بد أن تنتهي بعواقب في يوم ما عاجلاً أم آجلاً.

استمر الخلاف بين التوأمين من دون أي بوادر للحل، كانا يصلان إلى الغداء في بعض الأحيان بفارق ساعة كاملة بينهما،

شعرت أن اللوم يقع على تشارلز الذي أصبح فظًا وعاجزًا عن التواصل، ويشرب بشراهة أكثر مما يحتمل وهو ما كان مبررًا في الآونة الأخيرة. ادعى فرانسيس الجهل بما يجري، لكنني كنت أشك أنه يعلم أكثر مما كان يظهر.

لم أتحدث إلى هنري منذ الجنازة ولم أره حتى. لم يحضر وجبات الطعام ولم يرد على الهاتف.

خلال الغداء يوم السبت، سألت كاميلا: «هل تعتقدين أن هنري بخير؟».

قالت كاميلا وهي مشغولة بالسكين والشوكة: «أوه، إنه بخير».

سألتها: «وكيف علمت ذلك؟»

توقفت والشوكة في الهواء، كانت نظرتها مثل ضوء سُلط فجأة في وجهي، وقالت: «لأنني رأيته قبل مدة وجيزة».

«أين؟»

قالت وهي تستأنف تناول طعام الغداء: «في شقته، هذا الصباح».

«كيف حاله إذن؟».

«بخير، لا يزال مضطربًا بعض الشيء، ولكنه على ما يرام».

كان تشارلز بجانبها ينظر إلى طبقه الذي لم يلمسه وذقنه تتوسد يده.

لم يحضر أي من التوأمين العشاء تلك الليلة، بدا فرانسيس في حالة مزاجية جيدة، ثرثارًا وحيويًا كعادته، لقد عاد للتو من مانشستر محملاً بأكياس التسوق، وبدأ يستعرض أمامي مشترياته؛

سترات وجوارب وحمالات وعدداً كبيراً من القمصان المخططة بأنماط مختلفة، بالإضافة إلى مجموعة رائعة من ربطات العنق. كانت إحدى تلك الربطات -حريرية بلون برونزي مخضر ومنقطة بكريات برتقالية- هدية لي، اعتاد فرانسيس أن يهدي ملابسه بسخاء، لطالما أعطاني وتشارلز كثيراً من ثيابه القديمة، كان أطول منا وأنحف، لذلك كنا نأخذها إلى خياط البلدة لتعديلها لتناسب مقاساتنا، وما زلت حتى اليوم أرثدي بعض تلك الحُلل الفاخرة من «سولكا» و«أكواسكوتوم» و«جيفز آند هوكس»⁽¹⁾.

ذهب فرانسيس إلى متجر الكتب أيضاً، اشترى سيرة إرنان كورتيس⁽²⁾، وإحدى ترجمات جيجوري أوف تورز⁽³⁾، ودراسة عن جرائم القتل في العصر الفيكتوري نشرتها دار جامعة هارفارد،

(1) أكواسكوتوم: شركة تصنيع وتجارة التجزئة للملابس الفاخرة ومقرها بريطانيا، أسست العام 1851. ونجح مؤسسها جون إيماري في إنتاج أول صوف مقاوم للماء في عام 1853، وبعد تسجيل براءة اختراع العلامة التجارية، أعاد تسمية الشركة «أكواسكوتوم» وهي كلمة لاتينية تعني «الدرع المائي».

أما جيفز آند هوكس فهو خياط تفصيل حسب الطلب واسم خط ملابس رجالي يقع في لندن، بدأ العمل العام 1771.

(2) جندي مغامر إسباني كونكيستدور فتح إمبراطورية الأزتيك في بلاد المكسيك، ولقد ولد في مدينة مدلين، بطليوس، في إسبانيا، وتوفي في بلدة كاستيخا دي لا كويستا في مقاطعة إشبيلية بإسبانيا، وكان إرنان كورتيس قد فتح أمام إسبانيا مصادر الثروات المعدنية الهائلة، ولكنه في عمله هذا دمر الحضارة المكسيكية القديمة والمعروفة بحضارة الأزتيك، وتصرف رجاله بأبشع أنواع القسوة مع الهنود الحمر، كما استطاع اكتشاف شبه جزيرة كاليفورنيا.

(3) غريغوري أوف تورز: مؤرخ روماني وأسقف تورز خلال عهد الميروفينجيين ويعرف باسم «أبو التاريخ الفرنسي». كان أسقفًا في مملكة الميروفينجيان، ويشمل منطقة الجول التاريخية، وأبرز أعمال جريجوري هو ديكم ليبيري هيسطوروم المعروف أيضًا باسم هيسطوريا فرانكوروم.

كما أنه اشترى هدية لهنري؛ كتاب «مجموعة النقوش المينوسية⁽¹⁾ من كنوسوس»⁽²⁾.

تصفحته. كان كتابًا ضخماً، خالياً من النصوص، مليئاً بالصور التي تظهر ألواحاً مكسورة تحمل نقوشاً مكتوبة بالخط الخطي ب⁽³⁾. في أسفل كل صفحة، وُضعت نسخة طبق الأصل لتلك النقوش. بعض الأجزاء كانت مختصرة بحرف واحد فقط، مما أضاف غموضاً إلى محتواه المثير للاهتمام. قلت: «سوف يعجبه».

قال فرانسيس: «نعم، أعتقد ذلك. لقد اخترت أكثر كتاب ممل استطعت العثور عليه، أفكر أن أعطيه إياه بعد العشاء». قلت: «ربما يمكنني أن أرافقك».

أشعل فرانسيس سيجارة وقال: «يمكنك إن شئت، لكنني لن أدخل. سأتركه على عتبة الباب فقط». قلت: «أوه، حسناً» وأنا أشعر براحة غريبة.

(1) الحضارة المينوسية أو الحضارة المينية نسبة إلى مؤسسها الإمبراطور مينوس، تعتبر من أقدم حضارات اليونان وأوروبا عموماً وتعود إلى العصر البرونزي.

(2) كنوسوس: مدينة ملكية قديمة تقع في شمال إقريطش بالقرب من كاندية، ازدهرت فيها الثقافة في العصر البرونزي بين عامي 2000 و1400 قبل الميلاد. وهي موقع متاهة دايدالوس الأسطورية وقصر الملك مينوس. كانت عاصمة الملك مينوس ومركز الحضارة المينوسية.

(3) نظام خطي ب: نظام كتابة مقطعية كانت تستخدم في عصر يونان الموكيانية، وهي أقدم نظام خطي استعمل في اليونان القديمة، وكانت تستخدم الحروف اليونانية لعدة قرون، أقدم نص لهذه الكتابة يعود إلى العام 1450 ق م.

قضيت يوم الأحد في مكتب الدكتور رولاند، منذ الصباح الباكر وحتى الليل. وفي الساعة الحادية عشرة مساءً أدركت أنني لم أتناول شيئاً طوال اليوم سوى القهوة وبعض المقرمشات من مكتب خدمات الطلاب. جمعت أغراضى وأغلقت باب المكتب ورائي، ثم توجهت إلى مطعم «راشكيلر» لأرى إن كان لا يزال مفتوحاً.

وبالفعل كان مفتوحاً، كان مطعم «راشكيلر» امتداداً لمقصف الوجبات الخفيفة، يقدم طعاماً رديئاً معظم الأحيان، لكنه يحوي عدداً من ماكينات لعبة الكرة والدبابيس وصندوق موسيقى. ومع أنه لم يكن يقدم مشروبات كحولية حقيقية، فإنك تستطيع الحصول على بيرة مخففة بالماء مقابل ستين سنتاً.

في تلك الليلة كان المكان مكتظاً وصاخباً، ومع أنني لم أكن أستمع بالأجواء هناك، كان المطعم مركزاً حيوياً لأمثال جود وفرانك اللذين كانا دائماً موجودين هناك، كانا يجلسان وسط مائدة مزدحمة من الأصدقاء المتملقين والمتطفلين، يلعبان لعبة خطيرة تتضمن محاولة طعن بعضهما بشظية زجاج مكسور باستمتاع تتخلله ألفاظ بذيئة.

طلبت شريحة بيتزا وكوباً من البيرة، وبينما كنت أنتظر خروج البيتزا من الفرن، لمحت تشارلز يجلس وحيداً عند طرف الحانة. توجهت نحوه وحييته، استدار نحوي ببطء، كان واضحاً أنه ثمل، كان يجلس بطريقة غير طبيعية كأن جسده احتله شخص آخر كسول ومتعكر المزاج.

قال بصوت خافت: «أوه، جيد. إنه أنت».

تساءلت عمّ يفعله في هذا المكان البغيض بمفرده، يشرب
بيرة رديئة مع أن لديه في منزله خزانة مليئة بأفضل المشروبات.
قال شيئاً لم أستطع سماعه بسبب الصخب والموسيقى.

قلت وأنا أقترّب منه أكثر: «ماذا قلت؟»

رد بصوت مرتفع: «قلت هل يمكنني اقتراض بعض المال
منك».

«كم؟»

عدّ على أصابعه: «خمسة دولارات».

أعطيته ما طلبه، لم يكن مخموراً لدرجة شديدة، لذا قبله من
دون اعتذارات مبالغ فيها ووعود بسداده.

قال: «سأذهب إلى البنك يوم الجمعة».

«لا بأس».

أخرج شيكاً مجعداً من جيبه بحذر: «جدتي أرسلت لي هذا
الشيك، يمكنني صرفه يوم الاثنين».

طمأنته: «لا داعي للقلق، ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

«شعرت بالرغبة في الخروج».

«أين كاميللا؟»

«لا أعرف».

مع أن تشارلز لم يكن ثملاً لدرجة يعجز معها عن العودة إلى
المنزل، شعرتُ بعدم الارتياح لفكرة تركه في هذا المكان بمفرده،
فالمطعم لن يغلق أبوابه قبل ساعتين. منذ جنازة باني حاول
أشخاص كثيرون بمن فيهم سكرتيرة مكتب العلوم الاجتماعية
الاقتراب مني واستدراجي للحصول على معلومات. تعلمت من

هنري كيف أتعامل معهم بوجه خالٍ من التعبير ونظرة حادة؛ ما يجبر المتطفل على التقهقر في حرج، كان تكتيكًا معصومًا من الخطأ تقريبًا، لكن التعامل معهم وأنت ثمل كان شيئًا آخر تمامًا. لم أكن ثملًا، لكنني لم أشعر برغبة في البقاء طويلاً في «راشكيلر» حتى يقرر تشارلز المغادرة. كنت مدركًا أن أي محاولة لإخراجه لن تؤدي إلا إلى إصراره على البقاء، إذ إنه عندما يكون ثملًا، يصبر دائمًا على معارضة أي اقتراح يُقدَّم له كأنه يسعى عمدًا لفعل عكس ما يُطلب منه.

سألته: «هل تعلم كاميلًا أنك هنا؟».

انحنى قليلًا، مستندًا بيده إلى البار ليحافظ على توازنه: «ماذا؟».

كررت السؤال بصوت أعلى هذه المرة، اكفهر وجهه، وقال: «هذا ليس من شأنها»، ثم استدار إلى بيرته.

جاء طعامي، دفعت ثمنه وقلت لتشارلز: «معذرة، سأعود إليك فورًا».

كان حمام الرجال يقع في ممر ضيق ورطب يتعامد مع البار، رائحته نفاذة وغير مريحة. انعطفت فيه بعيدًا عن أنظار تشارلز، متوجهًا نحو الهاتف العمومي المعلق على الحائط. لكنني وجدت فتاة تستعمله، كانت تتحدث بالألمانية. انتظرت طويلاً، وكنت على وشك الاستسلام والمغادرة عندما أغلقت الفتاة السماعة أخيرًا. بحثت في جيوبي عن عملة معدنية، واتصلت برقم منزل التوأمين.

على نقيض هنري، كان من عادة التوأمين الرد على الهاتف إن كانا في المنزل، لكن هذه المرة لم ترد كاميلا، اتصلت مجدداً ونظرت إلى ساعتها، كانت تشير إلى الحادية عشرة وعشرين دقيقة، لم أستطع تخمين مكان كاميلا في مثل هذا الوقت من الليل، إلا إذا كانت في طريقها إلى هنا لتأخذ تشارلز.

وضعت السماعة مكانها، وسمعت رنين العملة وهي تسقط في الفتحة، فتناولتها ووضعتها في جيبها، عدت إلى الحانة فلم أجد تشارلز، وتوقعت أنه قد انتقل للتو من مقعده ووقف في مكان آخر وسط الزحام. ولكن بعد أن بحثت بضع لحظات، أدركت أنه لم يكن هناك، لقد أنهى مشروبه ورحل من دون أن ينتظر.

فجأة اكتست هامبدن حلة خضراء زاهية كأنها جنة عادت إلى الحياة من جديد. على الرغم من أن الثلج قضى على معظم الأزهار، فإن بعضها تفتح حديثاً مثل زهور صريمة الجدي والليلك. عاودت الأشجار الظهور بشكل أكثر كثافة من أي وقت مضى، بدت متشابكة ومعممة، وتراكمت أوراقها بكثرة حتى ضاق الطريق الذي يعبر الغابة إلى نورث هامبدن، وأحاطت به خضرة كثيفة تحجب ضوء الشمس عن المسار المتعرج الرطب.

وصلت إلى قاعة المحاضرة في يوم الاثنين مبكراً قليلاً، وعندما دخلت مكتب جوليان وجدت النوافذ مشرعة وهنري يرتب زهور الفاوانيا في مزهرية بيضاء. بدا كأنه فقد عشرة أو خمسة عشر رطلاً، وهو ما لا يمثل شيئاً بالنسبة إلى شخص بحجم هنري، ولكنني لاحظت هزول وجهه، وحتى معصميه ويديه. ومع

ذلك كان هناك شيء آخر لا يمكن تحديده قد تغيّر فيه منذ آخر مرة رأيته فيها.

كان يتبادل مع جوليان حديثًا لاتينيًا ساخرًا مثل كاهنين يستعدان لقداس كنسي.

كانت رائحة الشاي المخمّر الداكن تملأ الجو بقوة.

رفع هنري بصره في تلك اللحظة وقال: «مرحبًا يا صديقي»، وظهرت ومضة خفيفة على ملامحه الصارمة والمنغلقة عادة: «كيف حالك؟ ما الأمر؟».

فقلت له: «تبدو بخير»، وكان كذلك فعلاً.

أمال رأسه قليلاً، وتلك العينان اللتان كانتا غائمتين وواسعتين في أثناء مرضه، أصبحتا الآن زرقاوين لامعتين.

قال: «أفادني اتباع نظام غذائي صحي. أشعر بأنني أفضل بكثير».

كان جوليان يرفع ما تبقى من شرائح الخبز والمربى، إذ كانا يتناولان وجبة فطور كبيرة معًا، وضحك قائلاً شيئاً لم أفهمه تمامًا، بعض الكلمات الهوراتية⁽¹⁾ حول أن اللحوم مفيدة للتغلب على الحزن. شعرت بالارتياح لرؤيته يعود إلى ذاته القديمة المشرقة والهادئة. كان مولعًا ببياني بشكل لا يمكن تفسيره، لكن العاطفة القوية كانت شيئاً مقيتاً بالنسبة إليه، كان يعد إظهار المشاعر بشكل طبيعي كما هو متعارف عليه في عصرنا سلوكًا استعراضياً صادمًا بعض الشيء. وكنت على يقين من أن وفاته

(1) نسبة إلى هوراس الذي كان شاعرًا غنائيًا وناقدًا أدبيًا لاتينيًا من رومانيا القديمة في زمن أغسطس قيصر، قيل إن له تأثيرًا في الشعر الإنجليزي.

أثرت فيه أكثر مما سمح للآخرين برؤيته، لكن لا مبالاة جوليان الفلسفية تجاه قضايا الحياة والموت كان كافياً ليمنع الحزن من الاستمرار طويلاً في قلبه.

وصل فرانسيس، ثم كاميللا دون تشارلز، الذي ربما كان مستلقياً في الفراش يعاني آثار السكر، جلسنا جميعاً حول المائدة المستديرة الكبيرة.

وحين ساد الصمت، قال جوليان بصوت هادئ: «حسناً، أعتقد أن الوقت قد حان لنترك العالم الظاهري وراءنا وندخل العالم المتسامي».

في تلك الأيام، استمتعت كثيراً بحريتي الجديدة. الآن وقد بدا أننا أصبحنا آمنين، وقد هدأت العواصف التي عصفت بعقلي وانقشعت الغمامة الثقيلة من على ذهني، بدا لي العالم كأنه مكان جديد ومشرق مليء بالخضرة والحياة، أرى كل شيء فيه بعينين صافيتين كأنني أكتشفه للمرة الأولى.

بدأت أخرج في تمشيات طويلة، أتجول وحدي في أنحاء شمال هامبدن، حتى وصلت إلى نهر باتكيل. كان أكثر ما أستمتع به هو زيارتي متجر البقالة الريفي الصغير في شمال هامبدن، الذي قيل إن مالكيه القدامى الأم وابنها ألهموا قصة رعب مشهورة في خمسينيات القرن الماضي.

كنت أشتري زجاجة نبيذ، وأتوجه نحو ضفاف النهر لأشربها، وأترك نفسي تهيم في حالة من السكر الخفيف، مستمتعاً بتلك الأوقات الذهبية المتوهجة بعد الظهر. كانت هذه اللحظات هدراً

للوقت بكل تأكيد؛ كنت متأخراً في دراستي، وكان عليّ إعداد أبحاث والاستعداد للامتحانات، لكنني كنت شاباً، وكان العشب أخضر، والهواء مملوءاً بطنين النحل، وكنت قد عدت للتو من شفير الموت إلى الحياة. الآن أصبحت حُرّاً من جديد، وحياتي التي اعتقدت أنني فقدتها أصبحت أمامي ثمينة وحلوة بشكل لا يوصف.

في ظهر أحد الأيام، تجولت قرب منزل هنري ووجدته في الفناء مشغولاً بحفر حوض للزهور. كان يرتدي ملابس البستنة؛ سروالاً قديماً وقميصاً بأكمام طويلة شمّرهما حتى مرفقيه، وكانت هناك عربة يد مملوءة بنبتات الطماطم والخيار والفراولة وزهور عباد الشمس وزهور إبرة الراعي القرمزية.

كانت هناك ثلاث أو أربع شجيرات ورد جذورها مربوطة بخيوط من الخيزران مستتدة إلى السياج. دخلت عبر البوابة الجانبية، ثملاً تماماً، وقلت بابتسامة: «مرحباً، مرحباً، مرحباً».

توقف عن الحفر واتكأ على مجرفته، وبدأ على بشرته التي لوحتها الشمس إشراقة خافتة فوق جسر أنفه. سألته: «ماذا تفعل؟»

«أزرع بعض الخس».

ساد صمت طويل، لاحظت فيه نباتات السرخس التي زرعها هنري في اليوم الذي قتلنا فيه باني، تذكرت أنه كان يناديها باسم معين، وقد علقّت كاميلاً على سحر هذا الاسم. كانت النباتات مزروعة في الجانب المظلل من المنزل بالقرب من القبو، حيث نمت في الأجواء الباردة بشكل كثيف ومظلم.

تراجعت قليلاً واستندت إلى عمود البوابة.

سألته: «هل ستبقى هنا هذا الصيف؟»

نظر إليّ بتأمل ومسح يده المتسخة ببنتاله، ثم قال: «أظن ذلك. وأنت؟».

أجبت: «لا أعرف» لم أذكر ذلك لأي شخص، لكن في اليوم السابق فحسب كنت قد قدمت طلباً إلى مكتب خدمات الطلاب للحصول على وظيفة اعتناء بشقة في بروكلين. أتى العرض من أستاذ تاريخ سيفادر إلى إنجلترا للتدريس طوال الصيف.

بدأت فرصة مثالية، مكان للإقامة بلا إيجار وفي جزء جميل من المدينة، ولا توجد مهام باستثناء سقي النباتات والاعتناء بزوجين من كلاب بوسطن اللذين لم يتمكنوا من الذهاب إلى إنجلترا مع مالكما بسبب الحجر الصحي. مع أنني كنت قلقاً بعد تجربتي مع ليو وآلات الماندولين، فإن الموظفة طمأننتي وأررتي رسائل من طلاب سابقين يشيدون بالوظيفة. لم أزر بروكلين من قبل، ولم أكن أعرف شيئاً عنها، لكنني أحببت فكرة العيش في مدينة، أي مدينة، لا سيما مدينة غريبة عني، وراقبت لي فكرة حركة المرور المزدحمة وحشود البشر. كانت فكرة العمل في متجر كتب أو نادلاً في مقهى بروكلين تجذبني، من كان يعلم أي نوع من الحياة الانعزالية الغريبة قد أعيش؟ تناول الوجبات بمفردي، تمشية الكلاب في المساء دون أن يعرفني أحد.

كان هنري لا يزال ينظر إليّ، رفع نظارته إلى أعلى فوق أنفه، وقال مشيراً إلى سكري: «كما تعلم، لا زلنا في ساعة مبكرة جداً من الظهيرة».

ضحكت، وأدركت ما يدور في ذهنه؛ في البداية تشارلز، والآن أنا.

قلت: «أنا بخير».

«هل أنت متأكد؟»

«بالطبع».

استأنف عمله، وغرس المجرفة في الأرض، وضغط عليها
بقدميه المغطاتين بواقيات كاكية اللون، شكلت حمالات قميصه
علامة X سوداء على ظهره.

قال: «إذن يمكنك أن تساعدني في غرس الخس. ستجد
مجرفة أخرى في سقيفة الأدوات».

في ساعة متأخرة من تلك الليلة تحديداً عند الثانية صباحاً،
طرقت رئيسة السكن بابي وهي تصرخ بأن هناك مكالمة هاتفية
لي، كنت ما زلت في حالة ذهول من آثار النوم، ارتديت روب
الحمام وتعثرت هابطاً إلى الطابق السفلي.

كان المتصل فرانسيس، قلت له بنبرة ملؤها الضيق: «ماذا
تريد؟»

قال بصوت مضطرب: «ريتشارد، أعتقد أنني أعاني نوبة
قلبية».

ألقيت نظرة خاطفة على رئيسة السكن -هل كان اسمها
فيرونيكا أم فاليري؟ لا أتذكر- كانت تقف إلى جانب الهاتف
وذراعاها مطويتان فوق صدرها، ورأسها مائل قليلاً، في وقفة
تعبير عن قلقها.

أدرت ظهري وقلت في الهاتف: «أنت بخير، عُد إلى النوم».

صرخ بي بذعر: «لا، استمع إليّ، أنا جاد، أعتقد أنني سأموت».

«لا، لن تموت».

«لديّ كل الأعراض، ألم في الذراع اليسرى، ضيق في الصدر، صعوبة في التنفس».

«ماذا تريد مني أن أفعل؟»

«أريد منك أن تأتي إلى هنا، وتأخذني إلى المستشفى».

«لماذا لا تتصل بسيارة إسعاف؟»، كنت نعساناً جداً وعيناي تكادان تغلقان.

قال فرانسيس: «لدي رهاب من سيارات الإسعاف»، لكنني لم أستطع سماع باقي ما قاله لأن فيرونيكا التي انتصبت أذناها عند سماع كلمة سيارة إسعاف وتدخلت في الحوار بحماس.

قالت بلهفة: «إذا كنت بحاجة إلى مسعفين، فإن الرجال في مقصورة الأمن يعرفون كيفية إجراء الإنعاش القلبي الرئوي، يمكنك التواصل معهم من منتصف الليل حتى السادسة، ويمكنهم نقله إلى المستشفى بالشاحنة، إذا كنت تريد مني أن...».

قلت: «لسنا بحاجة إلى مسعفين». كان فرانسيس يردد اسمي بشكل محموم في الطرف الآخر من الخط.

قلت: «أنا معك».

قال بصوت ضعيف ولاهث: «ريتشارد؟ مع من تتحدث؟ ما الذي يحدث؟».

«لا شيء، استمع إليّ الآن».

«من الذي تحدث عن مسعفين؟».

قلت بينما كان يحاول التحدث في الوقت نفسه: «لا أحد،
استمع الآن... استمع، اهدأ، أخبرني ممّ تعاني».
«أريدك أن تأتي إلى هنا، أشعر أن حالتي سيئة جداً، أعتقد
أن قلبي قد توقف عن الخفقان لحظة، أنا...».
«هل للمخدرات علاقة بما يحدث لك؟»
قالت فيرونيكا بنبرة هامسة: «هل تعاطى أي مخدرات؟»
نظرت إليها بغضب وقلت: «أتمنى أن تلتزمي الصمت وتتركيني
أسمع ما يحاول هذا الشخص قوله لي».
قال فرانسيس: «ريتشارد؟ هل ستأتي لتأخذني إلى المستشفى؟
أرجوك».

ران صمت قصير.
قلت: «حسناً، أمهلني بضع دقائق»، وأغلقت الهاتف.
في شقة فرانسيس وجدته مستلقياً على سريره وقد ارتدى
ملابسه باستثناء حذائه.
قال: «تفقد نبضي».

فعلت ذلك لطمأنته فحسب. كان نبضه سريعاً لكنه قوي. كان
يرقد هناك خائر القوى، جفناه يرتعشان.
قال: «ما رأيك؟ ممّ أعاني؟»

قلت: «لا أعرف». كان وجهه متورداً بعض الشيء لكنه في
الحقيقة لم يبد بحالة سيئة جداً، ومع ذلك خطرت لي احتمالات
جنونية؛ ربما كان يعاني تسمماً غذائياً أو التهاب الزائدة الدودية.
«هل تعتقد أنني يجب أن أذهب إلى المستشفى؟»
«أنت من يقرر».

تمدد قليلاً، ثم قال : «لا أعرف، أعتقد حقاً أنني يجب أن أذهب».

«حسناً، إن كان ذلك سيجعلك تشعر بتحسن فلنذهب، هيا... انهض».

لم يمنعه مرضه من التدخين في السيارة طوال الطريق إلى المستشفى.

دربنا بالسيارة حول الشارع أمام المستشفى، وتوقفنا عند مدخلها الواسع المضاء الذي يحمل لافتة «الطوارئ». أوقفت السيارة، جلسنا داخلها قليلاً.

«هل أنت متأكد من أنك تريد الدخول؟».

نظر إليّ بامتعاض وقال: «هل تظن أنني أخلق الأمر؟».

قلت متفاجئاً: «لا، لم يخطر ببالي ذلك. كنت فقط أطرح سؤالاً».

نزل من السيارة وصفق الباب خلفه.

كان علينا أن ننتظر نحو نصف ساعة، ملأ فرانسيس استمارة طبية، وجلس يقرأ بعبوس أعداداً قديمة من مجلة سميثسونيان، عندما نادى الممرضة اسمه أخيراً لم يقف.

قلت: «هذا دورك».

ومع ذلك لم يتحرك.

قلت: «حسناً، هيا».

لم يجب، وعكست عيناه نظرة جامحة.

قال أخيراً: «انظر... لقد غيرت رأيي».

«ماذا؟».

«قلت إنني غيرت رأيي، أريد العودة إلى البيت».

كانت الممرضة واقفة عند المدخل تستمع إلى حديثنا بانتباه.
أجبتة بغضب: «هذا سخي، انتظرنا طويلاً».

«لقد غيرت رأيي».

«أنت من أراد أن يأتي».

علمت أن هذا سيُسعره بالخجل، تجنب فرانسيس نظراتي
منزعجاً، وأغلق مجلته بقوة واجتاز الباب المزدوج من دون أن
ينظر إلى الوراء.

وبعد عشر دقائق، أطل طبيب بدا عليه الإرهاق يرتدي قميصاً
مجعداً برأسه في غرفة الانتظار، كنت الشخص الوحيد هناك.
قال باقتضاب: «مرحباً، أنت مرافق السيد أبيرناثي؟»
«نعم».

«هل يمكنك القدوم معي إلى الحجرة الخلفية من فضلك؟».

نهضت وتبعته، فوجدت فرانسيس يجلس على حافة طاولة
الفحص، مغطى بالكامل بملاءة، ومحني الظهر كلياً، ويبدو في
حالة مزرية.

قال الطبيب: «السيد أبيرناثي يرفض ارتداء ثوب المستشفى،
ولا يسمح للممرضة بأخذ أي عينة دم منه. كيف يتوقع منا أن
نفحصه إن لم يتعاون؟»

ران الصمت، كانت الأضواء في غرفة الفحص ساطعة جداً،
ساورني حرج شديد، توجه الطبيب إلى المغسلة وبدأ يغسل يديه.
فجأة سأل الطبيب بشكل عابر: «هل كنتما تتعاطيان أي
مخدرات الليلة؟».

شعرت بوجهي يتلون بالأحمر، أجبت: «لا».
«قليل من الكوكائين؟ أو بعض السبيد، ربما؟»
«لا».

أضاف الطبيب: «إذا كان صديقك قد تناول أي شيء، فإن معرفتنا به سيكون مفيداً جداً».

نظرت إلى فرانسيس وهمست: «فرانسيس». لكن نظرة الكراهية التي لمعت في عينيه كانت كافية لإسكاتي.
صرخ فرانسيس بغضب: «كيف تجرؤ؟ لم أتعاط أي شيء، وأنت تعرف ذلك جيداً!»

قال الطبيب: «اهداً. لا أحد يتهمك، لكن سلوكك يبدو غير طبيعي بعض الشيء هذه الليلة، ألا تعتقد ذلك؟» قال فرانسيس بعد صمت مرتبك: «لا».

غسل الطبيب يديه وجففهما بالمنشفة.

ثم قال: «لا تأتي هنا منتصف الليل وتدعي أنك تعاني نوبة قلبية، لكنك ترفض أي فحص، كيف تتوقع مني معرفة ما بك؟».
لم يجب فرانسيس، كان يتنفس بصعوبة، وعيناه منخفضتان ووجهه شاحب.

أخيراً، قال الطبيب: «لست قارئ أفكار، لكن من تجربتي، عندما يأتي شخص في مثل عمرك ويدعي أنه يعاني نوبة قلبية، فهناك احتمالان».

قلت أخيراً: «ما هما؟»

قال الطبيب: «إما التسمم بالأمفيتامين».

قاطعه فرانسيس بغضب: «ليس الأمر كذلك!»

«حسنًا... حسنًا. شيء آخر. يمكن أن تكون نوبة هلع».

قلت بحذر متجنبًا النظر إلى فرانسيس: «ما هي نوبة الهلع؟»
أجاب الطبيب: «مثل نوبة القلق، دفقة مفاجئة من الخوف،
تتسبب في خفقان القلب والتعرق والرعدة الشديدة، أحيانًا
يعتقد الناس أنهم على وشك الموت».

لم يقل فرانسيس أي شيء.

قال الطبيب: «حسنًا؟ هل تعتقد أن هذا ما حدث معك؟»

بعد لحظة من التردد، أجاب فرانسيس: «لا أعرف».

انحنى الطبيب إلى الخلف فوق المغسلة: «هل يعتربك الخوف
كثيرًا؟ خوف مجهول لا يمكنك التفكير في سبب وجيه له؟».

عندما غادرنا المستشفى كانت الساعة الثالثة والرربع صباحًا.
أشعل فرانسيس سيجارة في موقف السيارات. وأمسك بيده
اليسرى قصاصة من الورق كتب عليها طبيب الطوارئ اسم أحد
المعالجين النفسيين في البلدة.

عندما أصبحنا في السيارة سألتني للمرة الثانية: «هل أنت
غاضب مني؟»

أجبت: «لا».

«أعلم أنك غاضب».

كانت الشوارع مظلمة وخالية، مضاءة بأنوار خافتة كالأحلام،
وسقف السيارة مفتوح. مررنا بمنازل مظلمة، وتوجهنا نحو جسر
خشبي، كانت الإطارات تصر فوق الألواح الخشبية.

قال فرانسيس: «من فضلك لا تغضب مني».

تجاهلته وسألت: «هل ستذهب لرؤية ذلك الطبيب النفسي؟».

قال بنبرة يائسة: «لن ينفعني، أعرف ما يزعجني».

لم أقل أي شيء، لكن فكرة الطب النفسي أثارت حفيظتي رغم عدم إيماني الشديد به، لكن من يعلم ما قد تراه العين المدربة في اختبار الشخصية أو في حلم أو حتى زلة لسان؟

قال فرانسيس: «لقد خضعت لتحليل نفسي عندما كنت طفلًا».

وبدا على وشك البكاء، وأكمل: «كنت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة. كانت أمي مواظبة على أحد تمارين اليوغا، أخرجتني من مدرستي القديمة في بوسطن وأرسلتني إلى ذلك المعهد الرهيب في سويسرا، لا أتذكر اسمه بالضبط. انتعل الطلاب صنادل فوق الجوارب، وكان هناك حصص في الرقص الصوفي والقبالة، كنت في مستوى يُسمى المستوى الأبيض، وكان علي أن أمارس رياضة التشي كونج⁽¹⁾ الصينية كل صباح وأن أخضع لتحليل رايش النفسي مدة أربع ساعات كل أسبوع، اضطررت للخضوع لست اختبارات لتحليل الشخصية».

«كيف يمكن إجراء تحليل نفسي لطفل يبلغ من العمر اثني عشر عامًا؟»

«اختبارات عديدة مثل تداعي المعاني⁽²⁾، بالإضافة إلى ألعاب غريبة مع دمي بالحجم الطبيعي، أمسكوا بي مع فتاتين

(1) التشي كونج (تعني حرفيًا طاقة الحياة): رياضة تقوم على نظام شامل لتسيق الجسم بالحركة والتنفس والتأمل كوسيلة فعالة للحفاظ على الصحة أو الروحانيات أو التدريب على فنون القتال.

(2) اختبار تداعي المعاني: وفي هذا الاختبار الإسقاطي يطلب من الخاضع للاختبار الإجابة عن كل كلمة تذكر أمامه بكلمة مرادفة أو مقترنة بدلالاتها.

فرنسيتين صغيرتين ونحن نحاول الهروب من المعهد. كنا جوعاً في ذلك المعهد، نتناول أطعمة ماكروبيوتيك⁽¹⁾، وكل ما كنا نريده هو الذهاب إلى متجر البقالة لشراء بعض الشوكولاتة، لكنهم اعتبروا أن بيننا شيء جنسي بطريقة ما، لم يمنعوا هذه الأمور، ولكنهم أرادوا مني الاعتراف لهم، وكنت جاهلاً جداً بمثل هذه الأشياء فلم أستطع تلبية رغبتهم.

كانت الفتاتان تعرفان أكثر عن هذه الأمور، وقد اختلقتا قصة فرنسية جامحة ذات تفاصيل جنسية لإرضاء الطبيب النفسي، لا يمكنك أن تتخيل كم اعتقدوا أنني مريض نفسي وأعاني الكبت لإنكاري قصتهما الملفقة. على الرغم من أنني كنت سأخبرهم بأي شيء إذا اعتقدت أنهم سيرسلونني إلى المنزل».

ضحك بكآبة وأكمل: «يا إلهي، أتذكر أن رئيس المعهد سألني ذات مرة عن أكثر شخصية خيالية تشبهني، فقلت ديفي بلفور من رواية المخطوف⁽²⁾».

في هذه اللحظة انعطفت بالسيارة عند زاوية الشارع، وفجأة تحت ضوء الكشافات الأمامية اعترض حيوان ضخم طريقي، ضغطت على الفرامل بقوة، وتجمدت لحظة، ظللنا نحدق من خلال الزجاج الأمامي إلى عينيْن متوهجتين لنصف دقيقة، ثم في لمح البصر قفز الحيوان مبتعداً.

(1) حمية الماكروبيوتيك: نظام غذائي يعتمد على تناول الأطعمة البسيطة يشدد على تناول الحبوب الكاملة والبقوليات والخضراوات، ويقلل من تناول المنتجات الحيوانية والأطعمة المصنعة.

(2) يجسد ديفي بلفور البطل الشاب في رواية «المخطوف» لروبرت لويس ستيفنسون شوقاً للمغامرة والحرية يتردد صداه مع شوق فرانسيس نفسه إلى حياة خارج عالمه الضيق.

جلسنا صامتين مرتعشين، والسيارة واقفة تمامًا، قال فرانسيس بصوت مرتبك: «ماذا كان ذلك؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

«لا أعرف، ربما غزال».

قال فرانسيس: «لا، لم يكن غزالًا».

«إذن كلب».

«بدا لي كأنه قط تقريبًا».

في الواقع هذا ما بدا لي أيضًا، قلت: «ولكنه كان ضخماً جداً ليكون قطًا».

«ربما كان كوغار».

«لا أعتقد أنها موجودة في هذه المنطقة».

«كانت موجودة في الماضي، وكانوا يطلقون عليها اسم كاتاماونت أي قطط الجبال، مثل شارع كاتاماونت في البلدة».

كان نسيم الليل باردًا. نبح كلب في مكان ما. كانت حركة المرور محدودة على هذا الطريق ليلاً.

أدرت محرك السيارة ثانية وتابعنا طريقنا.

طلب مني فرانسيس ألا أخبر أحداً عن زيارتنا إلى غرفة الطوارئ، لكنني بعد أن أفرطت في الشرب ليلة الأحد في شقة التوأمين، وجدت نفسي أروي القصة لتشارلز في المطبخ بعد العشاء.

كان تشارلز متعاطفًا، وقد تناول بعض المشروبات أيضًا، ولكن بكمية أقل مني بكثير، كان يرتدي سترة قطنية قديمة تتدلى فضفاضة فوق جسمه - فقد خسر بعض الوزن أيضًا - وربطة عنق قديمة ومهترئة من ماركة سولكا.

قال: «فرانسوا المسكين! إنه هش مثل كعكة الفاكهة، هل سيذهب إلى ذاك الطبيب النفسي؟».

«لا أعرف».

هز علبة لآكي سترايك كان هنري قد تركها على المنضدة وأخرج سيجارة، ألقى نظرة حذرة نحو الردهة ليتأكد من خلوها، ثم قال وهو ينقر السيجارة على باطن معصمه: «لو كنت مكانك، لنصحته بألا يخبر هنري بذلك».

انتظرت حتى يسترسل في حديثه. أشعل سيجارته وأطلق سحابة من الدخان.

قال بهدوء: «أعترف أنني كنت أشرب أكثر مما ينبغي مؤخرًا. لكن يا إلهي أنا من تعامل مع الشرطة وليس هو، وأنا من تعامل مع ماريون اللعينة، إنها تتصل بي كل ليلة تقريبًا، دعه يتحدث معها بعض الوقت، ولنر كيف سيشعر. إذا أردت أن أحتمي زجاجة ويسكي كل يوم فهذا شأني، ولا أهتم بما يقوله حيال ذلك. أخبرته أن الأمر ليس من شأنه، وليس من شأنه أيضًا كيف تتعامل أنت مع الأمر».

نظر إليّ بتعبير طفولي فارغ، ثم ضحك: «أوه، ألم تسمع؟ هنري يتدمر منك أيضًا. يقول إنك تشرب كثيرًا وتتجول مخمورًا في وضوح النهار، وإنك تسير في طريق الضياع».

صدمتني تلك الكلمات، لكنه ضحك مرة أخرى على النظرة التي علت وجهي، غير أننا سمعنا في تلك اللحظة وقع أقدام ورنين مكعبات الثلج في كأس المارتيني، ظهر فرانسيس عند الباب، وبدأ يتحدث معنا بود، وبعد دقائق حملنا مشروباتنا وتبعناه إلى غرفة المعيشة.

كانت ليلة دافئة ومريحة مملوءة بالبهجة، المصاييح مضاءة، والكؤوس تتلألأ، والمطر يهطل بغزارة فوق السقف، في الخارج كانت قمم الأشجار تتأرجح وتتمايل مع الريح التي أصدرت صوتاً يشبه صوت فوران ماء مكربن في كأس، كانت النوافذ مفتوحة والنسيم الرطب والبارد يتسلل عبر الستائر، ويجلب معه نكهة منعشة وساحرة.

كان هنري في حالة معنوية ممتازة، جلس مسترخياً على كرسي بذراعين وساقاه ممدودتان أمامه، كان يقظاً ومرتاحاً، ضحكته سريعة وردوده ذكية.

بدت كاميللا فاتنة، كانت ترتدي فستاناً ضيقاً سلموني اللون بلا أكمام يظهر عظام ترقوتها الجميلة والفقرات الناعمة عند قاعدة رقبتها، وكانت ساقاها العاريتان رشيقتين وجميلتين.

أبرز الفستان رشاقة جسدها، ووقفها اللا واعية التي تحمل لمسة ذكورية مميزة، أحببتها وأحببت طريقتها الشهية المتلثمثة عندما ترمش وهي تروي قصصها، وطريقتها الفريدة في حمل سيجارتها بين أصابعها مقضومة الأظافر (كأنها نسخة من أخيها تشارلز).

يبدو أن كاميللا وتشارلز قد تصالحا على الرغم من قلة حديثهما، بدا أن الرابط العميق الذي يجمعهما قد عاد ليصلح ما انكسر. كانا يجلسان بجوار بعضهما، ويتبادلان المشروبات بحركة تحمل معاني خفية بينهما. على الرغم من أنني لم أفهم تماماً تلك الإشارات، فإنني شعرت بأنها علامة على عودة الأمور إلى مجراها الطبيعي، على أي حال بدت كاميللا أنها تحاول مرضاته، ما يدحض فرضية أن تشارلز كان المخطئ.

في وسط الغرفة كانت هناك مرآة قديمة غائمة فوق المدفأة،

في إطار من خشب الورد، عادية في مظهرها، حصلاً عليها من ساحة بيع في المزاد، لكنها كانت أول شيء يراه المرء عندما يخطو داخل الغرفة. كانت المرأة متصدعة بشكل جذاب، تشع كسورها مثل شبكة عنكبوت. كانت قصة تحطمها غريبة؛ ما جعل تشارلز يعيد سردها مرتين. فقد تعثر في أثناء تنظيف المنزل في الربيع بعد أن أصابته نوبة سعال بأسة بسبب الغبار، فسقط من السلم ليقع فوق المرأة التي كان قد انتهى للتو من تلميعها، فهوت على الأرض.

قال هنري: «ما لا أفهمه هو كيف أعدت المرأة وهي متصدعة دون أن يسقط زجاجها».

«كانت معجزة، لا أجرؤ على لمسها الآن، ألا تعتقد أنها تبدو مذهلة وهي مهشمة؟»

بدت بديعة فعلاً؛ لا يمكن إنكار ذلك، فقد تحطم الزجاج الداكن المرقط مثل وتناثر كأن المرء ينظر خلال مشكال، وانقسم انعكاس الغرفة عليها إلى مئات النسخ المتماثلة.

لم أكتشف كيف انكسرت المرأة بالفعل إلا قبل مغادرتي بقليل وبمحض المصادفة. كنت أقف أمام المدفأة، واضعاً يدي على رفها، حين وقعت عيناى على شيء غير متوقع داخل المدفأة المعطلة. كانت مملوءة بقطع الحطب القديمة المغطاة بالغبار، لكن ما لفت انتباهي لم يكن الحطب، بل كان بريقاً فضياً خافتاً، شظايا دقيقة لامعة كالإبر من المرأة المكسورة مختلطة مع قطع زجاجية أكبر، التي كانت بوضوح من كأس زجاجية منتفخة القعر لها إطار ذهبي، نسخة مطابقة للكأس التي كنت أمسكها بيدي.

كانت هذه الكؤوس قديمة وثقيلة يبلغ سمك قاعها بوصة واحدة. وعلى الرغم من ثقلها، بدا جلياً أن أحدهم ألقى هذه الكأس عبر الغرفة بقوة كبيرة كافية لكسرها إلى أجزاء وتحطيم المرأة خلف رأسي.

بعد ليلتين استيقظت على صوت طرق على باب غرفتي. كنت مرتبكاً وسيئ المزاج، أشعلت المصباح ومددت يدي وأنا أرمش لألتقط ساعتني، كانت الساعة الثالثة صباحاً. قلت: «من الطارق؟»

جاءني الرد غير المتوقع: «هنري».

سمحت له بالدخول على مضض، لم يجلس بل بادرني قائلاً: «اسمع، آسف لإيقاظك، لكن الأمر مهم جداً. أحتاج منك إلى خدمة».

أثارت لهجته السريعة والعملية حفيظتي، فجلست على حافة سريري.

«هل تستمع إليّ؟»

سألته: «ما الذي تريده؟».

«منذ خمس عشرة دقيقة تلقيت مكالمة من الشرطة، تشارلز محبوس بسبب القيادة تحت تأثير الكحول، أريدك أن تذهب وتُخرجه من السجن».

شعرت بوخز يسري على امتداد مؤخرة رقبتني، قلت: «ماذا؟».

«كان يقود سيارتي، لقد حصلوا على اسمي من رقم اللوحة المعدنية للسيارة، ليس لديّ أي فكرة عن حالته».

مد يده إلى جيبه، وسلمني مظروفاً غير مغلق، وقال: «أتوقع أن إخراجته سيكون مكلفاً، لا أعرف المبلغ بالضبط». فتحت المظروف فوجدت فيه شيكاً فارغاً موقعاً من هنري ومبلغاً نقدياً قدره عشرون دولاراً.

قال هنري: «لقد أخبرت الشرطة أنني أعرضه السيارة، وإذا سئلت عن أي تفاصيل أخرى، قل لهم أن يتصلوا بي». كان يقف عند النافذة، ينظر إلى الخارج، أضاف: «سأتصل بالمحامي في الصباح. كل ما أحتاج إليه منك هو إخراجته في أقرب وقت ممكن».

استغرق مني الأمر بضع لحظات حتى استوعبت ما قاله.

قلت أخيراً: «ماذا عن المال؟»

«ادفع لهم مهما كلف الأمر».

«أعني هذه العشرين دولاراً».

قال: «خذ سيارة أجرة، لقد استقلت واحداً لآتي إلى هنا. إنه في الخارج».

ساد الصمت بعض الوقت، لم أكن قد استيقظت تماماً بعد، كنت جالساً هناك بملابس النوم أفكر في الوضع. وبينما بدأت أرتدي ملابسني ظل هنري واقفاً أمام النافذة ينظر إلى الممرج المظلم، يدها متشابكتان خلف ظهره، هادئاً وشارداً في أفكاره، غير مبالي بالضوضاء التي أحدثتها بشماعات الملابس وعبثي الأخرق وحركاتي تحت تأثير النعاس في درج خزانتي.

لم أدرك حجم الموقف الذي كنت فيه إلا بعد أن أوصلته إلى منزله، وانطلقت سيارة الأجرة متجهة نحو مركز البلدة المظلمة.

لم يخبرني هنري بأي شيء، هل وقع حادث؟ وإن كان ذلك ما حدث فهل أصيب أحد؟ والأهم، إن كانت المسألة بهذه الخطورة، والسيارة في النهاية هي له، فلماذا لم يأت بنفسه؟

تأرجحت إشارة مرور يتيمة معلقة بسلك عند التقاطع الفارغ. كان سجن بلدة هامبدن يقع في مبنى ملحق بالمحكمة. كان المبنى الوحيد في الساحة المضاء أنواره في هذا الوقت المتأخر، طلبت من سائق سيارة الأجرة أن ينتظر، ثم دخلت. في الداخل وجدت شرطيَّين جالسين في غرفة كبيرة جيدة الإضاءة، رأيت فيها خزائن ملفات ومكاتب معدنية خلف حواجز ومبرد مياه قديم وآلة لبيع العلكة كتب عليها شعار: «فكّك قد تغير الأمور».

تعرفت على أحد الشرطيَّين، رجل ذو شارب أحمر كان ضمن فريق البحث عن باني. كانا يتناولان الدجاج المقلي الذي يُباع في المتاجر، ويشاهدان برنامج «سالي جيسي رافائيل⁽¹⁾» على تلفاز أبيض وأسود.

قلت: «مرحباً».

نظرا إليّ.

«جئت لأستفسر عن كيفية إخراج صديقي من السجن».

مسح صاحب الشارب الأحمر فمه بمنديل ورقي.

كان ضخماً بشوش الوجه، ويبدو في الثلاثينيات من عمره،

قال: «أفترض أنك تتحدث عن تشارلز ماكولاي؟»

(1) مقدمة برنامج حوارى وممثلة أمريكية، اشتهرت بتقديم برنامج حمل اسم «سالي».

قال ذلك كأنه يتحدث عن صديق قديم، وربما كان كذلك، فلطالما قضى تشارلز وقتاً هنا عندما كان يتورط في المشكلات مع باني، أخبرني تشارلز من قبل أن رجال الشرطة كانوا يعاملونه بلطف حتى أنهم كانوا يقدمون له السندويشات ويشتررون له الكولا. قال الشرطي الآخر الذي كان ضخماً أيضاً ومسترخياً، يبدو في الأربعينيات من عمره، وله شعر رمادي وفم يشبه الضفدع: «أنت لست الشخص الذي تحدث معنا عبر الهاتف، هل هذه سيارتك في الخارج؟».

شرحت لهما الموقف. استمرا في تناول طعامهما وهما يستمعان؛ رجلان ضخمان، ودودان، يتدلى على فخذ كل منهما مسدس ضخمة من عيار 385. وكانت الجدران خلفهما مغطاة بملصقات حكومية عن مكافحة العيوب الخلقية، وتوظيف المحاربين القدامى، والإبلاغ عن الاحتيال بالبريد.

قال الشرطي ذو الشارب الأحمر: «حسناً، كما تعلم، لا يمكننا تسليم السيارة لك. يجب أن يأتي السيد وينتر نفسه لاستلامها». قلت: «لا يهمني أمر السيارة، أريد فقط إخراج صديقي من السجن».

نظر الشرطي الآخر إلى ساعته وقال: «حسناً، عد بعد ست ساعات تقريباً».

تساءلت إن كان يمزح، قلت: «لماذا؟ معي المال!» أجاب: «لا يمكننا تحديد مبلغ الكفالة، فالقاضي هو من يحددها بعد عرضه على المحكمة وإبلاغه بالتهمة الموجهة إليه في الساعة التاسعة صباحاً».

عرضه على المحكمة! خفق قلبي بقوة. ماذا يجري هنا بحق الجحيم؟

كان رجلا الشرطة ينظران إليّ بلطف كأنهما يقولان: «هل هذا كل شيء؟»

«هل يمكنكما إخباري بما حدث؟»

«ماذا؟».

بدا صوتي جافاً وغريباً حتى بالنسبة إليّ: «ماذا ارتكب بالضبط؟»

قال الرجل رمادي الشعر كأنه يقرأ ذلك من ورقة: «أوقفه شرطي في دورية الولاية في طريق ديب كيل، من الواضح أنه كان ثملاً، وافق على الخضوع لجهاز قياس نسبة الكحول بالدم، ولكنه فشل في استخدامه عندما أعطاه إياه، أحضره الشرطي إلى هنا ووضعناه في الزنزانة، كان ذلك في الساعة الثانية صباحاً وخمسة وعشرين دقيقة».

لم تتضح لي الأمور بعد، لكن طوال حياتي لم أتمكن من التفكير في الأسئلة الصحيحة التي يجب طرحها، وأخيراً قلت: «هل أستطيع رؤيته؟»

رد الشرطي ذو الشارب الأحمر مبتسماً: «إنه بخير يا بني، يمكنك رؤيته في الصباح».

مع تلك الابتسامات الودية والمعاملة اللطيفة، لم يكن هناك شيء آخر لأقوله.

شكرتهما وغادرت.

عندما خرجت إلى الشارع، كانت سيارة الأجرة قد اختفت. بقي معي خمسة عشر دولارًا من العشرين التي تركها لي هنري، لكن لكي أستدعي سيارة أجرة أخرى كان علي العودة إلى داخل السجن، وهو ما لم أرغب في فعله، فقررت السير على طول الشارع الرئيسي متجهًا إلى الطرف الجنوبي، حيث كان هناك هاتف عمومي أمام مطعم صغير، وعندما وصلت وجدته معطلًا. كنت في حالة أقرب إلى الحلم منهكًا من شدة التعب، عدت أدراجي نحو الساحة مارًا بمكتب البريد ومتجر الأجهزة الإلكترونية ودار السينما المغلقة، مشيت على الأرصفة المتشققة ومررت بمنازل نوافذها متصدعة متأملًا النجوم التي تزين سماء الليل، كانت القطط البرية تجوب أسطح المكتبة العامة، واصلت السير طويلًا حتى أصبحت المتاجر متناثرة، وبات الطريق غارقًا في الظلام، سرت على جانب الطريق السريع الذي كان ينبض بالصخب حتى وصلت إلى موقف حافلات «جريهاوند» الذي بدا موحشًا تحت ضوء القمر. كان المنظر يشبه أول مشهد رأيته عند وصولي إلى هامبدن، شعرت أنه مر على ذلك زمن طويل، كان الموقف مغلقًا فجلست في الخارج على مقعد خشبي تحت مصباح كهربائي أصفر منتظرًا فتحه حتى أتمكن من الدخول واستخدام الهاتف وشراء فنجان من القهوة.

عندما وصل الموظف -رجل سمين بعينين هامدتين- وفتح المكان في السادسة صباحًا، كنا الشخصين الوحيدين هناك. دخلت إلى حمام الرجال، وغسلت وجهي، واشترت منه فنجانين من القهوة، باعني إياها على مضض من قدر يغلي خلف منضدة الحساب.

بزغت الشمس، كان من الصعب الرؤية من النوافذ الملطخة بالأوساخ. غطت الجدران جداول زمنية قديمة، وكان هناك أعقاب سجائر وعلكة عالقة في مشمع الأرضية، وأبواب مقصورة الهاتف مغطاة ببصمات الأصابع، أغلقت أحدها خلفي واتصلت برقم هنري متوقعاً ألا يجيب، لكن لدهشتي رد في الرنة الثانية.

قال: «أين أنت؟ ماذا حدث؟»

شرحت له ما جرى، وتلا ذلك صمت طويل على الطرف الآخر، ثم سأل: «هل كان في الزنزانة بمفرده؟». أجبت: «لا أعرف».

«هل كان واعياً؟ هل بوسعه أن يتحدث؟»

«لا أعرف».

صمت طويل آخر.

قلت: «سيمثل أمام القاضي في التاسعة، لماذا لا تقابلني في المحكمة؟»

صمت هنري قليلاً، ثم قال: «من الأفضل أن تتولى الأمر بنفسك، هناك اعتبارات أخرى يجب أخذها في الحسبان». شعرت بالغضب وقلت: «إذا كانت هناك اعتبارات أخرى، فساكون ممتناً لمعرفتها».

رد بسرعة: «لا تغضب. لقد تعاملت مع الشرطة كثيراً مؤخراً، وهم يعرفونني جيداً، كما يعرفون تشارلز. بالإضافة إلى ذلك...»، صمت قليلاً ثم قال: «أخشى أنني آخر شخص يرغب تشارلز في رؤيته».

«لماذا؟»

«لأننا تشاجرنا الليلة الماضية، إنها قصة طويلة»، استمر في الكلام فيما كنت أحاول مقاطعته: «كان مساءً جدًا عندما قابلته آخر مرة، أعتقد أنك الشخص الذي يحظى بأفضل علاقة معه من بيننا في الوقت الحالي».

قلت بنبرة ساخرة: «حقًا؟» على الرغم من أنني بدأت ألين في نفسي.

قال: «تشارلز يقدرك كثيرًا، هل تعلم ذلك؟ بالإضافة إلى أن الشرطة لا تعرف من تكون، لذلك لا أظن أن الأمر سيؤثر فيك فيما يتعلق بالقضية الأخرى المرتبطة بباني».

«لا أرى أن هذا مهم في هذه المرحلة».

«لكنه مهم، أكثر مما تتصور».

ساد صمت آخر، شعرت فيه بالعجز عن الوصول إلى الحقيقة مع هنري، كان مثل خبير في التلاعب بالمعلومات، يكشف ما يريد فقط عندما يناسبه. قلت: «بمّ تحاول أن تخبرني؟».

«لا أرى أن الأمر مهم في هذه المرحلة».

«أخشى أن الأمر مهم. أكثر مما تتصور».

«ليس الآن الوقت المناسب لمناقشة ذلك».

«إذا كنت تريد مني أن أذهب إلى هناك، فمن الأفضل أن تخبرني ما الذي تحدث عنه».

رد بصوت بعيد ومتقطع: «دعنا نقول إن الأمور أكثر تعقيدًا مما تدرك، لقد مر تشارلز بوقت عصيب، إنه ليس خطأ أحد، لكنه تحمل عبئًا كبيرًا».

ساد الصمت مرة أخرى.

«أنا لا أطلب الكثير منك».

كل ما تطلبه مني أن أفعل ما تريد دون أن أسأل، هكذا فكرت وأنا أغلق الهاتف.

تقع قاعة المحكمة في نهاية الممر المؤدي إلى الزنانات، ويفصلها عنها بابان متأجرحان يعلوهما نوافذ صغيرة، صُممت في حلبة الخمسينيات مثل بقية مبنى المحكمة، أرضيتها من البلاط المغطى بمشعّم مهترئ بالتناوب مع ألواح خشبية مصفرة ولزجة المظهر ومطلية بورنيش بلون العسل.

لم أكن أتوقع أن أجد كثيرًا من الحضور في القاعة. رأيت طاولتين أمام منصة القاضي؛ الأولى يجلس إليها ضابطان من الولاية، والأخرى جلس إليها ثلاثة أو أربعة رجال وكاتبة المحكمة مع آلتها الكاتبة الصغيرة المضحكة، وفي منطقة المتفرجين جلس ثلاثة رجال آخرين متباعدين عن بعضهم، إضافة إلى سيدة مسكينة مرهقة ترتدي معطفًا واقياً من المطر بلون بني، تبدو كأنها تعرضت لضرب مبرح بشكل متكرر.

عندما دخل القاضي نهض الجميع. نادوا على قضية تشارلز أولاً.

دخل تشارلز بخطوات بطيئة، كأنه يسير وهو نائم، وقدماه تغطيهما الجوارب، يتبعه أحد ضباط المحكمة. كان وجهه شاحبًا وذهنه شاردًا كأنه فقد الوعي بما حوله، كان قد جُرد من حزامه وربطة عنقه وحذائه، وبدا لوهلة كأنه يرتدي بيجامته.

أمعن القاضي في النظر إليه . كان القاضي في الستين من عمره تقريباً، ذا وجه صارم، وفم رفيع، ولغد مترهل يشبه في شكله كلاب الصيد البوليسية.

سأل القاضي بنبرة تحمل لهجة فيرمونت المميزة: «هل لديك محام؟».

أجاب تشارلز: «لا يا سيدي».

«هل أحد من أفراد العائلة حاضر؟ زوجة أو والد؟».

«لا يا سيدي».

«هل تستطيع دفع الكفالة؟».

رد تشارلز بتوتر: «لا يا سيدي» كان يبدو متصبباً بالعرق ومرتبكاً .

وقفت في مكاني، لم يرني تشارلز، لكن القاضي نظر إليّ وقال: «هل حضرت لدفع الكفالة عن السيد ماكولاي؟» أجبت: «نعم».

استدار تشارلز ببطء وحدث إليّ بشفتين مفتوحتين، وجهه هادئ وخال من التعبير كطفل صغير.

قال القاضي بصوت رتيب مشوب بالضجر: «الكفالة خمسمئة دولار، يمكنك دفعها عند النافذة الموجودة في آخر القاعة إلى يسارك». ثم التفت إلى تشارلز قائلاً: «سيكون عليك المثل أمام المحكمة مجدداً خلال أسبوعين، وأقترح عليك إحضار محام. هل لديك وظيفة تحتاج إلى سيارتك من أجلها؟»

تدخل أحد الرجال الجالسين على الطاولة في مقدمة القاعة:
«السيارة ليست ملكه يا حضرة القاضي».

حقوق القاضي إلى تشارلز بشراصة وقال: «هل هذا صحيح؟»
«اتصلنا بالمالك ويدعى هنري وينتر، هو طالب في نفس
الجامعة التي يدرس فيها السيد ماکولاي، ويقول إنه أعار السيارة
لتشارلز من أجل الأمسية».

تنهد القاضي بعمق، ثم قال بفضاضة: «رخصتك معلقة حتى
صدور قرار المحكمة النهائي، وأحضر السيد وينتر معك في
الثامن والعشرين من الشهر».

كانت الإجراءات أسرع مما توقعت، وخرجنا من قاعة المحكمة
في التاسعة وعشر دقائق.

كان الجو باردًا ورطبًا بشكل غير معتاد بالنسبة إلى شهر
مايو، والطيور تصدح فوق قمم الأشجار السوداء، وأنا أترنح من
شدة التعب.

أحاط تشارلز جسده بذراعيه، وقال: «يا إلهي، الجو بارد».
عبرنا الشوارع الفارغة مارين بالساحة، حيث كانوا يرفعون
مصاريع البنك، قلت: «انتظرنى هنا حتى أذهب وأطلب سيارة
أجرة».

أمسك بذراعي. كان لا يزال مخمورًا، ألحقت ليلته التي قضاهما
في الشرب ضررًا بملابسه أكثر من أي شيء آخر، كان وجهه
منتعشًا ومتوردًا كوجه طفل.

قال: «ريتشارد».

«ماذا؟».

«ألست صديقي؟».

لم أكن في حالة مزاجية تسمح لي بالوقوف على درجات المحكمة للاستماع إلى مثل هذه العبارات، قلت بسرعة: «بالتأكيد»، وحاولت تحرير ذراعي من قبضته.

لكنه أمسك بي بقوة أكبر وقال: «أعلم أنك صديقي، أشكرك جداً على قدومك، أريد منك خدمة صغيرة فقط».

«ما هي؟»

«لا تقلني إلى المنزل».

«ماذا تقصد؟»

«خذني إلى الريف، إلى منزل فرانسيس هناك، المفتاح ليس معي، ولكن السيدة هاتش يمكنها أن تسمح لي بالدخول أو يمكننا كسر النافذة والدخول منها... لا، استمع... استمع إلى ما سأقول... يمكننا الدخول عبر القبو، لقد فعلت ذلك ملايين المرات. انتظر»، قال وأنا أحاول المقاطعة مرة أخرى: «يمكنك أن تأتي أيضاً. يمكننا الذهاب إلى سكن الجامعة وأخذ بعض الملابس...».

قلت للمرة الثالثة: «مهلاً، لا أستطيع أن آخذك إلى أي مكان، ليس معي سيارة».

تغير تعبير وجهه فجأة وترك ذراعي، وقال بمرارة: «أوه، صحيح. شكراً جزيلاً».

«استمع إليّ... لا أستطيع، ليس لدي سيارة، لقد جئت إلى هنا في سيارة أجرة».

«يمكننا الذهاب بسيارة هنري».

«لا، لا نستطيع. أخذت الشرطة المفاتيح».

كانت يدها ترتعشان، مررهما خلال شعره الأشعث.

«إذن تعال معي إلى المنزل، لا أريد العودة وحدي».

قلت: «حسنًا». كنت متعبًا جدًا وبدأت رؤيتي تتشوش.

أضفت: «حسنًا، انتظر هنا فحسب، سأستدعي سيارة أجرة».

لكنه تراجع وقال: «لا، لا أريد ركوب سيارة أجرة، لا أشعر

بأنني على ما يرام، أفضل المشي».

لم تكن المسافة من قاعة المحكمة إلى شقة تشارلز في

نورث هامبدن قصيرة، كانت ثلاثة أميال على الأقل، يقع جزء

كبير منها على امتداد الطريق السريع.

كانت السيارات تتجاوزنا مخلقة وراءها سحابة من دخان

العوادم، كنت مستنزفًا تمامًا، رأسي ينبض بالألم، وقدماي ثقيلتان

كالرصاص، ومع ذلك كان هواء الصباح منعشًا وباردًا، وبدا أنه

ساعد تشارلز في استعادة وعيه.

في منتصف الطريق تقريبًا توقف عند واجهة متجر «تيستي

فريز» على جانب الطريق، عبر الطريق السريع مقابل مستشفى

المحاربين القدامى ليشتري صودا آيس كريم.

كنا نسير فوق الحصى المتناثر على الطريق، فيما كان تشارلز

يدخن سيجارة ويحتسي الصودا من خلال قسبة مخططة

بالأحمر والأبيض.

كان الذباب الأسود يطنّ حول آذاننا بلا هوادة.

قلت لأكسر الصمت: «إذن تشاجرت مع هنري؟»

«من أخبرك؟ هو؟».

«نعم».

«لا أذكر التفاصيل الآن، لا يهم... سئمت من إملائه عليّ ما

يجب فعله».

قلت: «أتعرف ما أتساءل عنه؟».

«ماذا؟».

«ليس لماذا يخبرنا بما يجب أن نفعله، ولكن لماذا نمثل

ونفعل دائماً ما يقول».

قال تشارلز: «لا أفهم ذلك أيضاً، مع أنه لم ينلنا خير من

اتباع أوامر».

«أوه، لا أعرف بخصوص هذا».

«هل تمزح؟ فكرة ممارسة طقس باخوس اللعين في المقام

الأول، من فُكر في ذلك؟ من صاحب فكرة اصطحاب باني إلى

إيطاليا؟ من بحق الجحيم كتب تلك المذكرات وتركها ملقاة أمام

أعين الجميع؟ ابن العاهرة هنري. ألومه على كل ما حدث.

أضف إلى ذلك، ليس لديك أي فكرة عن مدى قريهم من

اكتشاف أمرنا».

سألت في دهشة: «من تقصد؟ الشرطة؟»

«الرجلان من مكتب التحقيقات الفيدرالي، كانت هناك أشياء

كثيرة حدثت قرب نهاية التحقيقات لم نخبركم بها، طلب مني

هنري التعهد بعدم إخباركم».

«لماذا؟ ماذا حدث؟»

ألقى سيجارته بعيداً، وقال: «حسناً، كانا متحيرين بخصوص قضية باني. ظننا أن كلوك كان متورطاً، وافترضنا احتمالات كثيرة، هذا غريب... نحن معتادون على هنري لكننا أحياناً لا ندرك كيف يبدو للآخرين».

«ماذا تقصد؟»

قال: «أوه، لا أعرف. يمكنني أن أعدد أمثلة لا حصر لها».

ضحك بفتور وقال: «هل تذكر عندما كان هنري متحمساً لاستئجار منزل مزرعة في الصيف الماضي؟ قدت معه السيارة إلى مكتب عقارات في شمال الولاية، كان يفكر في منزل بعينه؛ منزل كبير قديم من القرن الثامن عشر على طريق ترابية مع أراضٍ شاسعة ومساكن للخدم. تحدث مع سمسارة العقارات مدة ساعتين، ثم اتصلت بمديرها الذي جاء وطرح مليون سؤال واتصل بمراجعيه القانونيين. وبعد كل ذلك لم يوافقوا على تأجير المنزل».

سأله باستغراب: «لماذا؟».

ضحك وقال: «يبدو هنري مثاليًا بطريقة تجعله مشتبهًا فيه، أليس كذلك؟ لم يصدقوا أن شاباً جامعياً في مثل عمره سيدفع مبلغاً ضخماً ليعيش وحيداً في مكان كبير ومعزول ويدرس الثقافات الاثنتي عشرة العظيمة».

«ماذا؟ هل ظنوا أنه محتال؟»

«ظنوا أنه لم يكن صادقاً تماماً، ويبدو أن رجلي مكتب التحقيقات الفيدرالي شعرا بنفس الشيء، لم يعتقدوا أنه قتل باني، لكنهما كانا على يقين من أنه يعرف شيئاً يخفيه، كان الجميع يعرف أن شجاراً وقع بين هنري وباني في إيطاليا؛ ماريون وكلوك

وحتى جوليان، وعندما سألوني، وقد جراني في الكلام فاعترفت بذلك مع أنني لم أخبر هنري بذلك.

إذا سألتني أعتقد أن ما دار في خلدتهما هو أن باني وهنري استثمرا مبلغًا كبيرًا في تجارة المخدرات الخاصة بكلوك، تلك الرحلة إلى روما كانت خطأ فادحًا، كان بإمكانهما ألا يلفتا النظر إليهما، لكن هنري أنفق ثروة في روما، وبذر المال بجنون، وكانا يعيشان في قصر، بحق الرب!

تذكرهما الناس أينما ذهبنا، أعني... هذه هي شخصية هنري كما تعرف، ولكن عليك أن تفكر في الأمر من وجهة نظرهما، لا شك أن مرض هنري بدا غريبًا ومثيرًا للشك خصوصًا عندما أرسل برقية إلى طبيب في الولايات المتحدة من روما لطلب الديميرول، بالإضافة إلى تذاكر السفر إلى أمريكا الجنوبية التي وضعها على بطاقته الائتمانية، كان ذلك أغبى قرار أخذه على الإطلاق».

قلت مدعورًا: «هل اكتشفا ذلك؟»

«بالطبع، عندما يشتبهون في أن شخصًا يتاجر بالمخدرات، أول ما يتحققون منه هو سجلاته المالية، وبالأخص إذا كان مرتبطًا بأمريكا الجنوبية! لحسن الحظ كان والد هنري يمتلك عقارات هناك، واستطاع هنري أن يخلق قصة معقولة إلى حد ما، على الرغم من أنني لست واثقًا تمامًا بأنهما صدقاه، ولكنهما لم يستطيعا دحض قصته بشكل قاطع».

«لكنني لا أفهم من أين حصلنا على هذه المعلومات عن المخدرات».

«فكر في الأمر من وجهة نظرهما، من ناحية كان هناك كلوك، وهو شخص معروف للشرطة بأنه يتاجر بالمخدرات على نطاق واسع، وربما كان وسيطاً لشخص أكبر. لم يكن هناك رابط واضح بين ذلك وبين باني، لكن في المقابل عرفا أن أقرب أصدقاء باني يمتلك أموالاً طائلة لا يستطيعان معرفة مصدرها. في الأشهر الأخيرة كان باني نفسه ينفق الأموال بإسراف، نعلم نحن أن هنري هو من كان يعطيه إياها، لكن عميلي مكتب التحقيقات الفيدرالي لم يعرفا ذلك. المطاعم الفاخرة، والمتاجر الإيطالية، ثم إن هنري نفسه بدا مريباً، ليس فقط في تصرفاته وسلوكه بل حتى في مظهره. كان أشبه بشخصية من أفلام العصابات كأولئك الرجال الذين يرتدون نظارات أنيقة وأربطة ذراع، مثل الشخص الذي يزور سجلات آل كابوني».

أشعل سيجارة أخرى، وسألني: «هل تتذكر الليلة التي سبقت العثور على جثة باني؟ عندما ذهبنا إلى تلك الحانة البائسة ذات التلفاز وشربنا حتى الثمالة؟».

«أجل».

«كانت تلك إحدى أسوأ الليالي في حياتي، بدا الأمر سيئاً جداً لكلينا، كان هنري على يقين أنه سيُقبض عليه في اليوم التالي».

راعني ما سمعته لدرجة أنني لم أستطع التحدث للحظة.

سألته بصوت مضطرب: «لماذا؟!»

أخذ نفساً عميقاً من سيجارته وقال: «في ذلك اليوم، جاء رجلا مكتب التحقيقات الفيدرالي لزيارته بعد الظهر، ولم يكن

قد مضى وقت طويل على سجن كلوك. أخبرا هنري أن لديهما أسباباً كافية لاعتقال ستة أشخاص على الأقل -بمن فيهم هو- بتهمة التآمر أو حجب الأدلة».

قلت مدهوشاً: «ستة أشخاص؟ بحق الرب! من؟»

«لا أعرف بالتحديد، ربما قالوا ذلك لاختباره، لكن هنري كان قلقاً جداً. حذرني من أنني قد أكون التالي، وربما سيأتيان إلى شقتي، اضطررت إلى مغادرتها، إذ لم أستطع البقاء فيها منتظراً مجيئهما، أجبرني على التعهد بعدم إخباركم بشيء، حتى كاميلاً لم تعرف».

ساد الصمت طويلاً قبل أن أقول: «لكنهم لم يعتقلوك».

ضحك تشارلز، لاحظت أن يديه لا تزالان ترتجفان قليلاً.

قال: «علينا أن نشكر كلية هامبدن العريقة على ذلك، الحقيقة أن الأمور لم تكن متماسكة بشكل كامل، كانت هناك فجوات كبيرة، واكتشف رجلاً التحقيق ذلك عندما تحدثا مع كلوك، ومع ذلك كانا متأكدين أنهما لم يعرفا الحقيقة كاملة، وربما كانا سيستمران في التحقيق لو أن الكلية تعاونت أكثر، ولكن مع العثور على جثة باني، أرادت إدارة الكلية إنهاء الموضوع بأسرع ما يمكن، أساءت قضية باني إلى سمعتها، وانخفضت طلبات الالتحاق بالكلية بنسبة عشرين بالمئة، أما شرطة البلدة التي كانت مسؤولة عن القضية في الأصل فكانت حريصة على تهدئة الأمور والحد من الضجة حول موت باني».

أكمل تشارلز: «كان كلوك في ورطة كبيرة. كانت بعض تفاصيل قضية المخدرات خطيرة جداً، ومن الممكن أن ينتهي به الأمر في

السجن، ولكن في النهاية أُفرج عنه بشرط المراقبة الأكاديمية وخمسين ساعة من خدمة المجتمع، حتى أن مدة احتجازه لم تُسجَل في سجله الجامعي».

استغرقتُ بضع لحظات لأستوعب ما قاله، في حين استمرت السيارات والشاحنات في تجاوزنا بسرعة. بعد وقت قليل ضحك تشارلز مجددًا، وأدخل يديه عميقًا في جيبه، وقال: «إنه غريب حقًا، كنا نظن أننا وضعنا أفضل لاعب في المقدمة، لكن لو تعامل أي منا غير هنري مع الأمر لكان الوضع أفضل بكثير، لو كنت أنت أو فرانسيس أو حتى أختي، لكننا تفادينا نصف هذه المشكلات».

«لا يهم، انتهى الأمر الآن».

«لكن الفضل لا يعود إليه أبدًا، كنت أنا الشخص الذي اضطر إلى تحمل الشرطة، وهو الذي أخذ الفضل، وأنا من اضطر إلى الجلوس لساعات في مركز الشرطة أشرب القهوة وأحاول كسب إعجابهم وإقناعهم بأننا مجرد مجموعة من الشبان العاديين، كانت الحال نفسها مع مكتب التحقيقات الفيدرالي بل أسوأ. أن تكون في الواجهة نيابة عن الآخرين يعني أن تكون دائمًا على أهبة الاستعداد، وأن تعرف كيف تقول الشيء الصحيح، وتحاول رؤية الأمور من منظورهم، ثم تفعل وتقول ما يتوقعه منك هؤلاء الأشخاص أيضًا. لا يمكنك أن تتخلى عن حذرك لحظة، بل يجب أن تبدو مستجيبًا لكلامهم ومنفتحًا ومهتمًا، من دون أن يظهر عليك أي توتر، مع أنني كنت بالكاد أستطيع الإمساك بفنجان القهوة دون خوف من سكبها، تملكني الذعر مرتين لدرجة أنني

شعرت أنني سأفقد الوعي أو أسقط، هل تعرف مدى صعوبة ذلك؟ هل تعتقد أن هنري كان سيحط من قدر نفسه ويفعل شيئاً كهذا؟ بالطبع لا، لم يكن لديّ مشكلة أن أفعل ذلك، لكن هنري لم يعر الأمر أي اهتمام، هؤلاء الناس لم يروا شخصاً مثل هنري من قبل، سأخبرك بنوعية الأمور التي تُقلق هنري؛ هل يحمل الكتاب المناسب، هل سيترك هوميروس انطباعاً أفضل من توما الأكويني، بالنسبة إليهم كان هنري أشبه بكائن من كوكب آخر، لو كان الوحيد الذي تعاملوا معه لكان قادنا جميعاً إلى غرفة الغاز». مرّت شاحنة محملة بالأواح الخشب محدثة ضجيجاً.

قلت أخيراً باضطراب: «يا إلهي، أنا سعيد لأنني لم أعرف هذا في حينه».

هزّ تشارلز كتفيه وقال: «حسناً، معك حق. انتهى كل شيء على ما يرام، لكن لا يروق لي كيف يحاول دائماً أن يتحكم فيّ». مشينا مدة طويلة من دون أن نقول أي شيء.

قال تشارلز: «هل تعرف أين ستقضي الصيف؟»

أجبت: «لم أفكر في الأمر كثيراً»، كنت لا أزال أنتظر رداً على طلب التوظيف الذي قدمته في بروكلين، ولم أسمع أي شيء بعد؛ ما جعلني أعتقد أنهم رفضوا طلبي.

«سأذهب إلى بوسطن، تملك خالة فرانسيس الكبرى شقة في شارع مارلبورو على بُعد بضعة شوارع من الحديقة العامة، ستغادر إلى الريف في الصيف، قال لي فرانسيس إنه إذا أردت البقاء هناك فيمكنني ذلك».

«يبدو ذلك لطيفاً».

«إنه منزل كبير، إذا أردت يمكنك أن تأتي أيضاً».

«ربما».

«ستحب ذلك، سيكون فرانسيس في نيويورك لكنه سينضم

إلينا لاحقاً. هل سبق لك أن ذهبت إلى بوسطن؟»

«لا، لم أفعل».

«سنذهب إلى متحف جاردنر⁽¹⁾ وحانة البيانو في فندق ريتز».

كان يخبرني عن متحف⁽²⁾ في هارفارد، حيث جمعوا مليون

زهرة، كلها مصنوعة من زجاج ملون، عندما فجأة انحرقت

بسرعة مقلقة سيارة فولكس فاجن صفراء من الحارة المقابلة

وتوقفت بجانبنا وسط صرير الفرامل.

كانت تريسي صديقة جوذي بوفي، أنزلت نافذتها وابتسمت

ابتسامة بشوشة قائلة: «مرحباً يا شباب، هل ترغبان في توصيلة؟»

أقلقتنا إلى منزل تشارلز، كانت الساعة العاشرة، لم تكن كاميللا

في المنزل.

عندما خلع تشارلز سترته، سقطت من يده وتكومت على

الأرض.

قال: «يا إلهي».

سألته: «كيف تشعر؟»

«أشعر أنني ثمل».

(1) متحف إيزابيلا ستيوارت جاردنر (كان يُسمى فينواي كورت خلال حياة إيزابيلا ستيوارت جاردنر): متحف يقع في حي فينواي-كنمور في بوسطن. يضم مجموعة فنية ذات أهمية عالمية.

(2) الإشارة هنا إلى متحف الزهور الزجاجية وهو متحف يضم مجموعة من النماذج النباتية الزجاجية الواقعية ضمن متحف هارفارد للتاريخ الطبيعي في كامبريدج.

«هل تريد بعض القهوة؟»

تثائب، ومرر يده في شعره قائلاً: «ستجد القهوة في المطبخ،
هل تمانع لو استحمت؟»
«لا، خذ راحتك».

قال: «سأخرج خلال دقيقة، تلك الزنزانة كانت قذرة، أظن
أنني قد التقطت براغيث منها».
استغرق أكثر من دقيقة، كنت أسمعه يعطس ويفتح الصنابير،
ويدندن بصوت منخفض. ذهبت إلى المطبخ وصببت لنفسني كأساً
من عصير البرتقال، ووضعت شرائح خبز الزبيب في المحمصة.
عثرت على جرة نصف ممتلئة من مسحوق شعير⁽¹⁾ هورليك
وأنا أبحث عن القهوة، كان المصق على الجرة يحدق إلى وجهي
كما لو كان يلومني.

كان باني هو الوحيد منا الذي يشرب مسحوق الشعير.
دفعت الجرة إلى الجزء الخلفي من الخزانة خلف إبريق شراب
القيقب.

كانت القهوة قد أصبحت جاهزة، وكنت أضع دفعة أخرى من
الخبز في المحمصة عندما سمعت صوت المفتاح في القفل، ثم
فتح الباب، أطلت كاميلاً برأسها من باب المطبخ.
قالت: «مرحباً»، كان شعرها أشعث ووجهها شاحباً ويقظاً،
بدت أشبه بفتى صغير.

(1) مسحوق الشعير هو مسحوق مصنوع من خليط من الشعير المملح ودقيق
القمح ومسحوق الحليب كامل الدسم المبخر. يستخدم لإضافة نكهته المميزة إلى
المشروبات والأطعمة الأخرى.

«مرحبًا. هل ترغبين في تناول الفطور؟»

جلست إلى جانبي وسألت: «كيف سار الأمر؟»

أخبرتها بكل شيء، أنصتت باهتمام وهي تأخذ شريحة مثلثة من الخبز المحمص المدهون بالزبدة من طبقي وتناولها.

قالت: «هل هو بخير؟».

لم أكن متأكدًا مما تعنيه بالضبط.

«نعم، على ما يبدو».

ساد صمت طويل، تنأهى إلى سمعنا من بعيد صوت راديو خافت يذيع أغنية إعلانية عن الزبادي بصوت أنثوي مفعم بالحيوية وفي خلفية الأغنية صوت خوار أبقار. أنهت خبزها، ونهضت لتصب لنفسها بعض القهوة.

أصدرت الثلاثة صوتًا خافتًا، شاهدتها وهي تفتش في الخزانة بحثًا عن فنجان.

قلت: «أتعلمين، ربما يجب أن تتخلصي من جرة مسحوق الشعير الموجودة في الخزانة».

مرت لحظة قبل أن تجيب.

قالت: «أعرف. لا يزال هناك وشاح في دولاب الملابس تركه في آخر مرة كان هنا، أصادفه باستمرار، لا يزال يحمل رائحته».

«لماذا لا تتخلصين منه؟».

«ما زلت أمل ألا أضطر إلى ذلك، أتمنى أن يأتي يوم وأفتح الدولاب لأجده قد اختفى من تلقاء نفسه».

في تلك اللحظة سمعت صوت تشارلز وهو يقول: «خُيل لي أنني سمعتك» كان يقف عند مدخل المطبخ منذ لحظة، شعره

مبلل، ويرتدي روب الحمام فقط. في صوته أثر لبلادة السكر التي أعرفها جيداً.

قال: «ظننت أنك كنت في محاضرة».

«محاضرة قصيرة، سمح جوليان لنا بالانصراف مبكراً، كيف تشعر؟»

«أشعر أنني بحالة ممتازة».

خطا إلى داخل المطبخ تاركاً آثار أقدامه الرطبة على الأرضية اللامعة الحمراء، تقدم نحو كاميللا من الخلف ووضع يديه على كتفيها، ثم انحنى ووضع شفثيه بالقرب من مؤخرة رقبته، وقال: «ماذا عن قبلة لأخيك السجين؟»

استدارت كأنها ستلمس بشفتيها خده، لكنه مرر كفه على ظهرها ورفع وجهها وطبع قبلة على فمها، ليست قبلة أخوية على الإطلاق، لم يكن هناك أي لبس في ذلك، كانت قبلة طويلة وبطيئة وجشعة وفوضوية وشهوانية.

سقط رداء حمامه مفتوحاً قليلاً فيما غاصت يده اليسرى من ذقنها إلى رقبته وعظمة ترقوتها وقاعدة حلقها، واندست أطراف أصابعه داخل حافة قميصها الرقيق المنقط مرتعشة فوق الجلد الدافئ هناك.

شعرت بالصدمة!

لم تطرف كاميللا ولم تتحرك كأنها جماد، وعندما اعتدل في وقفته وأخذ نفساً، سحب كرسيتها بسرعة مقربة إياه من المائدة، ومدت يدها إلى وعاء السكر كأن شيئاً لم يحدث. رنت الملعقة في الوعاء. كانت رائحة تشارلز رطبة ومشبعة بالكحول وحلوة

بفعل الزيزفون الذي استخدمه للحلاقة. رفعت كاميلا الفنجان، وأخذت رشفة، وعندها فقط تذكرت: كاميلا لا تحب السكر في قهوتها، وتشربها غير محلاة مع الحليب.

كنت مدهوشاً، شعرت أنني يجب أن أقول شيئاً... أي شيء... ولكني لم أجد ما أقوله.

كسر تشارلز حاجز الصمت أخيراً، قال وهو يعيد ربط عقدة رداء حمامه ويتجه إلى الثلاجة: «إنني أتضور جوعاً».

انفتح باب الثلاجة الأبيض بصوت أشبه بالنباح، انحنى لينظر داخلها، ووجهه يشع في الضوء الجليدي.

قال: «أعتقد أنني سأعد بعض البيض المخفوق، هل يريد أحدكما بعضاً منه؟»

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، بعد أن عدت إلى المنزل واستحمت وأخذت قيلولة، ذهبت لزيارة فرانسيس. قال وهو يلوح لي بيده بحماس: «ادخل، ادخل»، كانت كتبه اليونانية المفتوحة تنتشر فوق المكتب، وهناك سيجارة محترقة في منفضة السجائر الممتلئة.

«ما الذي حدث الليلة الماضية؟ هل قبضوا على تشارلز؟ لم يخبرني هنري بأي شيء، أخبرتي كاميلا بجزء من القصة، لكنها لا تعرف التفاصيل. اجلس! هل ترغب في مشروب؟ ماذا يمكنني أن أحضر لك؟».

كان من الممتع دائماً رواية قصة لفرانسيس، تابع باهتمام منحنياً إلى الأمام، وتفاعل مع كل كلمة، وعندما انتهت من رواية

الأحداث أغرقني بالأسئلة. عادة كنت أستمتع باهتمامه وأطيل في أمد الحكاية، لكن هذه المرة قلت بعد أول توقف: «الآن، أريد أن أسألك شيئاً».

كان يشعل سيجارة جديدة، فأغلق الولاة وأخضض حاجبيه إلى الأسفل: «ما هو؟»

على الرغم من أنني فكرت كثيراً في كيفية طرح السؤال، وجدت أن الأسلوب الصريح هو الأنسب.

قلت: «هل تعتقد أن بين تشارلز وكاميل علاقة حميمة؟»

كان قد استنشق للتو ملء رئته من الدخان، خرج الدخان من أنفه بشكل خاطئ جعله يسعل.

كررت سؤالي: «هل تعتقد ذلك؟»

عندما هدأ، قال: «ما الذي دفعك لتسأل عن هذا الأمر؟»

أخبرته بما رأيته ذلك الصباح، استمع بتركيز وعيناه تدمعان من الدخان.

قال بعد لحظة من التفكير: «ربما كان لا يزال ثملاً، لا تعطي الأمر أهمية كبيرة».

«لكنك لم تجب عن سؤالي».

وضع السيجارة في منفضة السجائر، رمش بعينه قبل أن يرد: «إذا كنت تريد رأيي... نعم. أعتقد أنهما يعلان ذلك أحياناً».

ساد صمت طويل. أغمض فرانسيس عينيه، ثم فركهما.

قال: «أعتقد أن ذلك الأمر لا يحدث إلا نادراً، لكن لا يمكنك الجزم أبداً، كان والدهما يعاملهما بقسوة وعلاقتهم معه متوترة جداً، وهما يعيشان معاً منذ مدة طويلة، ادعى باني أنه دخل عليهما ذات مرة وشاهدتهما في وضع حميمي».

نظرت إليه مصدومًا .

«لقد أخبر هنري بذلك وليس أنا، لا أعرف التفاصيل، ولكن من الواضح أنه كان لديه المفتاح وأنت تتذكر كيف كان يدخل فجأة دون أن يطرق الباب، ألم تلاحظ ذلك عليهما سابقًا؟» أجبته: «لا»، على الرغم من أن الفكرة خطرت ببالي عندما قابلتهما أول مرة، لكنني عزوت ذلك إلى عقلي المنحرف وأفكاري المتقلبة، ظننت ذلك إسقاطًا لرغبتي في كاميلا، وكون تشارلز شقيقها الذي يشبهها كثيرًا. كان التفكير في الأمر يبعث في داخلي مزيجًا من الغبطة والتوتر والمفاجأة المتوقعة، وأحيانًا نوعًا من الإثارة.

نظر إليّ فرانسيس بإمعان كأنه يدرك تمامًا ما كنت أفكر فيه .

أضاف: «علاقتهما معقدة تصل إلى حد التملُّك. كلاهما يغار بشدة على الآخر خاصة تشارلز. لطالما كنت أراه أمرًا طفوليًا وساحرًا يشبه تلك المشاهدات غير الجدية التي تحدث بين الأشقاء، حتى أن جوليان كان يمازحهما بشأنه. لكن ربما الأمور أكثر تعقيدًا، أنا ابن وحيد وكذلك هنري، لا نعرف الكثير عن مثل هذه العلاقات، لطالما تحدثنا عن مدى روعة أن يكون للمرء أخت...».

ضحك قليلًا وأضاف: «يبدو أن الأمر أكثر متعة مما تخيلنا، لا يعني ذلك أنني اعتبره أمرًا فظيئًا من الناحية الأخلاقية، لكنه بالتأكيد ليس نوع العلاقة الطبيعية التي قد يتمنى المرء حدوثها. في الحقيقة الأمر أكثر تعقيدًا وأقبح مما يبدو، في الخريف الماضي عندما كان ذلك المزارع...».

تراجع بظهره إلى الوراء، وجلس يدخن بعض الوقت وعلى وجهه مزيج من الإحباط والغضب الغامضين.
قلت: «إذن، ماذا حدث؟»

رد وهو يهز كتفيه: «بالتحديد؟ لا أستطيع أن أقول لك بالتفصيل، في الحقيقة أنني بالكاد أتذكر ما حدث في تلك الليلة، لكن ذلك لا يعني أن فحوى الأمر لم يكن واضحاً تماماً...». سكت قليلاً، ثم عاد ليهز رأسه كأنه غير رأيه، وأكمل: «أعني بعد تلك الليلة أصبح الأمر جلياً للجميع، ما كنا نشك فيه مسبقاً تأكد، كان تشارلز أسوأ بكثير مما تخيلنا».

حرق بعيداً إلى الأفق قليلاً، ثم هز رأسه ومد يده ليُخرج سيجارة أخرى.

«من الصعب أن أشرح الأمر، لكن إذا أردت أن أكون بسيطاً، فيمكن القول إنهما كانا دائماً متعلقين ببعضهما بشكل غريب، لست متزمتاً ولكن تلك الغيرة التي بينهما أجدها مذهلة. الشيء الوحيد الذي يمكنني قوله عن كاميلّا إنها أكثر عقلانية فيما يتعلق بهذه الأمور، ربما كانت مضطرة إلى ذلك».

«أي نوع من الأمور؟»

«علاقات تشارلز مع الآخرين».

«ماذا تقصد؟»

رفع كأسه وأخذ رشفة كبيرة من مشروبه قبل أن يجيب: «عندما يتعلق الأمر بعلاقات كاميلّا، لا يتصرف تشارلز بالعقلانية ذاتها، غيرته عمياء وسلطته عليها قد تتجاوز حدود الكلام».
قلت: «يروق لك تشارلز كثيراً، أليس كذلك؟».

لم أعرف لماذا قلت ذلك، لم يظهر على فرانسيس أي تأثير، وأجاب ببيروود وهو يمد يده ليلتقط سيجارة أخرى بأصابعه الطويلة الملطخة بالتبغ: «لا أعرف، ربما يروق لي بقدر كافٍ. نحن صديقان قديمان، هذا كل ما في الأمر، لكنني قضيت معه أوقاتاً ممتعة أكثر بكثير مما قضيت مع كاميللا».

كان ذلك ما يمكن أن يسميه باني «طلقة تحذيرية»، فوجئت بذلك إلى درجة أنني لم أتمكن من الرد على الفور.

لم يعترف فرانسيس بذلك، على الرغم من وضوح شعوره بالرضا، استند إلى كرسيه بجانب النافذة، وحواف شعره تتوهج بلون أحمر معدني في وهج الشمس.

قال: «إنه لأمر مؤسف، ولكن هذه هي الحقيقة. لا يهتم أي منهما بأي شخص سوى نفسه، على الرغم من محاولتهما إظهار أنهما يشكلان جبهة موحدة، لكنني لست متأكدًا حتى من مدى اهتمام كل منهما بالآخر».

قال عندما حاولت مقاطعته: «من المؤكد أنهما يستمتعان بشدة باستدراج الآخرين. نعم، كاميللا تستدرجك، لقد رأيتها تفعل ذلك، ونفس الشيء مع هنري، كان مهووسًا بها، وأعتقد أنك تعرف ذلك، بل أظن أنه لا يزال».

ظل صامتًا للحظة، ثم قال: «الجمال ليس سمة شائعة في عائلتنا، كما تعلم، فنحن نشتهر فقط بمفاصل أصابع دقيقة وعظام خد بارزة وأنوف حادة. ربما لهذا السبب أميل إلى ربط الجمال الجسدي بصفات عميقة لا علاقة لها بالجمال، أرى فمًا جميلًا أو عينيْن ساحرتين وأتخيل كل أنواع الروابط

العميقة، ناهيك بالحمقى الذين يتزاحمون حول المرأة ذاتها لأنهم مأخوذون بالعينين نفسيهما».

ثم انحنى ليطفئ سيجارته بقوة وقال: «كاميلا كانت لتتصرف مثل تشارلز لو أتيحت لها الفرصة، لكنه ممتلك جداً، ويتحكم فيها بطريقة خانقة، هل يمكنك أن تتخيل وضعاً أسوأ من ذلك؟ يراقبها كالصقر».

أضاف بسرعة كأنه تذكر مع من يتحدث: «إنه أيضاً فقير جداً، على الرغم من أنني لا أعتقد أن ذلك مهم، لكنه يخجل كثيراً من ذلك. إنه فخور جداً بأصول عائلته، كما تعلم، ويعي تماماً أنه مدمن كحول». مكتبة سُر من قرأ

استطرد قائلاً: «هناك شيء ذو طابع روماني في هذا، كل ذلك الشرف الذي يضعه على أخته. باني، كما تعلم، بالكاد كان ينظر إلى كاميلا، ناهيك بالاقتراب منها. كان يدّعي أنها ليست نوعه المفضل، لكنني أعتقد أن الهولندي القديم داخله كان يدرك أن علاقته مدمرة.

يا إلهي... هل تذكر ذات مرة منذ زمن بعيد، تناولنا العشاء في مطعم صيني سخيف في بنينغتون، كان اسمه باغودا الكركند. لقد أغلق الآن، كان المكان مملوءاً بستاثر من الخرز الأحمر، وفيه ضريح لبودا مع شلال صناعي. شربنا كثيراً من الكوكيتيلات التي تزينها مظلات صغيرة، وكان تشارلز في حالة سكر شديدة، لم يكن خطأه، فقد كنا جميعاً سكارى، والكوكيتيلات دائماً ما تكون قوية جداً في مكان كهذا، لا يمكنك أبداً أن تعرف ما يضعونه فيها، أليس كذلك؟

في الخارج كان هناك جسر للمشاة يؤدي إلى ساحة انتظار السيارات، يمر فوق خندق مائي يسبح فيه بط وأسماك ذهبية، انفصلت أنا وكاميلاً عن المجموعة، وانتظرنا على الجسر، فجأة ظهرت إحدى العرافات لتقرأ طالعنا، كان طالع كاميلاً يقول: «توقعي قبلة من رجل أحلامك في أي لحظة».

كان الأمر مغرياً جداً لدرجة أنه لا يمكن تفويته، كنا مخمورين وتمادينا قليلاً، وفجأة ظهر تشارلز من العدم، أمسك بي من مؤخرة رقبتني، ظننت للحظة أنه سيرميني من فوق الجسر، كان باني هناك فسحبه بعيداً، حاول تشارلز التظاهر بأنه يمزح لكنه لم يكن كذلك، لقد أذاني فعلياً ولوى ذراعي خلف ظهري بطريقة كادت تخلعها، لا أعرف أين كان هنري حينها، ربما كان يحدق إلى القمر ويتلو قصيدة من عهد سلالة تانغ».

أنساني هذا الأمر ما حدث قبلها، ولكن ذكر هنري أعاد إلى ذهني ما قاله لي تشارلز صباحاً عن مكتب التحقيقات الفيدرالي، بالإضافة إلى أمر آخر له علاقة بهنري أيضاً، تساءلت إن كان هذا هو الوقت المناسب لطرحهما عندما قطع فرانسيس أفكاره فجأة بلهجة توحى أن أخباراً سيئة ستتبع ذلك: «هل تعلم، زرت الطبيب اليوم».

انتظرت أن يستطرد، لكنه لم يفعل.

فقلت أخيراً: «ولماذا ذهبت إليه؟»

أجاب: «الأعراض نفسها: دوار وألم في الصدر، أستيقظ ليلاً عاجزاً عن التنفس. ذهبت الأسبوع الماضي إلى المستشفى وأجريت بعض الفحوصات لكنها لم تُظهر شيئاً، أحالوني إلى طبيب أعصاب».

أخذ يتململ في كرسيه بانزعاج، وقال: «لم يجد شيئاً، هؤلاء الأطباء لا يفهمون شيئاً. أعطاني جوليان اسم طبيب في نيويورك، ذاك الذي عالج شاه إسرار من مرض الدم، انتشر الخبر في الصحف كلها حينها. قال جوليان إنه أفضل استشاري تشخيص في البلاد وأحد أعظم الأطباء في العالم، لا مواعيد لعامين، لكن جوليان يعتقد أنه قد يقبل رؤيتي إذا اتصل به».

مد يده ليشعل سيجارة جديدة مع أن سيجارته الأخيرة ما زالت مشتعلة في المنفضة.

فقلت: «بالنظر إلى كمية السجائر التي تدخنها، ليس غريباً أنك تعاني ضيقاً في التنفس».

أجاب بنبرة غاضبة وهو ينقر السيجارة على معصمه: «الأمر لا علاقة له بالتدخين، هذا بالضبط ما يردده الأغبياء في فيرمونت؛ أقلع عن التدخين، قلل من شرب الخمر والقهوة. أمضيت نصف حياتي وأنا أدخن، هل تعتقد أنني لا أعرف تأثيره عليّ؟ هذه الآلام التشنجية المريعة في صدري ليست من السجائر أو الكحول، أضف إلى ذلك لدي أعراض أخرى؛ خفقان القلب، وطنين في أذني».

قلت: «للتدخين تأثيرات غريبة في جسمك، قد لا تدركها كلها».

كثيراً ما كان فرانسيس يسخر مني عندما أستخدم عبارات يُنظر إليها أنها كاليفورنية.

قال بخبث: «غريبة؟ حقاً؟» مقلداً لهجتي القروية الجافة بشكل ساخر. نظرت إليه وهو يجلس مسترخياً في كرسيه مرتدياً ربطة عنق منقطة، وحذاء ضيقاً بالياً، ووجهه النحيل يعكس مكرّاً ثعلبياً. ابتسم ابتسامة أظهرت كثيراً من أسنانه جعلتني أضيق ذرعاً به.

نهضت وأنا أشعر بالاختناق من دخان الغرفة الذي أدمع عيني، وقلت: «حسناً، يجب أن أذهب الآن».

تلاشى تعبيره الخبيث بسرعة وقال بقلق: «هل أنت غاضب؟». أجبته: «لا».

فقال: «بلى، أنت غاضب».

قلت: «لا، لست غاضباً».

أزعجتني محاولاته المفاجئة والمذعورة لمصالحتي أكثر من تعليقاته الساخرة.

قال بتوسل: «أنا آسف، لا تستمع إليّ. أنا مخمور وأشعر بالغثيان، لم أقصد ذلك».

بلا مقدمات، رأيت فرانسيس بعد عشرين عاماً أو حتى خمسين عاماً، مقعداً على كرسي متحرك، وأنا بجانبه أكبر سنّاً أيضاً، نعيد الحديث نفسه للمرة الألف في غرفة مليئة بالدخان. في الماضي كانت فكرة أننا نرتبط بهذا النوع من العلاقة «أصدقاء حتى الموت» تمنحني بعض الراحة بعد وفاة باني، ولكني الآن شعرت بالغثيان عند التفكير فيها مدرّكاً أنه لا يوجد مهرب، أنا عالق معهم إلى الأبد.

كنت أسير عائداً إلى المنزل من شقة فرانسيس منكس الرأس غارقاً في تشابك أسود وغير مفهوم من القلق والكآبة، عندما سمعت صوت جولين ينادي اسمي.

التفتُ، كان قد خرج لتوه من قاعة المحاضرات. وعند رؤيتي وجهه اللطيف المتهف والودود والسعيد جداً لرؤيتي شعرت بشيء ما يعصر قلبي في أعماقي.

نادى مجدداً: «ريتشارد»، كأنه لا يوجد في هذا العالم من يمكن أن يفرحه رؤيته غيري.

«كيف حالك؟».

قلت: «بخير».

قال: «أنا ذاهب إلى نورث هامبدن، هل ترافقني في مشوار قصير؟»

نظرت إلى الوجه البريء والمسرور وفكرت: لو كان يعلم فحسب، ستقتله الحقيقة.

قلت بابتسامة خافتة: «أشكرك على دعوتك، كم كنت أود ذلك، لكن يجب أن أعود إلى المنزل».

تفحصني بنظرة قلقة، جعلني الاهتمام العميق الذي انعكس في عينيه أشعر بالغثيان لشدة ما كنت أكره نفسي في تلك اللحظة.

قال: «قلما أراك هذه الأيام يا ريتشارد، أشعر أنك غدت مجرد ظل في حياتي».

بدا ذلك الحنان والهدوء الروحي الذي كان يشع منه صافياً وصادقاً لدرجة أنني في لحظة من الدهول شعرت أن الظلام الذي كان يخيم على قلبي قد انقشع، فشعرت براحة غامرة لدرجة أن

الدموع كادت تغلبني، لكن عندما نظرت إليه مرة أخرى سرعان ما عاد ذلك العبء الثقيل ليحتم على صدري بقسوة مضاعفة.
«هل أنت متأكد أنك بخير؟»

لا يمكنه أن يعرف أبداً، لا يمكننا أن نقول له أبداً.
«أوه، بالتأكيد أنا كذلك، أنا بخير».

على الرغم من أن الضجة التي أثرت حول باني تلاشت إلى حد كبير، فإن الكلية لم تستعد بعد طبيعتها السابقة تماماً، خاصة مع تلك الروح الجديدة الصارمة التي ذكرتني بمسلسل «الكمين»، والتي عمّت أنحاء الحرم الجامعي كأنها حملة لمكافحة المخدرات، اختفت تلك الليالي التي كان من الطبيعي أن ترى فيها وأنت عائد من مطعم راثسكيلر أستاذاً واقفاً تحت ضوء خافت في قبو منزل دربنستيل، أن ترى مثلاً أرني وينشتاين الاقتصادي الماركسي (بيركلي، 69)، أو ذاك الرجل الإنجليزي المتعب ذي الشعر الأشعث، الذي كان يلقي محاضرات في ستيرن وديفو.

ولت تلك الأيام منذ مدة طويلة، رأيت رجال الأمن المتجهمين وهم يفككون المختبر في القبو، وينقلون صناديق مملوءة بالدوارق الزجاجية والأنابيب النحاسية، في حين وقف رئيس طلاب قسم الكيمياء كال كلاركين الفتى النحيل من أكرون ذو الوجه الممتلئ بالبثور يكي بمرارة مرتدياً حذاءه الرياضي الفاخر ومعطف المختبر. وفي الوقت نفسه أعلن أستاذ الأنثروبولوجيا الذي درّس

مدة عشرين عامًا مادة «أصوات ورؤى: فكر كارلوس كاستانيدا⁽¹⁾» (دورة تتضمن طقوسًا إلزامية لإشعال النار وتدخين الماريجوانا في نهايتها) فجأة أنه سيغادر إلى المكسيك في إجازة تفرغ علمي، اعتاد آرني وينشتاين التردد على حانات البلدة حيث يناقش النظرية الماركسية مع رجال معارضين، فيما عاد الرجل الإنجليزي ذو الشعر الأشعث يركز على اهتمامه الأساسي وهو مطاردة الفتيات الأصغر منه بعشرين عامًا.

في إطار سياسة «التوعية ضد المخدرات» الجديدة، استضافت هامبدن بطولة بين الكليات على هيئة برنامج مسابقات لاختبار معرفة الطلاب بالمخدرات والكحول، أعد الأسئلة المجلس الوطني لإدمان الكحول وتعاطي المخدرات، وقدمت المسابقة شخصية تليفزيونية محلية (ليز أوكافيلو)، وأذيعت مباشرة على القناة 12.

حظيت مسابقات الأسئلة بشعبية كبيرة ولكن ليس بالروح التي كان رعاتها يأملون. شكَّلت هامبدن فريقًا متميزًا كأنه فريق كوماندوز من الهاربين اليائسين الذين ليس لديهم شيء ليخسروه، أثبت هذا الفريق أنه لا يُقهر تقريبًا.

ضمت تشكيلة الفريق «كل النجوم» كلوك رايبورن وبرام غيرنسي وجاك تيتلبوم ولورا ستورا، تحت قيادة الأسطوري كال كلاركن الذي كان يشارك على أمل أن يسمحوا له بالعودة إلى الكلية في

(1) كان كارلوس كاستانيدا (1925-1998) مؤلفًا أمريكيًا حاصلًا على درجة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بدءًا من تعاليم دون جوان في عام 1968، كتب كاستانيدا سلسلة من الكتب التي تصف تدريبه في الشامانية.

الفصل المقبل. أما البقية فقد شاركوا كجزء من ساعات خدمة المجتمع المفروضة عليهم، فيما كان جاك يشارك لمجرد المتعة. كانت خبرتهم المشتركة مذهلة، وتمكنوا من قيادة هامبدن نحو انتصار ساحق على فرق مثل ويليامز وفاسار وسارة لورانس. أجابوا ببراعة وسرعة عن أسئلة مثل: «اذكر خمسة أدوية مُخدّرة من عائلة ثورازين»، أو «ما تأثيرات عقار بي سي بي⁽¹⁾؟»

على الرغم من تراجع تجارة المخدرات في الكلية، فإنني لم أُفاجأ حين اكتشفت أن كلوك لا يزال يمارس نشاطه التجاري، وإن كان بشكل أكثر سرية مما كان عليه في الأيام الخوالي. في إحدى ليالي الخميس قبل الحفلة، ذهبت إلى غرفة جودي لأطلب منها قرصًا من الأسبرين، وبعد استجواب قصير وغامض من خلف الباب المغلق سُمح لي بالدخول، كان كلوك داخل الغرفة مشغولًا بمرآتها وميزان العقاقير الخاص بها، فيما كانت الستائر مسدلة. قال: «مرحبًا»، وأشار لي بالدخول بسرعة قبل أن يغلق الباب خلفي.

«ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك الليلة؟»

قلت: «آه، لا شيء، شكرًا. كنت أبحث عن جودي فحسب، أين هي؟».

قال، وهو يعبر الغرفة عائدًا إلى عمله: «أوه، إنها في متجر

(1) فينسيكليدين، ويعرف اختصارًا بـ PCP: عقار طورته إحدى شركات الأدوية الأمريكية في خمسينيات القرن العشرين، واستخدم مخدرًا في العمليات الجراحية. وقد لوحظ أن الأشخاص بعد العملية الجراحية قد عانوا آثارًا جانبية واضحة، مثل الهلوسة والهلوسات.

الأزياء. ظننت أنها ربما أرسلتك، تعجبنى جودي، لكنها دائماً ما تضخم الأمور، وهذا ليس جيداً إطلاقاً».

وزن حفنة من مسحوق ووضعتها في ورقة مطوية بعناية. «ليس جيداً إطلاقاً».

ارتعشت يدها، كان واضحاً أنه عاد إلى تجارته القديمة بشكل كبير، أكمل: «اضطرت إلى التخلص من ميزاني بعد كل تلك المشكلات اللعينة. ما الذي من المقترض أن أفعله؟ أذهب إلى المستوصف وأستعير منهم ميزاناً؟ لذا لجأت إلى جودي، ولكنها تتسكع طوال اليوم عند الغداء أو في أي وقت تدلك أنفها وتثرثر عن الموضوع. من حسن الحظ أنهم لا يفهمون ما تعنيه، ولكن لا يزال الأمر مزعجاً».

أشار برأسه نحو كتاب ممزق بجواره «تاريخ الفن لجونسون» الذي كان في حالة يرثى لها.

«حتى هذه اللقائف الورقية السخيفة، كانت جودي مصممة على فكرة أنه عليّ صنع لقائف فاخرة، بالله عليك افتحها وستجد داخلها إحدى لوحات تينورتو⁽¹⁾ اللعينة! ثم تغضب مني جودي إذا لم تكن مؤخرة كيوييد في منتصف الرسم تماماً».

أضاف وهو يرفع ناظره إلّي: «كيف حال كاميلا؟»

قلت: «بخير». لم أكن أرغب في التفكير في كاميلا، أو أي شيء يتعلق باليونانية أو فصل اليونانية.

(1) رسامٌ إيطالي معروف، ومن أشدّ مؤيدي عصر النهضة والممّهدين له. جعلت منه قدرته على استخدام المساحات الكبيرة والتأثيرات الضوئية الخاصة أحد أهم أسلاف الفن الباروكي.

سألني كلوك: «كيف وجدت كاميلًا مكانها الجديد؟»
«ماذا؟».

ضحك وقال: «ألا تعرف؟ لقد انتقلت».
«انتقلت؟ إلى أين؟».

«لا أعرف، ربما في نفس الشارع. مررت بمنزل التوأمين - هل تناولني النصل من فضلك؟ - وكان هنري يساعدها في وضع أغراضها في صناديق».

توقف عن عمله على الميزان وبدأ يقسم المخدر إلى خطين باستخدام النصل فوق المرأة، وأكمل: «سيذهب تشارلز إلى بوسطن في الصيف، وستبقى هي هنا. قالت إنها لا تود البقاء في الشقة بمفردها، وأنه من الصعب العثور على شريك للسكن، لذا عليها الانتقال إلى مكان أصغر يمكنها تحمل تكلفته. يبدو أن كثيرًا منا سيبقى هنا هذا الصيف»، قدم لي المرأة وورقة عشرين دولار ملفوفة. «أنا وبرام نبحت عن مكان جديد أيضًا». بعد دقيقة عندما بدأت أشعر بتأثير المخدر المبهج يتسرب إلى أعصابي، قلت: «هذا صنف ممتاز».

«أجل، إنه رائع، أليس كذلك؟ مقارنة بالقذارة التي كانت تشرها لورا، حلل رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي ما كان منتشرًا وقالوا إن 80% منه كان مسحوق طباشير».

مسح أنفه وأكمل: «بالمناسبة، هل تحدث معك مكتب التحقيقات الفيدرالي؟».

«مكتب التحقيقات الفيدرالي؟ لا».

«يدهشني ذلك، بعد كل الهراء المتعلق بـ«قارب النجاة» الذي كانوا يخبرون به الجميع».

«عمّ تتحدث؟»

«كانا يقولان كثيرًا من الأمور الغريبة، أن هناك مؤامرة تحدث، وأنهما يعلمان أن هنري وتشارلز وأنا متورطون فيها، وأن هناك مكانًا واحدًا فقط على قارب النجاة، ومن يتحدث أولاً هو من سيحصل عليه».

استتشق الكوكائين مرة أخرى، وفرك أنفه بمفصل إصبعه. «بطريقة ما ازداد الوضع سوءًا بعد أن أرسل والدي المحامي. بدأ المحققان يسألان: لماذا تحتاج إلى محام إذا كنت بريئًا؟ ويلقيان تلميحات مقززة طوال الوقت، المشكلة أنه حتى المحامي لم يستطع أن يفهم ما الذي يحاولان إجباري على الاعتراف به، ظلا يقولان إن صديقيّ -هنري وتشارلز- وشيا بي، إنهما مذنبان، وإذا لم أبدأ بالحديث، فقد توجه إليّ تهمة على جرم لم أقترفه حتى».

أخذ قلبي يخفق بقوة، وليس بفعل الكوكائين وحده.

«عمّ أرادا منك التحدث؟»

«لا أعرف. قال المحامي إنه لا يوجد ما يدعو للقلق، وأن اتهاماتهما لا أساس لها. تحدثت مع تشارلز وقال إنهما استخدما الأسلوب نفسه معه. وأعني -أعرف أنك تحب هنري- لكن أظن أن هذا الأسلوب أثر فيه كثيرًا».

«كيف ذلك؟»

«حسنًا، أعني أنّ هنري شخص منضبط، وربما لم يتأخر في حياته عن إعادة كتاب استعاره من المكتبة، وفجأة يجد نفسه تحت ضغط من عميلين لمكتب التحقيقات الفيدرالي. لا أعرف

ما الذي قاله لهما، لكن يبدو أنه كان يحاول توجيههما بعيداً عنه».

«في أي اتجاه؟»

«نحوي مثلاً».

سحب سيجارة وأشعلها قبل أن يضيف: «وأكره أن أقول ذلك، لكن أظن أنه وجههما إليك أيضاً».

«أنا؟»

«لم أذكر اسمك قط، فأنا بالكاد أعرفك. لكنهما حصلوا على اسمك من مكان ما، ولم يكن مني».

قلت بعد صمت مذهولاً: «أنت تعني أنهما ذكرا اسمي؟»

«ربما أعطتهم إياه ماريون أو أحد آخر، لا أعرف... الله وحده يعلم، كان لديهما أسماء برام ولورا وحتى جود ماك كينا. وذكر اسمك مرة أو مرتين في نهاية التحقيق، لا تسألني لماذا، لكنني ظننت أن العميلين الفيدراليين قد تحدثا معك».

أعتقد أن ذلك كان في الليلة التي سبقت العثور على جثة باني. كانا قادمين للتحديث مع تشارلز مجدداً، لكن هنري اتصل ليخبره أنهما في طريقهما إليه. كنت حينها أمكث في منزل التوأمين». تنهد وقال: «لم أكن أرغب في رؤيتهما أيضاً، لذا ذهبت إلى منزل برام، وأعتقد أن تشارلز ذهب إلى إحدى الحانات وشرب حتى الثمالة».

كان قلبي يخفق بشدة حتى شعرت أنه سينفجر في صدري مثل بالون أحمر. هل من الممكن أن يكون الخوف قد استبد بهنري، ودفعه لمحاولة توجيه شبهات عملاء مكتب التحقيقات

الفيدرالي نحوي؟ لم يكن ذلك منطقيًا، إذ لا يمكن لهنري -على حد علمي- توريطي دون أن يتورط هو نفسه، ومع ذلك تملكني شعور متزايد بالارتياح (فكرت: هذا محض جنون، عليّ أن أوقف هذا التفكير). ربما لم يكن من قبيل المصادفة أن زارني تشارلز في غرفتي تلك الليلة وهو في طريقه إلى الحانة. هل كان يعلم بكل ما يجري، ربما كان يحاول من دون علم هنري أن يبعدني عن طريق الأذى.

قال كلوك في هذه اللحظة: «يبدو أنك تحتاج إلى مشروب يا رجل».

قلت: «أجل». جلست مدة طويلة دون أن أقول أي شيء. «نعم، أعتقد أنني أحتاج إلى ذلك».

لماذا لا تذهب إلى حانة القروي الليلة؟ الليلة ليلة خميس العطش؛ كأسان بسعر واحدة».

«هل ستذهب؟»

«الجميع ذاهبون. سَحَقًا، لا تخبرني أنك لم تذهب إلى ليلة خميس العطش من قبل؟»

وهكذا ذهبت إلى خميس العطش برفقة كلوك وجودي وبرام وصوفي ديربولد وبعض صديقات صوفي وبضعة أشخاص آخرين لم أعرفهم، وعلى الرغم من أنني لا أعرف متى رجعت إلى المنزل، فإنني لم أستيقظ حتى الساعة السادسة مساء اليوم التالي عندما طرقت صوفي باب غرفتي. شعرت بألم شديد في معدتي وصداع رهيب يثقل رأسي، لكنني ارتديت روبي وفتحت لها الباب. كانت قد انتهت لتوها من درس الخزف، مرتدية قميصًا

وبنطال جينز باهتًا، وأحضرت لي البيجل من مقصف الوجبات الخفيفة.

سألتني قلقة: «هل أنت بخير؟»

أجبت: «نعم»، على الرغم من أنني اضطررت إلى التمسك بالجزء الخلفي من مقعدي حتى أتمكن من الوقوف.
«كنت ثملًا جدًا ليلة أمس».

قلت: «أعرف».

جعلني النهوض من السرير أشعر فجأة بأنني أسوأ بكثير، قفزت بقع حمراء أمام عيني.

«قلقت كثيرًا، فكرت أنه من الأفضل أن أطمئن عليك». ضحكت وأكملت: «لم يرك أحد طوال اليوم. أخبرني أحدهم أن العلم كان منكسًا عند مقصورة الحراسة، فخشيت أن تكون قد توفيت».

جلست على السرير أتتفس بصعوبة محدقًا إليها، فكرت: وجهها مثل جزء من حلم بالكاد أتذكره... مشهد في حانة.

تذكرت مشاهد مبهمة من الليلة الماضية في الحانة؛ كؤوس الويسكي الإيرلندي، ولعبة الكرة والدبابيس مع برام، ووجه صوفي مغمور في الضوء الأزرق الخافت المنبعث من نيون رديء، واستنشاق مزيد من الكوكاكئين مقسمًا إلى سطور بواسطة بطاقة هوية الكلية على علبة قرص كومبيوتر، ثم ركوبنا في مؤخرة شاحنة أحدهم، مع رؤية لافتة «خليج» على الطريق السريع.

وبعدها وجدت نفسي في شقة شخص ما! كانت بقية المساء سوداء كليًا في ذاكرتي. تذكرت بصورة مبهمة محادثة جادة وطويلة مع صوفي وهي واقفة بجوار حوض مملوء بالثلج في

مطبخ أحدهم، فيما كانت عبوات بيرة مايستر براو وجينيزي تملأ المكان، وتقويم لمتحف الفن الحديث معلق على الجدار. شعرت بقلق يعتصرني؛ بالتأكيد، لم أقل شيئاً عن باني... بالطبع، لا. أخذت أفتش ذاكرتي بشراسة، لا يمكن أن أكون قد أفصحت عن أي شيء، وإلا لما كانت صوفي هنا تنتظر إليّ بملامحها الهادئة، وتحضر لي البيجل المحمص في طبق ورقي، أغشتي رائحته (نكهة البصل).

قلت وأنا أنظر إليها: «كيف عدتُ إلى المنزل؟».

«ألا تتذكر؟»

«لا». كان الدم يخفق بقوة مرعبة في صدغي.

«حسنًا، كنت ثملًا جدًا. وطلبنا سيارة أجرة من منزل جاك

تيتلبوم».

«وأين ذهبنا؟».

«إلى هنا؟».

تساءلت في نفسي: هل نمنا معًا؟ كان وجهها خاليًا من أي تعبير يمكن أن يكشف عن الإجابة. وإذا كان هذا ما حدث بالفعل، فلم أكن لأشعر بالندم؛ إذ كانت صوفي جميلة، بل من أجمل الفتيات في هامبدن، وكنت أعرف أنها معجبة بي، ولكن مع ذلك كان النوم مع أحدهن أمرًا يحتاج إلى معرفة واضحة إن كان حدث أم لا، وفيما كنت أفكر في كيفية طرح السؤال بطريقة لبقة، طرق شخص ما الباب، كانت الطرقات مثل طلقات رصاص، فتضاعف الألم في رأسي.

قالت صوفي: «ادخل».

أطل فرانسيس برأسه من وراء الباب.

قال بمرح: «انظروا من هنا؟» بدا سعيداً برؤية صوفي. «إذن، كانت هناك رحلة ولم أدع إليها؟»

وقفت صوفي، وقالت: «فرانسيس! مرحباً! كيف حالك؟»

أجابها: «بخير، لم نتحدث منذ الجنازة».

«أعرف، كنت أفكر فيك قبل بضعة أيام. كيف حالك الآن؟»

تمددت على السرير، فيما كانت معدتي تغلي، كانا يتحدثان بصخب، تمنيت أن يغادرا.

قال فرانسيس بعد فاصل طويل وهو ينظر إليّ من فوق كتف صوفي: «حسناً، حسناً، ما حال مريضنا الصغير؟».

أجابت صوفي: «شرب أكثر من اللزوم».

اقترب مني فرانسيس وبدا مضطرباً بعض الشيء من قرب.

قال بمرح: «أمل أن تكون تعلمت الدرس»، ثم أضاف باليونانية: «أخبار مهمة، يا صديقي».

شعرت بقلبي يفرق، لا بد أنني أخطأت وتحدثت كثيراً، ربما أفصحت عن شيء ما.

سألت بقلق باللغة الإنجليزية: «ماذا فعلت؟»

رد فرانسيس من دون أن يظهر عليه أي استياء: «ليس لديّ أدنى فكرة، هل تود تناول بعض الشاي أو تريد مشروباً آخر؟» حاولت فهم ما كان يقصده، لكن الألم في رأسي كان لا يحتمل لدرجة أنني لم أتمكن من التركيز على أي شيء، تضخم الغثيان في داخلي حتى شعرت بموجة ضخمة خضراء تجتاحني، ارتجفت عند قممتها، ثم تداعيت وتدرجت مرة أخرى وعاددت الهجوم، غمرني اليأس.

فكرت مرتجفاً: كل شيء سيكون على ما يرام لو تمكنت من أن أحظى بلحظات قليلة من الهدوء وإذا استلقيت في سكون تام. أخيراً، قلت بصوت مضطرب: «لا، أرجوك». «أرجوك ماذا؟»

تضخمت الموجة مرة أخرى، انقلبت على بطني وأطلقت أنيناً طويلاً بائساً.

انتبهت صوفي أولاً، فقالت لفرانسيس: «هيا لنذهب، لنتركه يعود إلى النوم».

دخلت في حالة ضبابية مضطربة أقرب إلى الحلم، واستيقظت منها بعد ساعات على طريقة خفيفة على الباب، كانت الغرفة مظلمة.

انسكب شعاع من الضوء قادماً من الممر عندما فتح فرانسيس الباب ودلف إلى الداخل وأغلقه بهدوء خلفه.

أشعل الأباجرة ذات الإضاءة الخافتة على مكتبي، وسحب الكرسي نحو سريري.

قال بلهجة جدية: «آسف على الإزعاج، لكنني مضطر إلى التحدث إليك، حدث أمر غريب جداً».

عاد إليّ الخوف الذي كنت قد نسيتَه يثقل صدري بموجة من التشاؤم والقلق. سألتَه: «ما الأمر؟».

أجاب: «كاميلا انتقلت، غادرت الشقة وأخذت كل أغراضها معها، تشارلز في حالة يرثى لها الآن، فقد شرب كثيراً وكاد يفقد صوابه، يقول إنها تقيم في نزل ألبيمارل، هل تتخيل؟ ألبيمارل؟». فركت عيني محاولاً استيعاب ما قاله، ثم تماكنت نفسي وقلت: «أعلم ذلك».

حديق إالى بدهةة: «كنت تعلم؟ من أأبرك؟»
«أأبرنى كلوك».

«كلوك؟ متى كان هذا؟».

رويت له ما استطعت تذكره من المأأةة، ثم أأتممت كلامى
قائلاً: «نسيت الأمر».

صاح فرانسيس بغضب: «نسيت؟ كيف يمكن أن تتسى شيئاً
كهذا؟».

اعتألت فى أأستى قليلاً، فأأسست بألم أأىأ يأترق
رأسى.

أأبت بانزعاج: «وما الفارق الذى يأأئه ذلك؟ لا ألومها إذا
أرادت المأأرة، يأأاج أأارلز إلى أغير سلوكه، هذا كل شىء».
علق فرانسيس: «لكن أأىمارل؟ هل لأىك أى فكرة عن مأى
أكلفة الإأامة هناك؟»

قلت بأأة: «بالأبع أعرف» كان أأىمارل أفأم فأأ فى
المأىنة، أأىم فىه الرؤساء ونأوم السىنما.

أأأفت: «لكن ما المشكلة فى ذلك؟»

وضع فرانسيس رأسه بىن يأىه، وقال: «ریتشارأ، أنت أأمق!
لا بأ أنك أعانى تلقاً فى الأماغ».
«لا أعرف ما الذى أأأأ عنه».

«مئأ أألار فى اللألة! هل أعتقد أن أأوأىمن أملكأن هذا أأأر
من المال؟ من برأىك أأأع أأمن إأامتها فى الفأأ؟»
أأأقأ إالىه ببلاهة.

قال فرانسيس: «هنري، بالطبع. عندما كان تشارلز في الخارج، جاء هنري ونقلها إلى هناك، وعندما عاد تشارلز وجد أغراضها قد اختفت. هل يمكنك أن تتخيل؟ لا يستطيع حتى الاتصال بها، لأنها مسجلة في الفندق باسم آخر، يرفض هنري إعطاء أي معلومات ليس فقط لتشارلز بل لي أيضًا. تشارلز مستاء جدًا وطلب مني التحدث إلى هنري لمعرفة إن كان سيفصح عن أي شيء، لكنني لم أستطع بالطبع، كان أصمَّ كجدار من الطوب».

«لماذا يبالغان في الأمر؟ ولماذا كل هذا التكتم والغموض؟».

ردّ قائلاً: «لا أدري، لا أعرف ما يدور في خلد كاميلا، لكنني واثق أن هنري يتصرف بحماقة بالغة».

«ربما لديها دوافعها الخاصة».

«كاميلا لا تفكر بهذه الطريقة. أعرف هنري جيدًا، وهذه بالضبط طريقة تصرفه. لكن حتى إن كان هناك سبب وجيه لما يفعله، فإن الطريقة التي اختارها خاطئة تمامًا، خاصة الآن مع تشارلز الذي يكاد يفقد صوابه من الغضب، كان على هنري أن يتصرف بحذر أكثر بعد ما حدث تلك الليلة».

شعرت بعدم الارتياح، وتذكرت حديث تشارلز في الليلة التي عدنا فيها من مركز الشرطة. قلت: «أتعلم، هناك شيء أردت أن أخبرك به» ثم رويت له ما حدث بيني وبين تشارلز وما اعترف به لي.

قال فرانسيس باقتضاب: «نعم، تشارلز غاضب جدًا من هنري. قال لي الشيء نفسه، أن هنري ألقى العبء كله عليه، لكن بصراحة ما الذي كان يتوقعه؟ عندما تفكر في الأمر لا أعتقد

أن هنري طلب منه الكثير، لكن غضب تشارلز ليس سببه هنري وحده بل كاميلا، هل تريد أن تعرف نظريتي؟»
«ما هي؟»

فقال: «أعتقد أن كاميلا وهنري كانا يتواعدان في الخفاء مدة طويلة، كان تشارلز يشك في ذلك منذ مدة، لكنه لم يملك دليلاً حتى وقت قريب، ثم اكتشف شيئاً ما».

رفع يده ليمنعني من المقاطعة، وتابع: «لا أعرف بالضبط ما الذي اكتشفه، لكنني أتصور أنه حدث في منزل عائلة كوركوران، ربما شيئاً رآه أو سمعه. وأعتقد أن هذا الأمر وقع قبل وصولنا. تتذكر الليلة التي سبقت مغادرتهم إلى كونيتيكت مع كلوك؟ حينها كان كل شيء يبدو على ما يرام، لكنك تذكر كيف كان تشارلز عندما وصلنا إلى هناك، وبحلول الوقت الذي غادرنا فيه، لم يكونا يتحدثان معاً».

أخبرت فرانسيس بما قاله لي كلوك في ردهة الطابق العلوي بمنزل عائلة كوركوران.

قال فرانسيس: «اللَّهُ وحده يعلم ما الذي حدث حينها، إذا كان كلوك ذكياً بما يكفي ليلاحظه. كان هنري مريضاً، وربما لم يكن يفكر بوضوح في ذلك الوقت. في الأسبوع الذي عدنا فيه عندما كان متحصناً في شقته، أعتقد أن كاميلا كانت تزوره كثيراً. أنا متأكد من أنها كانت عنده في اليوم الذي أحضرت له فيه الكتاب المينوسي الذي اشتريته من أجله، أظن أنها ربما قضت الليل هناك مرات عديدة، ولكن بعد أن تعافى وعادت كاميلا إلى منزلها، عادت الأمور طبيعية، هل تتذكر؟ في الوقت الذي أخذتني فيه إلى المستشفى؟»

قلت له: «لا أتذكر جيداً»، ثم أخبرته عن الكأس المحطمة التي رأيته داخل المدفأة في شقة التوأمين.

ردّ قائلاً: «من يعرف ما حدث هناك، لكن على الأقل بدا أن علاقتهما قد تحسنت، وكان هنري في حالة نفسية جيدة، ثم وقع الشجار الذي انتهى بتشارلز في السجن، يبدو أن الجميع يتجنب الحديث عن سبب ذلك الخلاف، لكنني أراهن أن لكاميلاً دوراً فيه، والآن تشارلز في حالة غضب شديد».

«هل تعتقد أن هنري ينام معها؟»

فأجاب: «إن لم يفعل، فهو بالتأكيد قد فعل كل ما يجعله يبدو كذلك في نظر تشارلز». ثم نهض وقال: «حاولت الاتصال به مرة أخرى قبل مجيئي، لكنه لم يكن موجوداً. أعتقد أنه في نزل ألبيمارل، سأذهب لأتفقد إن كانت سيارته هناك».

قلت له: «لا بد أن هناك وسيلة لمعرفة الغرفة التي تقيم فيها كاميلاً».

«فكرت في ذلك، لكن موظفي الاستقبال لن يقدموا لي أي معلومات. ربما من الأفضل أن أتحدث إلى إحدى الخادومات، لكنني لست بارعاً في هذا النوع من الأمور». ثم تهجد وأضاف: «أتمنى لو أتمكن من رؤيتها ولو خمس دقائق فقط».

سألته: «إذا وجدتها، هل تعتقد أنك تستطيع إقناعها بالعودة إلى المنزل؟».

«لا أعرف. بصراحة لا أعتقد أن العيش مع تشارلز في حالته هذه سيكون أمراً مريحاً، ومع ذلك ما زلت أظن أن الأمور ستتحسن إذا ابتعد هنري عن الموضوع».

بعد أن غادر فرانسيس استغرقت في النوم مجددًا . وعندما استيقظت، كانت الساعة الرابعة صباحًا، وقد نمت أربعًا وعشرين ساعة تقريبًا .

كانت ليالي ذلك الربيع باردة على غير العادة، وتلك الليلة كانت أشد برودة من الليالي السابقة. المدافئ مشتعلة في المهاجع، وحرارة البخار تملأ المكان، بات الجو خانقًا حتى مع فتح النوافذ . كانت ملاءات سريرى مبللة بالعرق، نهضت وأخرجت رأسي من النافذة، واستنشقت بضعة أنفاس، كان الهواء البارد منعشًا فقررت ارتداء ملابسى والخروج لأتمشى .

كان القمر بدرًا ساطعًا بشدة، والصمت يلف المكان إلا من أزيز الصراصير وحفيف الأشجار . مررت بمركز الطفولة المبكرة حيث كانت ماريون تعمل . بينما كانت الأراجيح تتحرك ببطء ذهابًا وإيابًا كانت تصدر صوتًا خافتًا، فيما بدت الزلاّقة اللولبية كأنها منحوتة فضية تحت ضوء القمر .

لكن أكثر ما شد انتباهي في ساحة اللعب كان الحلزون العملاق . صنعه طلاب قسم الفنون على غرار الحلزون العملاق في فيلم «دكتور دوليتل» . وردي ومصنوع من الألياف الزجاجية، ويبلغ طوله نحو ثمانية أقدام، صدفته مجوفة حتى يستطيع الأطفال اللعب داخله . بدا في ضوء القمر صامتًا مثل مخلوق صبور من عصور ما قبل التاريخ زحف هابطًا من الجبال ببطء وصبر بليدًا ووحيدًا، ينتظر اللحظة المناسبة، غير منزعج من معدات ساحة اللعب التي تحيط به .

يمكن الوصول إلى داخل الحلزون عبر نفق ضيق بحجم طفل عند قاعدته، يبلغ ارتفاعه نحو قدمين. فوجئت برؤية قدمي رجل بارزتين من فتحة النفق ترتديان حذاءً مألوفًا باللونين البني والأبيض.

انحنيت على يدي وركبتي، وأدخلت رأسي في النفق، فغمرتني رائحة ويسكي خام قوية. تردد شخير خافت في الظلام الضيق المشبع برائحة الكحول، بدا أن الحلزون قد حبس الأبخرة وركّزها إلى درجة نفاذة جعلتني أشعر بالغثيان لمجرد استنشاقها. أمسكت ركبته وهزرتها برفق، وقلت بصوت مرتفع: «تشارلز!»، ليتردد الصدى في أرجاء الفضاء الضيق.

قلت مرة أخرى: «تشارلز!»

بدأ يتخبط كمن استيقظ ليجد نفسه غارقًا في عمق عشرة أقدام من الماء، أخيرًا بعد التأكيدات المتكررة بأنني ريتشارد فعليًا، سقط على ظهره مرة أخرى وهو يتنفس بصعوبة.

قال بصوت عالٍ: «ريتشارد! الحمد لله، ظننتك كائنًا فضائيًا». في البداية كان الظلام حالكًا في الداخل، لكن مع تأقلم عيني لاحظت ضوءًا ورديًا خافتًا يتسلل عبر جدران الحلزون الشفافة؛ تسلل ضوء القمر بما يكفي لرؤية الأشياء حولنا.

سألته: «ما الذي تفعله هنا؟»

عطس وقال: «كنت مكتئبًا، ظننت أنني إذا نمت هنا فقد يجعلني هذا أشعر بالتحسن».

«وهل شعرت بالتحسن؟»

«لا»، عطس مجدداً عدة مرات متتالية، ثم انهار على الأرض مرة أخرى.

تخيلت أطفال الحضانة يتحلقون حوله في الصباح مثل أهل ليليبوت⁽¹⁾ حول جاليفر النائم.

كانت السيدة التي تدير مركز الطفولة -وهي طبيبة نفسية يقع مكتبها في الممر مقابل مكتب الدكتور رولاند- لطيفة مثل جدة طبيبة المعشر، لكن من يعلم كيف ستتصرف حين تجد رجلاً ثملاً فاقد الوعي في ساحة اللعب.

مكتبة

t.me/soramnqraa

قلت: «استيقظ يا تشارلز».

رد بتناقل: «أتركني».

«لا يمكنك النوم هنا».

قال بغطرسة: «أستطيع أن أفعل ما أريد».

حاولت إقناعه: «لماذا لا تأتي معي إلى المنزل وتتناول مشروباً؟»

«أنا بخير».

«أوه، هيا!»

«حسناً، مشروباً واحداً».

اصطدم رأسه بقوة وهو يزحف خارج النفق، لا بد أن الأطفال الصغار سيحبون بالتأكيد رائحة ويسكي جوني ووكر العالقة في الهواء عندما يأتون إلى المدرسة بعد ساعات قليلة.

(1) جزيرة تظهر في الجزء الأول من رواية رحلات جاليفر 1726 لجوناثان سويت. مأهولة بأشخاص قصار القامة يبلغ طول الواحد منهم نحو عُشر طول البشر العاديين.

وبينما كنا نشق طريقنا صعوداً نحو منزل مونماوث اتكأ عليّ.
ذكرني: «مشروباً واحداً فقط».

لم أكن في أفضل حالاتي أيضاً، وواجهت صعوبة في دعمه
أثناء صعود الدرج، عندما وصلنا أخيراً إلى غرفتي ألقيته على
السريّر، لم يقاوم وظلّ مستلقياً وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة
فيما ذهبت إلى المطبخ.

كان عرضي بتقديم مشروب مجرد حيلة. بحثت سريعاً في
الثلاجة لكنني لم أجد سوى زجاجة بغطاء ملولب تحتوي على
مشروب كوشر حلو بنكهة الفراولة، كانت في الثلاجة منذ عيد
الكانوكا. تذوقته ذات مرة وقد راودتني فكرة سرقة الزجاجة،
لكنني بصقته على عجل وأعدت الزجاجة إلى رف الثلاجة.

كان ذلك منذ أشهر. خبأت الزجاجة تحت قميصي، ولكن
عندما صعدت إلى الطابق العلوي، كان تشارلز قد استدار بوجهه
نحو الحائط حيث كان من المفترض أن يكون اللوح الأمامي
للسريّر وأخذ يشخر بعمق.

وضعت الزجاجة بهدوء على مكتبي، التقطت كتاباً وغادرت
الغرفة.

توجهت إلى مكتب الدكتور رولاند، حيث استلقيت على الأريكة
وألقيت سترتي فوقّي، قرأت حتى طلعت الشمس، وحينها أطفأت
المصباح واستغرقت في النوم.

استيقظت نحو العاشرة صباحاً. كان يوم السبت، وهذا
أدهشني قليلاً إذ فقدت إحساسي بمرور الأيام. ذهبت إلى قاعة
الطعام وتناولت فطوراً متأخراً من الشاي والبيض المسلوق، أول
شيء أتناوله منذ يوم الخميس.

عندما عدت إلى غرفتي لتغيير ملابسي بعد الظهر، وجدت تشارلز لا يزال نائمًا في سريري. حلقت ذقتي، وارتديت قميصًا نظيفًا، وأخذت كتبتي اليونانية وعدت إلى مكتب الدكتور رولاند. كنت متأخرًا على نحو يدعو للسخرية في دراستي، ولكنه اتضح لي - كما يحدث كثيرًا - أنني لست متأخرًا كثيرًا كما كنت أتصور.

مرت الساعات من دون أن أشعر بها، وعندما أحسست بالجوع في الساعة السادسة، ذهبت إلى الثلاجة في مكتب قسم العلوم الاجتماعية. عثرت على بقايا مقبلات وقطعة من كعكة عيد ميلاد، أكلتها بيدي على طبق ورقي في مكتب الدكتور رولاند. عند الساعة الحادية عشرة رغبت في الاستحمام فعدت إلى غرفتي. ولكن عندما فتحت الباب وأشعلت الأنوار، صُدمت برؤية تشارلز ما زال في سريري، كان نائمًا لكن زجاجة نببذ كوشر على المكتب كانت نصف فارغة، ووجهه بدا متورّدًا بلون قرمزي. هزرتة برفق فاستيقظ فزعًا، بدا كأنه يعاني حمى شديدة.

قال بصوت مرتجف: «باني، أين ذهب باني؟»

«أنت تحلم».

قال وهو ينظر حوله بجنون: «لكنه كان هنا مكث مدة طويلة، لقد رأيته».

«أنت تحلم يا تشارلز».

«ولكنني رأيته، لقد كان هنا، وكان يجلس على جانب السرير».

ذهبت إلى الغرفة المجاورة لاستعارة مقياس حرارة، وكانت درجة حرارته تقترب من 103 فهرنهايت. أعطيته حبتي تايلينول

وكوباً من الماء، فيما ظل يهذي ويفرك عينيه. ثم نزلت إلى الطابق السفلي واتصلت بفرانسييس، لكنه لم يكن في المنزل. حاولت الاتصال بهنري، ولدهشتي أجاب فرانسييس بدلاً من هنري.

قلت: «فرانسييس؟ ماذا تفعل عندك؟»

رد بطريقة مسرحية: «مرحباً يا ريتشارد». كما لو كان يرغب في أن يسمعه هنري.

«أعتقد أنك لا تستطيع التحدث الآن، أليس كذلك؟».

«بلى».

«حسناً، أريد أن أخبرك شيئاً».

أخبرته عن تشارلز وكيف وجدته في ساحة اللعب وما حدث بعد ذلك.

«يبدو أنه مريض جداً، ماذا أفعل؟»

قال فرانسييس: «الكلزون؟ هل وجدته داخل هذا الكلزون العملاق؟»

«نعم، هل لديك فكرة عمّ يجب أن أفعله؟ أنا قلق بعض الشيء».

وضع فرانسييس يده على السماعه، وسمعت صوت نقاش مكتوم.

ثم جاء صوت هنري عبر سماعة الهاتف: «مرحباً ريتشارد. ماذا جرى؟»

كان عليّ إعادة سرد القصة كاملة مرة أخرى.

«هل قلت إن حرارته مئة وثلاثة؟».

«نعم».

«هذا مرتفع جداً، أليس كذلك؟».

«أعتقد كذلك».

«هل أعطيته بعض الأسبرين؟»

«قبل عدة دقائق».

«إذن، لماذا لا تنتظر وترى، أنا متأكد من أنه سيصبح بخير».

كان هذا بالضبط ما أردت سماعه.

قلت: «أنت على حق».

«ربما أصيب بنزلة برد من نومه في العراء، سيشعر بتحسن

في الصباح».

قضيت الليل على أريكة الدكتور رولاند، وبعد الإفطار عدت إلى غرفتي ومعى كعك التوت وعلبة عصير برتقال سعة نصف جالون، تمكنت بصعوبة بالغة من سرقتها من البوفيه الموجود في قاعة الطعام.

عندما وصلت وجدت تشارلز مستيقظاً لكنه كان محمومًا ومشوش الذهن. عرفت أنه لم يقض ليلة مريحة من حالة أغطية السرير التي كانت مقلوبة ومتناثرة على الأرض، قال إنه ليس جائعًا، لكنه شرب بضع رشقات من عصير البرتقال بصعوبة، لاحظت أن ما تبقى من زجاجة نبيذ كوشر قد اختفى.

سألته: «كيف تشعر؟»

أسند رأسه إلى الوسادة المجعّدة، وقال نعسانًا: «صداع، لقد

حلمت بدانتي».

«أليجييري؟»

«نعم».

«بم حلمت؟»

تمتم قائلاً: «كنا في منزل عائلة كوركوران، كان دانتى هناك برفقته صديق سمين يرتدي قميصاً مقلماً، ويصرخ فينا».

قست درجة حرارته، كانت أقل قليلاً من السابق ولكنها لا تزال مرتفعة، نحو 100 فهرنهايت. أعطيته مزيداً من الأسبرين، وكتبت رقمي عند الدكتور رولاند ليتمكن من الاتصال بي إذا لزم الأمر. لكن حين أدرك أنني سأغادر، أدار رأسه إلى الخلف ورمقني بنظرة مرعوبة ويأسفة جمدتني في مكاني في منتصف شرحي كيف يعيد عامل لوحة مفاتيح الهاتف توجيه المكالمات إلى المكاتب الإدارية في عطلات نهاية الأسبوع.

قلت له: «أو يمكنني البقاء هنا إن كان ذلك لا يزعجك».

رفع جسده مستنداً إلى مرفقيه، كانت عيناه محمرتين متوهجتين .

قال: «لا تذهب، أنا خائف، ابقَ قليلاً».

طلب مني أن أقرأ له، لكن لم يكن معي سوى كتب اليونانية، وهو لم يكن يريدني أن أذهب إلى المكتبة. لذا لعبنا إحدى ألعاب الورق «أوكري» على قاموس وضعه فوق حجره. عندما بدأ التركيز في اللعبة يرهقه، انتقلنا إلى لعبة بلاك جاك. فاز في أول جولتين، ثم بدأت سلسلة خسائره. في الجولة الأخيرة لم يخلط الأوراق جيداً فظهرت بتسلسل شبه مثالي، ومع ذلك كان مشوشاً جداً لدرجة أنه استمر في التراجع فيما كان بإمكانه بسهولة اللعب أو سحب ورقة إضافية.

أثناء لعبي ورقة لمست يدي يده، فوجئت بمدى سخونتها وجفافها. على الرغم من دفء الغرفة، كان يرتجف. قست حرارته مرة أخرى، وإذا بها ارتفعت مجددًا إلى 103 فهرنهايت.

نزلت إلى الطابق السفلي لأتصل بفرانسيس، لكن لم يكن هو أو هنري موجودين، فعدت إلى الطابق العلوي. لم يكن لدي أدنى شك؛ بدا تشارلز في حالة مزرية. وقفت عند الباب أراقبه للحظة، ثم قلت: «انتظر دقيقة»، وسرت عبر الممر إلى غرفة جودي.

وجدتها مستلقية على سريرها، تشاهد فيلمًا لميل جيبسون على جهاز فيديو استعارته من متجر الشرطة. بطريقة ما كانت تلمع أظافرها وتدخن سيجارة وتحتسي كوبًا من الدايت كولا في آن واحد.

قالت وهي تحقق إلى الشاشة: «ألا ترى كم يبدو ميل ممثلًا جذابًا؟ لو اتصل بي الآن وعرض عليّ الزواج، سأقبل في غمضة عين».

«جودي، ماذا ستفعلين لو كنت تعانين الحمى بدرجة مئة وثلاث درجات؟»

قالت من دون أن تبعد عينيها عن التلفاز: «سأذهب إلى الطبيب!».

شرحت لها حالة تشارلز، ثم قلت: «إنه مريض حقًا، ماذا يجب أن أفعل في رأيك؟»

رفعت يدها ذات الأظافر الطويلة المطلية بالأحمر في الهواء حتى تجففها، وعيناها ما زالتا مثبتتين على الشاشة. قالت: «خذه إلى غرفة الطوارئ».

«هل هذا رأيك؟».

«لن تجد أي أطباء هنا بعد ظهر يوم الأحد، هل تريد استخدام سيارتي؟»

«سيكون هذا عظيمًا».

قالت بذهن شارد: «المفاتيح على المكتب، رافقتك السلامة».

أوصلت تشارلز إلى المستشفى بسيارتها الكورفيت الحمراء، كان يبدو غريبًا وهو يجلس هناك هادئًا، عيناه متقدتان، يحدق إلى الأمام مباشرة، وخده الأيمن مضغوط على زجاج النافذة البارد. في غرفة الانتظار كنت أقلب مجلات قديمة سبق أن رأيتها عندما أحضرت فرانسيس، فيما جلس تشارلز بلا حراك، وعيناه مثبتتان على صورة ملونة باهتة من الستينيات في الجهة المقابلة لممرضة تضع إصبعًا على شفيتها المطلية بطلاء أبيض بطريقة شهوانية في إشارة إلى ضرورة التزام الصمت داخل المستشفى. جاءت الطبيبة المناوبة، كانت امرأة شابة. أمضت خمس أو عشر دقائق مع تشارلز قبل أن تخرج من العيادة تحمل ملفه الطبي. انحنيت على المنضدة، وتشاورت بإيجاز مع موظفة الاستقبال التي أشارت إليّ.

اقتربت مني الطبيبة وجلست بجانبني. كانت تبدو من هؤلاء الأطباء الشباب المرحين الذين تراهم في المسلسلات التلفزيونية بقمصان هاواي وأحذية رياضية.

قالت بابتسامة: «مرحبًا، ألقيت للتو نظرة على صديقك، يبدو أننا سنحتاج إلى إبقائه هنا بضعة أيام».

أنزلت مجلتي، لم أكن أتوقع هذا، وقلت: «ما الذي أصابه؟»

«يبدو أنه يعاني التهابًا حادًا في الشعب الهوائية بالإضافة إلى جفاف شديد. أريد وضعه على تغذية وريدية، نحن بحاجة أيضًا إلى خفض هذه الحمى. سيكون بخير، لكنه يحتاج إلى الراحة والمضادات الحيوية، ولضمان فعاليتها القصوى سنبدأ بإعطائها له عبر الوريد خلال الساعات الثمانية والأربعين الأولى على الأقل، هل أنتما زميلان في الكلية؟».

«نعم».

«هل يعاني ضغطًا كبيرة؟ هل يعمل على أطروحته مثلاً؟»

قلت بحذر: «إنه يعمل بجد، لماذا تسألين؟»

قالت: «لا شيء محدد، يبدو فقط أنه لم يأكل جيدًا مؤخرًا».

أضافت: «لاحظت أيضًا كدمات على ذراعيه وساقيه، قد تشير إلى الإسقربوط (نقص فيتامين سي)، وربما يكون مستوى بعض فيتامينات بي منخفضًا أيضًا. أخبرني، هل يدخن؟»
لم أستطع مقاومة الضحك.

على أي حال، لم تسمح لي برؤيته؛ أرادت إجراء بعض فحوصات الدم قبل أن يغادر فنيو المختبر لهذا اليوم، لذلك عدت بالسيارة إلى شقته لجمع بعض أغراضه. كان المكان مرتبًا بطريقة مربية، حُزمت بيجامته وفرشاة أسنانه وأدوات الحلاقة، وبعض الكتب الورقية، منها كتب لـ «بي جي وودهاوس» التي اعتقدت أنها ستساعده، وتركت الحقيبة في مكتب الاستقبال بالطوارئ.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي قبل أن أذهب إلى محاضرة اليونانية، طرقت جودي بابي لتخبرني أن لديّ مكالمة

في الطابق السفلي، ظننت أنه فرانسييس أو هنري فقد حاولت التواصل معهما عدة مرات الليلة الماضية أو ربما كاميللا، لكن المفاجأة كانت أن المتصل هو تشارلز.

قلت: «مرحباً. كيف تشعر الآن؟»

«أفضل بكثير». كان صوته يحمل نبرة غريبة مفعمة بالحياة، أكمل: «الأجواء هنا مريحة جداً، شكراً لإحضارك الحقيقية».

«لا داعي للشكر، هل أعطوك أحد تلك الأسرّة التي يمكن تحريكها للأعلى والأسفل؟».

«نعم. اسمع، أريد أن أطلب منك خدمة، هل يمكنك مساعدتي؟»
«بالطبع».

«أود منك أن تحضر لي بعض الأشياء»، وذكر كتاباً وورق رسائل بالإضافة إلى رداء الحمام المعلق خلف باب خزانته. ثم أضاف بسرعة: «وأيضاً هناك زجاجة سكوتش في درج الطاولة جانب سريرتي. هل يمكنك إحضار هذه الأشياء لي هذا الصباح؟»

«عليّ أن أذهب إلى محاضرة اليونانية أولاً».

«حسناً، بعد المحاضرة إذن. متى تعتقد أنك ستصل؟»

أخبرته أنني سأحتاج أولاً إلى استعارة سيارة.

«لا تقلق بشأن ذلك، استقل سيارة أجرة. سأعطيك المال».

أنا أقدر لك هذا كثيراً، متى تتوقع أن تصل؟ العاشرة والنصف؟
الحادية عشرة؟».

«ربما أقرب إلى الحادية عشرة والنصف».

«هذا مناسب. اسمع، لا أستطيع التحدث أكثر من هذا، أنا في غرفة جلوس المرضى، يجب أن أعود إلى سريرتي قبل أن يلاحظوا غيابي. ستأتي، صحيح؟ سأنتظرك».

«روب الحمام وورق الرسائل».

«نعم».

«والسكوتش».

«بالطبع».

لم تكن كاميللا موجودة في قاعة المحاضرة ذلك الصباح، لكن فرانسيس وهنري كانا حاضرين. عندما وصلت كان جوليان هناك، فأخبرته أن تشارلز في المستشفى.

مع أن جوليان كان يظهر لطفًا لافتًا في المواقف الصعبة، فإنه كان يبدو أحيانًا كأنه يستمتع برقي هذا اللطف أكثر من الفعل نفسه. ولكن عند سماعه خبر تشارلز، بدت عليه علامات القلق الحقيقي.

قال: «المسكين تشارلز، هل حالته خطيرة».

«لا أعتقد ذلك».

«هل يُسمح له باستقبال زوار؟ سأتصل به في وقت لاحق اليوم. هل هناك شيء قد يسعده؟ طعام المستشفى سيئ جدًا. أذكر منذ سنوات عندما كانت صديقة عزيزة لي في جناح هاركنيس اللعين في مركز كولومبيا الطبي في نيويورك، كان رئيس الطهاة في مطعم لو شاسور يرسل لها العشاء كل يوم».

علا وجه هنري الجالس في الجهة المقابلة من الطاولة تعبير مبهم تمامًا. حاولت أن ألقى نظرة على فرانسيس لكنه نظر إليّ نظرة خاطفة، وعض على شفته ثم أشاح ببصره بعيدًا.

أضاف جوليان، وهو يضحك: «والزهور، لم يسبق أن رأيت في

حياتي هذه الكمية من الزهور، حتى أنني بدأت أشك في أنها كانت ترسلها لنفسها!»

ثم تابع بابتسامة: «على أي حال، أعتقد أنه لا حاجة إلى السؤال عن مكان كاميللا هذا الصباح».

رأيت عيني فرانسيس تتسرع فجأة، جففت بدروي قبل أن أدرك أنه افترض -بطبيعة الحال- أنها في المستشفى مع تشارلز. أخفض جوليان حاجبيه، وقال: «ما الخطب؟»

الصمت الذي عمّ بعد سؤاله دفعه للابتسام.

ثم قال بلطف: «ليس عليكم أن تكونوا متشددين في التعامل مع هذه الأمور».

شعرت بالارتياح لرؤيته -كما هو معتاد- يضع تفسيرًا لطيفًا للارتباك السائد.

تابع قائلاً: «كان إدموند صديقكم، وأنا حزين جدًا لوفاته. لكن أعتقد أنكم تحزنون بشدة عليه لدرجة تصيبكم بالمرض، وهذا لا يساعد أحدًا. وبصراحة، هل الموت حقًا بهذا السوء؟ قد يبدو الموت مروّعًا لكم لأنكم شباب، لكن من يستطيع أن يقول إن باني ليس أفضل حالًا منكم الآن؟ ومن يستطيع أن يجزم إذا كان الموت رحلة إلى مكان آخر أننا لن نراه مرة ثانية؟».

فتح معجمه وبدأ يبحث عن موضوع الدرس.

قال: «ليس من الحكمة أن نخاف مما لا نعرف، أنتم كالأطفال تهابون الظلام».

لم يُحضِر فرانسيس سيارته معه، لذا بعد انتهاء المحاضرة طلبت من هنري أن يقلني إلى شقة تشارلز.

رافقنا فرانسيس لكنه كان متوتراً وعصبياً، يدخن بشراهة ويذرع الردهة جيئةً وذهاباً، فيما كان هنري يقف أمام باب غرفة النوم يراقبني بهدوء بوجه خالٍ من أي تعبير وأنا أجمع أغراض تشارلز، ويلاحقني بعينين ثابتتين كأنه يمنعني من سؤاله عن كاميلا أو حتى أي سؤال آخر، وهو ما كنت أنوي أن أسأله عنه ما إن أصبح بمفردنا.

أخذت الكتاب وورق الرسائل وروب الحمام، لكنني ترددت بشأن زجاجة السكوتش.

قال هنري بهدوء: «ما الأمر؟».

أعدت الزجاجة إلى درج الطاولة جانب السرير وأغلقتها، ثم قلت: «لا شيء». كنت أعلم أن تشارلز سيفضض إن لم أحضرها معي، وبدأت أفكر في عذر مناسب.

أوماً هنري برأسه نحو الدرج المغلق وقال: «هل طلب منك إحضارها؟»

لم أشعر برغبة في مناقشة خصوصيات تشارلز مع هنري، فأجبت: «لقد طلب سجائر أيضاً، لكنني لا أظن أنه من الصواب أن يحصل عليها».

كان فرانسيس يذرع الممر بلا توقف مثل قط محاصر، وعند تلك اللحظة توقف أمام الباب وألقى نظرة سريعة قلقة على هنري، ثم قال بتردد: «حسناً، كما تعلم...».

قال هنري بلطف: «إذا كان يريد الزجاجة أعتقد أنه من الأفضل أن تأخذها له».

أزعجتني نبرة صوته، فقلت: «إنه مريض، أنت لم تره حتى. إذا كنت تعتقد أنك تفعل له معروفًا بأن تأخذها له...».

قاطعني فرانسيس بقلق وهو ينقر رماد سيجارته في كفه: «ريتشارد، هنري على حق. أنا أعرف قليلاً عن هذا. في بعض الأحيان إذا اعتاد الشخص أن يشرب بانتظام، فقد يكون من الخطر أن يتوقف فجأة، يمكن أن يتسبب ذلك في مضاعفات خطيرة، بل قد يؤدي بحياته».

صدمني ما قاله، لم أتصور أن إدمان تشارلز على الكحول وصل إلى هذا الحد، ومع ذلك لم أعلق، واكتفيت بالقول: «حسنًا، إذا كانت حالته بهذه الخطورة فستكون حالته أفضل في المستشفى، أليس كذلك؟».

قال فرانسيس: «ماذا تقصد؟ هل تقترح أن يضعوه في جناح التخلص من السموم⁽¹⁾؟ هل تعرف كيف الوضع هناك؟ عندما حاولت والدتي الإقلاع عن الشرب أول مرة فقدت السيطرة على نفسها تمامًا، عانت الهلوسة وكانت تتعارك مع الممرضة، وتصرخ بأشياء غريبة بصوت عالٍ».

(1) إزالة السموم من الجسم هي المرحلة الأولى والأساسية في علاج الإدمان، تستغرق نحو خمسة أيام يتوقف فيها المدمن عن تعاطي المادة التي يدمنها فجأة، وذلك تحت إشراف طبي دقيق. خلال هذه المدة، يتمكن المريض من التخلص تمامًا من السموم والمخدرات التي كانت تعتري جسده.

بعدها ينتقل المريض إلى المرحلة الأخيرة في العلاج، وهي مرحلة التأهيل والمتابعة لضمان استمرار الإقلاع عن التعاطي. تُعد هذه الطريقة قاسية وحاسمة مقارنةً بالطريقة الشائعة التي تعتمد التوقف التدريجي.

هنري تدخل قائلاً: «أكره التفكير في أن تشارلز قد يعاني نوبات الهذيان الارتعاشي⁽¹⁾ في مستشفى كاتاماونت». ثم توجه نحو الدرج وسحب الزجاجاة. كانت بطول خمسة إنشات وممتلئة حتى أقل من نصفها. أمسكها من رقبتها وقال: «سيكون من الصعب عليه إخفاؤها».

اقترح فرانسيس: «يمكننا صب المشروب في شيء آخر». فكر هنري لحظة ثم قال: «أعتقد أنه من الأسهل أن نشترى له زجاجة جديدة، بهذه الطريقة نقلل من فرصة تسرب المشروب وإفساد الأشياء. وإذا أحضرنا له زجاجة مسطحة، يمكنه إخفاؤها بسهولة تحت الوسادة دون متاعب».

كان صباحاً ممطراً ورمادياً ومثقلاً بالغيوم، لم يأت هنري معنا إلى المستشفى، بل طلب منا إيصاله إلى شقته، وأعطانا عذراً معقولاً لا أستطيع تذكره الآن، وعندما نزل من السيارة أعطاني ورقة نقدية بقيمة مئة دولار.

قال: «هاك، انقل مودتي لتشارلز. واشتر له بعض الزهور». نظرت إلى الورقة النقدية مذهولاً. انتزعها فرانسيس مني ودفعها نحو هنري قائلاً بغضبٍ لم أكن أتوقعه: «كفى يا هنري، توقف عن هذا».

رد هنري ببرود: «أريدك أن تأخذها».

(1) حالة اضطراب تحدث نتيجة التوقف المفاجئ عن استهلاك الكحول. تظهر أعراض الانسحاب في الأيام الثلاثة الأولى، وتستمر يومين إلى ثلاثة أيام. قد يعاني البعض هلوسات بصرية أو سمعية، فيما لا يشعر آخرون بذلك.

قال فرانسيس بلهجة ساخرة: «إذن، هل علينا أن نشتري له زهوراً بمئة دولار؟»

أجابه هنري ببرود: «لا تتسَّ أن تتوقف عند متجر الخمر لتحضر زجاجة سكوتش. افعل ما شئت بالباقي. أعطه الباقي إن شئت، لا يهمني».

دفع الورقة النقدية نحوي مجدداً. وأغلق باب السيارة بنقرة باردة حملت في طياتها ازدياء أكبر مما لو كان قد صفع الباب بقوة، شاهدته وهو يبتعد وظهره مشدود ومتصلب.

اشترينا لتشارلز زجاجة ويسكي مسطحة من نوع كاتي سارك وسلّة فاكهة، وعلبة من البيتي فور، ولعبة الداما الصينية.

وبدلاً من أن نشتري باقة ضخمة من زهور القرنفل من متجر الزهور في وسط البلدة، اخترنا زهرة أوركيد صفراء مع خطوط خمريّة مزروعة في إناء صغير من الفخار الأحمر.

في الطريق إلى المستشفى، سألت فرانسيس عمّ حدث في عطلة نهاية الأسبوع.

رد قائلاً: «كان الوضع مزعجاً جداً، لا أرغب في التحدث عنه الآن، لكنني رأيت كاميلّا بالفعل في منزل هنري».

«وكيف حالها؟»

«بخير... مهمومة قليلاً، ولكن بخير عموماً. قالت إنها لا تريد أن يعرف تشارلز مكانها، هذا كل شيء. تمنيت لو كنت أستطيع التحدث معها على انفراد، لكن بالطبع لم يغادر هنري الغرفة ثانية واحدة».

بحث بعصبية في جيبه عن سيجارة، وأضاف: «قد يبدو هذا جنوناً، ولكنني قبل أن أراها كنت قلقاً بعض الشيء. هل تفهم ما أعنيه؟ خشيت أن يكون حدث لها مكروه».

لم أعلق، فقد خطرت لي الفكرة ذاتها أكثر من مرة.

تابع قائلاً: «أعني... لا أعتقد أن هنري سيؤذيها، لكن كما تعلم الأمر غريب... اختفاؤها بهذه الطريقة من دون أن تُخبر أحداً. أنا...».

هز رأسه وأضاف: «أكره أن أقول هذا، لكن أحياناً أشعر بالقلق من هنري خصوصاً في أمور كهذه، هل تفهم ما أقصده؟»
لم أرد!

في الحقيقة أنني كنت أفهم ما يعنيه جيداً، لكن الفكرة كانت فضيحة جداً لدرجة أن أحداً منا لم يجرؤ على أن يقولها علناً.

عند وصولنا إلى المستشفى وجدنا تشارلز في غرفة شبه خاصة، كان يرقد في السرير الأقرب إلى الباب مفصلاً بستارة عن رفيقه في الغرفة الذي اتضح لاحقاً أنه مدير مكتب البريد في مقاطعة هامبدن، الذي كان يستعد لجراحة البروستات.

أحاطت الزهور بسريره، وبطاقات مبتذلة تتمنى له الشفاء العاجل معلقة على الجدران، كان متكئاً على مرفقيه في السرير يتحدث بحيوية مع أفراد عائلته الذين كانوا يملؤون الغرفة بالضحك ورائحة الطعام.

دخلت الغرفة أنا وفرانسيس، توقف زوار مدير البريد لحظة لينظروا بفضول عبر الستارة إلى تشارلز؛ كان وحيداً وصامتاً، يستلقي على ظهره وذراعه موصولة بمحلول وريدي، كان وجهه

منتفخًا وبشرته جافة مغطاة بطفح جلدي. كان شعره متسخًا لدرجة أنه بدا بنيًا، وكان يشاهد رسومًا متحركة على التلفاز الذي كان يعرض حيوانات صغيرة تشبه ابن عرس تصطدم بالسيارات وتضرب رؤوس بعضها بعضًا.

حاول تشارلز جاهدًا أن يعتدل في جلسته عندما دخلنا إلى قسمه في الغرفة.

أسدل فرانسيس الستار خلفنا، محاولاً صنع حاجز بيننا وبين زائرتين من زائرات مدير مكتب البريد، وهما سيدتان في منتصف العمر يقتلهما الفضول لمعرفة قصة تشارلز. أطلت إحداهما برأسها من وراء الستار وقالت بصوت عالٍ: «صباح الخير»، محاولة بدء محادثة من خلال فجوة الستار.

نادى أحدهم من الطرف الآخر: «دوروثي! لويزا!»
«نحن هنا!».

ثم علا صوت خطوات سريعة على مشمع الأرضية، مع همهمات وصيحات ترحيب تشبه قرقرة الدجاج. تمت تشارلز قائلاً بصوت أجش بالكاد يُسمع: «تَبًا لهم. لديه زوار طيلة الوقت، وكلما دخلوا وخرجوا يحاولون اختلاس النظر إليّ».

قدمت له زهرة الأوركيد لتغيير مجرى الحديث.

قال متأثرًا: «هل اشتريت هذه لي، ريتشارد؟».

كنت أنوي شرح أنها هدية منّا جميعاً دون الإشارة إلى هنري، لكن فرانسيس نظر إليّ نظرة تحذيرية فأبقيت فمي مغلقًا.

أفرغنا كيس الهدايا، كنت أتوقع منه أن ينقض على زجاجة كاتي سارك ويفتحها أمامنا لكنه اكتفى بشكرنا، ووضع الزجاجة في الخزانة أسفل صينية السرير البلاستيكية الرمادية.

سأل فرانسيس: «هل تحدثت إلى أختي؟»، قالها بأسلوب بارد أشبه بمن يسأل هل تحدثت إلى محامي!

أجاب فرانسيس: «نعم».

«هل هي بخير؟»

«تبدو كذلك».

«ماذا قالت لتبرير ما فعلته؟».

«لا أعرف ماذا تقصد».

«أتمنى أن تكون قد أخبرتها أنني قلت: اذهبي إلى الجحيم».

لم يرد فرانسيس، أخذ تشارلز أحد الكتب التي أحضرتها وبدأ يتصفحه بشكل متقطع.

قال أخيراً: «شكراً على مجيئكما، أنا مرهق قليلاً».

في طريقنا إلى السيارة، قال فرانسيس: «إنه يبدو في حالة يرثى لها».

فقلت: «لا بد من طريقة لإصلاح الأمور بينه وبين كاميلا، ربما يمكننا إقناع هنري بالاتصال به والاعتذار».

«وأي فائدة من ذلك ما دامت كاميلا ما زالت تقيم في ألبيمارل؟»

«لكنها لا تعرف أنه في المستشفى، إنها حالة طارئة».

«لا أعرف».

كانت ماسحات الزجاج الأمامي تتحرك جيئةً وذهاباً، فيما كان شرطي يرتدي معطفًا واقياً من المطر ينظم حركة المرور عند التقاطع، كان نفس الشرطي ذا الشارب الأحمر الذي قابلته في مركز الشرطة، تعرف على سيارة هنري، فابتسم وأشار لنا بالمرور. ابتسمنا ولوَّحنا له متمنين له يوماً سعيداً كأننا مجرد شابان في نزهة، ثم قاد فرانسيس السيارة في صمت كئيب متشائم.

قلت أخيراً: «لا بد أن هناك شيئاً يمكننا فعله».

أجاب فرانسيس: «أعتقد أن من الأفضل لنا البقاء بعيدين عن هذا الأمر».

«لا يمكنك أن تخبرني أنها لو عرفت بمدى مرضه، فلن تهزول إلى المستشفى في غضون خمس دقائق».

قال فرانسيس: «أنا لا أمزح، من الأفضل أن نبقي خارج الأمر».

«لماذا؟»

لكنه لم يرد، واكتفى بإشعال سيجارة جديدة، على الرغم من إلحاحي عليه بالسؤال.

عندما عدت إلى غرفتي وجدت كاميلاً جالسة إلى مكتبي تقرأ كتاباً.

رفعت عينيها عن الصفحات وقالت: «مرحباً. كان بابك مفتوحاً، آمل ألا تمانع وجودي».

كانت رؤيتها كالصدمة الكهربائية، فجأة شعرت بسورة من الغضب تجتاحني، كان الهواء المحمّل بقطرات المطر يهبّ عبر النافذة المفتوحة، فتوجهت نحوها لأغلقها.

«ماذا تفعلين هنا؟»

«أردت التحدث إليك».

«عن ماذا؟».

«كيف حال أخي؟».

«لماذا لا تذهبين لرؤيته بنفسك؟»

وضعت الكتاب جانباً، فكرت رغماً عني: آه، كم هي جميلة. أحببت رؤيتها؛ كانت ترتدي سترة من الكشمير، لونها رمادي يميل إلى الأخضر الناعم، وكانت عيناها الرماديتان بلون سيلادون مضيء. قالت: «أنت تعتقد أن عليك أن تتحاز إلى أحد الجانبين، لكنك لست مضطراً إلى ذلك».

«لا أنحاز إلى أي طرف، لكنني أعتقد أنك اخترت توقيتاً سيئاً لما تفعلينه».

قالت: «وما الوقت المناسب برأيك؟ أريدك أن ترى شيئاً، انظر».

رفعت خصلة من شعرها الخفيف بالقرب من صدغها، كشفت عن بقعة مقترحة بحجم قطعة نقدية حيث كان شعرها قد اقتلع من الجذور. لم أستطع الكلام من شدة الصدمة. «وهذا».

رفعت كم سترتها لتكشف عن معصمها المتكدم والمتورم قليلاً، ولكن ما أربني أكثر كان حرق السيجارة على الجانب السفلي من ساعدها، محفور بعمق وقبح في لحمها. مرت لحظة قبل أن أجد صوتي. «يا إلهي، يا كاميللا هل تشارلز من فعل هذا؟»

سحبت كمها إلى أسفل. قالت بصوت خالٍ من العاطفة: «هل فهمت الآن ما أقصد؟».

كان تعبير وجهها جامدًا وممتعضًا.

«منذ متى وهذا يحدث؟».

تجاهلت سؤالها وقالت: «أنا أعرف تشارلز أفضل مما تعرفه أنت، الابتعاد عنه كان الخيار الأكثر حكمة».

«من الذي اقترح عليك الإقامة في نزل البيمارل؟»

«هنري».

«ما دوره في كل هذا؟»

لم تجب.

مرت فكرة رهيبة في ذهني: «هل هنري هو من فعل بكِ

هذا؟»

نظرت إليّ مصعوقة: «لا، لماذا تفكر في ذلك؟»

«كيف لي أن أعرف ما يجب أن أفكر فيه؟»

برزت الشمس فجأة من خلف غيمة ماطرة، فغمرت الغرفة بنور ساطع انعكس فوق الجدران كالماء.

برزت ملامح وجه كاميللا في إشراقة متوهجة، شعرت بفيض من المشاعر المتضاربة داخلي. للحظة بدت كل الأشياء حولي -المرآة والسقف والأرضية- غير ثابتة ومشعة مثل حلم. شعرت برغبة غريبة في الإمساك بمعصمها المصاب، وأذيتها بشكل لا أستطيع حتى وصفه، لكن الغيمة عادت لتغطي الشمس واختفت تلك الرغبة العنيفة.

قلت بهدوء: «لماذا أتيتِ إلى هنا؟».

أجابت: «لأنني أردت رؤيتك».

«لا أعلم إذا كنت تهتمين بما أفكر فيه، ولكن أعتقد أنك
تزيدين الأمور سوءًا بإقامتك في ألبمارل».

كرهت وقع صوتي، لم أتمكن من السيطرة عليه، كل ما قلته
كان يخرج بنبرة متعالية وجارحة.

«وماذا تعتقد أن عليّ أن أفعل؟»

«لماذا لا تمكثين مع فرانسيس؟»

ضحكت وقالت: «لأن تشارلز يرعب فرانسيس المسكين حتى
الموت. فرانسيس يريد مساعدتي، لكنه لا يمكنه مواجهة تشارلز
لخمس دقائق».

«إذا سألته، فسوف يعطيك المال لتذهبي إلى أي مكان
تريدينه».

«أعرف أنه سيفعل، عرض عليّ ذلك». مدت يدها إلى جيبها
بحثًا عن سيجارة، لاحظت متألماً أنها كانت ماركة لاكي سترايك
التي يدخنها هنري دومًا.

قلت: «يمكنك أن تأخذي المال وتقيمي في أي مكان تريدينه،
ليس عليك أن تخبريه أين».

«ناقشت هذا مع فرانسيس». سكنت قليلاً قبل أن تردف: «لكن
الحقيقة أنني أخاف تشارلز، وتشارلز يخاف هنري، هذا هو لب
الموضوع».

صدمتني برودة كلامها.

سألتها: «إذن هذا هو الأمر؟»

«ماذا تقصد؟»

«تحاولين حماية نفسك؟»

قالت ببساطة: «لقد حاول قتلي». التقت عيناها عيني، كانتا صريحتين وواضحتين.

«ألا يخاف هنري تشارلز أيضاً؟»

«لماذا يجب أن يخافه؟».

«أنت تعلمين السبب».

ما إن أدركت ما أعنيه، فوجئت بسرعة تحولها للدفاع عنه، قالت باندفاع طفولي: «تشارلز لن يفعل ذلك أبداً».

«وإذا فعل؟ وذهب إلى الشرطة؟»

«لكنه لن يفعل».

«كيف تعرفين ذلك؟»

«هل سيورط نفسه؟ ويورطنا جميعاً معه؟»

«في هذه المرحلة، أظن أنه لم يعد يهتم».

قلت ذلك بنبرة قصدت منها إيذاءها، وشعرت بشيء من الرضا عندما رأيت الخوف في عينيها. نظرت إليّ وقالت: «ربما. لكن يجب أن تتذكر أن تشارلز مريض الآن، لم يعد كما كان، وأعتقد أنه على دراية بذلك».

سكتت هنيهة وأكملت: «أنا أحب تشارلز. أحبه وأعرفه أفضل من أي شخص آخر في العالم، لكنه وقع تحت ضغط هائل، لا أعلم ماذا يحدث له، عندما يسكر بهذه الطريقة يصبح شخصاً مختلفاً، لا يستمع إلى أحد، ولا أظن أنه يتذكر حتى نصف ما يفعله، لهذا أنا ممتة لأنه في المستشفى الآن، إذا اضطر إلى الامتناع عن الشرب بضعة أيام، ربما يبدأ في التفكير بعقلانية مرة أخرى».

تساءلت في داخلي كيف ستكون ردة فعلها إذا علمت أن هنري قد أرسل له زجاجة ويسكي.

قلت: «وهل تعتقد أن هنري يهتم حقًا لمصلحة تشارلز؟».

قالت مشدوهة: «بالطبع».

«ومصلحتك أيضًا؟»

«بالتأكيد، لماذا لن يهتم بذلك؟»

قلت: «لديك ثقة كبيرة بهنري، أليس كذلك؟».

«لم يخذلني قط».

لسبب ما شعرت بموجة جديدة من الغضب تجتاحني. قلت:

«وماذا عن تشارلز؟»

«لا أعرف».

«سيخرج من المستشفى قريبًا، سيكون عليك رؤيته، ماذا

ستفعلين حينها؟»

«لماذا أنت غاضب مني يا ريتشارد؟»

نظرت إلى يدي، كانت ترتجف، لم أكن أدرك ذلك حتى، كانت

كل ذرة مني ترتعش من فرط الغضب.

قلت: «من فضلك غادري، أود أن ترحلي».

«ما المشكلة؟».

«فقط اذهبي. من فضلك».

نهضت واقتربت مني خطوة، فتراجعت. فقالت بهدوء: «حسنًا،

كما تشاء»، ثم استدارت وغادرت الغرفة.

هطلت الأمطار طوال اليوم والليل، تناولت حبوباً منومة وذهبت إلى السينما لمشاهدة فيلم ياباني، لكنني وجدت نفسي عاجزاً عن متابعة أحداثه. كانت الشخصيات تجول في غرف مهجورة، ولا أحد يتحدث، وكان الصمت يهيمن دقائق طويلة باستثناء صوت جهاز العرض وصوت المطر الذي يدق على السطح. كانت قاعة السينما شبه خالية باستثناء رجل غامض الملامح يجلس في الخلف، طفت ذرات الغبار في الشعاع المنبعث من جهاز العرض. عندما خرجت من السينما كانت السماء لا تزال تمطر، غابت النجوم خلف السحب الداكنة، وتحولت السماء إلى لوحة سوداء تشبه سقف دار السينما. انعكست أضواء النيون على الرصيف المبتل متوهجة في خيوط بيضاء طويلة.

عدت إلى داخل الأبواب الزجاجية لدار السينما لانتظر سيارة الأجرة، وقفت في الردهة المكسوة بالسجاد التي تعبق برائحة الفشار. اتصلت بتشارلز من الهاتف العمومي، لكن عاملة المقسم في المشفى رفضت تحويل المكالمات لأن وقت الزيارة قد انتهى والجميع نيام. بينما كنت أجادلها، توقفت سيارة الأجرة أمام الرصيف، قطرات المطر الثقيلة تتساقط على مصابيحها الأمامية، بينما قذفت إطاراتها الماء المتجمع على الأسفلت في دوامات صغيرة.

في تلك الليلة راودني مجدداً حلم السلالم الذي يتكرر كثيراً في الشتاء، لكنني نادراً ما حلمت به منذ ذلك الحين. كنت على سلالم حديدية ضيقة وصدئة ومهترئة في منزل ليو، امتدت السلالم من دون درابزين إلى ما لا نهاية في الظلام الدامس،

كانت الدرجات غير متساوية، بعضها طويل جداً، وبعضها قصير وضيق، بالكاد يستوعب عرض حداثي، كان المشهد مظلمًا ومرعبًا من كلا الجانبين، شعرت بالحاجة إلى الإسراع على الرغم من خوفاي الشديد من السقوط.

واصلت النزول إلى الأسفل، لكن السلالم بدأت تتلاشى تحت قدمي، حتى لم تعد سلالم على الإطلاق، وكان هذا دائمًا الجزء الأكثر رعبًا. كان هناك رجل يهبط الدرجات بسرعة هائلة، أمامي بمسافة كبيرة بعيدًا في الأسفل.

استيقظت قرابة الرابعة صباحًا، وعجزت عن العودة إلى النوم. تناولت كثيرًا من مهدئات السيدة كوركوران لدرجة أنها بدأت تصيب جهازي العصبي بنتائج عكسية، كنت أتناولها حتى في النهار الآن. خرجت من السرير وجلست بجانب النافذة.

شعرت بدقات قلبي المتسارعة تمتد حتى أطراف أصابعي. نظرت من خلال ألواح النافذة السوداء ومن خلف انعكاسي الشاحب على الزجاج (أيها العاشق الولهان، لماذا تبدو بهذا الشحوب⁽¹⁾)، واستمعت إلى الرياح وهي تداعب الأشجار، وأحسست بالتلال المحيطة كأنها تزحف نحوي في الظلام. حاولت عبثًا إيقاف سيل الأفكار التي غزت عقلي. تساءلت: لماذا سمح لي هنري بالمشاركة في كل هذا؟ منذ شهرين فقط -على الرغم من أنني شعرت أن هذه الأحداث وقعت منذ أعوام-

(1) الاقتباس من مسرحية أغلاورا وهي مسرحية من أواخر الحقبة الكارولينية كتبها السيد جون سوكلينج الذي كان شاعرًا إنجليزيًا وشخصية بارزة بين أولئك الذين اشتهروا بالبهجة والذكاء المشوب بالاستهتار.

أدركت أن قراره بإخباري لم يكن سوى جزء من خطة محكمة. لقد استغل غروري، وجعلني أظن أنني اكتشفت الأمر بمفردي (لا تزال ملامحه عالقة في ذهني وهو يتكئ على كرسيه ويقول: «أحسن، ذكاء منك أن تكتشف ذلك»). ابتسمت في سريري حينها مغترًا بمديح هنري، بينما في الواقع -وقد أدركت ذلك الآن- كان يقودني بذكاء إلى مصيدته، ويخدعني طوال الوقت. ثم تسالت فكرة مرعبة إلى ذهني فشعرت بعرق بارد فوق جبينني؛ ربما حتى اكتشافي الأولي لم يكن مصادفة. ربما كان المعجم في غير محله جزءًا من الخطة: هل سرقة هنري وهو يعلم أنني سأعود لاسترجاعه؟ وربما كانت الشقة الفوضوية التي تأكد هنري أنني سأدخلها، وحجوزات السفر التي تركت عمدًا بجوار الهاتف مجرد طعم لي. لم يكن هذا من قبيل المصادفة، فهنري لا يترك أمورًا بهذا الإهمال. ربما أراد مني أن أكتشفها، وربما تنبأ أن خوفي وغريزة القطيع ستجعلانني أسير إلى فخه دون أدنى شك.

لم يكن الأمر مجرد إبقاء فمي مغلقًا، هكذا فكرت وأنا أصدق إلى انعكاسي الضبابي على زجاج النافذة بإحساس يملؤه المرض، لم يكن باستطاعتهم فعل ذلك من دوني، لقد جاء باني إليّ، وسلمته مباشرة إلى يدي هنري مباشرة بلا تردد.

قال هنري: «كنت أنت جرس الإنذار يا ريتشارد. كنت أعلم أنه إن أخبر أحدًا، فسيخبرك أنت أولاً. والآن بعد أن فعل ذلك، نحن نشهد تسارعًا كبيرًا في الأحداث».

(تسارعًا كبيرًا في الأحداث)، اقشعر جسدي وأنا أتذكر كلماته الأخيرة التي كانت تحمل مسحة من السخرية السوداء لم أستطع تجاهلها بل خيمت على عقلي كظلام دامس. يا إلهي، كيف أمكنني أن أستمع إليه؟ ومع ذلك، كان محققًا بشأن تسارع الأحداث.

وبعد أقل من أربع وعشرين ساعة مات باني، وعلى الرغم من أنني لم أكن من دفعه نحو الهاوية فعليًا -وهو ما كان يبدو اختلافًا جوهريًا حينها- فإن ذلك لم يعد ذا أهمية كبيرة الآن. كنت لا أزال أحاول جاهدًا قمع الفكرة الأكثر سوداوية التي راودتني، مجرد التفكير فيها كان يسبب لي ارتجاف عمودي الفقري من الرعب. هل كان هنري يخطط لتوريطي في جريمة قتل باني إذا فشلت خطته؟ إذا كان الأمر كذلك، فكيف كان سيحقق ذلك؟ لم أكن متأكدًا، لكن لم يكن لدي أدنى شك أنه كان قادرًا على تنفيذ مخطط كهذا إن أراد.

كان معظم ما أعرفه مجرد معلومات منقولة ليست من مصدرها المباشر، ومعظمها أخبرني به هنري فقط. عندما أفكر مليًا في الأمر، فإن هناك أشياء كثيرة لا أعرفها. وعلى الرغم من أن الخطر المباشر بدا أنه زال، فإنه ليس هناك ضمان بأنه لن يعود ليطفو على السطح، ربما بعد عام أو بعد عشرين أو حتى خمسين عامًا، فقد سمعت في التليفزيون أن جريمة القتل لا تسقط بالتقادم.

يكشفون أدلة جديدة، ويُعاد فتح القضايا، هذه الأشياء تحدث طوال الوقت.

كان الظلام لا يزال مخيمًا. وراحت الطيور ترقزق من أعشاشها فوق الإفريز، فتحت درج مكتبي وأحصيت ما تبقى من الحبوب المنومة؛ أقراص جميلة بلون الحلوى مصطفة على ورقة آلة كاتبة قديمة. لا يزال هناك كثير منها، ما يكفي لإنهاء كل شيء. (يا ترى، هل ستشعر السيدة كوركوران بالراحة إن علمت أن حبوبها المسروقة قد قتلت قاتل ابنها؟).

كان من السهل أن أشعر بها وهي تنزلق في حلقي. لكن، بينما أطرف بعيني في وهج مصباح مكتبي، اجتاحتني موجة طاحنة من الاشمئزاز العميق لدرجة أنني كدت أتقيأ. ومع ذلك على الرغم من شدة العتمة التي كنت أعيشها، كنت مرعوبًا من الانتقال إلى ظلام آخر أعمق، ذلك الظلام السرمدي الموحد. رأيت ظل الموت على وجهه باني؛ رعب صرف كان العالم بأسره قد انقلب رأسًا على عقب، حياته تتفجر في صدى رهيب، والغربان تزعق متناثرة في السماء، والفراغ يمتد فوقه مثل محيط أبيض، ثم لا شيء... جذوع شجر متعفنة، وحشرات تزحف فوق أوراق متساقطة... قذارة وظلام دامس يكتنفان المشهد.

استلقيت على سرير، شعرت بقلبي يتباطأ في صدري من شدة الألم، شعرت بالقرف منه؛ عضلة بائسة علية ودامية تنبض خلف ضلوعي، كان المطر ينهمر على زجاج النوافذ، والعشب في الخارج طينياً وموحلاً. عندما أشرق الشمس، خُيل لي أنني أرى في ضوء الفجر الضئيل والبارد أن أحجار البلاط كانت مغطاة بديدان الأرض؛ رفيعة وقبيحة، كان هناك مئات منها تتلوى في عجز فوق الألواح الصخرية الداكنة المبللة.

في قاعة المحاضرات، ذكر جولييان أنه تحدث إلى تشارلز هاتفياً. تتم قائلًا: «أنت محق، لا يبدو بحالة جيدة. إنه مشوش ومرتبك، أعتقد أنهم يعطونه مهدئات».

ابتسم وهو يتصفح أوراقه، وأضاف: «تشارلز المسكين. سألت عن كاميللا، رغبت في التحدث معها، فلم أتمكن من فهم ما كان يحاول إيصاله لي. قال لي...».

هنا تغير صوته قليلاً محاولاً تقليد تشارلز بطريقة غريبة، لكنه في الواقع كان صوت جولييان نفسه مهذباً وهادئاً، لم ترتفع نبرته إلا قليلاً، كأنه لا يستطيع حتى أثناء التقليد تغيير إيقاعه الرخيم «...قال لي بصوت كئيب: إنها تختبئ مني». بدا كأنه يحلم، واعتقدت أن ما قاله كان عذّباً إلى حد ما، لذا من باب الدعابة قلت: «حسنًا، إذًا، يجب أن تغمض عينيك وتعد إلى عشرة، وستعود».

ضحك لكنه غضب مني، بدا طريفًا وساحرًا حقًا في ردة فعله، قال: لا، لن تعود. فقلت له: ولكنك تحلم. قال: لا، لست كذلك. إنه ليس حلمًا، إنه واقع مرير».

لم يتمكن الأطباء من علاج المرض الذي ألمّ بتشارلز، جربوا مضادين حيويين على مدار الأسبوع، لكن جسده لم يستجب، كانت المحاولة الثالثة أكثر نجاعة، وقيل لفرانسيس الذي زاره يومي الأربعاء والخميس إن تشارلز يتحسن، وإذا سارت الأمور جيدًا قد يتمكن من العودة إلى المنزل خلال عطلة نهاية الأسبوع. في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الجمعة، بعد ليلة أخرى

من الأرق، توجهت إلى منزل فرانسيس. كان صباحًا حارًا ومليئًا بالغيوم، والأشجار تتلألأ تحت أشعة الشمس. شعرت بالهزال والإرهاق، اهتز الهواء الدافئ محملاً بأصوات الدبابير وأزيز جزازات العشب، حامت أزواج من طيور السُّمامة في السماء وسقست.

اشتد الصداغ، وتمنيت لو كان بحوزتي نظارتي الشمسية. لم يكن موعد لقائي مع فرانسيس حتى الساعة الحادية عشرة والنصف، لكن غرفتي كانت في فوضى عارمة، ولم أغسل ملابسي منذ أسابيع، كان الجو حارًا لدرجة لم أستطع معها فعل أي شيء سوى الاستلقاء على سريرى غير المرتب غارقًا في عرقي محاولاً تجاهل صوت جهاز الستيريو في الغرفة المجاورة الذي كان يصدح عبر الحائط.

كان جود وفرانك يبنيان هيكلًا ضخماً وحديثاً في المرح خارج مبنى القاعة العامة، وكانت أصوات المطارق والمثاقب الكهربائية قد بدأت في وقت مبكر من الصباح.

لم أعرف ما هذا الهيكل، سمعت من أكثر من مصدر أنه كان ديكوراً مسرحياً أو منحوتة أو نصباً تذكاريًا من نوع ستونهنج⁽¹⁾ لفرقة غريتفل ديد، ولكن في المرة الأولى التي نظرت فيها من

(1) معلم تذكاري من عصور ما قبل التاريخ في سهل سالزبوري في ويلتشاير بإنجلترا، على بُعد ميلين (ثلاثة كيلومترات) غرب أيمزيري. يتألف من حلقة خارجية من شواهد قائمة من الصخور المنزقة، كل منها ارتفاعه نحو 31 قدمًا (4 أمتار)، وعرضه سبعة أقدام (1.2 مترًا)، ويزن نحو 52 طنًا، وعلى قممها عتبات علوية صخرية متصلة، وفي داخلها حلقة أصغر من الحجر الأزرق.

نافذتي، شاعراً بالدوار تحت تأثير الفيورينال⁽¹⁾، وشاهدت أعمدة الدعم المستقيمة ترتفع حادة ومدببة من العشب، غمرني رعب أسود وغير عقلاني، فكرت: مشنقة، ينصبون مشنقة، سيعدمون أحدهم في مرج مبنى القاعة العامة!

انتهت الهلوسة في لحظة، ولكن بطريقة غريبة ظلت حاضرة متجلية في أشكال مختلفة مثل إحدى تلك الصور على غلاف كتب الرعب ذات الغلاف الورقي في السوبر ماركت: إذا أدرتها في اتجاه معين سيظهر لك طفل أشقر مبتسم، وإذا أدرتها في الاتجاه الآخر ستري جمجمة مشتعلة.

أحياناً كان الهيكل يبدو عادياً وسخيفاً وغير ضار، أما في الصباح الباكر أو عند الغروب، فكان العالم يختفي ليظهر في الأفق مشنقة سوداء من القرون الوسطى، في حين تحلق الطيور على ارتفاع منخفض فوق الرؤوس، وفي الليل كان الهيكل يلقي بظلاله الطويلة على القدر الضئيل من النوم المتقطع الذي تمكنت أن أحظى به.

المشكلة في الأساس أنني كنت أتناول كميات كبيرة من الحبوب، تداخلت الأدوية المنشّطة مع المهدئات، وعلى الرغم من أن المهدئات لم تعد تساعدني على النوم كثيراً، فإن تأثيرها كان يستمر طوال النهار، حتى أنني كنت أسير كمن يتجول في ضباب دائم، أما النوم بلا دواء فقد أصبح مستحيلاً، أشبه بحكاية خرافية أو ذكرى حلم طفولي بعيد.

(1) دواء مزيج من الأسبرين والبوبتالبيتال والكافيين. يستخدم لعلاج الصداع من بين استخدامات أخرى كثيرة.

نقد مخزوني من المهدئات، ومع أنني كنت أعلم أنه بإمكانني الحصول على مزيد منها من كلوك أو برام أو أي شخص آخر، لكنني قررت التوقف عن تناولها بضعة أيام، كانت الفكرة جيدة من الناحية النظرية لكنها كانت تجربة مؤلمة.

كان خروجي من تلك الشرنقة الغريبة إلى زخم العالم القاسي المليء بالضجيج والضوء مؤلماً. امتزجت صور العالم الخارجي في ذهني بشكل حاد ومزعج؛ كان الأخضر يحيط بي في كل مكان، والأعشاب تتدفع عبر الشقوق في الرصيف القديم، وألواح الرصيف الرخامية مثقلة وملتوية من الثلوج التي تساقطت عليها على مدى قرن. شُيدت تلك الأرصفة الرخامية بنمويل من مليونير قضى صيفه في نورث هامبدن، قبل أن يرمي بنفسه منتحراً من نافذة في بارك أفينيو في عشرينيات القرن الماضي.

كانت السماء خلف الجبال ملبدة بالغيوم، داكنة كحجر الأردواز، والضغط الجوي يوحي بهطول المطر في أي لحظة. أما أزهار إبرة الراعي التي تزين واجهات المنازل البيضاء فكانت حمرتها تتوهج بشراسة متنافرة بجمالها العنيف مع الواجهات الخشبية. انعطفت إلى شارع ووتر الذي يمتد شمالاً بجوار منزل هنري، وعندما اقتربت رأيت ظلاً داكناً يتحرك في الجزء الخلفي من حديقته، في البداية ظننت أنه مجرد وهم.

ولكنه كان حقيقياً، كان هنري جاثياً على ركبتيه ممسكاً بدلو ماء وقطعة قماش، وعندما اقتربت أكثر أدركت أنه لم يكن ينظف أحجار البلاط كما ظننت بل كان يغسل شجيرة ورد، كان ينحني فوقها بحرص شديد يلمع أوراقها كأنه بستانى مجنون من «أليس في بلاد العجائب».

ظننت أنه سيتوقف في أي لحظة لكنه استمر في عمله الدؤوب، وأخيراً دخلت عبر البوابة الخلفية وقلت: «هنري، ماذا تفعل؟»

نظر إلى الأعلى بهدوء، ولم يفاجأ برؤيتي على الإطلاق. قال بنبرة ثابتة: «عث العنكبوت، كان الربيع رطباً هذا العام. رششتها مرتين، لكن لإزالة البيض بشكل جيد، لا بد من غسلها يدوياً»، ثم أسقط الخرقة في الدلو.

لاحظت مرة أخرى مدى التغيير الذي طرأ عليه، وكيف أصبح مظهره أكثر تألقاً، وقد تلاشت عنه تلك الصلابة الكئيبة ليحل محلها سلوك أكثر طبيعية ومرونة. لطالما اعتقدت أن هنري يفتقر إلى الوسامة، وكنت أرى أن أسلوبه المتفرد هو ما يميزه، لكنه الآن بعد أن خفت حدة تصرفاته المتحفظة، بدت عليه رشاقة وسلاسة مدهشة كالنمر في حركته، وهو ما أدهشني حقاً، انسدت خصلة من شعره على جبهته.

أشار إلى شجيرة الورد وقال: «هذه ملكة البنفسج، وردة قديمة وجميلة، اكتُشفت العام 1860، وهذه الأخرى، مدام إسحاق بيرير، لزهورها رائحة التوت».

قلت: «هل كاميلاً هنا؟»

لم يبدُ أي أثر للعاطفة على وجهه، كما لم يظهر أي جهد لإخفائها.

أجاب ببرود: «لا»، ثم عاد إلى عمله، وأردف قائلاً: «كانت نائمة عندما غادرت، لم أرغب في إيقاظها».

كان من الصادم سماعه يتحدث عنها بمثل هذه الحميمية.

تذكرت بلوتو وبيرسيفوني⁽¹⁾. نظرتُ إلى ظهره، كان مشدودًا كظهر قس، حاولت أن أتخيلهما معًا بيديه البيضاوين الكبيرتين وأظافرهما المربعة.

قال هنري بشكل غير متوقع: «كيف حال تشارلز؟».

تلعثمت قليلًا قبل أن أجيب: «بخير».

«أعتقد أنه سيعود إلى المنزل قريبًا».

رفرفت قطعة من القماش المشمع بصوت عالٍ فوق السطح. استمر في العمل. أضفى عليه بنطاله الداكن مع الحمالات المتقاطعة على ظهر قميصه الأبيض مظهرًا غامضًا يشبه أحد أفراد طائفة الأميش⁽²⁾.

قلت: «هنري».

لكنه لم يرفع رأسه.

«هنري، ليس لي أن أتدخل. ولكن، هل تدرك حقًا ما تفعله؟»

(1) في الأساطير اليونانية، كان يُطلق على «بلوتو» اسم «هاديس»، وهو إله العالم السفلي. هذا العالم كان يمثل المكان الذي تذهب إليه الأرواح بعد الموت، وكان هاديس نادرًا ما يفادر مملكته. أبرز الأساطير المتعلقة به هي قصة اختطاف بيرسيفوني ابنة ديميتير. وفقًا للأساطير اليونانية كانت بيرسيفوني، التي أصبحت فيما بعد ملكة العالم السفلي، ابنة «زيوس» و«ديميتير» إلهة الحصاد والخصوبة. كانت تعرف أيضًا باسم «كور» وهو اسم يعني «العذراء». كانت بيرسيفوني فتاة بالغة الجمال لفتت أنظار عديد من الآلهة، إلا أن والدتها ديميتير كانت شديدة التعلق بها وحريصة على حمايتها من جميع الرجال، وهذا ما دفع هاديس إلى التخطيط لاختطافها.

(2) طائفة مسيحية تجديدية العماد تتبّع للكنيسة المنيونية. نشأت في العصور الوسطى، وهي فترة شهدت بروز حركات إصلاحية مسيحية كثيرة، منها الطائفة التي كانت تعرف حينذاك باسم المسيحيين الجدد الأنابابتيست التي يعتبر الأميش جزءًا منها. يبلغ تعداد الأميش حاليًا نحو 249.000 موزعين على اثنتين وعشرين منطقة مأهولة في الولايات المتحدة وفي ولاية أونتاريو في كندا.

صمتت قليلاً في انتظار رده لكني لم أتلّق أي إجابة.

«أنت لم ترَ تشارلز، لكني رأيته، ولا أعتقد أنك تدرك مدى تدهور حالته، اسأل فرانسيس إن كنت لا تصدقني، حتى جوليان لاحظ ذلك. لقد حاولت أن أخبرك لكني لا أظن أنك تفهم، لقد فقد عقله، وكاميل لا تدرك ذلك تمامًا، ولا أعرف ما سنفعله عندما يعود إلى المنزل، لا أعتقد حتى أنه سيكون قادرًا على العيش بمفرده. أعني....».

قاطعني هنري ببيروود: «عذرًا، هل يمكنك أن تتاولني ذاك المقص من فضلك؟»

ران بيننا صمت طويل، وفي النهاية مدّ يده وتناول المقص بنفسه. ثم قال مبتسمًا: «لا بأس، لا تهتم». باعد بين أغصان الشجيرة بتركيز شديد وقص إحداها بحذر متجنبًا إصابة الغصن الأكبر المجاور لها.

قلت بغضب مكبوت: «ماذا دهاك بحق الجحيم؟» كان من الصعب عليّ إبقاء صوتي منخفضًا، كانت هناك نوافذ مفتوحة في الطابق العلوي تواجه الجهة الخلفية، حيث أمكنني سماع الناس يتحدثون ويستمعون إلى الراديو وهم يتحركون داخل الشقة. تابعت بصوت أكثر حدة: «لماذا تصر على تعقيد الأمور على الجميع؟»

لم يلتفت إليّ.

أمسكت بالمقص من يده ورميته على الأرض، فارتطم بالبلاط محدثًا قرقرة مدوية.

قلت: «أجبنني».

تبادلنا نظرة صامته مدة طويلة، كانت عيناه ثابتتين وشديديتي
الزرقة خلف نظارته.

أخيراً قال بهدوء: «أخبرني».

أربكتني حدة نظرته، قلت: «أخبرك بماذا؟».

«هل تشعر بقدر كبير من المشاعر نحو الآخرين؟»

شعرت بالدهشة، قلت: «عمّ تتحدث؟ بالطبع أشعر».

رفع حاجبيه قليلاً، ثم قال: «حقاً؟ لا أظن ذلك». وبعد لحظة
صمت مشوبة بالتوتر، أضاف: «لكن لا يهم. فأنا أيضاً لا أشعر
بالكثير تجاه الآخرين».

«ما الذي تحاول قوله؟»

هز كتفيه بلا مبالاة وقال: «لا شيء محدد. ولكن حياتي كانت
في معظمها راكدة وخالية من الألوان كأنها ميتة. كان العالم
بالنسبة إليّ دائماً مكاناً فارغاً، لم أستطع الاستمتاع حتى بأبسط
الأشياء، شعرت بالموت يلاحقني في كل خطوة». نفخ الغبار عن
يديه وأضاف بهدوء: «لكن هذا تغيّر. تغيّر في الليلة التي قتلت
فيها ذلك الرجل».

صعقتني كلماته، شعرت بالاضطراب والفرع. كان يتحدث عن
شيء كنا نتجنبه، شيء لطالما همسنا عنه برموز وتلميحات، من
دون مواجهته بهذا الوضوح الصارخ.

واصل بهدوء: «كانت أهم ليلة في حياتي. بفضلها استطعت أن
أفعل ما كنت أطمح إليه دائماً».

«والذي هو؟»

أجاب ببساطة: «أن أعيش بلا تفكير».

تردد طنين النحل بصوت مرتفع وهو يحوم حول أزهار صريمة
الجدى. استدار هنري إلى شجيرة الورد من جديد، وواصل
تقليمه الغصينات العليا. قال: «قبل ذلك، كنت عالقًا، على الرغم
من أنني لم أكن أدرك ذلك. السبب كان أنني كنت أفرط في
التفكير، أعيش كثيرًا داخل رأسي. كان اتخاذ القرارات صعبًا،
وكنت دائمًا أشعر بالعجز».

«والآن؟»

رفع بصره نحوي وقال: «الآن أعلم أنني أستطيع فعل أي شيء
أريده». ثم أضاف وهو يحدّق إلى عيني: «إن لم أكن مخطئًا، فقد
مررت بتجربة مشابهة».

«لا أعرف ما الذي تتحدث عنه».

قال بنبرة واثقة: «أوه، لكنني أظن أنك تعرف. ذلك الإحساس
الهائل بالقوة والبهجة والثقة والسيطرة. ذلك الشعور المفاجئ
بثراء العالم وأنه مليء بالفرص التي لا تُحصى».

كان يتحدث عما حدث في الوادي، وما أثار رعبي أن حدسه
كان على صواب بطريقة ما. فعلى الرغم من فظاعة ما جرى،
فقد أضفى مقتل باني على الأحداث اللاحقة إحساسًا غريبًا
بالحيوية والوضوح. كان ذلك مزعجًا في بعض الأحيان، لكنه لم
يكن غير مرحب به بالكامل.

قلت موجّهًا كلامي إلى ظهره: «لا أفهم ما علاقة هذا بما
يحدث الآن».

قال وهو يقيّم توازن شجيرة الورد، ثم يزيل بحذر شديد
غصنًا آخر في المنتصف: «لست متأكدًا أنني أفهم أيضًا، لكن

ما تعلمته في الآونة الأخيرة أن الأشياء المهمة في الحياة قليلة جداً، أدركت في الأشهر الستة الماضية أن العثور على بضعة أشياء تستحق التركيز هو الأمر الأهم، هذا كل شيء».

خطاً إلى الخلف قليلاً ونظر إلى الشجيرة، ثم سألتني: «ألق نظرة، هل تبدو جيدة الآن؟ أم يجب أن أوسع المساحة في المنتصف أكثر؟».

«هنري، أصغ إلي».

«لا أريد أن أقص منها أكثر مما ينبغي، كان يجب أن أفعل هذا منذ شهر، في هذا الوقت من العام قد تذبل الأغصان بعد التقليم، ولكن كما يقولون أن تأتي متأخراً خير من ألا تأتي أبداً». قلت بنبرة متوسلة: «هنري، أرجوك!» شعرت أنني على وشك البكاء. «ما الذي يجري لك؟ هل فقدت عقلك؟ ألا تدرك ما يحدث حولك؟»

نهض ونفض يديه فوق بنطلونه وقال: «يجب أن أدخل المنزل الآن».

شاهدته وهو يعلق المقص على وتد ويمشي مبتعداً، بقيت واقفاً متوقفاً أنه سيستدير ويقول شيئاً حتى لو كان مجرد وداع لكنه لم يفعل، دخل إلى المنزل وأغلق الباب خلفه.

وجدت شقة فرانسيس غارقة في الظلام، تتسلل خيوط رفيعة من الضوء عبر الستائر الفينيسية المغلقة. كان نائماً، والجو مشبع برائحة حامضة عابقة بالرماد، كانت أعقاب السجائر تطفو في كأس من مشروب الجن، لمحت بقعة محترقة سوداء على طلاء الطاولة المجاور لسريره.

فتحت الستائر قليلاً لأسمح بدخول بعض أشعة الشمس،
فرك عينيه وناداني باسم غريب قبل أن يدرك من أكون، قال
بتثاقل ووجهه شاحب ومتشنج مثل شخص أمهق: «أوه، أنت... ما
الذي تفعله هنا؟»

ذكرته بأننا اتفقنا على زيارة تشارلز.

مكتبة

t.me/soramnqraa

«في أي يوم نحن؟».

«الجمعة».

استلقى مرة أخرى في سريره.

«الجمعة؛ أنا أكره أيام الجمعة، وأكره الأربعاء أيضاً، كلاهما
يحملان حظاً سيئاً، ففيهما تتلى أسرار الحزن⁽¹⁾ في المسبحة
الوردية».

بقي مستلقياً على ظهره يحدق إلى السقف، ثم قال: «هل
تشعر أحياناً بأن شيئاً فظيئاً على وشك الحدوث؟».
شعرت بالقلق من كلماته، لكنني أجبت بطريقة دفاعية: «لا»،
مع أن هذا لم يكن صحيحاً.

سألته: «ماذا تظن أنه سيحدث؟»

رد من دون أن يتحرك: «لا أعرف، ربما أكون مخطئاً».

قلت: «يجب أن تفتح النافذة، رائحة الغرفة لا تُطاق».

رد ببرود: «لا أهتم، لا أستطيع أن أشم شيئاً، أعاني التهاباً في
الجيوب الأنفية». تحسس بفتور الطاولة بجانبه بحثاً عن سجائره.

(1) تُتلى أسرار الحزن تقليدياً كجزء من صلوات المسبحة الوردية في المسيحية،
وهي تتناول الأحداث المؤسفة التي سبقت وقادت إلى موت المسيح. وعادة ما
تُصلى أيام الآحاد والأربعاء والجمعة.

قال: «يا إلهي، أنا مكتئب جداً، لا أستطيع رؤية تشارلز الآن».

«علينا زيارته».

«كم الساعة الآن؟»

«الحادية عشرة تقريباً».

بعد لحظة صمت، قال: «لديّ فكرة، دعنا نتناول الغداء أولاً، ثم نذهب لزيارة تشارلز».

«سنظل قلقين بشأن ذلك طوال الوقت».

«دعنا نطلب من جوليان مرافقتنا، أراهن أنه سيأتي».

«لماذا تريده أن يأتي؟».

«أنا مكتئب، وجوده مريح دائماً».

ثم أضاف: «أو ربما لا، لا

أدري».

فتح جوليان باب حجرة مكتبه مجرد فتحة صغيرة، كما فعل في المرة الأولى التي طرقت فيها هذا الباب، لكنه سرعان ما فتحه على مصراعيه عندما رأى من نحن.

سأله فرانسيس على الفور إن كان يريد الانضمام إلينا لتناول الغداء.

أجاب جوليان بابتسامة: «بالطبع، سيسرني ذلك». ثم ضحك وقال: «لقد كان هذا الصباح غريباً بالفعل، الأكثر غرابة على الإطلاق. سأخبركما بما حدث في الطريق».

كانت الأشياء التي يصفها جوليان بالغريبة أموراً عادية في الواقع. لقد اختار العيش معزولاً عن العالم الخارجي، لذا كان يجد في الأمور اليومية شيئاً من الغرابة؛ ماكينة الصراف الآلي على سبيل المثال، أو منتج جديد في السوبر ماركت مثل حبوب

إفطار على شكل مصاصي الدماء أو الزيادي غير المحفوظ في
الثلاجة الذي يباع في عبوات معدنية. كنا نستمتع جميعاً بسماع
قصصه عن مواجهاته الطريفة مع مستجدات القرن العشرين،
فطلبنا منه أنا وفرانسيس أن يخبرنا بما حدث هذه المرة.

قال جوليان: «حسناً، سكرتيرة قسم الآداب واللفات كانت
هنا منذ قليل. جاءت تحمل رسالة موجهة إليّ. في مكتب قسم
الآداب هناك صناديق بريدية داخلية، كما تعلمان، يمكن للأستاذ
الجامعي أن يترك فيها ما يود طباعته على الآلة الكاتبة، أو أن
يرسل الرسائل ويتلقاها داخل الكلية، مع أنني نادراً ما أستخدمها؛
فأي شخص يرغب في التواصل معي يعرف كيف يصل إليها». ثم
أشار إلى رسالة مفتوحة على المائدة بجانب نظارة القراءة،
وأضاف: «هذه الرسالة وُضعت خطأً في صندوق بريد الأستاذ
مورس الذي كان في إجازة تفرغ، جاء ابنه هذا الصباح لاستلام
بريد والده، ووجد الرسالة في صندوقه بالخطأ».

مال فرانسيس إلى الأمام وسأله بفضول: «أي نوع من الرسائل؟
ومن أرسلها؟».

أجاب جوليان بهدوء: «باني!».

اخترق قلبي خنجر من الرعب، نظرنا إليه مذهولين، ابتسم
جوليان لنا، منتظراً أن تصل دهشتنا إلى أقصاها.

قال: «بالطبع، ليست من إدموند نفسه، إنها رسالة مزيفة،
وصراحةً ليست مزيفة بإتقان، الرسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة
بلا توقيع ولا تاريخ، لا تبدو رسالة حقيقية، أليس كذلك؟».

وجد فرانسيس صوته أخيراً، سأل: «مكتوبة على الآلة الكاتبة؟»

«أجل».

«لم يكن لدى باني آلة كاتبة».

رد جوليان: «صحيح. لقد كان تلميذي لأربع سنوات، ولم يسلمني قط أي شيء مكتوب بالآلة الكاتبة، على حد علمي لم يكن يعرف حتى كيف يستخدمها، أو ربما كان يعرف ولم أعلم بذلك». وابتسم ابتسامة مأكرة.

بعد لحظة من التفكير العميق، قال فرانسيس: «أعتقد أنك محق».

كررت ما قاله فرانسيس، على الرغم من علمي -كما يعلم هو- أن باني كان يجيد استخدام الآلة الكاتبة. صحيح أنه لم يكن يملك واحدة، لكن كثيراً ما استعار آلة فرانسيس أو استخدم إحدى الآلات القديمة الموجودة في المكتبة ذات المفاتيح العالقة، والحقيقة التي لم نرغب قط في الإشارة إليها أننا لم نقدم لجوليان أي نصوص مكتوبة على الآلة الكاتبة لسبب بسيط؛ كان من المستحيل كتابة الأحرف اليونانية على آلة كاتبة إنجليزية. ومع أن هنري اشترى آلة كاتبة صغيرة محمولة بالحروف اليونانية خلال عطلة قضاها في جزيرة ميكونوس اليونانية، فإنه لم يستخدمها قط كما أخبرني، لأن ترتيب لوحة مفاتيحها كان مختلفاً تماماً عن الإنجليزية، واستغرق منه الأمر خمس دقائق لكتابة اسمه فقط.

قال جوليان متأسفاً: «إنه لأمر محزن أن يرغب أحد في خدعة كهذه، لا أستطيع أن أتخيل من قد يفعل مثل هذا الشيء». قال فرانسيس: «هل تعرف منذ متى كانت الرسالة في صندوق البريد؟».

أجاب جوليان: «هذه هي المشكلة، لا يمكن تحديد متى وُضعت الرسالة في صندوق البريد، قالت السكرتيرة إن ابن الأستاذ مورس لم يأتِ للتحقق من بريد والده منذ مارس، وهذا يعني أن الرسالة ربما وُضعت أمس أو في أي يوم بين مارس وأمس، لا يمكن الجزم بشيء».

أشار إلى الظرف الموجود على الطاولة وأضاف: «انظرا، لا يوجد سوى اسمي مكتوبًا على الآلة الكاتبة في المقدمة، لا عنوان مرسل ولا تاريخ وبالطبع لا ختم بريدي، من الواضح أن من كتبها يعتقد نفسه ذكيًا. لكن ما لا أستطيع فهمه هو: لماذا قد يمزح أحدهم مزحة قاسية كهذه؟ لدي رغبة تكاد لا تُقاوم في إخبار العميد عنها، على الرغم من أنني بكل صدق لا أريد إعادة إثارة أي مشكلات بعد كل ما مررنا به مؤخرًا».

الآن بعد أن زالت عني الصدمة الأولى الرهيبة، بدأت أتنفس بشكل أكثر سهولة، سألته: «ماذا كُتب فيها؟»

هز جوليان كتفيه: «يمكنك إلقاء نظرة عليها، إذا أردت».

التقطت الرسالة، فيما كان فرانسيس يقرأها معي من فوق كتفي. كانت الرسالة مكتوبة بخط متتابع دون مسافات بين الجمل، وكانت مكونة من خمس أو ست أوراق صغيرة، تشبه ورق الكتابة الذي كان باني يستخدمه.

وعلى الرغم من تشابه حجم الأوراق، فإنها لم تكن متطابقة تمامًا، استنتجت من الطريقة التي كان بها شريط حبر الآلة الكاتبة يطبع الحروف -بدا نصف الحرف أحمر والنصف الآخر

أسود- أنها كُتبت على الآلة الكاتبة الموجودة في غرفة الدراسة الليلية بالكلية.

كانت الرسالة نفسها مشوشة وغير مترابطة، لكنها حقيقية بلا أدنى شك في نظري. لم أmeen فيها طويلاً، ولا أستطيع تذكر كل تفاصيلها، لكنني أدركت أنه إذا كان باني من كتبها فلا بد أنه كان في حالة من الانهيار أكثر مما كنا نعتقد. كانت الرسالة مليئة بالألفاظ النابية، كلمات يصعب تصور أن باني سيستخدمها في رسالة موجهة إلى جولييان حتى في أسوأ الظروف، ومع أنها لم تكن موقعة فإن هناك إشارات واضحة تدل على أن باني كوركوران أو شخص يحاول تقليده هو كاتب الرسالة.

كانت الأخطاء الإملائية في الرسالة كثيرة، وهي أخطاء تميز باني، لكن جولييان لحسن الحظ لم يكن يولي هذه الأمور اهتماماً كبيراً، طلب باني عادة من شخص آخر مراجعة أعماله قبل تسليمها لأنه كان كاتباً سيئاً جداً.

حتى أنا ربما كانت الشكوك ستساورني حول هوية كاتب الرسالة، فقد بدت مشوهة ومليئة بجنون الارتياح. كنت سأظل في حيرة لولا ذكر جريمة قتل باتنكيل: «إنه -هنري، على ما يبدو من سياق الرسالة- وحش حقيقي، قتل رجلاً ويريد قتلي أنا أيضاً، الجميع متورطون، الرجل الذي قُتل في أكتوبر في مقاطعة باتنكيل... اسمه كان ماك ري، أعتقد أنهم ضريوه حتى الموت، لكنني لست متأكداً». تضمنت الرسالة اتهامات أخرى، بعضها صحيح (مثل الممارسات المخلة بين التوأمين وتعنيف تشارلز لكاميل)، وبعضها غير صحيح. ومع ذلك كانت الاتهامات

عامّة وغير قابلة للتصديق بالنسبة إلى شخص غريب؛ ما جعل الرسالة تبدو تافهة وغير ذات شأن، لم يُذكر اسمي مطلقاً، حملت الرسالة برمتها نبذة متشائمة مشوبة بالسخر، وهي نبذة مألوفة عند باني.

على الرغم من أن هذا لم يخطر ببالي إلا لاحقاً، فإنني أعتقد الآن أن باني كتب الرسالة في غرفة الدراسة الليلية في نفس الليلة التي جاء فيها إلى غرفتي ثملاً، سواء قبل أم بعد ذلك، وعلى الأرجح بعد. كانت مجرد مصادفة أننا لم نلتق بعضنا عندما كنت في طريقي إلى مبنى العلوم للاتصال بهنري. هناك شيء واحد لا أستطيع نسيانه، وهو السطر الأخير الذي كان مؤلماً: «من فضلك، ساعدني. هذا هو سبب كتابتي لك. أنت الوحيد الذي يستطيع مساعدتي».

أخيراً، قال فرانسيس بنبرة مرتجلة وبسيطة: «لا أعرف من كتب هذه الرسالة، لكن من المؤكد أنه لا يجيد التهجئة». ضحك جولييان بصدق. علمت أنه لم يكن لديه أدنى فكرة عن أن الرسالة حقيقية.

أخذ فرانسيس الرسالة بيده، وأخذ يتفحص أوراقها. وعندما وصل إلى الورقة قبل الأخيرة، التي كانت بلون مختلف قليلاً، قلبها بلا مبالاة وقال: «يبدو أن...»، ثم توقف.

سأله جولييان بابتسامة: «يبدو ماذا؟»
مرت لحظة قصيرة قبل أن يرد فرانسيس: «يبدو أن من كتب الرسالة كان بحاجة إلى شريط آلة كاتبة جديد». لكنني أدركت أن هذا ليس ما كان يود قوله في البداية قبل أن يكبح نفسه.

كانت الحقيقة جلية عندما قلب الورقة ذات اللون المختلف، ورأينا برعب ما كان على ظهرها، طُبع عليها ترويسة فندق إكسلسيور، الفندق الذي أقام فيه باني وهنري في روما.

أخبرنا هنري لاحقاً وهو يغطي وجهه بيديه، أن باني طلب منه أن يشتري له علبة أخرى من الورق الفاخر قبل يوم من وفاته. كانت تلك الأوراق باهظة الثمن ومحززة بلون أبيض مائل إلى الأصفر مستوردة من إنجلترا؛ أفضل ما يمكن شراؤه في متجر البلدة. قال هنري بمرارة: «لو أنني اشتريتها له فقط، ألح عليّ كثيراً، وطلبها مني ست مرات. لكنني ظننت أن الأمر لا يستحق». لم تكن الورقة التي أخذها من فندق إكسلسيور جيدة أو سميكة كفاية، خمن هنري -ربما كان محقاً- أن باني قد استنفد ما لديه من أوراق، فبحث في مكتبه، ووجد تلك الورقة بنفس الحجم تقريباً، فاستخدم ظهرها ليكتب عليها.

حاولت ألا أركز نظري على الترويسة، لكنها ظلت تعترض مجال رؤيتي؛ قصر مرسوم بالحبر الأزرق بخط انسيابي مثل ذاك الذي يُستخدم في قائمة مطعم إيطالي، وحواف زرقاء على الورق. لا لبس في ذلك؛ كان شعار فندق إكسلسيور.

قال جوليان: «بصراحة لم أنته من قراءة الرسالة، ولكن من الواضح أن من كتبها مضطرب نفسياً إلى حد كبير. لا أستطيع الجزم، ولكن أظن أن الكاتب ربما يكون طالباً آخر من الكلية، أليس كذلك؟»

رد فرانسيس فيما كان يقلب ورقة الفندق مجدداً: «لا أستطيع أن أتخيل أن طالباً من الكلية قد يكتب شيئاً كهذا، إن كان هذا ما تعنيه».

لم نتبادل النظرات، لكنني كنت أعرف تمامًا ما يجول في خاطر فرانسيس؛ كيف يمكننا سرقة هذه الورقة؟ وكيف نهرب بها من دون أن يلاحظ جولييان؟

لتشتيت انتباه جولييان مشيت نحو النافذة وقلت بلهجة عابرة وظهري لهما: «يا له من يوم جميل، أليس كذلك؟ من الصعب تصديق أن الأرض كانت مغطاة بالثلوج قبل شهر تقريبًا...». واصلت الثثرة، كنت بالكاد أعي ما أقوله خائفًا من الالتفاف والنظر.

أجاب جولييان بأدب: «نعم، نعم، الطقس رائع في الخارج»، لكن صوته أتى من مكان أبعد مما توقعت، بالقرب من خزانة الكتب، التفت لأجده يرتدي معطفه.

من النظرة التي كانت على وجه فرانسيس عرفت أنه لم يفلح. كان يقف وقد استدار بجذعه فيما يراقب جولييان بطرف عينه. بدا أنه سيتمكن من اختلاس الورقة عندما أدار جولييان رأسه وسعل، ولكن ما إن سحبها، استدار جولييان مجددًا، واضطر فرانسيس إلى إعادة الورقة إلى مكانها بسرعة كأنما كان يرتب الصفحات ببساطة.

ابتسم جولييان وهو يقف عند الباب قائلاً: «هل أنتما مستعدان يا شباب؟»

أجاب فرانسيس بحماس مبالغ فيه كأنه يحاول إخفاء توتره: «بالتأكيد».

ترك جولييان الرسالة مطوية على الطاولة، وخرجنا خلفه، نبتسم ونتحدث فيما كان التوتر واضحًا على كتفي فرانسيس، وكنت أعض شفتي من الداخل مُحبطًا.

كان غداء بائسًا. لا أذكر شيئًا مميزًا بشأنه سوى أنه كان يومًا مشمسًا، جلسنا إلى مائدة قريبة من النافذة، فزاد الوهج المسلط على عيني من ارتباكي وانزعاجي. كنا نتحدث باستمرار عن الرسالة... والرسالة... ثم الرسالة مجددًا. هل يمكن أن يكون كاتبها شخصًا يحمل ضغينة تجاه جوليان؟ أو ربما أحد الأشخاص الغاضبين منا؟

كان فرانسيس يبدو أكثر تماسكًا مني، لكنه استمر في شرب كؤوس من النبيذ الرخيص واحدة تلو الأخرى، حتى بدأ العرق يتصبب على جبينه.

كان جوليان مقتنعًا أن الرسالة مزيفة، كان هذا واضحًا، لكنه إذا لمح ترويسة الفندق في أعلى الورقة، فستنتهي اللعبة تمامًا، لأنه كان يعلم جيدًا كما نعلم نحن أن باني وهنري أقاما في فندق «إكسلسيور» بضعة أسابيع، كان أملنا الوحيد أن يرميها ببساطة من دون أن يراجعها أو يعرضها على أحد.

طالما استهوت الدسائس والسرية جوليان، وكانت هذه الرسالة الغامضة من نوعية الألفاظ التي تثير شهيته للاستكشاف عدة أيام. (لا، هل يمكن أن يكون فردًا في الكلية؟ هل تعتقدان ذلك؟) ظللت أفكر في ما قاله عن عرض الرسالة على العميد. علينا أن نحصل على الرسالة بأي ثمن حتى لو اضطررنا إلى اقتحام مكتبه.

لكن حتى لو افترضنا أنه ترك الرسالة في مكتبه، في مكان يمكننا العثور عليها فيه، فهذا يعني الانتظار ست أو سبع ساعات. شريت كثيرًا خلال الغداء، لكنني كنت لا أزال متوترًا لدرجة

أنني طلبت براندي مع الحلوى بدلاً من القهوة، خرج فرانسيس مرتين لإجراء مكالمات هاتفية، كنت أعلم أنه يحاول الوصول إلى هنري ليطلب منه الذهاب إلى المكتب وتمزيق الرسالة فيما نحتجز جوليان في الحانة، وعرفت أيضاً من ابتساماته المتوترة عندما عاد أنه لم يحالفه الحظ.

بعد المحاولة الثانية، خطرت لي فكرة: إذا كان بإمكان فرانسيس المغادرة لإجراء مكالمات هاتفية، فلم لا يخرج من الباب الخلفي ويذهب بنفسه بالسيارة للحصول على الرسالة؟ لو كان لدي مفتاح السيارة لذهبتُ، ولكنني لم أعرف كيف أحصل عليه إلا بعد فوات الأوان، ففي الوقت الذي كان فرانسيس يدفع فيه الفاتورة، أدركت أنه كان ينبغي أن أطلب المفتاح بحجة أنني نسيت شيئاً في السيارة.

في طريق العودة إلى الكلية وفي ظل الصمت المشحون أدركت أن الشيء الذي كنا نعتمد عليه هو قدرتنا على التواصل في أي لحظة. في المواقف الطارئة السابقة، كنا نلجأ دائماً إلى التحدث باليونانية، نتستر وراء حكمة قديمة أو اقتباس مأثور، لكن وجود جوليان معنا الآن جعل ذلك مستحيلاً.

لم يدعنا جوليان إلى مكتبه، شاهدناه يصعد الممشى، يلوح لنا قبل أن يستدير نحو الباب الخلفي لقاعة المحاضرات، كانت الساعة تقارب الواحدة والنصف ظهرًا.

جلسنا في السيارة بلا حراك بعد اختفائه.

تلاشت ابتسامة الوداع الودية التي كانت تغلو وجه فرانسيس، وفجأة انحنى وضرب جبهته بعجلة القيادة بعنف أربكني، وصرخ: «اللعة! اللعة!».

أمسكت بذراعه وهزرتة قائلاً: «اسكت».

قال باكياً: «أوه، اللعنة!» وضغط بكفيه على صدغيه، وأضاف:
«هذه هي النهاية يا ريتشارد».

«اسكت».

«انتهى الأمر، لقد فشلنا، سنذهب إلى السجن».

قلت مجدداً: «اسكت». من الغريب أن ذعره أعاد لي رباطة
جأشي.

«علينا أن نفكر في حل».

قال فرانسيس: «اسمع، دعنا نرحل من هنا. إذا غادرنا الآن،
سنصل إلى مونتريال قبل حلول الظلام، ولن نجدنا أحد مطلقاً».
«كلامك غير عقلاني».

تابع فرانسيس متجاهلاً تعليقي: «سوف نمكث في مونتريال
بضعة أيام، نبيع السيارة، ثم نستقل الحافلة إلى... لا أعرف
بالتحديد، ربما ساسكاتشوان أو أي مكان ناءٍ، سنذهب إلى أغرب
مكان يمكن أن نجده».

قلت له: «فرانسيس، رجاءً، اهدأ لدقيقة واحدة، أعتقد أن
بإمكاننا حل هذه المسألة».

«كيف ذلك؟».

«أول خطوة هي أن نجد هنري».

حقوق إلي غير مصدق وقال: «هنري؟ ولماذا تظن أنه سيكون
مفيداً؟ إنه مرهق تماماً، ولا يملك أي فكرة عن...».

سألته بهدوء: «أليس لديه نسخة من مفتاح مكتب جوليان؟»

هدأ قليلاً ثم قال: «بلى، أعتقد أن لديه نسخة، أو على الأقل كان يمتلك واحدة».

قلت له: «إذن، هذا هو الحل، سنبحث عن هنري ونحضره معنا، يمكنه أن يخلق عذراً ليخرج جوليان من مكتبه، ثم يتسلل أحدنا عبر الدرج الخلفي وبحوزته المفتاح».

كانت الخطة تبدو معقولة، لكن المشكلة أن العثور على هنري لم يكن سهلاً كما كنا نأمل، لم يكن في شقته، وعندما ذهبنا إلى نزل ألبيمارل، لم تكن سيارته هناك.

عدنا إلى الحرم الجامعي لتفقد المكتبة، ثم رجعنا إلى ألبيمارل. هذه المرة قررنا أنا وفرانسييس النزول من السيارة لنبحث حول المكان.

شُيد نزل ألبيمارل في القرن التاسع عشر ملاذاً للأثرياء لقضاء فترات نقاهة. كان المبنى مهيباً بأروقته المظلمة ونوافذه الطويلة وشرفته الخارجية الواسعة. أقامت شخصيات مشهورة مثل روديارد كيبلينج وفرانكلين روزفلت فيه سابقاً، لكنه لم يكن أضخم كثيراً من منزل خاص كبير.

سألت فرانسييس: «هل حاولت الاستفسار من موظف الاستقبال؟»

«لا تفكر في ذلك. هما مسجلان تحت أسماء وهمية، وأعتقد أن هنري قد أخبر مالكة الفندق بقصة ما لأنها لم تفصح عن أي شيء عندما حاولت جرّها إلى الحديث في تلك الليلة».

سألته: «هل هناك طريقة لتجاوز بهو الفندق من دون أن نلاحظ؟»

«لا أعرف مطلقاً. أمي وكريس أقاما هنا مرة واحدة، المكان ليس كبيراً، لا أعرف سوى السلالم الرئيسة التي عليك المرور بجانب مكتب الاستقبال للوصول إليها».

«ماذا عن الطابق السفلي؟».

«أعتقد أنهما يقيمان في أحد الطوابق العلوية. ذكرت كاميلاً شيئاً عن حمل الحقائق على السلالم، قد يكون هناك درج حريق لكنني لا أعرف كيفية الوصول إليه».

صعدنا إلى الشرفة، كنا نستطيع رؤية بهو الفندق البارد والمظلم من خلال الباب الزجاجي، خلف مكتب الاستقبال وقف رجل مسن يضع نظارة هلالية، يقرأ نسخة من مجلة «بنينجتون بانر».

همست لفرانسيس: «هل هذا هو الرجل الذي تحدثت إليه؟»
«لا، زوجته».

«هل رأك سابقاً؟»

«لا».

دفعت الباب لأفتحه، مددت رأسي عبره لحظة ثم خطوات إلى الداخل، رفع مالك الفندق عينيه عن ورقته ورمقنا بنظرة متعجرفة من أعلى إلى أسفل، كان أحد هؤلاء المتقاعدين المتحفظين الذين ترى كثيراً منهم في نيو إنجلاند، أولئك الذين يشتركون في مجلات قديمة ويحملون إحدى حقائب التسوق القماشية التي يقدمونها هدايا في برامج التليفزيون العام.

أعطيته أفضل ابتساماتي، لاحظت أنه يوجد خلف منضدة الاستقبال لوحة تعليق مثبتة إليها مفاتيح الغرف، كانت مرتبة في

صفوف حسب الطابق، كان ثمة ثلاثة مفاتيح مفقودة في صف الطابق الثاني، تحديداً غرف B و C و E، ومفتاح واحد فقط A في صف الطابق الثالث.

راح ينظر إلينا ببرود، قال: «كيف يمكنني مساعدتكما؟»
قلت: «عذراً، ولكن هل تعرف إذا كان والدانا قد وصلا من كاليفورنيا؟».

فوجئ بسؤالي، فتح دفتر الحجوزات، وقال: «ما اسمهما؟»
أجبته: «رايورن، السيد والسيدة كلوك رايبورن».
«لا أرى أمامي حجراً بهذا الاسم».
«ربما لم يجريا حجراً مسبقاً».

رمقني من أعلى نظارته، وقال: «عموماً، نطلب حجراً مسبقاً مع إيداع مبلغ قبل ثمان وأربعين ساعة على الأقل».
«لم يظننا أنهما سيحتاجان إلى ذلك في هذا الوقت من العام».
قال باقتضاب: «حسناً، ليس هناك ما يضمن أن يكون هناك غرف شاغرة عند وصولهما».

على الرغم من رغبتي في الإشارة إلى أكثر من نصف غرف نُزله فارغة، وأنتي لم أَرِ أي نزلاء يتقاتلون للإقامة فيه، فضلت الابتسام مجدداً وقلت: «يبدو أنهما سيعتمدان على حظهما إذن».
لقد هبطت طائرتهما في مطار ألباني ظهراً، ومن المتوقع أن يصلا في أي لحظة».

«حسناً، إذن».

«هل تمانع إذا انتظرنا هنا؟»

كان واضحًا عليه أنه يمانع بشدة، لكنه لم يستطع التصريح بذلك. اكتفى بالإيماء برأسه وفمه مزمووم، وهو يفكر بلا شك في المحاضرة حول سياسة الحجز التي سيلقيها على والديَّ عند وصولهما.

عاد إلى قراءة صحيفته بجلبية متعمدة.

جلسنا على أريكة ضيقة فيكتورية الطراز بعيدًا عن مكتب الاستقبال قدر الإمكان.

كان فرانسيس مضطربًا ينظر حوله بقلق، همس لي بصوت خافت جدًا: «لا أريد البقاء هنا، أخشى أن تعود زوجته ويفتضح أمرنا».

«هذا الرجل بغيض جدًا، أليس كذلك؟».

«زوجته أسوأ».

كان مالك النزل يتجاهلنا عن عمد حتى أنه أدار ظهره لنا.

وضعت يدي على ذراع فرانسيس وهمست: «سأعود قريبًا، أخبره فقط أنني ذهبت للبحث عن حمام الرجال».

كانت السلالم مفروشة بالسجاد فتمكنت من صعودها من دون إحداث كثير من الضجيج. أسرعت عبر الممر في الطابق الثاني حتى رأيت الغرفة C2، والغرفة B2 جوارها، كانت الأبواب مغلقة بإحكام، ولكن لم يكن الوقت مناسبًا للتردد، طرقت على باب الغرفة C، فلم يجب أحد، طرقت مرة أخرى بصوت أعلى هذه المرة، وصحت: «كاميلا!».

في تلك اللحظة بدأ كلب صغير ينبع بشراسة عبر الممر من الغرفة E. فكرت: يمكن استبعاد تلك الغرفة، وكنت على وشك أن

أطرق الباب الثالث، عندما فتح فجأة وظهرت أمامي سيدة في منتصف العمر ترتدي تنورة جولف، وسألتني: «عفوًا، هل تبحث عن أحد؟»

شعرت بالإحراج قليلًا، فهرولت صاعدًا الدرج إلى الطابق الثالث، حيث ساورني حدس أنهما سيكونان فيه. وفيما كنت أسير عبر الممر مرت بجانبني امرأة نحيلة في الستين من عمرها، ترتدي فستانًا مزخرفًا ونظارة كبيرة ملونة، كانت ملامح وجهها حادة مثل كلب بودل، وهي تحمل كومة من المناشف المطوية. صرخت: «انتظروا إلى أين تذهب؟»

لكنني تجاهلتها وتابعت طريقي، وصلت إلى باب الغرفة A3 وطرقت عليه قائلاً: «كاميلا أنا ريتشارد! افتحي الباب!» وفي اللحظة التالية فتحت كاميلا الباب وظهرت أمامي مثل معجزة، كان ضوء الشمس يتسلل من خلفها إلى الممر، كانت حافية القدمين وعيناها تلمعان من المفاجأة. قالت: «مرحبًا! ماذا تفعل هنا؟».

جاء من خلفي صوت زوجة مالك الفندق غاضبة: «ما الذي تظن أنك تفعله؟ من أنت؟».

قاطعتها كاميلا: «كل شيء على ما يرام».

شهقت وأنا ألهث: «دعيني أدخل».

أغلقت الباب خلفي، كانت غرفة جميلة مكسوة بخشب البلوط، في الزاوية البعيدة لمحت مدفأة وُضع أمامها سرير وحيد، وقد تكدّست الملاءات عند طرفه.

سألتها بقلق: «هل هنري هنا؟»

قالت بقلق: «ما الخطب؟» نظرت إليّ باضطراب واحمرت وجنتاها بوضوح، وأضافت: «الأمر يتعلق بتشارلز، أليس كذلك؟ هل حدث له مكروه؟»

تشارلز! كنت قد نسيت أمره تمامًا. حاولت استجماع أنفاسي. قلت: «لا، ليس لديّ وقت للشرح، علينا إيجاد هنري فوراً، أين هو؟».

نظرت إلى الساعة، وقالت: «لماذا؟ أعتقد أنه في مكتب جوليان».

«مكتب جوليان؟!»

قالت وهي ترى الدهشة على وجهي: «نعم، أعتقد أن لديه موعداً معه في الساعة الثانية، ماذا جرى؟»

هرولت إلى الطابق السفلي لأخذ فرانسيس قبل أن تتاح لمالك الفندق وزوجته فرصة أن يتحدثا ويكتشفا كذبتنا.

قال فرانسيس فيما نقود السيارة في طريق العودة إلى الكلية: «ماذا سنفعل الآن؟ هل ننتظر حتى يغادر هنري؟»

«أخشى أن يفوتنا، ربما الأفضل أن يصعد أحدها ويحضره».

أشعل فرانسيس سيجارة، فاهتزّ تذبذب لهب عود الثقاب في الهواء، وقال: «ربما تمكن هنري من الحصول عليها وانتهى الأمر».

أجبتة: «لا أعرف». لكنني في الواقع كنت أفكر في نفس الأمر، إذا رأى هنري ترويسة الورقة التي تحوي شعار الفندق، كنت واثقاً تماماً أنه سيحاول أخذها، وسيكون بالتأكيد أكثر مهارة منا. بالإضافة إلى ذلك -بدا الأمر تافهاً لكنه كان حقيقياً تماماً- كان هنري المفضل لدى جوليان. إذا فكر في ذلك، قد يستحوذ على

الرسالة كاملة وليس الورقة وحدها بحجة تسليمها إلى الشرطة لتحليل الكتابة، من يدري ما الذي قد يخطر على بال هنري؟ نظر إليّ فرانسيس نظرة جانبية وقال: «إذا اكتشف جوليان الحقيقة، فماذا تعتقد أنه سيفعل؟»

قلت بصراحة: «لا أعلم» لم أستطع حتى تخيل الأمر، كان مستبعداً لدرجة أنني لم أستطع تصور رد فعله سوى من خلال مشاهد ميلودرامية؛ جوليان يتعرض لنوبة قلبية قاتلة، أو يبكي بلا توقف كرجل محطم.

«لا أستطيع أن أصدق أنه سوف يسلمنا إلى الشرطة».

«لا أعرف».

«لكنه لن يستطيع لأنه يحبنا».

لم أجب.

بغض النظر عن مشاعر جوليان تجاهي كنت أشعر نحوه بحب وثقة عميقين، إذ إنه عندما ابتعد والداي عني شيئاً فشيئاً، وأصبح هذا البعد متعمداً على مدار سنوات، كان جوليان هو الوحيد الذي يمثل لي صورة الخير الأبوي والإحسان، كان جوليان بالنسبة إليّ الملاذ الآمن والحامي الوحيد.

قال فرانسيس: «لقد كان خطأ، عليه أن يتفهم ذلك».

أجبت: «ربما»، لم أستطع تخيل أن يكتشف الحقيقة، ولكن عندما حاولت أن أتصور شرح هذه الكارثة لشخص ما، أدركت أن شرحها لجوليان قد يكون أسهل من أي شخص آخر، ربما اعتقدت أن ردة فعله ستكون مشابهة لردة فعلي؛ سينظر إلى الأمر على أنه تصرف مأساوي مؤسف، لكنه لا يخلو من لمسة من

الفضاعة المثيرة (كان تولستوي العجوز يتباهى: «فعلت كل شيء»، حتى أنني قتلت رجلاً»⁽¹⁾)، بدلاً من العمل الشرير الأناني الذي كانت عليه في الأساس.

قال فرانسيس فجأة: «إنك تعرف ما كان جوليان يقوله دائماً؟»
«ماذا؟».

«عن قديس هندوسي قادر على ذبح ألف شخص في ساحة المعركة، ولكن هذا الفعل ليس خطيئة إلا إذا شعر بالندم عليه». سمعت جوليان يقول هذا، لكنني لم أفهم قط ما كان يقصده به.

قلت: «نحن لسنا هندوساً».

قال جوليان: «ريتشارد»، كانت نبرته مرحبة، ولكنها في الوقت نفسه تخبرني أنني أتيت في توقيت سيئ.

«هل هنري هنا؟ أحتاج إلى التحدث إليه عن أمر ما».

ظهرت الدهشة على وجهه، قال: «بالطبع»، وفتح الباب على مصراعيه.

جلس هنري إلى الطاولة التي اعتدنا أن ندرس عليها اليونانية، وكان كرسي جوليان الذي يضعه عادة جانب النافذة مسحوباً بالقرب من هنري.

(1) الاقتباس من كتاب «اعتراف» ليو تولستوي، وهو مقالة طويلة عن أفكاره الدينية ويبحث عن إجابات عن الأسئلة الوجودية العميقة التي تشغله عن معنى الوجود والحياة.

لاحظت وجود أوراق أخرى مبعثرة على الطاولة، لكن الرسالة كانت أمامهما مباشرة.

رفع هنري نظره إليّ، ولم يبدُ سعيداً برؤيتي.

«هنري، هل يمكنني التحدث إليك؟»

أجاب ببرود: «بالأكيد».

التفتُ لأخطو إلى الممر، لكنه لم يبادر بأي حركة ليتبعني، كان يتجنب النظر إلى عيني، فكرت في نفسي: اللعنة عليه، إنه يظن أنني أريد استئناف محادثتنا السابقة في الحديقة.

«هل يمكنك الخروج هنا لدقيقة واحدة؟»

«ما الأمر».

«أريد أن أخبرك بشيء مهم».

رفع حاجبه وقال بسخرية: «تقصد أنه شيء تريد قوله لي على انفراد».

في تلك اللحظة شعرت بأنني أود قتله، كان جوليان يتظاهر بأدب أنه لا يتابع حديثنا لكن ما قاله هنري أثار فضوله. كان يقف منتظراً خلف مقعده.

قال: «يا إلهي، أمل ألا تكون هناك مشكلة، هل أترككما وحدكما؟»

قال هنري من دون أن ينظر إلى جوليان: «لا، يا جوليان، لا تشغل بالك».

سألني جوليان بقلق: «هل كل شيء بخير؟»

قلت: «نعم، نعم. أريد رؤية هنري ثانية واحدة فقط، إنه أمر مهم إلى حدٍّ ما».

بدا هنري غير متحمس، وقال: «ألا يمكنك الانتظار؟»
 كانت الرسالة مفرودة أمامه على المائدة، رأيته يتصفحها
 ببطء مثل كتاب ويتظاهر بقراءة كل صفحة بعناية.
 لم يكن قد لاحظ الترويسة بعد، ولم يعلم أنها موجودة.
 قلت بنبرة عاجلة: «هنري، الأمر طارئ. علينا التحدث الآن».
 فوجئ هنري بالإلحاح في صوتي، توقف عن تقليب الصفحات،
 واستدار ببطء لينظر إليّ، كانا كلاهما ينظر إليّ الآن، وفي تلك
 اللحظة قلب هنري الورقة في يده دون أن ينتبه، شعرت بأن قلبي
 يهوي، لقد رأيت الترويسة ظاهرة فوق الطاولة، شعار الفندق...
 قصر أبيض مزخرف بخطوط زرقاء.
 قال هنري بهدوء: «حسنًا» ثم أضاف معتذرًا لجوليان: «آسف،
 سنعود بعد لحظات».
 رد جوليان بقلق: «لا بأس، أمل ألا يكون الأمر خطرًا».
 أردت أن أبكي! لقد نجحت في لفت انتباه هنري، لكنني لم
 أعد أرغب فيه الآن. كانت الترويسة مكشوفة تمامًا فوق الطاولة.
 قال هنري وعيناه مثبتتان على عيني: «ما الخطب؟»
 كان يقظًا ومتأهبًا مثل قطعة، كان جوليان ينظر إليّ أيضًا،
 فيما كانت الرسالة موضوعة بينهما على الطاولة في مرمى بصره
 مباشرة، لم يكن عليه سوى النظر إلى الأسفل.
 نظرت إلى الرسالة ثم إلى هنري، ففهم على الفور. تحرك
 بنعومة، ولكن سرعته لم تكن كافية. في ذلك الجزء من الثانية
 نظر جوليان إلى الرسالة كأن فكرة طارئة خطرت على باله.
 لا أحتمل التفكير في الصمت الذي تلا ذلك.

انحنى جوليان ببطء نحو الرسالة، وتفحص الترويسة والشعار
بإمعان طويل، ثم التقط الورقة ونظر إليها عن قرب، كان الشعار
واضحاً؛ «إكسلسيور» وشارع فينيتو، بخطوط زرقاء متقنة.

شعرت بأنني خفيف وخاوي الرأس على نحو غريب.
ارتدى جوليان نظارته وجلس متأملاً الورقة بين يديه، تفحصها
من الأمام والخلف بعناية تامة. كان هناك ضحكات أطفال خافتة
في الخارج تتردد من بعيد. وأخيراً طوى الرسالة ببطء ووضعها
في الجيب الداخلي لسترته.
قال: «حسناً ... حسناً ... حسناً ...».

كما هي الحال مع معظم المواقف السيئة التي تأتي من دون
سابق إنذار، لم أكن قد هiyأت نفسي لهذا الاحتمال، لم أشعر
بالخوف أو الندم وأنا أقف هناك بل مجرد شعور خائق بالإذلال
الشديد، وبعار ساحق مخجل كأنتي عدت إلى طفولتي.

والأسوأ من ذلك كان رؤية هنري وإدراك أنه يشعر بنفس
الشعور، بل ربما بصورة أشد. كرهته حينها كرهاً شديداً، حتى
أنني شعرت برغبة عارمة في قتله، لكنني في ذات الوقت لم أكن
مستعداً لرؤيته بهذا الضعف.

ساد الصمت، طفت ذرات الغبار في شعاع الشمس الذي تسلل
إلى الغرفة.

فكرت في كاميلا في ألبيمارل، وتشارلز في المستشفى،
وفرانسيس الذي ينتظر مطمئناً في السيارة.

قطع هنري الصمت قائلاً: «جوليان، يمكنني أن أشرح هذا».

قال جوليان: «من فضلك اشرح».

بعث صوته في جسدي قشعريرة تغلغلت حتى عظامي، كان صوته باردًا بطريقة أخافتني، لطالما كان سلوك جوليان وهنري باردًا كالجليد، لكنني اعتقدت دائمًا أن برودة هنري كانت جزءًا لا ينفصم من شخصيته، أما جوليان فكنت أرى خلف تصرفاته الباردة قلبًا دافئًا وعطوفًا.

ولكن عندما نظرت إلى عينيه الآن رأيت وميضًا قاسيًا وخاليًا من الحياة، كأن ستارة المسرح الساحرة سقطت وبرز أمام عيني رجل مختلف تمامًا، ليس الحكيم العجوز الطيب والوالد الحامي المتسامح الذي كنت أراه في أحلامي، بل رجل متقلب ومتحفّز لا يحمل في أعماقه سوى حياد بارد وعديم الرحمة.

بدأ هنري في الكلام، كان من المؤلم جدًا سماعه -هنري- يتلعثم في كلامه، لدرجة أنني لم أفهم كثيرًا مما قاله. بدأ كعادته بمحاولة تبرير أفعاله، لكن سرعان ما تحول حديثه إلى لعنة غير مفهومة أمام الصمت الجليدي لجوليان. ثم -وهنا ترتعد روحي عندما أتذكر ذلك- تسللت إلى صوته نبرة متوسلة يائسة. «لم يرق لي اضطراري إلى الكذب عليك» كانت كلماته ضعيفة وسطحية كأنه يتحدث عن ربطة عنق قبيحة أو حفل عشاء ممل! «لم نكن نريد أن نكذب عليك، لكنني شعرت بأن الكذب كان ضروريًا، الأمر الأول كان مجرد حادث، لم يكن هناك داعٍ لإقلاقك بشأنه، أليس كذلك؟ أما باني... فلم يكن سعيدًا في الأشهر الأخيرة، إنك تعرف هذا بالتأكيد، كانت لديه مشكلات شخصية كثيرة ومشكلات مع عائلته...».

استمر في الحديث طويلاً، فيما بقي جوليان صامتاً مثل جدار جليدي بارد، تردد طنين أسود في رأسي. فكرت: لا أستطيع تحمل هذا أكثر، يجب أن أغادر.

لكن هنري ظل يتحدث، وأنا بقيت واقفاً هناك، يغمرنى شعور بالإعياء والكآبة وأنا أسمع صوت هنري وأرى النظرة على وجه جوليان.

لم أعد أحتمل أكثر فاستدرت مفادراً، رأني جوليان وأنا أهمّ بالمفادرة.

فجأة قاطع هنري: «هذا يكفي!».

خيم صمت رهيب، حدثت إليه، فكرت برعب: هذه النهاية. جوليان لن يستمع بعد الآن، ولا يريد أن يبقى وحيداً مع هنري. مد جوليان يده إلى جيبه، كان من المستحيل قراءة التعبير على وجهه، أخرج الرسالة وسلمها إلى هنري.

قال: «أعتقد أنه من الأفضل أن تحتفظ بها».

لم يتحرك من مكانه، غادرنا مكتبه من دون أن ينبس بكلمة. عندما أفكر في الأمر الآن كانت تلك اللحظة غريبة جداً، كانت تلك آخر مرة رأيته فيها.

لم نتحدث أنا وهنري في الممر، خرجنا ببطء وتجنبنا التقاء أعيننا مثل غريبين.

وعندما كنت أنزل السلالم رأيت جوليان يقف عند النافذة ينظر إلى الخارج غير قادر على رؤية ما أمامه.

أصيب فرانسيس بالذعر عندما رأى النظرة على وجهي.

قال: «لا... يا إلهي. ماذا حدث؟»
استغرقت وقتًا طويلًا قبل أن أتمكن من الرد، قلت أخيرًا:
«لقد رأى جوليان ترويسة الفندق».
«ماذا؟».

«رأى الترويسة، ولكن الرسالة بحوزة هنري الآن».
«كيف حصل عليها؟»
«أعطاها له جوليان».
ابتهج فرانسيس: «أعطاها له؟ هل أعطى هنري الرسالة؟»
«أجل».

«ولن يخبر أحداً؟»
«لا، لا أظن ذلك».
دهش فرانسيس من الكآبة في صوتي.
فقال بفضاضة: «ما المشكلة إذا؟ لقد استعدتما الرسالة، أليس
كذلك؟ إذن، كل شيء على ما يرام الآن، صحيح؟»
كنتُ أحدى من نافذة السيارة باتجاه مكتب جوليان.
قلت: «لا، لا أعتقد ذلك حقًا».

قبل سنوات طويلة كتبت في دفتر ملاحظات قديم: «إحدى
السمات الأكثر جاذبية في شخصية جوليان هي عجزه عن رؤية
الأشخاص أو الأشياء كما هي على حقيقتها»، وتحتها، بحبر
مختلف: «ربما تكون هذه إحدى صفاتي الأكثر جاذبية أيضًا».
لطالما كان من الصعب عليّ التحدث عن جوليان من دون أن
أضفي هالة من الرومانسية عليه، أحببته أكثر من أي شخص
آخر، وفي حضرته كنت دائمًا أجد نفسي مبالغة في
الوصف وتزيين الحقائق والتملق وإعادة اختراع العالم.

أعتقد أن السبب في ذلك يعود إلى جوليان نفسه، فقد كان بارعاً في إعادة اختراع العالم حوله، كان يمنح الأحداث والأشخاص نفحات من الطيبة أو الحكمة أو الشجاعة أو السحر حتى لو كانت هذه الأشياء غير موجودة، وربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أحبه بسبب الطريقة التي رأى بها العالم والطريقة التي رآني بها، كان ينظر إليّ بتلك العين المليئة بالثناء والمديح، كنت أحبه لأنني كنت أجد ذاتي الحقيقية عندما أكون معه.

لكن الآن سيكون من السهل عليّ أن أتحوّل إلى رأي معاكس تمامًا، يمكنني أن أقول إن سر جاذبية جوليان يكمن في قدرته على استقطاب الشباب الذين يريدون أن يشعروا بأنهم مميزون، وأنه يملك موهبة غريبة في

تحويل مشاعرهم الدونية إلى إحساس بالتفوق والغرور، ويمكنني أن أضيف أن هذا كله لم يكن بدافع الإيثار بل كان مدفوعاً برغباته الأنانية لإرضاء غروره، يمكنني أن أشرح ذلك بإسهاب وربما أتمكن من تقديم تفسير دقيق لهذا التحليل.

ولكن حتى هذا لا يفسر تمامًا السحر الذي حملته شخصيته، أو السبب الذي يجعلني -على الرغم من كل ما حدث لاحقاً- أشعر برغبة جامحة في رؤيته مرة أخرى بالطريقة التي رأيت بها في المرة الأولى؛ ذلك الشيخ الحكيم الذي ظهر من العدم على طريق مهجور ليقدم لي عرضاً ساحراً لتحقيق كل أحلامي. ولكن حتى في الحكايات الخيالية فإن هؤلاء الشيوخ الطيبين بعروضهم السحرية لا يكونون دائماً كما يبدو، لم يكن ينبغي أن

يكون من العسير عليّ تقبل هذه الحقيقة في تلك المرحلة، لكن لسبب ما وجدت الأمر أصعب مما توقعت، أكثر ما تمنيت قوله في تلك اللحظة هو أن وجه جوليان انهار كلياً عندما علم بما فعلناه.

كنت أتمنى أن أقول إنه وضع رأسه على الطاولة وبكى، بكى على باني، وبكى علينا، وبكى على الطريق الخاطئة التي سلكتها والحياة الضائعة، بكى على نفسه، لأنه كان أعمى عن رؤية الحقيقة، لأنه رفض مراراً أن يفتح عينيه على الواقع. شعرت بإغراء قوي لأن أخلق هذه المشاهد المليئة بالعاطفة، على الرغم من أنها لم تحدث قط.

كان جورج أورويل يتميز بملاحظته الدقيقة للحقائق الكامنة خلف المظاهر البراقة، التقى جوليان عدة مرات ولم يعجبه. كتب إلى أحد أصدقائه قائلاً: «عند مقابلة جوليان مورو يتولد لدى المرء انطباع بأنه رجل يتمتع بتعاطف ودفء استثنائيين، لكن ما يُعرف بالصفاء الآسيوي في رأيي ليس سوى قناع يخفي برودة شديدة، إن الوجه الذي تتظر به إلى جوليان، يعكسه هو عليك، ما يخلق وهمًا بالدفء والعمق لكنه في الحقيقة هش وضحل مثل مرآة. لا يتفق أكتون معي في هذا الرأي (هارولد أكتون، كما يبدو، وهو صديق أورويل وجوليان في باريس)، لكنني أعتقد أنه ليس رجلاً يمكن الوثوق به».

تأملت طويلاً هذه العبارة، وأيضاً ملاحظة حكيمة قالها لي باني ذات يوم، على الرغم من أنني لم أتوقع منه مثل هذا العمق: «أتعلم، جوليان يشبه ذلك الشخص الذي يختار كل قطع الشوكولاتة

التي يحبها من العلبة، ويترك الباقي». قد تبدو هذه الملاحظة غامضة في ظاهرها، لكنها في الحقيقة أفضل استعارة يمكنني أن أستخدمها لوصف شخصية جولييان.

ويذكرني ذلك أيضاً بما قاله لي جورج لافورج ذات مرة، عندما كنت أمجد جولييان أمامه. قال: «جولييان لن يصل إلى مرتبة الأكاديميين الكبار، لأنه يرى الأشياء من منظور انتقائي بحت». وعندما عارضته بإصرار وسألته: «ما العيب في تركيز الانتباه على أمرين فقط، إذا كان هذان الأمران هما الفن والجمال؟» أجابني لافورج: «لا عيب في حب الجمال، لكن الجمال - ما لم يُقرن بشيء أعمق - يبقى سطحيًا. ما أعنيه أن جولييان يركز على أشياء سامية محددة فقط، ويتجاهل عمدًا ما لا يقل أهمية عنها».

والآن وأنا أسرد هذه الأحداث أجد نفسي أصارع الرغبة في تزيين صورة جولييان وإضفاء هالة من القداسة عليه، وتزييف شخصيته لجعل حبا وإجلالنا له يبدو أكثر منطقية، لكن الحقيقة هي أن جولييان لم يكن مثاليًا، بل كان بعيدًا كل البعد عن ذلك؛ كان يمكن أن يكون سخيًا ومغرورًا ومنعزلًا وقاسيًا في بعض الأحيان، ومع ذلك أحبيناه رغم كل تلك التناقضات.

خرج تشارلز من المستشفى في اليوم التالي، وعلى الرغم من إلحاح فرانسيس عليه للإقامة عنده بعض الوقت، أصر تشارلز على العودة إلى شقته. كان خداه غائرين، وقد فقد كثيرًا من

وزنه، وكان بحاجة ماسة إلى قص شعره، كانت ملامحه متجهمة
وتعكس اكتئاباً عميقاً، فلم نجرؤ على إخباره بما حدث.
شعرت بالأسى تجاه فرانسيس؛ كان واضحاً أنه قلق على
تشارلز، ومحبط من عدائته وصعوبة التواصل معه.
سأله: «هل ترغب في تناول الغداء؟»
«لا».

«هيا، دعنا نذهب إلى الحانة الفرنسية».
«لست جائعاً».

«سيكون غداءً لذيذاً، وسأشتري لك الكعكة السويسرية التي
تحبها للتحلية».

وهكذا ذهبنا إلى الحانة الفرنسية، كانت الساعة الحادية
عشرة صباحاً.

في مصادفة مؤلمة، أجلسنا النادل إلى الطاولة نفسها بجوار
النافذة التي جلسنا إليها مع جوليان قبل أقل من أربع وعشرين
ساعة. لم يكلف تشارلز نفسه عناء النظر إلى القائمة، بل طلب
كأسين من مشروب بلودي ماري وشربهما بسرعة، ثم طلب
الكأس الثالثة.

وضعت أنا وفرانسيس شوكتينا جانباً، وتبادلنا نظرات قلقة.
قال فرانسيس: «تشارلز، لماذا لا تتناول عجة البيض أو شيئاً
خفيفاً؟»

«أخبرتكما أنني لست جائعاً».

التقط فرانسيس القائمة وطالعتها بسرعة، ثم أشار إلى النادل.
قال تشارلز من دون أن يرفع عينيه: «قلت إنني لست جائعاً».

كان يواجه صعوبة في الحفاظ على سيجارته متوازنة بين إصبعيه. بعد ذلك خيم علينا الصمت، لم يكن هناك أمور لنتحدث عنها، أنهينا طعامنا وطلبنا الفاتورة، لكن ليس قبل أن ينهي تشارلز كأسه الثالثة ويطلب كأسًا رابعة، وحينها اضطررنا إلى مساعدته للوصول إلى السيارة.

لم أكن متحمسًا للذهاب إلى محاضرة اللغة اليونانية، لكن عندما حلَّ يوم الاثنين نهضت من السرير وذهبت على أي حال. وصل هنري وكاميلًا بشكل منفصل ربما احترازًا من حضور تشارلز، وهو ما لم يحدث لحسن الحظ. لاحظت أن وجه هنري كان شاحبًا ومنتفخًا وقد بدا عليه الإرهاق، حدق من النافذة متجاهلاً وجودي أنا وفرانسييس.

كانت كاميلًا متوترة وربما محرجة من الطريقة التي يتصرف بها هنري، كانت تتقرب أخبارًا عن تشارلز، سألتنا عدة أسئلة لكنها لم تتلقَّ إجابات عن معظمها، مرت عشر دقائق على موعد بدء المحاضرة ثم خمس عشرة دقيقة.

نظرت كاميلًا إلى ساعتها وقالت: «ليس من عادة جوليان التأخر إلى هذا الحد».

فجأة تنح هنري، وقال بصوت غريب ومتحشرج كأنه لم يتحدث منذ مدة طويلة: «لن يأتي». استدرنا جميعًا نحوه.

قال فرانسييس: «لماذا؟».

«لا أظن أنه سيحضر اليوم».

في تلك اللحظة سمعنا صوت خطوات تقترب، وطرقات على الباب، لم يكن الطارق جوليان بل عميد كلية الدراسات، فتح الباب وأطل برأسه إلى الداخل.

كان العميد رجلاً في أوائل الخمسينيات، ملامحه ماكرة وقد بدأ رأسه يصلع، وكان معروفًا بأنه شخص متحذلق، قال مبتسمًا: «أوه، إذاً هكذا يبدو الحرم الداخلي. قدس الأقداس! لم يسمح لي جوليان أبداً بالصعود هنا لو مرة واحدة». نظرنا إليه.

قال: «ليس سيئاً. أتذكر قبل خمسة عشر عاماً، قبل بناء مبنى العلوم الجديد استقر هنا بعض المستشارين. اعتادت طبيبة نفسية تحب أن تترك بابها مفتوحاً لخلق جو ودي أن تقول لجوليان كلما مرّ أمامها: «صباح الخير، أتمنى لك يوماً سعيداً». هل تصدقون أن جوليان اتصل بشارمينغ ووليامز عميد الكلية وقتها مهدداً بالاستقالة إن لم تُنقل إلى مكان آخر؟» ثم ضحك قائلاً: «أطلق عليها لقب المرأة المروعة! كان يقول: لا أستطيع تحمل تلك المرأة المروعة التي تبادرني بالكلام في كل مرة أعبر أمامها».

كانت هذه القصة معروفة في هامبدن، لكن العميد أغفل بعض التفاصيل، لم تترك الطبيبة بابها مفتوحاً فحسب، بل حاولت أيضاً إقناع جوليان بفعل الشيء نفسه.

ثم استدرك العميد مبتسمًا بسخرية: «بصراحة توقعت شيئاً أكثر كلاسيكية هنا؛ ربما مصابيح زيتية أو رمي القرص أو شباناً عراة يتصارعون».

ردت كاميليا ببرود: «ماذا تريد؟»

سكت هنيهة، ثم ابتسم ابتسامة فاترة وواصل حديثه مختصراً مقدمته ودخل مباشرة في لبّ الموضوع: «نحتاج إلى التحدث، أُبلغت للتو بأن جوليان اضطر إلى مغادرة الكلية فجأة، لقد أخذ إجازة مفتوحة ولا أحد يعرف متى سيعود، وغني عن القول (عبارة ألقاها بلطف مشوب بنبرة تهكمية) يضعكم هذا في موقف أكاديمي معقد، خصوصاً أنه لم يتبق سوى ثلاثة أسابيع فقط على نهاية الفصل الدراسي، أعلم أنه لم يكن يجري اختبارات كتابية، أليس كذلك؟».

حدقنا إليه بصمت.

سأل بنبرة هادئة: «هل قدمتم أبحاثاً؟ أم غنيتم أناشيد؟ ما الطريقة التي كان يعتمد عليها لتحديد درجاتكم النهائية؟»

ردت كاميليا بنبرة متماسكة: «كان هناك اختبار شفهي للدروس التعليمية إلى جانب ورقة بحثية في مادة الحضارة، أما بالنسبة إلى المواد الكتابية فكان الاختبار ترجمة طويلة من الإنجليزية إلى اليونانية لفقرة من اختياره».

تظاهر العميد بالتفكير ملياً، ثم أخذ نفساً عميقاً وقال: «المشكلة التي تواجهونها -وأنا متأكد من أنكم تعلمونها- هي أننا لا نملك حالياً أي مدرس آخر قادر على تدريس فصلكم. يجيد السيد ديلجادو القراءة باليونانية القديمة إلى حد ما، وقد أبدى استعداداً للاطلاع على أعمالكم المكتوبة، إلا أن جدولته مزدحم هذا الفصل، لم يكن جوليان مفيداً بطبيعة الحال في هذا الأمر،

طلبت منه سابقاً اقتراح بديل في حال طرأ أي طارئ لكنه قال بكل بساطة لا يوجد أحد مؤهل لهذه المهمة».

أخرج العميد قصاصة ورق من جيبه وتابع: «الآن، أمامكم ثلاثة خيارات خطرت على بالي. الأول أن تواصلوا دراسة المواد غير المكتملة وتنهوا المنهج التعليمي في الخريف، لكن المشكلة تكمن في أنني لست متأكداً من أن هيئة أعضاء التدريس ستعين مدرساً آخر للكلاسيكيات خصوصاً مع تراجع الاهتمام بها، وتوجههم العام نحو إلغاء هذا التخصص تدريجياً ودعم قسم السيميائية⁽¹⁾ الجديد».

ثم أخذ نفساً آخر وأردف: «الخيار الثاني أن تكملوا المنهج غير المنتهي خلال الصيف وذلك أمر شاق بالتأكيد. أما الخيار الثالث فأن نحضر- إن لم تمانعوا- أستاذاً بديلاً بشكل مؤقت، لكن عليكم أن تدركوا أن استمرار تدريس الكلاسيكيات هنا في هامبدن أمر غير مؤكد، إن اخترتم البقاء هنا فأعتقد أن قسم اللغة الإنجليزية يستطيع استيعابكم مع أقل خسارة في عدد الساعات المعتمدة، على الرغم من أنكم ستضطرون إلى إكمال فصلين دراسيين إضافيين حتى تتخرجوا».

نظر إلى قائمته مرة أخرى وقال: «أنا على ثقة بأنكم سمعتم عن كلية هاكيت الإعدادية للبنين التي تقدم برامج دراسية واسعة

(1) السيميائية أو علم العلامات: علم يدرس أنساق العلامات والأدلة والرموز، سواء كانت طبيعية أم صناعية. وتُعدّ اللسانيات جزءاً من السيميائيات التي تدرس العلامات أو الأدلة اللغوية وغير اللغوية، في حين أن اللسانيات لا تدرس سوى الأدلة أو العلامات اللغوية.

في الكلاسيكيات. تواصلت مع مدير الكلية هذا الصباح، ووافق على إرسال أستاذ مختص للإشراف على دراستكم مرتين في الأسبوع، قد يكون هذا الخيار الأفضل بالنسبة إليكم، لكنه ليس مثاليًا لأنه يعتمد على رعاية جهة خارجية....».

في تلك اللحظة اقتحم تشارلز الغرفة بخطوات مترنحة. نظر حوله باستغراب، وعلى الرغم من أنه لم يكن ثملًا تمامًا، فإنه قد شرب مؤخرًا بما يكفي ليبدو غير متوازن، تدلى ذيل قميصه وراءه، وتساقطت خصلات شعره بشكل فوضوي على وجهه.

قال بعد لحظة: «ماذا؟ أين جوليان؟»

قال العميد: «أليس من المفترض أن تطرق الباب أولاً؟»
التفت تشارلز مهزوزًا وقال: «ما الذي يحدث هنا؟ من أنت بحق الله؟»

أجابه العميد بنبرة معسولة: «أنا عميد كلية الدراسات».

«ماذا حدث لجوليان؟»

أجابه العميد: «رحل فجأة، وترككم في مأزق إن صحَّ التعبير. استُدعي لأمر طارئ ويبدو أنه لا يفكر في العودة حاليًا، أوضح لي أن الأمر يتعلق بوزارة الخارجية والحكومة الإسرائيلية. أعتقد أننا محظوظون لأننا لم نواجه مشكلات أكبر في هذه القضية لأن الأميرة قد درست في هذه الكلية، في ذلك الوقت لا ينظر المرء إلى سوى وجهة هذه الطالبة من دون التفكير في العواقب المحتملة. مع ذلك لا أستطيع أن أتصور ما الذي قد يريده الإسرائيليون من جوليان. سلمان رشدي الخاص بكلية هامبدن».

قهقهه على مزحته ثم نظر إلى الورقة في يده مرة أخرى وتابع: «على كل حال، رتبت لقاءً مع الأستاذ القادم من كلية هاكيت ليجتمع معكم هنا غداً في الساعة الثالثة. آمل ألا يكون هناك أي تعارض في المواعيد عند أي منكم، وإن حدث كذلك فربما يجدر بكم إعادة ترتيب أولوياتكم، لأن هذه هي الفرصة الوحيدة المتاحة للإجابة عن استفساراتكم».

كنت أدرك أن كاميلاً لم ترَ تشارلز منذ مدة طويلة، وأنها لم تكن مستعدة لرؤيته في هذه الحالة المزرية، كانت تحرق إليه مذهولة ولكنها في الوقت نفسه بدت مذعورة، حتى هنري بدا مصدوماً.

واصل العميد حديثه: «بالطبع، سيتطلب هذا منكم بعض التنازل أيضاً...».

قاطعه تشارلز بغضب: «انتظر، هل قلت إن جوليان رحل؟». أجابه العميد بسخرية: «تهانينا على فهمك للغة الإنجليزية أيها الشاب».

سأل تشارلز بحدة: «ماذا حدث؟ هل حزم أغراضه ورحل فجأة؟»

رد العميد بهدوء: «نعم، هذا بالضبط ما حدث». ساد صمت مقتضب قبل أن يقول تشارلز بصوت مرتفع وواضح: «هنري، لماذا أشعر بأن هذا كله بسببك؟» ساد صمت رهيب، قبل أن يستدير تشارلز ويندفع خارجاً صافعاً الباب خلفه.

تنحى العميد، وتابع: «كما كنت أقول...».

من الغريب أنني في تلك المرحلة كنت لا أزال قادراً على الشعور بالانزعاج من حقيقة أن مسيرتي الجامعية في هامبدن ذهبت أدراج الرياح. عندما قال العميد عبارة «فصلين دراسيين إضافيين»، شعرت كأن الدم تجمد في عروقي. كنت أعلم -باليقين الذي أعرف به أن الليل يعقب النهار- أنني لن أستطيع إقناع والديّ بتحمل مصاريف الدراسة لعام إضافي على الرغم من تفاهة المبلغ الذي يدفعانه.

لقد أهدرت وقتاً بالفعل، بعدما انتقلت من كاليفورنيا وغيّرت تخصصي ثلاث مرات، وإذا انتقلت مرة أخرى سأخسر مزيداً من الوقت، هذا إذا كان بإمكانني الانتقال إلى جامعة أخرى والحصول على منحة دراسية أخرى بالنظر إلى سجلي الأكاديمي المتقلب ودرجاتي المتذبذبة. سألت نفسي مراراً: لماذا كنت أحمق بهذا القدر؟ لماذا لم أستقر على تخصص منذ البداية؟ كيف وصلت إلى نهاية سنتي الجامعية من دون أن أحقق أي إنجاز يُذكر؟

ما زاد من غضبي أن أصدقائي لم يبدؤ عليهم أي اهتمام، كنت أدرك جيداً أن هذه الأزمة لم تكن تعني لهم شيئاً، حتى لو اضطروا إلى قضاء فصل دراسي إضافي؟ ما الذي يهم إن لم يتخرجوا؟ على الأقل كان لديهم بيوت يعودون إليها وحسابات بنكية وإعانات عائلية وشيكات أرباح وجدّات محبات وأعمام نافذون وعائلات تحتضنهم، بالنسبة إليهم كانت الكلية مجرد محطة عبور تسلية شبابية مؤقتة، أما بالنسبة إليّ فكانت هذه الفرصة الوحيدة التي أملكها وقد أهدرتها.

قضيت ساعتين في حالة من التوتر والاضطراب، أتجول في غرفتي أو بالأحرى ما كنت أظنها «غرفتي»، فقد كان عليّ أن أغادرها في غضون ثلاثة أسابيع. شعرت كأنها فقدت انتماءها إليّ، إذ بدت أكثر برودة وغرابة، مجردة من الدفء والارتباط. جلست أصيغ خطاباً إلى مكتب المساعدات المالية لأوضح موقفني بعد رحيل جوليان، كانت الفرصة الوحيدة لإنهاء دراستي والوسيلة الوحيدة التي قد توفر لي الدعم المالي اللازم لإعالة نفسي بشكل معقول هي أن توافق هامبدن على تحمل كامل تكاليف دراستي خلال هذه السنة الإضافية، كتبت في الخطاب بنبرة حادة أنني لم أكن المسؤول عن رحيل جوليان المفاجئ، وأن ذلك ليس خطئي، ذكرت كل ثناء حصلت عليه، وكل كلمة تقدير منذ الصف الثامن، وشرحت أن دراسة الكلاسيكيات هذا العام قد أثرت وعززت رغبتني في دراسة الأدب الإنجليزي.

أخيراً انتهيت من صياغة التماسي، كان خط يدي مشوشاً وغير مرتب، ألقيت بجسدي على السرير منهكاً وغرقت في النوم، استيقظت عند الساعة الحادية عشرة، أدخلت بعض التعديلات الطفيفة على الالتماس، وتوجهت إلى غرفة الدراسة الليلية لأعيد كتابته على الآلة الكاتبة. في طريقي مررت بمكتب البريد، حيث غمرتني سعادة كبيرة عندما وجدت رسالة تنتظرني في صندوق البريد تخبرني بحصولي على وظيفة اعتناء بشقة ببيروكلين في الصيف، وأن الأستاذ يرغب في مقابلتي الأسبوع المقبل لمناقشة جدول عملي.

فكرت: على الأقل وجدت حلاً لكيفية قضاء الصيف.

كانت ليلة ساحرة، البدر مكتمل في السماء، والمرج متوهج بضوء فضي ناعم، ألقى واجهات المنازل بظلالها الداكنة المربعة فوق العشب.

كانت معظم النوافذ معتمة، وقد خلد الجميع إلى النوم مبكرين، هرولت فوق العشب نحو المكتبة، حيث كانت أضواء غرفة الدراسة الليلية -التي سماها باني في الأيام الخوالي «بيت التعلم الأبدي»- بنورها الأصفر المتلألئ تظهر بوضوح في الطابق العلوي عبر قمم الأشجار. صعدت الدرج الحديدي الخارجي الذي يشبه سلالم النجاة من الحرائق، كان يشبه الدرج الذي أراه في كوابيسي بطريقة مرعبة، وكان حذائي المعدني يصدر صوتاً مع كل خطوة بطريقة كانت لتوترني لو لم أكن في تلك الحالة المشتتة.

في تلك اللحظة رأيت من خلال النافذة جسماً داكناً يرتدي بدلة سوداء، كان هنري وقد تكدست أمامه مجموعة من الكتب، لكنه لم يكن يدرس، تذكرت تلك الليلة من شهر فبراير حين رأيتَه يقف في الظل أسفل نافذة مكتب الدكتور رولاند وحيداً، ويداه في جيبَي معطفه، والثلج يتطاير حوله في ضوء مصابيح الشارع. أغلقت الباب خلفي. قلت: «هنري، هنري، إنه أنا».

لم يلتفت، قال بصوت رتيب: «عدت للتو من منزل جوليان».

جلست وسألتَه: «وماذا؟».

«المكان مقفل، لقد رحل».

ران صمت طويل.

قال: «أتعلم؟ من الصعب جدًا عليّ تصديق أنه فعل هذا». انعكس الضوء على عدسات نظارته. كان وجهه تحت الشعر الداكن اللامع شاحبًا بشدة، أكمل: «رحيله كان فعلًا جبانًا، كان خائفًا، هذا السبب الوحيد لمغادرته».

النوافذ مفتوحة، والرياح الرطبة تهز الأشجار بلطف، وخلف الأشجار اندفعت الغيوم بسرعة فوق القمر.

خلع هنري نظارته، كنت دائمًا أشعر بغربة عند رؤيته من دونها؛ تلك النظرة الهشة والواهنة التي تعلو وجهه كلما نزعها. قال: «إنه جبان. لو مرّ بظروفنا لفعل ما فعلناه تمامًا، لكنه منافق كبير لدرجة أنه لا يعترف بذلك».

لم أقل أي شيء.

واصل حديثه: «إنه لا يهتم حتى بموت باني، كان يمكنني تفهّمه لو كان ذلك هو سبب ردة فعله، لكنه ليس كذلك، لن يهتم لو قتلنا ستة أشخاص. كل ما يهمه إبقاء اسمه خارج هذا الموضوع، وهذا ما قاله لي الليلة الماضية».

«هل ذهبت لرؤيته؟»

«نعم، تمنيت أن يفهم أن المسألة أعمق من مجرد راحته الشخصية، حتى لو أبلغ الشرطة عنا لكان في ذلك بعض الشجاعة، بالتأكيد لم أكن أرغب في أن يسلمنا للشرطة، لكن هذا الهروب... بهذه الطريقة... جبن بحت».

حتى بعد كل ما حدث، كانت مرارته وخيبة أمله تمزق قلبي. قلت بصعوبة: «هنري». أردت أن أقول شيئًا عميقًا، أن جوليان كان مجرد إنسان، وأنه كان كبيرًا في السن، وأن الجسد والروح

يذبلان مع مرور الزمن، وأن الوقت قد حان لتجاوز معلمينا. لكن الكلمات خانتني.

أدار عينيه العمياوين العاجزتين عن الرؤية من دون النظارة ناحيتي.

قال: «أحبته أكثر من والدي. أحبته أكثر من أي شخص آخر في العالم».

صارت الرياح عاتية، وأخذ مطر خفيف ينهمر فوق السقف. بقينا جالسين هناك في صمت مطبق مدة طويلة جداً.

في الساعة الثالثة من ظهر اليوم التالي ذهبت لمقابلة الأستاذ الجديد.

عندما دخلت إلى مكتب جوليان، شعرت بصدمة شديدة، كان المكتب خالياً تماماً، اختفت الكتب والسجاد والطاولة المستديرة الضخمة، كل ما بقي كان الستائر المعلقة على النوافذ، ولوحة يابانية⁽¹⁾ صغيرة مثبتة بالدبابيس على الجدار، كانت هدية من باني لجوليان. جلست كاميلاً هناك إلى جانب فرانسيس الذي بدا مضطرباً قليلاً، أما هنري فقد وقف بجانب النافذة يحاول جاهداً تجاهل الأستاذ الجديد.

(1) أو أوكيو-إه باليابانية: حركة فنية تصويرية يابانية ظهرت في بداية القرن السابع عشر للميلاد (الـ17 م) تقوم على الرسم (الطباعة برسوم بارزة)، حيث تُنَحَت الرسومات على ألواح خشبية أولاً ثم تطبع على الورق. كلمة «أوكي-يو إه» تعني صورة العالم العائم، في إشارة إلى الطبيعة المتقلبة الظاهرية والمؤقتة للأشياء في العالم الديوي.

أحضر الأستاذ الجديد بعض الكراسي من قاعة الطعام. كان رجلاً في الثلاثينيات من عمره، وجهه مستدير وشعره أشقر، يرتدي سترة بياقة عالية وبنطال جينز. يبرز خاتم زواجه اللامع في يده اليسرى الوردية، وتتبعث منه رائحة عطر ما بعد الحلاقة بوضوح.

قال وهو يميل ليصافحني بابتسامة: «مرحباً، اسمي ديك سبنس. وأنت؟» شعرت في صوته بحماسة مغلظة بنبرة تعجرف، تلك النبرة التي تميز من اعتاد التعامل مع المراهقين.

كانت ساعة كابوسية، لا أملك حقاً الشجاعة للغوص في تفاصيلها؛ من لهجته المتعالية في البداية (حين وزّع علينا صفحة من العهد الجديد قائلاً: «بالطبع، لا أتوقع منكم ملاحظة التفاصيل الدقيقة في النص، إذا فهِمتم المعنى العام، فهذا سيكون كافياً»)، إلى تحوله إلى المفاجأة التدريجية (حسنًا! هذا متقدم إلى حدٍّ ما بالنسبة إلى طلاب جامعيين!)، ثم التحول إلى الدفاعية (لم أرَ طلاباً في مستواكم منذ زمن طويل)، وصولاً إلى شعوره بالإحراج. كان القس في كلية هاكيت، وكانت معرفته باليونانية القديمة التي تعلمها على الأرجح في مدرسته اللاهوتية بدائية وامتدنية حتى بالنسبة إلى معايير. اعتمد بشكل كبير على حيل التذكر الساذجة (أجاثون⁽¹⁾)... هل تعرفون كيف أتذكر

(1) كان أجاثون شاعرًا تراجيديًا أثينياً فقدت أعماله. اشتهر بظهوره في ندوة أفلاطون، التي تصف المأدبة التي أقيمت للاحتفال بحصوله على جائزة عن مؤسسته الأولى في لينايا في 416 قبل الميلاد، وهو أيضًا شخصية بارزة في كوميديا أريستوفان ثيسموفوريازوساي.

هذه الكلمة؟ أتخيل أجانًا كريستي تكتب ألفاظًا جيدة). كان ازدراء هنري الصامت لا يُوصف.

جلسنا جميعًا صامتين ومحبطين، وزاد الطين بلة عندما دخل تشارلز، بعد نحو عشرين دقيقة من بدء المحاضرة وهو في حالة سكر واضحة.

أدى ظهوره إلى إعادة الإجراءات الشكلية مجددًا (مرحبًا! اسمي ديك سبنس. وأنت؟) وحتى تكراره نفس عبارته السخيفة عن كيفية تذكره لكلمة «أجاثون»!

عندما انتهت المحاضرة أخيرًا (بعد أن ألقى الأستاذ نظرة خاطفة على ساعته قائلاً: «حسنًا! يبدو أن وقتنا قد انتهى!»)، خرجنا نحن الخمسة بصمت ثقيل ووجوه متجهمة.

قال فرانسيس عندما أصبحنا في الخارج: «حسنًا، لم يتبق سوى أسبوعين آخرين».

أشعل هنري سيجارة وقال بهدوء: «لن أعود، لن أحضر أي محاضرة أخرى».

قال تشارلز بسخرية: «هذا صحيح، سوف يزجره ذلك، وسيكف عن القدوم لتدريسنا».

رد فرانسيس: «لكن هنري... عليك أن تحضر».

راح هنري يدخن سيجارته بشفتين مشدودتين ينفث الدخان بقوة، قال: «لا، لن أحضر».

«أسبوعين فقط، هذا كل شيء».

قالت كاميللا: «يا له من رجل مسكين، إنه يبذل قصارى جهده».

رفع تشارلز صوته مشيراً إلى هنري: «لكن هذا ليس كافياً بالنسبة إليه، من الذي يتوقع أن يدرسه؟ ريتشموند لاتي مور⁽¹⁾ اللعين؟».

قال فرانسيس: «هنري، إذا لم تحضر سترسب».

«لا أهتم».

قال تشارلز: «ليس عليه أن يذهب إلى الكلية، يمكنه أن يفعل أي شيء لعين يريده، حتى لو رسب في كل فصل دراسي لعين، سيظل والده يرسل له شيك الإعانة الضخم كل شهر».

قال هنري بهدوء وتهديد: «توقف عن قول كلمة لعين».

«لعين! ما الأمر يا هنري؟ ألم تسمع هذه الكلمة من قبل؟ ألا تلاعب أختي اللعينة كل ليلة؟»

أتذكر عندما كنت طفلاً رأيت أبي يضرب أمي بلا سبب واضح، ومع أنني كنت أتعرض أحياناً لضربه من دون سبب أيضاً، فلم أكن أدرك أن الدافع وراء ذلك كان مزاجه السيئ، وكنت أعتقد أن أعذاره الملفقة (أنت تتحدث كثيراً، لا تنظر إليّ هكذا) تبرر العقاب بطريقة ما، ولكن في اليوم الذي رأيتَه يضرب فيه أمي (بعد تعليقها البريء أن الجيران يشيدون مبنى ملحفاً بمنزلهم، ادعى لاحقاً أنها استفزته بذلك، وأن كلامها كان إهانة لقدراته المادية بصفته معيل الأسرة، وقد وافقته أمي بخنوع وهي تبكي)، أدركت أن تصوري الطفولي لوالدي كقاضٍ عادل كان خاطئاً تماماً. كنا نعتمد كلياً على هذا الرجل الذي لم يكن مخدوعاً وجاهلاً

(1) كان ريتشموند ألكساندر لاتي مور شاعراً وكلاسيكياً أمريكياً اشتهر بترجماته للكلاسيكيات اليونانية، لا سيما إصداراته من الإلياذة والأوديسة.

فحسب، بل كان أيضًا غير كفاء في كل شيء، والأسوأ من ذلك أنني كنت أعلم أن والدتي لم تكن قادرة على مواجهته، كان الأمر أشبه بالدخول إلى قمرة طائرة، لتكتشف أن الطيار ومساعدته مغمى عليهما من شدة السكر.

وفيما كنت أقف خارج قاعة المحاضرات أصابني رعب أسود مماثل للرب الذي شعرت به عندما كنت في الثانية عشرة من عمري أجلس على مقعد مرتفع في مطبخنا الصغير المشمس في بيانو، أشاهد والدي يضرب والدتي.

تساءلت مذعورًا: من الذي يقود الطائرة هنا؟ من يمسك بزمام الأمور؟

وما زاد الطين بلة أنه كان على تشارلز وهنري المثول معًا أمام المحكمة خلال أقل من أسبوع بسبب قيادة تشارلز سيارة هنري تحت تأثير الكحول.

كنت أعلم أن كاميلًا مرعوبة من هذه المحاكمة، تلك التي كنت أعتقد أنها لا تخاف من شيء، ومع أنني شعرت بشيء من الشماتة الغريبة بمعاناتها، لم أستطع إنكار أن مثول هنري وتشارلز -الذين كانا يتشاجران مؤخرًا في كل مرة يتقابلان- أمام المحكمة من دون إظهار التعاون والصدقة بينهما ستؤدي حتمًا إلى كارثة.

عيّن هنري محاميًا من البلدة، وكانت كاميلًا تأمل أن يتمكن المحامي من التوسط بينهما ما منحها بعض التفاؤل. ولكن في ظهيرة اليوم الذي قابلوا فيه المحامي، تلقيت مكالمة هاتفية منها.

قالت: «ريتشارد، يجب أن أتحدث إليك وفرانسيس». أخافني صوتها المضطرب، وعندما وصلت إلى شقة فرانسيس، وجدته يرتجف بشدة وكاميلًا تبكي.

لم أرها تبكي إلا مرة واحدة من قبل، وكانت بسبب الإرهاق، لكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا تمامًا، كانت ملامحها جامدة وعيناها خاويتين، واليأس جلي على محياها.

سألتها: «كاميلا، ما الخطب؟»

لم تجب على الفور. دخنت سيجارة تلو الأخرى، ثم بدأت بسرد القصة.

ذهب هنري وتشارلز لرؤية المحامي، ورافقتهما كاميلا في محاولة لتهدئة الأجواء بينهما. في البداية بدا أن الأمور تسير بسلاسة، لم يكن هنري قد استعان بالمحامي من باب الإيثار فقط، بل لأن القاضي الذي سيمثلان أمامه كان معروفًا بتشدده مع السائقين المغمورين، وكان هناك احتمال أن يفقد هنري رخصة قيادته أو حتى سيارته، خصوصًا أن تشارلز لم يكن لديه رخصة سارية ولم يكن مشمولًا بتأمين هنري. ومع أن تشارلز كان يشعر بأنه المظلوم في هذه القضية، فقد كان على استعداد للتعاون، ليس حبًا في هنري كما أخبر الجميع، بل لأنه قد ضاق ذرعًا بلومه على أشياء ليست من صنعه، كان يعلم جيدًا أنه إذا فقد هنري رخصته، فلن يكف عن إلقاء اللوم عليه.

لكن الاجتماع مع المحامي كان كارثيًا، كان تشارلز متجهماً في مكتب المحامي ولا يمكن التحاور معه، كان هذا وحده مريبًا، لكن

بعد أن حاول المحامي بحماسة تحفيزه على الحديث أكثر، فقد تشارلز عقله فجأة من دون سابق إنذار.

قالت كاميللا: «لو كنتما حاضرين لتسمعا! قال لهنري إنه لا يهتم إذا فقد سيارته، وإنه لا يكثر حتى لو حكم عليهما القاضي بالسجن خمسين عاماً، وهنري... حسناً، يمكنكما أن تتخيلا كيف كانت ردة فعل هنري، انفجر غضباً، كان المحامي مذهولاً معتقداً أن كليهما قد فقدوا صوابهما، وظل يحاول تهدئة تشارلز وإعادته إلى العقلانية، لكن تشارلز قال: لا يهمني ما يحدث لهنري، ولا يهمني إذا مات. في الحقيقة أتمنى أن يموت».

تفاقت الأمور لدرجة أن المحامي طردهما من مكتبه، وخلال خروجهما كانت أبواب المكاتب المجاورة تفتح ويطل منها سكانها لرؤية سبب الفوضى. اندفع تشارلز خارج المبنى غاضباً ولا تدري أين ذهب بالضبط.

«وهنري؟»

هزت رأسها بأسى وقالت: «كان غاضباً بشدة»، أتى صوتها متعباً ويائساً.

أضافت: «بينما كنت ألحق به إلى السيارة، أمسك بي المحامي جانباً وقال: (اسمعي، لا أعرف حقيقة الوضع، ولكن أخاك يبدو منزعجاً جداً. من فضلك حاولي أن تشرحي له أن غضبه هذا قد يوقعه في مشكلات أكبر مما يتوقع. هذا القاضي لن يكون متساهلاً حتى لو دخلا قاعة المحكمة كحملين وديعين. ومن المحتمل أن يصدر حكماً بإلزام أخيك الالتحاق ببرنامج علاج إدمان الكحول، وهو أمر قد يكون مفيداً له بالنظر إلى حالته

اليوم. كما أن هناك احتمالاً كبيراً بأن يفرض عليه القاضي المراقبة القضائية التي لن تكون سهلة أبداً. وقد يصل الأمر إلى الحكم عليه بالسجن أو العزل في جناح مغلق بمركز التخلص من السموم في مانشستر».

كانت مستاءة جداً، وامتقع وجهه فرانسيس.

سألتها: «وماذا قال هنري؟».

«قال إنه لا يعبأ بالسيارة، ولا يهتم بأي شيء. ليدخل السجن».

قال فرانسيس لي: «هل رأيت هذا القاضي؟»

«نعم».

«كيف يبدو؟»

قلت: «بصراحة، بدا رجلاً صارماً يصعب التعامل معه».

أشعل فرانسيس سيجارة، وقال: «وماذا سيحدث لو لم يحضر

تشارلز المحاكمة؟»

أجبت: «لست متأكداً، لكنني أظن أنهم سيصدرون أمراً

بالبحث عنه وإحضاره».

«وماذا لو لم يتمكنوا من العثور عليه؟»

قلت: «ما الذي ترمي إليه؟»

أجاب فرانسيس بتوتر: «أعتقد أنه علينا إخراج تشارلز من

البلدة بعض الوقت، الفصل الدراسي على وشك الانتهاء، ولا

يوجد سبب لبقائه هنا. أعتقد أننا يجب أن نأخذه إلى والدتي

وكريس في نيويورك بضعة أسابيع».

«لكن هل سيفلح ذلك نظراً إلى الطريقة التي يتصرف بها

الآن؟»

«هل تقصد سُكره؟ هل تعتقد أن والدتي لا تعرف كيف تتعامل مع السكاري؟ سيكون بأمان تحت رعايتها كطفل رضيع».

قالت كاميلا: «لا أعتقد أنك ستتمكن من إقناعه بذلك».

قال فرانسيس: «يمكنني أن آخذه بنفسى».

«وماذا لو هرب؟ فيرمونت مكان صغير، لكن نيويورك... قد يورط نفسه في مشكلات أكبر هناك».

قال فرانسيس بانزعاج: «حسنًا، كانت مجرد فكرة». مرر يده في شعره ثم أضاف: «هل تعرفان ماذا يمكننا أن نفعل؟ يمكننا أن نأخذه إلى الريف».

«أتقصد إلى منزلك الريفي؟».

«نعم».

«وما الذي سيحققه ذلك؟»

«أولاً: من السهل إقناعه بالذهاب إلى هناك، وما إن يصبح في المنزل الريفي، ماذا بوسعه أن يفعل؟ ليس لديه سيارة، والمنزل يبعد أميالاً عن الطريق، ولن يتمكن من إقناع أي سائق سيارة أجرة في هامبدن أن يقله من هناك».

كانت كاميلا تنتظر إليه بإمعان.

قالت: «تشارلز يحب الذهاب إلى الريف».

ابتسم فرانسيس وقال بارتياح: «أعرف ذلك، ما الذي يمكن أن يكون أبسط من ذلك؟ لن نحتاج إلى إبقائه هناك طويلاً، يمكننا أنا وريتشارد البقاء معه بعض الوقت، سأشتري صندوقاً من الشمبانيا، وسنجعل الأمر يبدو كأنه حفلة».

لم يكن من السهل إقناع تشارلز بفتح باب الشقة لنا، طرقتنا الباب نصف ساعة كاملة، أعطتنا كاميللا المفتاح، لكننا تجنبنا استخدامه إلا كحل أخير، وحين كنا على وشك اللجوء إليه، فُتح الترياس مصدرًا صوتًا عاليًا، وظهر تشارلز من خلال شق الباب، محدقًا إلينا بعينين ضيقتين.

كان يبدو في حالة مزرية مضطربًا وشارد الذهن، قال: «ماذا تريدان؟»

بعد لحظة صمت قصيرة رد فرانسيس بهدوء: «لا شيء، هل يمكننا الدخول؟»

تقلت نظرات تشارلز بيننا، ثم قال: «هل معكما أحد؟» قال فرانسيس: «لا».

فتح الباب أخيرًا، وسمح لنا بالدخول. كانت الغرفة مظلمة والستائر مسدلة، ويفوح من المكان رائحة قمامة كريهة، وفيما كانت عيناى تتكيفان مع الظلام، رأيت أطباقًا متسخة وبقايا تفاح وعلب حساء متناثرة في كل مكان. وبجوار الثلاجة اصطفت زجاجات السكوتش الفارغة بشكلٍ منظمٍ غريب.

فجأة، رأيت ظلًا رشيقيًا يتحرك فوق منضدة المطبخ، يتلوى بين المقالي القذرة وعبوات الحليب الفارغة، للوهلة الأولى ظننت أنه فأر، لكن سرعان ما اكتشفت أنه قطعة من توهج عينيها في الظلام.

قال تشارلز: «وجدتها في قطعة أرض مهجورة».

لاحظت أن أنفاسه لم تكن تفوح منها رائحة الكحول المعتادة، بل رائحة نعناع مرببة.

رفع كم ردائه ليكشف عن ذراعه المخدوشة، كانت آثار الجروح واضحة ومتقاطعة، وقد تغير لونها كأنها ملوثة، قال: «إنها ليست أليفة أبداً».

قال فرانسيس وهو يعبث بمفاتيح سيارته بعصبية: «تشارلز، كنا نفكر في الابتعاد عن هامبدن قليلاً والخروج إلى الريف، اعتقدت أن الأمر قد يروق لك، هل تود الانضمام إلينا؟» ضاقت عينا تشارلز، وسحب كفه مجدداً، وقال: «هل أرسلكما هنري؟»

قال فرانسيس متفاجئاً: «لا، طبعاً».

«هل أنت متأكد؟»

«لم أره منذ أيام».

مع ذلك لم يبدُ تشارلز مقتنعاً.

قلت: «نحن لا نتحدث معه حتى».

نظر تشارلز إليّ، عيناها دامعتان وزائفتان قليلاً، قال: «ريتشارد، أهلاً... أهلاً... لطالما أعجبت بك».

«هذا شعور متبادل».

«لن تغدر بي، أليس كذلك؟»

«بالطبع، لن أغدر بك».

قال وهو يومئ برأسه إلى فرانسيس: «لأنني أعلم أنه سيفعل».

فتح فرانسيس فمه ليعترض ثم أغلقه، بدا كأنه تلقى صفة.

قلت بصوت هادئ ورزين: «إنك تخطئ في حق فرانسيس».

كان هذا خطأً يتكرر كثيراً مع تشارلز، يحاول الجميع التفاهم معه بطريقة عقلانية عدائية، في حين أن كل ما أراد شخصاً

يطمئننه برقة، أضفت بهدوء: «فرانسييس يهتم لأمرك كثيرًا. إنه صديقك، وأنا أيضًا».

قال: «هل أنت صديقي حقًا؟»

«بالطبع».

جلس بتثاقل على كرسي المطبخ، تسالت القطة والتفت حول كاحليه، قال بصوت أجش: «أخشى أن هنري سيقتلني».

تبادلنا أنا وفرانسييس النظرات.

قال فرانسييس: «ماذا؟ لماذا قد يفعل ذلك؟».

«لأنني أقف في طريقه»، نظر إلينا وأكمل: «أنتما تعلمان أنه لن يتردد في ذلك».

أشار برأسه نحو زجاجة دواء صغيرة بلا ملصق على الطاولة: «هل تريان هذه الزجاجة؟ أعطاني هنري إياها قبل يومين».

رفعت الزجاجة بين يدي، وتعرفت على الفور على أقراص النيمبوتال التي سرققتها من منزل عائلة كوركوران من أجل هنري. قال تشارلز وهو يبعد خصلات شعره المتسخة عن وجهه: «لا أعرف ما هذه الحبوب، أخبرني أنها ستساعدني على النوم، والله يعلم أنني بحاجة إلى النوم لكنني خائف من تناولها».

ناولت فرانسييس الزجاجة، نظر إليها ثم إليّ، وارتسمت على ملامحه علامات الذعر.

قال تشارلز: «هناك كبسولات أيضًا، ومن المستحيل معرفة ما المواد التي تحتويها».

لم يكن هناك داعٍ لمعرفة إن كان قد عبث بتركيبة هذه الكبسولات أم لا، فهي خطيرة حتى بلا أي تدخل. شعرت بالغثيان

وأنا أتذكر تحذيري المتكرر لهنري حول خطورة هذه الأقراص عند تناولها مع المشروبات الكحولية.

مسح تشارلز عينييه بيديه المرتعشتين، وقال: «لقد رأيته يتسلل إلى هنا ليلاً ثم يغادر خلسة، لا أدري ما الذي كان يفعله بالضبط».

«هنري؟»

«نعم. وإذا حاول إيذائي فستكون تلك أكبر غلطة يرتكبها في حياته».

لم نتكبد عناءً كبيراً كما كنت أتصور في إقناعه بالركوب معنا في السيارة. كان تشارلز في حالة من الارتباك والشك، ولكنه بدا أنه يشعر ببعض الراحة نتيجة الاهتمام الذي أوليناه إياه.

سألنا مراراً عن هنري: «هل يعرف إلى أين نحن ذاهبون؟ هل تحدثتما إليه؟».

طمأنأه بصدق: «لا، بالطبع لا».

أصرّ على أخذ قطته معه، مررنا بوقت عصيب نحاول الإمساك بها وراء سخان المياه في المطبخ المظلم، وخلال ذلك كانت الأطباق تسقط على الأرض وتتحطم حولنا، كان تشارلز يقف متوتراً بالقرب منا، يردد بين الحين والآخر عبارات مثل «ها» و«قطّة طيبة».

في النهاية في حالة من اليأس أمسكت بالقطّة الهزيلة، راحت تتلوى بين يدي وغرست أسنانها في ذراعي، ولكننا تمكنا أنا وفرانسيس من لفها في منشفة، ولم يظهر منها سوى رأسها وعينيها المنتفختين وأذنيها المشدودتين.

سلمنا تشارلز اللفة الشبيهة بالمومياء وهي تصدر مواءً غاضباً مستمراً.

ظل فرانسيس ينظر بقلق إلى الوراء عبر المرآة الخلفية للسيارة ويقول: «أمسكها بقوة، انتبه، لا تدعها تفلت منك». لكنها أفلتت بالطبع، وقفزت إلى المقعد الأمامي وكادت تُخرج فرانسيس عن الطريق من شدة صدمته، فحاول جاهداً تجنب لمسها وركلها بعيداً عنه، بعد أن دخلت تحت الفرامل ودواسة الوقود استقرت على أرضية السيارة بين قدمي، وأصيبت بنوبة إسهال قبل أن يُغمى عليها وتتكوم حول نفسها في كومة من الفرو الشائك.

لم أزر منزل فرانسيس الريفي منذ الأسبوع الذي سبق وفاة باني.

كان الممر إلى المنزل مغطى بأوراق الأشجار المتساقطة، والفناء كثيف العشب، والنحل يطنّ فوق أزهار الليلك. أوماً إلينا السيد هاتش الذي كان يجزّ العشب على بُعد مسافة قصيرة برأسه ورفع يده نحونا مرحباً.

المنزل ظليل وبارد، غطت الملاءات بعض قطع الأثاث، تتأثر الغبار على الأرضية الخشبية. حبسنا القطة في الحمام بالطابق العلوي، فيما نزل تشارلز إلى المطبخ ليعد لنفسه شيئاً يأكله، وعاد يحمل علبة فول سوداني ومشروب دبل مارتيني، توجه إلى غرفته وأغلق الباب خلفه.

لم نر تشارلز كثيراً خلال الساعات الست والثلاثين التالية، لزم غرفته يأكل الفول السوداني ويشرب، وينظر عبر النافذة مثل

القرصان العجوز في رواية «جزيرة الكنز». في إحدى المرات نزل إلى المكتبة فيما كنا أنا وفرانسيس نلعب الورق، لكنه رفض دعوتنا للانضمام إلينا، ومرر يده بلا مبالاة على رفوف الكتب، ثم صعد مجدداً إلى غرفته من دون أن يأخذ أي كتاب معه.

كان ينزل في الصباح ليشرب القهوة، مرتدياً روب حمام فرانسيس القديم، ويجلس جانب نافذة المطبخ ينظر حزناً إلى العشب كأنه ينتظر شخصاً ما.

همس فرانسيس إليّ: «برأيك، متى كانت آخر مرة استحتم فيها؟».

فقد تشارلز شغفه بقطته سريعاً، أرسل فرانسيس السيد هاتش لإحضار طعام القطط.

كان فرانسيس يدخل الحمام صباحاً ومساءً ليطعمها، فيما كان يتمتم: «ابتعدي عني، أيتها الشيطانة»، ثم يخرج حاملاً صحيفة مكورة تفوح منها رائحة كريهة، يحاول أن يبقيها بعيداً عنه قدر المستطاع.

نحو الساعة السادسة بعد الظهر من يومنا الثالث هناك، كان فرانسيس في العلية يبحث عن جرة مليئة بالعملات المعدنية القديمة التي قالت له خالته إنه يستطيع الاحتفاظ بها إذا استطاع العثور عليها.

كنت في الطابق السفلي مستلقياً على الأريكة أشرب الشاي المثلج، أحاول حفظ الأفعال الشرطية الشاذة في اللغة الفرنسية،

(كان امتحاني النهائي في غضون أقل من أسبوع). فجأة سمعت رنين الهاتف قادمًا من المطبخ، فذهبت لأجيب.
كان هنري على الطرف الآخر من الخط. قال ببرود: «إذن أنتم هناك؟»

«نعم».

ساد صمت طويل ومتوتر، قال أخيرًا: «هل أستطيع التحدث إلى فرانسيس؟»

أجبت: «إنه غير قادر على الرد الآن، ما الأمر؟»

«أفترض أن تشارلز معكما في المنزل الريفي».

سألته مباشرة: «اسمعي يا هنري، ما غايتك من إعطاء تشارلز تلك الحبوب المنومة؟»

جاء رده سريعًا وباردًا كالجليد: «لا أعرف عمّ تتحدث».

«بلى، تعرف جيدًا».

«هل تقصد تلك الحبوب التي أعطيتني إياها؟»

«نعم».

«حسنًا، إذا كانت تلك الحبوب بحوزته الآن، فلا بد أنه أخذها

من خزانة أدويتي من دون علمي».

قلت: «يقول إنك أعطيتها له، ويعتقد أنك تحاول تسميمه».

«هذا هراء».

«حقًا؟»

«إنه معكما، أليس كذلك؟»

قلت: «بلى، أحضرناه إلى هنا منذ يومين...». بترت عبارتي،

فقد بدا لي أنني سمعت صوت نقرة خفيفة مميزة على الخط

كأن أحدهم رفع سماعة هاتف أخرى.

قال هنري: «حسنًا، استمع... سأكون ممتنًا إذا تمكنت من إبقائه هناك بضعة أيام، يبدو أن الجميع يعتقدون أن هذا الأمر يجب أن يبقى سرًا كبيرًا، ولكن صدقني، أنا سعيدٌ بابتعاده عن الأنظار مدة من الوقت. إذا لم يحضر إلى المحكمة، فسيُحكم عليه غيابيًا، ولكنني لا أعتقد أنهم يستطيعون فعل الكثير في هذه الحالة».

بدا لي أنني أستطيع سماع صوت تنفس على الطرف الآخر من الخط.

قال هنري بحذر فجأة: «ما هذا الصوت؟»

لم يقل أي منا أي شيء بعض الوقت.

قلت: «تشارلز؟ تشارلز، هل هذا أنت؟»

في الطابق العلوي صفع أحدهم سماعة الهاتف.

صعدت بسرعة وطرقت باب تشارلز، لم يكن هناك أي رد.

حاولت فتح الباب، لكنه كان مغلقًا من الداخل.

ناديته: «تشارلز، دعني أدخل».

لم يأت أي رد.

قلت محاولاً تهدئته: «تشارلز، لم يحدث أي شيء مما تظنه.

هنري هو من اتصل فجأة، وكل ما فعلته هو الرد على الهاتف».

استمر الصمت خلف الباب، وقفت هناك بضع دقائق، فيما

كانت أشعة شمس المساء الذهبية تنعكس على الأرضية المصقولة

المصنوعة من خشب البلوط.

قلت: «حقًا يا تشارلز، أظن أنك تبالغ. هنري لا يستطيع أن

يؤذيك، أنت في أمان تام هنا».

أجابني من الداخل بصوت مكتوم: «هراء».

لم أجد ما أضيفه، نزلت إلى الطابق السفلي مرة أخرى وعدت إلى دراسة الأفعال الشرطية، ويبدو أنني غفوت على الأريكة. لا أعلم كم من الوقت مضى لكن من المؤكد أنني لم أنم طويلاً، لأن الضوء كان لا يزال في الخارج، عندما أيقظني فرانسيس بقسوة.

قال وهو يهزني: «ريتشارد، استيقظ. تشارلز اختفى». جلست وفكرت عيني متحيراً: «اختفى؟ ولكن أين يمكن أن يكون قد ذهب؟»

أجاب بقلق: «لا أعرف، لكنه ليس في المنزل».

«هل أنت متأكد؟»

«لقد بحثت في كل مكان».

«ربما يكون في الفناء».

«لقد بحثت هناك أيضاً».

«ربما هو مختبئ».

«انهض وساعدني في البحث».

بينما صعدت إلى الطابق العلوي، ركض فرانسيس إلى الخارج. انفلق الباب الزجاجي خلفه بصوت عالٍ. كانت غرفة تشارلز في حالة من الفوضى، كانت هناك زجاجة نصف فارغة من جن مومباي -مأخوذة من خزانة المشروبات في المكتبة- على الطاولة جانب السرير، لم يكن هناك شيء مفقود من أغراضه. تفقدت جميع غرف الطابق العلوي، ثم صعدت إلى العلية.

مكتبة

t.me/soramnqraa

كان في العلية مجموعة كبيرة من الأغراض القديمة؛ مصابيح مكتبية وإطارات صور وفساتين حفلات من قماش الأورجاندي مصفرة بتأثير الزمن متناثرة هنا وهناك. كانت الأرضيات الخشبية العتيقة مهترئة حتى غدت رمادية متاكلّة، تسال عمود من ضوء الشمس المغبر عبر الكوة الزجاجية الملونة في السقف. هبطت الدرج الخلفي، منخفض السقف وخائفاً، وعرضه بالكاد يبلغ ثلاثة أقدام، ثم عبرت المطبخ والمستودع حيث يقيم كبير الخدم، وخرجت إلى الشرفة الخلفية.

رأيت من بعيد فرانسيس والسيد هاتش يقفان في الممر الخارجي أمام المنزل. كان السيد هاتش الذي قلما رأيته يتحدث مع أي شخص يتكلم مع فرانسيس بنبرة منزعجة وهو يمرر يده فوق فروة رأسه كأنه يعتذر إليه.

التقيت فرانسيس في طريق عودته إلى المنزل. كانت ملامحه قلقة ومصدومة، قال بسخرية مريرة: «تلقيت للتو خبراً رائعاً من السيد هاتش، يقول إنه أعطى تشارلز مفاتيح شاحنته قبل نحو ساعة ونصف».

«ماذا؟»

«يقول إن تشارلز جاء إليه وطلب المفاتيح بحجة أن لديه بعض الأعمال البسيطة، ووعد بإعادة الشاحنة في غضون خمس عشرة دقيقة».

تبادلنا النظرات.

قلت: «أين تعتقد أنه ذهب؟»

«كيف لي أن أعرف؟»

«هل تعتقد أنه رحل من هنا؟»

«يبدو كذلك، ما رأيك؟»

عدنا إلى المنزل الذي أصبح معتمًا مع انتشار الشفق، وجلسنا بجانب النافذة فوق أريكة طويلة مغطاة بملاءة، كان الهواء عبقًا برائحة زهور الليلك، أمكننا سماع السيد هاتش عبر المرح يحاول إعادة تشغيل جزاة العشب.

لف فرانسيس ذراعيه حول الجزء الخلفي من الأريكة، وأسند ذقنه فوقها، وحدق بشرود خارج النافذة.

قال: «لا أعلم ماذا ينبغي أن نفعل الآن، لقد سرق تشارلز الشاحنة».

«ربما سيعود».

«أخشى أن يتعرض لحادث سير أو أن يوقفه شرطي مرور، أراهنك أنه ثمل حتى النخاع. هذا ما نحتاج إليه الآن! أن يُقبض عليه مجددًا بتهمة القيادة تحت تأثير الكحول».

«ألا يجب أن نخرج ونبحث عنه؟»

هز رأسه وقال: «والى أين سنذهب؟ قد يكون الآن في منتصف الطريق إلى بوسطن، لا يمكننا التكهّن بمكانه».

«إذن، ما الحل؟ هل سنجلس هنا وننتظر حتى يرن الهاتف؟»

بدأنا البحث في الحانات، الواحدة تلو الأخرى؛ حانة نُزل المزارع وحانة القروي وبولدر تاب ونوتي باين وذا نوتش والإقطاعيين الأربعة ورجل كينت. كان الغروب الصيفي ساحرًا، وساحات الحانات مليئة بالشاحنات، لكن ولا واحدة منها كانت شاحنة السيد هاتش.

ثم قدنا السيارة أمام متجر خمور الولاية بلا سبب واضح، كانت أضواؤه مشرقة وممراته الداخلية فارغة تماماً. كانت هناك عروض لافتة لمشروبات الروم الفؤارة التي اصطفت على جوانب الممرات تحت لافتة «يانصيب الجزيرة الاستوائية!»، في حين تتزاحم بجوارها زجاجات الفودكا والجبن الكثيبة، من السقف تتدلى لافتة من الورق المقوى تروج لمبردات النبيذ.

في الداخل لم يكن هناك زبائن، لم نجد سوى رجل عجوز بدين من فيرمونت موشوم على ذراعه امرأة عارية، يتكئ على ماكينة النقود ويتبادل الحديث مع فتى صغير من متجر ميني-مارت المجاور. سمعته يقول بصوت منخفض: «ثم أخرج الرجل بندقية منشارية⁽¹⁾، وكان إيميت يقف هنا بجانبه. قال له بذعر: ليس معنا مفتاح صندوق النقود. ثم ضغط الرجل على الزناد، ورأيت أشلاء من دماغ إيميت تتناثر على هذا الجدار».

بعدها قدنا السيارة إلى الحرم الجامعي ثم إلى المكتبة، قال فرانسيس بثقة: «إنه ليس هنا، أراهن على ذلك بمليون دولار»، بعدها واصلنا البحث في الحانات من جديد.

قال فرانسيس: «لقد غادر البلدة بلا شك. هل تظن أن السيد هاتش سيبلغ الشرطة؟» ثم أضاف: «ماذا كنت لتفعل لو كانت شاحنتك؟ لن يفعل السيد هاتش شيئاً قبل أن يتحدث معي، لكن إذا لم يعد تشارلز بحلول ظهر الغد...».

(1) نوع من البنادق ذو ماسورة أقصر عادة من 18 بوصة، عادة يكون بقبضة مسدس، وعلى الرغم من المصطلح العامي لا يلزم تقصير الماسورة بالمنشار، يمكن تصنيع الماسورة أقصر من المواسير التقليدية.

قررنا التوجه إلى نزل ألبيمارل، وجدنا سيارة هنري متوقفة في الخارج، دخلنا البهو بحذر غير متأكدين من كيفية مواجهة مالك الفندق وزوجته، لكن لحسن الحظ لم يكن هناك أحد خلف مكتب الاستقبال.

صعدنا إلى الغرفة A3، سمحت لنا كاميلا بالدخول، كانت هي وهنري يتناولان عشاء طلباه من خدمة الغرف؛ قطع لحم ضأن وزجاجة من نبيذ البُرغندي فوق مائدة عليها مزهرية طويلة العنق داخلها وردة صفراء.

لم يكن هنري مسروراً برؤيتنا، أنزل شوكتة وسأل بيرود: «ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلكما؟»

قال فرانسيس: «إنه تشارلز، لقد رحل من دون أن يخبرنا أين ذهب»، ثم أخبرهما عن الشاحنة.

جلستُ بجانب كاميلا، كنت جائعاً وقطع لحم الضأن تبدو شهية جداً. لاحظت كاميلا نظراتي إليها فدفعت الطبق نحوي شاردة، وقالت: «هاك، تناول بعضاً منها».

أكلت وشربت كأساً من النبيذ أيضاً. واصل هنري تناول طعامه بهدوء وهو يستمع.

قال عندما انتهى فرانسيس: «أين تعتقد أنه ذهب؟»

«أنتى لي أن أعرف بحق الله؟»

«هل يمكنك إقناع السيد هاتش بعدم إبلاغ الشرطة بسرقة الشاحنة؟»

«ليس إذا لم يستعد الشاحنة، أو إذا تعرض تشارلز لحادث في أثناء قيادتها».

«كم تعتقد ثمن شاحنة كهذه؟ ليفترض أن خالتك لم تشتريها له منذ البداية».

«هذا ليس محل النقاش الآن، ما يهم هو أين تشارلز؟ يجب أن يكون هذا همّنا الأول».

مسح هنري فمه بمنديل ثم أخرج سيجارة من جيبه، وقال: «لقد أصبح تشارلز مشكلة كبيرة، هل تعلم فيما كنت أفكر مؤخراً؟ كنت أتساءل كم يكلف استئجار ممرضة خاصة له».

«لإبعاده عن الشرب، هل هذا ما تقصده؟»

«بالتأكيد، من الواضح أننا لا نستطيع إبقاءه في المستشفى، ربما نحجز له غرفة في فندق في مكان بعيد عن هنا، ونوظف ممرضة موثوق بها، ومن الأفضل ألا نتحدث الإنجليزية...».

تراجعت كاميللا إلى الخلف في مقعدها وقد بدا عليها الشحوب، قالت بقلق: «هنري، ماذا تنوي أن تفعل؟ هل ستختطفه؟»

«ليست هذه الكلمة التي كنت لأستخدمها».

«أخشى أن يكون قد تعرض لحادث. أعتقد أن علينا الخروج والبحث عنه».

قال فرانسيس: «لقد بحثنا في كل أنحاء البلدة، لا أعتقد أنه في هامبدن».

«هل اتصلتما بالمستشفى؟»

«لا».

قال هنري: «أعتقد أن علينا الاتصال بالشرطة، ونسألهم إذا كانت هناك حوادث سير وقعت مؤخراً. فرانسيس، هل تعتقد أن السيد هاتش سيوافق على القول إنه أعار الشاحنة لتشارلز؟»

أجاب فرانسيس: «هذا ما حدث بالفعل، فالسيد هاتش أعارها له».

رد هنري: «في هذه الحالة لن تكون هناك مشكلة، إلا إذا أوقفته الشرطة بسبب القيادة تحت تأثير الكحول».

«أو إذا لم نعثر عليه أبداً».

تتهد هنري بعمق وقال: «بصراحة أفضل شيء يمكن أن يفعله تشارلز الآن هو أن يختفي تماماً عن وجه الأرض».

فجأة سمعنا طرقاً عنيفاً ومجنوناً على الباب.

تبادلنا النظرات.

ظهر الارتياح واضحاً على وجه كاميللا، وقالت بلهفة: «إنه تشارلز!»، قفزت عن مقعدها واتجهت نحو الباب الذي لم نقفله بعد دخولنا، ولكن قبل أن تصل إليه فُتح الباب بعنف.

كان تشارلز يقف هناك أمام المدخل وقد بدا ثملاً، وعيناه تجولان في أرجاء الغرفة. فوجئت وسعدت جداً برؤيته لدرجة أنني لم أدرك إلا بعد لحظة أنه كان يحمل مسدساً.

خطا إلى الداخل، وأغلق الباب خلفه.

كان يحمل مسدس البيريتا الصغير الذي تحتفظ به خالة فرانسيس، والذي استخدمناه للتدريب على التصويب في الخريف الفائت.

حملقنا إليه مصعوقين.

أخيراً، تحدثت كاميللا بصوت متماسك: «تشارلز، ماذا تفعل؟»

قال تشارلز: «ابتعدي عن طريقي». كان في حالة سكر شديدة.

قال هنري بيرود من دون أن يبدي أي خوف: «هل جئت لتقتلني؟»،
كان لا يزال ممسكاً بسيجارته بهدوء غريب.
«أجل».

«أي شيء سيُصلحه قتلي في رأيك؟»
«لقد دمرت حياتي يا ابن العاهرة».

كان المسدس موجهاً مباشرة إلى صدر هنري، انقبض قلبي
عندما تذكرت كم كان تشارلز بارعاً في التصويب، وكيف كان
يهشم صفوف الزجاجات بدقة مذهلة.

انفعل هنري وقال بصوت حازم: «لا تكن أحمق!»، شعرت بذعر
حقيقي يسري في مؤخرة رقبتني. تلك اللهجة المتعجرفة التي
يستخدمها هنري معنا كانت تؤتي ثمارها أحياناً، لكنها هنا مع
تشارلز كانت كارثية. ثم أضاف: «إذا كان هناك شخص يجب أن
يُلام على مشكلاتك، فهو أنت».

أردت أن أقول لهنري أن يخرس، ولكن قبل أن أتمكن من قول
أي شيء ترنح تشارلز جانباً محاولاً تحسين موضعه حتى لا يتمكن
هنري من الاحتماء.

اعترضت كاميلاً طريقه، وقالت: «تشارلز، أعطني المسدس».
أزاح خصلات الشعر عن عينيه بساعده وهو لا يزال ممسكاً
بالمسدس بثبات بيده الأخرى. وقال بلهجة مهزوزة: «اسمعي يا
ميلي...». كان ذلك اسم حيوان أليف أطلقه عليها، اسماً نادراً ما
يستخدمه. «من الأفضل أن تبتردي عن طريقي».

قال فرانسيس بصوت خافت ووجهه شاحب كالشبح: «تشارلز...
اجلس... لدينا بعض النبيذ، لننسى هذا الأمر».

كانت النافذة مفتوحة وصوت صراخ الليل حادًا ومزعجًا.
قال تشارلز وهو يترنح إلى الوراء: «أيها الوغد».
مرت لحظة قبل أن أدرك، مذهولاً، أنه كان يتحدث إليّ وليس
إلى هنري أو فرانسيس.

«لقد وثقت بك، أخبرته عن مكاني».
كنت مرعوبًا بشدة فلم أتمكن من الرد، طرفت في وجهه
ببلاهة!

قال هنري ببرود: «كنت أعرف مكانك، إذا كنت تريد إطلاق
النار عليّ يا تشارلز فافعل ذلك، لكن هذا سيكون أغبى شيء
فعلته في حياتك».

قال تشارلز: «أغبى شيء فعلته في حياتي هو الاستماع إليك».
حدث ما بعد ذلك في لمح البصر. رفع تشارلز ذراعه ليطلق
النار، لكن فرانسيس الذي كان يقف بجانبه ألقي كأس النبيذ في
وجهه بسرعة البرق، وفي نفس اللحظة قفز هنري من مقعده
وانقض على تشارلز، تردد في الهواء صوت أربع فرقعات نارية
متتالية سريعة مثل مسدس قذح⁽¹⁾. مع الفرقة الثانية سمعت
تحطم الزجاج، ومع الثالثة شعرت بحرارة لاذعة في بطني على
يسار سرتي.

أمسك هنري بكلتا يديه ساعد تشارلز الأيمن فوق رأسه وثناه
إلى الخلف، كافح تشارلز للإمساك بالمسدس بيده اليسرى،
لكن هنري لوّاه من معصمه وأرغمه على إسقاط المسدس على
السجادة، حاول تشارلز استعادته لكن هنري كان أسرع منه.

(1) مسدس لعبة ينشئ صوتًا عاليًا يحاكي الرصاص والدخان عند إشعال كبسولة
قذح صغيرة.

كنت لا أزال واقفًا، فكرت: أصبت برصاصة!

تحسست بطني بيدي لأجد الدماء تغطيها، كان هناك ثقب صغير متفحم في قميصي الأبيض، فكرت بغصة؛ قميص بول سميث المفضل لدي، دفعت راتب أسبوع كامل في سان فرانسيسكو حتى أشتريه، شعرت أن معدتي ساخنة جدًا، وأن هناك موجات من الحرارة تشع من مكان دخول الرصاصة. أصبح المسدس بحوزة هنري، وقد أحكم قبضته على ذراع تشارلز خلف ظهره، فيما كان تشارلز يصارع ويضرب بأطرافه حوله بعنف، ألصق هنري المسدس بعموده الفقري ودفعه بعيدًا عن الباب.

كنت لا أزال عاجزًا عن استيعاب ما حدث لي. تساءلت: هل عليّ الجلوس؟ هل الرصاصة ما زالت داخلي؟ هل سأموت؟ بدت الفكرة غير منطقية وشبه مستحيلة. شعرت بحرارة حارقة في معدتي، ومع ذلك سيطر عليّ هدوء غريب. لطالما اعتقدت أن الإصابة بطلق ناري ستكون أكثر إيلاّمًا، تراجعت إلى الخلف ببطء حتى شعرت بظهر المقعد يلامس ساقي فجلست.

كان تشارلز -على الرغم من تثبيت إحدى ذراعيه خلفه- يحاول لكم هنري في بطنه بذراعه الأخرى، دفعه هنري مترنحًا عبر الغرفة ليسقط فوق المقعد، وصرخ عليه: «اجلس!».

حاول تشارلز النهوض مرة أخرى ولكن هنري دفعه بقوة أكبر، وعندما أعاد المحاولة ثانية تلقى صفعه قوية من يد هنري، صوتها كان أعلى من صوت الطلقات نفسها، بعدها اتجه هنري نحو النوافذ وبيده المسدس وسحب الستائر.

وضعت يدي على الثقب الصغير في قميصي، وانحنيت قليلاً إلى الأمام، أحسست بألم حاد في داخلي. توقعت أن يتوقف الجميع وينظرون إليّ، ولكن لم يلتفت إليّ أحد. تساءلت في نفسي: هل يجب أن ألفت انتباههم؟ كان رأس تشارلز مائلاً إلى الخلف مستنداً إلى ظهر المقعد، وكانت هناك آثار دماء على فمه، بدت عيناه زجاجيتين فاقدتين للحياة.

كان هنري يحمل المسدس بارتباك بيده السليمة، رفع يده المتألّمة التي صفع بها تشارلز، وخلع نظارته وفركها بمقدمة قميصه، ثم علقها على أذنيه مرة أخرى. قال: «حسنًا، يا تشارلز، لقد تماديت كثيرًا».

سمعت ضجيجًا قادمًا من الطابق السفلي عبر النافذة المفتوحة، تبعه صوت باب يُغلق بقوة وأشخاص يتحدثون. قال فرانسيس بتوتر: «هل تعتقد أن أحدًا قد سمع ما حدث؟» قال هنري: «بالتأكيد قد سمعوا».

اقتربت كاميلّا من تشارلز الذي كان في حالة سكر واضحة، بدا كأنه يحاول دفعها بعيدًا عنه.

أمرها هنري بلهجة صارمة: «ابتعدي عنه».

قال فرانسيس: «ماذا سنفعل بشأن هذه النافذة؟»

قلت: «ماذا سنفعل بشأنني؟».

استداروا جميعًا، ونظروا إليّ.

«لقد أطلق النار عليّ».

لكن على عكس ما توقعت، لم تُثر كلماتي تلك الاستجابة الدرامية التي كنت أنتظرها.

قبل أن تُتاح لي الفرصة للتوضيح أكثر، سمعنا خطوات ثقيلة على الدرج، ثم طرق أحدهم الباب بقوة.

جاء الصوت من خلف الباب: «ما الذي يحدث هنا؟».

تعرفتُ على صوت مالك الحانة: «ماذا يحدث؟»

دفن فرانسيس وجهه بين يديه، وقال: «يا إلهي، نحن في ورطة».

«افتحوا الباب!»

تمتم تشارلز ثملاً بكلمات غير مفهومة وحاول رفع رأسه. عض هنري على شفته وتوجه نحو النافذة، نظر بحذر من خلال الستائر، ثم استدار نحو كاميللا وهو لا يزال يمسك المسدس.

قال لها بنبرة أمرة: «تعالى إلى هنا، بسرعة!»

نظرت إليه وملامح الخوف بادية على وجهها.

أشار إليها بذراع مسدسه وقال: «اقتربي، بسرعة».

شعرت بالدوار، فكرت متحيراً: ما الذي ينوي فعله؟

تراجعت كاميللا خطوة بعيداً عنه، علا الخوف نظراتها.

قالت: «لا يا هنري، لا تفعل...».

ابتسم لها هنري وقال بلطف: «هل تعتقدين أنني سأؤذيك؟

تعالى إلى هنا».

دنت منه فقبّلها بين عينيها، ثم همس في أذنها بشيء ما، (بم

همس؟ هذا ما سأقضي حياتي أتساءل عنه!).

صرخ مالك الفندق وهو يطرق الباب بقوة: «معي مفتاح،
وسأستخدمه الآن!»

كانت تفاصيل الغرفة أمامي تضطرب أمام عيني، فكرت: أدر
المقبض فقط، أيها الأحمق!

قبل هنري كاميلاً مرة أخرى وقال: «أحبك»، ثم صرخ ناحية
الباب: «ادخل».

فتح الباب بقوة، رفع هنري يده التي تحمل المسدس. في
تلك اللحظة اعتقدت مشوشاً أنه سيطلق النار على الداخلين،
بدا أن مالك الفندق وزوجته فكرا في الشيء نفسه، فقد تجمدا
في مكانهما بعد أن سارا ثلاث خطوات داخل الغرفة، لكن قبل
أن يتحرك أحد صرخت كاميلاً: «لا، يا هنري!».

أدركت ما كان ينوي فعله بعد فوات الأوان.

ألصق فوهة المسدس بصدغه وأطلق النار مرتين، كانت
الطلقتان سريعتين ومتتاليتين، دفعتا رأسه بقوة نحو اليسار،
أظن أن ارتداد المسدس في يده بعد الطلقة الأولى هو ما أطلق
الثانية.

تدلى فمه مفتوحاً، دفع تيار الهواء الناجم عن الباب المفتوح
الستائر نحو النافذة المفتوحة. اهتزت الستائر مقابل الزجاج، ثم
عادت لتستقر مرة أخرى بصوت يشبه التتهيد. ثم هوى هنري،
وضاقت عيناه ببطء، وانشئت ركبته تحتها وتكوّم فوق السجادة.

الخاتمة

يا حسرتاه على السيد المسكين؛

لم يبدُ كأطلال شبابه الضائع،

بل كأطلال هاتيك الأطلال.

- جون فورد، مسرحية القلب المحطم⁽¹⁾

نجوت من اختبار الفرنسية في الأسبوع التالي بفضل عذري

القوي؛ إصابتي بطلق ناري في المعدة.

قالوا في المستشفى إنني محظوظ لأنني بقيت حيًا، وأظن

أنني كنت كذلك.

اخترقت الرصاصة جسدي، وأخطأت بأعجوبة جدار الأمعاء

بمليمتر أو اثنين، كما مرّت بجانب الطحال بمسافة مشابهة،

وخرجت من ظهري على بعد نحو بوصة ونصف إلى يمين مكان

دخولها.

شعرت بتلك الليلة الصيفية تمر بجانبني وأنا مستلقٍ في سيارة

الإسعاف، دافئة وغامضة، أطفال يركبون دراجاتهم، وفراشات

الليل تطارد مصابيح الشوارع، تساءلت في ذهني: هل هذه هي

الحياة عندما تقترب من الموت؟ هل تمر سريعًا هكذا؟ كنت

أنزف بغزارة، وأحاسيسي بدأت تتلاشى، ظلت أفكر كم هي

(1) جون فورد: كاتب مسرحي إنجليزي وشاعر في الحقبين الجاكوبيين والكارولينيين، وُلد في إيلسينجتون في ديفون بإنجلترا، تتناول مسرحياته بشكل

رئيسي الصراع بين العاطفة والضمير. الاقتباس كما هو مذكور في الأعلى من

مسرحيته القلب المحطم، ترجمة محمد منير الأصبحي الصادرة عن وزارة الإعلام

الكويتية، بتصرف.

غريبة هذه الرحلة المظلمة نحو العالم الآخر، نفق يضيئه وميض محطة بنزين «شل» ومطعم «برغر كينغ».

لم يكن المسعف الذي رافقني في السيارة يكبرني سنًا بكثير، كان فتى ذا ملامح شاحبة وشارب صغير أملس.

لم يسبق له أن شاهد إصابة بطلق ناري من قبل، كان يسألني باستمرار: هل الألم طاعن أم خفيف؟ هل يأتي على شكل نوبات أم أنه مستمر؟ لكنني بسبب دوار رأسي وتشتت أفكاري لم أتمكن من تقديم إجابة وافية.

ومع ذلك أتذكر أنني كنت أفكر أن شعوري كان شبيهًا بالمرّة الأولى التي ثملت فيها أو نمت مع فتاة، شعور غريب وغير متوقع، ليس ما كنت أتوقعه بالضبط لكنك تدرك أنه لا يمكن أن يكون شعورًا آخر. كانت أضواء النيون حولي -نزل موتيل 6، ومتجر ملكة الألبان- شديدة السطوع لدرجة بدت كأنها تحطم قلبي الهش.

فارق هنري الحياة بالطبع، لم يكن هناك احتمال آخر بعد رصاصتين في الرأس، لكنه عاش أكثر من اثنتي عشرة ساعة بعد الإصابة، وهو ما أثار دهشة الأطباء. (كنت تحت تأثير التخدير حينها، هذا ما أخبروني به).

قالوا إن مثل هذه الإصابات الخطيرة في الرأس تقتل أي شخص على الفور. ما زلت أتساءل إن كان هذا يعني أنه لم يرغب في الموت حقًا، وإن كان كذلك فلماذا أطلق النار على نفسه؟ مهما كانت الأمور سيئة في نزل ألبيمارل، أعتقد أننا كنا سنجد حلًا بطريقة أو بأخرى، لا أظن أن هنري انتحر بدافع

اليأس أو الخوف، أعتقد أن المواجهة مع جوليان كانت ثقيلة عليه، وتركت أثراً عميقاً في نفسه لم يستطيع تجاوزه. أعتقد أنه شعر بالحاجة إلى إبداء لفظة نبيلة، ليثبت لنا ولنفسه إمكانية تطبيق تلك المبادئ السامية التي غرستها فينا تعاليم جوليان؛ الواجب والتقوى والولاء والتضحية. أذكر انعكاس صورته في المرأة وهو يرفع المسدس إلى رأسه، كان تعبيره يعكس تركيزاً شديداً وانتصاراً منتشياً، مثل غواص شجاع يُهرع إلى نهاية لوحة القفز، عيناه ضيقتان، ووجهه تملؤه سعادة غامرة في انتظار لحظة الارتطام بالماء.

أفكر كثيراً في تلك النظرة التي ارتسمت على وجهه، في الواقع أفكر في أمور كثيرة. أفكر في أول مرة رأيت فيها شجرة بتولا، وآخر مرة التقيت فيها جوليان. كما لا تفارق ذهني الجملة الأولى التي تعلمتها في اللغة اليونانية: «الجميل قاسٍ» (χαλεπὰ τὰ καλὰ). في نهاية المطاف تخرجت في كلية هامبدن بدرجة علمية في الأدب الإنجليزي، ثم شددت الرحال إلى بروكلين محاطاً بضمادات على بطني مثل رجل عصابات. أتذكر أن الأستاذ الذي عملت معه في ذلك الصيف قال لي ساخراً: «أنت الآن في بروكلين هايتس، وليس في بنسونهورست⁽¹⁾».

قضيت ذلك الصيف في تكاسل على سطح بنايته، أذخن السجائر، وأقرأ بروسست، وأفكر في الموت والخمول والجمال والزمن، شُفيت إصابة الرصاصة لكنها تركت ندبة على بطني،

(1) حي ضخم وفقير، متعدد الأعراق في الجزء الجنوبي الغربي من بروكلين، ويُعرف باسم إيطاليا بروكلين.

عدت إلى الكلية في الخريف في شهر سبتمبر البديع، لن تصدقوا جمال الأشجار في تلك السنة، كانت السماء صافية والبساتين متناثرة هنا وهناك، ويمكنك سماع أحاديث الناس السعيدة كلما مشيت إلى جوارهم.

لم يعد فرانسيس إلى الكلية في ذلك الخريف ولا التوأمان. القصة الخاصة بما حدث في ألبيمارل بسيطة، تشرح نفسها؛ كان هنري في مزاج انتحاري، نشب بيننا صراع على المسدس، فأصبْتُ بطلق ناري ومات هنري، من زاوية معينة شعرت أن هذه الرواية ظلمت هنري، ومن زاوية أخرى كانت عادلة، جعلتني أشعر بتحسن بشكل غريب، تخيلت نفسي بطلاً شجاعاً حاول نزع المسدس من هنري، بدلاً من كوني مجرد متفرج تصادف أن يقف في طريق الرصاصة، وهو ما كنت عليه فعلياً.

اصطحبت كاميلا تشارلز إلى فرجينيا في يوم جنازة هنري، التي كانت بالمصادفة في اليوم ذاته الذي كان من المفترض أن يمثل فيه هنري وتشارلز أمام المحكمة، كانت الجنازة في سانت لويس.

لم يحضرها أحد منا سوى فرانسيس، أما أنا فكنت لا أزال في المستشفى في حالة هذيان، ولا أزال أرى في مخيلتي كأس النبيذ المنقلبة تتدحرج على السجادة وورق الجدران المزخرف بأغصان البلوط في غرفة ألبيمارل.

قبل أيام قليلة من الجنازة، زارتي والدة هنري في المستشفى، بعد أن رأت جثمان ابنها في المشرحة في نهاية الممر.

أتمنى لو أنني أستطيع تذكر المزيد عن زيارتها، كل ما بقي في ذاكرتي هو سيدة جميلة ذات شعر داكن وعينين تشبه عيني هنري. كانت واحدة من بين سيل الزوار الحقيقيين والمتخيلين، الأحياء والأموات، الذين تدفقوا إلى غرفتي وأحاطوا بسريري؛ جوليان وجدي الراحل وباني تعلو وجهه نظرة غير مبالية قاضماً أظافره. أمسكت بيدي بلطف، فقد حاولت إنقاذ حياة ابنها حسب الرواية السائدة، كان في الغرفة طبيب وممرضتان، رأيت هنري بوضوح يقف خلفها في زاوية الغرفة، يرتدي ملابس البستنة القديمة التي كان يرتديها دائماً وهو يعمل في الحديقة.

عندما غادرت المستشفى ووجدت مفاتيح سيارة هنري بين أغراضي، تذكرت حينها شيئاً حاولت أن أخبرني به، فقد اكتشفت في أثناء ترتيب شؤون ابنها بعد وفاته أنه كان على وشك نقل ملكية سيارته إليّ قبل أن ينتحر. كانت تلك اللمحة من الكرم تتناسب مع قصته الرسمية؛ شاب انتحاري يتخلى عن ممتلكاته قبل الرحيل، لا أحد حتى الشرطة حاول أن يربط هذا الكرم مع حقيقة أن هنري كان يعتقد أنه سيخسر السيارة في المحكمة، وكان نقل ملكيتها إليّ مجرد حيلة بارعة.

على أي حال أصبحت السيارة البي إم دبليو ملكي، قالت إنها اختارتها بنفسها هدية في عيد ميلاده التاسع عشر، حاولت أن تشرح لي أنها لم تستطع بيعها أو حتى رؤيتها مرة أخرى وهي تبكي بصمت بجانب سرير في المستشفى، فيما كان هنري يقف خلفها متجسداً في الظل يعيد ترتيب الزهور في مزهرية من دون أن تنتبه إليه أي من الممرضات.

قد تعتقدون أنه بعد كل ما مررنا به أنه ينبغي أن نبقى على تواصل أوثق أنا وفرانسيس والتوأمان، ولكن بعد وفاة هنري بدا أن الخيط الذي ربطنا قد انقطع فجأة، وبدأنا الابتعاد عن بعضنا تدريجياً، كل منا يسير في طريق منفصل.

كان فرانسيس في مانهاتن طوال الصيف الذي كنت فيه في بروكلين، تحدثنا هاتفياً ربما خمس مرات فقط، والتقيننا مرتين في حانة في الجانب الشرقي العلوي من مانهاتن أسفل شقة والدته مباشرة. قال لي إنه لا يرغب في الابتعاد عن المنزل كثيراً، وإن الذهاب إلى الأماكن المزدحمة يثير قلقه، كلما ابتعد عن بنايته بشارعين فقط شعر أن المباني على وشك الانهيار فوقه، كانت يدها ترتعشان حول منفضة السجائر، أخبرني أنه يزور طبيباً بانتظام، ويقرأ كثيراً، بدا أن الجميع في الحانة يعرفونه جيداً.

اعتكف التوأمان في منزل جدتهما في فرجينيا، ولم يتوصلا مع أي شخص على الإطلاق، أرسلت لي كاميلا ثلاث بطاقات بريدية في ذلك الصيف واتصلت بي مرتين، ثم في شهر أكتوبر عندما عدت إلى الكلية كتبت تخبرني أن تشارلز ألق عن الشرب، ولم يشرب قطرة من الكحول منذ أكثر من شهر، كما أرسلت لي بطاقة معايدة في الكريسماس.

في فبراير تلقيت منها بطاقة بريدية في عيد ميلادي، لكنها كانت تفتقر إلى أي أخبار عن تشارلز، وبعد ذلك لم أسمع منها شيئاً لمدة طويلة.

مع اقتراب موعد تخرجي تجدد التواصل بيننا على فترات متقطعة، كتب لي فرانسيس قائلاً: «من كان يظن أنك ستكون الوحيد بيننا الذي يكمل دراسته ويتخرج حاملاً شهادة!» أرسلت كاميلاً تهانيها واتصلت بي عدة مرات.

تحدثنا عن احتمال قدومهما إلى هامبدن لحضور حفل تخرجي، لكنها لم تأتي في النهاية، ولم أفاجأ كثيراً بذلك. في سنتي الأخيرة في الكلية بدأت بمواعدة صوفي ديربولد. وفي فصلي الدراسي الأخير انتقلت للعيش معها في شقتها خارج الحرم الجامعي بشارع ووتر، على بُعد بضعة أبواب فقط من منزل هنري. في ذلك المنزل كانت ورود «مدام إسحاق بيريز» التي زرعها هنري تزهر بكثافة في الحديقة الخلفية، كنت أفكر دائماً أنه لم يعيش ليراها تتفتح، تلك الورود التي كانت تفوح برائحة التوت، وكان الكلب البوكسر -الناجي الوحيد من تجاربه الكيميائية- يركض نحوي وينبح كلما مررت بجوار المنزل.

بعد التخرج حصلت صوفي على وظيفة في شركة رقص بلوس أنجلوس، كنا نظن أننا مغرمان، وتحدثنا عن الزواج، مع أن حدسي كان يحذرني من ذلك، فقد راودتني كوابيس ليلية مرعبة تصور حوادث سيارات مروعة، وقناصة يتريصون على الطرق السريعة، وأعين كلاب متوحشة تلمع في مواقف السيارات بالضواحي. وعلى الرغم من تلك التحذيرات، قررت أن أحصر طلبات تقدمي للحصول على زمالات الدراسات العليا في كليات جنوب كاليفورنيا فقط.

ولكن لم تمضِ ستة أشهر على علاقتنا حتى انفصلنا، قالت صوفي إنني كنت متحفّظاً وقليل الكلام، ولم تعرف قط ما يدور في ذهني، وإن نظراتي في بعض الأحيان عندما أستيقظ صباحاً كانت تخيفها.

قضيت معظم وقتي في المكتبة، أقرأ عن مسرحي العصر اليعقوبي⁽¹⁾: ويبستر⁽²⁾، وميدلتون⁽³⁾، وفورد، وتيرنر⁽⁴⁾. كان تخصصاً صعباً، لكن عالمهم القاتم المضاء بالشموع، حيث الخطيئة بلا عقاب والبراءة تُسحق بلا رحمة، بدا لي فاتناً. حتى عناوين مسرحياتهم كانت غامضة وجذابة كأنها أبواب مسحورة تفتح على عوالم جميلة وشريرة تحت سطح الفناء والموت؛ «الملاذ»، و«الشیطان الأبيض»، و«القلب المحطم». قرأتها بعناية ودوّنت ملاحظات في الحواشي.

تمتع مسرحيو العصر اليعقوبي بفهم عميق للكارثة. لم يقتصر إدراكهم على معنى الشر فقط، بل أجادوا تصوير كيف يمكن للشر أن يتخفى تحت قناع الخير. شعرت أنهم لامسوا جوهر

(1) يشير العصر اليعقوبي إلى مرحلة من التاريخ الإنجليزي والإسكتلندي تتزامن مع عهد جيمس السادس ملك إسكتلندا الذي ورث التاج البريطاني العام 1603 ليصبح جيمس الأول، يأتي هذا العصر بعد العصر الإليزابيثي ويسبق العصر الكاروليني.

(2) جون ويبستر (1580-1634 تقريباً) من أبرز المسرحيين الإنجليز، واشتهر بمسرحياته التراجيدية مثل «دوقة مالفي» و«الشیطان الأبيض». تداخلت حياته المهنية مع حياة شكسبير.

(3) توماس ميدلتون (1580-1627): مسرحي وشاعر من الحقبة اليعقوبية، ويُعتبر واحداً من أنجح كتّاب المسرح في تلك الفترة بجانب جون فليتشر وبن جونسون.

(4) سيريل تيرنر: جندي إنجليزي ودبلوماسي ومسرحي، اشتهر بأعمال مثل «مأساة الملحد» (1611)، و«مأساة المنتقم» (1607). غير أن هناك جدلاً أكاديمياً حول هوية كاتب مأساة المنتقم، حيث يحتدم النقاش بين كونها من تأليف تيرنر أو ميدلتون.

المشكلة، واستطاعوا الوصول إلى جذور الفساد الذي ينخر في أساس العالم.

لطالما أُعجبت بكريستوفر مارلو، ووجدت نفسي أفكر فيه كثيرًا. وصفه أحد معاصريه قائلاً: «مارلو، الهر الطيب». كان مارلو أكاديميًا لامعًا، وصديقًا لرالي⁽¹⁾ وناش⁽²⁾، ومن أكثر العباقرة ثقافة في عصره خلال مدة دراسته في كامبريدج. شق طريقه بشموخ بين نخبة الأدب والسياسة، وكان الشاعر الوحيد في عصره الذي أشار إليه شكسبير بشكل مباشر. ورغم ذلك، كان مارلو أيضًا مزورًا وقاتلًا، عاش حياة فاسدة، محاطًا بصحبة شديدة الفسوق، ومارس أكثر العادات انحطاطًا. مات عن عمر يناهز التاسعة والعشرين في شجار داخل حانة، رافقه في ذلك اليوم جاسوس ونشال ومالك ماخور. طعن مارلو فوق عينيه فسقط قتيلاً على الفور.

كثيرًا ما تأملت تلك الكلمات التي كتبها الدكتور فاوستوس في مسرحيته: «أعتقد أن سيدي على وشك الموت، فقد كتب وصيته وأعطاني كل ثروته»⁽³⁾. وأفكر أيضًا في تلك العبارة التي قيلت

(1) السيد والتر رالي: كان رجل دولة إنجليزيًا وجنديًا وكاتبًا وشاعرًا ومستكشفًا، يُعد من أعظم شخصيات العصر الإليزابيثي. كان له دور أساسي في توطيد الاستعمار الإنجليزي في أمريكا الشمالية، وفي قمع التمرد في أيرلندا، كما أسهم في الدفاع عن إنجلترا ضد الأسطول الإسباني «الأرمادا»، وتقلد عدة مناصب سياسية في عهد الملكة إليزابيث الأولى.

(2) يُعد توماس ناش (1567-1601) من أعظم الهجائيين في العصر الإليزابيثي، كان كاتبًا مسرحيًا وشاعرًا وكاتبًا ساخرًا، اشتهر بروايته «المسافر المؤسف»، إلى جانب دفاعاته العديدة عن كنيسة إنجلترا.

(3) من الفصل الخامس المشهد الأول من مسرحية دكتور فاوستوس أو فاوست لكريستوفر مولر، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، بتصرف.

في حوار جانبي⁽¹⁾ حين ذهب فاوستوس مرتدياً رداءه الأسود إلى بلاط الإمبراطور: «كلامه مريع. ولكن مع ذلك لا أثق به كثيراً فهو يشبه ساحراً إلى حد كبير⁽²⁾».

عندما كنت أكتب أطروحتي عن مسرحية «مأساة المنتقم» لتيرنر، وصلتني رسالة من فرانسيس.

عزيزي ريتشارد،

أتمنى لو كان بوسعي أن أقول إن كتابة هذه الرسالة كانت صعبة عليّ، لكن في الحقيقة لم تكن صعبة على الإطلاق. كانت حياتي لسنوات عديدة في حالة انحلال، وأعتقد أن الوقت قد حان أخيراً لأفعل ما يبدو أنه الصواب.

إذاً هذه آخر مرة سأحدث فيها معك على الأقل في هذا العالم. ما أود قوله لك: اجتهد في عملك. كن سعيداً مع صوفي. [لم يكن يعلم بأمر انفصالنا] سامحني على كل ما فعلته، وعلى كل ما لم أفعله.

لكنني بكيت كثيراً!

إن الفجر لحزين...

كل قمرٍ مبرّح، وكل شمسٍ مريرة...

(1) كلمات تنطق بها الشخصية ويسمعوها جمهور المتفرجين، ولكن لا تسمعها الشخصيات الموجودة على خشبة المسرح.

(2) من الفصل الرابع المشهد الأول على لسان شخصية الفارس بنفوليو من ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، بتصرف.

ملأني الحب اللاذع بخدر مُسكر⁽¹⁾.

يا له من شعر حزين لكنه جميل، كم تمنيت أن أقتبس هذه الكلمات في يوم ما، ربما لن يكون الفجر مريراً في العالم الذي سأنتقل إليه قريباً، يعتقد الأثينيون أن الموت مجرد نوم، قريباً سأعرف الحقيقة بنفسي.

أتساءل إن كنت سأرى هنري على الجانب الآخر، لو رأيته فأنا أتطلع إلى سؤاله لماذا لم يطلق النار علينا جميعاً ويضع نهاية للأمر برمته!

لا تحزن بسبب هذا، بل تقبله ببساطة فهذه هي الحياة. إلى اللقاء!

فرانسيس

لم أره منذ ثلاث سنوات، كانت الرسالة ممهورة بختم بريد بوسطن قبل أربعة أيام. تركت كل شيء وتوجهت إلى المطار وركبت أول طائرة متجهة إلى لوغان، حيث وجدت فرانسيس في مستشفى «بريجهام والنساء» التابع لكلية طب هارفارد، يتعافى من جرحين غائرين في معصمه أحدثتهما شفرة حلاقة.

بدا في حالة مزرية، كان شاحباً مثل جثة. أخبرني أن الخادمة وجدته غائباً عن الوعي، غارقاً في الدم في حوض الاستحمام. كان لديه غرفة خاصة في المستشفى، هطل المطر على زجاج النوافذ الرمادية. شعرت بسعادة غامرة لرؤيته، وأعتقد أنه شعر بالسعادة أيضاً، تحدثنا ساعات عن مواضيع تافهة بلا أهمية.

(1) بالفرنسية في الأصل، والأبيات من قصيدة «القارب السكران» لآرثر رامبو.

قال: «هل سمعت أنني سأتزوج؟»

نظرت إليه في ذهول وقلت: «لا».

ظننت أنه يمزح، لكنه اعتدل في سريره وأخذ يبحث في درج بجانبه حتى وجد صورة أظهرها لي. كانت لفتاة شقراء ذات عينين زرقاوين، أنيقة في مظهرها، تشبه ماريون في بنية جسدها. «إنها جميلة».

قال فرانسيس بحدة: «إنها غبية. أكرهها. هل تعرف ماذا يسميها أبناء عمومتي؟ الثقب الأسود».

«لماذا؟».

«لأن المحادثة تتحول إلى فراغ كلما دخلت الغرفة».

«إذن لماذا ستتزوجها؟»

لم يجب على الفور، ثم قال: «كنت أواعد شخصاً آخر، كان محامياً، يدمن الكحول قليلاً، لكنه رجل جيد. تخرج في جامعة هارفارد، وأعجبت به، اسمه كيم».

«ثم؟»

«اكتشف جدي ذلك بأكثر طريقة درامية يمكنك تخيلها».

مد يده ليلتقط سيجارة، كان عليّ إشعالها له بسبب جرح معصمه، لقد أصاب أحد الأوتار التي تتحكم في إبهامه.

نفث عموداً من الدخان وقال: «عليّ الزواج».

«وإن لم تفعل؟»

«سيقطع جدي عني المال».

«ألا يمكنك تدبر أمورك بمفردك؟».

«لا».

قال ذلك بيقين أزعجني.

قلت: «أنا أتدبر أموري بنفسي، يمكنك ذلك أيضًا». «لكنك اعتدت ذلك».

في تلك اللحظة فُتح باب غرفته، ودخلت الممرضة -ليست ممرضة المستشفى، بل ممرضة خاصة عيّنتها والدته للعناية به- ابتسمت ابتسامة مشرقة وقالت: «السيد أبيرناثي، هناك من يريد رؤيتك».

أغمض فرانسيس عينيه ثم فتحهما، وقال: «إنها هي». خرجت الممرضة. تبادلنا النظرات. قلت: «لا تتزوج رغماً عنك يا فرانسيس». «عليّ أن أفعل».

فُتح الباب، ودخلت الشقراء التي في الصورة بخطوات رشيقة، تزين وجهها ابتسامة عريضة. كانت ترتدي سترة وردية مزينة بنقوش تشبه ندف الثلج، وقد ربطت شعرها إلى الخلف بشريط وردي.

كانت في الحقيقة جميلة جداً، حملت بين ذراعيها كومة من الهدايا؛ دمية دب، وحلوى الجيلي بين ملفوفة بورق قصدير، ونسخ من مجلات GQ وذا أتلانتيك وإسكواير.

فكرتُ في دهشة: «منذ متى أصبح فرانسيس يهتم بالمجلات؟» سارت إلى السرير وقبّلت برقة على جبهته.

قالت برقة: «عزيزي، ألم نتفق على أن نتوقف عن التدخين؟» لدهشتي أخذت السيجارة من بين أصابعه وأطفأتها في منفضة السجائر.

ثم التفتت إليّ، وتهلل وجهها .

مرّر فرانسيس يده المغطاة بالضمادات في شعره وقال ببرود:
«بريسيل، هذا صديقي ريتشارد».

اتسعت عيناها الزرقاوان. «أهلا. لقد سمعت كثيراً عنك!»
قلت بأدب: «أخبرني فرانسيس عنك أيضاً».

سحبت مقعداً وجلست بجوار سريره، كانت لطيفة جداً، ولم
تفارق الابتسامة وجهها. جلست صامتاً، وكأنما بسحر غامض
توقفت المحادثة.

وصلت كاميلاً إلى بوسطن في اليوم التالي، هي الأخرى كانت
قد تلقت رسالة من فرانسيس.

كنت أغفو على الكرسي بجانب سرير فرانسيس بعد أن
أمضيت وقتاً طويلاً أقرأ له. عندما أفكر في ذلك الآن أستغرب
كم كان الوقت الذي قضيته مع فرانسيس في المستشفى يشبه
الأيام التي قضيتها مع هنري في مستشفى فيرمونت خلال شتاء
ذلك العام.

استيقظت على صوت المفاجأة الذي أطلقه فرانسيس، وحين
فتحت عيني، رأيت كاميلاً واقفة أمامي في ضوء بوسطن الرمادي
الكئيب، خيّل إليّ أنني أحلم.

بدت أكبر سناً، وجنتاها غائرتان قليلاً، وقد قصّت شعرها
ليصبح قصيراً جداً. من دون أن أدرك ذلك كنت قد بدأت أفكر
فيها كأنها شبح، ولكنها الآن تقف أمامي بلحمها ودمها! شاحبة

الوجه قليلاً لكنها لا تزال جميلة، شعرت بقلبي يقفز قفزة عنيفة ومفاجئة، وظننت أنني سأموت من شدة الفرح. جلس فرانسيس في سريريه، ومد ذراعيه نحوها بحنان، وقال: «عزيزتي، تعالي إلى هنا».

قضينا ثلاثتنا أربعة أيام في بوسطن معاً، أمطرت طوال الوقت. خرج فرانسيس من المستشفى في اليوم الثاني الذي صادف يوم «أربعاء الرماد»⁽¹⁾.

لم يسبق لي أن زرت بوسطن، ولكنها بدت لي كأنها نسخة من لندن التي لم أرها قط؛ سماء رمادية، ومنازل من الطوب الذي يعلوه السخام، وزهور ماغنوليا مغلقة في ضباب كثيف.

أرادت كاميللا وفرانسيس حضور القداس، فذهبت معهما. كانت الكنيسة مكتظة وباردة، وتيارات الهواء الباردة تتسلل من كل زاوية. تقدمنا مع الحشود نحو المذبح لتلقي الرماد، وتحركنا بهدوء ضمن الصف الطويل من المصلين المتمايلين.

كان الكاهن عجوزاً محني الظهر يرتدي ثوباً أسود، بدا كأنه يجسد الزمن ببطئه وثقله، رسم بإبهامه صليباً على جبينه وقال: «لأنك تراب، وإلى التراب تعود». وقفت ثانيةً عندما حان وقت المناولة، لكن كاميللا أمسكت ذراعي برفق، وأجبرتني على الجلوس مجدداً. جلسنا في مقاعدنا بصمت، فيما الصفوف من حولنا تخلو تدريجياً، ويمضي الناس نحو المذبح مرة أخرى.

(1) أربعاء الرماد: هو أول يوم من مدة الصوم المسيحي.

قال فرانسيس في طريق الخروج من الكنيسة: «هل تعلمان؟ سألت بانى بالخطأ ذات مرة إن كان قد فكر في معنى الخطيئة». قالت كاميللا: «ماذا قال؟»

ضحك فرانسيس: «قال: لا، بالطبع لا. أنا لست كاثوليكيًا». قضينا بقية اليوم في حانة صغيرة معتمدة في شارع بويلستون، ندخن السجائر ونتناول الويسكي الأيرلندي. تحول الحديث إلى تشارلز الذي بدا أنه قضى بعض الوقت في منزل فرانسيس خلال السنوات القليلة الماضية.

قالت كاميللا: «أقرضه فرانسيس مبلغًا كبيرًا من المال قبل نحو عامين. كان تصرفًا نبيلًا، لكن لم يكن عليه فعل ذلك». هز فرانسيس كتفيه، وتجرع ما تبقى في كأسه، كان واضحًا أن الموضوع أزعجه، قال: «أردت ذلك». «لن ترى مالك مرة أخرى».

«لا بأس في ذلك».

استبد بي الفضول: «أين تشارلز الآن؟»

ردت كاميللا: «أوه، إنه يتدبر أموره»، لكن من الواضح أن الحديث عن تشارلز أزعجها.

تابعت: «عمل مع عمي مدة وجيزة، ثم حصل على وظيفة عازف بيانو في حانة، لكن الأمر لم يسر كما ينبغي. غضبت جدتي منه بشدة، وطلبت من عمي أن يخبره أنه إن لم يُحسن سلوكه فعليه مغادرة المنزل. لم ينتظر تشارلز هذا القرار وغادر من تلقاء نفسه».

تابعت كاميلاً حديثها: «استأجر غرفة في البلدة، واستمر في العمل بالحانة حتى طُرد في النهاية، واضطر إلى العودة إلى المنزل مرة أخرى، ومنذ ذلك الوقت بدأ يتردد على فرانسيس». ثم وجهت حديثها إلى فرانسيس قائلة: «لقد كنت لطيفاً جداً بتحملك إياه».

كان فرانسيس يحدق إلى شرابه، قال: «أوه، لا بأس في ذلك». «كنت طيباً جداً معه». «إنه صديقي».

أضافت كاميلاً: «أقرض فرانسيس تشارلز المال ليدخل مصحة علاجية، بقي هناك أسبوعاً فقط، ثم هرب مع امرأة في الثلاثين من عمرها التقاها في جناح التخلص من السموم. لم يسمع أحد عنهما مدة شهرين، حتى تمكن زوجها...». «كانت متزوجة؟»

«نعم، ولديها طفل أيضاً... صبي صغير، تمكن زوجها من تعقبهما بمساعدة محقق خاص، وجدهما يعيشان في ظروف مروعة في مكان أشبه بمكب نفايات في سان أنطونيو. كان تشارلز يعمل في غسل الأطباق في أحد المطاعم، وهي... حسناً لا أعرف ماذا كانت تعمل. ومع ذلك لم يكن يرغب أي منهما في العودة إلى ديارهما. كانا سعيدين، أو هكذا قالوا». توقفت لتأخذ رشفة من شرابها.

قلت: «ثم؟»

قالت: «لا يزالان هناك في تكساس، على الرغم من أنهما غادرا سان أنطونيو، مكثا مدة من الوقت في كوربوس كريستي، وآخر ما سمعناه أنهما انتقلا إلى جالفستون». «ألا يتصل بك؟»

ران صمت طويل، قالت أخيراً: «لا، لم نعد نتحدث بتاتاً».

«إطلاقاً؟»

«ولا حتى كلمة». أخذت رشفة أخرى من الويسكي، وقالت:

«حطم قلب جدتي».

مشينا عائدين إلى منزل فرانسيس عبر الحدائق العامة في الشفق الممطر، كانت مصابيح الشارع مضاء.

وفجأة، قال فرانسيس: «هل تعلمان؟ ما زلت أتوقع ظهور هنري».

شعرت بالتوتر قليلاً من كلامه، فعلى الرغم من أنني لم أفصح عن ذلك، كنت أفكر في الأمر ذاته. فمنذ وصولي إلى بوسطن، كنت ألمح أشخاصاً أخالهم هنري؛ شخصيات غامضة تمرّ أمامي في سيارات الأجرة، أو تختفي داخل المكاتب.

قال فرانسيس: «خُيِّل لي أنني رأيته عندما كنت مستلقياً في المغطس. كان الماء يقطر من الصنبور، والدماء تغمر المكان بأسره. اعتقدت أنني رأيته يقف هناك، يرتدي روبه المعتاد، الروب ذا الجيوب المتعددة التي كان يحتفظ فيها بسجائره وأغراضه، يقف قرب النافذة مستديراً بنصف جسده إليّ، ويقول لي بذلك الصوت المتذمر: حسناً، يا فرانسيس، أتمنى أن تكون سعيداً الآن».

واصلنا المشي صامتين.

ثم قال فرانسيس: «من الغريب أنني أجد صعوبة في تصديق أنه مات فعلاً، أعني... أعلم أنه من المستحيل أن يكون قد زَيَّف موته، ولكن إذا كان هناك أحد يمكنه العودة من الموت فهو

هنري، يشبه إلى حد ما شارلوك هولمز عندما سقط من فوق شلالات رايشنباخ⁽¹⁾. لا أزال أتوقع أن يكون الأمر كله خدعة، وأنه سيعود يوماً ما ليشرح لنا كل شيء».

كنا نعبّر الجسر حين انعكست الأضواء الصفراء من المصابيح فوق مياه النهر السوداء كلون الحبر.

قلت: «ربما يكون هو بالفعل من رأيته».

«ماذا تقصد؟»

قلت متأملاً بعد صمت طويل: «أعتقد أنني رأيته أيضاً... في غرفتي، عندما كنت في المستشفى».

قال فرانسيس: «حسناً، إنك تعرف ما يقول جوليان عن ذلك. إن هذه الأمور -كالأشباح- دائماً موجودة، عرف الناس ذلك منذ القدم، ونحن نؤمن بها تماماً مثلما آمن بها هوميروس، لكننا الآن نطلق عليها أسماء أخرى مثل الذاكرة أو اللا وعي».

فجأة، قالت كاميللا بهدوء: «هل تمانعان في تغيير الموضوع؟ من فضلكما».

اضطرت كاميللا إلى الرحيل صباح الجمعة، أخبرتني أن جدتها تعرضت لوعكة صحية، وأن عليها العودة. أما أنا فلم يكن عليّ العودة إلى كاليفورنيا حتى الأسبوع القادم.

عندما وقفت معها على رصيف المحطة، كانت غير صبورة، تنقر بقدمها وتتحني إلى الأمام لتلقي نظرة على القضبان، كانت

(1) «مات» شارلوك هولمز في قصة «المشكلة الأخيرة» بسقوطه من شلالات رايشنباخ برفقة البروفيسور موريارتي، ولكن نعرف لاحقاً أنه زيف موته وعاود الظهور بعد عامين.

رؤيتها وهي تغادر تفوق قدرتي على الاحتمال، كان فرانسيس قريباً منا يشتري لها كتاباً لتقرأه في القطار.

قلت: «لا أريدك أن تغادري».

«وأنا لا أريد الرحيل أيضاً».

«إذن لا ترحلي».

«عليّ ذلك».

وقفنا نتبادل النظرات. كانت تمطر. نظرت إليّ بعينيها التي تشبهان لون المطر.

قلت: «كاميلا، أنا أحبك. دعينا نتزوج».

لم تجب لمدة طويلة، وأخيراً قالت: «ريتشارد، إنك تعلم أنني لا أستطيع».

«ولم لا؟»

«لا أستطيع... لا أستطيع أن أحزم أمتعتي وأرحل إلى كاليفورنيا، جدتي مسنة، ولا تقوى على التحرك بمفردها، إنها بحاجة إلى من يرهاها».

«إذن انسي كاليفورنيا، سأنقل شرقاً مجدداً».

قالت: «ريتشارد، هذا غير ممكن. ماذا عن دراستك؟ وأطروحتك؟».

«لا أهتم بالكلية».

تبادلنا النظرات مدة طويلة، وأخيراً أشاحت بعينيها بعيداً.

قالت: «إنك لا تعلم كيف أقضي حياتي الآن يا ريتشارد. جدتي في حالة سيئة، وأنا بالكاد أستطيع الاعتناء بها وبالمنزل الكبير أيضاً، ليس لديّ أصدقاء، ولا أذكر آخر مرة قرأت فيها كتاباً».

قلت: «سأساعدك».

«لا أريد أن تساعدني»، رفعت رأسها ونظرت إليّ. هزّتي نظرتها بقوة وعذوبة كجرعة مورفين.

قلت: «سوف أجثو على ركبتَي إن أردت ذلك، سأفعل ذلك حقًا».

أغمضت عينيها، كانت تبدو أكبر سنًا، جفناها داكنان، وتحتهما هالات سوداء، لقد شاخت بالفعل، ولم تعد تلك الفتاة ذات العينين المتألفتين التي أحببتها، لكنها كانت لا تزال جميلة، ولكن جمالها الآن لا يشعل حواسي بل يمزق قلبي.

قالت: «لا أستطيع الزواج بك».

«ولم لا؟»

توقعت أن تقول لأنها لا تحبني، وربما كانت تلك هي الحقيقة الصادقة، ولكنها قالت شيئًا غير متوقع: «لأنني أحب هنري».

«لكن هنري مات».

قالت: «لا أستطيع منع نفسي، ما زلت أحبه».

قلت: «أنا أيضًا أحببته».

ظننت أنني شعرت بتردها لحظة، ولكن بعد ذلك أشاحت بعينيها بعيدًا.

قالت: «أعلم أنك أحببته، لكن ذلك لا يكفي».

رافقني المطر في طريقي عودتي إلى كاليفورنيا. كنت أعلم أن الرحيل المفاجئ سيكون أكثر مما أستطيع احتماله. لذلك استأجرت سيارة، وقدرتها طويلًا حتى تغير المشهد، ووصلت أخيرًا إلى الغرب الأوسط. كان المطر آخر ما تبقى لي من قبلة الوداع التي منحني إياها كاميللا.

كانت قطرات المطر تتساقط على زجاج السيارة الأمامي، وإشارة محطات الراديو تتلاشى ثم تعود. الحقول القاتمة تمتد إلى الأفق الرمادي بلا نهاية. ودعتها مرة من قبل، ولكن توديعها هذه المرة استنزف كل ما في داخلي، مثل أورفيوس المسكين الذي استدار ليلقي نظرة أخيرة على شبح محبوبته، ليخسرها إلى الأبد؛ ولهذا تدفقت الدموع في الأصل⁽¹⁾.

أعتقد أنه لم يبقَ إلا أن أروي لكم ما حدث -حسب ما أعلم- لبقية الشخصيات في قصتنا.

من الغريب أن كلوك رايبورن التحق بكلية الحقوق في نهاية المطاف، وهو الآن يعمل محامياً في مجال الاندماج والاستحواذ في شركة محاماة «ميلبانك تويد» في نيويورك. ومن اللافت أن هيو كوركوران أصبح شريكاً في تلك الشركة مؤخراً، ويقال إنه السبب في حصول كلوك على هذه الوظيفة. قد يكون ذلك صحيحاً أو لا، لكنني أميل إلى تصديق الأمر، إذ من المؤكد أن كلوك لم يبرز قط في أي مكان انضم إليه.

يعيش كلوك على مقربة من فرانسيس وبريسيل في شارع 21 في ليكسينغتون، يُقال إن فرانسيس يعيش الآن في شقة فاخرة أهداها له والد بريسيل الذي يعمل في العقارات بمناسبة زفافهما. أخبرني فرانسيس -الذي لا يزال يعاني الأرق- بأنه يصادف كلوك أحياناً في الصباح الباكر في أثناء شرائهما السجائر من متجر البقالة الكوري.

(1) باللاتينية في الأصل.

أما جودي بوفي، فقد أصبحت من المشاهير الصغار، تعمل الآن مدربة أيروبيك، وتظهر بانتظام في برنامج رياضي يُبث على إحدى القنوات بعنوان «حركات القوة»، إلى جانب مجموعة من الفتيات الشابات مفتولات العضلات.

تعاون فرانك وجودي بعد التخرج واشتريا معًا حانة نُزل المزارع، التي أصبحت مكانًا شعبيًا للتجمع في هامبدن، ويبدو أنهما يحققان نجاحًا كبيرًا. يعمل لديهما عدد من سكان هامبدن القدامى مثل جاك تيتلبوم وروني وين وفقًا لمقالة نُشرت مؤخرًا في مجلة الخريجين.

قيل لي إن برام غيرنسي التحق بالقوات الأمريكية الخاصة، لكنني أشك في صحة هذا الخبر.

لا يزال جورج لافورج يدرّس في كلية الأدب واللغات في هامبدن، ولم يتمكن خصومه بعد من عزله من منصبه.

أما الدكتور رولاند فقد تقاعد من التدريس ويعيش الآن في بلدة هامبدن، نشر كتابًا يحتوي على صور فوتوغرافية للكلية على مر السنين، وأصبح يُطلب كثيرًا للتحديث في مناسبات العشاء بالنوادي المحلية. كان السبب في حرمانه من دخول كلية الدراسات العليا عندما كتب لي توصية، مع أنها كانت توصية قوية ومفعمة بالمشاعر، لكنه أشار إليّ مرارًا باسم «جيري» بدلًا من اسمي.

تبين أن القط الوحشي الذي وجده تشارلز حيوان أليف لطيف. أقام مع ميلدريد ابنة عم فرانسيس خلال الصيف، وانتقل معها إلى بوسطن في الخريف، حيث يعيش الآن في شقة فسيحة من عشر غرف في شارع إكستر تحمل اسم «الأميرة».

تزوجت ماريون من برادي كوركوران، ويعيشان الآن في تاريتاون بنيويورك، حيث يمكن لبرادي الذهاب إلى المدينة بالمواصلات بسهولة لأجل عمله. لديهما طفلة، أول فتاة تُولد في عائلة كوركوران منذ أجيال. أخبرني فرانسيس أن السيد كوركوران مغرم بها بشدة، على عكس معاملته القاسية لبقية أبنائه وأحفاده وحيواناته الأليفة، أطلقوا عليها اسم «ماري كاثرين» عند التعميد، ولكنهم أهملوا هذا الاسم تدريجيًا وأصبحوا ينادونها «باني».

أسمع أخبار صوفي من حين إلى آخر، أصيبت ساقها واعتزلت العمل مع فرقة الرقص منذ مدة، لكنها حصلت مؤخرًا على دور كبير في مسرحية استعراضية جديدة. نلتقي أحيانًا لتناول العشاء، وتتصل بي أحيانًا في وقت متأخر من الليل للحديث عن مشكلاتها مع عشيقها. أنا معجب بصوفي، وأعتبرها أقرب أصدقائي هنا، لكنني لم أغفر لها قط أنها جعلتني أعود إلى هذا المكان المنعزل بعد انفصالنا.

لم أشاهد جوليان منذ آخر لقاء لنا في مكتبه مع هنري. تمكن فرانسيس بشق الأنفس من التواصل معه بعد جنازة هنري بيومين، قال إن جوليان استقبله بترحاب واستمع إلى خبر وفاة هنري بأسى، لكنه أجاب ببرود: «أقدر إبلاغي، لكنني لا أعتقد أن هناك ما يمكنني فعله حيال ذلك».

قبل نحو عام أخبرني فرانسيس بشائعة -وجدناها فيما بعد رومانسية تمامًا- مفادها أن جوليان قد عُين معلمًا ملكيًا لولي عهد سواريلاند الصغير في شرق إفريقيا. وعلى الرغم من أن القصة كانت مختلقة، فإنها تركت أثرًا عميقًا في مخيلتي. هل

هناك مصير أفضل لجوليان من أن يصبح مصدر القوة وراء عرش سواريلاند، ويصنع من تلميذه ملكاً فيلسوفاً؟ (كان الأمير في روايتي الخيالية في الثامنة من عمره فحسب. وتساءلت ماذا كنت سأصبح لو أن جوليان تولى تعليمي في تلك السن). لقد أحببت الفكرة، فربما -كما فعل أرسطو- كان جوليان ليُربي رجلاً سيغير العالم.

لكن كما قال فرانسيس، ربما لا يكون الأمر كذلك.

لا أعلم ما الذي حدث للعميل دافنبورت من مكتب التحقيقات الفيدرالي، ربما لا يزال يعيش في ناشوا في نيو هامبشاير، لكن المحقق سيولا توفي بسبب سرطان الرئة منذ ثلاث سنوات. علمت بذلك من إعلان شاهده في ساعة متأخرة من الليل على شاشة التلفاز. ظهر سيولا في الإعلان نحيلاً ووقوراً كأنه دانتي أمام خلفية سوداء، وقال: «عندما تشاهدون هذا الإعلان، سأكون قد فارقت الحياة»، ثم استمر في الحديث قائلاً إن السبب وراء وفاته لم يكن عمله في تطبيق القانون، بل تدخين علبتين من السجائر يومياً.

شاهدت الإعلان في الساعة الثالثة صباحاً وحيداً في شقتي على شاشة تلفاز بالأبيض والأسود يعترها التشويش والتقطعات. بدا لي أن سيولا يخاطبني مباشرة كأنه خرج من الشاشة ووقف أمامي. شعرت بالارتباك والذعر لحظة، هل يمكن لشبح أن يتجسد عبر الأطوال الموجية أو النقاط الإلكترونية؟ ما الموتى في النهاية سوى موجات وطاقة! ضوء ينبعث من نجم ميت.

هذه العبارة بالمناسبة قالها جوليان في إحدى محاضراته عن الإلياذة، عندما تحدث عن تجسد باتروكلوس لأخيل في المنام. حاول أخيل المملوء بالفرح لرؤية صديقه الراحل أن يعانقه، لكن شبّحه تلاشى، قال جوليان إن الموتى يظهرون لنا في الأحلام لأنها الوسيلة الوحيدة التي يستطيعون من خلالها أن يجعلونا نراهم، ما نراه ليس إلا إسقاطاً يشع من مسافة بعيدة، ضوءاً يسطع من نجم ميت.

وهذا يذكرني بحلم راودني قبل بضعة أسابيع.

في الحلم وجدت نفسي أتحول في مدينة قديمة مهجورة، مدينة غريبة أشبه بلندن، قليلة السكان بسبب حرب أو وباء، كان الليل قد حل، والشوارع مظلمة ومهدمة ومهجورة. تجولت وقتاً طويلاً بلا هدف، ومررت بحداثق متهاكة وتماثيل محطمة وأراضٍ مهجورة مغطاة بالعشب وبيوت متداعية بدت عوارضها الصدئة البارزة من جوانبها كأنها أضلاع بشرية. ثم رأيت بين هذه الأطلال القديمة مباني جديدة متصلة بممرات مضاءة ذات تصميم حديث، هياكل ذات هندسة معمارية بدية تترقي متألفة من تحت الأنقاض.

خطوت داخل أحد هذه المباني الجديدة، كان مثل مختبر أو ربما متحف. ترددت أصدااء خطواتي على الأرضيات المبلطة، ورأيت مجموعة من الرجال يدخلون الغليون، يتجمعون حول شيء معروض في صندوق زجاجي، يتوهج في الضوء الخافت ويلقي ضوءه من الأسفل على وجوههم بشكل مخيف. اقتربت أكثر لأرى داخل الصندوق آلة تدور ببطء على قرص دوار، تنزلق أجزاءها

المعدنية وتتداخل لتشكّل صوراً جديدة؛ معبد الإنكا... قرقة...
الأهرامات... البارثي.

التاريخ يتدفق أمام عيني ويتغير في كل لحظة.
فجأة سمعت صوتاً ورائي مباشرة: «توقعت أنني سأجرك
هنا».

كان هنري، ينظر إليّ بثبات في الضوء الخافت.
كان بإمكانني رؤية أثر حرق البارود والثقب الداكن في صدغه
الأيمن فوق أذنه أسفل نظارته. شعرت بالراحة لرؤيته، على
الرغم من أنني لم أكن متفاجئاً تماماً. قلت: «هل تعلم، الجميع
يعتقدون أنك ميت».

نظر هنري إلى الآلة... الكولوسيوم... قرقة... البانشيون.
أجاب: «لم أمت. يمكنك القول إنني أعاني مشكلة صغيرة مع
جواز سفري».
«ماذا؟».

تنحنح وقال: «تحركاتي مقيدة، لم أعد أملك حرية التجول
كما كنت».

مسجد آيا صوفيا... كاتدرائية سانت ماركو في البندقية.
سألته: «ما هذا المكان الذي نحن فيه؟».
«لا أستطيع أن أخبرك، فتلك معلومات سرية».
جلت بعيني بفضول في المكان، يبدو أنني كنت الزائر الوحيد.
قلت: «هل المكان مفتوح للزوار؟»
ردّ قائلاً: «لا، في العادة لا».

نظرت إليه، كانت هناك أسئلة كثيرة أردت أن أسأله عنها،
وأمر كثيرة أردت أن أخبره بها، لكنني شعرت بطريقة ما أن
الوقت ليس كافياً، وأن أي كلام سيبدو خارج الموضوع وبلا أهمية.
قلت أخيراً: «هل أنت سعيد هنا؟»
فكر ملياً قبل أن يجيب: «ليس كثيراً».
ثم أضاف: «لكنك أيضاً لست سعيداً جداً حيث أنت».
كانت الصور تتغير؛ كاتدرائية سانت باسيل في موسكو...
كاتدرائية شارتر... سالزبوري وأميان.
نظر هنري إلى ساعته وقال: «أرجو أن تعذرني، لكنني تأخرت
عن موعد».
استدار وسار مبتعداً، راقبت ظهره وهو يتلاشى في الممر
الطويل المتألي.

مكتبة

t.me/soramnqraa

شكر وتقدير

أود أن أعبر عن امتناني العميق لبينكي أوربان، التي تركتني جهودها العظيمة في إنجاز هذا الكتاب عاجزة عن التعبير بالكلمات، ولسوني ميهتا الذي بفضل رؤيته واهتمامه أصبح كل شيء ممكناً. كما أود أن أشكر غاري فيسكيتجون، وجارث باتيستا، وماري بيهان على صبرهم الدائم معي، الذي أشعرنى أحياناً برغبة في البكاء من الامتنان.

وعلى الرغم من المخاطرة بأن أبدو هنا كأني أكتب قائمة هوميرية للسفن، يجب توجيه الشكر إلى الأشخاص التاليين جميعاً على مساعدتهم وإلهامهم وحبهم: روس دالين، وغريتا إدواردز أنتوني، وكلود فريدريكس، وشيريل جيلمان، وإدنا جولدنيج، وباري هانا، وبن هيرينج. بياتريس هيل، وماري مينتر كروتزر، وأنطوانيت لين، وكايتلين ماك كافري، وجو ماك جينيس، وبول ولويس ماك جلين، ومارك ماك-نايري، وويلي موريس، وإيرين «ماكسفيلد» باريش، وديليا ريد، وباسكال ريتورنر-راب، وجيم وماري روبيسون، وإليزابيث سيليج، ومارك شو، وأوريان سميث، ومورا شبيجل، وريتشارد ستيلويل، وماكينزي ستابينز، ورببيكا تارت، وميني لو طومسون، وأرتورو فيفانتي، وتايلور ويدزال، وأليس ويلش، وتوماس ياركر، وأذكر بالأخص عائلة باوشي العريقة العزيزة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

DONNA TARTT

تحت إشراف وتأثير أستاذ الكلاسيكيات اليونانية القديمة ذي الشخصية الجذابة، تكتشف مجموعة من الطلاب المنبوذين اجتماعيًا وغريب الأطوار في كلية نيو إنجلاند المرموقة أسلوبًا في التفكير والعيش في عالم بمعزل عن الواقع الرتيب لمعاصريهم. ولكن، عندما يتجاوزون حدود الأخلاقيات المتعارف عليها، تتغير حياتهم تغيرًا جذريًا وإلى الأبد، ويكتشفون مدى صعوبة العيش حقًا ومدى سهولة القتل.

التاريخ السري مزيج أخاذ؛ جزء منها تشويق، وجزء منها رواية عن النضوج في كنف الحياة الجامعية، وجزء منها تراجميًا إغريقية معاصرة. تبدأ الرواية بإحدى أكثر الافتتاحيات شهرة في الأدب.. «أخذ الثلج في الجبال يذوب وكانت عدة أسابيع قد مرت على موت باني قبل أن نفهم جسامته موقوفنا..». انطلاقًا من استهلال الكتاب المخيف، نعلم على الفور أن الراوي ريتشارد بابن وأصدقاؤه ارتكبوا جريمة مروعة. القارئ على علم بالسر، ومن هنا فالرواية قصة من جزأين: الأمر الذي أدى إلى وفاة باني، وما يحدث في أعقاب ذلك.

عن المؤلفة

دونا تارت؛ كاتبة أمريكية حازت استحسانًا نقديًا وجماهيرًا منقطع النظير على رواياتها التي نُشرت بأكثر من أربعين لغة. نشرت روايتها الأولى «التاريخ السري» عام 1992. احتلت قوائم الأعلى مبيعًا فور صدورها، وحقت نجاحًا وشهرة قلما حظي بها كاتب على عمل أول. وفي عام 2003، حصلت على جائزة دبليو إتش سميث الأدبية عن روايتها الثانية «الصديق الصغير» التي رُشحت أيضًا لجائزة المرأة في الخيال. فازت بجائزة البوليتزر وميدالية أندرو كارنيجي عام 2013 عن روايتها الثالثة «الحسون». يعد كثير من النقاد دونا تارت تشارلز ديكنز هذا العصر بسبب التشابهات الجلية بين أسلوبيهما.

لا تخلو قائمة من أعظم الكُتّاب الأمريكيين على قيد الحياة من اسم دونا تارت، كما يُقترن اسمها دائمًا بجائزة نوبل في الآداب.